لـي بـاردوغـو

ترجمة: نهى بهمن

LEIGH BARDUGO

ستة من الغربان

SIX OF CROWS



الكاتبة الأكثر مبيعاً - نيويورك تايمز


تليجرام
مكتبة سور الأزبكية

باردغو، لي
ستة من الغربان : رواية / لي باردوغو.
ترجمة: نهى بهمن.
القاهرة: كيان للنشر والتوزيع، 2022.
576 صفحة، 20 سم.
تدمك: 1-116-820-977-978
ا- القصص الأمريكية
أ- نهى بهمن (مترجم)
ب- العنوان: 823
رقم الإيداع: 28246 / 2021
الطبعة الأولى: يناير 2022.

كيان للنشر والتوزيع
إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

٤ ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني- الهرم
هاتف أرضي: 0235918808
هاتف محمول: 01000405450 – 01001872290
بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com
info@kayanpublishing.com
الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

ستة من الغربان

لي باردوغو

رواية

ترجمة : نهى بهمن



كيان للنشر والتوزيع

رواية غريشا

«هـذه الروايـة هـي تحفـة فنيـة تقـدم حبكـة رائعـة وتحـولات مفاجئـة أثـارت إعجـابي مـن البدايـة إلى النهايـة». هـولي بـلاك

الإشادة بالرواية

«تضـم الروايـة جميـع العنـاصر المناسـبة لأسر انتبـاه القـراء؛ قائـدًا ماكـرًا يمتلـك خطـة لـكل شيء، واحتـمالات شـبه مسـتحيلة، وفريقًـا مقاتـلًا ممتعًـا مـن المنبوذيـن البارعـين، وحبكـة مثـيرة، ونهايـة مشـوقة محطمـة للأعصـاب».

مجلة بابليشرز ويكلي؛ مراجعة مميزة بنجمة

«كتـاب مؤثـر يشـد الانتبـاه ويقـدم مجموعـة متعـددة الأعـراق مـن المنبوذيـن ذوي التوجهـات المختلفـة الذيـن يتحولـون بطريقـة مقنعـة وقابلـة للتصديـق إلى عائلـة».

مجلة كيركوس ريفيوز؛ مراجعة مميزة بنجمة

«لقـد تفوقـت باردوغـو عـلى نفسـها في هـذه الروايـة؛ فأقامـت خلفيـة رائعـة لمدينـة كـتردام وزودتهـا بمجموعـة متمرسـة مـن الأوغـاد والمجرمـين. هـذه الروايـة هـي فعـلًا تحفـة فنيـة تقـدم حبكـة رائعـة وتحـولات مفاجئـة أثـارت إعجـابي مـن البدايـة إلى النهايـة».

هولي بلاك

الإشادة بثلاثية غريشا

«حققـت أفضـل المبيعـات حسـب تقديـرات صحيفـة نيويـورك تايمـز، ويبـدو أنهـا تجمـع بـين The Hunger Games (ألعـاب الجـوع) وهاري بوتـر وTwilight (الشـفق) وLord of the Rings (سـيد الخواتـم) و Game of Thrones (لعبـة العـروش). إنهـا فانتازيـا سـحرية ملحميـة ولكنهـا تناسـب الشـباب أيضًـا».

مجلة ستايلست

«إنها تختلف عن أي شيء قرأته من قبل».

فيرونيكا روث؛
مؤلفة ثلاثية Divergent

«مزيج رائع من الفانتازيا والرومانسية والمغامرة».

ريك ريوردان؛
مؤلف سلسلة Percy Jackson (بيرسي جاكسون)

«سـاحرة.. تقـدم باردوغـو تركيبـة تثـير القشـعريرة بسـبب تنوعهـا الجيـد. فهـذا مـا يجـب أن تكـون عليـه الفانتازيـا».

صحيفة نيويورك تايمز

«كانـت Shadow and Bone (ظـلال وعظـام) روايـة سـوداوية ثريـة مقنعـة للغايـة جذبـت اهتمامـي مـن أول كلمـة إلى آخـر كلمـة. لقـد أحببتهـا حقًـا».

نادي الكتاب Teen

«تتبع هذه المغامرة الممتعة التي تناسب الشباب أسلوبًا روسيًا مميزًا ومختلفًا في الفانتازيا الملحمية.. فإنها تعرفنا على عالم رهيب ومقنع ومدروس بعناية إلى جانب لمسة من الرومانسية المؤثرة. تقدم لي باردوغو فانتازيا يمكنك الاستمتاع بقراءتها بكل سهولة».
مجلة SFX (إس إف إكس)

«في هذه الرواية التي تحوي صورًا ثرية وكتابة جميلة خلقت باردوغو عالمًا فانتازيًا واضحًا يعتمد على التقاليد والفولكلور الروسي. فبالتحولات والمنعطفات غير المتوقعة والكثير من الإثارة والرومانسية تقدم مغامرة سريعة ومشوقة إلى جانب قصة متعددة الطبقات لاكتشاف الذات من خلال البطلة الذكية والجذابة التي تجسدها إلينا».
مؤسسة بوكترست Booktrust

«لي كاتبة من الطراز الأول؛ فهي تحب شخصياتها والعالم الذي تعيش فيه هذه الشخصيات، وتجعل القارئ يغار من عدم قدرته على زيارة ذلك العالم. إنها تكتب صفحات ينبعث منها السحر».
شخصية Sister Spooky

إهداء إلى كايتي

السلاح السري والصديقة غير المتوقعة

كتاب غريشا

جنود الجيش الثاني

أسياد التلاعب بالمواد

كوربورالكي

(جماعة الأحياء والموتى)

المتلاعبون بالقلوب/ التنفس)

المعالجون

إيثرالكي

(جماعة المستدعين)

مستحضرو الرياح

مستحضرو النار

مستحضرو الأمواج

ماتريالكي

(جماعة المبتدعين)

المتلاعبون بالمواد

الكيميائيون

الجزء الأول
أعمال في الخفاء

-١-



يواجه جوست مشكلتين: القمر وشاربه.

كان مـن المفـترض أن يقـوم بجـولات حـول منـزل هـودا، لكنـه أخـذ يحـوم بالقـرب مـن الحائـط الجنـوبي الشرقـي للحدائـق خـلال الدقائـق الخمـس عـشرة الأخـيرة في محاولـة منـه للتفكـير في شيء ذكي ورومانـسي يقولـه لآنيـا.

يـا ليـت عينـي آنيـا كانتـا زرقاويـن كالبحـر أو خضراويـن كالزمـرد، ولكنهـما بنيتـان -مثـل الشـيكولاتة الداكنـة الذائبـة الجميلـة والحالمـة، إنهـما مثـل فـرو الأرنـب البنـي!

نصحـه صديقـه بيـتر في وقـت سـابق: «حدثهـا بأنهـا تشـع نـورًا كالقمـر. فالفتيـات يحببـن هـذا».

حـل مثـالي، ولكـن طقـس كـتردام لم يسـاعده، فلـم تـأت نسـمة هـواء واحـدة مـن الميـناء في ذلـك اليـوم، ونـشر الضبـاب القاتـم رطوبتـه فـوق قنـوات المدينـة وفي الأزقـة الملتويـة، وحتـى هنـا بـين منـازل جيلدسـترات انبعثـت مـن الهـواء الثقيـل روائـح السـمك والمـاء الآسـن، وتـرك دخـان مصانـع التكريـر في الجـزر الخارجيـة للمدينـة سـماء الليـل ملطخـة بضبـاب قاتـم، وبـدا القمـر المكتمـل مثـل بـثرة صفـراء تحتـاج إلى الوخـز وليـس كجوهـرة ثمينـة.

ربمـا يسـتطيع الإطـراء عـلى ضحكـة آنيـا؟ ولكنـه لم يسـمعها تضحـك مـن قبـل، ولم يكـن يجيـد إلقـاء النـكات.

ألقـى جوسـت نظـرة خاطفـة عـلى انعـكاس صورتـه عـلى أحـد الألـواح الزجاجيـة الموضوعـة عـلى الأبـواب المزدوجـة، التـي تقـود مـن المنـزل إلى الحديقـة الجانبيـة. كانـت أمـه عـلى حـق، فهـو يبـدو كطفـل

صغير حتى في زيه الرسمي الجديد. أخذ يمسح بإصبعه بلطف فوق شفته العليا، فقط لو يكبر شاربه، شاربه الذي بدا قطعًا أثقل من الأمس.

عمل جوست حارسًا في ستادووتش منذ أقل من ستة أسابيع، ولم يجد العمل مشوقًا كما كان يرجو. اعتقد أنه سيوقع بالسارقين في باريل أو سيقوم بدوريات لحراسة الموانئ ويلقي النظرة الأولى على الشحنات القادمة على أرصفتها، ولكن ومنذ اغتيال ذلك السفير في مبنى البلدية ومجلس التجار يتذمر من الأمن؛ وما الذي قاده ذلك في نهاية المطاف؟ ها هو جوست عالقًا في تلك البقعة ويدور بلا هوادة حول أحد منازل التجار المحظوظين، ولكنه لم يكن أي تاجر. إنه هودا عضو المجلس الذي وصل إلى أعلى مكانة يمكن أن يصل إليها أي رجل في حكومة كتردام. إنه أحد الرجال القادرين على صناعة مسيرة مهنية ناجحة.

عدل جوست من وضع معطفه وبندقيته، ثم ربت على العصا الثقيلة القابعة على خصره. ربما يعجب به هودا حين يلمحه ثانية. وربما يقول هودا: «إن ذلك الفتى حاد البصر وسريع مع الهراوة. هذا الرفيق يستحق ترقية».

همس جوست مستشعرًا طعم الكلمة: «سيرجنت جوست فان بول. كابتن جوست فان بول».

«توقف عن الزهو بنفسك». قطع الصوت حبل خياله.

فاستدار جوست حول نفسه بسرعة، شاعرًا بلهيب يلفح وجهه حين دلف هينك وروتجر إلى الحديقة الجانبية. كان الاثنان أكبر منه سنًا وأضخم جثة وأعرض منه منكبًا، ويعملان حارسين شخصيين لهودا عضو المجلس، ومن ثم يرتديان الزي الأخضر الفاتح المخصص لتلك المهمة، ويحملان بندقية رائعة من نوفي زيم، ولا يتركان فرصة لتذكيره بأنه مجرد حارس حقير من حراس المدينة.

قال روتجر ضاحكًا بشدة: «مداعبتك هذا الزغب الناعم لن

تجعلـه ينمـو بسرعـة يـا جوسـت».

حـاول جوسـت اسـتعادة شيء مـن كرامتـه فقـال: «يجـب أن أنهـي جـولاتي».

وكـز روتجـر هينـك بمرفقـه وقـال: «هـذا يعنـي أنـه سيحشر رأسـه في ورشـة غريشـا ليلقـي نظـرة عـلى تلـك الفتـاة».

فـرد هينـك سـاخرًا: «آوه؛ آنيـا ألـن تسـتخدمي سـحرك لتجعـلي شـاربي ينمـو؟».

دار جوسـت عـلى عقبيـه وهـو لا يـزال يشـعر بلفحـة حارقـة في وجهـه دون أن ينطـق بـشيء، ومـضى عـلى امتـداد الجانـب الشرقـي للمنـزل. إنهـما يضايقانـه منـذ وصولـه. ولـولا آنيـا ربمـا توسـل إلى الكابـتن ليعيـد تكليفـه بمهمـة أخـرى، فإنهـا الـشيء الوحيـد الـذي يهـون عليـه، فـإن الكلـمات القليلـة والمقتضبـة التـي يتبادلهـا جوسـت وآنيـا خـلال جولاتـه، هـي الجـزء الأفضـل في لياليـه دون شـك.

اعـترف جوسـت كذلـك بإعجابـه بمنـزل هـودا، عقـب أن نجـح في اختـلاس نظـرات خاطفـة عـبر نوافـذه. امتلـك هـودا أحـد أفخـم المنـازل في جيلدسـترات عـلى الإطـلاق -منـزلًا فخـمًا تحتـوي أرضياتـه عـلى أحجار مربعـة بيضـاء وسـوداء، وحوائـط خشـبية غامقـة لامعـة تضيئهـا ثريـا ذات زجـاج بنـي تحلـق مثـل قناديـل البحـر بالقـرب مـن الأسـقف المجوفـة. وكـم أحـب جوسـت التظاهـر أحيانًـا بـأن هـذا المنـزل الفخـم منزلـه وأنـه غـدا تاجـرًا ثريًـا يخـرج للتمشـية في حديقتـه الغنـاء.

وقبـل أن يـدور حـول الزاويـة أخـذ نفسًـا عميقًـا وقـال: «آنيـا عينـاك بنيتـان مثـل... لحـاء شـجرة؟»؛ كلا ربمـا عليـه أن يفكـر في شيء آخـر. مـن الأفضـل أن يتـصرف بعفويـة.

تفاجـأ جوسـت لـدى وصولـه برؤيتـه الأبـواب الزجاجيـة لورشـة غريشـا مفتوحـة. كانـت هـذه الورشـة، المكونـة مـن البـلاط الأزرق الفاخـر المدهـون يدويًـا والرفـوف التـي تحمـل أصـص أزهـار التيوليـب، شـاهدة عـلى ثـراء هـودا أكـثر مـن منزلـه الأنيـق. فلـم تكـن عمالـة

غريشا رخيصة الثمن ورغم ذلك يمتلك هودا ثلاثة منها.

ولكنه لم يجد يوري جالسًا على طاولة العمل الطويلة، ولم تظهر آنيا في أي مكان. ليس هناك سوى رتفينكو ممدًا جسده على أحد الكراسي مرتديًا معطفًا أزرق غامقًا وعيناه مغلقتان، بينما ترك كتابًا كان يقرؤه مفتوحًا على صدره.

تمشى جوست في المدخل، ثم ازدرد ريقه قبل أن يقول: «هذه الأبواب يجب أن تكون مغلقة ليلًا».

أجابه رتفينكو دون أن يفتح عينيه بلكنة رافكانية واضحة: «المنزل أشبه بالفرن. أخبر هودا بأنني توقفت عن التعرق وأغلقت الأبواب».

كان رتفينكو من مستحضري الرياح وأكبر عمرًا من عمال غريشا الآخرين، ذا شعر كثيف فضي اللون. وقد ترددت حوله بعض الشائعات بأنه حارب مع الجانب الخاسر في الحرب الأهلية الرافكانية، وأنه فر إلى كيرتش بعد القتال.

قال جوست متهكمًا: «يسعدني أن أقدم شكواك إلى عضو المجلس هودا». دائمًا ما كانوا يبالغون في تدفئة المنزل، كأن هودا مجبر على حرق الفحم، ولكن لم يكن جوست الشخص الذي سينتقده على ذلك لو حتى بمجرد التلميح له، ثم قال: «ولكن حتى ذلك الحين____»

قاطعه رتفينكو وهو يفتح جفنيه الثقيلين في النهاية: «هل جلبت أي أخبار عن يوري؟».

ألقى جوست نظرة انزعاج على أوعية العنب الأحمر وأكوام القطيفة خمرية اللون على طاولة العمل. كان يوري يستخلص اللون من الفاكهة ليصبغ به الستائر من أجل عشيقة السيد هودا، ولكن أصابه مرض شديد منذ بضعة أيام ولم يره جوست منذ ذلك الحين. فبدأت الأتربة تتجمع فوق القطيفة والعفن قد وجد طريقه إلى العنب.

«كلا، لم أسمع أي شيء عنه».

«بالطبع لم تسمع شيئًا، فأنت مشغول للغاية بالتبختر هنا وهناك في هذا الزي الغبي».

ما عيب هذا الزي؟ ولماذا يوجد رتفينكو هنا من الأساس؟ لقد كان مستحضر الرياح الذي يتبع هودا مباشرةً، والذي يسافر مع الشحنات الأكثر قيمة ليضمن وجود رياح مواتية تجلب السفن بسلام وسرعة إلى الميناء. لماذا لا يوجد بعيدًا في البحر الآن؟ ماذا يفعل هنا؟

«إن يوري في الحجر الصحي على أغلب الظن».

قال رتفينكو باستهزاء: «كم أفدتني! توقف عن مد عنقك بحثًا عنها كالإوزة الحالمة»، ثم أضاف: «آنيا ليست هنا، لقد غادرت».

شعر جوست بهبة ساخنة في وجهه مرة أخرى، وسأل بلهجة حاول أن تبدو آمرة: «أين هي؟ يجب أن تكون هنا بعد حلول الظلام».

«أخذها هودا منذ ساعة. مثلما أتى في الليل من أجل يوري».

«ماذا تعني بقولك: «أتى من أجل يوري»؟ إن يوري مريض».

«أتى هودا من أجل يوري، وعاد يوري مريضًا، وبعد ذلك بيومين اختفى يوري إلى الأبد، والآن آنيا».

إلى الأبد؟

«ربما كانت هناك حالة طارئة. ربما هناك من هو بحاجة إلى الشفاء لذلك ــــــــــــــ»

«أولًا يوري والآن آنيا، وبعد ذلك سيأتي دوري ولن يلاحظ أحد اختفائي، باستثناء الحارس الصغير البائس جوست. اذهب الآن».

«لو كان عضو المجلس هودا ــــــــــــــــــ»

رفع رتفينكو ذراعه فضربت رياح قوية جوست ودفعته إلى الوراء. قاوم جوست للبقاء واقفًا على قدميه وأمسك بإطار الباب. «قلت اذهب الآن». رسم رتفينكو دائرة في الهواء فأغلق الباب

بقـوة، وتـرك جوسـت الإطـار في الوقـت المناسـب لـكي لا تتحطـم أصابعـه، سـاقطًا في الحديقـة الجانبيـة.
انتصـب جوسـت واقفًـا بـأسرع مـا يمكنـه، ومسـح الطـين عـن زيـه وقـد اعـتراه الشـعور بالخـزي. تشـقق أحـد الألـواح الزجاجيـة في البـاب مـن قـوة الريـاح، ورأى مـن خلالـه مسـتحضر الريـاح يبتسـم ابتسـامة ماكـرة.
قـال جوسـت وهـو يشـير إلى اللـوح المحطـم: «يعـد هـذا خرقًـا لـشروط عقـدك». كـره جوسـت كيـف بـدا صوتـه خافتًـا وبائسًـا.
لـوح رتفينكـو بيـده فأخـذت الأبـواب تهتـز، فتراجـع جوسـت خطـوة إلى الـوراء دون أن يقصـد.
صاح رتفينكو: «اذهب وقم بجولاتك يا كلب الحراسة الصغير».
قـال روتجـر وهـو يسـتند إلى حائـط الحديقـة: «كـم سـار ذلـك عـلى نحـو جيـد».
سـأله جوسـت: «منـذ متـى وأنـت واقـف هنـا؟ أليـس هنـاك شيء أفضـل تفعلـه سـوى ملاحقتـي؟».
«يجـب أن يحـضر جميـع الحـراس إلى المرفـأ. بمـا في ذلـك أنـت. أم أنـك مشـغول بعقـد الصداقـات؟».
« كنت أطلب منه إغلاق الباب».
هـز روتجـر رأسـه: «لا تطلـب، بـل اؤمـر. إنهـم خـدم، وليسـوا ضيوفًـا مكرمين».
مـضى جوسـت بجـواره شـاعرًا بالمهانـة في قـراره نفسـه. أسـوأ مـا في الأمـر أن روتجـر كان محقًّـا في مـا قـال. لقـد أخطـأ جوسـت بتحدثـه وتباسـطه مـع رتفينكـو بتلـك الطريقـة، ولكـن مـا الـذي كان يفـترض بجوسـت فعلـه؟ فحتـى لـو امتلـك مـن الشـجاعة لمقاتلـة مسـتحضر الريـاح، فسـيكون الأمـر أشـبه بالتشـاجر مـع مزهريـة غاليـة الثمـن. الغريشـا ليسـوا خدمًـا فحسـب؛ بـل إنهـم ممتلـكات هـودا الثمينـة كذلـك.

ولكـن مـاذا يعنـي رتفينكـو بشـأن أخـذ يـوري وآنيـا بعيـدًا؟ هـل يتسـتر عـلى غيـاب آنيـا؟ كانـوا يفرضـون عـلى عـمال غريشـا البقـاء في المنزل لسـبب وجيـه، فـإذا جولـت في الشـوارع بـلا حمايـة يعنـي ذلـك التعـرض للاختطـاف عـلى يـد تجـار الرقيـق، ومـن ثـم فإنـك تخاطـر بـألا يـراك أحـد مـرة أخـرى عـلى الإطـلاق. أخـذ جوسـت يفكـر يائسًـا: «ربمـا تواعـد آنيـا شـخصًا مـا».

قطعـت حبـل أفـكاره شـعلة النـور والنشـاط الدائـر في المرفـأ المواجـه للقنـاة. اسـتطاع جوسـت، عـلى الجانـب الآخـر مـن القنـاة، رؤيـة منـازل التجـار الفخمـة الأخـرى التـي تميـزت بالطـول والرشـاقة، وصنعـت الجملونـات المنظمـة عـلى أسـطحها ظـلًا قاتمًـا لسـماء الليـل، وكانـت حدائقهـا ومرافئهـا مضـاءة بمصابيـح متوهجـة.

قبـل بضعـة أسـابيع علـم جوسـت أن مرفـأ هـودا سـيخضع للتجديـد وأن عليـه اسـتبعاده مـن جولاتـه، ولكنـه عندمـا دخـل هـو وروتجـر إليـه لم يـرَ أي دهانـات أو سـقالات. وجـد الـزوارق والمجاديـف قـد رفعـت ووضعـت بجـوار الحائـط، ورأى حـراس المنـزل الآخريـن هنـاك بزيهـم الأخضـر المـزرق، وتعـرف جوسـت مـن بينهـم عـلى اثنـين مـن حـراس سـتادووتش بزيهـم البنفسـجي، وكان هنـاك كذلـك صنـدوق ضخـم يشـغل معظـم المسـاحة داخـل المرفـأ - وهـو نـوع مـن الزنزانـات المنفـردة التـي بـدا أنهـا مصنوعـة مـن الحديـد الصلـب المقـوى وزواياهـا مليئـة بالمسـامير ومـزودة بنافـذة ضخمـة عـلى أحـد حوائطهـا. واسـتطاع جوسـت عـبر الزجـاج المتمـوج أن يـرى فتـاة تجلـس إلى طاولـة وتشـد ثوبهـا الحريـري عليهـا بقـوة، وخلفهـا يقـف حـارس مـن سـتادووتش بانتبـاه.

عندمـا وقـع بـصر جوسـت عليهـا أدرك أنهـا آنيـا. رأى عينيهـا البنيتـين متسـعتين وخائفتـين وبـدت شـاحبة، وبـدا الصبـي الصغـير الجالـس قبالتهـا خائفًـا أكـثر منهـا. كان شـعره أشـعث ورجـلاه تتدليـان مـن الكـرسي وتضربـان الهـواء بعصبيـة.

تساءل جوست: «ما سبب وجود جميع الحراس هنا؟». اكتظ المرفأ بأكثر من عشرة حراس، وكان عضو المجلس هودا هناك أيضًا إلى جانب تاجر آخر لم يعرفه جوست وارتديا كلاهما ملابس سوداء، وقف جوست بشكل أكثر استقامة عندما رآهما يتحدثان مع كابتن ستادووتش. تمنى جوست لحظتها أن يكون قد أزال جميع بقع الطين التي أصابت زيه. سأل رفيقه «ما هذا، ماذا يحدث هنا؟».

هز روتجر رأسه بلا مبالاة: «ومَن يأبه؟ إنها راحة من العمل الروتيني». نظر جوست مرة أخرى عبر الزجاج. كانت آنيا تتطلع إليه ولكن بنظرات شاردة تائهة. عندما أتى جوست إلى منزل هودا لأول مرة عالجت آنيا كدمة على خده. لم تكن كدمة شديدة؛ مجرد آثار ضربة قوية أصابت وجهه خلال أحد التدريبات، ولكن من الواضح أن هودا رآه ولم يعجبه أن يبدو حراسه كقطاع الطرق، فأرسل جوست إلى ورشة غريشا وأجلسته آنيا في مربع مضيء من نور الشمس في أواخر فصل الشتاء. مرت أصابعها الباردة على جلده، ورغم أن الألم كان موجعًا، فإن الكدمة اختفت بعد ثوان قليلة دون أثر، كأنها لم تكن.

وعندما شكر جوست آنيا وابتسمت له أصابه البؤس، فقد أدرك أن حالته ميئوس منها، فحتى لو أبدت أي اهتمام به لن يستطيع أبدًا أن يشتري عقدها من هودا، ولن تستطيع أن تتزوج أبدًا إلا إذا أصدر هودا موافقته على ذلك، ولكن لم يمنعه هذا عن زيارتها ليلقي عليها التحية أو يقدم لها هدايا بسيطة، وأعجبتها خريطة كيرتش من بين هداياه، وأكثر ما أثار إعجابها حقًّا رسمة خيالية لبلدهم الجزيرة محاطة بالحوريات التي تسبح في بحر الحقيقة، والسفن التي تسيرها الرياح التي تظهر على شكل رجال منتفخي الأوداج. كانت تذكارًا رخيصًا من النوعية التي يشتريها السائحون على امتداد قناة إيست ستيف ولكن بدا كم أسعدتها.

عندئذ خاطر جوست برفع يده لتحيتها، ولكن لم تبد آنيا أي

ردة فعل.

ضحك روتجر: «إنها لا تستطيع رؤيتك أيها الأحمق. إن الزجاج كالمرآة على الجانب الآخر».

توردت وجنتا جوست: «أنى لي أن أعلم هذا؟».

«افتح عينيك وانتبه ولو لمرة واحدة».

«في البداية يوري والآن آنيا. «لماذا يحتاجون إلى معالج غريشا؟ هل هذا الصبي مصاب؟».

« يبدو لي أنه بخير».

بدا أن الكابتن وهودا قد توصلا إلى اتفاق ما.

عبر الزجاج، رأى جوست هودا يدخل الزنزانة ويربت الصبي لتشجيعه. لابد أن هناك فتحات في الزنزانة، لأنه سمع هودا يقول: «كن شجاعًا أيها الفتى فهناك بعض الكروج (عملة كيرتش) بانتظارك»، ثم جذب ذقن آنيا بيده التي تملؤها البقع الجلدية. ظهر التوتر جليًا على وجه آنيا، واعترى جوست شعور بالانزعاج. هز هودا رأس آنيا قليلًا ثم قال: «افعلي ما أمرت به وسوف ينتهي هذا سريعًا، اتفقنا؟».

ابتسمت آنيا ابتسامة باهتة قبل أن تجيب: «بالطبع يا عمي».

همس هودا بكلمات قليلة للحارس الواقف خلف آنيا ثم خرج. أُغلق الباب محدثًا صريرًا عاليًا ووضع قفلًا ثقيلًا على الباب.

اتخذ هودا والتاجر الآخر مكانهما أمام جوست وروتجر مباشرة تقريبًا.

قال التاجر الذي لم يعرفه جوست: «هل أنت متأكد أنه لا مشكلة في ذلك؟ هذه الفتاة من الكوربورالينكي (غريشا ترتكز قواه على الجسد البشري). خاصة بعدما حدث للمبتدع التابع لك ______».

«لو كان رتفينكو لشعرت بالقلق، ولكن آنيا ذات ميول لطيفة. إنها معالجة. لا تميل إلى العدوانية».

«وهل قللت الجرعة؟».
«أجل ولكن يجب أن نتفق على أننا لو وصلنا إلى نفس النتائج التي وصل إليها المبتدع، سوف يعوضني المجلس، فأنا لا أستطيع تحمل تلك التكلفة وحدي».
عندما أومأ التاجر بالموافقة، أشار هودا إلى الكابتن وقال: «تابع الأمر».
نفس النتائج التي وصل إليها المبتدع. أشار رتفينكو إلى أن يوري قد اختفى، فهل هذا قصده بالنتائج؟
قال الكابتن: «أيها الرقيب، هل أنت مستعد؟».
أجاب الحارس داخل الزنزانة: «أجل سيدي»، ثم سحب سكينًا.
ازدرد جوست ريقه بصعوبة.
قال الكابتن: «الاختبار الأول».
انحنى الحارس إلى الأمام وأخبر الصبي بأن يشمر عن ساعده. أطاعه الفتى وشمر عن ذراعه ووضع إبهام يده الأخرى في فمه. قال جوست لنفسه: «إنه ليس صغيراً على فعل ذلك»، ولكن ربما أصاب الصبي خوف شديد. كان جوست ينام مع دمية دب حتى قارب على الرابعة عشرة من عمره، وهي الحقيقة التي جعلت إخوته الكبار لا يتوقفون عن السخرية منه بقسوة.
قال الحارس: «سوف يؤلمك هذا قليلًا».
ترك الصبي إصبعه في فمه وأومأ برأسه وعيناه تدوران.
قالت آنيا: « ليس هذا ضروريًّا________________»
قال هودا: «هدوءًا رجاءً».
ربت الحارس على الصبي، ثم جرح ساعده جرحًا داميًا، فبدأ الصبي في البكاء على الفور.
حاولت آنيا أن تنهض عن كرسيها، ولكن الحارس أوقفها ووضع يده بقوة على كتفها.
قال هودا: «لا بأس أيها الرقيب. دعها تعالجه».

انحنت آنيا إلى الأمام وأمسكت بيد الصبي برفق وقالت بهدوء: «ششش. دعني أساعدك».

قال الصبي وهو يزدرد ريقه: «هل سيؤلم؟».

ابتسمت آنيا وقالت: «لا أبدًا، وخزة دبوس. حاول أن تثبت مكانك من أجلي؟».

انحنى جوست إلى الأمام من تلقاء نفسه، فهو لم ير آنيا تعالج شخصًا ما من قبل.

أخرجت آنيا من كمها منديلًا ومسحت الدماء عن ذراع الصبي، ثم مررت أصابعها برفق على جرح الصبي. أخذ جوست ينظر في دهشة بينما بدا أن الجلد يتشكل من جديد ويلتئم مرة أخرى ببطء.

بعد دقائق قليلة، ابتسم الصبي ورفع ذراعه لأعلى. كانت تبدو حمراء قليلًا ولكنها ملساء وخالية من أي علامات. «هل هذا سحر؟».

نقرت آنيا بإصبعها على أنفه وقالت: «نوعًا ما. نفس السحر الذي يصنعه جسدك عندما يحصل على الوقت المناسب وبعض الضمادات ليشفى».

بدا الصبي محبطًا قليلًا.

قال هودا بنفاد صبر: «جيد جيد، والآن باريم».

قطب جوست حاجبيه. لم يكن قد سمع تلك الكلمة من قبل.

أشار الكابتن إلى الرقيب: «التسلسل الثاني».

قال الرقيب للصبي مرة أخرى: «مد ذراعك».

هز الصبي رأسه وقال: «لا أحب ذلك الجزء».

«هيا مد ذراعك».

ارتعشت شفة الصبي السفلى ولكنه امتثل ومد ذراعه، فجرحه الحارس مرة أخرى، ثم وضع مظروفًا صغيرًا من ورق الشمع على الطاولة أمام آنيا.

فأمر هودا آنيا: «ابتلعي محتويات العبوة».
سألت آنيا بصوت مرتجف: «ما هذا؟».
«هذا ليس شأنك».
كررت آنيا سؤالها: «ما هذا؟».
«هو شيء لن يقتلك يا آنيا. سوف نطلب منك القيام ببعض المهام البسيطة لمعرفة تأثيرات الدواء. ذلك الرقيب هنا لكي يحرص على قيامك بما تؤمرين به ولا شيء آخر، هل فهمت؟».
لم تفهم، ولكنها أومأت برأسها.
قال هودا: «لن يؤذيك أحد، ولكن تذكري إذا آذيت الرقيب لن تخرجي من تلك الزنزانة. فالأبواب مغلقة من الخارج».
همس جوست لرفيقه: «ما هذا الشيء؟».
أجاب روتجر: «لا أعلم».
غمغم جوست: «ما الذي تعرفه عما يدور هنا؟».
«ما يكفي لأغلق فمي».
ظهر العبوس على وجه جوست.
بيدين مرتعشتين أخذت آنيا المظروف الصغير وفتحته.
قال هودا: «استمري».
أمالت آنيا رأسها إلى الوراء وابتلعت المسحوق، ثم جلست للحظة تنتظر وشفتاها مغلقتان.
سألت بصوت يملؤه الأمل: «أليست يوردا فحسب؟»، وجد جوست نفسه يأمل هذا أيضًا. كانت يوردا شيئًا لا يثير الخوف؛ مجرد مادة منبهة يتناولها الجميع في ستاد ووتش للبقاء مستيقظين في ورديات الحراسة المتأخرة.
سأل هودا: «ما مذاقها؟».
«مثل يوردا ولكنها أحلى إنها ــــــــــــ»
شهقت آنيا بحدة، وأمسكت بالطاولة بقوة واتسعت حدقتا عينيها حتى كادتا تبدوان سوداوين، ثم صرخت: «آآه». كان صوتها

أشـبه بصـوت القطـط.

شدد الحارس قبضته على كتفها.

«ما الذي تشعرين به؟».

نظـرت آنيـا إلى المـرآة وابتسـمت. أخرجـت لسـانها عـبر أسـنانها البيضـاء وكان يبـدو صدئـًا، وفجـأة شـعر جوسـت بالـبرودة.

غمغم التاجر: « يحدث لها مثلما حدث مع المبتدع».

قال هودا آمرًا: «عالجي الصبي».

لوحـت آنيـا بيدهـا في الهـواء بإشـارة تشـبه الرفـض، والتـأم الجـرح في ذراع الصبـي عـلى الفـور، وارتفعـت الدمـاء عـن جلـده قليـلًا في شـكل قطـرات حمـراء ثـم اختفـت، وبـدا جلـد الصبـي ناعـمًا ومثاليًـا واختفـى كل أثـر للدمـاء أو الاحمـرار. قـال الصبـي بابتهـاج: «هـذا سـحر بالتأكيـد».

قالت آنيا بابتسامة غريبة: «إنه يبدو سحرًا».

قال الكابتن متعجبًا: «إنها لم تلمسه حتى».

قـال هـودا: «آنيـا؛ اصغـي إلي جيـدًا. سـوف نخـبر الحـراس بإجـراء الاختبـار التـالي الآن».

غمغمت آنيا: «إمممممم».

قال هودا: «أيها الرقيب. اقطع إبهام الصبي».

صرخ الصبـي وبـدأ يبـكي مـرة أخـرى، ووضـع يديـه تحـت رجليـه لحمايتهـما.

أخـذ جوسـت يفكـر: «يجـب أن أوقـف هـذا. يجـب أن أعـثر عـلى طريقـة لحمايتهـا - بـل لحمايـة كليهـما»، ثـم مـاذا؟ إنـه لا أحـد، فأنـا مجـرد حـارس جديـد في سـتادووتش، جديـد وحديـث العهـد بهـذا المنـزل. عـلاوة عـلى ذلـك، شـعر جوسـت بـشيء مـن الخجـل لـدى اكتشـافه حقيقـة أنـه يريـد الاحتفـاظ بوظيفتـه.

اكتفـت آنيـا بالابتسـام ومالـت برأسـها إلى الـوراء لـكي تنظـر إلى الرقيـب، ثـم قالـت: «أطلـق الرصـاص عـلى الزجـاج».

سأل التاجر: «ماذا قالت؟».

صاح الكابتن: «أيها الرقيب».

قالت آنيا مرة أخرى: «أطلق الرصاص على الزجاج». بدا وجه الرقيب متبلدًا، ومال رأسه إلى جانب كأنه يستمع إلى أغنية بعيدة، ثم نزع بندقيته وصوبها باتجاه نافذة المراقبة.

صاح شخص ما: «انخفضوا».

ألقى جوست نفسه على الأرض ووضع يده على رأسه بينما كان الصوت المدوي للطلقات المتسارعة يصم أذنيه، وأجزاء الزجاج المتناثر تقع على يديه وظهره. اختلط الحابل بالنابل في رأس جوست الذي أصابه الذعر، وحاول عقله أن ينكر الأمر ولكنه يعرف ما رآه للتو. لقد أمرت آنيا الحارس بأن يطلق الرصاص على الزجاج. لقد أجبرته على فعل هذا، ولكن هذا غير ممكن. غريشا كوربورالكي متخصصون في الجسد البشري. إنهم يستطيعون إيقاف قلبك أو إبطاء تنفسك أو كسر عظامك، ولكنهم لا يستطيعون العبث بأفكارك والسيطرة على عقلك.

ساد الصمت لحظة، ثم وقف جوست على قدميه مع الجميع ومد يده إلى بندقيته. صاح هودا والكابتن في الوقت نفسه.

«سيطروا عليها».

«أطلقوا عليها الرصاص».

رد هودا: «هل تعلم كم تساوي من المال؟».

«فليوقفها أي شخص! لا تطلقوا الرصاص».

رفعت آنيا يديها؛ فتطايرت أكمامها الحمراء، ثم قالت: «انتظروا».

تبدد الذعر الذي اعترى جوست. علم أنه أصيب بالخوف ولكن خوفه أصبح شيئًا بعيدًا الآن، فما يملأ قلبه في تلك اللحظة هو الترقب. لم يكن متأكدًا مما سيحدث أو وقت حدوثه، ولكنه ينتظر وقوع هذا الشيء الذي ينبغي له الاستعداد له. ربما كان شيئًا سيئًا أو جيدًا. لم يأبه لهذا في الحقيقة. أصبح قلبه خاليًا من

القلـق والرغبـة. لم تعـد بـه لهفـة أو رغبـة في أي شيء. كان عقلـه هادئًـا وتنفسـه منتظـمًا. وليـس عليـه سـوى الانتظـار.

رأى جوسـت آنيـا تنهـض وترفـع الصبـي الصغـير، وسـمعها تدنـدن لـه بحنـان تهويـدة رافكانيـة.

قالـت: «افتـح البـاب وادخـل يـا هـودا». سـمع جوسـت الكلـمات وفهمهـا ونسـيها.

اتجه هودا إلى الباب وفتح القفل، ثم دخل الزنزانة الحديدية.

تمتمـت آنيـا بابتسـامة: «افعـلي مـا أمـرت بـه وسـوف ينتهـي هـذا سريعًـا، اتفقنـا؟». كانـت عيناهـا أشـبه بحفرتـين سـوداوين لا قـاع لهـما، وكان جلدهـا متألقًـا متوهجًـا لامعًـا. خطـرت فكـرة عـلى عقـل جوسـت - إنهـا جميلـة كالقمـر.

غـيَّرت آنيـا وضـع الصبـي عـلى ذراعيهـا وتمتمـت بجانـب شـعره: «لا تنظـر»، ثـم أمـرت هـودا: «والآن. أمسـك السـكين».

-٢-

إيناج

«لم يكن كاز بريكر في حاجة إلى سبب». تلك هي الكلمات التي تدور في شوارع كتردام داخل المشارب والمقاهي وداخل الأزقة المظلمة البائسة، وفي أرجاء مقاطعة السعادة التي تعرف باسم باريل. لم يكن الفتى الذي يطلقون عليه اسم «اليد القذرة» يبيي بحاجة إلى سبب مثلما لم يكن بحاجة إلى إذًا - كي يكسر ساقًا أو يمزق حليفًا أو يغير حظوظ أي شخص حين يكشف أوراقه.

«مخطئون بالطبع». فكرت إيناج بينما تعبر الجسر القابع فوق المياه السوداء لقناة بارس، متجهة صوب الميدان الرئيسي المهجور أمام سوق إكستشينج. فكل عمل عنيف مقصود، وكل عمل عنيف له عدد كافٍ من الخيوط التي تنظم عرض الدمى المتحركة الذي يقوده. ولدى كاز أسبابه دومًا. والتي لم تستطع إيناج التأكد مما إذا كانت أسبابًا وجيهة أم لا. خاصة هذه الليلة تحديدًا.

أخذت إيناج تتفحص سكاكينها وتتلو أسماءها في صمت مثلما تفعل دومًا في الأوقات العصيبة. إنها عادتها العملية والمريحة كذلك. فالشفرات رفيقاتها وتحب التأكد من جاهزيتها لأي أمر ربما تأتي به الليلة.

وبالقرب من قوس الحجر العظيم رأت إيناج كاز والآخرين مجتمعين عند هذا المكان، الذي يعد العلامة المميزة للمدخل الشرقي إلى سوق إكستشينج. بينما حملت الصخرة من فوقهم ثلاث كلمات محفورة: المثابرة، النزاهة، الازدهار.

تمشت إيناج بالقرب من واجهات المحلات المغلقة التي تصطف على جوانب الميدان، متجنبة الأضواء المتراقصة لمصابيح الشوارع.

وأخـذت خـلال اقترابهـا في عـد قائمـة الطاقـم الـذي أحـضره كاز معـه، إنهـم: ديريكـس، وروتي، وموزيـن، وكيـج، وأنيـكا، وبيـم، أمـا اختياراتـه الثانيـة لهـذه الليلـة فهـم بـارلي، وجاسـبر، وبيـج بوليجـر. رأتهـم يتدافعـون ويحتكـون بعضهـم ببعـض ويضحكـون ويضربـون الأرض بأقدامهـم ليتغلبـوا عـلى الـبرودة القارسـة التـي أصابـت المدينـة في هـذا الأسـبوع الأخير للشـتاء قبـل دخـول فصـل الربيـع بالفعـل. إنهـم جميعًـا مـن أصحـاب الكدمـات ومحبـي الشـجارات الذيـن انتقاهـم كاز بعنايـة مـن الأعضـاء الشـباب في عصابـة دريجـز، لأنهـم أكـثر مـن يثـق بهـم. لاحظـت إينـاج بريـق السـكاكين المخبـأة وراء أحزمتهـم والمواسـير المعدنيـة، والسلاسـل الثقيلـة، ومقابـض الفـؤوس المزينـة بمسـامير صدئـة هنـا وهنـاك. تسـللت إينـاج وسـط صفوفهـم في صمـت وأخـذت تفحـص الظـلال بالقـرب مـن سـوق إكستشـينج بحثًـا عـن إشـارة عـلى وجـود جواسـيس بـلاك تيـب.

قـال جاسـبر: «هنـاك ثـلاث سـفن أرسـلتها شـو هـان. إنهـا تقبـع في الميـنـاء الأول، والمدافـع جاهـزة والأعـلام الحمـراء مرفوعـة والسـفن مملـوءة حتـى آخرهـا بالذهـب».

أطلـق بيـج بوليجـر صفـيرًا خافتًـا ثـم قـال: « كـم أود أن أرى تلـك السـفن».

أجـاب جاسـبر: «كـم أود سرقـة تلـك السـفن. يجلـس نصـف مجلـس التجـار هنـاك يثرثـرون ويجعجعـون محاولـين معرفـة مـا يجـب فعلـه».

سأل بيج بوليجر: «ألا يريدون أن تدفع شو هان ديونها؟».

هـز كاز رأسـه؛ فتـلألأ شـعره الداكـن تحـت ضـوء المصبـاح. كان كاز ممشـوق القـوام، ولـه فـك حـاد وبنيـة رشـيقة مرتديًـا معطفًـا صوفيًـا فـوق كتفيـه. قـال بصوتـه الأجـش: «أجـل وكلا. ففـي صالحـك دومًـا وجـود بلـد مديـن لـك. فـإن هـذا مـن شـأنه أن يسـاعدك عـلى إجـراء مفاوضـات أكـثر وديـة».

قـال جاسـبر: «ربمـا سـئمت شـو مـن التـصرف بـودّ. فهـم ليسـوا

مضطريـن إلى إرسـال كل هـذا الكنـز مـرة واحـدة. هـل تعتقـد أنهـم وراء طعنـة سـفير التجـارة الغـادرة تلـك؟».

لم تخفـق عينـا كاز في العثـور عـلى إينـاج وسـط هـذا الحشـد. ضجـت كـتردام بالحديـث عـن اغتيـال السـفير طـوال أسـابيع. الأمـر الـذي كاد يتسـبب في قطـع العلاقـات بـين كيرتـش ونـوفي زيـم، وشـاعت الفوضى في مجلـس التجـار. حيـث ألقـت نـوفي زيـم اللـوم عـلى كيرتـش، وسـاورت كيرتـش الشـكوك في شـو هـان. أمـا كاز فلـم يهتـم بهويـة المسؤول عـن قتلـه؛ فجريمـة القتـل نفسـها هـي مـا أثـار إعجابـه، لأنـه لم يسـتطع اكتشـاف طريقـة تنفيذهـا، ففـي أحـد أكـثر الأروقـة ازدحامًـا في دار البلديـة وعـلى مـرأى مـا يزيـد عـلى دسـتة مـن المسؤولين الحكوميـين، دخـل سـفير التجـارة الزيمـي إلى دورة الميـاه. ولم يدخـل أو يخـرج أي شـخص آخـر. وحـين طـرق مسـاعده البـاب بعـد بضـع دقائـق لم يجـد جوابًـا. وعندمـا كـسروا البـاب وجـدوا السـفير مسـجى عـلى وجهـه فـوق البـلاط الأبيـض وهنـاك سـكين مغروسـة في ظهـره والصنابـير لا تـزال مفتوحـة.

أرسـل كاز إينـاج لفحـص المبنـى بعـد سـاعات مـن الحـادث. لم يكـن هنـاك مدخـل آخـر لـدورة الميـاه، ولم تكـن هنـاك أي نوافـذ أو منافـذ تسـمح بدخـول أو خـروج أحـد. ورغـم مواهـب إينـاج المتعـددة، فإنهـا لم تتقـن ضغـط جسـمها والعبـور خـلال أنابيـب الـصرف. ورغـم ذلـك مـات السـفير الزيمـي. كـره كاز عجـزه عـن حـل هـذا اللغـز؛ لذلـك وضـع هـو وإينـاج مئـات النظريـات التـي تفـسر عمليـة القتـل دون أن يقتنـع بـأي واحـدة منهـا، ولكنهـم الليلـة يواجهـون مشـكلات ملحـة.

أرسـلت إينـاج إلى كاز إشـارة لـكي يتجـرد جاسـبر وبيـج بوليجـر مـن أسـلحتهما. فقـد نـص قانـون الشـارع عـلى أنـه في مثـل هـذه المفاوضـات يتبـع كل مـلازم اثنـان مـن جنـوده المشـاة غـير المسـلحين لإجـراء المفاوضـات. «المفاوضـات». يـا لهـا مـن كلمـة مخادعـة - كلمـة أنيقـة بشـكل غريـب وعتيقـة الطـراز. وبـصرف النظـر عـما ينـص عليـه

قانون الشارع، بدا العنف يلقي بظلاله على أجواء تلك الليلة.
قال ديريكس لجاسبر: «هيا، سلم هذه المسدسات».
تنهد جاسبر بقوة وهو ينزع أحزمة المسدسات عن خصره. ولاحظت إيناج أنه بدا غير مكتمل من دون مسدساته. كان القناص الزيمي طويل الأطراف بني البشرة دائم الحركة. وضع جاسبر شفتيه على المقابض اللؤلؤية لمسدساته الثمينة وطبع على كل واحدة منها قبلة حزينة قبل أن يسلمها.
قال جاسبر بينما يناول مسدساته إلى ديريكس: «اعتنِ بأحبتي. لو رأيت خدشًا أو كسرًا واحدًا في أي منها، فسوف أكتب بطلقات الرصاص سامحني على صدرك».
«ولكنك لا تهدر الذخيرة».
قال بيج بوليجر وهو يلقي بلطة ومدية وسلاحه المفضل -سلسلة سميكة يتعلق بها قفل ثقيل- في يدي روتي المنتظرتين: «وسوف يموت في منتصف كلمة سامح».
رد جاسبر مستنكرًا: «الأمر كله متعلق بالرسالة التي سأكتبها؛ فما الفائدة من قتله وكتابة سامحني فقط على صدره؟».
قال كاز: «هناك حل وسط. قم بحيلتك واستخدم عددًا أقل من الرصاصات».
ضحك ديريكس ولكن إيناج لاحظت أنه يمسك مسدسات جاسبر بكل عناية.
سأل جاسبر وهو يشير إلى العصا التي يتوكأ عليها كاز: «ما هذا؟».
ضحك كاز ضحكة خافتة مجيبًا بجدية: «مَن يحرم الأعرج البائس من عصاه؟».
«إذا كان ذلك الأعرج هو أنت، فسيفعل ذلك أي رجل عاقل».
قال كاز وهو يخرج ساعة من جيب سترته: « خير إذًا أننا سنقابل جيلز. إنها منتصف الليل تقريبًا».

جالت إيناج ببصرها نحو سوق إكستشينج. لم يكن المكان مجرد ساحة مستطيلة الشكل تحيطها المستودعات ومكاتب الشحن فحسب، فخلال النهار يصبح هذا المكان قلب كتردام النابض الذي يعج بالتجار الأثرياء ممن يبيعون ويشترون الأسهم في الرحلات التجارية التي تمر بموانئ المدينة. وقد شارفت الساعة الآن على الثانية عشرة ليلًا وأصبح السوق خاليًا، باستثناء الحراس الذين يقومون بدوريات في محيط المكان وفوق الأسطح. والذين تلقوا رشوة لكي يحولوا أنظارهم إلى الاتجاه الآخر خلال مفاوضات الليلة.

كان سوق إكستشينج أحد الأماكن القليلة الباقية في المدينة التي لم تُقسم ولم يدع أحد ملكيتها خلال المناوشات المتواصلة بين العصابات المتنافسة في كتردام. ومن المفترض أن تكون أرضًا محايدة. ولكنها لم تبد كذلك لـ إيناج. فبدت أشبه بالصمت الذي يسبق العاصفة. إنها تبدو فخًا.

قالت إيناج: «لا أرتاح لذلك». جفل بيج بوليجر الذي لم يعرف أنها تقف هناك. سمعت إيناج الدريجز يتهامسون بالاسم الذي يفضلون إطلاقه عليها - ريث، ثم أكملت: «يضمر جيلز شيئًا لنا الليلة».

قال كاز: «بالطبع». كان صوته خشنًا كصوت كشط الصخور. ودائمًا ما تساءلت إيناج عما إذا كان صوته يبدو هكذا منذ أن كان طفلًا صغيرًا. وتساءلت عما إذا كان طفلًا صغيرًا في يوم من الأيام من الأساس.

« لماذا أتينا إلى هنا إذًا الليلة؟».

«هذا ما يريده بير هاسكيل».

حدثت إيناج نفسها: «إنه رجل عجوز وأساليبه قديمة»، واعتقدت أن الدريجز الآخرين يفكرون في الشيء نفسه.

ثم قالت: «سوف يتسبب في قتلنا جميعًا».

مد جاسبر ذراعيه الطويلتين فوق رأسه وقد ارتسمت تكشيرة

علـى وجهـه، فبـدت أسـنانه البيضـاء مقابـل بشرتـه الداكنـة. لم يكـن مضطـرًّا إلى التخـلي عـن بندقيتـه، وكان ظلهـا عـلى ظهـره يجعلـه أشـبه بطائـر أحمـق طويـل السـاقين.

«من الناحية الإحصائية، ربما يتسبب في قتل بعضنا».

أجابـت إينـاج: «ليـس هـذا شـيئًا نمـزح بشـأنه». ألقـى عليهـا كاز نظـرة يملؤهـا الاسـتمتاع. كانـت إينـاج تعـرف كيـف تبـدو صارمـة سريعـة الانفعـال مثـل امـرأة عجـوز تلقـي آراءهـا المروعـة مـن شرفـة منزلهـا. لم يعجبهـا هـذا، ولكنهـا تـدرك أيضًـا أنهـا محقـة، وعـلاوة عـلى ذلـك مـن المؤكـد أن السـيدات العجائـز يعرفـن شـيئًا، ولـو كان الأمـر غـير ذلـك لمـا عشـن طويـلًا لتظهـر التجاعيـد عـلى وجوههـن ويصحـن مـن عتبـة البـاب.

قال كاز: «جاسبر لا يلقي نكتة يا إيناج. إنه يفكر في الاحتمالات».

قـال بيـج بوليجـر وهـو يطرقـع مفاصـل أصابعـه الضخمـة: «حسـنًا تنتظـرني العجـة ومقـلاة البيـض في كوبـروم، لذلـك لـن أكـون الشـخص الـذي يمـوت الليلـة».

سأل جاسبر: «هل تراهن على ذلك؟».

«لن أراهن على موتي».

وضـع كاز قبعتـه عـلى رأسـه ومـرر أصابعـه التـي يغطيهـا القفـاز عـلى حافتهـا في حركـة سريعـة. «ولِـم لا، يـا بوليجـر؟ إننـا نفعـل ذلـك كل يـوم؟».

كان كاز محقًّـا. فـإن دَيـن إينـاج إلى بـير هاسـكيل يعنـي أن تخاطـر بحياتهـا كلـما قبلـت مهمـة جديـدة وتركـت غرفتهـا في سـلات. ولم تكـن الليلـة مختلفـة عـن أي مهمـة سـابقة.

أخـذ كاز يـضرب بعـكازه الحـصى بينـما بـدأت دار العبـادة تقـرع أجراسـها. ران الصمـت عـلى الجميـع. لقـد انتهـى وقـت التحـدث. قـال كاز: «جيلـز ليـس عبقريًّـا ولكنـه ذكي بمـا فيـه الكفايـة ليسـبب المتاعـب. أيًّـا كان مـا ستسـمعونه لا تنضمـوا إليَّ إلا إذا أعطيـت الأمـر بذلـك.

خذوا حذركم»، ثم أومأ إلى إيناج إيماءة صغيرة. «واختبئوا».
قال جاسبر وهو يلقي بندقيته إلى روتي: «لا حداد».
فتمتم بقية الدريجز ردًا عليه: «لا جنازات»، فيما بينهم كان هذا يعني: «حظًا سعيدًا».
وقبل أن تختفي إيناج وسط الظلال، نقر كاز على ذراعها برأس عصاه التي تشبه الغراب وقال: «استمري في مراقبة حراس الأسطح. فربما وضعهم جيلز في جيبه».
فقالت إيناج: «إذًا ــــــــــــــــــ»، ولكن كان كاز قد ذهب بالفعل.
لوحت إيناج بيديها بشيء من الإحباط. فهناك آلاف الأسئلة التي تدور في رأسها ولكن كاز كعادته لا يقدم الإجابات بسهولة.
ركضت إيناج نحو سور السوق المواجه للقناة. لم يسمح لأحد بالدخول خلال المفاوضات سوى الملازمين ومساعديهم، ولكن لو أضمر البلاك تيبس شيئًا فسوف ينتظرهم الدريجز الآخرون خارج القوس الشرقي بالأسلحة. وعلمت إيناج أن جيلز سيجعل البلاك تيبس المدججين بأسلحة ثقيلة يجتمعون عند المدخل الغربي.
لا رادع لإيناج وسوف تجد طريقة للدخول دون شك. إنها قواعد اللعب النظيف بين العصابات والتي ترجع إلى عهد بير هاسكيل. علاوة على ذلك، إيناج هي الشبح، والقانون الوحيد الذي ينطبق عليها هو الجاذبية، وكانت قادرة في بعض الأحيان على تحديها كذلك.

تم تخصيص المستوى الأرضي من سوق البورصة للمستودعات التي خلت من النوافذ؛ لذلك حددت إيناج موقع أنبوب تصريف يصلح للتسلق. شيء ما جعلها تتردد قبل أن تضع يدها عليه، فأخرجت من جيبها كرة إضاءة ورجتها فانبعث منها ضوء أخضر خافت. وبالفعل وجدت الأنبوب زلقًا بسبب الزيت الذي يغطيه، فسارت بمحاذاة الحائط وبحثت عن خيار آخر، فوجدت في متناول

يدها إفريزًا حجريًا يحمل أحد التماثيل المعروفة في كيرتش، تمثال الثلاث أسماك الطائرة. وقفت إيناج على أطراف أصابعها وأخذت تتحسس بحذر الجانب العلوي للإفريز والذي وجدته مغطى بزجاج خشن، ففكرت إيناج بسعادة ممزوجة بالسخرية: «هناك من ينتظرني».

كانت إيناج قد انضمت إلى الدريجز منذ أقل من عامين، بعد أيام من بلوغها الخامسة عشرة من عمرها. ربما كان الدافع من انضمامها إليهم في بداية الأمر هو الحفاظ على حياتها، ولكنها شعرت بالرضا عندما تيقنت من مهارتها وكيف تمكنت في تلك الفترة القصيرة من فرض شخصيتها، حتى أصبحت شخصًا يحسب له الآخرون ألف حساب ويأخذون حذرهم منه. فلو ظن البلاك تيبس أن مثل هذه الخدع ستعوق الشبح عن الوصول إلى هدفه، فإنهم لسوء حظهم مخطئون.

أخرجت من جيوب سترتها المبطنة اثنين من مسامير التسلق، فثبتت الأول ثم الثاني بين أحجار الحائط، بينما أخذت ترفع نفسها عاليًا لتعثر قدماها الباحثتان على أصغر البروزات والنتوءات في الأحجار. في طفولتها، عندما تعلمت إيناج السير على الحبل في السيرك كانت تمشي حافية القدمين، إلا أن شوارع كتردام قارسة البرودة وعالية الرطوبة على قدميها، وبعد عدد من السقطات المؤلمة دفعت إيناج لأحد مبدعي غريشا الذين يعملون سرًا في أحد المشارب بشارع الخمر ليصنع لها صندلًا جلديًا ذا نعل مطاطي به نتوءات خشنة، فوجدته مناسبًا لقدميها تمامًا ويلتصق بأي سطح بقوة.

تمكنت إيناج لدى بلوغها الطابق الثاني في سوق البورصة من رفع نفسها إلى حافة نافذة عريضة بما يكفي لتجثم عليها.

بذل كاز قصارى جهده لتعليمها، ولكنها لم تتقن تمامًا طريقته في الاقتحام والدخول عبر النوافذ، واحتاجت إلى بعض المحاولات

للتعامل مع القفل، ولكنها في النهاية سمعت صوت تكة القفل التي تبعث السرور وانفتحت النافذة على مكتب مهجور تغطي حوائطه خرائط رسمت عليها طرق التجارة، وسبورات مكتوب عليها أسعار الأسهم وأسماء السفن. دلفت إيناج إلى الداخل وأعادت تثبيت المزلاج لتشق طريقها عبر المكاتب الخالية والأكوام المنظمة للطلبات والحسابات.

اتجهت إلى مجموعة من الأبواب النحيلة العالية، متجهة نحو الشرفة المطلة على الفناء المركزي لسوق البورصة. احتوى كل مكتب من مكاتب الشحن على شرفة مماثلة، حيث يعلن المنادون من خلالها عن الرحلات الجديدة، وعن وصول البضائع، أو يعلقون علمًا أسود يشير إلى فقدان إحداها بحمولتها في البحر. أما الطابق الأرضي في سوق البورصة فيعج بالصفقات وينشر من خلاله المرتادون الأخبار في أرجاء المدينة، ما يؤدي إلى ارتفاع أو هبوط أسعار السلع والعقود الآجلة والأسهم في الرحلات الخارجة، ولكن في تلك الليلة خيم الصمت على المكان.

هبت نسمة هواء من ناحية الميناء محملة برائحة البحر ،فحركت الشعيرات الشاردة التي هربت من الضفائر المعقودة خلف رقبة إيناج، وفي الميدان رأت إيناج الضوء المتراقص لأحد المصابيح، وسمعت خبطات عصا كاز على الأحجار، بينما شق ومساعدوه طريقهم عبر الميدان. وعلى الجانب الآخر، لمحت مجموعة أخرى من المصابيح تتجه نحوهم معلنة عن وصول البلاك تيبس.

تسللت إيناج نحو السور وقفزت في صمت إلى الشرفة المجاورة ثم التي تليها، وهي تتبع كاز والآخرين حول الميدان وتحاول البقاء في أقرب نقطة ممكنة منهم. تموج معطف كاز الغامق مع النسيم المالح، وكان عرجه أكثر وضوحًا الليلة مثلما يحدث دائمًا عندما تشتد برودة الجو. واستطاعت إيناج أن تسمع جاسبر وهو يبقي الحديث مفعمًا بالحيوية بينما يضحك وبيج بوليجر ضحكات

مكتومـة.

وحـين اقتربـت إينـاج أكـثر مـن الجهـة المقابلـة للميـدان، رأت أن جيلز اختـار إلزينجـر وأوومـين ليرافقـاه، تمامًـا كـما توقعـت. كانـت تعـرف نقـاط القـوة والضعـف لـدى كل عضـو في البـلاك تيبـس، بالإضافـة إلى هـارلي بوينـترز وليديـز وريزجولـز وديـم ليونـز وكل العصابـات الأخـرى التـي تعمـل في شـوارع كـتردام. فـرض عملهـا عليهـا أن تعـرف أن جيلـز يثـق بــ إلزينجـر لأنهـما ارتقيـا صفوف البـلاك تيبـس معًـا، ولأن إلزينجر كان ضخـم الجثـة -طولـه سـبعة أقـدام تقريبًـا يمتلـك عضـلات مفتولـة ووجهًـا عريضًـا مسـطحًا فـوق رقبـة قصـيرة وغليظـة مثـل بـرج.

غمـرت إينـاج بسـعادة مفاجئـة لوجـود بيـج بوليجـر برفقـة كاز. أمـا اختيـاره لجاسـبر كأحـد مسـاعديه فلـم يكـن مفاجئًـا لهـا، فهـو معـروف بتعصبـه لـكاز وبذلـه قصـارى جهـده في أي شـجار، وكانـت تعلـم أنـه مسـتعد لفعـل أي شيء مـن أجـل كاز، ولكنهـا بـدت أكـثر اطمئنانًـا لإصرار كاز عـلى اصطحـاب بيـج بوليجـر أيضًـا. عمـل بيـج بـول حارسًـا في نـادي الغـراب وكان اختيـارًا مثاليًـا لطـرد السـكارى والمتشرديـن، إلا أن بطنـه الشـديد يحـد مـن قدراتـه الفعليـة حـين يتعلـق الأمـر بشـجار حقيقـي. ولكنـه عـلى الأقـل طويـل بمـا يكفـي للنظـر إلى عينـي إلزينجر.

لم ترغـب إينـاج في التفكـير كثـيرًا في المسـاعد الآخـر لجيلـز. فمجـرد التفكـير في أوومـين يصيبهـا بالتوتـر، ليـس لأنـه يتمتـع بمظهـر مخيـف مثـل إلزينجـر، حيـث كان أوومـين، في واقـع الأمـر، أشـبه بالفزاعـة- فلـم يكـن هزيـلًا بالمعنـى الحـرفي للكلمـة ولكـن بـدا أن أجـزاء جسـده قـد وضعـت معًـا بزوايـا خاطئـة، ولكـن لأن هنـاك شـائعة تقـول إنـه ذات مـرة هشـم جمجمـة رجـل بيديـه العاريتـين ومسـح كفيـه في واجهـة قميصـه ثـم أكمـل تنـاول مشروبـه.

حاولـت إينـاج تهدئـة الأفـكار المضطربـة التـي جاشـت بداخلهـا، وأخـذت تسـتمع إلى جيلـز وكاز وهـما يجريـان حديثًـا قصـيرًا في الميـدان بينـما يفتـش مسـاعدوهم أحدهـم الآخـر للتأكـد مـن عـدم وجـود أي

سـلاح.

قـال جاسـبر وهـو يبعـد سـكينًا صغـيرة مـن كـم إلزينجـر ويرميهـا بعيـدًا عـبر الميـدان: «يـا لـك مـن مشـاغب».

وقـال بيـج بوليجـر عندمـا انتهـى مـن تفتيـش جيلـز وانتقـل إلى أوومـين: «أمـان».

تحـدث كاز وجيلـز عـن أحـوال الطقـس وعـن الشـك في أن كوبـروم تقـدم مشروبـات مخففـة، مـا تسـبب في ارتفـاع الإيجـار - أخـذ كلاهـما يلتفـان حـول السـبب الحقيقـي لاجتماعهـما الليلـة. والمفـترض مـن الناحيـة النظريـة أن يدردشـا قليـلًا ويقدمـا الاعتـذارات ويوافقـا عـلى احـترام حـدود المينـاء الخامـس، ليخـرج الجميـع لتنـاول مـشروب معًـا - عـلى الأقـل هـذا مـا كان بـير هاسـكيل يـصر عليـه.

فكـرت إينـاج: «ولكـن مـا الـذي يعرفـه بـير هاسـكيل؟» بينـما كانـت تتطلـع إلى الحـراس الـذي يقومـون بدوريـة فـوق السـطح وتحـاول التعـرف عـلى أشـكالهم في الظـلام. يديـر هاسـكيل عصابـة دريجـز، ولكنـه يفضـل هـذه الأيـام الجلـوس في غرفتـه الدافئـة وتنـاول الجعـة السـاخنة وبنـاء نمـاذج السـفن وروايـة قصـص طويلـة عـن أعمالـه البطوليـة لأي شـخص قـد يسـتمع إليـه، ويبـدو أنـه يؤمـن بإمكانيـة إنهـاء الحـروب عـلى غـرار الطريقـة القديمـة: شـجار صغـير ومصافحـة وديـة، إلا أن جميـع حـواس إينـاج قـد أخبرتهـا بـأن الأمـور لـن تسـير عـلى هـذا النحـو. لـو كان أبوهـا هنـا لأخبرهـا أن الليلـة مظلمـة وسـيقع مـا يسـوء.

وقـف كاز واضعًـا يديـه الاثنتـين عـلى الغـراب المنقـوش فـوق رأس عصـاه. بـدا مطمئنًـا للغايـة بينـما أخفـت حافـة قبعتـه وجهـه النحيـل. يحـب معظـم أفـراد العصابـات في باريـل التفاخـر: يرتـدون صديريـات مبهرجـة، وسـاعات جيـب مزينـة بجواهـر مقلـدة، وسراويـل مـن كل الأشـكال التـي يمكـن تخيلهـا. كاز هـو الاسـتثناء لهـذه القاعـدة - كان تجسـيدًا لضبـط النفـس؛ فكانـت سراويلـه وصديرياتـه الغامقـة مفصلـة

ببساطة شديدة، اعتقدت إيناج في البداية أنها مسألة ذوق ولكنها أدركت بعد ذلك أنها حيلة يمارسها مع التجار الشرفاء ليستمتع بأن يبدو كواحد منهم.

حدثها من قبل «أنا رجل أعمال. لا أكثر ولا أقل».

«كاز أنت لص».

«أليس هذا ما قلته بالضبط؟».

بدا مثل شخص ملتزم أتى ليلقي موعظته على مجموعة من العاملين في السيرك، فكرت إيناج وهي تشعر بشيء من الضيق: « شاب ملتزم». طالما وصف كاز غريمه جيلز بأنه عجوز فقد مهارته، ولكنه لم يبدُ كذلك تلك الليلة. ربما ظهرت التجاعيد على وجه ملازم البلاك تيبس وانتفخت وجنتاه تحت سوالفه، ولكنه بدا واثقًا متمرسًا، أما كاز فبدا بجواره.. حسنًا، في السابعة عشرة من العمر.

قال جيلز وهو ينقر على الأزرار اللامعة ذات اللون الأخضر الليموني فوق صديريته: «لنكن منصفين، اتفقنا؟ فكل ما نريده هو مساحة إضافية صغيرة، فليس من العدل أن تحصلوا على كل سائح محب للإنفاق يخرج من أي قارب من قوارب النزهة في الميناء الخامس».

«الميناء الخامس ملكنا، جيلز. ويحصل الدريجز على الفرصة الأولى مع الحمقى الذين يأتون بحثًا عن بعض المرح».

هز جيلز رأسه وقال بضحكة متسامحة: «أنت شاب صغير بريكر. وربما لا تعرف كيف تسير الأمور. الموانئ كلها جزء من المدينة ومن حقنا أن نستفيد منها مثل أي شخص آخر. هناك أفواه يجب أن نطعمها».

كان كلام جيلز صحيحًا من الناحية النظرية، ولكن عندما تولى كاز الأمور كان الميناء الخامس بلا قيمة تذكر، لدرجة دفعت المدينة إلى التخلي عنه تمامًا، فجرف كاز أرضه وبنى أحواض السفن

والأرصفة، واضطر من أجل القيام بهذا إلى رهن نادي الغراب. نهره بير هاسكيل حينها ووصفه بالأحمق عندما علم بالتكاليف، ولكنه رضخ في النهاية. حسب رواية كاز قال له العجوز نصًّا: «خذ هذا الحبل واشنق به نفسك»، ولكن أتت هذه الجهود بثمارها في أقل من عام، والآن يقدم الميناء الخامس المراسي لسفن التجار إلى جانب القوارب التي تأتي من جميع أرجاء العالم محملة بالسائحين والجنود، الذين يشتهون رؤية المناظر الجميلة ومعاينة مباهج كتردام. يأخذ الدريجز فرصتهم الأولى معهم جميعًا فيوجهونهم -ومحافظهم- إلى البيوت سيئة السمعة والمشارب وأوكار اللهو التي تمتلكها العصابة، وأصبح الميناء الخامس سببًا في الثراء الشديد الذي هطل على الرجل العجوز، وفي تحويل الدريجز إلى لاعبين حقيقيين في منطقة باريل على نحو لم يحققه نجاح نادي الغراب من قبل، ولكن مع الأرباح أتى الاهتمام غير المطلوب، حيث تسبب جيلز والبلاك تيبس في الكثير من المتاعب للدريجز طوال العام السابق، فكانوا يتعدون على الميناء الخامس ويأخذون سذجًا لا يحق لهم أخذهم.

ردد كاز قائلًا: «الميناء الخامس ملكنا. وهذا أمر غير قابل للتفاوض. أنتم تعوقون حركة المرور من الأرصفة وتعترضون شحنة اليوردا التي كان يجب أن ترسو على الرصيف منذ ليلتين».

«لا أعلم ما تتحدث عنه».

«أعرف أن هذه أمور يسهل عليكم فعلها يا جيلز، ولكن حاول ألا تلعب معي دور الغبي».

أخذ جيلز خطوة إلى الأمام، فشعر جاسبر وبيج بوليجر بالتوتر.

قال جيلز: «توقف عن المراوغة أيها الصبي. جميعنا يعرف أن معدة الرجل العجوز لا تتحمل الدخول في شجار حقيقي».

كانت ضحكة كاز جافة كحفيف الأوراق الميتة، وقال: «ولكني الرجل الذي يجلس على مائدتك يا جيلز، ولست هنا من أجل

الفتـات. إن كنـت تريدهـا حربًـا فسـتكون أنـت حطبهـا».

«ومـا الـذي سـيحدث إن مسـحتك مـن الوجـود يـا بريكـر؟ يعلـم الجميـع أنـك العمـود الفقـري لعمليـات هاسـكيل- انزعـه وسـوف تنهـار الدريجـز».

قـال جاسـر بصـوت كالشـخير: «المعـدة والعمـود الفقـري. مـا التـالي؟ الطحال؟».

فقـال أوومـين مزمجـرًا: «أغلـق فمـك». كانـت قوانـين التفـاوض تفـرض أن يقتـصر الحديـث عـلى الملازمـين فقـط حالمـا تبـدأ المفاوضـات، فقـال جاسـر: «عـذرًا» ومثـل في صمـت مطبقًـا شـفتيه.

قـال كاز: «أنـا عـلى يقـين تـام مـن تهديـدك لي يـا جيلـز، ولكنـي أريـد التأكـد قبـل أن أقـرر مـا سـأفعله».

«واثق بنفسك، أليس كذلك يا بريكر؟».

«نفسي ولا شيء آخر».

انفجـر جيلـز ضاحـكًا ووكـز أوومـين بمرفقـه وقـال: «اسـتمع إلى هـذا القـذر المغـرور. بريكـر أنـت لا تمتلـك هـذه الشـوارع. الأطفـال مثلـك كالبراغيـث. كل بضعـة أعـوام تظهـر مجموعـة جديـدة منكـم لتثـير ضيـق أسـيادها، حتـى يقـرر كلـب كبـير أن يحـك جسـده للتخلـص منهـا. دعنـي أخبرك لقـد سـئمت الشـعور بالحكـة». عقـد جيلـز ذراعيه والسـعادة باديـة عـلى وجهـه. «مـاذا لـو أخبرتـك بـأن هنـاك اثنـين مـن حـراس المدينـة معهـما بنـادق مصوبـة باتجاهـك أنـت وفتيانـك الآن؟».

سـقط قلـب إينـاج بـين قدميهـا. هـل هـذا مـا قصـده كاز عندمـا تحـدث عـن أن جيلـز ربمـا وضـع الحـراس في جيبـه؟ ألقـى كاز نظـرة سريعـة عـلى الأسـطح ثـم قـال: «اسـتأجرت حـراس المدينـة للقتـل مـن أجلـك؟ أرى أنـه أمـر باهـظ الثمـن عـلى عصابـة مثـل البـلاك تيبـس. أعتقـد أن خزائنـك لا تسـتطيع دفـع هـذا الثمـن».

تسـلقت إينـاج عـلى السـور وتخلـت عـن الأمـان الـذي حظيـت بـه بجـوار الشرفـة واتجهـت نحـو السـطح. لـو نجـوا الليلـة فسـوف تقتـل

كاز.

دائمًا ما يكون هناك حارسان من حراس المدينة فوق سطح سوق البورصة، بعض الكروج من الدريجز والبلاك تيبس لضمان عدم تدخلهما في المفاوضات، وهو أمر شائع الحدوث، ولكن كان جيلز يتحدث عن شيء مختلف جدًّا. هل استطاع أن يرشو حراس المدينة كي يقنصوه؟ إن كان الأمر كذلك فإن احتمالات نجاة الدريجز هذه الليلة قد هبطت للتو إلى الصفر.

مثل معظم المباني في كتردام، كان هناك سطح جملون فوق سوق البورصة للوقاية من المطر الثقيل، لذلك كان الحراس يقومون بدورياتهم على ممشى ضيق يطل على الفناء. تجاهلت إيناج هذا الممشى. كان هذا الطريق الأسهل ولكنه يجعلها مكشوفة للغاية. بدلًا من ذلك تسلقت نصف الطريق على بلاط السقف الأملس وبدأت الزحف، وأصبح جسدها مائلًا بزاوية خطيرة وهي تتحرك مثل العنكبوت، وتضع عينًا على ممشى الحراس وأذنًا على الحديث الدائر بالأسفل. ربما كان جيلز يخادعهم. أو ربما كان الحارسان يميلان على السور الآن ويضعان كاز أو جاسبر أو بيج بوليجر نصب أعينهما.

اعترف جيلز قائلًا: «أجل لم يكن ذلك بالأمر السهل ولا يأتي حراس المدينة لمهمة مثل تلك بثمن بخس، ولكن الجائزة تستحق كل هذا العناء».

«أتقصدني أنا؟».

«أقصدك أنت».

«أشعر بالإطراء».

«لن يصمد الدريجز أسبوعًا من دونك».

«سوف أمنحهم شهرًا بالقصور الذاتي الكلي».

دوت الفكرة في رأس إيناج: «ماذا لو مات كاز، هل سأبقى مع الدريجز؟ هل سأتوقف عن سداد ديني؟ هل سأجرب حظي مع

قتلـة هاسـكيل؟» إذا لم تتحـرك بسرعـة أكـبر، فربمـا تكتشـف إجابـة هـذه الأسـئلة.

قـال جيلـز وهـو يضحـك مـلء فيـه: «يـا لـك مـن فـأر صغـير فقـير متعجـرف. لا يسـعني الانتظـار لمسـح تلـك النظـرة السـاخرة عـن وجهـك».

فقـال كاز: «فلتفعلهـا إذًا». ألقـت إينـاج نظـرة إلى الأسـفل. لقـد تغـير صوتـه واختفـى منـه كل أثـر للدعابـة.

«هل أجعلهما يصوبان رصاصة على رجلك السليمة، بريكر؟».

تسـاءلت إينـاج وهـي تزيـد مـن سرعتهـا: «أيـن الحارسـان؟» وأخـذت تـسرع عـبر الجانـب المائـل لسـقف الجملـون. كانـت سـوق البورصـة تمتـد تقريبًـا بطـول كتلـة سـكنية في المدينـة، إنهـا مسـافة كبـيرة عليهـا تجاوزهـا.

«توقف عن التحدث جيلز. مرهم أن يطلقوا الرصاص».

قال جاسبر بعصبية: «كاز ـــــــــــــــــــ».

«هيا. أرني شجاعتك وأعطِ الأمر».

مـا اللعبـة التـي يمارسـها كاز؟ هـل كان يتوقـع هـذا؟ أم هـل يفـترض أن إينـاج سـتعثر عـلى الحارسـين في الوقـت المناسـب؟

نظـرت إينـاج إلى أسـفل مـرة أخـرى. كان الترقـب باديًـا عـلى وجـه جيلـز. أخـذ نفسًـا عميقًـا فارتفـع صـدره. تعـثرت خطـوات إينـاج وبذلـت كل مـا بوسـعها لـكي لا تنزلـق عـن حافـة السـطح. حدثـت نفسـها: «سـوف يفعلهـا. سـأكون شـاهدة عـلى مـوت كاز بـأم عينـي».

صاح جيلز: «أطلق الرصاص».

فشـقت طلقـة رصـاص الهـواء، ليطلـق بيـج بوليجـر صرخـة مدويـة قبـل أن يتكـوم عـلى الأرض.

صـاح جاسـبر: «اللعنـة» ونـزل عـلى ركبـة واحـدة بجانـب بوليجـر وضغـط بيـده عـلى الجـرح الـذي خلفتـه الرصاصـة، بينـما أخـذ الرجـل الضخـم يـئن ألمًـا، وصـاح في جيلـز: «أيهـا البديـن الحقـير! لقـد انتهكـت

حرمـة الأرض المحايـدة».
فأجـاب: «مَـن سـيزعم أنكـم لم تطلقـوا الرصـاص أولًا، ومَـن سـيعلم الحقيقـة؟ لـن يخـرج أي منكـم مـن هنـا عـلى قدميـه».
ارتفـع صـوت جيلـز عاليًـا للغايـة محـاولًا الحفـاظ عـلى رباطـة جأشـه، ولكـن إينـاج شـعرت بالذعـر ينبعـث مـن كلماتـه رغـم محاولتـه التظاهـر بالهـدوء، بـدت كلماتـه أشـبه برفرفـة مضطربـة لطائـر خائـف. لمـاذا يشـعر بهـذا الخـوف؟ لقـد انتفـخ غـرورًا قبـل لحظـات قليلـة.
قـال كاز: «لا تبـدو بخـير جيلـز». عندئـذ أدركـت إينـاج أن كاز مـا زال واقفًـا مكانه.
فـرد جيلـز: «إننـي بخـير»، ولكنـه لم يكـن كذلـك. بدا شـاحبًا ومهـزوزًا. أخـذت عينـاه تقفـزان يمينًـا ويسـارًا كأنـه يبحـث عـن شيء في الممـشى المظلـم عـلى السـطح.
سـأله كاز: «هـل أنـت بخـير حقًـا؟ يبـدو أن الأمـور لا تسـير كـما خططـت لهـا، أليـس كذلـك؟».
قال جاسبر: «كاز إنه ينزف بشدة ــــــــــــــــ»
فرد كاز وهو يتجاهله: «جيد».
«كاز، إنه يحتاج إلى عناية طبية».
لم يعـر كاز الرجـل المجـروح أدنى اهتـمام: «مـا يحتـاج إليـه هـو أن يتحمـل آلام بطنـه ويشـعر بالسـرور لأننـي لم أجعـل هولسـت يرديـه قتيـلًا بطلقـة في الـرأس».
رغـم المسـافة التـي فصلـت إينـاج عنهـم كونهـا في الأعـلى، فإنهـا رأت جيلـز ينتفـض فزعًـا.
سـأل كاز: «هولسـت هـو اسـم الحـارس الـذي اتفقـت معـه، أليـس كذلـك؟ ويليـام هولسـت وبـيرت فـان دال- الحارسـان اللـذان يعمـلان الليلـة. الاثنـان اللـذان أفرغـت خزائـن البـلاك تيبـس لرشـوتهما؟».
لم ينبس جيلز ببنت شفة.
صـاح كاز عاليًـا ليصـل صوتـه إلى السـطح: «ويليـام هولسـت يحـب

المقامـرة بقـدر جاسـر، لذلـك بـدت أموالـك جذابـة للغايـة بالنسـبة إليـه، ولكـن هولسـت يواجـه مشـكلات أكـبر مـن المـال - لنطلـق عليهـا دوافـع سريـة. لـن أذكـر أي تفاصيـل عنهـا، فليسـت الأسرار مثـل المـال. إنهـا لا تحتفـظ بقيمتهـا عنـد إفشـائها، ويجـب أن تثـق بي عندمـا أخـبرك بـأن هـذا الـسر سـيصيبك بالاشـمئزاز الشـديد. أليـس هـذا صحيحًـا، يـا هولسـت؟».

جـاء الـرد في شـكل طلقـة أخـرى أصابـت الحـصى بالقـرب مـن قدمـي جيلـز، فأطلـق جيلـز صرخـة فزعـة وقفـز إلى الخلـف.

هـذه المـرة حصلـت إينـاج عـلى فرصـة أفضـل لتتبـع مصـدر إطـلاق الرصـاص. أتـت الطلقـة مـن مـكان قريـب مـن الجانـب الغـربي مـن المبنـى. لـو يقـف هولسـت هنـاك، فهـذا يعنـي أن الحـارس الآخـر -بـيرت فـان دال- سـيكون عـلى الجانـب الشرقـي. ولكـن هـل استماله كاز أيضًـا؟ أم يعتمـد عليهـا؟ أسرعـت إينـاج في تحركهـا عـلى السـطح.

صـاح جيلـز وقـد ظهـر اليـأس جليًـا في صوتـه: «أطلـق الرصـاص هولسـت. أطلقـه عـلى رأسـه».

صـاح كاز باشـمئزاز: «وهـل تعتقـد أن الـسر سـيموت معـي؟ حسـنًا هولسـت. أرسـل رصاصتـك إلى جمجمتـي، وسـيهرع الرسـل إلى زوجتـك وقائـد مناوبتـك قبـل أن أصـل إلى الأرض».

لم يحدث شيء.

قـال جيلـز بمـرارة: «كيـف ذلـك؟ كيـف عرفـت هويـة المناوبـين الليلـة؟ لقـد اضطـررت إلى دفـع مبلـغ كبـير لـكي أحصـل عـلى قائمـة الأسـماء. ليـس بمقـدورك أن تقـدم عرضًـا أعـلى منـي».

«لنقل إن عملتي أكثر قوة من عملتك».

«المال يظل مالًا».

«إننـي أقايـض المعلومـات والأسرار يـا جيلـز، أقايـض الأشـياء التـي يفعلهـا الرجـال سرًا عندمـا يعتقـدون أنهـم بعيـدون عـن أنظـار النـاس. العـار أكـثر قيمـة مـن المـال».

أدركـت إينـاج أن كاز يتـصرف بطريقـة تشـتت الانتبـاه كي يمنحهـا المزيـد مـن الوقـت بينـما كانـت تقفـز عـلى ألـواح السـطح.

سـأل كاز: «هـل تشـعر بالقلـق حيـال الحـارس الثـاني؟ بـيرت فـان دال العجـوز الطيـب؟ ربمـا تفكـر في مـا يجـب عليـه فعلـه الآن. هـل يطلـق عـليَّ الرصـاص؟ أم هـل يطلقـه عـلى هولسـت؟ أو ربمـا وصلـت إليـه أيضًـا ويسـتعد الآن لإحـداث ثقـب في صـدرك يـا جيلـز». مـال كاز نحـو جيلـز كأنهـما يتشـاركان سرًّا كبـيرًا ثـم قـال: «لِمَ لا تعطـي فـان دال الأمـر وتكتشـف بنفسـك؟».

فتح جيلز فمه وأغلقه مثل الأبله ثم صاح: «فان دال!».

وبينـما أوشـك فـان دال عـلى فتـح فمـه ليجيـب، قفـزت إينـاج وراءه واضعـة سـكينًا عـلى حلقـه، وصلـت إينـاج في اللحظـة الأخـيرة واسـتطاعت تمييـز ظلـه والانـزلاق عـلى بـلاط السـطح. وكـم يحـب كاز الوصـول في اللحظـات الأخـيرة.

همسـت إينـاج في إذًا فـان دال: «شششـش»، ووكزتـه في جانبـه وكـزة صغـيرة كي يشـعر بـرأس الخنجـر الثـاني الـذي يضغـط عـلى كليتـه.

تأوه فان دال قائلًا: «أرجوك. أنا ــــــــ».

فقالـت إينـاج: «كـم أحـب توسـل الرجـال، ولكـن ليـس هـذا الوقـت المناسـب لهـذا».

اسـتطاعت أن تـرى بالأسـفل صـدر جيلـز يعلـو ويهبـط بأنفـاس مذعـورة. صـاح جيلـز مـرة أخـرى: «فـان دال». ظهـر الغضـب الشـديد عـلى وجهـه عندمـا التفـت إلى كاز وقـال: «دائمًـا مـا تسـبق الآخريـن بخطـوة، أليـس كذلـك؟».

«جيلز، حين يتعلق الأمر بك فأنا أسبقك كثيرًا وليس بخطوة».

اكتفـى جيلـز بالابتسـام- ابتسـامة رضـا هادئـة. وأدركـت إينـاج حينهـا أنهـا ابتسـامة منتصر.

قـال جيلـز وهـو يمـد يـده إلى سـترته ويخـرج منهـا مسدسًـا أسـود ثقيـلًا: «لم ينتـه السـباق بعـد».

قال كاز: «وأخيرًا. انكشف السر الكبير، والآن يستطيع جاسبر التوقف عن النحيب على بوليجر كامرأة بكاءة».

حدق جاسبر إلى المسدس بعينين تملؤهما الدهشة والغضب، وقال بصوت يشوبه الأسى: «لقد فتشه بوليجر. إنه.. آه بيج بول أيها الأحمق».

لم تصدق إيناج ما تراه. أطلق الحارس الذي تمسك به صرخة خافتة حين أحكمت قبضتها عليه دون قصد بسبب شعورها بالغضب والدهشة. قالت إيناج: «اهدأ» وهي تخفف من قوة قبضتها عليه، ولكن كم ترغب في غرز سكينها في شيء ما. ما هذا بحق السماء؟ كان بيج بوليجر من قام بتفتيش جيلز، ومن المستحيل ألا يلاحظ هذا المسدس. لقد خانهم.

هل هذا هو سبب إصرار كاز على إحضار بيج بوليجر هنا الليلة - ليتأكد من انقلابه عليهم وانضمامه إلى البلاك تيبس؟ من المؤكد أن هذا ما دفع كاز إلى توجيه هولست بإطلاق الرصاص على بطن بوليجر، ولكن ما فائدة ذلك؟ فالجميع يعرفون الآن أن بيج بول خائن، ولكن لا يزال هناك مسدس مصوبًا إلى صدر كاز.

ابتسم جيلز ابتسامة متكلفة وهو يقول: «كاز بريكر الفنان العظيم في الهروب. كيف ستخرج من هذا المأزق الآن؟».

أجاب كاز متجاهلًا المسدس: «سأخرج من هنا مثلما دخلت»، ثم اتجه ببصره نحو الرجل الضخم الراقد على الأرض: «هل تعرف ما مشكلتك يا بوليجر؟»، ووكز الجرح في بطن بوليجر بطرف عصاه: «لم يكن هذا سؤالًا بلاغيًا. أجب علي، هل تعرف ما مشكلتك؟».

صاح بوليجر متألمًا: «كلاااااااااا...».

همس كاز: «خمن».

لم ينطق بيج بول ولكنه أطلق صرخة ألم أخرى.

«حسنًا سأخبرك أنا. مشكلتك أنك شخص كسول. فأنا أعرف هذا. ويعرفه الجميع هنا؛ وهذا ما دفعني إلى أن أسأل نفسي عن

سبب استيقاظ أكثر حراسي كسلًا من النوم مبكرًا مرتين في الأسبوع، وذهابه ميلين إضافيين إلى سيلا فراي كي يتناول الإفطار هناك، بينما تقدم كوبروم بيضًا أفضل بكثير. ومع الوقت الذي تخلى فيه بيج بوليجر عن كسله وبدأ في الاستيقاظ من نومه مبكرًا، بدأت البلاك تيبس تظهر سيطرتها حول الميناء الخامس، ثم اعترضت أكبر شحنة يوردا تابعة لنا. لم يكن ربط الأمور بعضها ببعض أمرًا صعبًا»، ثم تنهد وقال لجيلز: «وهذا ما يحدث عندما يبدأ الأغبياء في وضع خطط كبيرة».

قاطعه جيلز: «لا جدوى من ذلك الآن. لقد ساءت الأمور بالفعل وسوف أطلق عليك الرصاص من هذه المسافة القريبة. ربما ينال حراسك مني أو من فتياني، ولكنك لن تنجو من هذه الرصاصة».

خطا كاز نحو ماسورة المسدس حتى أصبح أمام صدره مباشرةً وقال: «بل سأنجو يا جيلز».

«هل تظن أنني لن أفعل هذا؟ أتظن أنني لن أطلق الرصاص؟».

«أظن أنك ستسعد بفعل ذلك وسيطير قلبك الأسود فرحًا، ولكنك لن تفعلها الآن. ليس الليلة».

ارتعشت إصبع جيلز على الزناد.

قال جاسبر: «كاز. لقد بدأت قصة «هيا أطلق علي الرصاص» برمتها تثير قلقي يا كاز».

لم يكلف أوومين نفسه عناء الاعتراض على تحدث جاسبر هذه المرة. لقد أصيب رجل، وانتهكت الأرض المحايدة بالفعل، ولا تزال رائحة البارود القوية عالقة في الهواء - وإلى جانب هذا يحوم حولهم سؤال غير معلن في صمت كأن حاصد الأرواح نفسه ينتظر الإجابة: ما مقدار الدماء التي ستراق الليلة؟

من بعيد انطلقت صفارة الإنذار.

قال كاز: «تسعة عشر شارع بورست».

تجمد جليز، إن جليز الذي كان يتململ في وقفته تجمد في مكانه

بلا حراك حين سمع ذلك.
«هذا عنوان فتاتك، أليس كذلك يا جيلز؟».
ازدرد جيلز ريقه: «ليست هناك فتاة».
أخفض كاز صوته: «بلى هناك. وإنها جميلة بالمناسبة. أجمل من أن تكون مع حقير مثلك، تحبها، أليس كذلك؟». استطاعت إيناج رغم كونها لا تزال بالأعلى رؤية لمعان العرق المتصبب على وجه جيلز، أردف كاز قائلًا: «بالطبع تحبها. لا توجد امرأة بهذه الروعة ستنظر مرتين إلى حثالة مثلك من باريل، ولكنها مختلفة. فهي تجدك جذابًا. وتلك علامة على الجنون قطعًا إن سألتني، ولكن الحب أعمى. هل تحب أن تريح رأسها على كتفيك؟ وأن تستمع إلى حديثك عن يومك؟».
نظر جيلز إلى كاز كأنه يراه للمرة الأولى. إن الفتى الذي يتحدث إليه مغرور ومتهور ويستمتع بوقته، ولكنه لم يكن خائفًا - لم يكن خائفًا بالفعل على الإطلاق، يطل من عينيه الوحش القابع داخلهما دون أثر للخوف. رحل كاز بريكر وأتت اليد القذرة لتنهي تلك المهمة الصعبة.
أردف كاز بصوته الأجش: «إنها تعيش في تسعة عشر شارع بورست، بالطابق الثالث الذي تضع زهور الجارونيا على نوافذه. وهناك اثنان من الدريجز ينتظران خارج بابها الآن، وإذا لم أخرج من هنا سليمًا معافًى فسوف يضرمان النار في ذلك المكان ويدمرانه عن بكرة أبيه، سوف تلتهم النار المكان في ثوانٍ قليلة، وستعلق إيلسا المسكينة داخل البناية. ستلتهم النار شعرها الأشقر مثل فتيلة الشمعة».
قال جيلز بينما يرتعد المسدس في يده: «أنت تخدعني».
رفع كاز رأسه وأخذ نفسًا عميقًا، قبل أن يقول: «لقد تأخر الوقت وسمعت صفارة الإنذار. أشم رائحة الميناء في رياح البحر والملح وربما- هل ما أشمه الآن رائحة دخان أيضًا؟» كانت السعادة

بادية في صوته.

فكرت إيناج بتعاسة: يا إلهي، كاز. ما الذي فعلته الآن؟».

مرة أخرى ارتعدت إصبع جيلز على الزناد وشعرت إيناج بالتوتر.

قال كاز متعاطفًا: «أعرف هذا الشعور جيدًا يا جيلز. كل هذه الخطط والمكائد والرشاوى والنتيجة لا شيء. هذا ما تفكر فيه الآن. وأعرف شعورك حين تعود إلى منزلك بخفي حنين يلاحقك الفشل! وأتخيل كم الغضب الذي يعتري رئيسك حين تعود إليه صفر اليدين وفي حالة يرثى لها، وأدرك مقدار السعادة الذي سينتابك عندما تطلق رصاصتك على قلبي! يمكنك القيام بهذا. اجذب الزناد. يمكننا أن نموت معًا جميعًا هنا، وربما يأخذون أجسادنا حينها إلى قارب حاصد الأرواح لحرقها مثلما يحدث مع جميع الفقراء. أو يمكنك تحمل الأمر على مضض والعودة إلى شارع بورست لتريح رأسك في حجر فتاتك والنوم وأنت قادر على التنفس والرغبة في الانتقام. الأمر بيديك الآن يا جيلز. هل سنعود إلى منازلنا الليلة؟».

أخذ جيلز يتفحص وجه كاز، وأيًا كان ما رآه جعل كتفيه تتدليان، اندهشت إيناج لدى شعورها بشيء من الشفقة عليه. فلقد دلف إلى هذا المكان يملؤه الغرور معتقدًا أنه سينجو ويصبح بطلًا لمنطقة باريل، ولكنه سيغادر كضحية أخرى لكاز بريكر.

«ستنال ما تستحقه يومًا ما يا بريكر».

رد كاز: «ربما يحدث ذلك. لو كانت هناك عدالة في العالم، ونعرف جميعًا مدى ضعف احتمالات هذا».

ترك جيلز ذراعه تسقط متدلية إلى جانبه والمسدس معلقًا بلا فائدة.

تراجع كاز إلى الوراء ونفض قميصه من أثر ماسورة المسدس، ثم قال: «اذهب وأخبر جنرالك أن يبقي البلاك تيبس بعيدًا عن الميناء الخامس، وأننا نتوقع منه أن يعوضنا عن شحنة اليوردا التي خسرناها بالإضافة إلى خمسة بالمائة لاستخدام الأسلحة في أرض

محايـدة وخمسـة بالمائـة أخـرى لتصرفاتكـم الحقـيرة».

ثـم تأرجحـت عصـا كاز في حركـة مفاجئـة فـصرخ جيلـز عندمـا تحطمـت عظـام رسـغه. وقعقـع المسـدس عندمـا وقـع عـلى الأحجـار المرصوفـة.

صاح جيلز وهو يمسك يده: «أنا منسحب. منسحب».

«لـو اقتربـت منـي مـرة أخـرى سـوف أكـسر كلتـا يديـك وسـوف تضطـر إلى الاسـتعانة بأحدهـم لـكي تتبـول». رفـع كاز حافـة قبعتـه لأعـلى بـرأس عصـاه ثـم قـال «أو ربمـا يمكنـك الاسـتعانة بمحبوبتـك إيلسـا لذلـك».

انحنـى كاز بجانـب بوليجـر وقـال متذمـرًا: «انظـر إلي بوليجـر. عـلى افـتراض أنـك لـن تنـزف حتـى المـوت الليلـة، فلديـك حتـى شروق الغـد لـكي تغـادر كـتردام. ولـو سـمعت عـن وجـودك في أي مـكان بالقـرب مـن حـدود المدينـة، سـوف يجدونـك محشـورًا في برميـل سـيلا فـراي»، ثـم نظـر إليَّ موجهًـا حديثـه إلى جيلـز «ولـو سـاعدت بوليجـر أو لـو اكتشـفت أنـه فـر بصحبـة البـلاك تيبـس فـلا تظـن أننـي لـن أسـعى خلفـك».

قال بوليجر متألمًا: «أتوسل إليك يا كاز».

فأجابـه كاز «كان لديـك منـزل ولكنـك دمرتـه بيديـك يـا بوليجـر. لا تبحـث عـن تعاطفـي»، ثـم نهـض ونظـر إلى سـاعة الجيـب وقـال: «لم أتوقـع أن يسـتغرق الأمـر كل هـذا الوقـت. مـن الأفضـل أن أمـضي في طريقـي وإلا فسـتحصل إيلسـا المسـكينة عـلى تدفئـة حـارة».

هـز جيلـز رأسـه وهـو يقـول: «هنـاك خطـب مـا بـك بريكـر. أنـا لا أعلـم مـا هـو ولكنـك لسـت إنسـانًا سـويًا».

أمـال كاز رأسـه جانبـا وقـال: «أنـت مـن الضواحـي؛ أليـس كذلـك جيلـز؟ هـل أتيـت إلى المدينـة لتجـرب حظـك؟» ثـم عـدل طيـة الصـدر في سترته وأكمـل قائـلًا: «حسـنًا، أنـا مـن نوعيـة الأوغـاد الذيـن يصنعـون حظهـم في منطقـة باريـل فقـط لا أجربـه».

ورغـم المسـدس المحشـو الـذي يقبـع بجـوار أقـدام البـلاك تيبـس، أدار كاز ظهـره لهـم وأخـذ يعـرج عـلى الحـصى نحـو القـوس الشرقـي. جلـس جاسـبر القرفصـاء بجـوار بوليجـر وربـت عـلى خـده بلطـف وقـال بحـزن: «أحمـق» ثـم تبـع كاز خـارج سـوق البورصـة.

استمرت إينـاج في المراقبـة مـن مكانهـا بالأعـلى، بينـما أخـذ أوومـين مسـدس جيلـز ووضعـه في جـراب وتبـادل البـلاك تيبـس مـع بعضهـم البعـض كلـمات قليلـة هادئـة.

أخـذ بوليجـر يسـتعطفهم قائـلًا: «لا ترحلـوا. لا تتركـوني» محـاولًا التشـبث بثنايـا سراويـل جيلـز.

ركلـه جيلـز بعيـدًا، وتركـوه منكمشًـا عـلى نفسـه ينـزف الدمـاء عـلى الأرض.

أخـذت إينـاج بندقيـة فـان دال مـن يديـه قبـل أن تتركـه ثـم قالـت: «عـد إلى المنـزل».

نظـر فـان دال إلى الـوراء نظـرة واحـدة يملؤهـا الرعـب ثـم انطلـق يعـدو بـكل قوتـه، في الأسـفل حـاول بيـج بـول جـر نفسـه عـلى أرض السـوق. ربمـا كان غبيًّـا بمـا يكفـي لمحاولتـه خـداع كاز بريكـر ولكنـه نجـا مـن المـوت لوقـت طويـل في باريـل وهـذا يتطلـب قـوة إرادة. وربمـا ينجـو مـن هـذه أيضًـا.

صـدح صـوت داخـل إينـاج يحثهـا: «سـاعديه». كان رفيقًـا للسـلاح قبـل لحظـات قليلـة وبـدا لهـا مـن الخطـأ أن تتركـه وحيـدًا. كان في مقدورهـا الذهـاب إليـه عارضـة عليـه أن تخلصـه مـن بؤسـه سريعًـا وأن تمسـك يـده حتـى يمـوت. وكان في مقدورهـا الذهـاب لإحضـار طبيـب لإنقـاذه.

ولكنهـا بـدلًا مـن ذلـك تلـت صـلاة سريعـة بلغـة القديسـين وبـدأت تتسـلق- نـزولًا عـلى الحائـط الخارجـي، مشـفقة عـلى الشـخص الـذي ربمـا يمـوت وحيـدًا ولا أحـد بجانبـه يواسـيه في لحظاتـه الأخـيرة أو الـذي ربمـا يقـضي حياتـه في المنفـى، ولكـن عمـل الليلـة لم ينتـه بعـد ولم يكـن

لـدى الشـبح وقـت للخائنـين.

-٣-

كاز

تعالت صيحات الابتهاج لتحية كاز عندما خرج من القوس الشرقي وجاسبر يتبعه، ولو نظر أي شخص إلى وجه كاز لرأى الاستياء باديًا عليه.

اندفع ديريكس وروتي والآخرون نحوهما وهم يصيحون ويرفعون مسدسات جاسبر عاليًا. سمعت المجموعة معظم ما حدث ولكنها لم تعرف إلا أقل القليل عما جرى مع جيلز، وعندئذ بدؤوا في الغناء: «شارع بورست يشتعل نارًا والدريجز يزيدونها احتراقًا».

قال روتي متهكمًا: «لا أصدق أنه نكص على عقبيه؛ فقد كان يحمل في يده مسدسًا محشوًّا».

قال ديريكس بتوسل: «أخبرنا بما تعرفه عن الحارس».

«ليس شخصًا عاديًّا».

«سمعت بشخص في سلوكين يحب التجوال في الأرجاء وهو يتناول مشروب التفاح ثم يحصل على اثنين ــــــــــــــ»

قال كاز: «لن أتحدث. ربما نستفيد من هولست في المستقبل».

بدا الغضب عليهم، كما بدت في ضحكاتهم مسحة من الجنون الذي يأتي مع اقتراب الكارثة. وتوقع بعضهم نشوب معركة ولا يزالون يتوقون إلى واحدة، ولكن علم كاز أن الأمر لا يقتصر على هذا؛ فلم تفته حقيقة أنه لا أحد منهم ذكر اسم بيج بوليجر. لقد أصابتهم خيانته بالصدمة الشديدة نتيجة كشف أمره وطريقة عقاب كاز له. ووراء كل هذا التدافع والصياح، يكمن خوف شديد. حسنًا. اعتمد كاز على حقيقة أن الدريجز جميعًا من القتلة واللصوص والكاذبين. فحرص على ألا يكذبوا عليه.

أرسـل كاز اثنـين منهـم لمراقبـة بيـج بـول للتأكـد مـن خروجـه مـن المدينـة لـو اسـتطاع أن يمـشي عـلى قدميـه، وسـمح للبقيـة بالعـودة إلى سـلات ونـادي الغـراب لتنـاول المشروبـات والتخلـص مـن شـعورهم بالقلـق وافتعـال بعـض المشـكلات ونـشر الأخبـار عـن أحـداث الليلـة. سـوف يتحدثـون عـما رأوه ويبالغـون في البقيـة وكلـما أعـادوا روايـة القصـة يصبـح اليـد القـذرة أكـثر جنونًـا وقسـوة، ولكـن كانـت هنـاك أعـمال يجـب أن يهتـم بهـا كاز والمينـاء الخامـس هـو محطتـه الأولى.

اعـترض جاسـبر طريقـه وهمـس غاضبًـا: «كان يجـدر بـك أن تخـبرني عـن بيـج بوليجـر».

«لا تخبرني بما يجب عليَّ فعله؛ جاس».

«هل تعتقد أنني قذر أيضًا؟».

«لـو كنـت أعتقـد هـذا؛ لفرغـت أحشـاءك عـلى أرض سـوق البورصـة مثـل بيـج بـول؛ لـذا أغلـق فمـك».

هـز جاسـبر رأسـه ووضـع يديـه عـلى مسدسـاته التـي اسـتعادها مـن ديريكـس. وكلـما شـعر بالقلـق وضـع يديـه عـلى مسـدس كالطفـل الـذي يبحـث عـن الارتيـاح في لعبتـه المفضلـة.

كان مـن السـهل عـلى كاز أن يصالـح جاسـبر. فـكان مـن الممكـن أن يخـبر جاسـبر بـأن يخـبره بمـدى ثقتـه بـه وعلمـه بنظافـة يـده ويجعلـه مسـاعده الحقيقـي الوحيـد في معركـة الليلـة، لتسـير فيهـا الأمـور عـلى نحـو جيـد، ولكنـه اكتفـى بقـول: «اذهـب جاسـبر. هنـاك الكثـير مـن التقديـر الـذي ينتظـرك في نـادي الغـراب. العـب حتـى الصبـاح وإلا فسـينفد حظـك، أيًـا مـا سـيأتي أولًا».

لم يسـتطع جاسـبر إخفـاء بريـق الجـوع في عينيـه، ولكنـه قـال عابسًـا: «هـل هـذه رشـوة أخـرى؟».

فأجاب كاز: «أنا شخص تحكمه العادة».

«ومـن حسـن حظـك أننـي أيضًـا كذلـك»، ثـم تـردد طويـلًا قبـل أن يقـول: «ألا تريدنـا أن نبقـى معـك؟ سيستشـيط فتيـان جيلـز غيظًـا

بعدما حدث».

فقال كاز: «دعهم يأتوا» ثم اتجه نحو شارع نيم دون أن ينطق كلمة أخرى. إن لم تستطع أن تمشي بمفردك عبر شوارع كتردام بعد أن يحل الظلام، فربما تعلق في رقبتك لافتة مكتوبًا عليها «ضعيف» وتنبطح على الأرض في انتظار الضرب.

استطاع كاز أن يشعر بأعين الدريجز تتجه إليه وهو يمشي نحو الجسر. ولم يضطر إلى سماع همساتهم ليعرف ما سيقولونه. فقد أرادوا تناول المشروبات معه وسماعه وهو يفسر لهم كيف عرف أن بيج بوليجر قد انضم إلى البلاك تيبس، والاستماع إليه وهو يصف النظرة التي ظهرت في عيني جيلز عندما أوقع مسدسه، ولكنهم لن يحصلوا مطلقًا على ذلك من كاز، وإن لم يعجبهم الأمر فبإمكانهم البحث عن مجموعة أخرى والانضمام إليها.

وبصرف النظر عن نظرتهم إليه، سوف يمشون بمزيد من الفخر الليلة. وهذا هو سبب بقائهم وسبب إخلاصهم له. عندما أصبح كاز عضوًا رسميًّا في الدريجز وهو في الثانية عشرة من عمره والعصابة أضحوكة الجميع، حيث تضم أطفال الشوارع والمتسولين الفاشلين الذين يديرون ألعاب الخداع والاحتيال لكسب بنسات قليلة في منزل متهالك في الجانب الأسوأ في باريل، لم يكن كاز بحاجة إلى عصابة رائعة بل إلى عصابة يستطيع جعلها رائعة - عصابة تحتاج إليه.

والآن أصبحت لديهم منطقتهم الخاصة بهم وصالة اللهو التابعة لهم، وتحول المنزل المتهالك في سلات إلى مكان جاف ودافئ يقدم وجبة ساخنة أو ملاذًا آمنًا عند جرح أحدهم. والآن أصبحت الدريجز عصابة يخشاها الجميع. لقد منحهم كاز القوة، وهو ليس مدينًا لهم بتبرير ما حدث أيضًا.

علاوة على ذلك سوف يلطف جاسبر الأجواء، فبعد عدد قليل من المشروبات والتهاني سوف يعود القناص إلى طبيعته الطيبة،

فلا يدوم شعوره بالاستياء طويلًا بسبب المشروبات التي يتناولها، وهو يتمتع بموهبة جعل انتصارات كاز جماعية لتبدو كأنها بفضل الجميع.

اتجه كاز نحو إحدى القنوات الصغيرة التي ستأخذه عبر الميناء الخامس، وأدرك أنه يشعر - حسنًا، كاد يشعر بالأمل. ربما يجب عليه الذهاب إلى طبيب. سار البلاك تيبس في أعقابه منذ أسابيع، والآن أجبرهم على كشف أوراقهم. لم تكن حالة رجله بغاية السوء رغم برودة الطقس. فالألم موجود على الدوام ولكنه الليلة بسيط ومحتمل. ورغم ذلك، تساءل جزء منه عما إذا كانت المفاوضات اختبارًا أعده بير هاسكيل من أجله. أقنع هاسكيل نفسه ببراعة أنه العبقري الذي أوصل الدريجز إلى النجاح، خاصة إذا همس أحد مقربيه بشيء في أذنه. ولن تختفي هذه الفكرة بسهولة ولكن باستطاعة كاز أن يقلق بشأن بير هاسكيل في الغد. فسوف يتأكد من أن كل شيء يسير حسب الجدول الزمني في الميناء ثم سيتجه إلى سلات للحصول على بعض النوم الضروري.

علم كاز أن إيناج تتابعه كظله؛ فقد لاحقته طوال الطريق من سوق البورصة. ولم ينادها كاز. فسوف تظهر نفسها عندما تشعر بأنها مستعدة لذلك، في العادة يحب كاز الهدوء، وفي الحقيقة يشعر بالسعادة عندما يغلق أفواه معظم الناس، ولكن إيناج تمتلك طريقة تجعلك تشعر بصمتها، عندما تريد ذلك. إنها تتطلب الكثير من انتباهك.

استطاع كاز تحملها طوال الطريق عبر سور جسر زينتس بقضبانه الحديدية المغطاة بقطع صغيرة من القماش المعقود بإتقان، حاملًا أدعية البحارة من أجل العودة من البحر بسلام. مجرد هراء وخرافات، وفي النهاية استسلم كاز وقال: «أفصحي عما يجول بصدرك أيتها الشبح».

أتى صوتها من الظلام: «أنت لم ترسل أي شخص إلى شارع بورست».

«ولم سأفعل ذلك؟».

«إذا لم يصل جيلز هناك في الوقت المناسب ـــــــــــ»

«لم يشعل أحد النار في شارع بورست».

«ولكني سمعت صفارة الإنذار».

«مجرد مصادفة سعيدة. وأنا أستلهم الأفكار حيثما أجدها».

«خدعتنا إذًا. لم تواجه خطرًا قط».

هز كاز كتفيه وبدا غير راغب في الرد عليها. ولطالما حاولت إيناج دائمًا أن تثير لديه شيئًا من كرم الأخلاق ليرضي فضولها، ثم قال: «عندما يعرف الجميع أنكِ وحش، لن تضطري إلى إضاعة الوقت في فعل كل عمل وحشي».

قالت إيناج: «لماذا وافقت على اللقاء إذًا إن كنت تعلم أنه مكيدة؟»، وتحركت في مكان ما على يمين كاز من دون صوت. سمع كاز أعضاءً آخرين في العصابة يقولون إنها تتحرك مثل القطة، ولكنه يعتقد أن القطط نفسها قد تجلس بانتباه لكي تتعلم أساليب إيناج في خفة الحركة.

قال كاز: «سأصف ما حدث الليلة بالمهمة الناجحة. فهل تتفقين معي؟».

«ولكنك كدت تُقتل الليلة يا كاز، وكذلك جاسبر».

«أفرغ جيلز خزائن البلاك تيبس ليدفع رشاوى بلا فائدة، وأخرجنا الخائن من بيننا وأكدنا مرة أخرى أحقيتنا بالميناء الخامس ولم يصبني أي خدش. إنها ليلة جيدة».

«منذ متى تعرف بشأن بيج بوليجر؟».

«منذ أسابيع. سوف يصبح طاقمنا ناقصًا، وهذا يذكرني بأن أطلب منك أن تجعلي روجاك يرحل».

«لماذا؟ ليس هناك أحد مثله على طاولة اللعب».

«الكثير من الحقراء يعرفون طريقهم في ورق اللعب. روجاك سريع للغاية. إنه مختلس».

«إنه موزع جيد لورق اللعب ولديه عائلة يعولها. يمكنك إنذاره، اقطع أحد أصابعه».

« ولكنه لن يصبح موزعًا جيدًا بعد ذلك، أليس كذلك؟».

عندما يُقبض على موزع الورق وهو يختلس المال من صالة اللهو، يقطع رئيسه أحد إصبعي الخنصر. وهذا عقاب سخيف أصبح بطريقة ما قانونًا متبعًا بين العصابات. فيتسبب هذا في إرباك المختلس ويجبره على إعادة تعلم خلط ورق اللعب وينبه صاحب العمل إلى الاحتراس منه، ولكن هذا يحد من براعته على طاولة اللعب أيضًا، وهذا يعني أنه يركز على أشياء بسيطة مثل آليات التوزيع بدلًا من مراقبة اللاعبين.

لم يستطيع كاز رؤية وجه إيناج في الظلام ولكنه شعر باستيائها.

«إن الطمع إلهك يا كاز».

كاد كاز يضحك على هذا وقال: «لا إيناج. بل ينحني الطمع أمامي. إنه خادمي المطيع».

«ما الإله الذي تعبده إذًا؟».

«الإله الذي يمنحني ثروة كبيرة».

«لا أعتقد أن الآلهة تعمل على هذا النحو».

«أعتقد أنني لا أهتم».

تنفست إيناج بغضب، فرغم كل ما مرت به، فإنها تعتقد أن قديسي سولي يعتنون بها. واعتقد كاز هذا ولكنه يحب مضايقتها لسبب ما. تمنى أن يستطيع رؤية التعبير الظاهر على وجهها في ذلك الوقت. ودائمًا ما يشعر بالرضا لدى رؤية التقطيبة بين حاجبيها الأسودين.

سألت: «كيف عرفت أنني سأصل إلى فان دال في الوقت المناسب؟».

«لأنك دائمًا ما تفعلين هذا».

«وجب عليك أن تحذرني مسبقًا».

«أعتقد أن قديسيك سيقدرون التحدي».

لبرهة لم تقل إيناج شيئًا، ثم من مكان ما وراء كاز سمع صوتها وهي تقول: «يسخر الإنسان من... حتى يحتاج إليها كاز».

لم يرها كاز وهي تذهب ولكنه أحس بغيابها.

هز كاز رأسه في ضيق. لو قال إنه يثق بها لكانت هذه مبالغة، ولكنه يقر بينه وبين نفسه بأنه أصبح يعتمد عليها كلية. لقد اعتمد على حدسه عندما اتخذ قرار دفع ثمن عقد عملها مع ميناجري (معرض الوحوش) وكلف هذا الدريجز ثمنًا باهظًا. وكان بير هاسكيل في حاجة إلى الاقتناع بالصفقة، ولكن أصبحت إيناج أحد أفضل الاستثمارات التي قام بها كاز على الإطلاق. فبراعتها الكبيرة في البقاء مختفية عن الأنظار جعلت منها لصة ممتازة للأسرار، بل الأفضل في باريل، ولكن شعر كاز بالانزعاج من حقيقة أنها تستطيع محو كل أثر لها. لم تصدر لها رائحة حتى. فكل إنسان له رائحة، وتروي هذه الروائح قصصًا - شيئًا من حمض الكربوليك على أصابع امرأة أو دخان الخشب المحترق في شعرها أو الصوف المبلل على بدلة رجل أو مسحة من البارود العالق في أطراف أكمام قميصه، ولكن ليس إيناج. لقد أتقنت الاختباء بطريقة ما. إنها عضو قيم. لماذا لا تستطيع إذًا القيام بعملها فحسب وإراحته من تقلباتها المزاجية؟

فجأة أدرك كاز أنه ليس بمفرده، فتوقف وأنصت. عبر زقاقًا ضيقًا تقسمه قناة ضبابية. ولم توجد أي مصابيح أو مشاة. لم يوجد أي شيء إلا القمر المضيء والقوارب الصغيرة التي تصطدم بمراسيها. لقد تخلى عن حذره وترك عقله يشرد بأفكاره.

ظهر شكل مظلم لرجل على رأس الزقاق.

سأل كاز: «ما شأنك؟».

اندفع الشكل نحوه، فحرك كاز عصاه على شكل قوس منخفض. وكان يجب أن توجه هذه الحركة ضربة مباشرة إلى أرجل المعتدي

ولكنهـا مـرت في الفـراغ. وتعـثر كاز عندمـا اختـل توازنـه بسـبب قـوة حركـة العصـا.

ثـم بطريقـة مـا، أصبـح الرجـل يقـف أمامـه مبـاشرة. شـعر كاز بضربـة قويـة في فكـه فـدارت الدنيـا مـن حولـه فهـز رأسـه بقـوة ليسـتعيد رشـده، ثـم أدار عصـاه وأرجحهـا بقـوة مـرة أخـرى، ولكـن لم يـر أحـدًا. شـقت الـرأس الثقيلـة لعصـا كاز الهـواء ولكنهـا لم تجـد شـيئًا واصطدمـت بالحائـط.

شـعر كاز بـأن هنـاك شـخصًا عـلى يمينـه يسـحب العصـا مـن يـده. هـل هنـاك أكـثر مـن شـخص؟

ثـم مـشى رجـل عـبر الحائـط. اضطـرب عقـل كاز وهـو يحـاول تفسـير مـا يـراه. ثـم رأى ضبابًـا تحـول إلى عبـاءة وحـذاء برقبـة طويلـة ولمحـة سريعـة لوجـه شـاحب.

فكـر كاز: «أشـباح». مخـاوف أطفـال ولكنهـا أتـت مـع دليـل أكيـد. لقـد عـاد جـوردي للأخـذ بثـأره أخـيرًا. حـان الوقـت لتدفـع ديونـك يـا كاز. لا يحصـل الإنسـان عـلى أي شيء مجانًـا.

طـرأت الفكـرة عـلى عقـل كاز وقـد اجتاحـه الشـعور بالذعـر والمهانـة، ثـم وقـف الشـبح فوقـه وشـعر كاز بوخـز حقنـة في عنقـه. شـبح يحمـل حقنة ؟

قال كاز لنفسه: «أحمق»، ثم أظلمت الدنيا في عينيه.

اسـتيقظ كاز عـلى رائحـة الأمونيـا النفـاذة، وارتـد رأسـه إلى الـوراء بينـما بـدأ يسـتعيد وعيـه بالكامـل.

كان الرجـل العجـوز الـذي يقـف أمامـه يرتـدي رداء طبيـب جامعـي، وهـو يحمـل في يـده زجاجـة تفـوح منهـا رائحـة الملـح يحركهـا تحـت أنـف كاز، والرائحـة لا تطـاق.

قال كاز بصوته الأجش: «ابتعد عني».

نظـر إليـه الطبيـب نظـرة خاويـة وأعـاد الزجاجـة إلى حقيبـة جلديـة. ثنـى كاز أصابعـه ولم يسـتطع فعـل شيء آخـر، حيـث كان مقيـدًا إلى

كـرسي وذراعـاه وراء ظهـره. ثـم شـعر بالـدوار بسـبب الـشيء الـذي حقنـوه بـه.

تحـرك الطبيـب جانبًـا ورمـش كاز مرتـين لـيرى بوضـوح ويفهـم الفخامـة الغريبـة للمـكان المحيـط بـه. توقـع أن يسـتيقظ في وكـر البلاك تيبـس أو إحـدى العصابـات الأخـرى المنافسـة، ولكـن لم يجـد هـذا أحـد الأماكـن الرخيصـة في باريـل. فمنـزل يضـم مثـل هـذه الأشـياء يحتـاج إلى الكثـير مـن المـال -فبـه ألـواح مـن خشـب الماهوجنـي منحوتـة عليـه الأمـواج المزبـدة والأسـماك الطائـرة، وأرفـف تكتـظ بالكتـب ونوافـذ بهـا زجـاج معشـق بقضبـان الرصـاص، وعندئـذ تأكـد كاز أنـه ينظـر إلى إحـدى لوحـات ديكابـل الحقيقيـة. فهنـاك لوحـة زيتيـة بسـيطة لسـيدة مـع كتـاب مفتـوح في حجرهـا وحمـل صغـير راقـد عنـد قدميهـا. بـدا عـلى الرجـل الـذي ينظـر إليـه مـن وراء مكتـب كبـير علامـات تـدل عـلى أنـه تاجـر ثـري، ولكـن لـو كان هـذا منزلـه، فلـماذا يوجـد أعضـاء مسـلحون مـن حـراس المدينـة عـلى البـاب؟

فكـر كاز: «اللعنـة. هـل ألقـي القبـض عـليَّ؟»، لـو حـدث هـذا فعـلًا، فـإن هـذا التاجـر يمثـل مفاجـأة سـيئة، ولكـن بفضـل إينـاج امتلـك كاز معلومـات عـن كل قـاض ومـدع وعضـو في كيرتـش. وعندئـذ سـوف يخـرج مـن زنزانتـه قبـل شروق الشـمس، ولكنـه لم يحبـس في زنزانـة، بـل تـم قيـده فقـط في كـرسي. إذًا مـا الـذي يجـري بحـق الجحيـم؟

كان الرجـل في العقـد الرابـع مـن العمـر بوجـه نحيـل ولكـن وسـيم، وقـد انحسـر شـعر رأسـه عـن جبهتـه كثـيرًا. عندمـا نظـر كاز إليـه بثقـة، ازدرد الرجـل ريقـه وضغـط أصابعـه معًـا.

«سيد بريكر أرجو ألا تكون قد أصبت بسوء».

«أبعد هذا النتن العجوز عني. أنا بخير».

أومـأ التاجـر للطبيـب وقـال: «يمكنـك الذهـاب. أرسـل إليَّ الفاتـورة رجـاءً، وأنـا أقـدر بالطبـع تكتمـك عـلى هـذا الأمـر».

أغلـق الطبيـب حقيبتـه وغـادر الغرفـة، وعندئـذ نهض التاجر وأمسـك

بمجموعة من الأوراق على مكتبه. كان يرتدي معطفًا طويلًا مفصلًا بعناية وصديرية كالتي يرتديها جميع تجار كيرتش - ملابس غامقة وقورة ذات ذوق رفيع، ولكن أخبرت ساعة الجيب ودبوس رابطة العنق كاز بكل ما يحتاج إلى معرفته: تتكون السلسلة الذهبية للساعة من حلقات ثقيلة تشبه أوراق الغار والدبوس عبارة عن ياقوتة ضخمة وجميلة.

تمتم كاز لنفسه: «سوف أنتزع هذه الجوهرة الضخمة من مكانها وأغرز هذا الدبوس في عنقك لربطك إياي في الكرسي»، ولكنه لم ينطق سوى بشيء واحد: «فان إيك».

أومأ الرجل. لم يقم بأي انحناءة بالطبع. فالتجار لا ينحنون لحثالة من باريل. «أنت تعرفني إذًا؟».

عرف كاز رموز وجواهر جميع منازل التجار في كيرتش، وشارة فان إيك هي الغار الأحمر. ولم يتطلب الأمر أستاذًا جامعيًا ليربط الأمور بعضها ببعض.

قال كاز: «أعرفك. أنت أحد هؤلاء التجار الذين يحاولون دائمًا تنظيف باريل».

أومأ فان إيك برأسه مرة أخرى وقال: «أحاول أن أقدم للرجال عملًا شريفًا».

ضحك كاز وقال: «وما الفرق بين المراهنة في نادي الغراب والمضاربة في سوق البورصة؟».

«إحداهما سرقة، والأخرى تجارة».

«عندما يخسر الإنسان ماله، يجد صعوبة في التفريق بينهما».

«باريل وكر الرجس والرذيلة والعنف ـــــــــــــــ»

«كم عدد السفن التي ترسلونها خارج موانئ كتردام والتي لا تعود أبدًا؟»

«هذا ليس ـــــــــــــــ»

«سفينة من بين كل خمس سفن يا فان إيك. سفينة من بين كل

خمس سفن ترسلونها لجلب القهوة واليوردا وأثواب الحرير تغرق إلى قاع البحر أو تتحطم على الصخور أو تقع في أيدي القراصنة. سفينة من بين كل خمس سفن يموت طاقمها وتضيع أجسادهم في المياه الأجنبية ويصبحون طعامًا لأسماك البحر. كل هذا ناهيك بالعنف».

«لن أتحدث عن الأخلاق مع غلام من باريل».

في الحقيقة لم يتوقع كاز منه ذلك. فقد كان يماطل فحسب بينما يختبر مدى إحكام القيود على معصميه. فترك أصابعه تستشعر طول السلسلة لأطول مسافة تستطيع الوصول إليها وهو لا يزال يشعر بالحيرة بشأن المكان الذي أحضره فان إيك إليه، ورغم أن كاز لم يقابل هذا الرجل من قبل، فلديه أسبابه التي دفعته إلى تعلم مداخل ومخارج منزل فان إيك. وأيًا كان المكان الذي يوجدون فيه، فإنه ليس منزل التاجر.

«بما أنك لم تحضرني هنا من أجل مناقشة فلسفية، ما الذي نفعله هنا؟»، وهذا هو السؤال الذي يلقى في بداية أي اجتماع. وهو بمثابة تحية من أحد الزملاء وليس التماسًا من مسجون.

«لديَّ اقتراح لك، في الواقع هذا اقتراح المجلس».

أخفى كاز شعوره بالدهشة وقال: «هل يبدأ مجلس التجار جميع مفاوضاته بالضرب؟».

«اعتبره تحذيرًا، وعرضًا في الوقت ذاته».

تذكر كاز الشكل في الزقاق وطريقة ظهوره واختفائه مثل شبح. جوردي.

ولكنه رد على نفسه: «إنه ليس جوردي أيها القصير. ركز». لقد تمكنوا منه لأنه غرق حتى أذنيه في نشوة النصر وتشتت انتباهه. فهذا عقابه. وهذه غلطة لن تتكرر مرة أخرى. هذا لا يفسر أمر الشبح، وضع كاز الفكرة جانبًا في الوقت الراهن.

أخذ فان إيك يقلب الأوراق في يده، ثم قال وهو ينظر إلى

إحـدى الصفحـات: «ألقـي القبـض عليـك لأول مـرة وأنـت في العـاشرة مـن عمـرك».

«يتذكر الجميع المرة الأولى لهم».

«مرتـان أخريـان في ذلـك العـام ومرتـان في الحاديـة عـشرة مـن عمرك. ألقـي القبـض عليـك في الرابعـة عـشرة عندمـا داهمـت حراسـة المدينـة صالـة لهـو لكنـك لم تدخـل السـجن مـرة أخـرى منـذ ذلـك الوقـت».

هـذا صحيـح. لم ينجـح أحـد في اعتقـال كاز طـوال ثـلاث سـنوات. قـال كاز: «أنـا شريـف، وجـدت عمـلًا شريفًـا وأعيـش حيـاة يملؤهـا العمـل والصـلاة».

لمـع بريـق الغضـب في عينـي فـان إيـك ولكنـه قـال بهـدوء: «لا تجـدف عـلى اللـه».

لاحـظ كاز أن فـان إيـك رجـل متديـن بينـما يـسرد كل شيء يعرفـه عنـه - أرمـل ثـري ورع تـزوج حديثًـا بفتـاة ليسـت أكـبر مـن كاز كثـيرًا، وهنـاك بالطبـع ابـن فـان إيـك الـذي يحيطـه الغمـوض.

اسـتمر فـان إيـك في تصفـح الملـف وقـال: «أنـت تديـر مراهنـات عـلى مباريـات الملاكمـة وسـباقات الأحصنـة وألعـاب الحـظ الخاصـة بـك، وأنـت مديـر صالـة في نـادي الغـراب لأكـثر مـن عامـين، وأنـت أصغـر رجـل يديـر صالـة لهـو ولقـد ضاعفـت أرباحهـا في ذلـك الوقـت. أنـت مبتـز ————————»

«أنا أقايض المعلومات».

«فنان هروب».

«أخلق الفرصة».

«قواد وقاتل».

«لا أتعامل مع السيدات سيئات السمعة ولا أقتل إلا لسبب».

«وما هذا السبب؟».

«مثلك أيها التاجر. الربح».

«كيف تحصل على المعلومات سيد بريكر؟».

«يمكنك القول إنني أستطيع فتح الأقفال».
«لا بد من أنك موهوب للغاية».
قال كاز وهو يميل إلى الوراء قليلًا: «أنا كذلك بالفعل. كما تعلم، لكل رجل خزانة، قبو من الأسرار والرغبات، والآن هناك الذين يتبعون الطريقة الصعبة ولكني أفضل الطريقة السهلة؛ ممارسة الضغط المناسب في اللحظة المناسبة في المكان المناسب. إنه عمل دقيق».
«هل تتحدث دائمًا باستخدام التشبيهات سيد بريكر؟».
ابتسم كاز وقال: «هذا ليس تشبيهًا».
انطلق كاز من كرسيه قبل أن تسقط السلاسل التي تقيده على الأرض، ثم قفز عبر المكتب وانتزع فتاحة الخطابات عن سطح المكتب بيد وأمسك بتلابيب فان إيك باليد الأخرى. تجعد القماش الناعم عندما ضغط كاز الفتاحة على حلق فان إيك. في البداية شعر كاز ببعض الدوار وارتعشت أطرافه بسبب التقييد في الكرسي، ولكن تحول كل شيء إلى الأفضل مع وجود سلاح بيده.
وقف حراس فان إيك قبالة كاز وجميع الأسلحة والسيوف مصوبة نحوه. استطاع كاز أن يشعر بدقات قلب فان إيك المتسارعة تحت بدلته الصوفية.
قال كاز: «أعتقد أنني لست بحاجة إلى إضاعة وقتي في التهديد. أخبرني كيف أصل إلى الباب وإلا فإنني سآخذك معي عبر النافذة».
«أعتقد أنني أستطيع تغيير رأيك».
دفعه كاز بغلظة وهو يقول: «لا تهمني هويتك أو مدى كبر هذه الياقوتة. لا يمكنك أخذي من شوارعي، ولا تحاول أن تعقد صفقة معي وأنا مقيد بالسلاسل».
صاح فان إيك: «ميكا».
ثم تكرر الأمر مرة أخرى. مشى صبي عبر حائط المكتبة. كان شاحبًا كأنه جثة ويرتدي المعطف الأزرق المطرز لمستحضري الأمواج

مع شريط أحمر وذهبي عند طية الصدر تدل على ارتباطه بمنزل فان إيك، ولكن حتى الغريشا لا يستطيعون عبور الحوائط.

فكر كاز وهو يحاول ألا يصاب بالذعر: «أنا مخدر. لقد أعطوني مخدرًا». أم أن هذا نوع من الأوهام التي يؤدونها على المسارح في إيست ستيف - كفتاة تقطع إلى شقين أو الحمام الذي يخرج من إبريق شاي.

زمجر قائلًا: «ما هذا؟».

«دعني أوضح الأمر لك».

«يمكنك التحدث من مكانك».

أطلق فان إيك زفرة قلقة وقال: «ما تراه هو تأثيرات يوردا باريم».

فقال كاز: «يوردا مجرد مادة منبهة».

كانت الزهور الصغيرة الجافة تنمو في نوفي زيم وتباع في المحلات في جميع أرجاء كتردام، وفي الأيام الأولى لكاز في الدريجز كان يمضغها لكي يبقى منتبهًا خلال عمليات المراقبة، وأسنانه تصطبغ باللون البرتقالي لعدة أيام بعد ذلك. قال كاز: «إنها غير مضرة».

رد فان إيك: «يوردا باريم شيء مختلف تمامًا، ومن المؤكد أنه يسبب الضرر».

«إذًا حقنتموني بهذا الشيء».

«ليس أنت سيد بريكر. ميكا».

عندئذ لاحظ كاز الشحوب والوهن على وجه الغريشا. ظهرت هالات سوداء تحت عينيه وبدا جسمه هشًّا ضعيفًا كأنه لم يتناول طعامًا منذ وقت طويل ولا يهتم لذلك.

أكمل فان إيك قائلًا: «يوردا باريم قريب الشبه باليوردا، فهو يأتي من نفس النبات، ولسنا متأكدين من العملية التي تصنع بها هذه التركيبة ولكن أرسل عالم يسمى بو يول بايور عينة منه إلى مجلس تجار كيرتش».

«من شو هان؟».

«نعم. إنه يريد أن ينشق عنهم؛ لذلك أرسل عينة ليقنعنا بمزاعمه حول الآثار غير العادية للتركيبة. رجاءً سيد بريكر هذا وضع غير مريح بالمرة. لو أردت سأعطيك مسدسًا ويمكننا الجلوس ومناقشة الأمر بطريقة أكثر تحضرًا».

«أريد مسدسًا وعصاي».

أشار فان إيك لأحد حراسه فخرج من الغرفة وعاد بعد لحظات وهو يحمل عصا كاز - وشعر كاز بالسرور لأن الحارس استخدم الباب اللعين.

قال كاز: «المسدس أولًا. ببطء». أخرج الحارس سلاحه من جرابه وأعطاه إلى كاز. فأمسك كاز السلاح وجعله في وضع الاستعداد في حركة سريعة ثم أفلت فان إيك وقذف فتاحة الخطابات على المكتب وانتزع عصاه من يد الحارس. وعلى الرغم من أن المسدس أكثر فائدة، فإن كاز شعر براحة لا توصف عندما استعاد عصاه.

تراجع فان إيك بضع خطوات وترك مسافة بينه وبين المسدس المذخر في يد كاز. لم يبد أنه يرغب في الجلوس، وكذلك كاز، لذلك بقي كاز بالقرب من النافذة استعدادًا للهروب منها إذا اقتضت الضرورة.

أخذ فان إيك نفسًا عميقًا وحاول تعديل هندامه ثم قال: «هذه العصا تحفة سيد بريكر، هل أعدها أحد الصانعين البارعين؟».

في الحقيقة، إن العصا من صنع أحد صناع الغريشا مبطنة بالرصاص وذات وزن مثالي لكسر العظام. قال كاز: «هذا ليس شأنك. تحدث يا فان إيك».

ازدرد فان إيك ريقه؛ ثم قال: «عندما أرسل إلينا بو يول بايور عينة من يوردا باريم أعطيناها إلى ثلاثة من الغريشا؛ واحد من كل مرتبة».

«متطوعون عن طيب خاطر؟».

قـال فـان إيـك معترفًـا: «مـن العمالـة. فـأول اثنـين مـن الصانعـين ومـن المعالجـين يعملـون لـدى عضـو المجلـس هـودا. ميـكا مسـتحضر أمـواج. إنـه ملـكي. لقـد رأيـت مـا يسـتطيع عملـه باسـتخدام التركيبـة».

هودا. لماذا يبدو له هذا الاسم مألوفًا؟

قـال كاز وهـو يلقـي نظـرة خاطفـة عـلى ميـكا: «أنـا لا أعلـم مـا رأيتـه». والصبـي ينظـر نحـو فـان إيـك فقـط كأنـه ينتظـر منـه الأمـر التـالي أو جرعـة أخـرى.

«يسـتطيع مسـتحضر الأمـواج العـادي السـيطرة عـلى الأمـواج واسـتخلاص المـاء أو الرطوبـة مـن الهـواء أو مصـدر قريـب، وينظـم مسـتحضرو الأمـواج حركـة المـد والجـزر في موانئنـا، ولكـن تحـت تأثـير يـوردا باريـم يسـتطيع مسـتحضر الأمـواج تغيـير حالتـه مـن صلبـة إلى سـائلة ثـم إلى غازيـة وإعادتهـا مـرة أخـرى، وفعـل المثـل مـع مختلـف الأشـياء. حتـى الحوائـط».

أوشـك كاز أن ينكـر هـذا، ولكنـه لم يجـد تفسـيرًا آخـر لما رأتـه عينـاه. «كيف؟».

«يصعـب القـول.. أنـت تعـرف المضخـمات التـي يرتديهـا بعـض الغريشـا؟».

قـال كاز: «لقـد رأيتهـا». عظـام وأسـنان وقشـور حيوانـات، ثـم أكمـل قائـلًا: «سـمعت أنـه مـن الصعـب الحصـول عليهـا».

«صعـب جـدًا، ولكنهـا تزيـد قـوة الغريشـا تمامًـا. أمـا يـوردا باريـم فيغـير مفهـوم الغريشـا كليـة».

«إذًا؟».

«يتلاعـب الغريشـا بالمـادة في مسـتوياتها الأساسـية. يطلقـون عـلى هـذا التلاعـب بالمـواد. تحـت تأثـير باريـم تصبـح هـذه التلاعبـات أسرع وأكـثر دقـة. مـن الناحيـة النظريـة يـوردا باريـم مـادة منبهـة مثـل شـبيهها العـادي، ولكـن يبـدو أنهـا تقـوي وتعـزز حـواس الغريشـا، فيصبـح بإمكانهـم إيجـاد الروابـط بسرعـة مذهلـة، ويصبـح بمقدورهـم

فعل أشياء لم يتمكنوا من فعلها من قبل».
«وما علاقة هذا بأوغاد بائسين مثلي ومثلك؟».
بدا أن فان إيك انزعج قليلًا عندما وضع في كفة واحدة مع كاز ولكنه قال: «إنها مميتة. لا يستطيع العقل العادي تحمل باريم حتى لو تناول أقل جرعة».
«لقد قلت إنك أعطيته إلى ثلاثة من الغريشا. ما الذي يستطيع الآخران فعله؟».
قال فان إيك وهو يمد يده نحو أحد أدراج المكتب: «هنا».
رفع كاز مسدسه وقال: «بروية».
ببطء مبالغ فيه، وضع فان إيك يده في درج المكتب وأخرج قطعة من الذهب وقال: «في البداية كان هذا من الرصاص».
«لا تنتظر مني أن أصدق هذا».
هز فان إيك كتفيه وقال: «يمكنني أن أخبرك بما رأيته فقط. أخذ الصانع قطعة من الرصاص في يديه وبعد لحظات قليلة أعطانا هذه».
سأل كاز: «كيف تعرف أنه ذهب حقيقي؟».
«إنه مثل الذهب في نقطة الانصهار والوزن وقابلية الطرق، ولو لم يشبه الذهب من جميع النواحي، فإنه يصعب التفريق بينهما. خذها اختبرها بنفسك».
وضع كاز عصاه تحت ذراعه وأخذ القطعة الثقيلة من يد فان إيك ووضعها في جيبه. وسواء أكان ذهبًا حقيقيًا أم تقليدًا جيدًا، تستطيع هذه القطعة الكبيرة الصفراء شراء الكثير في شوارع باريل.
قال كاز: «يمكنك الحصول عليها من أي مكان».
«وددت لو تمكنت من إحضار صانع هودا هنا لترى بنفسك، ولكنه ليس بحالة جيدة».
انتقلت نظرات كاز سريعًا إلى وجه ميكا الشاحب وجبهته المتعرقة. فمن الواضح أن استخدام التركيبة له عواقبه.

«لنفترض أن كل هذا صحيح وليس حيلة رخيصة. ما علاقة هذا بي؟».

«ربما سمعت أن شو هان دفعوا جميع ديونهم إلى كيرتش مع تدفق مفاجئ من الذهب؟ واغتيال سفير التجارة من نوفي زيم؟ وسرقة الوثائق من قاعدة عسكرية في رافكا؟».

إذًا هذا هو سر مقتل السفير في دورة المياه، والذهب الموجود في ثلاث سفن أرسلتها شو هان ربما يكون من الصانعين المعدلين. لم يسمع كاز أي شيء عن الوثائق الرافكانية ولكنه أومأ برأسه.

قال فان إيك وهو يحك فكه: «نحن نعتقد أن هذه الأحداث من عمل الغريشا الذين يخضعون لسيطرة حكومة شو وتحت تأثير يوردا باريم. سيد بريكر أريدك أن تفكر قليلًا في ما سأخبرك به. الأشخاص الذين يستطيعون المشي عبر الحوائط - لن تنعم أي خزانة أو قلعة بالأمان مرة أخرى. الأشخاص الذين يستطيعون صناعة الذهب من الرصاص أو أي شيء آخر يتعلق بهذا الشأن، الذين يستطيعون تغيير المادة الحقيقية للعالم - سوف تضرب الفوضى الأسواق المالية، وينهار اقتصاد العالم».

«هذا مشوق للغاية. ما الذي تريده مني فان إيك؟ هل تريد مني أن أسرق شحنة؟ أن أسرق التركيبة؟».

«كلا، أريدك أن تسرق الرجل».

«أن أخطف بو يول بايور؟».

«بل تنقذه. منذ شهر تلقينا رسالة من يول بايور يتوسل طلبًا للجوء. إنه يشعر بالقلق من خطط حكومته بشأن يوردا باريم واتفقنا على مساعدته على الفرار. حددنا موعدًا ولكن حدثت مناوشات في نقطة الإنزال».

«مع الشاوبين؟».

«لا مع الفردانيين».

قطب كاز حاجبيه. ربما وجد لدى الفردانيين جواسيس في شو

هـان أو كيرتـش إن علمـوا بالتركيبـة، وخطـط بـو يـول بايـور بسرعـة. «فلترسـل بعـض عملائـك وراءه».

«الموقـف الدبلوماسي معقـد. مـن المهـم ألا تربـط حكومتنـا أي صلـة بيـول بايـور بـأي شـكل مـن الأشـكال».

«يجـب أن تعلـم أنـه ربمـا يكـون ميتًـا. يكـره الفردانيـون الغريشـا. مـن المسـتحيل أن يتركـوا معرفـة هـذه التركيبـة تخـرج مـن أيديهـم».

«تشـير مصادرنـا إلى أنـه لا يـزال حيًـا وأنـه ينتظـر المحاكمـة». ثـم ازدرد فـان إيـك ريقـه وأكمـل قائـلًا: «في محكمـة الجليـد».

حـدق كاز إلى وجـه فـان إيـك دقيقـة كاملـة ثـم انفجـر ضاحـكًا وقـال: «حسـنًا مـن دواعـي سروري أنكـم أفقدتمـوني الوعـي وأسرتمـوني يـا فـان إيـك. تأكـد مـن أننـي سـأرد لـك حسـن ضيافتـك عندمـا يحـين الوقـت المناسـب. والآن، ليدلنـي أحـد أتباعـك عـلى طريـق الخـروج».

«نحن مستعدون لأن نعرض عليك خمسة ملايين كروج».

وضـع كاز المسـدس في جيبـه. لم يعـد يخـشى عـلى حياتـه عندئـذ، ولكنـه شـعر بالضيـق لأن هـذا الحقـير ضيـع وقتـه، ثـم قـال: «ربمـا يمثل هـذا مفاجـأة لـك يـا فـان إيـك، ولكننـا الجـرذان مثلكـم نقـدر حياتنـا مثلـما تقـدرون حياتكـم».

«عشرة ملايين».

«مـا الفائـدة مـن الفـوز بـثروة لـن أعيـش لأنفقهـا. أيـن قبعتـي - هـل تركهـا مسـتحضر الأمـواج في الزقاق؟».

«عشرون».

صمـت كاز. وشـعر بـأن الأسـماك المنحوتـة عـلى الحوائـط توقفـت عـن القفـز مـن أجـل الاسـتماع إليهـما، ثـم قـال: «عـشرون مليـون كـروج؟».

أومأ فان إيك، ولكنه لم يبد سعيدًا بذلك.

«سـيجب عـليَّ إقنـاع فريقـي بإنجـاز هـذه المهمـة الانتحاريـة، ولـن

يتحقق هذا بثمن بخس». ولم يكن هذا صحيحًا تمامًا، فرغم ما قاله كاز لفان إيك، هناك الكثير من الأشخاص في باريل الذين لا يملكون شيئًا ليعيشوا من أجله.

قال فان إيك بسخرية: «عشرون مليون كروج ليس ثمنًا بخسًا».

«لم تتعرض محكمة الجليد للاختراق من قبل».

«لهذا السبب اخترناك سيد بريكر. من المحتمل أن يكون بو يول بايور قد مات بالفعل أو قد أفشى جميع أسراره للفردانيين، ولكننا نعتقد أنه لا يزال هناك وقت قبل أن يبدأ استخدام سر يوردا باريم».

«لو حصل الشاويون على صيغة التركيبة ـــــــــــــــــ»

«ادعى يول بايور أنه نجح في تضليل مشرفيه والحفاظ على سرية تفاصيل الصيغة. نعتقد أنهم يعملون من خلال الكمية المحدودة التي تركها يول بايور وراءه».

«ينحني الطمع أمامي». ربما اغتر كاز كثيرًا بهذا الشأن، فالآن يقود الطمع عرض فان إيك. وبدأ تأثيره يظهر ويتغلب على مقاومة كاز ويحاول السيطرة عليه.

عشرون مليون كروج. ما نوعية هذه المهمة؟ لم يعلم كاز أي شيء عن الجاسوسية أو الصراعات الحكومية، ولكن ما الفارق بين سرقة بو يول بايور من محكمة الجليد وتحرير الأشياء القيمة من خزانة أحد التجار؟ ذكر كاز نفسه بأنها الخزانة الأكثر تأمينًا في العالم أجمع. إنه يحتاج إلى فريق متخصص للغاية؛ فريق انتحاري لا يتراجع لحظة أمام الاحتمال الحقيقي بأنهم ربما لن يعودوا مطلقًا من هذه المهمة، ولن يستطيع تجميع هذا الفريق من الدريجز فقط؛ فالمواهب التي يحتاج إليها ليست موجودة في صفوفهم، وهذا يعني أنه سيكون مضطرًا إلى الاحتراس أكثر من المعتاد.

ولكن لو نجحوا في هذا الأمر، وحتى بعد أن يحصل بير هاسكيل على حصته، سيكون نصيب كاز من الباقي كافيًا لتغيير كل شيء

لتنفيـذ الحلـم الـذي طالما راوده منـذ أن زحـف خارجًـا مـن الميـاه البـاردة والانتقـام يحـرق حفـرة في قلبـه. سـيدفع دينـه لجـوردي أخـيرًا.
ستكون هنـاك مزايـا أخـرى أيضًـا. سـيصبح مجلـس كيرتـش مدينًـا لـه إلى جانـب مـا سـتضيفه هـذه العمليـة بالـذات إلى سـمعته: التسـلل إلى محكمـة الجليـد التـي لا يمكـن اختراقهـا واختطـاف جائـزة مـن معقـل العظمـة والقـوة العسـكرية الفردانيـة. فبمثـل هـذه المهمـة في حوزتـه والمـال في متنـاول يـده، لـن يحتـاج إلى بـير هاسـكيل بعـد ذلـك. ويمكنـه عندئـذ البـدء في ممارسـة عملـه الخـاص.
ولكـن هنـاك شيء غريـب. «لمـاذا أنـا؟ لمـاذا الدريجـز؟ هنـاك عصابات أخـرى أكثر تمرسًـا».
بدأ ميكا يكح ورأى كاز الدماء على كمه.
قـال فـان إيـك بلطـف: «اجلـس»، وهـو يسـاعد ميـكا عـلى الجلـوس عـلى كـرسي ويعطيـه منديـلًا، وأشـار إلى أحـد الحـراس قائـلًا: «بعـض المـاء».
قال كاز محاولا قطع صمته: «حسنًا؟».
«كم عمرك سيد بريكر؟».
«سبعة عشر».
«لم يقبـض عليـك منـذ بلوغـك الرابعـة عـشرة، وبمـا أني أعـرف أنـك لسـت رجـلًا شريفًـا مثلـما لم تكـن صبيًـا شريفًـا، أسـتطيع الافـتراض أنـك تمتـك أكـثر صفـة أحتـاج إليهـا في أي مجـرم: أنـت لا يُقبـض عليـك».
ابتسـم فـان إيـك ابتسـامة باهتـة ثـم قـال: «هنـاك أيضًـا مسـألة لوحـة ديكابـل الخاصـة بي».
«أنا متأكد من أنني لا أعرف شيئًا عما تتحدث عنه».
«منـذ سـتة أشـهر اختفـت لوحـة زيتيـة لديكابـل يبلـغ ثمنهـا مائـة ألـف كـروج تقريبًـا مـن منـزلي».
«يا لها من خسارة!».
«بالطبـع، خاصـة بعـد أن حصلـت عـلى تطمينـات بـأن معـرضي غـير

قابـل للاخـتراق، وأنـه ليـس مـن السـهل العبـث بالأقفـال الموجـودة عـلى أبوابـه».

«أعتقد أنني أتذكر قراءة شيء عن هذا».

قـال فـان إيـك بتنهيـدة صغـيرة: «نعـم. التفاخـر شيء خطـر. لقـد اشـتقت إلى التباهـي بلوحتـي والأمـور التـي فعلتهـا مـن أجـل حمايتهـا، ورغـم ذلـك ورغـم جميـع الحـراس ورغـم الـكلاب وصفـارات الإنـذار والعاملـين الأكـثر إخلاصًـا في كـتردام كلهـا، اختفـت لوحتـي».

«تعازي الحارة».

«رغم ذلك لم تظهر اللوحة في أي مكان في أسواق العالم».

«ربما وجد اللص مشتريًا جاهزًا بالفعل».

«احتـمال وارد بالطبـع، ولكـن أميـل إلى اعتقـاد بـأن اللـص سرقهـا لسـبب مختلـف».

«فما عساه هذا السبب؟».

«إثبات قدراته فحسب».

«يبدو لي أنها مخاطرة غبية».

«حسنًا، مَن يستطيع تخمين دوافع اللصوص؟».

«ليس أنا بالتأكيد».

«مـما أعرفـه عـن محكمـة الجليـد أيًـا كان مـن سرق لوحتـي فهـو الشـخص المناسـب الـذي أبحـث عنـه لهـذه المهمـة».

«إذًا من الأفضل أن تستعين به أو بها».

«بالفعل، ولكنني مضطر إلى القبول بك».

أخـذ فـان إيـك ينظـر إلى كاز كأنـه يرجـو أن يحصـل عـلى اعـتراف مـن بـين عينيـه، وفي النهايـة سـأل فـان إيـك: «هـل لدينـا اتفـاق إذًا؟».

«ليس بهذه السرعة. ماذا عن المعالج؟».

ظهرت الحيرة على وجه فان إيك: «مَن؟».

«لقـد قلـت إنكـم أعطيتـم التركيبـة إلى غريشـا مـن كل مرتبـة. ميـكا مسـتحضر الأمـواج - إنـه الإيثرالـكي التابـع لـك. الصانـع الـذي صنـع

عينـة الذهـب كان مـن الماتريالـكي. إذًا مـاذا حـدث للكوربورالـكي؟ المعالـج؟».

جفل فان إيك، ولكنه قال ببساطة: «هل ترافقني سيد بريكر؟».

تبـع كاز فـان إيـك بقلـق وهـو يضـع عينًـا عـلى ميـكا والحـراس خـارج المكتبـة ثـم عـبر البهـو. ووشى المنـزل عـن ثـروة التاجـر - حوائـط مكسـوة بالخشـب الغامـق وأرضيـات عليهـا بـلاط نظيـف باللونـين الأبيـض والأسـود. فـكل شيء يـدل عـلى ذوق رفيـع. وكل شيء مضبـوط ومصنـوع بإتقـان، ولكنـه يبـدو كمقـبرة. فالغـرف مهجـورة والسـتائر مسـدلة وقطـع الأثـاث مغطـاة بقـماش أبيـض، لذلـك فـإن كل غرفـة قائمـة يمـرون عليهـا، تبـدو كلوحـة منسـية للبحـر تمتلـئ بالجبـال الثلجيـة العائمـة.

هـودا. لقـد تذكـر الاسـم الآن. فقـد وقعـت حادثـة في منـزل هـودا في شـارع جيلـد الأسـبوع المـاضي، وطوقـت حراسـة المدينـة المـكان بأكملـه ونـشرت فيـه أفرادهـا، وسـمع كاز شـائعات عـن تفـشي الجـدري ولكـن لم تسـتطع إينـاج حتـى معرفـة المزيـد.

قـال كاز وقـد سرت قشـعريرة في جسـده: «هـذا منـزل عضـو المجلـس هـودا». لم يرغـب كاز في أن يصـاب بالوبـاء ولكـن يبـدو أن التاجـر وحراسـه لم يهتمـوا بذلـك، ثـم قـال: «أعتقـد أن هـذا المـكان يخضـع للحجـر الصحـي».

«مـا حـدث هنـا ليـس بخطـر علينـا، وإذا نجحـت في مهمتـك يـا سـيد بريكـر، فإنـه لـن يصبـح خطـرًا في المسـتقبل».

قـاده فـان إيـك عـبر بـاب ثـم حديقـة مشـذبة معبقـة برائحـة الزعفـران. وأثـرت الرائحـة الجميلـة في كاز بقـوة. فذكريـات جـوردي لا تـزال حـاضرة في ذهنـه، وللحظـة لم يمـش كاز عـبر حديقـة تاجـر ثـري بجانـب قنـاة مائيـة، بـل وقـف وسـط أعشـاب الربيـع التـي تصـل إلى ركبتيـه وأشـعة الشـمس الحـارة تلفـع وجنتيـه وصـوت أخيـه ينـادي عليـه مـن أجـل العـودة إلى المنـزل.

حاول كاز العودة إلى رشده مرة أخرى؛ فقال لنفسه: «أحتاج إلى فنجان من أكثر أنواع القهوة مرارة وسوادًا. أو ربما لكمة قوية في الفك».

قاده فان إيك إلى المرفأ الذي يواجه القناة المائية. ورسم الضوء الذي يتسلل من بين نوافذه المحطمة أشكالًا على طريق الحديقة، ووقف أحد حراس المدينة بوضعية الانتباه بجانب الباب عندما أخرج فان إيك مفتاحًا من جيبه ووضعه في القفل الثقيل، وضع كاز كمه على فمه عندما وصلت إليه الرائحة العفنة من الغرفة المغلقة - رائحة البول والبراز. تغلبت هذه الروائح لشدتها على رائحة الزعفران الجميلة.

كانت الغرفة مضاءة باثنين من المصابيح الزجاجية على الحائط، ووقفت مجموعة من الحراس في مواجهة صندوق حديدي كبير، وهناك زجاج محطم يغطي الأرض عند أقدامهم. ارتدى بعضهم الزي البنفسجي لحراس المدينة والآخرون الأخضر الباهت الخاص بمنزل هودا، ورأى كاز من خلال ما يعتقد أنها نافذة مراقبة حارسًا آخر من حراسة المدينة يقف أمام طاولة فارغة وكرسيين مقلوبين. ومثل الآخرين، وقف الحارس وذراعاه متدليتان بجانبه بوجه خالٍ من التعبيرات والعينان تنظران إلى الأمام وتحدقان إلى اللا شيء، فتح فان إيك ضوء أحد المصباحين فرأى كاز جسدًا بالزي البنفسجي مكومًا على الأرض وعيناه مغلقتان.

تنهد فان إيك وانحنى ليقلب الجسد ثم قال: «لقد فقدنا حارسًا آخر».

واتضح أن الفتى صغير السن وقد بدأت بوادر شارب تظهر على شفته العليا.

أعطى فان إيك أوامره للحارس الذي أدخلهما، وبمساعدة من أحد حاشية فان إيك رفع الجثة وأخرجاها من الغرفة. لم يصدر أي رد فعل عن الحراس الآخرين فلقد استمروا في التحديق إلى الأمام

فحسـب.

تعرف كاز على أحدهم - هنريك داهلمان كابتن حراسة المدينة.

قـال كاز: «داهلـمان؟» ولكـن لم يـرد الرجـل عليـه. لـوح كاز بيـده أمام وجـه الكابـتن ثـم ضربـه ضربـة قويـة عـلى الأذن. لم يحـدث شيء سـوى أن عـين الكابـتن رمشـت ببـطء ولا مبـالاة. رفـع كاز مسدسـه وصوبـه مبـاشرة نحـو جبهـة الكابـتن، وجعـل المسـدس في وضـع الاسـتعداد. فلـم يجفـل الكابـتن ولم يبـد أي ردة فعـل، ولم يتقلـص بؤبـؤ عينيـه.

قـال فـان إيـك: «إنـه كالميـت. أطلـق الرصـاص، فجـر دماغـه. لـن يعـترض ولـن يحـرك الآخـرون سـاكنًا».

وضـع كاز سـلاحه جانبًـا ولا يـزال يشـعر بالقشـعريرة بداخلـه ثـم قـال: «مـا هـذا؟ مـاذا حـدث لهـم؟».

«كانـت الجريشـا مـن الكوربورالـكي تنفـذ عقـد عملهـا مـع عضـو المجلـس هـودا. واعتقـد هـودا أنـه يقـوم باختيـار آمـن لاختبـار باريـم لأنهـا مـن المعالجـين وليسـت مـن المتلاعبـين بالقلـوب والتنفـس».

يبـدو ذكيًـا بمـا فيـه الكفايـة. رأى كاز أحـد المتلاعبـين بالقلـوب وهـو يـؤدي عملـه. إنهـم يسـتطيعون تمزيـق خلايـاك أو تفجـير قلبـك داخـل صـدرك أو انتـزاع الهـواء مـن رئتيـك أو تقليـل معـدل نبضاتـك حتـى تسـقط في غيبوبـة، كل هـذا دون أن يلمسـوك بـأي شـكل، ولـو صـح جـزء مـما قالـه فـان إيـك، سـتصبح فكـرة تنـاول أحدهـم جرعـة مـن يـوردا باريـم اقتراحًـا مرعبًـا. لذلـك جـرب التجـار التركيبـة عـلى أحـد المعالجـين، ولكـن مـن الواضـح أن الأمـور لم تـسر عـلى النحـو الـذي خططـوا لـه.

«أنتم أعطيمتوها الدواء وهي قتلت سيدها؟».

قـال فـان إيـك وهـو يبتلـع ريقـه: «ليـس بالضبـط. لقـد وضعوهـا في زنزانـة الملاحظـة هـذه، وخـلال ثـوانٍ مـن تناولهـا باريـم، اسـتطاعت السـيطرة عـلى الحـراس داخـل الغرفـة ــــــــــــ»

«كيف؟».

«لا نعلـم بالضبـط، ولكـن أيًّـا كانـت الطريقـة التـي اسـتخدمتها؛ فلقـد أتاحـت لهـا إخضـاع هـؤلاء الحـراس أيضًـا».

«هذا ليس ممكنًا».

«هـل هـو كذلـك؟ إن الدمـاغ أحـد أعضـاء الجسـم وهـو مجموعـة مـن الخلايـا والدوافـع. لمـاذا لا تسـتطيع غريشـا تحـت تأثـير يـوردا باريـم التلاعـب بهـذه الدوافـع؟».

ظهر عدم التصديق بوضوح على وجه كاز.

فقـال فـان إيـك بـإصرار: «انظـر إلى هـؤلاء الأشـخاص. لقـد أخبرتهـم بـأن ينتظـروا، وهـذا مـا فعلـوه بالضبـط - هـذا كل مـا فعلـوه منـذ ذلـك الوقـت».

أخـذ كاز يتفحـص المجموعـة عـن قـرب. ولم تكـن أعينهـم تطـرف أو ميتـة ولم تكـن أجسـادهم مسـترخية. لقـد بـدوا في حالـة انتظـار. أخفـى كاز الخـوف الـذي شـعر بـه. لقـد رأى أشـياء غريبـة مـن قبـل؛ أشـياء غـير عاديـة ولكنـه لم يـر أي شيء مثـل مـا شـهده الليلـة.

«ما الذي حدث لهودا؟».

«لقـد أمرتـه بـأن يفتـح البـاب، وعندمـا فعـل هـذا أمرتـه بـأن يقطـع إصبـع السـبابة في يـده. نحـن لم نعـرف مـا حـدث إلا عـن طريـق فتـى المطبـخ لأنـه كان حـاضرًا. لم تمسـه فتـاة الغريشـا بسـوء ولكنـه يدعـي أن هـودا قطـع إصبعـه وهـو يبتسـم».

لم يحـب كاز فكـرة أن يعبـث أحـد الغريشـا في رأسـه، ولكنـه لم يتفاجـأ بمـا حـدث لهـودا لأنـه نـال مـا يسـتحقه. خـلال الحـرب الرافكانيـة فـر الكثـير مـن الجريشـا مـن القتـال وشـقوا طريقهـم إلى كيرتـش عـن طريـق عقـود العمـل دون أن يدركـوا أنهـم باعـوا أنفسـهم وأصبحـوا عبيـدًا.

«هل مات التاجر؟».

«فقـد عضـو المجلـس هـودا قـدرًا كبـيرًا مـن الدمـاء ولكنـه في نفـس الحالـة مثـل هـؤلاء الرجـال. لقـد نقلنـاه مـن منزلـه إلى الريـف هـو

وعائلتـه وعمالـه».

سأل كاز: «هل عادت الغريشا المعالجة إلى رافكا؟».

أشـار فـان إيـك لـكاز بالخـروج مـن هـذا المرفـأ الغريـب وأغلـق البـاب وراءهـما.

قـال فـان وهـما يعـودان أدراجهـما عـبر الحديقـة وعـلى امتـداد جانـب المنـزل: «ربمـا حاولـت. نحـن نعـرف أنهـا أخـذت قاربًـا صغـيرًا ونعتقـد أنهـا حاولـت الذهـاب إلى رافـكا، ولكـن الميـاه ألقـت بجثتهـا بالقـرب مـن الميـنـاء الثالـث بعـد يومـين. نعتقـد أنهـا غرقـت وهـي تحـاول العـودة إلى المدينـة».

«ما الذي سيجعلها تعود إلى هنا؟».

«للحصول على المزيد من يوردا باريم».

تذكـر كاز عينـي ميـكا اللامعتـين وجلـده الشـمعي وقـال: «هـل تسـبب الإدمـان الشـديد؟».

«يبـدو أن الأمـر يتطلـب جرعـة واحـدة فقـط. حالمـا تـسري التركيبـة في العـروق تـترك جسـد الغريشـا ضعيفًـا والرغبـة في تناولهـا عـلى أشـدها. إنـه يوهـن الجسـم للغايـة».

يوهـن للغايـة؛ يبـدو هـذا تقليـلًا شـديدًا مـن شـأنه. يتحكـم مجلـس المـد والجـزر في الدخـول إلى كـتردام، ولـو حاولـت المعالجـة التـي تناولت التركيبـة العـودة تلـك الليلـة في مركـب صغـير لمـا حصلـت عـلى فرصـة كبـيرة أمـام التيـار. تذكـر كاز وجـه ميـكا الهزيـل وطريقـة تـدلي ملابسـه فـوق جسـده النحيـل. هـذا مـا فعلتـه التركيبـة بـه. لقـد انتشى بسـبب تنـاول يـوردا باريـم وتلهـف بالفعـل لتنـاول الجرعـة التاليـة، وبـدا كأنـه سـيقع مغشـيًّا عليـه. إلى متـى يسـتطيع الغريشـا أن يعيـش عـلى هـذا النحو؟

هـذا سـؤال مثـير للاهتـمام ولكنـه لا يرتبـط بالموضـوع. ثـم وصلـوا إلى البوابـة الأماميـة. فهـذا هـو وقـت تسـوية الأمـور.

قال كاز: «ثلاثون مليون كروج».

فان إيك: «لقد قلنا عشرين».

قال كاز: «أنت قلت عشرين. من الواضح أنك يائس» وهو ينظر باتجاه المرفأ حيث توجد غرفة تمتلئ بالرجال الذين ينتظرون الموت فحسب، ثم أكمل قائلًا: «والآن أصبحت أدرك السبب».

«سيقطع المجلس رأسي».

«سوف يكيلون لك المديح حالما تحصل على بو يول بايور سالمًا وتخفيه في أي مكان تريده».

«نوفي زيم».

هز كاز كتفيه بلا مبالاة وقال: «لا يهمني ذلك. يمكنك وضعه في براد الشاي إن أردت».

نظر فان إيك في عيني كاز مباشرة وقال: «لقد رأيت الأمور التي تستطيع هذه التركيبة فعلها. أؤكد لك أنها البداية فحسب. إذا تم إطلاق يوردا باريم في العالم فستصبح الحرب أمرًا لا مفر منه. سوف تتدمر خطوطنا الجارية وتتدمر أسواقنا. لن تنجو كيرتش من هذا. آمالنا معقودة عليك سيد بريكر، ولو فشلت سوف يعاني العالم أجمع».

«آه؛ الأمر أسوأ من ذلك يا فان إيك. لو فشلت، لن أحصل على مالي».

بدت على وجه التاجر نظرة امتعاض تستحق أن توضع في لوحة زيتية لديكابل لتخليدها.

«لا تبدُ محبطًا هكذا، فكر في مدى البؤس الذي قد تشعر به عندما تكتشف أن هذا الجرذ لديه نزعة وطنية. ربما يجب عليك أن تزيل الامتعاض البادي على وجهك وتعاملني بشيء من الاحترام».

قال فان إيك بازدراء: «شكرًا لأنك أعفيتني من هذه المشقة»، ثم فتح الباب وصمت قليلًا ثم قال: «أتساءل ما الذي قد يصل إليه فتى يمتلك ذكاءك في ظل ظروف مختلفة».

قال كاز لنفسه بشيء من الأسى: «سل جوردي»، ولكنه هز كتفيه فحسب وقال: «إنني أسرق من طبقة أفضل من الحقراء. ثلاثون مليون كروج».

أومأ فان إيك بالموافقة وقال: «ثلاثون. اتفقنا».

فقال كاز: «اتفقنا»، ثم تصافح الاثنان.

عندما أمسكت يد فان إيك المشذبة بعناية أصابع كاز التي يغطيها القفاز الجلدي، ضاقت عينا التاجر.

«لماذا ترتدي قفازًا سيد بريكر؟».

رفع كاز حاجبًا وقال: «أنا متأكد أنك سمعت القصص».

«كل واحدة أكثر غرابة من سابقتها».

لقد سمعها كاز أيضًا. فيدا بريكر ملطختان بالدماء. ويدا كاز مغطاتان بالندوب. ويمتلك بريكر مخالب وليس أصابع لأنه نصف شيطان. فلمسة بريكر تحرق مثل الكبريت - لمسة واحدة من يده العارية تجعل لحمك يذوي ويموت.

قال كاز وهو يختفي في الليل: «اختر إحداها»، بينما بدأت أفكاره تدور بالفعل حول الثلاثين مليون كروج والطاقم الذي يحتاج إليه لإنجاز هذه المهمة، ثم أكمل قائلًا: «جميعها حقيقية».

-٤-

إيناج

عرفت إيناج أن كاز دخل سلات لحظة دخوله؛ فقد تردد صدى حضوره في الغرف الضيقة والأروقة الملتوية ومن ثم أصبح كل قاطع طريق ولص وموزع أوراق ومحتال أكثر انتباهًا. لقد عاد الملازم المفضل لدى بير هاسكيل إلى المنزل.

لم يكن سلات منزلًا رائعًا؛ بل مجرد منزل آخر في أسوأ بقعة في باريل مكون من ثلاثة طوابق مكدسة بعضها فوق بعض وفوقها علية وسقف من الجملون. معظم الأبنية في هذا الجزء من المدينة بلا أساسات والعديد منها فوق أرض سبخية حفرت فيها القنوات المائية بشكل عشوائي. وتستند الأبنية أحدها إلى الآخر كأنها مجموعة من الأصدقاء السكارى الذين يجتمعون في أحد المشارب ويتمايلون بعضهم على بعض وقد أصابهم النعاس. زارت إيناج الكثير من هذه الأبنية في مهمات لصالح الدريجز ولم تجدها أفضل حالًا من الداخل - بل وجدتها باردة ورطبة والملاط يتدلى من الحوائط وهناك فجوات في النوافذ كبيرة بما يكفي لدخول المطر والثلج. أنفق كاز ماله الخاص على سد الشقوق وعزل الحوائط. ولكن ظل منزل سلات قبيحًا ملتويًا مزدحمًا ولكن جافًّا بشكل رائع.

تقع غرفة إيناج في الطابق الثالث، وهي مكان ضيق يكفي بالكاد سريرًا صغيرًا وصندوق أمتعة، ولكن بها نافذة تطل على الأسقف المستدقة والمداخن المتفرقة في باريل. وعندما تهب الرياح وتخلو السماء من ضباب دخان الفحم العالق فوق المدينة، تستطيع إيناج رؤية جيب أزرق للميناء.

لم يبق على الفجر إلا ساعات قليلة، ورغم ذلك ظل جميع مَن

في منـزل السـلات مسـتيقظًا. ولا يشـهد المنـزل هـدوءًا فعليًـا إلا لمـرة واحـدة خـلال السـاعات البطيئـة لفـترة مـا بعـد الظهـيرة، وفي تلـك الليلـة ظـل الجميـع يثرثـرون عـن أخبـار المواجهـة التـي وقعـت في سـوق البورصـة ومصـير بيـج بوليجـر والآن طـرد روجـاك المسـكين.

عـادت إينـاج مـن حديثهـا مـع كاز مبـاشرة وبحثـت عـن مـوزع الـورق في نـادي الغـراب، والـذي وقـف عـلى الطاولـة يـوزع الـورق في لعبـة ثـري مـان برامبـل مـع جاسـبر واثنـين مـن السـائحين الرافكانيـين. وعندمـا أنهـى الـدور، اقترحـت عليـه إينـاج أن يتحدثـا في إحـدى قاعات المراهنـة الخاصـة لتجنبـه الشـعور بالإحـراج لـو طردتـه أمـام أصدقائـه ولكـن لم يسـمح روجـاك بهـذا.

قـال روجـاك بصـوت مرتفـع عندمـا أخبرتـه إينـاج بأوامـر كاز: «هـذا ليـس عـدلًا. أنـا لسـت غشاشًـا».

أجابت إيناج بهدوء: «تحدث مع كاز».

أضـاف جاسـبر وهـو يلقـي نظـرة عـلى السـائحين والبحـارة الجالسـين عـلى الطـاولات المجـاورة: «أبـقِ صوتـك منخفضًـا». تعـد المشـاجرات أمـرًا شـائعًا في باريـل ولكـن ليـس في صالـة نـادي الغـراب. ولـو حدثـت لـك مشـكلة، تمكنـك تسـويتها في الخـارج لـكي لا تقاطـع العمـل المقـدس لسـلب أمـوال الحمقـى.

زمجر روجاك قائلًا: «أين كاز؟».

«لا أعلم».

قـال روجـاك بسـخرية وهـو يميـل إلى الأمـام ورائحـة العصـير والبصـل العفنـة تفـوح مـن فمـه: «أنـت دائمًـا تعلمـين كل شيء عـن كل شيء. أليـس هـذا مـا يدفـع اليـد القـذرة المـال لأجلـه؟».

«أنـا لا أعلـم مكانـه أو موعـد عودتـه. ولكنـي أعلـم علـم اليقـين أنـك لـن تريـد أن يجـدك هنـا عنـد عودتـه».

«اعطني مالي فحسب. أنتم مدينون لي بالوردية الأخيرة».

«بريكر ليس مدينًا لك بشيء».

«ألا يستطيع مواجهتي حتى؟ أيرسل فتاة صغيرة لطردي؟ ربما آخذ منكِ بعض المال». ثم مد يده ليمسكها من ياقة قميصها ولكنها تفادته بسهولة. فحاول تكرار فعلته مرة أخرى.

من زاوية عينها لمحت إيناج جاسبر وهو يقوم من مقعده، ولكنها أشارت إليه بألا يفعل وانزلقت أصابعها داخل قبضة نحاسية تضعها في جيبها الأيمن على خصرها. ثم ضربت روجاك ضربة سريعة على خده الأيسر.

ذهبت أصابع روجاك سريعًا إلى خده وقال: «مهلًا. لم أفعل شيئًا. إنني أتحدث إليك فحسب».

عندئذ أنتبه الحضور للموقف وظلوا يراقبون ما يحدث؛ لذلك ضربته إيناج مرة أخرى. وبصرف النظر عن قواعد نادي الغراب، فهذه سابقة من نوعها. عندما أحضرها كاز إلى سلات، حذرها من أنه لن يستطيع الاعتناء بها وأنها يجب أن تدافع عن نفسها، وهذا ما فعلته. كان من السهل أن تدير ظهرها وتمضي بعيدًا عندما يسخرون منها أو يتقربون منها ويطلبون معانقتها، ولكن لو فعلت هذا فسرعان ما ستجد مَن يضع يده على جسدها أو يحاول نيل شيء منها رغمًا عنها. لذلك لم تسمح لأي إهانة أو إساءة بأن تمر مرور الكرام. فسددت للمتجاوزين أولًا الضربات وبقوة. وأحيانًا ما كانت تصيبهم بجروح بسيطة. إنه أمر مرهق ولكن ليس هناك شيء مقدس في كيرتش باستثناء التجارة؛ لذلك تخلت عن عاداتها في حساب المكسب والخسارة عندما يتعلق الأمر بكرامتها والتقليل من شأنها.

وضع روجاك أصابعه على الكدمة التي ظهرت على وجهه الذي ظهرت عليه علامات الدهشة والشعور بالغدر وقال معترضًا: «لقد اعتقدت أننا أصبحنا أصدقاء».

المؤسف في الأمر أنهما صديقان بالفعل. وقد أعجبت إيناج به. ولكنه الآن مجرد رجل خائف يريد أن يحافظ على مظهره.

قالـت إينـاج: «روجـاك. لقـد رأيتـك وأنـت تـوزع الـورق وأعـرف مهارتـك. يمكنـك الحصـول عـلى وظيفـة في أي صالـة أخـرى. عـد إلى منزلـك واشـعر بالامتنـان لأن كاز لم يقطعـك إربًـا ليحصـل عـلى مـا تديـن بـه إليـه؛ هـه؟».

مـشى روجـاك وهـو يهتـز في مشـيته ممسـكًا خديـه مثـل طفـل مذهـول، ثـم اقـترب جاسـبر منهـا.

«إنه محق كما تعلمين. يجب ألا يرسلك كاز للقيام بعمله القذر».

«كل الأعمال قذر».

قال بتحسر: «ولكننا نفعلها بالطريقة نفسها».

«تبدو متعبًا. ألن تنام في ليلتك هذه؟».

رمشـت عينـا جاسـبر وقـال: «ليـس مـع هـذه الأوراق الرابحـة. ابقـي والعبـي قليـلًا. سـوف يراهـن كاز عليـك».

قالـت إينـاج وهـي تضـع غطـاء رأسـها: «حقًـا جاسـبر؟ لـو أردت أن أشـاهد الرجـال وهـم يحفـرون حفـرة ليقعـوا فيهـا لذهبـت إلى المقابر».

صـاح جاسـبر وهـي تعـبر الأبـواب المزدوجـة الكبـيرة نحـو الشـارع: «هيـا يـا إينـاج. أنـت محظوظـة للغايـة».

قالـت إينـاج لنفسـها: «بحـق القديسـين. لـو اعتقـد هـذا فربمـا يكـون يائسًـا بالفعـل». لقـد تركـت إينـاج الحـظ وراءهـا في معسـكر سـولي عـلى الشـاطئ في غـرب رافـكا. وتعتقـد أنـه لـن يحالفهـا مـرة أخـرى.

والآن تركـت غرفتهـا الصغـيرة في سـلات ونزلـت السـلالم عـن طريـق الدرابزيـن. لم يوجـد سـبب يدعوهـا إلى إخفـاء تحركاتهـا هنـا، ولكنهـا أصبحـت معتـادة الصمـت والسـلالم تصـدر صريـرًا مثـل الفئـران. عندمـا وصلـت إلى الطابـق الثـاني رأت الآخريـن مجتمعـين بالأسـفل فتراجعـت إلى الـوراء.

لقـد واجـه كاز مخاطـر أكـثر مـما كانـت في الحسـبان، وحالمـا دخـل الردهـة القائمـة، أحـاط بـه جميـع مَـن يريـدون تهنئتـه عـلى تغلبـه عـلى جيلـز وسـؤاله عـن أخبـار البـلاك تيبـس.

قالت أنيكا: «تقول الشائعات إن جيلز يعد العدة للهجوم علينا».

قال ديريكس بصوت هادر: «دعيه. معي مقبض فأس واسمه محفور عليه».

رد كاز وهو يمشي عبر الردهة: «لن يفعل جيلز شيئًا لفترة من الوقت. لا يملك أعدادًا كافية لمواجهتنا في الشوارع، وخزائنه خاوية؛ فلن يستطيع الاستعانة بالمزيد من الرجال. أليس من المفترض أن تكونوا في طريقكم إلى نادي الغراب؟».

كان الحاجب المرفوع كافيًا ليجعل أنيكا تنطلق مبتعدة وديريكس في أعقابها. أتى آخرون ليقدموا التهنئات أو يلقوا التهديدات ضد البلاك تيبس. لم يجرؤ أحد على أن يربت ظهر كاز رغم أنها طريقة جيدة لخسارة يد.

عرفت إيناج أن كاز سيذهب للتحدث مع بير هاسكيل، لذلك بدلًا من نزول الطابق الأخير من السلالم مشت عبر الصالة. فوجدت خزانة تعج بأغراض متنوعة، كراسي ذات ظهور مكسورة ولوحات نثر عليها الطلاء. وضعت إيناج جانبًا دلوًا يمتلئ بمواد التنظيف قد تركته هناك خصيصًا لأنها تعرف أن لا أحد في منزل سلات سوف يلمسه. وأضفت القضبان الحديدية أسفله رؤية مثالية لمكتب بير هاسكيل. شعرت بشيء من الذنب لأنها تتنصت على كاز ولكنه الشخص الذي حولها إلى جاسوسة. فعندما تدرب صقرًا لا تنتظر منه ألا يقوم بالصيد.

عبر القضبان سمعت إيناج كاز وهو يدق على باب بير هاسكيل وصوت تحيته.

قال الرجل العجوز: «عدت وما زلت تتنفس؟» واستطاعت إيناج أن تراه يجلس في مقعده المفضل ويعبث بنموذج سفينة استغرق صنعها منه جزءًا كبيرًا من العام، وكوب من العصير في متناول يده كالعادة.

«لن تواجه مشكلة مع الميناء الخامس مرة أخرى».

قال هاسكيل بصوت كالغطيط: «أغلق الباب»، وعاد إلى نموذج السفينة.

سمعت إيناج صوت إغلاق الباب الذي كتم الأصوات القادمة من الردهة. واستطاعت أن ترى الجزء الأعلى من رأس كاز. ورأت أن شعره الغامق مبلل؛ فربما بدأت السماء تمطر.

قال هاسكيل: «كان عليك أن تطلب إذني قبل التعامل مع بوليجر».

«لو تحدثت معك أولًا لانتشر الخبر ——»

«هل تعتقد أنني سأسمح بحدوث هذا؟».

رفع كاز كتفيه وقال: «هذا المكان مثل أي شيء آخر في كتردام. إنه يسرب». وكادت إيناج تقسم إنه نظر مباشرةً إلى الفتحة عندما قال هذا.

«لا أحب هذا يا فتى. بيج بوليجر هو أحد جنودي وليس من جنودك».

قال كاز: «بالطبع» ولكن كليهما يعرف أنها كذبة. فرجال هاسكيل من الحرس القديم من المحتالين والنصابين من زمن آخر. وبوليجر أحد أعضاء طاقم كاز- دماء جديدة وشاب لا يخشى شيئًا. ربما يبالغ في عدم الخوف.

«أنت ذكي بريكر ولكن يجب أن تتعلم الصبر».

«نعم سيدي».

أطلق الرجل العجوز ضحكمة عالية وقال ساخرًا: «نعم سيدي. لا سيدي. أعلم أنك تخطط لشيء ما عندما تتصرف بطريقة مهذبة. ما الذي يختمر في عقلك؟».

قال كاز: «مهمة جديدة. ربما أحتاج إلى الذهاب لفترة من الوقت».

«ستدر علينا مالًا كثيرًا».

«للغاية».

«مخاطر كبيرة؟».

«نعم أيضًا. ولكنك ستحصل على نسبتك عشرين بالمائة».

«لا تتخذ أي خطوات كبيرة دون أن آذن بذلك؛ مفهوم؟» ربما أومأ كاز برأسه لأن بير هاسكيل مال إلى الوراء في كرسيه وأخذ رشفة من العصير ثم قال: «هل سنصبح أثرياء جدًّا؟».

«أثرياء مثل قديسين على رؤوسهم تيجان من الذهب».

قال الرجل العجوز بصوت كالغطيط: «ما دمت لست مضطرًا إلى العيش مثل أحدهم».

«سوف أتحدث مع بيم. فهو يستطيع الاعتناء بالأمور خلال غيابي». قطبت إيناج حاجبيها. أين سيذهب كاز؟ لم يذكر لها أي مهمة كبيرة. ولماذا بيم؟ جعلتها الفكرة تشعر بالقليل من الخزي. وتخيلت سماع صوت والدها وهو يقول: «تتلهفين كثيرًا لأن تصبحي ملكة اللصوص، إيناج؟» فالقيام بالعمل على أحسن ما يكون شيء، والرغبة في النجاح فيه شيء آخر. لم ترد مكانًا دائمًا مع الدريجز، بل أرادت دفع ديونها والتحرر من كتردام إلى الأبد، ولذلك فلماذا يجب أن تهتم بما إذا كان كاز قد اختار بيم لإدارة شؤون العصابة في غيابه؟ ردت إيناج على نفسها: «لأنني أذكى منه. لأن كاز يثق بي أكثر منه». ولكن ربما لأن كاز لا يثق بأن الطاقم سيرضى باتباع فتاة مثلها خرجت من بيت سيئ السمعة منذ عامين فقط ولم تبلغ السابعة عشرة من عمرها بعد. ارتدت إيناج أكمامًا طويلة وغطى غمد سكينها على ساعدها الأيسر معظم الندوب التي كانت فيما مضى وشم ميناجري ولكنهم جميعًا يعرفون أنه الوشم بالفعل.

خرج هاسكيل من غرفة كاز وتركت إيناج موضعها لتنتظره خلال صعوده الأعرج على السلالم.

سأل كاز خلال مروره بها والبدء في الصعود نحو الطابق الثاني: «روجاك؟».

قالت وهي تسير وراءه: «رحل».

«هل افتعل شجارًا؟».
«لا شيء لم أستطع التعامل معه».
«ليس هذا ما طلبته».
«لقد استشاط غضبًا. ربما يعود للبحث عن المتاعب».
قال كاز عندما وصل الاثنان إلى الطابق الأعلى: «وهل اختفت المتاعب يومًا؟». تم تحويل غرف العلية إلى مكتب وغرفة نوم له. تعرف إيناج أن كل هذه الطوابق والسلالم تؤلم رجله المتعبة، ولكن يبدو أنه يحب حصوله على الطابق بأكمله لنفسه.
دخل كاز المكتب وقال دون أن ينظر إليها: «أغلقي الباب».
وجدت مكتبًا مؤقتًا -باب مستودع قديم فوق صناديق فاكهة مكدسة- يشغل معظم مساحة الغرفة وعليه أكوام كبيرة من الأوراق. وبدأ بعض رؤساء الصالة استخدام آلات حسابية تصدر أصواتًا كالطقطقة وتكتظ بأزرار نحاسية جامدة وبكرات من الورق، ولكن كاز أجرى حسابات نادي الغراب في رأسه. فقد احتفظ بسجلات ولكن من أجل الرجل العجوز فقط، ولكي يجد شيئًا يستشهد به عندما يصف أحدًا بالغش أو عند البحث عن مستثمرين جدد.
وهذا هو أحد التغييرات الكبيرة التي أجراها كاز في العصابة. منح كاز أصحاب المتاجر العاديين ورجال الأعمال القانونيين الفرصة لشراء أسهم في نادي الغراب. في البداية تشككوا في الأمر. فالأمر بالطبع نوع من الاحتيال، ولكن استطاع كاز إقناعهم بالمشاركة بحصص ضئيلة ونجح في جمع رأس مال يكفي لشراء المبنى القديم المتداعي وإصلاحه وتنظيمه وتشغيله. وعاد هذا بمكاسب كبيرة على المستثمرين الأوائل؛ أو هكذا تقول القصة الرائجة. فلم تستطع إيناج مطلقًا معرفة أي القصص المتعلقة بكاز حقيقية وأيها شائعات اختلقها لخدمة أهدافه الشخصية. كل ما تعرفه أنه احتال على تاجر شريف مسكين وسلبه مدخرات حياته لكي ينجح نادي الغراب.

قـال كاز وهـو يقلـب في سـجلات حسـابات الأيـام السـابقة: «لـديَّ مهمـة لـك». ومـرت كل صفحـة عـلى ذاكرتـه بعـد مجـرد نظـرة واحـدة فحسـب. ثـم قـال: «مـا رأيـك في أربعـة ملايـين كـروج؟».

«إن المال لعنة أكثر من كونه هدية».

قـال كاز بكلـمات تقطـر سـخرية: «فتـاة السـولي المثاليـة. كل مـا تحتاجـين إليـه هـو معـدة ممتلئـة وطريـق مفتـوح؟».

«وقلب مطمئن يا كاز». وهذا هو الجزء الصعب.

عندئـذ ضحـك كاز بينـما سـار عـبر البـاب نحـو غرفـة نومـه الصغـيرة. ثـم قـال: «لا أمـل في هـذا. أنـا أفضـل النقـود. هـل تريديـن المـال أم لا؟».

«أنت لا تقدم هدايا مجانية. ما المهمة؟».

«مهمـة مسـتحيلة تصـل إلى المـوت المؤكـد واحتمالاتهـا مرعبـة ولكـن لـو نجحنـا فيهـا...». ثـم صمـت وأصابعـه عـلى أزرار صديريتـه وهـو ينظـر بعيـدًا نظـرة حالمـة. ونـادرًا مـا سـمعت إينـاج مثـل هـذه الإثـارة في صوتـه الأجـش.

فقالت لتحثه على إكمال حديثه: «لو نجحنا فيها؟».

ابتسـم كاز ابتسـامة عريضـة ومفاجئـة وغـير متوقعـة مثـل قصـف الرعـد، وتـكاد عينـاه تقتربـان مـن سـواد القهـوة المـرة، ثـم قـال: «سـنصبح ملـوكًا وملـكات يـا إينـاج. ملـوكًا وملـكات».

وقفـت إينـاج دون أن تعلـق بـشيء وتظاهـرت بالنظـر إلى إحـدى سـكاكينها وقـد عقـدت العـزم عـلى تجاهـل تلـك الابتسـامة. ليـس كاز فتـى طائشًـا يكـثر الابتسـام ووضـع الخطـط المسـتقبلية معهـا. فهـو لاعـب خطـير دائمًـا مـا يحيـك شـيئًا مـا. دائمًـا. ذكـرت إينـاج نفسـها بهـذا. واسـتمرت في النظـر بعيـدًا ونظمـت مجموعـة مـن الأوراق في كومـة واحـدة عـلى المكتـب، بينـما خلـع كاز صديريتـه وقميصـه. لم تعـرف إينـاج عـلى نحـو مؤكـد مـا إذا كان كاز يتملقهـا أم يهينهـا؛ فلقـد بـدا أنـه لا يحفـل كثـيرًا بوجودهـا.

سألت إيناج وهي تلقي نظرة سريعة عليه عبر الباب المفتوح: «كم سنغيب؟»، رأت عضلات مشدودة وندوبًا واثنين فقط من الوشوم - غراب وكأس الدريجز على ساعده وفوقه حرف R على عضلته العضدية الثنائية. ولكن لم تسأل مطلقًا عن معناه.

أما يداه، فهما الشيء الذي جذب انتباهها عندما خلع قفازه الجلدي وغمس قماشة في المياه في حوض الغسيل. لم ينزع كاز القفاز الجلدي مطلقًا إلا في هذه الغرف وعلى حسب علمها، أمامها فقط. أيًا كانت المحنة التي ربما يخفيها كاز لم تر لها إيناج أثرًا. لم تر إلا أصابع نحيلة تصلح لفتح الأقفال وجزءًا لامعًا من نسيج الندوب التي حدثت منذ زمن طويل بسبب مشاجرات الشوارع.

قال كاز وهو يضع القماش المبلول تحت ذراعيه والزوايا الحادة في صدره والماء يتقاطر نحو جذعه: «أسابيع قليلة، وربما شهرًا».

قالت إيناج لنفسها وقد احمر خداها: «بحق القديسين». فقدت إيناج معظم شعورها بالحياء خلال وجودها مع ميناجري ولكن في الحقيقة هناك حدود. فما الذي سيقوله كاز لو تجردت من ملابسها فجأة وبدأت تغتسل أمامه؟ فأجابت على نفسها قائلة بعبوس: «ربما يأمرني بألا أوقع الماء على مكتبه».

قالت: «شهرًا؟ هل أنت واثق بقرار مغادرتك في هذا التوقيت والبلاك تيبس يستشيطون غضبًا؟».

«هذا هو الرهان الصحيح. وبالمناسبة، أخبري جاسبر وموزين بأني أريدهما هنا بحلول الفجر. وسوف أحتاج من ويلان إلى أن ينتظر في نادي الغراب ليلة الغد».

«ويلان؟ لو كانت هذه مهمة كبيرة ———————».

«افعلي ما تؤمرين به فحسب».

عقدت إيناج ذراعيها أمامها. فتارة يجعلها تحمر خجلًا وتارة يجعلها ترغب في قتل أحدهم، ثم قالت: «هل ستقدم تفسيرًا لكل هذا؟».

قال: «عندما نلتقي جميعًا». أخذ يرتدي قميصًا نظيفًا ثم تردد وهو يغلق الياقة، وأكمل قائلًا: «هذا ليس تكليفًا إيناج، بل هي مهمة يمكنك قبولها أو رفضها حسبما ترينه مناسبًا».

شعرت إيناج بجرس إنذار يدوي بداخلها. فهي تعرض نفسها للخطر كل يوم في شوارع باريل. لقد قتلت وسرقت وأطاحت برجال سيئين وجيدين من أجل الدريجز ولم يتحدث كاز مطلقًا عن أي من هذه المهام إلا في شكل أوامر يجب إطاعتها. فهذا هو الثمن الذي وافقت على دفعه عندما اشترى بير هاسكيل عقدها وحررها من ميناجري. إذًا، ما المختلف في هذه المهمة؟

انتهى كاز من إغلاق أزرار القميص ثم ارتدى صديرية لونها كالفحم وقذف إليها شيئًا ما. لمع هذا الشيء في الهواء وأمسكته إيناج بيد واحدة. وعندما فتحت قبضتها رأت دبوس رابطة عنق به ياقوتة ضخمة تحيطها أوراق غار ذهبية.

قال كاز: «بيعيها».

«ملك مَن؟».

«ملكنا الآن».

«كانت ملك مَن؟».

ظل كاز صامتًا. ورفع معطفه واستخدم فرشة لتنظيفه من الطين الجاف ثم قال: «شخص يجب أن يفكر جيدًا قبل أن يهاجمني على حين غرة».

«هاجمك؟».

«لقد سمعتني».

«هل أوقع بك شخص ما؟».

نظر كاز إليها وأومأ مرة. فسرت قشعريرة في جسدها ثم تحولت إلى شعور بالقلق والاضطراب. لا أحد يفوق كاز براعة. إنه الشخص الأكثر قسوة وإثارة للخوف في أزقة باريل. وهي تعتمد على هذا. وهو أيضًا.

قال كاز: «لن يحدث هذا مرة أخرى».

ثم ارتدى زوجًا من القفازات النظيفة والتقط عصاه وخرج من الباب وقال: «سوف أعود خلال ساعات معدودة. انقلي لوحة ديكابل التي أخذناها من منزل فان إيك إلى الخزانة. أعتقد أنها مطوية تحت سريري. آه، واطلبي لي قبعة جديدة».

«رجاءً.

أطلق كاز تنهيدة وهو يستعد لنزول ثلاثة طوابق من السلالم المؤلمة. ثم نظر من فوق كتفه وقال: «رجاءً عزيزتي إيناج يا قرة عيني، هلا تمنحينني شرف شراء قبعة جديدة من أجلي؟».

ألقت إيناج نظرة ذات مغزى على عصاه وقالت: «لتبدأ رحلتك الطويلة إلى أسفل الدرج»، ثم قفزت إلى الدرابزين وانزلقت من طابق إلى الآخر في حركات رشيقة كالفهد.

-٥-

كاز

سار كاز بمحاذاة قناة إيست ستيف نحو الميناء عبر بدايات حي المقامرة في باريل. هناك قناتان كبيرتان تحيطان بمنطقة باريل؛ قناة إيست ستيف وقناة ويست ستيف. وكل واحدة منهما تخدم مجموعة معينة من الزبائن وتفصل بينهما كتلة من الشوارع الضيقة والمجاري المائية الصغيرة. وتختلف المباني في باريل عن أي مكان آخر في كتردام، فهي أكبر وأوسع ومطلية بجميع الألوان المبهرجة وتصرخ طلبًا لاهتمام العابرين - صندوق الكنز ووتر القوس الذهبي وقارب ويديلز النهري. وتقع أفضل صالات القمار في أقصى الشمال في العقارات الممتازة في ليد؛ وهي منطقة القناة الأقرب إلى الموانئ والتي تحتل أفضل موقع لجذب السائحين والبحارة القادمين عن طريق الموانئ.

قال كاز لنفسه متأملًا: «ولكن ليس كنادي الغراب»، وهو ينظر إلى الواجهات السوداء والقرمزية. لقد تطلب الأمر الكثير لجذب السائحين والتجار المتلهفين للمخاطرة هذه المسافة البعيدة في الجنوب من أجل المتعة، والآن تقترب الساعة من الثانية صباحًا ورغم ذلك، هناك الكثير من الحشود خارج النادي. شاهد كاز أفواج المتدفقين عبر الأعمدة السوداء للرواق تحت العين الساهرة للغراب المطلي بالفضة المؤكسدة، والذي ينشر جناحيه فوق المدخل. فكر كاز: «اللهم بارك في الحمقى. بارك في جميع أنواع الأشخاص الذين يفرغون محافظهم في خزائن الدريجز، ويطلقون على هذا وقتًا ممتعًا».

استطاع كاز رؤية «الموجهين» الذين يهتفون على الزبائن المحتملين ويعرضون عليهم مشروبات مجانية وقهوة ساخنة وأفضل العروض

في كتردام. فحياهم بإيماءة واستمر في الاتجاه شمالًا.

ولم يهتم إلا بوكر قمار واحد فقط: قصر الزمرد؛ مصدر فخر وبهجة بيكا رولينز. وهو مبنى مطليّ بلون أخضر قبيح ومزين بأشجار صناعية عليها عملات ذهبية وفضية مزيفة. وزينة المكان بأكمله نوع من التكريم لتراث رولينز كاليش وعصابته أسود الدايم، وحتى الفتيات اللاتي يعملن على عدادات الرقاقات والطاولات يرتدين أثوابًا حريرية خضراء لامعة ومصبوغة بلون أحمر غامق غير طبيعي، لتقليد الفتيات من جزيرة وندرينج. خلال عبور كاز، ألقى نظرة على العملات الذهبية الزائفة وترك الغضب يسيطر عليه، وقد احتاج إليه الليلة ليذكر نفسه بالأشياء التي خسرها وبالأشياء التي يمكن أن يفوز بها. واحتاج إليه أيضًا لإعداد نفسه لهذا المسعى الخطر.

قال كاز لنفسه: «خطوة بخطوة». فهذه الكلمات الوحيدة هي التي تبقي غضبه مستعرًا وتمنعه من عبور الأبواب الذهبية والخضراء المبهرجة لقصر الزمرد. وطلب لقاء خاصًّا مع رولينز، وكرر «خطوة بخطوة». فهذا هو الوعد الذي يجعله ينام ليلًا ويشجعه على العمل كل يوم ويبقي شبح جوردي بعيدًا عنه؛ لأن الموت السريع سيكون رحمة لبيكا رولينز.

شاهد كاز تدفق الزبائن ذهابًا وإيابًا من أبواب القصر، وألقى نظرة سريعة على الموجهين التابعين له من الرجال والنساء الذين استأجرهم لإغراء زبائن بيكا بالذهاب إلى الجنوب مع فرص حصولهم على عروض أفضل وجوائز أكبر وفتيات أجمل هناك.

قال أحد الموجهين إلى الآخر وهو يتحدث بصوت أعلى من اللازم: «من أين أتيت؟ تبدو مبتهجًا للغاية».

«عدت للتو من نادي الغراب. فزت هناك بمائة كروج خلال ساعتين فقط».

«حقًّا!».

«حقًّا. لقد أتيت إلى هنا من أجل الجعة ومقابلة صديق. لِمَ لا تنضم إلينا وسوف نذهب جميعًا؟».

«نادي الغراب! مَن يفكر في هذا؟».

«هيا سوف أشتري لك شرابًا. سوف أشتري شرابًا للجميع».

بينما سار الاثنان يضحكان تاركين وراءهما جميع من سمعوا الحوار المفتعل وهم يتساءلون عما إذا كان يجب عليهم أن يجتازوا بضعة جسور نحو جنوب القناة، والتأكد مما إذا كانت فرص المتعة والمكسب أفضل حالًا هناك أم لا - فالطمع خادم كاز الذي يغريهم بالذهاب جنوبًا كأنه ناي سحري.

حرص كاز على تبديل الموجهين وتغيير الوجوه لكي لا يكشف مروجو وحراس بيكا الأمر. فقد استولى على أعمال أميرالد ويحسبهم عملاءهم الواحد تلو الآخر. وهذه إحدى الطرق اللا نهائية التي اكتشفها كاز لتقوية نفسه على حساب بيكا - كاعتراض شحنات اليوردا الخاصة به وفرض رسوم عليه من أجل الوصول إلى الميناء الخامس، وخفض الإيجارات كثيرًا لجعل عقارات بيكا خالية من المستأجرين، وشيئًا فشيئًا نسج الخيوط التي تشكل قوام حياته.

رغم الأكاذيب التي نشرها والادعاءات التي قالها لجيلز الليلة، فإن كاز ليس وغدًا. ليس من كتردام حتى. كان في التاسعة من عمره وجوردي في الثالثة عشرة عندما وصلا إلى المدينة لأول مرة، وشيك بيع مزرعة والدهما مخيط ومحفوظ بعناية في الجيب الداخلي للمعطف القديم الذي يرتديه جوردي. ويتذكر كاز منظره وقتها. فقد سار بجوار قناة ستيف بعينين مبهورتين ويده تمسك بيد جوردي لكي لا يتوه في الزحام. وكره كاز حالتهما وهما طفلان ساذجان غبيان ينتظران مَن يخدعهما، ولكن رحل هذان الطفلان منذ وقت طويل ولم يبق سوى بيكا رولينز الذي يجب عقابه.

يومًا ما سيأتي رولينز إلى كاز زاحفًا على ركبتيه يتوسله طلبًا للمساعدة، ولو نجح كاز في مهمة فان إيك، فسوف يأتي هذا اليوم

أسرع مـما يرجـو. قـال لنفسـه: «خطـوة بخطـوة سـوف أدمـرك».

ولكـن لـو بـدا أي أمـل لنجـاح كاز في التسـلل إلى محكمـة الجليـد، فإنـه يحتـاج إلى الطاقـم المناسـب وسـوف يقربـه عمـل السـاعة التاليـة مـن الحصـول عـلى اثنتـين مـن القطـع الحيويـة للغايـة في حـل اللغـز.

اتجـه كاز إلى ممـشى يحـاذي إحـدى القنـوات الصغـيرة. يحـب السـائحون والتجـار البقـاء في الطرقـات المضـاءة جيـدًا؛ لذلـك فـإن حركـة المشـاة هنـا أقـل وأصبـح باسـتطاعة كاز المـشيء بوتـيرة أسرع. سرعـان مـا ظهـرت الأضـواء والموسـيقى الصـادرة عـن قنـاة ويسـت سـتيف. واكتظـت القنـاة بالرجـال والنسـاء مـن كل الطبقـات والبلـدان السـاعين وراء المتعـة.

فالموسـيقى تصـدر عـن الصالونـات التـي فتحـت أبوابهـا عـلى مصراعيهـا، والرجـال والنسـاء يسـتلقون عـلى أرائـك ويرتـدون قطعًـا صغـيرة مـن الحريـر والحـلي المبهرجـة. ويتـدلى البهلوانـات مـن حبـال فـوق القنـاة أجسـام رشـيقة لا ترتـدي شـيئًا سـوى حـلي صغـيرة لامعـة، بينـما يعـزف فنانـو الشـوارع عـلى آلاتهـم الموسـيقية أمـلًا في الحصـول عـلى عملـة معدنيـة أو اثنتـين مـن المـارة، والباعـة المتجولـون يصيحـون عـلى مراكـب التجـار الأثريـاء الصغـيرة الأنيقـة التـي تسـير في القنـاة والمراكـب الكبـيرة التـي تجلـب السـائحين والبحـارة مـن منطقـة ليـد.

لا يدخـل الكثـير مـن السـائحين البيـوت سـيئة السـمعة في ويسـت سـتيف مطلقًـا، ولكنهـم يأتـون فحسـب مـن أجـل مشـاهدة الحشـود التـي تعتـبر منظـرًا يسـتحق المشـاهدة. ويختـار العديـد مـن النـاس زيـارة هـذا الجـزء مـن باريـل وهـم متنكـرون - بالأوشـحة أو الأقنعـة أو الأرديـة التـي لا يظهـر منهـا شيء سـوى أعينهـم. وهـم يشـترون ملابسـهم التنكريـة مـن أحـد المتاجـر المتخصصـة التـي تطـل عـلى القنـوات الكبرى وأحيانًـا يتركـون رفاقهـم ليـوم أو أسـبوع أو حسـب المـدة التـي تسـمح بهـا أموالهـم. فيرتـدون ملابـس مثـل شـخصية السـيد كريمسـون أو العـروس الضائعـة أو يرتـدون قناعًـا غريـب الشـكل بعينـين جاحظتـين

مثل شخصية الرجل المجنون - وجميعها شخصيات تقدمها مجموعة كوميدي بروت، وهناك أيضًا مجموعة من الرجال والفتيان الذين يجوبون شوارع باريل وهم يرتدون أقنعة مطلية باللون الأحمر خاصة بـ «عرافي» سولي.

تذكر كاز عندما رأت إيناج هذه الأقنعة لأول مرة في إحدى نوافذ المتاجر. لم تستطع إخفاء شعورها بالاحتقار وهي تقول: «عرافو سولي الحقيقيون نادرون. إنهم رجال ونساء مقدسون. هذه الأقنعة التي يوزعونها هنا وهناك مثل هدايا الحفلات رموز مقدسة».

«لقد رأيت عرافين من السولي يمارسون حرفتهم في القوافل وسفن النزهة يا إيناج، ولم تبد عليهم هذه القداسة».

«إنهم مدعون. يجعلون من أنفسهم مهرجين من أجلك أنت ومَن على شاكلتك».

ضحك كاز وهو يقول: « ومَن على شاكلتي؟».

لوحت بيدها والاشمئزاز بادٍ على وجهها وهي تقول: «شيفراتي. الذين لا يفقهون شيئًا. إنهم يضحكون عليكم من وراء تلك الأقنعة».

«ليس عليَّ يا إيناج، فأنا لم أقدم يومًا مالي الثمين لأي شخص - سواء أكان محتالًا أم شخصًا ذا شأن - لكي يخبرني بمستقبلي».

«يضع القدر خططًا لنا جميعًا يا كاز».

«هل القدر هو الذي اختطفك من عائلتك ورماك في أحد بيوت المتعة في كتردام؟ أم أن هذا مجرد ظرف سيئ فحسب؟».

أجابت ببرود: «لست متأكدة بعد».

في مثل هذه اللحظات يعتقد كاز أن إيناج ربما تكرهه.

شق كاز طريقه عبر الحشود كأنه مجرد ظل في هذه اللوحة المليئة بالألوان. كل بيت من بيوت المتعة الكبرى يتخصص في شيء ما، وبعض هذه الأمور أكثر وضوحًا من الأخرى. مر كاز أمام بلو إيريس وباندي كات والرجال الملتحين الذين يطلون من نوافذ فورج، ومر على أوبسكيورا وويلو سويتش والشقراوات ذوات

الأعين البراقة في منزل الثلج، وبالطبع ميناجري الذي يُعرف أيضًا بمنزل العجائب حيث أجبرت إيناج على ارتداء ملابس من الحرير المزيف. رأى كاز الخالة هيلين التي ترتدي ريش الطاووس وعقدها الشهير من الألماس وهي جالسة في صالة استقبال مذهبة وهي محاطة بالأتباع. وتدير الخالة هيلين ميناجري وتجلب الفتيات وتحرص على تعليمهن حسن السلوك. عندما رأت كاز، زمت شفتيها ورفعت كأسها في إشارة أقرب إلى التهديد منها إلى التحية. فتجاهلها كاز واستمر في طريقه.

منزل الوردة البيضاء هو إحدى المنشآت الفخمة في ويست ستيف. وهو يتفرد برصيفه الخاص وواجهته الحجرية البيضاء اللامعة. ويبدو كمنزل أحد التجار وليس بيتًا للمتعة. وتزخر صناديق نوافذه بالزهور البيضاء المتسلقة التي تعبق رائحتها الذكية هذا الجزء من القناة.

انتشر العطر بشكل أكثر قوة في صالة الاستقبال، وضمت المزهريات المرمرية الضخمة الكثير من الزهور البيضاء، والرجال والنساء -الذين يرتدي بعضهم أقنعة أو أوشحة وبعضهم بلا شيء على وجهه- ينتظرون على الأرائك ويتناولون عصيرًا عديم اللون تقريبًا وكعك الفانيلا المنقوع في شراب اللوز.

ارتدى الفتى وراء المكتب بدلة مخملية قشدية اللون بها وردة بيضاء في العروة. وشعره وعيناه أبيضان بلون البيض المسلوق. وباستثناء العينين، بدا الفتى كأنه أمهق، ولكن كاز عرف أن أحد الغريشا العاملين هناك جعله يبدو كذلك ليتلاءم مع ديكورات المنزل.

قال الفتى: «سيد بريكر. نينا مع أحد الزبائن».

أومأ كاز وتسلل إلى مدخل وراء شجرة ورد موضوعة في أصيص وهو يقاوم الرغبة في دفن أنفه في الباقة. يحب العم فيليكس، الرجل الذي يدير الوردة البيضاء، أن يقول إن فتيات منزله جميلات

مثل أزهاره. وهذه المزحة تنطلي على زبائنه فقط. فليس النوع الوحيد من الزهور البيضاء الذي يستطيع النجاة في طقس كتردام الرطب يتمتع برائحة جميلة؛ لذلك فإنهم يعطرون الزهور جميعها بطريقة يدوية.

أخذ كاز يتحسس بأصابعه الألواح وراء الشجرة الموضوعة في الأصيص وضغط بإبهامه على ثقب في الحائط، فانفتح الحائط وصعد سلمًا لولبيًّا لا يستخدمه سوى العاملين هناك فقط.

تقع غرفة نينا في الطابق الثالث. وجد كاز باب الغرفة بجانبها مفتوحًا والغرفة خالية؛ لذلك تسلل داخلها وحرك تمثالًا جانبًا ووضع وجهه على الحائط. كانت ثقوب التلصص أمرًا مألوفا في جميع البيوت سيئة السمعة. فهذه هي الطريقة للحفاظ على سلامة الموظفين وصدقهم، كما أنها تقدم الإثارة لأي شخص يستمتع بمشاهدة الآخرين وهم يحظون بالمتعة. لقد رأى كاز ما يكفي من سكان الأحياء الفقيرة وهم يبحثون عن المتعة في الحواري والأزقة المظلمة، لدرجة فقد معها هذا الأمر جاذبيته. علاوة على ذلك، عرف كاز أن أي شخص ينظر من خلال ثقوب التلصص ويأمل الحصول على الإثارة سوف يصاب بخيبة أمل شديدة.

جلس رجل أصلع بكامل ملابسه بجانب طاولة مستديرة عليها قماش عاجي اللون ويداه مطويتان بعناية بجانب صينية شاي فضية لم يمسسها أحد، ووقفت نينا زينيك وراءه وهي ترتدي الكفتا الحريرية الحمراء التي تعلن مكانتها كغريشا متلاعبة بالتنفس، وراحة يدها على جبهته والأخرى على مؤخرة عنقه. كانت نينا طويلة القامة وجميلة مثل تمثال نحتته يد فنان بارع. صمت الاثنان كأن على رأسيهما الطير. ولم يوجد سرير حتى في الغرفة بل أريكة رفيعة تتكور عليها نينا كل ليلة.

عندما سأل كاز نينا عن السبب، أجابت ببساطة: «لا أريد أن تراود أي شخص أي أفكار».

«لا يحتاج الرجل إلى سرير لكي تراوده الأفكار يا نينا».

طرفت عينا نينا وهي تقول: «ماذا تعرف عن هذا يا كاز؟ اخلع قفازك وسنرى الأفكار التي تخطر على بالك».

استمر كاز في النظر إليها بهدوء حتى توقفت عن التحديق إليه. لم يهتم بمغازلة نينا زينيك وعرف بالصدفة أنها ليست مهتمة به ولو من بعيد. فنينا تحب مغازلة كل شيء. رآها ذات مرة وهي تتطلع بشغف إلى زوج من الأحذية في نافذة أحد المتاجر.

جلست نينا والرجل الأصلع في صمت بينما يمر الوقت، وعندما رنت ساعة الحائط وقف الرجل وقبل يدها.

قالت نينا بلهجة مهيبة: «اذهب. لتنعم بالسلام».

قبل الرجل الأصلع يدها مرة أخرى والدموع في عينيه وقال: «شكرًا لك».

وحالما خرج الزبون إلى الردهة، خرج كاز من الغرفة المجاورة وطرق على باب نينا.

فتحت نينا الباب بحذر وسلسلة الباب معلقة، وقالت عندما رأت كاز: «آه. أنت».

لم تبد نينا سعيدة برؤيته. وليس هذا بالأمر الغريب. فنادرًا ما يعد ظهور كاز بريكر على عتبة بابك أمرًا جيدًا. أبعدت نينا السلسلة وسمحت له بالدخول وهي تخلع رداء الكفتا الحريري وتكشف عن قميص تحتي من النسيج الحريري رقيق جدًا لدرجة يكاد لا يكون معها قماشًا.

قالت: «بحق القديسين، أكره هذا الشيء»، وهي تركل رداء الكفتا بعيدًا وتخرج من أحد الأدراج عباءة رثة.

سأل كاز: «ماذا يعيبه؟».

فأجابت: «ليس مصنوعًا بشكل صحيح، ويسبب لي الحكة». صُنع الكفتا في كيرتش وليس رافكا – وهو رداء وليس زيًا رسميًا موحدًا. ويعرف كاز أن نينا لا ترتديه مطلقًا في الشارع؛ فهذا أمر بالغ

الخطـورة عـلى الغريشـا. وتعنـي عضويتهـا في الدريجـز أن أي شـخص يـسيء إليهـا سـيعرض نفسـه لعقـاب العصابـة، ولكـن لـن تهتـم نينـا كثيراً بانتقـام العصابـة لهـا لـو تمكـن أحدهـم مـن تقييدهـا عـلى إحـدى سـفن العبيـد التـي تأخذهـا نحـو المجهـول.

سـحبت لنفسـها كرسـيًا عـلى الطاولـة وأخرجـت قدميهـا مـن الشبشـب المرصـع بالجواهـر ودسـت أصابـع قدميهـا تحـت السـجادة البيضـاء المخمليـة. ثـم قالـت بسـعادة: «آه. هـذا أفضـل بكثـير». ثـم دفعـت إحـدى قطـع الكعـك مـن الطاولـة إلى فمهـا وتمتمـت: «مـا الـذي تريـده يـا كاز؟».

«هناك فتات فوق صدرك».

قالت وهي تأخذ قطعة أخرى: «لا يهمني. أنا في شدة الجوع».

هـز كاز رأسـه وهـو يشـعر بالدهشـة والإعجـاب مـن سرعـة تحـول نينـا مـن دور راهبـة غريشـا الحكيمـة. فقـد تخلـت عـن حرفتهـا الحقيقيـة. ثـم سـأل كاز: «هـل كان هـذا فـان ألاكسـتر؟».

«نعم».

«توفيـت زوجتـه منـذ شـهر وتشـهد أعمالـه انهيـارًا منـذ ذلـك الوقت، والآن يـزورك. هـل تتوقعـين حـدوث تحـول في أعمالـه التجارية؟».

لم تحتـج نينـا إلى سريـر لأنهـا متخصصـة في العواطـف، وتتعامـل ببهجـة وهـدوء وثقـة. يركـز معظـم غريشـا الكوربوراليـنـكي على الجسـد -مـن أجـل القتـل أو العـلاج- ولكـن احتاجـت نينـا إلى وظيفـة تبقيهـا في كـتردام بعيـدًا عـن المتاعـب؛ لذلـك بـدلًا مـن المخاطـرة بحياتهـا وجنـي المـال كأحـد المرتزقـة، عملـت نينـا المتلاعبـة بالتنفـس والقلـوب عـلى إبطـاء دقـات القلـب وتسـهيل التنفـس وإرخـاء العضـلات. وكذلـك حظيـت بعمـل مربـح كمغيرة لشـكل الإنسـان؛ حيـث تعتنـي بالتجاعيد والخـدود الممتلئـة لأثريـاء كيرتـش ولكـن مصـدر دخلهـا الأسـاسي يـأتي مـن تغيـير الحالـة المزاجيـة لهـم. فالنـاس يأتـون إليهـا وهـم يشـعرون بالوحـدة والحـزن والأسى لسـبب أو لآخـر ويغـادرون وهـم يشـعرون

بالبهجة وقد اختفى إحساسهم بالقلق. ولا يدوم التأثير طويلًا ولكن أحيانًا يكفي وهم السعادة فحسب لجعل زبائنها يشعرون بأنهم يستطيعون مواجهة يوم آخر. وترى نينا أن هذا شيء يتعلق بالغدد، ولكن لا يهتم كاز بالتفاصيل ما دامت تظهر وقتما يحتاج إليها وما دامت تدفع لبير هاسكيل نسبته في الوقت المحدد.

قالت نينا: «أتوقع أن ترى تغيرًا». وأنهت تناول القطعة الأخيرة وأخذت تلعق أصابعها باستمتاع ثم وضعت الصينية خارج الباب وقرعت جرسًا لتأتي الخادمة. ثم قالت: «بدأ فان ألاكستر القدوم في نهاية الأسبوع الماضي ومن ذلك الوقت وهو يأتي هنا كل يوم».

سجل كاز ملاحظة في عقله بأن يشتري بعض الأسهم المنخفضة لشركة فان ألاكستر وقال: «ممتاز». فحتى لو تغيرت الحالة المزاجية للرجل بسبب عمل أصابع نينا، فسوف ينتعش عمله التجاري. تردد كاز ثم قال: «أنت تجعلينه يشعر بتحسن وتخففين آلامه وكل هذه الأمور الأخرى المشابهة، ولكن هل تستطيعين إجباره على فعل شيء ما؟ ربما بأن تجعليه ينسى زوجته؟».

«أتتحدث عن تغيير المسارات في عقله؟ لا تكن سخيفًا».

قال كاز وهو يقتبس كلمات فان إيك: « الدماغ ليس سوى أحد أعضاء الجسم».

«أجل ولكنه معقد للغاية. فالتحكم في أفكار شخص آخر أو تغييرها.. حسنًا هذا لا يشبه تقليل معدل ضربات القلب أو إطلاق مادة كيميائية من أجل تحسين الحالة المزاجية لشخص ما. فهناك الكثير من المتغيرات. ولا يوجد غريشا يستطيع القيام بهذا».

قال كاز معقبًا عليها: «ليس بعد. إذًا أنت تعالجين الأعراض وليس الأسباب».

هزت نينا كتفيها بلا مبالاة وقالت: «إنه بزيارتي يتجنب الشعور بالحزن ولا يعالجه، ولو كنت أنا حله الوحيد، فلن يتخطى مطلقًا الحزن على وفاتها».

«هـل سـتنهين العمـل معـه إذًا؟ وتنصحينـه بالبحـث عـن زوجـة جديـدة والتوقـف عـن القـدوم إليـك؟».

بـدأت نينـا تمشـط شـعرها البنـي الفاتـح عندمـا نظـرت إلى كاز في المـرآة وقالـت: «وهـل يخطـط بـير هاسـكيل لإعفـائي مـن الديـون؟».

«لا، على الإطلاق».

«حسـنًا، إذًا عـلي أن أتـرك فـان ألاكسـتر يشـعر بالحـزن بطريقتـه الخاصـة حتـى أسـدد ديـوني. سـيحين موعـد زبـون آخـر بعـد نصـف سـاعة يـا كاز. مـا شـأنك؟».

«سوف ينتظر زبونك. ماذا تعرفين عن يوردا باريم؟».

هـزت نينـا كتفيهـا وقالـت: «هنـاك شـائعات ولكنـي أعتقـد أنهـا هـراء». باسـتثناء مجلـس المـد والجـزر، يعـرف الغريشـا القليلـون الذيـن يعملـون في كـتردام بعضهـم بعضًـا ويتبادلـون المعلومـات بسـهولة. ويفـر معظمهـم مـن شيء مـا ويحرصـون عـلى تجنـب لفـت أنظـار تجـار الرقيـق أو الحكومـة الرافكانيـة.

«إنها ليست مجرد شائعات».

«هـل هـم ممسـتحضرون للريـاح يطـيرون؟ أم مسـتحضرون للأمـواج يتحولـون إلى ضبـاب؟».مكتبة .. سُر مَن قرأ

«إنهـم صنـاع متلاعبـون يحولـون الرصـاص إلى ذهـب». ثـم مـد كاز يـده في جيبـه وقـذف إليهـا بالقطعـة الصفـراء وأكمـل قائـلًا: «إنهـا حقيقـة».

«يصنـع الصنـاع المنسـوجات، ويعبثـون بالمعـادن والأقمشـة. إنهـم لا يسـتطيعون تحويـل شيء إلى آخـر». ثـم رفعـت القطعـة أمـام الضـوء وقالـت مثلـما قـال لفـان إيـك قبـل سـاعات قليلـة: «يمكنـك الحصـول عليهـا في أي مـكان».

جلـس كاز دون أن تدعـوه نينـا عـلى الأريكـة المخمليـة ومـد رجلـه المصابـة وقـال: «يـوردا باريـم حقيقـة يـا نينـا، وإن كنـت لا تزالـين جنديـة صالحـة صغـيرة مـن الغريشـا كـما أعتقـد فسـوف ترغبـين في

سماع ما يفعله بقومك».

أخذت نينا تقلب القطعة في يديها، ثم شدت العباءة على نفسها بإحكام وجلست في نهاية الأريكة. مرة أخرى تعجب كاز من تحولها. في هذه الغرف تلعب نينا الدور الذي يريد زبائنها رؤيته- الغريشا القوية التي تمتلك الهدوء والمعرفة، ولكن بدت نينا خلال الجلوس هناك بحاجبين متغضنين وقدمين مثنيتين في الأسفل على حقيقتها: فتاة في السابعة عشرة عاشت في حماية وترف القصر الصغير بعيدًا عن وطنها وتتدبر أمرها بصعوبة كل يوم.

قالت: «أخبرني».

تحدث كاز وأحجم عن ذكر بعض تفاصيل اقتراح فان إيك، ولكنه أخبرها عن بو يول بايور ويوردا باريم والخصائص الإدمانية لهذه التركيبة، وتحدث باهتمام خاص عن السرقة الأخيرة للوثائق العسكرية الرافكانية.

«لو صح كل هذا، فيجب القضاء على بو يول بايور».

«هذه ليست المهمة المطلوبة يا نينا».

«هذا لا يتعلق بالمال يا كاز».

دائمًا ما يتعلق الأمر بالمال، ولكن يعرف كاز أنه يحتاج إلى نوع مختلف من الضغط. فنينا تحب بلدها وقومها. ولا تزال تؤمن بمستقبل رافكا وبالجيش الثاني الذي يعد نخبة الغريشا العسكرية التي تفككت خلال الحرب الأهلية. ويعتقد أصدقاء نينا في رافكا أنها ميتة ضحية لصائدي الساحرات الفيردانيين، وأرادت نينا حتى الآن إبقاء الأمر هكذا، ولكن كاز يعلم علم اليقين أيضًا عن أملها في العودة يومًا ما.

«نينا سوف نستعيد بو يول بايور وأحتاج إلى كوربوراليني للقيام بهذا. أريدك في طاقمي».

«أيًا كان المكان الذي يختبئ فيه إذا تركته حيًا عندما تجده، سيصبح أكثر تمردًا وغير مسؤول. إجابتي هي لا».

«إنه لا يختبئ. أمسك به الفيردانيون في محكمة الجليد».
صمتت نينا للحظة ثم قالت: «إذًا هو في عداد الموتى».
«لا يعتقد مجلس التجار هذا. إنهم لن يعرضوا أنفسهم لهذه المشقة ولن يقدموا هذه المكافأة لو اعتقدوا أنه قد تمت تصفيته. فان إيك يشعر القلق، ولقد رأيت هذا بنفسي».
«التاجر الذي تحدثت معه؟».
«نعم. إنه يدعي أن معلوماته صحيحة، ولو كانت غير ذلك سيلقي اللوم علي، ولكن لو اتضح أن بو يول بايور حيّ فسوف يحاول شخص ما اقتحام محكمة الجليد. فلماذا لا نقوم نحن ذلك؟».
قالت نينا وهو يعرف أنها بدأت تجميع القطع معًا: «محكمة الجليد. أنت لا تحتاج إلى كوربورالينكي فقط، أليس كذلك؟».
«نعم. أحتاج إلى شخص يعرف المحكمة من الداخل والخارج».
قفزت نينا واقفة وهي تضع يديها على خصرها وبدأت تذرع الغرفة جيئة وذهابًا وعباءتها ترفرف ثم قالت: «أنت وضيع، أتعلم هذا؟ كم مرة جئت إليك أتوسل إليك من أجل مساعدة ماتياس؟ والآن عندما تريد شيئًا...»
«بير هاسكيل لا يدير جمعية خيرية».
قالت نينا بحدة: «لا تتظاهر بأنها مسؤولية الرجل العجوز. أنت تعرف أن بإمكانك مساعدتي لو أردت ذلك».
«ولماذا أفعل هذا؟».
التفت نينا إليه وقالت: «لأن... لأن...»
«متى فعلت شيئًا بلا مقابل يا نينا؟».
فتحت نينا فمها وأغلقته مرة أخرى.
«هل تعلمين عدد الخدمات التي اضطررت إلى طلبها؟ أم عدد الرشاوى التي اضطررت إلى دفعها لإخراج ماتياس هيلفار من السجن؟ إن الثمن باهظ».

فقالت نينا وعيناها لا تزالان تشتعلان غضبًا: «والآن؟».

«الآن أصبحت حرية هيلفار تساوي شيئًا».

«إنها ـــــــــــــــــــــ»

رفع كاز يده ليقاطعها وقال: «تساوي شيئًا بالنسبة إلي».

وضعت نينا يدها على صدغها وقالت: «حتى لو استطعت الوصول إليه، لن يوافق ماتياس أبدًا على مساعدتك».

«يتعلق الأمر بالأداة المناسبة يا نينا».

«أنت لا تعرفه».

«ألا أعرفه؟ إنه إنسان مثله مثل غيره ينساق وراء الطمع والفخر والألم. يجب أن تفهمي هذا أفضل من أي شخص آخر».

«ينساق هيلفار وراء الشرف فقط. ولا يمكنك رشوته أو تخويفه».

«ربما صح هذا في الماضي يا نينا، ولكنها سنة طويلة. لقد تغير هيلفار كثيرًا».

«هل رأيته؟» قالت ذلك وقد بدت اللهفة واضحة في عينيها المتسعتين. قال كاز لنفسه: «ها هي نينا. رغم كل ما لاقته في باريل، فإنها لم تفقد الأمل».

«نعم».

أخذت نينا نفسًا عميقًا مرتعشًا وهي تقول: «إنه يريد ثأره يا كاز».

قال كاز: «هذا ما يريده وليس ما يحتاج إليه. ويكمن السر في معرفة الفارق بين هذا وذاك».



-٦-

نينا

لم ينبع شعور نينا بالغثيان من اهتزاز القارب. حاولت التنفس بعمق والتركيز على أضواء ميناء كتردام التي تختفي وراءهم والضربات المنتظمة للمجاديف في الماء. جلس كاز بجانبها؛ فعدل قناعه وعباءته بينما استمر موزين في التجديف بسرعة وقوة وهو يقترب بهم من تيرينجيل؛ وهي إحدى الجزر الصغيرة البعيدة عن كيرتش، ويقترب بهم أيضًا من بوابة الجحيم ومن ماتياس.

قبع الضباب فوق الماء رطبًا وكثيفًا، وهو يحمل رائحة القطران والآلات من أحواض بناء السفن في إيمبريوم، ويحمل شيئًا آخر أيضًا؛ الرائحة النتنة للأجساد المحترقة التي تنبعث من قارب حاصد الأرواح؛ حيث تتخلص كتردام من الموتى الذين لم يستطيعوا تحمل تكلفة الدفن في المقابر خارج المدينة. قالت نينا لنفسها وهي تشد عباءتها عليها أكثر: «شيء مقرف». فأسباب رغبة أي شخص في العيش في مدينة مثل هذه تتعدى تفكيرها.

همهم موزين بسعادة خلال التجديف. لقد عرفته نينا معرفة سطحية فقط - حارس وقاتل مثل بيج بوليجر سيئ الحظ. لقد تجنبت سلات ونادي الغراب لأكبر قدر ممكن، ولذلك وصفها كاز بأنها متكبرة ولكنها لم تهتم بما يقوله كاز عن ذوقها. ألقت نظرة أخرى على كتفي موزين العريضتين، وتساءلت عما إذا كان كاز قد أحضره للتجديف أم لأنه يتوقع مواجهة المتاعب الليلة.

بالطبع سيواجهون متاعب. فإنهم يخططون لاقتحام سجن. إنها ليست حفلة. إذًا لماذا يرتدون ملابس كأنهم ذاهبون إلى إحدى الحفلات؟

قابلت كاز وموزين في الميناء الخامس في منتصف الليل، وعندما

استقلت القارب الصغير أعطاها كاز عباءة حريرية زرقاء وخمارًا بنفس اللون -فستان العروس الضائعة، وهو أحد الأزياء التي يحب الباحثون عن المتعة ارتداءها عندما يحاولون معاينة مباهج باريل. وارتدى كاز عباءة برتقالية كبيرة مع قناع الرجل المجنون فوق رأسه، وارتدى موزين مثله. فكل ما يحتاجون إليه هو مسرح ليؤدوا أحد المشاهد المتوحشة القاتمة من مجموعة كوميدي بروت التي تجدها كيرتش مضحكة للغاية.

عندئذ وكزها كاز وقال: «أخفضي خمارك»، ثم أنزل القناع على وجهه، فبدا الأنف الطويل والعينان الجاحظتان أكثر وحشية في الضباب.

أوشكت نينا أن تسأل عن ضرورة ارتداء تلك الأزياء عندما أدركت أنهم ليسوا بمفردهم. فعبر الضباب المتحرك، رأت قوارب أخرى تتحرك فوق الماء وتحمل أشخاصًا آخرين يرتدون أزياء الرجل المجنون والعروس الضائعة والسيد كريمسون والملكة سكاراب. فما شأن هؤلاء ببوابة الجحيم؟

رفض كاز إخبارها بتفاصيل خطته، وعندما أصرت قال فقط: «اركبي القارب». وهذه هي عادة كاز. فقد عرف أنه ليس مضطرًا إلى إخبارها بأي شيء بسبب إغراء حرية ماتياس التي سيطرت بالفعل على تفكيرها المنطقي. حاولت إقناع كاز بتهريب ماتياس طوال عام تقريبًا، والآن يستطيع كاز منح ماتياس ما هو أكثر من الحرية ولكن يبدو أن الثمن أكبر بكثير مما تتوقع.

ظهرت أضواء قليلة فقط عندما اقتربوا من المياه الضحلة الصخرية في تيرينجيل. ولم يكن هناك شيء سوى الظلام والأمواج المتلاطمة.

قالت نينا لكاز بصوت خفيض: «ألم تتمكن من رشوة مأمور السجن؟».

«لا أريده أن يعرف أن لديه شيئًا أريده».

عندما اصطدم القارب بالرمال قفز رجلان إلى الأمام وسحبا القارب على الأرض. كانت القوارب الأخرى التي رأتها ترسو في نفس الخليج وتُسحب على الشاطئ بواسطة رجال يتحدثون بصوت كالغطيط ويكثرون السب واللعن. بدت ملامحهم باهتة بسبب الرؤية من خلال قماش خمارها، ولكنها لمحت الوشوم الموجودة على سواعدهم: قط بري يلتف حول نفسه داخل تاج؛ رمز عصابة أسود الدايم.

قال أحدهم وهم يقفزون خارج القارب: «المال».

سلم كاز صرة من الكروج لعصابة أسود الدايم وحالما قاموا بعدها، أعطوا إشارة الاستمرار.

ساروا وراء طابور من المشاعل على طريق غير ممهد يصعد نحو الجانب المواجه للرياح في السجن. أمالت نينا رأسها إلى الوراء قليلًا لتلقي نظرة على الأبراج السوداء العالية للحصن المسمى ببوابة الجحيم، وهو قبضة حجرية سوداء تخرج من البحر. رأته نينا من بعيد من قبل عندما دفعت لصياد ليأخذها إلى الجزيرة. ولكن عندما طلبت منه أن يقترب أكثر، رفض طلبها وقال: «أسماك القرش تتصرف بلؤم هنا. بطونها مليئة بلحوم المدانين». نفضت نينا الذكرى من رأسها.

وضعت دعامة ليبقى الباب مفتوحًا وقاد عضو آخر من أسود الدايم نينا والآخرين إلى الداخل. دخلوا مطبخًا مظلمًا ونظيفًا على نحو مدهش، ووجدت أحواضًا ضخمة تصطف على حوائطه وتبدو مناسبة للغسل أكثر منها للطبخ. كانت رائحة الغرفة غريبة تشبه الخل والمريمية. قالت نينا لنفسها: «يشبه مطبخ أحد التجار». فكيرتش تعتقد أن العمل عبادة. وربما تأتي زوجات التجار هنا لينظفن الأرضيات والحوائط والنوافذ بأيديهن باستخدام الصابون والماء لتكريم جيزين أيقونة الصناعة والتجارة. قاومت نينا شعورها بالحاجة إلى التقيؤ. يمكنهم التنظيف كيفما يحبون. ولكن لم تستطع

هـذه الرائحـة الجيـدة أن تمحـو الرائحـة الكريهـة للعفـن والبـول والأجسـام التـي تعلوهـا القـذارة. ربمـا يتطلـب الأمـر معجـزة حقيقيـة للتخلـص منهـا.

شـقوا طريقهـم عـبر صالـة دخـول، واعتقـدت نينـا أنهـم سـيذهبون إلى الزنزانـات مبـاشرةً، ولكنهـم عـبروا بابًـا آخـر إلى ممـشى صخـري مرتفـع يصـل السـجن الرئيـسي بمـا يبـدو كـبرج آخـر.

همسـت نينـا: «إلى أيـن نذهـب؟»؛ فلـم يجبهـا كاز. ونشـطت الريـاح ورفعـت خمارهـا وضربـت وجههـا بـرذاذ ملحـي.

وبينـما همـوا بدخـول الـبرج الثـاني، ظهـر شـكل مـن الظـلال واسـتطاعت نينـا أن تكتـم صرخـة كادت تفلـت منهـا.

قالـت بصـوت مرتعـش: «إينـاج». رأت فتـاة السـولي ترتـدي قرونًـا وسـترة ذات رقبـة عاليـة لشـخصية العفريـت الرمـادي، ولكـن تعرفـت عليهـا نينـا عـلى أي حـال. فـلا أحـد غيرهـا يتحـرك هكـذا، كأن العـالم دخـان وهـي تمـشي عـبره.

همست نينا لها: «كيف وصلت إلى هنا؟».

«أتيت مبكرًا على قارب المؤن».

قالـت نينـا وهـي تجـز عـلى أسـنانها: «هـل يـأتي النـاس ويذهبـون إلى بوابـة الجحيـم مـن أجـل المتعـة؟».

قالـت إينـاج: «يفعلـون ذلـك مـرة في الأسـبوع»، وقـرون العفريـت الصغـيرة تميـل مـع رأسـها.

«ماذا تعنين مرة في ــــــــــــــــ»

تمتم كاز: «التزمي الصمت».

همسـت نينـا بغضـب: «لا تأمـرني بـأن أصمـت بريكـر. لـو كان مـن السـهل دخـول بوابـة الجحيـم ــــــــــــــ»

«ليسـت المشـكلة في الدخـول بـل في الخـروج. والآن اصمتـي وخـذي حـذرك».

ابتلعـت نينـا غضبهـا. فيجـب أن تثـق بقـدرة كاز عـلى إدارة الأمـور.

وحرص هو على ألا يكون لديها خيار آخر.

دخلوا ممرًا ضيقًا. وبدا هذا البرج مختلفًا عن الأول؛ فلقد بدت حوائطه الصخرية الخشنة الأكثر قدمًا سوداء بسبب دخان المشاعل، فتح دليل أسود الدايم بابًا حديديًا ثقيلًا وأشار إليهم باتباعه والنزول على سلم مائل. وهنا ازدادت رائحة الأجساد والنفايات سوءًا بسبب رطوبة الماء المالح التي تحتجزها.

أخذوا يهبطون السلم الحلزوني نحو باطن الصخرة. التصقت نينا بالحائط، فلم يوجد به دربزاين، ورغم أنها لم تستطع رؤية القاع، فإنها اعتقدت أن السقوط سيكون سيئًا. لم ينزلوا كثيرًا ولكن عندما وصلوا إلى وجهتهم، أصيبت نينا بالرعشة وتوترت عضلاتها ليس بسبب الإجهاد؛ بل من معرفتها بأن ماتياس يوجد في هذا المكان البشع. إنه هنا. تحت هذا السقف.

همست نينا وهم يخفضون رؤوسهم ويعبرون أنفاقًا صخرية ويمرون على كهوف مظلمة عليها قضبان حديدية: «أين نحن؟».

قال كاز: «هذا هو السجن القديم. عندما بنوا البرج الجديد تركوا هذا قائمًا».

سمعت نينا أنينًا من داخل إحدى الزنزانات.

«هل لا يزالون يحتفظون بالسجناء هنا؟».

«أسوأهم فقط».

نظرت نينا عبر قضبان زنزانة فارغة؛ فوجدت أغلالًا قاتمة وصدئة على الحائط وشيئًا كالدم.

عبر الحوائط وصل إلى أذني نينا صوت طرق منتظم، في البداية اعتقدت أنه صوت المحيط ولكن بعد ذلك أدركت أنه هتاف متكرر. دخلوا نفقًا محفورًا، فوجدوا المزيد من الزنزانات القديمة على يمينها والضوء يأتي إلى النفق من ممرات متباعدة على اليسار، ولمحت عبرها حشدًا صاخبًا.

قادهم عضو أسود الدايم عبر النفق إلى الممر الثالث حيث مروا

بحارس السجن الذي يرتدي زيًا أزرق ورماديًا وهو يقف وبندقيته معلقة على ظهره، ثم صاح عبر الحشد: «أربعة إضافيون من أجلك»، ثم التفت إلى كاز وقال: «إذا أردت المغادرة فسوف يستدعي الحارس أحدًا لمرافقتك. لا أحد يجول هنا من دون دليل، مفهوم؟».

قال كاز من وراء قناعه السخيف: «بالطبع، بالطبع لم نكن نحلم بهذا».

قال عضو أسود الدايم بابتسامة قبيحة: «استمتعوا». وأشار إليهم حارس السجن بالعبور.

عبرت نينا من تحت القوس وشعرت بأنها في كابوس غريب. وقفوا على حافة حجرية بارزة تطل على مسرح مدرج مسطح بسيط الشكل. حطم البرج من أجل إقامة الساحة. ولم يبق سوى الحوائط السوداء للسجن القديم وسقط السقف أو دمر منذ وقت طويل لكي تظهر سماء الليل فوقهم بوضوح. بدت السماء ملبدة بالسحاب وخالية من النجوم. والأمر يشبه الوقوف داخل جذع مجوف لشجرة ضخمة؛ كشيء مات منذ زمن طويل ولكنه ما زال يصدر صدى الأصوات.

رأت نينا حولها رجالًا ونساء يرتدون الأقنعة والخمارات ويزدحمون على الحواف التي تشبه الشرفات ويضربون الأرض بأقدامهم بينما يدور التشويق بالأسفل. أضيئت الحوائط المحيطة بحفرة القتال بالمشاعل، وكانت الرمال في أرضية الساحة رطبة ومخضبة بالدماء.

أمام الفتحة المظلمة لأحد الكهوف، وقف رجل هزيل ملتحٍ مصفد بالأغلال بجوار عجلة خشبية كبيرة عليها علامات تشبه رسومات لحيوانات صغيرة. وبدا من الواضح أنه كان قويًا فيما مضى ولكن الآن أصبح جلده يتدلى فوق عظامه وعضلاته مترهلة. وقف شاب بجانبه وهو يرتدي عباءة رثة مصنوعة من جلد أسد وعلى وجهه فم قطة كبير، وهناك تاج ذهبي مبهرج بين أذني الأسد الذي وضعت مكان عينيه قطعتان فضيتان من الدايم.

قال الشاب آمرًا: «أدر العجلة».

رفع السجين يديه المصفدتين وأدار العجلة بقوة. فرأوا إبرة حمراء تشير إلى الحواف مع دوران العجلة وتطقطق، ثم توقفت العجلة بالتدريج. لم تستطع نينا أن تتبين الرمز بوضوح ولكن الجمهور أخذ يصيح وسقطت كتفا الرجل بجانبه بينما اقترب منه حارس لتحرير أصفاده.

ألقى السجين الأصفاد جانبًا على الرمال وبعد لحظة سمعت نينا صوتًا - زئيرًا جعل نباح الجمهور المتحمس يعلو أكثر وأكثر. أسرع الرجل الذي يرتدي عباءة الأسد وحارس السجن نحو سلم من الحبال ورفع الاثنين خارج الحفرة إلى إحدى الحواف لينعما بالأمان، في حين أمسك السجين بسكين ضعيفة المظهر من بين مجموعة الأسلحة الملطخة بالدماء التي تقبع فوق الرمال، ثم تراجع إلى أبعد مكان ممكن عن فتحة النفق.

لم تر نينا مطلقًا مخلوقًا يشبه الذي زحف خارج النفق. لقد بدا كأنه نوع من الزواحف جسمه سميك مغطى بحراشيف خضراء رمادية ورأسه عريض ومسطح وعيناه الصفراوان في شقين صغيرين. تحرك بطريقة بطيئة ومتعرجة وانزلق جسده المنخفض بتؤدة على الأرض. كانت هناك قشرة بيضاء حول فمه هلالي الشكل، وعندما فتح فكيه ليزأر مرة أخرى تساقطت قطرات رغوية بيضاء من بين أسنانه الحادة.

سألت نينا: «ما هذا؟».

قالت إيناج: «رينكا موتن. سحلية صحراوية. السم الموجود في فمها قاتل».

«يبدو بطيئًا على قدميه».

«نعم. يبدو هكذا».

اندفع السجين إلى الأمام بسكينه فتحركت السحلية الكبيرة بسرعة كبيرة، لدرجة أن نينا لم تستطع متابعة حركتها إلا بصعوبة،

وفي لحظة يتقدم السجين للهجوم وفي اللحظة التالية تنتقل السحلية إلى الجانب الآخر للساحة. وبعد ثوانٍ قليلة، اصطدمت السحلية بالسجين وثبتته في الأرض بينما أخذ السجين يصرخ والسم يتساقط فوق وجهه ويحفر آثارًا يتصاعد منها الدخان أينما لمس جلده.

ألقى المخلوق بثقله على السجين ليسحقه بطريقة مقززة، وشرع في جرح كتفه ببطء بينما يقبع السجين أسفله ولا يتوقف عن الصراخ.

أطلق الجمهور صيحات الاستهجان.

أشاحت نينا بنظرها بعيدًا غير قادرة على المشاهدة وقالت: «ما هذا؟».

أجاب كاز: «مرحبًا بعرض الجحيم. طرأت الفكرة على عقل بيكا رولينز منذ بضع سنوات فألقاها إلى عضو المجلس المناسب».

«وهل يعرف مجلس التجار بهذا الأمر؟».

«بالطبع يعرفون يا نينا. فهناك مال يجب جمعه».

أخذت نينا تدفع أظافرها في راحة يدها. فقد جعلتها طريقة كاز الاستعلائية في التحدث ترغب في صفعه.

تعرف نينا اسم بيكا رولينز جيدًا. إنه الملك المتوج لمنطقة باريل ومالك ليس لواحد فقط بل لاثنين من قصور المقامرة -أحدهما فخم والآخر مخصص للبحارة الذين تحوي جيوبهم مالًا أقل- والعديد من البيوت سيئة السمعة. عندما وصلت نينا إلى كتردام قبل عام، كانت بلا أصدقاء وبلا مال وبعيدة عن وطنها. وقد قضت أسبوعها الأول في محاكم كيرتش تتعامل مع التهم الموجهة نحو ماتياس. ولكن حالما انتهت شهادتها، ألقي بها بطريقة فظة في الميناء الأول مع مال يكفي لحجز رحلة للعودة إلى رافكا. وتلهفت نينا شوقًا للعودة إلى بلدها، إلا أنها تيقنت أنها لا تستطيع أن تترك ماتياس في سجن بوابة الجحيم.

لم تواتها فكرة عما يجب عليها فعله، ولكن يبدو أن الشائعات

حـول وجـود غريشـا كوربورالينـكي في كـتردام قـد انتـشرت بالفعـل في أرجـاء المدينـة. مكـث رجـال بيـكا رولينـز ينتظرونهـا في الميـنـاء بوعـد الأمـان وتوفـير مـكان للبقـاء. أخذوهـا إلى قـصر الزمـرد وبـدأ بيـكا بنفسـه يضغـط عـلى نينـا ليقنعهـا بالانضمام إلى أسـود الدايـم وعـرض عليهـا العمـل في البيـت سيئ السـمعة مصنـع الحلـوى. وأوشـكت نينـا عـلى الموافقـة؛ فقـد كانـت بحاجـة ماسـة إلى النقـود وتخـشى الوقـوع في أيـدي تجـار العبيـد الذيـن يجوبـون الشـوارع. ولكـن في تلـك الليلـة زحفـت إينـاج عـبر نافذتهـا في الطابـق العلـوي في قـصر الزمـرد لتقـدم لهـا عرضًـا مـن كاز بريكـر.

لم تسـتطع نينـا مطلقًـا معرفـة كيـف تمكنـت إينـاج مـن تسـلق سـتة طوابـق مـن الحجـر المصقـول لإزالـة المطـر في منتصـف الليـل، ولكنهـا وجـدت أن شروط الدريجـز أفضـل مـن الـشروط التـي قدمهـا بيـكا وأسـود الدايـم. فهـو عقـد يمكنهـا أن تسـدد مسـتحقاته خـلال عـام أو اثنـين لـو تعاملـت مـع مالهـا بـذكاء. وقـد أرسـل كاز إليهـا الشـخص المناسـب لإقناعهـا - فتـاة مـن السـولي أصغـر بشـهور قليلـة مـن نينـا التـي نشـأت في رافـكا وقضـت عامًـا سـيئًا جـدًا في ميناجـري.

سـألتها نينـا تلـك الليلـة: «مـا الـذي يمكنـك إخبـاري بـه عـن بـير هاسـكيل؟».

فأجابـت إينـاج: «ليـس كثـيرًا. إنـه ليـس أفضـل أو أسـوأ مـن معظـم الرؤسـاء في باريـل».

«وكاز بريكر؟».

«كاذب لص من دون ضمير. ولكنه يلتزم بأي اتفاق يبرم معه».

سـمعت نينـا صـوت الاقتنـاع في صـوت إينـاج؛ فقالـت: «هـل حـررك مـن ميناجـري؟».

«لا توجـد حريـة في باريـل؛ بـل شروط جيـدة فقـط فـلا تكسـب فتيـات الخالـة هيلـين مـالًا يكفـي للتخلـص مـن عقودهـن. إنهـا تحـرص عـلى ألا يحـدث هـذا. إنهـا ــــــــــــــ». توقفـت إينـاج عـن

الكلام حينها وشعرت نينا بغضب إيناج الذي اعتراها، ثم أكملت إيناج: «أقنع كاز بير هاسكيل بدفع ثمن عقدي. ولولا هذا، لمت في ميناجري».

«لا يزال احتمال موتك في الدريجز قائمًا».

ومضت عينا إيناج الداكنتان وهي تقول: «ربما. ولكني سأموت واقفة على قدمي والسكين بيدي».

في الصباح التالي ساعدت إيناج نينا على التسلل خارج قصر الزمرد. والتقتا كاز بريكر، ورغم طرقه الباردة وقفازاته الجلدية الغريبة وافقت نينا على الانضمام إلى الدريجز والعمل في الوردة البيضاء. وفي أقل من يومين توفيت فتاة في مصنع الحلوى خنقًا في سريرها على يد زبون كان يرتدي مثل السيد كريمسون ولم يعثر عليه قط.

وثقت نينا بإيناج ولم تندم على هذا، ولكنها أصبحت تشعر بالغضب تجاه الجميع. شاهدت مجموعة من أسود الدايم وهم يوكزون السحلية الصحراوية برماح طويلة. وبدا من الواضح أن الوحش قد شبع بعد أن تناول وجبته؛ لذلك عاد إلى النفق وجسده السميك يتمايل من جانب لآخر في حركة بطيئة ملتوية.

استمر الجمهور في إطلاق صيحات الاستهجان عندما دخل الحراس إلى الساحة لإزالة بقايا السجين ولا تزال خيوط من الدخان تتصاعد من لحمه المهترئ.

سألت نينا بغضب: «لماذا يتذمرون؟ أليس هذا ما أتوا من أجله؟».

قال كاز: «إنهم يريدون قتالًا. وتوقعوا أن يستمر الأمر أطول من ذلك».

«هذا مقرف».

هز كاز كتفيه بلا مبالاة وقال: «المقرف في الأمر أنني لم أفكر فيه أولًا».

«هؤلاء الرجال يا كاز ليسوا عبيدًا. إنهم سجناء».
«إنهم قتلة ومغتصبون».
«ولصوص ومحتالون. قومك».
«نينا عزيزتي إنهم لا يجبرونهم على القتال. بل هم مَن يتزاحمون على هذه الفرصة، فهم يفوزون بالطعام والزنزانات الخاصة والمشروبات واليوردا ومقابلة فتيات من ويست ستيف».
قال موزين وهو يطقطق أصابعه: «يبدو هذا أفضل مما نحصل عليه في سلات».
نظرت نينا إلى الأشخاص الذين يصرخون ويصيحون، والمنادين الذين يمشون بين الممرات لأخذ الرهانات. ربما يتوق السجناء لأخذ دورهم في القتال ولكن بيكا رولينز هو مَن يجني المال الحقيقي.
«هيلفار لا... هيلفار لا يقاتل في الساحة أليس كذلك؟».
قال كاز: «لسنا هنا من أجل الاستمتاع بالأجواء».
استشاطت نينا غضبًا وفكرت في أن كاز لا يحتاج إلى مجرد الصفع، وقالت: «هل تدرك أنني أستطيع أن أجعلك تبلل بنطالك بحركة من أصابعي؟».
«مهلًا أيتها المتلاعبة بالقلوب. إنني أحب هذا البنطال. وإذا شرعت في العبث بأجزاء جسمي فلن يرى ماتياس هيلفار نور الشمس مرة أخرى».
زفرت نينا بقوة وأخذت تنظر بعيدًا.
تمتمت إيناج: «نينا ــــــــــــــ»
«لا تلق باللوم علي».
«سوف ينجح الأمر. دعي كاز يفعل ما يجيده».
«إنه فظيع».
«ولكن فعال. إن الغضب من كاز لأنه قاسٍ يشبه الغضب من الموقد لأنه ساخن. أنت تعلمين طباعه».
عقدت نينا ذراعيها وقالت: «أنا غاضبة منك أيضًا».

«مني؟ لماذا؟».

«لا أعرف بعد. أنا غاضبة فحسب».

ضغطت إيناج على يد نينا لوهلة، وبعد لحظة ضغطت نينا على يدها. جلست نينا خلال القتال الثاني وما يليه في ذهول. أخذت تخبر نفسها بأنها مستعدة لهذا، مستعدة لرؤيته مرة أخرى هنا في هذا المكان المتوحش. على أي حال إنها من الغريشا وجندية من الجيش الثاني، وقد رأت أسوأ من ذلك.

ولكن عندما خرج ماتياس من فم الكهف بالأسفل، أدركت نينا أنها مخطئة. لقد تعرفت عليه على الفور. في كل ليلة في العام السابق، كانت تنام وهي تفكر في وجه ماتياس. لم تجد به خطأ: الحاجبان الذهبيان وعظام الوجنتين ذات الزوايا الحادة. ولكن لم يكذب كاز: لقد تغير ماتياس كثيرًا. فالفتى الذي ينظر إلى الجمهور بغضب واضح في عينيه بدا غريبًا.

تذكرت نينا أول مرة رأت ماتياس في غابة كاليش تحت ضوء القمر. لقد بدا جماله غير منصف بالنسبة إليها، وفي حياة أخرى ربما صدقت أنه أتى لإنقاذها، فارس لامع بشعر ذهبي وعينين باللون الأزرق الفاتح مثل الأنهار الجليدية الشمالية. ولكنها عرفت حقيقته من اللغة التي تحدث بها ومن نظرة الاشمئزاز التي تعتلي وجهه كلما وقع نظره عليها. ينتمي ماتياس هيلفار إلى الدروسكيل وهو أحد الفيردانيين صائدي الساحرات المكلفين بمطاردة الغريشا وتقديمهم للمحاكمة والإعدام، ورغم ذلك بدا بالنسبة إليها كقديس محارب يرتدي درعًا ذهبية لامعة.

وعندئذ ظهر على حقيقته: قاتل. وبدا جذعه العاري مصنوعًا من الحديد الصلب رغم أنها عرفت أن هذا ليس ممكنًا إلا أنه بدا أكبر حجمًا كأن بنية جسده نفسها قد تغيرت. فجلده ذهبي اللون ولكنه أصبح الآن أبيض تتخلله خطوط سوداء تحت الأوساخ. وشعره جميل كثيف ذهبي طويل على غرار الجنود الفيردانيين.

والآن مثل السجناء الآخرين، أصبح رأسه حليقًا ربما لمنع القمل. وأيًا كان الحارس الذي حلق رأسه، فلقد قام بهذا بطريقة فوضوية. وحتى من هذه المسافة، استطاعت نينا أن ترى الجروح والخدوش على فروة رأسه وبقايا الشعر الصغيرة في الأماكن التي تركتها شفرة الحلاقة. ورغم ذلك ما زال جميلًا.

حدق ماتياس إلى الجمهور ثم لف العجلة بقوة لدرجة كادت معها العجلة تفلت من قاعدتها.

تك تك تك. ثعابين. نمر. دب. خنزير بري. أخذت العجلة تطقطق ثم تباطأت وتوقفت في النهاية.

قالت نينا عندما رأت الموضع الذي تشير إليه الإبرة: : «لا».

قال موزين: «من الممكن أن يكون الأمر أسوأ من ذلك. من الممكن أن تقف على السحلية الصحراوية مرة أخرى».

أمسكت نينا بذراع كاز عبر عباءته وشعرت بأن عضلاته مشدودة وقالت: «يجب أن توقف هذا».

«اتركيني يا نينا». وانخفض صوته الأجش، ولكنها شعرت بأنه يهددها بالفعل.

تركت يده وقالت: «أرجوك أنت لا تفهم. إنه ــــــــــــــــ»

«لو نجا ماتياس هيلفار، فسوف أخرجه من هذا المكان الليلة ولكنه مسؤول عن هذا الجزء».

هزت نينا رأسها بإحباط وقالت: «أنت لا تفهم».

فك الحارس أصفاد ماتياس، وحالما وقعت على الأرض قفز إلى الحبل مع المعلن ليرفع الاثنين إلى مكان آمن. أخذ الحضور يصرخون ويضربون الأرض بأقدامهم. ولكن وقف ماتياس صامتًا ثابتًا حتى عندما فتحت البوابة واندفعت الذئاب خارج النفق - ثلاثة ذئاب تزمجر وتركض وتتعثر بعضها في بعض في محاولة الوصول إليه.

وفي الثانية الأخيرة انحنى ماتياس ولكم الذئب الأول لكمة قوية أسقطته أرضًا، ثم تدحرج إلى اليمين ليلتقط السكين الملطخة

بالدماء التي تركها المقاتل السابق في الرمال، ثم قفز واقفًا على قدميه وهو يمسك بالسكين أمامه ولكن شعرت نينا بتردده. مال رأسه إلى جانب وهناك نظرة استعطاف في عينيه الزرقاوين كأنه يحاول إشراك الذئبين اللذين يدوران حوله في مفاوضات صامتة. ويبدو أن طلبه وقع على آذان صماء. اندفع الذئب الذي على اليمين فانخفض ماتياس ودار حول نفسه وغرز سكينه في بطن الذئب، فأطلق الذئب عواءً بائسًا وارتعش ماتياس عندما سمع الصوت. وكلفه هذا ثواني ثمينة، فلقد هجم عليه الذئب الثالث وأسقطه على الرمال. وغرز أسنانه في كتفه، فتدحرج ماتياس وأخذ الذئب معه. أطبق الذئب فكيه على كتف ماتياس الذي أمسك به وأبعده عن كتفه فظهرت عضلات ذراعيه المفتولة وبدا التجهم على وجهه. وأغلقت نينا عينيها. وصدر صوت تحطم كريه، فضج المكان بصيحات الجمهور.

جثا ماتياس بجوار الذئب؛ فقد انكسر فكه ورقد على الأرض يتلوى من الألم. مد يده إلى صخرة وضربها بقوة برأس الحيوان المسكين فسكنت حركته وسقطت كتفا ماتياس بجانبه. أخذ الناس يصيحون ويضربون الأرض بأقدامهم. تعد نينا هي الوحيدة التي تعرف الثمن الذي يدفعه ماتياس كواحد من الدروسكيل. فالذئاب مقدسة بالنسبة إلى نوعه وتُربى من أجل المعارك مثل أحصنتهم الضخمة. فهم أصدقاء ورفاق يحاربون جنبًا إلى جنب مع أسيادهم من الدروسكيل.

استعاد الذئب الأول قوته وأخذ يدور حول ماتياس. قالت نينا لنفسها بيأس: «تحرك ماتياس». ووقف ماتياس على قدميه ولكن حركته أصبحت بطيئة ومرهقة. وبدا كأنه لا يبالي بالقتال. فخصومه من الذئاب الرمادية البرية الرشيقة وهي قريبة الشبه بالذئاب البيضاء التي تقطن الشمال الفيرداني. ولم تكن السكين بيده. فلم يكن بيده سوى الحجر الملطخ بالدماء والذئب الأخير يجول في

الساحة بينه وبين كومة الأسلحة. خفض الذئب رأسه وكشر عن أنيابه.

غاص ماتياس نحو اليسار، واندفع الذئب وغرز أنيابه في جانبه، فأصدر ماتياس صوتًا كالخوار ووقع على الأرض بقوة. اعتقدت نينا للحظة أنه ربما يستسلم ويترك الذئب ينهي حياته، ولكن مد ماتياس يده وأخذ يبحث في الرمال عن شيء ما. ثم أطبقت أصابعه على الأصفاد التي كانت تقيد يديه.

أمسك ماتياس بالأصفاد ولف السلسلة حول رقبة الذئب وسحبها بقوة فبرزت العروق في رقبته بسبب الجهد الذي يبذله. وضغط وجهه الملطخ بالدماء على طوق الذئب وعيناه مغلقتان وشفتاه تتحركان. ما الذي يقوله؟ أحد أدعية الدروسكيل؟ وداع؟

أخذت القوائم الخلفية للذئب تخمش الرمال، وعيناه تدوران في محجريهما من الخوف والبياض فيهما يبدو ناصعًا أمام فرائه الملبد. عوى الذئب بصوت مرتفع، ثم انتهى كل شيء. سكن جسد الذئب. ورقد المقاتلان بلا حراك على الرمال. وظلت عينا ماتياس مغلقتين ووجهه لا يزال مدفونًا في فراء ضحيته.

ارتج المكان بصيحات الاستحسان. وأُنزل السلم وهبط المعلن وشد ماتياس ليقف على قدميه وأمسك برسغه ليرفع يده ويعلن انتصاره. وكزه المعلن وكزة صغيرة فرفع ماتياس رأسه وتنفست نينا الصعداء.

أزالت الدموع بعض الأتربة عن وجه ماتياس. وذهب الغضب كأنه شعلة وانطفأت. وبدت عيناه أكثر برودة مما كانتا في الماضي، خاليتين من المشاعر ومجردتين من أي شيء بشري. فهذا ما فعلته بوابة الجحيم به، وكل هذا خطؤها.

أمسك الحراس بماتياس مرة أخرى وسحبوا الأصفاد من حلق الذئب وأعادوها إلى يديه مرة أخرى. وبينما قاده الحراس بعيدًا أخذ الجمهور يطلق صيحات الاستهجان ويصرخ: «المزيد! المزيد!».

سألت نينا بصوت مرتعش: «إلى أين يأخذونه؟».
أجاب كاز: «إلى زنزانة ليستريح من القتال».
«مَن سيعتني بجروحه؟».
«لديهم أطباء. سوف ننتظر للتأكد من وجوده بمفرده».
قالت نينا لنفسها: «أستطيع علاجه». ولكنها سمعت بداخلها صوتًا متشائمًا مليئًا بالسخرية يقول: «لا يوجد أحد بهذه الحماقة ولا حتى أنتِ يا نينا. لا يوجد معالج يستطيع شفاء هذا الفتى. لقد حرصتِ على ألا يحدث هذا».
لم تطق نينا صبرًا ومرت الدقائق ثقيلة. وبدأ الآخرون يشاهدون القتال التالي - موزين بشغف يطقطق أصابعه ويراهن على النتيجة وإيناج صامتة وثابتة كالتمثال وكاز غامض كحاله دائمًا يضع الخطط من وراء هذا القناع البشع. أبطأت نينا تنفسها وقللت نبضات قلبها في محاولة منها لتهدئة نفسها، ولكن لم تستطع فعل أي شيء لإخماد الثورة المشتعلة بداخلها.
أخيرًا وكزها كاز وقال: «هل أنتِ مستعدة يا نينا؟ الحارس أولًا».
ألقت نينا نظرة على الحارس الواقف بجوار الممر.
قالت نينا: «إلى أي مدى؟»؛ وهذه العبارة في باريل تعني إلى أي مدى تريد إيذاءه؟
قال كاز: «أغلقي عينيه» بمعنى إصابته بالإغماء وعدم إيذائه.
ساروا وراء كاز إلى الممر الذي دخلوا عبره. لم يلاحظ أي واحد من الجمهور شيئًا؛ فلقد انصب كل تركيزهم على القتال الدائر بالأسفل.
سأل الحارس وهم يقتربون منه: «هل تريدون مرافقة؟».
قال كاز: «لديَّ سؤال». ومن تحت عباءتها، رفعت نينا يديها وشعرت بتدفق الدماء في عروق الحارس وأنسجة رئتيه، ثم أكمل كاز قائلًا: «عن أمك وعما إذا كانت الشائعات صحيحة».
شعرت نينا بنبضات الحارس تتزايد وتنهدت وهي تقول لنفسها: «لا تستطيع أن تبسط الأمور؛ أليس كذلك يا كاز؟».

تقدم الحارس إلى الأمام ورفع بندقيته وقال: «ماذا قلت؟ أنا ــــــــــــــــ». وسقط جفناه وهو يقول: «أنت لا ــــــــــ»، وخفضت نينا نبضاته فتعثر إلى الأمام.

أمسك به موزين قبل أن يقع ولفته إيناج بالعباءة التي كان كاز يرتديها منذ لحظات. وشعرت نينا بشيء من الدهشة عندما رأت كاز يرتدي الزي الرسمي لحراس السجن.

قالت نينا: «ألم يمكنك أن تسأله عن الساعة أو شيء آخر؟ ومن أين حصلت على هذا الزي؟».

وضعت إيناج قناع كاز على وجه الحارس ووضع موزين ذراعه حوله ورفعه كأن الحارس أسرف في الشراب، ثم وضعوا الحارس على أحد المقاعد الملتصقة بالحائط الخلفي.

شد كاز أكمام زيه الرسمي وقال: «نينا؛ يحب الناس تسليم السلطة للأشخاص الذين يرتدون ملابس أنيقة. وأنا أملك الأزياء الرسمية لحراس المدينة وشرطة الموانئ والأزياء الخاصة بكل منزل من منازل التجار في شارع جيلد. هيا بنا».

تسللوا عبر الممشى.

وبدلًا من العودة على أعقابهم، تحركوا عكس عقارب الساعة حول البرج القديم وحائط الساحة على يسارهم يهتز مع الصيحات وضربات الأقدام. لم ينظر الحراس الواقفون في كل ممر إليهم سوى نظرة سريعة وأومأ بعضهم إلى كاز الذي استمر في المشي بوتيرة سريعة ووجهه مدفون في الياقة.

غرقت نينا في أفكارها لدرجة أنها كادت ألا تلاحظ أن كاز رفع يدًا ليسيروا ببطء. داروا حول منعطف بين ممرين وهم يختبئون تحت الظلال الكبيرة التي تسقط عليهم. وأمامهم خرج طبيب من زنزانة بصحبة الحراس الذين كان أحدهم يحمل مصباحًا. قال الطبيب: «سينام طوال الليل. احرصوا على أن يشرب شيئًا في الصباح وتفحصوا بؤبؤ عينيه. لقد اضطررت إلى إعطائه جرعة

منومـة قويـة».

وبينــما هــمَّ الرجــال بالتحــرك في الاتجــاه المعاكــس، أشــار كاز لمجموعتـه بالتقـدم. وجـدوا البـاب المغـروس في الصخـر مصنوعًـا مـن الحديـد القـوي وليـس هنـاك سـوى فتحـة ضيقـة لتمـر منهـا الوجبـات للمســجون. فانحنــى كاز إلى القفــل.

نظــرت نينــا إلى البــاب الحديــدي الخشــن وقالــت: «هــذا مــكان همجــي».

أجـاب كاز: «ينـام معظـم أفضـل المقاتلـين في الـبرج القديـم. فهـذا يبعدهـم عـن بقيـة السـجناء».

ألقــت نينــا نظــرة سريعــة إلى اليمــين واليســار حيــث يتــسرب الضـوء اللامـع مـن مداخـل السـاحة. هنـاك حـراس يقفـون عـلى تلـك الأبـواب ربمـا مشـتتي الذهـن ولكـن لا يتطلـب الأمـر شـيئًا سـوى أن يديـر أحدهـم رأسـه. وإذا ألقـي القبـض عليهـم هنـا، فهـل سيسـلمهم الحــراس إلى حــراس المدينــة للمحاكمــة أم ســيجبرونهم عــلى دخــول الحلبـة ليأكلهـم أحـد النمـور فحسـب؟ أخـذت نينـا تفكـر بطريقـة كئيبـة: «ربمـا بطريقـة مهينـة. قطيـع مـن فـئران الحقـل الغاضبـة».

تطلــب الأمــر لحظــات قليلــة ليفتــح كاز القفــل. وفتــح البــاب مــع صريــر؛ فتســللوا إلى الداخــل.

وجـدوا الزنزانـة مظلمـة كالليـل الحالـك. وبعـد لحظـة ظهـر بجانبهـا الوهـج الأخـضر البـارد لكـرة الإضـاءة. رفعـت إينـاج الكـرة الزجاجيـة الصغـيرة عاليًـا. وهــذه الكــرة تحتــوي عــلى مــادة مصنوعــة مــن الأجسـام المجففـة والمسـحوقة للأسـماك المضيئـة التـي تعيـش في أعـماق البحـار. وهـذه أداة شـائعة بـين المجرمـين في باريـل عندمـا لا يريـدون أن يلقــى القبـض عليهـم في زقـاق مظلـم ولا يريـدون الاضطـرار إلى حمـل المصابيـح معهـم باسـتمرار.

قالــت نينــا لنفســها وعيناهــا تعتــادان الظــلام: «إنهــا نظيفــة عــلى الأقـل. خاويـة وبـاردة كالثلـج ولكنهـا ليسـت قـذرة». ورأت فراشًـا مـن

بطاطين الأحصنة ودلوين أمام الحائط أحدهما به قطعة قماش ملطخة بالدماء موضوعة على حافته.

هذا ما يتنافس عليه الرجال في بوابة الجحيم: زنزانة خاصة وبطانية وماء نظيف ودلو للنفايات.

وجدوا ماتياس نائمًا وظهره إلى الحائط. حتى في الضوء الباهت لكرة الإضاءة، استطاعت نينا أن ترى أن وجهه بدأ ينتفخ. وهناك دهان من نوع ما موضوع فوق جروحه - الأقحوان. لقد عرفته من الرائحة.

تحركت نينا نحو ماتياس، ولكن كاز أوقفها ووضع يده على ذراعها وقال: «دعي إيناج تقيِّم الأضرار».

فقالت نينا: «أستطيع ــــــــــــــــ»

قاطعها كاز قائلًا: «أحتاج إليكِ للعمل على موزين».

قذفت إيناج العصا التي تحمل رأس غراب إلى كاز، والتي ربما أخفتها تحت زي العفريت الرمادي الذي ترتديه، وجثت بجوار ماتياس مع كرة الإضاءة. تقدم موزين إلى الأمام. وخلع عباءته وقميصه وقناع الرجل المجنون. كان رأسه حليقًا ويرتدي بنطالًا من بناطيل السجن.

نظرت نينا إلى ماتياس ثم إلى موزين وقد أدركت ما يدور بعقل كاز. فالاثنان يمتلكان نفس الطول والبنية الجسدية ولكن لم تكن هناك أوجه تشابه أخرى بينهما.

«لا يمكن أن تعني أن موزين سيأخذ مكان ماتياس».

أجاب كاز: «إنه ليس هنا بسبب لباقته في الحديث. يجب عليك نسخ إصابات هيلفار. إيناج ما تقييمك؟».

قالت إيناج: «كدمات في المفاصل وسنة مكسورة وضلعان مكسوران. الثالث والرابع على اليسار».

قال كاز: «يسارك أم يساره؟».

«يساره».

قالـت نينـا بإحبـاط: «هـذا لـن ينجـح. أسـتطيع محـاكاة الأضرار في جسـد هيلفـار، ولكنـي لسـت جيـدة بمـا فيـه الكفايـة لأجعـل موزيـن يشـبهه».

«ثقي بي يا نينا».

«لـن أثـق بـك لتربـط حـذائي دون أن تـسرق رباطـه يـا كاز». ونظـرت إلى وجـه موزيـن وقالـت: «وحتـى لـو جعلـت وجهـه منتفخًـا، فلـن يبـدو شـبهه».

«الليلـة، ماتيـاس هيلفـار -أو بـالأدق عزيزنـا موزيـن- سـتظهر عليـه أعـراض الجـدري مـن السـلالة الذئبيـة الـذي تحملـه الذئـاب والـكلاب. وفي صبـاح الغـد، عندمـا يـراه الحـراس مغطـى بالبـثرات التـي تخفـي ملامحـه وتجعـل التعـرف عليـه أمـرًا صعبًـا سـوف يضعونـه في الحجـر الصحـي لمـدة شـهر مـن أجـل احتـواء العـدوى وانتظـار احتـمال نجاتـه مـن الحمـى، وفي الوقـت نفسـه سـوف يصبـح ماتيـاس معنـا. هـل فهمـت؟».

«هل تريدني أن أجعل موزين يبدو مصابًا بالجدري؟».

«نعـم وبسرعـة يـا نينـا لأن الأمـور سـتصبح جنونيـة هنـا خـلال عـشر دقائق».

أخـذت نينـا تحملـق في كاز وتسـأل نفسـها عـما يخطـط لـه، ثـم قالـت: «أيًـا كان مـا سـأفعله هنـا لـن يـدوم شـهرًا. لا أسـتطيع إصابتـه بحمـى دائمـة».

«أعـرف شـخصًا في المستشـفى سـيحرص عـلى بقائـه مريضًـا مـدة كافيـة. لا نحتـاج إلى شيء سـوى أن يجتـاز الفحـص الطبـي. والآن هيـا إلى العمـل».

أخـذت نينـا تنظـر إلى موزيـن مـن أعـلى إلى أسـفل، وقالـت محـذرة: «سـوف يؤلمـك هـذا كأنـك كنـت تقاتـل بنفسـك».

ظهـر العبـوس عـلى وجـه موزيـن كأنـه يسـتعد لـلألم، وقال: «أسـتطيع تحمـل الأمر».

دارت عينا نينا في محجريهما ثم رفعت يديها وبدأت تركز. وبحركة حادة من يدها اليمنى نحو اليسار كسرت أضلع موزين.

فأطلق موزين صوتًا كالخوار وأخذ يتلوى من الألم.

قال كاز: «فتى جيد. تحمل كالأبطال. المفاصل بعد ذلك ثم الوجه».

أخذت نينا تنشر الكدمات والجروح فوق مفاصل موزين وذراعيه وهي تطابق الأوصاف التي ذكرتها إيناج.

قالت نينا: «لم أر الجدري عن قرب مطلقًا». فلم تر نينا سوى الصور التوضيحية المعتادة في الكتب التي يستخدمونها في التدريب على التشريح في القصر الصغير.

قال كاز بتجهم: «اعتبري نفسك محظوظة. أسرعي».

شرعت نينا في العمل بناءً على ما تتذكره؛ فأخذت تصنع الكدمات والشقوق على وجه موزين وصدره وتكبر البثرات لكي يصبح بحالة سيئة يصعب معها التعرف عليه. وأخذ الرجل الضخم يئن من الألم.

تمتمت نينا: «لماذا وافق على القيام بهذا؟».

ارتعش وجه موزين المتورم، وظنت نينا أنه ربما يحاول الابتسام، ثم قال بصوت أجش: «المال مغرٍ».

تنهدت نينا الصعداء. فهل هناك سبب آخر يدفع أي شخص لفعل أي شيء في باريل؟ وقالت: «مغرٍ بما يكفي للبقاء في سجن بوابة الجحيم؟»

نقر كاز بعصاه على الأرض وقال: «توقفي عن اختلاق المشكلات يا نينا. إذا تعاون هيلفار معنا؛ فسيحصل هو وموزين على حريتهما حال إتمام المهمة».

«وإذا لم يتعاون؟».

«إذًا يعود هليفار إلى زنزانته. ورغم ذلك يحصل موزين على المال وسوف أصطحبه إلى تناول الإفطار في كوبروم».

تمتم موزين: «هل أستطيع الحصول على بسكويت الوافل؟».

«سنتناول جميعًا بسكويت الوافل، ونشرب العصير. إذا لم تنفذ هذه المهمة فلن يتمكن أي شخص من تناول المشروبات. هل انتهيت يا نينا؟».

أومأت نينا وأخذت إيناج مكانها لتربط ضمادات موزين بحيث تبدو مثل ضمادات ماتياس.

قال كاز: «حسنًا. لنوقف هليفار على قدميه».

جثت نينا بجوار ماتياس بينما وقف كاز بجوارها مع كرة الإضاءة. وحتى في نومه، بدا الانزعاج على ملامح ماتياس؛ فلقد تركزت التجاعيد بين حاجبيه. أخذت يدا نينا تتحركان فوق الكدمات على فك ماتياس وهي تقاوم رغبتها في احتضانه.

«ليس الوجه يا نينا. كل ما أحتاج إليه هو أن يتمكن من الحركة وليس أن يصبح جميلًا. عالجيه بسرعة بحيث يستطيع المشي الآن. أنا لا أحتاج إلى أن يكون رشيقًا لدرجة تثير غيظنا».

أنزلت نينا البطانية وبدأت العمل. وأخذت تخبر نفسها: «إنه جسد آخر فحسب». دائمًا ما كان كاز يستدعي نينا في وقت متأخر من الليل لعلاج الأعضاء الدريجز المصابين الذين لم يرغب في اصطحابهم إلى أي طبيب شرعي - فتيات مصابات بطعنات أو فتيان بأرجل مكسورة أو رصاصات بداخلهم أو ضحايا معارك مع حراس المدينة أو عصابة أخرى. قالت نينا لنفسها: «تظاهري بأنه موزين. أو بيج بوليجر أو أحمق آخر. أنت لا تعرفين هذا الفتى». وهذه حقيقة. فالفتى الذي تعرفه لا يزال موجودًا، ولكن هناك شيئًا جديدًا طرأ عليه.

وضعت نينا يدها على كتفه برفق وقالت: «هيلفار»، ولكنه لم يحرك ساكنًا؛ فقالت: «ماتياس».

شعرت نينا بغصة في حلقها وترقرقت الدموع في عينيها. فطبعت قبلة على جبين ماتياس. إنها تعرف أن كاز والآخرين يشاهدونها

وأنها تبدو كالحمقاء، ولكنه أصبح هنا أمامها بعد مدة طويلة محطمًا للغاية. فقالت مرة أخرى: «ماتياس».

«نينا؟»؛ صدر صوته خشنًا ولكنه لا يزال جميلًا كما تتذكره.

همست نينا: «آه بحق القديسين ماتياس. أرجوك استيقظ»

طرفت عينا ماتياس ببطء. وبدت عيناه باللون الأزرق الباهت. وقال بنعومة: «نينا». لمست أصابعه خدها واحتوى وجهها بيده الخشنة بعناية وقال كأنه لا يصدق نفسه: «نينا؟».

ترقرقت عيناها بالدموع، وقالت: «ششش ماتياس. نحن هنا لنخرجك».

وبسرعة البرق أمسك ماتياس بكتفيها وثبتها على الأرض.

قال بصوت هادر: «نينا».

ثم أطبق بيديه على رقبتها.

الجزء الثاني
الخادم وأداة التأثير

-٧-

ماتياس

راود ماتياس الحلم نفسه مرة أخرى. لقد حلم بها.

طاردها في جميع أحلامه، عبر المروج الخضراء فأيام الربيع أحيانًا، ولكنه عادةً ما كان يطاردها عبر حقول الشتاء الجليدية في حين يتفادى الصخور والصدوع بخطوات واثقة. دائمًا ما كان يطاردها ودائمًا ما أمسك بها.

وفي أحلامه السعيدة، يرى نفسه يضربها ضربة قوية تطرحها أرضًا قبل أن يخنقها ويشاهد الحياة تخبو من عينيها وقلبه مليء بالانتقام- أخيرًا أخيرًا. أما في كوابيسه فيرى نفسه يقبلها. وفي هذه الأحلام، لا تقاتله بل تضحك كأن المطاردة ليست سوى لعبة يلعبانها معًا وكأنها تعرف أنه سوف يمسك بها وكأنها تريده أن يفعل ذلك، وكأنها لا تفضل الوجود في مكان سوى بين يديه. بدت مثالية وكلها رغبة وشوق بين ذراعيه. قبلها قبل أن يدفن وجهه في صدرها. ولمست خصلات شعرها وجهه برقة ليشعر بأنه لو تمكن من ضمها لمدة أطول، سوف يندمل كل جرح في قلبه، وكل أذى قد أصابه، وكل ما حاق به من آلام.

همست له «ماتياس»، بدا اسمه عذبًا على شفتيها. وهذا أسوأ كوابيسه؛ فعندما استيقظ، كره نفسه بقدر كراهيته لها. فإدراكه أن في مقدوره خيانة نفسه وخيانة وطنه من جديد ولو حتى في الحلم يشعره بأن هناك جانبًا مريضًا فيه لا يزال يشتاق لها، بعد كل ما فعلته به، وهذا فوق طاقته.

راوده تلك الليلة كابوس سيئ، سيئ للغاية. فقد رآها وهي ترتدي حريرًا أزرق وملابس أكثر فخامة من أي ملابس أخرى رآها بها من قبل وخمارًا رقيقًا فوق رأسها تلألأ نور المصباح عليه

مثل قطرات المطر. وفاحت منها رائحة ذكية. ولكن ظلت رائحة الرطوبة والطحالب موجودة بجانب رائحة العطر أيضًا. تحب نينا الأشياء الفاخرة وهذا العطر غالي الثمن- برائحة الأزهار وشيء آخر لم يتعرف عليه أنفه الضعيف. وضعت نينا شفتيها الناعمتين على جبينه وكاد ماتياس يقسم إنها بكت.

«ماتياس».

همس ماتياس بصعوبة: «نينا».

«آه؛ بحق القديسين يا ماتياس. أرجوك استيقظ».

عندئذ فتح ماتياس عينيه. ظن أنه قد أصابه مس من الجنون، فإنه يراها هنا في زنزانته جاثية بجانبه ويدها تستريح على صدره برفق. قالت نينا: «ماتياس؛ أرجوك».

بدا أنها تتوسل إليه. لقد حلم بهذا من قبل. توسلت إليه أحيانًا طلبًا للرحمة. وتوسلت أحيانًا أخرى طلبًا لأشياء أخرى.

مد ماتياس يده ولمس وجهها. وجد بشرتها ناعمة رقيقة. ضحك ماتياس على هذا ذات مرة. وأخبرها بأنه لا يوجد جندي يتمتع بمثل هذه البشرة، بشرة جميلة ورقيقة وناعمة. سخر من جمال جسدها الشهي، وخجل من رد فعله تجاهها. وضع يديه على خديها وأحس بنعومة شعرها. إنها رائعة الجمال. إنها حقيقية للغاية أمامه. هذا ليس عادلًا.

ثم رأى اللفائف الملطخة بالدماء على يديه. أحس بالألم يسري في جسده بسرعة عندما استيقظ، شعر بأضلعه المكسورة ومفاصله المتألمة، وسنه مكسورة. لم يستطع التأكد من وقت حدوث هذا، ولكن لسانه قد جرح بسبب هذه السنة في وقت ما. لا يزال مذاق الدماء في فمه. الذئاب. لقد أجبروه على قتل الذئاب.

استيقظ ماتياس قائلًا:

«نينا؟».

ترقرقت الدموع في عينيها الخضراوين الجميلتين، في حين اشتعل

الغضب بداخله. ليس من حقها أن تبكي. ليس من حقها أن تطلب الشفقة.

«ششش ماتياس. نحن هنا لنخرجك».

ما هذه اللعبة التي تمارسها عليه؟ وهل هذه قسوة من نوع جديد؟ لقد تعلم للتو الصمود في هذا المكان المتوحش، والآن أتت لتذيقه العذاب مرة أخرى.

دفع ماتياس نفسه إلى الأمام فأوقع نينا على الأرض وأطبق بيديه على رقبتها وثبت ذراعيها بركبتيه على الأرض. عرف تمام المعرفة أن نينا مع يديها الحرتين شيء قاتل.

قال ماتياس وهو يصر على أسنانه: «نينا». فأنشبت نينا أظافرها في يديه، ثم همس وهو يميل عليها: «أيتها المشعوذة». رأى عينيها تتسعان ووجهها يزداد احمرارًا. «توسلي إلي. توسلي من أجل حياتك».

سمع تكة وصوتًا أجش يقول: «ارفع يديك عنها يا هيلفار».

صوب شخص ما يقف وراءه مسدسًا على رقبته، ولكنه لم يعره أي اهتمام وقال: «هيا أطلق النار عليّ». وأخذت أصابعه تخنق رقبة نينا بشكل أكبر - لا شيء سيحرمه من هذا. لا شيء.

خائنة، مشعوذة بغيضة. دارت كل هذه الكلمات في عقله، وزاحمتها أيضًا كلمات أخرى: جميلة، فاتنة، شهية كما أطلق عليها كذلك اسم الطائر الأحمر الصغير بسبب اللون المميز لطائفتها في الغريشا. إنه اللون الذي تحبه. أخذ يضغط بقوة أكبر ليسكت هذا الضعف بداخله.

قال الصوت الأجش: «لو فقدت عقلك بالفعل يا ماتياس ستصعب علينا الأمور أكثر مما تظن.»

سمع ماتياس صوتًا كأن شيئًا يشق الهواء، قبل أن ينتابه ألم شديد في كتفه اليسرى. بدا أنه تلقى ضربة بقبضة صغيرة ولكنها أصابت ذراعه كلها بالشلل. زمجر وهو يقع إلى الأمام ولا يزال ممسكًا

برقبة نينا بيد واحدة. اصطدم ماتياس مباشرة بنينا ولكن أحدهم جذبه إلى الخلف بقوة من ياقة قميصه.

وقف أمامه فتى يرتدي زي حارس وعيناه الغامقتان تلمعان ممسكًا مسدسًا بيد وعكازًا بالأخرى. ومقبض العكاز على شكل رأس غراب ذي منقار بارز.

«تمالك نفسك يا هيلفار. نحن هنا لنخرجك. يمكنني أن أفعل برجلك ما فعلته بذراعك ونخرجك حينها من هنا جرًا، أو يمكنك الخروج كرجل على قدميك».

قال ماتياس: «لا أحد يخرج من بوابة الجحيم».

«سنفعل ذلك الليلة».

جلس ماتياس محاولًا استكشاف موقفه وهو يمسك بذراعه التي أصابها الخدر، وقال ساخرًا: «لا يمكنك إخراجي من هنا. سيتعرف عليَّ الحراس. أنا لا أريد خسارة امتيازات القتال لكي تأخذني معك إلى مكان لا يعلمه إلا الله».

«سنضع قناعًا على وجهك».

«لو تحقق الحراس ــــــــــــــــــ»

قال الفتى الغريب الشاحب: «سينشغلون ولن يكون لديهم وقت للتحقق». ثم بدأ صوت صراخ وجلبة.

مال رأس ماتياس لأعلى منصتًا، فسمع هدير خطوات من الساحة كأن موجة من الناس يهرولون في الممر خارج زنزانته. وسمع صيحات الحراس ثم زئير أحد الأسود وصوت أحد الأفيال.

قالت نينا: «لقد فتحت الأقفاص». بدا على صوتها القلق والذهول، ولكن لا يستطيع المرء أن يفرق بين الصدق والاصطناع مع نينا. لم ينظر كاز إليها. فلو فعل لفقد اتصاله بالواقع. لقد واجه صعوبة في إبقاء الأمور في نصابها الصحيح بالفعل.

قال الفتى الشاحب: «كان من المفترض أن ينتظر جاسبر حتى الساعة الواحدة والنصف ليفتح الأقفاص».

أجابـت فتـاة ضئيلـة الحجـم ذات شـعر داكـن وجلـد برونـزي غامـق تقـف في الزاويـة: «إنهـا الواحـدة والنصـف بالفعـل يـا كاز». بينـما يسـتند إليهـا شـخص مغطـى بالكدمـات والأربطـة.

قـال الفتـى متذمـرًا وهـو يلقـي نظـرة سريعـة عـلى سـاعته: «ومتـى كان جاسـبر دقيقًـا في مواعيـده هكـذا؟ انهـض عـلى قدميـك يـا هيلفـار».

مـد الفتـى نحـوه يـدًا يغطيهـا قفـاز. وأخـذ ماتيـاس يحملـق فيهـا. هـذا حلـم. أغـرب حلـم شـهدته عـلى الإطـلاق ولكنـه حلـم بالتأكيـد. أو ربمـا أصابـه قتـال الذئـاب بالجنـون بالفعـل. لقـد قتـل عائلـة كاملـة الليلـة. ولا توجـد صـلاة أو دعـاء سـتصلح مـا فعلـه بأرواحهـا البريـة.

تطلـع ماتيـاس إلى الشـيطان الشـاحب ويديـه اللتـين يغطيهـما القفـاز الأسـود، الـذي نادتـه الفتـاة باسـم كاز. هـل سـيخرج ماتيـاس مـن كابوسـه أم سـيجرجره إلى زنزانـة أخـرى؟ اخـتر يـا هيلفـار.

أمسـك ماتيـاس بيـد الفتـى. لـو وجـد أن هـذا حقيقـة وليس وهـمًا أو حلـمًا يحلمـه، فإنـه سـيهرب مـن أي فـخ سـتنصبه لـه هـذه المخلوقـات. سـمع نينـا تطلـق تنهيـدة طويلـة -هـل تلـك تنهيـدة شـعور بالارتيـاح؟ أم بالاسـتياء؟ هـز ماتيـاس رأسـه. سـوف يتعامـل معهـا لاحقًـا. وضعـت الفتـاة البرونزيـة ضئيلـة الحجـم عبـاءة حـول كتفـي ماتيـاس وعـلى رأسـه قناعًـا قويًـا وقبيحًـا ذا أنـف كالمنقـار.

عمـت الفـوضى الممـر خـارج الزنزانـة. هـرع الرجـال والنسـاء الذيـن يرتـدون الأقنعـة في الممـر يصرخـون ويتدافعـون محاولـين الابتعـاد عـن السـاحة. أخـرج الحـراس بنادقهـم واسـتطاع ماتيـاس سـماع طلقـات الرصـاص. شـعر بالـدوار وأوجعـه جانبـه كثـيرًا. وظلـت ذراعـه اليـسرى غـير قـادرة عـلى الحركـة.

أشـار إليهـم كاز بالمـضي نحـو الممـر في أقـصى اليمـين، وهـذا يعنـي أنهـم سـيتحركون عكـس اتجـاه حركـة الحشـد المندفـع ويتجهـون إلى السـاحة. لم يبـال ماتيـاس لتوجيهـات كاز، حيـث يمكنـه أن ينـدس وسـط الحشـد ويشـق طريقـه لأعـلى السـلالم ويصعـد عـلى مـتن أحـد القـوارب.

ثـم مـاذا؟ لا يهـم. ليـس هنـاك وقـت للتخطيـط.

اندفـع ماتيـاس وسـط الحشـد ولكنـه وجـد نفسـه يُسـحب إلى الـوراء عـلى الفـور.

قـال لـه كاز: «ليـس مـن المفـترض أن تتبـادر تلـك الأفـكار لفتيـان مثلـك يـا هيلفـار. سـوف تقـودك هـذه السـلالم إلى نهايـة مسـدودة. هـل تظـن أن الحـراس لـن يرفعـوا قناعـك ويتحققـوا مـن شـخصيتك قبـل السـماح لـك بالعبـور؟».

تجهم ماتياس وسار وراء الآخرين عبر الحشد ويد كاز على ظهره.

سـادت الفـوضى الممـر وأصبحـت السـاحة ضربًـا مـن الجنـون. لمح ماتيـاس الضبـاع تقفـز وتتجـاوز الحواجـز. وأكل أحدهـا جسـدًا بعبـاءة قرمزيـة. وانقـض فيـل عـلى حائـط الاسـتاد فارتفعـت سـحابة مـن الأتربـة قبـل أن يـصرخ الفيـل في يـأس. ورأى دبًـا أبيـض وأحـد النمـور البريـة الكبـيرة مـن المسـتعمرات الجنوبيـة يقبعـان فـوق الإفريـز وقـد كـشرا عـن أنيابهـما. علـم أن هنـاك ثعابـين في الأقفـاص أيضًـا. وتمنـى ألا يرتكـب هـذا الجاسـر حماقـة لدرجـة تحريرهـا أيضًـا.

اندفعـوا عـبر الرمـال التـي قاتـل ماتيـاس عليهـا مـن أجـل الفـوز بالامتيـازات خـلال الأشـهر السـتة السـابقة، ولكـن بينـما اتجهـوا نحـو النفـق أتـت السـحلية الصحراويـة الضخمـة نحوهـم بينـما تتسـاقط رغـوة السـم الأبيـض مـن فمهـا وذيلهـا السـمين يـضرب الأرض. قبـل أن يفكـر ماتيـاس في التحـرك، قفـزت الفتـاة البرونزيـة عـلى ظهرهـا وغـرزت اثنتـين مـن سـكاكينها اللامعـة تحـت درعهـا المكـون مـن القشـور. تأوهـت السـحلية وانقلبـت عـلى جانبهـا. شـعر ماتيـاس بـالألم والحـزن. لقـد كانـت مخلوقًـا رهيبًـا، ولم يُـر مقاتـل ينجـو مـن هجومهـا، ولكنهـا كائـن حـي أيضًـا. قـال ماتيـاس لنفسـه: «إنـك لم تشـهد مقاتـلًا ينجـو منهـا حتـى الآن. وتسـتحق خناجـر الفتـاة البرونزيـة المشـاهدة».

كان مـن المفـترض أن يعـبروا السـاحة ليعـودوا إلى المنصـات لتجنـب الحشـود المتزاحمـة في الممـر، وربمـا يصعـدوا السـلالم بعـد ذلـك عـلى

أمل اجتياز الحراس الذين قد ينتظرون عند قمتها. ولكن قادهم كاز بدلًا من ذلك عبر نفق الأقفاص. وهذه الأقفاص عبارة عن زنزانات قديمة تحتجز أي نوع من الوحوش يضع أسياد بوابة الجحيم أيديهم عليه- من حيوانات السيرك العجوز وحتى الماشية المريضة والمخلوقات التي يتم اصطيادها من الغابة أو الريف. لمح ماتياس وهم يركضون مسرعين زوجين من الأعين الصفراء ينظران إليه عبر الظلام، ولكنه أكمل طريقه دون أن يفكر حتى في تبينهما. وأخذ يلعن ذراعه المشلولة وعدم وجود سلاح بحوزته. لقد أصبح عاجزًا عن الدفاع عن نفسه. إلى أين يقودنا هذا الكاز؟ تجاوزوا دبًّا بريًّا يأكل أحد الحراس ورأوا أحد النمور المتوحشة يزأر قبل أن يبصق شيئًا ما نحوهم دون أن يقترب منهم.

رغم رائحة الحيوانات النفاذة ورائحة نفاياتها القذرة، كان ماتياس ما زال قادرًا على استنشاق الرائحة المميزة للماء المالح، وسمع تدافع الأمواج. فانزلق واكتشف أن الصخور تحت قدميه رطبة. لقد قطع في النفق مسافة أكبر من التي سمح له بقطعها. لابد أن هذا الطريق يقود إلى البحر. وأيًّا كان الشيء الذي تنوي نينا ورفاقها القيام به، فإنهم يخرجونه بالفعل من قاع بوابة الجحيم.

رأى ماتياس من خلال الضوء الأخضر المنبعث عن الكرات التي يحملها كاز والفتاة البرونزية قاربًا صغيرًا راسيًا أمامهم. وبدا أن به حارسًا يجلس فيه، ولكنه رفع يدًا ولوح لهم بالمضي قدمًا.

قال كاز وهو يدفع ماتياس نحو القارب: «تحركت مبكرًا يا جاسبر».

«بل تحركت في الوقت المحدد».

«ولكن هذا مبكر بالنسبة إليك، لم أعهدك تلتزم بالأوقات المتفق عليها. في المرة القادمة التي تخطط فيها لإثارة إعجابي، نبهني أولًا».

«لقد فتحت أقفاص الحيوانات ووجدت قاربًا لك. هذا هو الوقت المناسب لشكري».

قالت نينا: «شكرًا لك جاسبر».

«على الرحب أيتها الفاتنة. ألا ترى يا كاز؟ هذا ما يفعله المتحضرون».

لم يصغ ماتياس إليهم. بدأت أصابع يده اليسرى ترتعش مع عودة الإحساس إليها. لن يستطيع مقاتلتهم جميعًا؛ على الأقل ليس وهو في هذه الحالة وليس وهم مسلحون. ولكن يبدو أن كاز والفتى الجالس في القارب هما الوحيدان اللذان يملكان مسدسات. فك الحبل وشل حركة جاسبر. وهكذا سيحصل على مسدس وقارب، ولكنه ذكر نفسه بأن نينا تستطيع إيقاف قلبه قبل أن يمسك بالمجاديف؛ لذلك يجب أن يطلق الرصاص عليها أولًا. أن يطلق رصاصة لتستقر في قلبها. ويراقبها وهي تسقط وينهي علاقته بهذا المكان. يمكنه القيام بهذا. يعلم أن في مقدوره ذلك. فكل ما يحتاج إليه هو تشتيت انتباههم وحسب.

وقفت الفتاة البرونزية إلى يمينه. وصلت إلى كتفه بالكاد. يستطيع حتى وهو مصاب أن يدفعها إلى الماء دون أن يفقد توازنه ودون أن يتسبب لها بضرر حقيقي.

قم بإسقاط الفتاة. حرر القارب. شل حركة القناص. اقتل نينا. اقتل نينا. اقتل نينا. أخذ نفسًا عميقًا وألقى بثقله نحو الفتاة البروزية.

تنحت الفتاة البرونزية جانبًا كأنها تعلم بأنه قادم وعرقلته.

أطلق ماتياس صرخة عالية عندما اصطدم بالصخور بقوة.

صاحت نينا وهي تتقدم نحوه: «ماتياس». سقط ماتياس على ظهره وكاد يقع في الماء. لو وضعت يديها عليه مرة أخرى، فسوف يجن جنونه. توقفت نينا، فلم يكن الأذى الذي أصاب وجهها صغيرًا. وليس من حقها أن تقترب منه.

قالت الفتاة البرونزية بلا مبالاة: «يالهذا الأحمق».

قال كاز آمرًا: «اجعليه ينام نينا».

قال ماتياس معترضًا وقد أصابه الذعر: «لا تفعلي».
«أنت غبي لدرجة أنك تحاول قلب القارب».
قال ماتياس بصوت هادر: «ابتعدي عني أيتها الساحرة».
أومأت نينا برأسها وقالت: «بكل سرور».
رفعت نينا يديها وشعر ماتياس بأن جفونه أصبحت ثقيلة بينما تحاول إفقاده وعيه وتمتم: «سأقتلك».
«نم جيدًا». وبدا صوتها أشبه بذئب يقتفي أثره ويطارده في الظلام.

في غرفة خالية من النوافذ المنسدلة عليها ستائر باللون الأسود والقرمزي، أنصت ماتياس في صمت إلى الكلمات الغريبة التي تخرج من فم الفتى الشاحب المخيف. عرف ماتياس الوحوش، ومجرد نظرة واحدة على كاز بريكر أخبرته بأنه مخلوق قضى وقتًا طويلًا في الظلام، وأنه قد أحضر معه شيئًا عندما زحف عائدًا إلى النور. شعر ماتياس بهذا حوله. يعلم أن الآخرين يسخرون من الخرافات الفيردانية ولكنه يثق بحدسه. أو هكذا اعتقد قبل أن يلتقي نينا. وأحد أسوأ توابع خيانتها هو الطريقة التي أجبر من خلالها على مراجعة نفسه وحدسه الذي طالما وثق به. كاد ماتياس يتخلص من هذا الشك في بوابة الجحيم حيث لعبت الغريزة دورها (في)@ كل شيء هناك.
سمع ماتياس اسم بريكر يتردد في السجن والصفات المقترنة به، مثل مجرم مختل، بلا قلب، وبلا أخلاق. وأطلقوا عليه اليد القذرة لأنه مستعد لارتكاب أي خطيئة مقابل الثمن المناسب. والآن يتحدث الشيطان عن اقتحام محكمة الجليد، عن إقحام ماتياس في الأمر ليقع في الخيانة من جديد. قال ماتياس لنفسه: «مرة أخرى. سوف أقبع في بئر الخيانة مرة أخرى».
استمر ماتياس في النظر إلى بريكر. أدرك تمامًا أن نينا تراقبه من

الجانب الآخر من الغرفة، ولا يزال بإمكانه شم رائحة عطر الزهور في أنفه وفي فمه أيضًا. استقرت الرائحة النفاذة على لسانه كأنه يتذوقها.

أدرك ماتياس أنه مقيد في كرسي داخل مكان يشبه صالة قمار من نوع ما. لابد أن نينا أيقظته من حالة السبات التي وضعته فيها. وجد نينا بجانب الفتاة البرونزية. وجلس جاسبر؛ ذلك الفتى طويل الساقين؛ في زاوية وقد ثنى ركبتيه النحيلتين وهو يرسم فتى بشعر أحمر ذهبي شيئًا@ فوق قطعة من الورق على مائدة مستديرة مخصصة للعب الورق، ويقضم إبهامه كل حين وآخر. كانت المائدة مغطاة بقماش قرمزي عليها رسومات متكررة للغراب، وهناك عجلة تشبه تلك المستخدمة في ساحة بوابة الجحيم ولكن بعلامات مختلفة تستند إلى حائط مطلي باللون الأسود. شعر ماتياس بأن شخصًا ما -ربما نينا- زاد إصاباته وهو فاقد للوعي. أصابته الفكرة بالغثيان. ولكنه فضل تحمل الألم الحقيقي على تلاعب الغريشا.

بدأ كاز التحدث عن تركيبة تسمى يوردا باريم، وعن الجائزة الكبرى المستحيلة، وعن الفكرة الغريبة لمحاولة اقتحام محكمة الجليد. لم يستطع ماتياس التأكد مما إذا كان ما يسمعه حقيقة أم خيالًا، ولكن لم يهتم بالأمر على أي حال. عندما انتهى كاز من حديثه، قال ماتياس ببساطة: «كلا».

«صدقني عندما أقول هذا يا هيلفار: أعلم أن إصابتك بالإغماء والاستيقاظ في مكان غريب ليست بطريقة مناسبة لبدء شراكة، ولكنك لم تعطنا خيارًا آخر؛ عليك أن تفتح عقلك أمام الاحتمالات التي في انتظارك».

«حتى إن أتيتني راكعًا، لن تتغير إجابتي إطلاقًا».

«هل تدرك قدرتي على إعادتك إلى سجن بوابة الجحيم خلال ساعات؟ حالما يصل موزين المسكين إلى المستشفى سيصبح التبديل سهلًا».

«افعلها. لا أطيق الانتظار حتى أخبر مأمور السجن بخططك السخيفة».

«ما الذي يجعلك تعتقد أنني سأعيدك إلى السجن ولسانك في فمك؟».

قالت نينا معترضة: «كاز ـــــــــــ»

رد ماتياس: «افعل ما شئت». إنه لن يخون بلده مرة أخرى.

قالت نينا: «لقد أخبرتك».

قال ماتياس بغضب وهو ينظر إلى بريكر: «لا تتظاهري بأنك تعرفينني أيتها المشعوذة». ولم ينظر إليها؛ فإنه يأبى النظر إليها.

ترجل جاسبر من زاوية الغرفة. وأصبح في مقدور ماتياس الآن رؤية جلد بشرته الزيميني البني وعينيه الرماديتين وجسده الأشبه بالبجعة. قال جاسبر: «من دونه لن تتم المهمة. لا يمكننا اقتحام محكمة الجليد بطريقة عمياء».

قال ماتياس كاتمًا ضحكته «بل لا يمكنكم اقتحامها أبدًا». فليست محكمة الجليد مبنى عاديًا. إنها مجمع حصن فيردا العتيق ومنزل سلسلة لا تنتهي من الملوك والملكات، ومستودع أعظم كنوزها وآثارها الدينية المقدسة. ولا يمكن اختراقها.

قال الشيطان: «بربك يا هيلفار. لا بد من أن هناك شيئًا تريده أنت أيضًا سيتحقق من ذلك الاقتحام. إن القضية عادلة بما فيه الكفاية لمتحمس مثلك والمصلحة مشتركة. ربما تعتقد فيردا أنها أمسكت التنين من ذيله ولكنها لن تستطيع السيطرة عليه. فحالما يكرر بو يول بايور عمليته سوف يدخل يوردا باريم السوق وستصبح مسألة وقت فحسب قبل أن يتعلم الآخرون تصنيعها أيضًا».

«لن يحدث هذا. سوف يخضع يول بايور للمحاكمة، ولو وجد مذنبًا فسوف يعدم».

سألت نينا بنعومة: «مذنب بماذا؟».

«جرائم ضد الناس».

«أي ناس؟».

سمع ماتياس مسحة الغضب البادية في صوتها؛ فأجابها: «الأناس الطبيعيون. الأناس الذين يعيشون في انسجام مع قوانين هذا العالم بدلًا من التلاعب بها من أجل مصلحتهم الشخصية».

أطلقت نينا تنهيدة يملؤها الإحباط، في حين بدا أن الآخرين يستمتعون بما يحدث ويضحكون على هذا الفيرداني البائس المتخلف. حذر بروم ماتياس من أن العالم يمتلئ بالكاذبين والباحثين عن المتعة والوثنيين عديمي الإيمان. وبدا أن الغرفة تكتظ بهم.

قال بريكر: «أنت تنظر إلى الأمر نظرة قاصرة يا هيلفار. باستطاعة فريق آخر الوصول إلى يول بايور أولًا. الشاويين مثلًا. وربما الرافكانيين. لكل منهم أجندته الخاصة به. لا تهم الخلافات على الحدود والعداوات القديمة يا كيرتش. كل ما يهم مجلس التجار في الأمر هو تجارتهم، وهم يريدون إبقاء يوردا باريم مجرد شائعة ولا شيء آخر».

قال ماتياس باحتقار: «هل تريد إقناعي إذًا بأن قيادة المجرمين إلى قلب فيردا لخطف سجين مهم يعد عملًا وطنيًا؟».

«لا أعتقد أن حصولك على أربعة ملايين كروج من تلك العملية سيجعلك تراه عملا وطنيًا كذلك».

بصق ماتياس «احتفظ بمالك لنفسك. اشبع به». ثم طرأت فكرة على عقله؛ فكرة لئيمة ووحشية ولكنها ربما تتيح له العودة إلى بوابة الجحيم وهو يشعر بالراحة النفسية والرضا، حتى لو لم يعد إلى هناك بلسان في فمه. مال ماتياس للوراء لأقصى قدر تتيحه له القيود وركز كل انتباهه على بريكر وقال: «سأعقد معك صفقة».

«كلي آذان مصغية».

«لن أذهب معك، ولكني سأعطيك رسمًا تخطيطيًا للمحكمة. سوف يساعدك هذا الرسم على تجاوز أول نقطة تفتيش على

الأقـل».

«وما الثمن الذي سأدفعه مقابل هذه المعلومات القيمة؟».

«أنـا لا أريـد مالـك. سـوف أعطيـك الرسـومات بـلا مقابـل». شـعر ماتيـاس بالخجـل مـن الكشـف عـما يعتمـل في صـدره ولكنـه قالها عـلى أي حـال. «إذا سـمحت لي في المقابـل بقتـل نينـا زينيـك».

ظهـر الاشـمئزاز عـلى وجـه الفتـاة البرونزيـة الصغـيرة حيـث بـدا احتقارهـا لـه جليًّـا، وتوقـف الفتـى الـذي يقـف عـلى الطاولـة عـن الرسـم وفغـر فـاه مـن الدهشـة. ورغـم ذلـك، بـدا أن هـذا لم يفاجـئ كاز، بـل بـدا مـسرورًا. وانزعـج ماتيـاس مـن فكـرة أن كاز ربمـا عـرف الطريقـة التـي سـينتهي بهـا هـذا الأمـر بالضبـط.

قال كاز: «يمكنني أن أقدم لك شيئًا أفضل».

ومـاذا يمكـن أن يكـون أفضـل مـن الانتقـام؟ «ليـس هنـاك شيء آخـر أريـده».

«يمكنني أن أجعلك دروسكل مرة أخرى؟».

«هـل أنـت مشـعوذ إذًا؟ هـل تملـك روح سـاحرة تحقـق الأمنيـات؟ أنـا أؤمـن بالأسـاطير ولكنـي لسـت غبيًّـا».

«أتعـرف؟ ربمـا أكـون الاثنـين ولكـن ليـس هـذا هـو المقصـود». وضـع كاز يـدًا في جيـب معطفـه الداكـن وقـال: «هـا هـي» وأعطـى الفتـاة البرونزيـة قصاصـة مـن الـورق. إنهـا شـيطانة أخـرى. شـيطانة قـادرة عـلى التحـرك بخفـة ونعومـة كأنهـا أتـت مـن العـالم الآخـر ولا أحـد يسـتطيع إعادتهـا إليـه. وضعـت إينـاج الورقـة أمـام وجـه ماتيـاس ليقرأهـا، وقـد كتبـت هـذه الوثيقـة بلغـة كيرتـش ولغـة فـيردا. لم يسـتطع قـراءة لغـة كيرتـش- لقـد التقـط بعـض الكلـمات فقـط خـلال وجـوده في السـجن - ولكـن بـدت الفيردانيـة واضحـة بمـا فيـه الكفايـة، وتحركـت عينـاه تقـرآن المكتـوب في الورقـة، وبـدأ قلبـه ينبـض بقـوة.

في ضـوء الأدلـة الجديـدة يُمنـح ماتيـاس بنديـك هيلفـار عفـوًا كامـلًا

وفوريًّا عن جميع التهم المنسوبة إليه بشأن تجارة الرقيق. وبناءً على ما سبق، أطلق سراحه في يوم ______ الموافق ______ وتعتذر إليه المحكمة، وسوف توفر له وسيلة انتقال إلى موطنه أو إلى أي جهة يختارها. وتتقدم إليه هذه المحكمة وحكومة كيرتش بجميع أنواع الاعتذارات الصادقة والعاجلة.

«ما الأدلة الجديدة؟».

رجع كاز إلى الوراء في كرسيه وقال: «يبدو أن نينا زينيك تراجعت عن أقوالها. وسوف تواجه عقوبة الشهادة الزور».

عندئذ نظر ماتياس إليها؛ فلم يستطع منع نفسه عن هذا. كم أراد ترك كدمات على رقبتها الجميلة، محدثًا نفسه عن مدى سعادته لو تحقق ذلك.

«الشهادة الزور؟ وما عقوبتك على هذا يا زينيك؟».

أجابت بهدوء: «شهران سجن».

«شهران؟»؛ عندئذ دخل في نوبة ضحك شديدة وطويلة. وارتعش جسده كأن سمًّا يسري في دمه ويجعل عضلاته تنقبض.

أخذ من في الغرفة يراقبونه باهتمام.

سأل جاسبر وأصابعه تنقر على المقابض اللؤلؤية لمسدساته: «إلى أي مدى يبلغ جنونه؟».

هز بريكر كتفيه بلا مبالاة وقال: «ليس ما يجعله جديرًا بالثقة، ولكنه كل ما لدينا».

شهران. ربما تقضيهما في سجن مريح وتجعل كل حارس فيه يجلب لها الخبز الطازج والوسائد الوثيرة. أو ربما تقنعهم بإخلاء سبيلها مقابل دفع غرامة يستطيع الرعاة الأثرياء للغريشا في رافكا دفعها بكل سهولة.

قال ماتياس لبريكر: «هل تعرفها جيدًا؟ إنها لا تؤتمن. وأيًّا كانت

الأسرار التي تأمل الحصول عليها من بو يول- بايور سوف تسلمها إلى رافكا».

«دعني أتولى شأن هذا هيلفار. قم بعملك وسوف تصبح أسرار يول- بايور ويوردا باريم في أيدي الأشخاص الأكثر استعدادًا لإبقائها محض شائعات».

شهران. سوف تقضي نينا عقوبتها وتعود إلى رافكا وهي ثرية تمتلك أربعة ملايين كروج ولا تفكر فيه مرة أخرى. ولكن لو اتضح أن هذا العفو حقيقي، فسوف يصبح بمقدوره هو أيضًا العودة إلى وطنه.

الوطن. لقد تخيل الفرار من سجن بوابة الجحيم مرات عديدة، ولكنه لم يفكر في أن الهروب بالفعل أمر ممكن. وما نوع الحياة التي تنتظره في الخارج إذا كانت تهمة تجارة الرقيق لا تزال تلاحقه؟ لا يستطيع العودة إلى فيردا. وحتى لو تحمل الشعور بالخزي، سيظل هاربًا تطارده حكومة كيرتش، سيظل رجلًا مستهدفًا. يعلم قدرته على صنع حياة لنفسه في نوفي زيم ولكن ما الفائدة من هذا؟

أما ما عرضه عليه بريكر فهو أمر مختلف تمامًا، لو أن الشيطان بريكر يتحدث صدقًا بشأن العفو، فهذا يعني عودة ماتياس إلى وطنه. كم يتحرق شوقًا إلى وطنه، وكم يتلهف إلى سماع لغته ورؤية أصدقائه وتذوق السملا المليئة بكريمة اللوز، والشعور بالرياح الشمالية التي تزأر فوق الجليد. كم يشتاق إلى العودة إلى وطنه وسط حفاوة وترحيب أهله به دون عبء الشعور بالخزي والعار. ومع تبرئة ساحته، تمكنه العودة إلى حياته كأحد الدروسكل. ولكن ثمن كل ذلك هو الخيانة.

سأل ماتياس بريكر: «ماذا لو كان بو يول- بايور ميتًا؟».

«فان إيك يصر على أنه ليس كذلك».

ولكن كيف استطاع التاجر الذي يتحدث عنه كاز فهم الأساليب الفيردانية بالفعل؟ لو لم تعقد المحاكمة بعد، فسوف تعقد حتمًا في

وقـت مـا، وبإمـكان ماتيـاس توقـع النتيجـة بسـهولة. لـن يسـمح قومـه مطلقًـا بإطـلاق سراح رجـل يمتلـك مثـل هـذه المعرفـة الرهيبـة.

«ماذا لو كان ميتًا يا بريكر؟».

«سوف تحصل على العفو على أي حال».

حتـى لـو أصبحـت الطريـدة رمـادًا سـوف يفـوز ماتيـاس بحريتـه. ولكـن مـا الثمـن الـذي سـوف يدفعـه مقابـل ذلـك؟ لقـد وقـع في أخطـاء مـن قبـل. وارتكـب حماقـة عندمـا وثـق بنينـا. لقـد ضعـف أمامهـا وسـوف يحمـل هـذا العـار لمـا تبقـى مـن حياتـه. ودفـع ثمـن غبائـه بالـدم والمعانـاة والصعـاب التـي واجههـا في سـجن بوابـة الجحيم. فجرائمـه سـاذجة نتيجـة أفعـال فتـى سـاذج. ولكـن مـا يطلـب منـه الآن أسـوأ بكثـير: أن يكشـف أسرار محكمـة الجليـد، وأن يـرى وطنـه ثانيـةً ولكـن وهـو يعلـم هـذه المـرة أن كل خطـوة يخطوهـا هنـاك خيانـة - فهـل يسـتطيع فعـل هـذا؟

وربمـا يضحـك بـرو في وجوههـم سـاخرًا ويمـزق هـذا العفـو. ولكـن يبـدو أن كاز بريكـر ذكي بمـا يكفـي، ومـن الواضـح أنـه واسـع الحيلـة. مـاذا لـو رفـض ماتيـاس المشـاركة واسـتطاع بريكـر وفريقه في نهايـة الأمر إيجـاد طريقـة لاقتحـام محكمـة الجليـد واختطـاف العـالم الشـاوي؟ أو مـاذا لـو اتضـح أن بريكـر محـق وتمكنـت دولـة أخـرى مـن فعـل ذلـك قبلهـم؟ يبـدو أن باريـم مـادة مسـببة للإدمـان وأن أضرارهـا أكـثر مـن فوائدهـا بالنسـبة إلى الغريشـا، ولكـن مـاذا لـو وقعـت التركيبـة في أيـدي الرافكانيـين واسـتطاعوا بطريقـة مـا تعديلهـا؟ فغريشـا الجيـش الثـاني في رافـكا أكـثر قـوة. لـو شـارك ماتيـاس في هـذه المهمـة فإنـه سيحرص عـلى ألا يتنفـس بـو يـول- بايـور مـرة أخـرى خـارج أسـوار محكمـة الجليـد، أو ربمـا يسـتطيع تدبـير حـادث مـا خـلال رحلـة العـودة إلى كيرتـش.

قبـل نينـا وقبـل سـجن بوابـة الجحيـم، لم يحتمـل أن يفكـر في هـذا. والآن يسـتطيع عقـد هـذه الصفقـة مـع نفسـه. سـوف ينضـم إلى فريـق الشـيطان ويفـوز بالعفـو، وعندمـا يصبـح دروسـكل مـرة

أخـرى سـتصبح نينـا زينيـك هدفـه الأول. سـوف يطاردهـا في كيرتـش وفي رافـكا وفي أي حفـرة أو مـكان في العـالم تعتقـد أنهـا سـتكون آمنـة فيـه. سـوف يلاحقهـا حتـى يمسـك بهـا ويجعلهـا تدفـع الثمـن بـكل الطـرق الممكنـة. سـتتمنى المـوت راحـة لهـا ولـن تنالـه. سـيرميها في أكـثر الزنزانـات بؤسًـا في محكمـة الجليـد حيـث لـن تشـعر بالـدفء مـرة أخـرى. سـوف يتلاعـب بهـا كـما تلاعبـت بـه. سـوف يعـرض عليهـا الخـلاص ثـم يحرمهـا منـه. سـوف يقـدم لهـا بعـض العطـف والشـفقة ثـم يمنعهـما عنهـا. سـوف يفـرح بـكل دمعـة تذرفهـا. سـوف يسـتمتع بـكل مـا سـتعانيه مـن حـزن ومـرارة بعـد أن يـزول عنهـا عطـر الزهـور الـذكي هـذا الـذي يداعـب أنفـه.

رغـم ذلـك، ظلـت الكلـمات مريـرة في فـم ماتيـاس وهـو يـردد: «سـأفعل هـذا».

غمـز كاز لنينـا. وأراد ماتيـاس أن يضربـه بقـوة في فكـه حتـى يوقـع لـه أسـنانه، وقـال لنفسـه: «بعدمـا أعطـي نينـا نصيبهـا مـن العـذاب سـوف آتي مـن أجلـك». اصطـاد ماتيـاس السـاحرات، فهـل سـيصعب عليـه قتـل شـيطان؟

طـوت الفتـاة البرونزيـة الوثيقـة وأعطتهـا لبريكـر الـذي وضعهـا في جيبـه الداخـلي. وشـعر ماتيـاس بأنـه يشـاهد صديقًـا قديمًـا لم يتمـن أن يـراه مـرة أخـرى؛ صديقًـا اختفـى وسـط الزحـام ولم يتمكـن مـن أن يناديـه.

قـال بريكـر: «سـوف نفـك القيـود عنـك. أرجـو ألا ينسـيك السـجن الأخـلاق أو حسـن الإدراك».

أومـأ ماتيـاس برأسـه، وأمسـكت الفتـاة البرونزيـة بسـكين لقطـع الحبـال التـي تقيـده. وأردف بريكـر قائـلًا: «أعتقـد أنـك تعـرف نينـا بالفعـل. والفتـاة التـي تحـررك هـي إينـاج لصـة الأسرار والأفضـل في مجالهـا. أمـا جاسـبر فاهـي فهـو القنـاص زيمينـي المولـد، ولكـن أرجـو ألا يعطيـك هـذا فكـرة خاطئـة عنـه، وهـذا ويـلان أفضـل خبـير متفجـرات

في باريـل».

قالت إيناج: «راسك أفضل منه».

نظـر الفتـى إلى أعـلى وشـعره الذهبـي الأحمـر يتـدلى أمـام عينيـه، وتحـدث لأول مـرة قائـلًا: «ليـس الأفضـل. إنـه متهـور».

«إنه يعرف ما يفعله».

«وأنا كذلك».

قال جاسبر: «بالكاد».

قال بريكر معترفًا: «إن ويلان جديد في المجال».

رد ماتيـاس: «إنـه جديـد بالطبـع؛ إنـه يبـدو في الثانيـة عـشرة مـن عمـره».

قال ويلان بوجه عابس: «أنا في السادسة عشرة».

شـك ماتيـاس في هـذا. إنـه في الخامسـة عـشرة عـلى الأكـثر. بـدا أن الفتـى لم يبـدأ حلاقـة ذقنـه بعـد. في الحقيقـة، كان ماتيـاس في الثامنـة عـشرة لذلـك اعتقـد أنـه ربمـا يكـون أكـبر عضـو في هـذه المجموعـة. ورغـم عينَـي بريكـر العجوزتـين، مـن غـير المحتمـل أن يكـون أكـبر سـنًا مـن ماتيـاس.

لأول مـرة أخـذ ماتيـاس يتطلـع إلى الأشـخاص المحيطـين بـه. مـا نـوع هـذا الفريـق في هـذه المهمـة الخطـيرة؟ لـن تكـون الخيانـة مشـكلة إذا ماتـوا جميعًـا. وهـو الوحيـد الـذي يعـرف الخيانـة التـي يحملهـا هـذا المسـعى.

قـال جاسـبر: «تجـب علينـا الاسـتعانة براسـك؛ إنـه يجيـد العمـل تحـت الضغـوط».

قالت إيناج: «لا يعجبني هذا».

قـال كاز: «أنـا لم أطلـب رأيكـم. لا يمتلـك ويـلان المسـتوى نفسـه في التعامـل مـع المتفجـرات والمشـاجرات فحسـب. إنـه ضمانتنـا».

سألت نينا: «ضمانة لماذا؟».

قـال كاز بريكـر بينـما تـوردت وجنتـا الفتـى: «إليكـم ويـلان فـان إيـك. ابـن جـان فـان إيـك وضمانتنـا للحصـول عـلى ثلاثـين مليـون كـروج».

جاسبر

حدق جاسبر في ويلان وانفجر ضاحكًا «بالطبع أنت ابن عضو المجلس، هذا يفسر كل شيء».

في وقت آخر ربما اعتراه الغضب من كاز لأنه أخفى عنه جزءًا آخر من المعلومات المهمة، ولكنه اكتفى بالاستمتاع بالكشف عن شخصية ويلان فان إيك، الكشف الذي أحدث الكثير من الاضطراب في الغرفة.

احتقن وجه ويلان وبدا عليه الشعور بالمهانة. وبدت نينا مصدومة وظهرت على وجهها علامات الضيق، كما بدا الارتباك على وجه الفيرداني. وبالطبع لم يظهر أدنى قدر من الدهشة على وجه إيناج التي تجمع أسرار كاز كلها وتحتفظ بها. لذلك حاول جاسبر تجاهل وخزة الغيرة التي أصابته بسبب هذا.

فتح ويلان فمه ثم أغلقه قبل أن يسأل كاز على نحو طفولي «هل كنت تعلم هويتي؟».

رجع كاز إلى الوراء في كرسيه وقد ثنى ركبة ومد الرجل المصابة أمامه وقال: «لماذا برأيك أبقيتك في الجوار؟».

«لأنني أجيد التعامل مع المتفجرات».

«مستواك مقبول في المتفجرات وممتاز كرهينة».

بدا هذا قاسيًا، ولكن تلك هي طبيعة كاز. كما أن منطقة باريل ذاتها معلم أكثر قسوة من كاز نفسه لمن يعيشون فيها. وهذا يفسر على الأقل أسباب اعتناء كاز بويلان وحمايته وتكليفه ببعض المهام.

قال جاسبر: «هذا لا يهم. لا بد من أن نصطحب راسك معنا ونترك ابن التاجر هذا محبوسًا في كتردام رغم ذلك».

«أنا لا أثق براسك».
رد جاسبر باستنكار: «وتثق بويلان فان إيك؟».
«لا يعرف ويلان أشخاصًا يمكن أن يسببوا لنا المتاعب».
قال ويلان متذمرًا: «أليس لي رأي في هذا؟ أنا هنا».
رفع كاز حاجبًا وقال: «هل نشلت محفظتك من قبل ويلان؟».
«أنا... لست متأكدًا».
«هل تعرضت للسرقة بالإكراه في أحد الأزقة من قبل؟».
«كلا».
«هل علقت على جانب أحد الجسور بينما يتدلى رأسك في القناة؟».
طرفت عينا ويلان وأجاب: «كلا ولكن ــــــــــــــ»
«هل تعرضت للضرب المبرح حتى عجزت عن المشي؟».
«كلا».
«لماذا لم تتعرض لأي من ذلك برأيك؟».
«أنا ــــــــــــــ»
«لقد مرت ثلاثة أشهر منذ أن تركت منزل والدك في شارع جيلد. لماذا برأيك وجدت إقامتك في باريل مباركة على هذا النحو؟».
أجاب ويلان بضعف: «هل محظوظ كما أظن؟».
ضحك جاسبر مصدرًا شخرة «كان كاز هو حظك أيها الطفل المدلل. لقد وضعك تحت حماية الدريجز رغم عدم جدواك ولم يعرف أي منا السبب حتى الآن».
قالت نينا: «هذا محير».
تمتمت إيناج: «لدى كاز أسبابه دائمًا».
سأل جاسبر: «لماذا تركت منزل والدك؟».
قال ويلان بتوتر: «لقد حان الوقت لذلك».
«هل أنت مثالي؟ رومانسي؟ ثوري؟».
قالت نينا: «هل أنت أحمق؟ لا أحد يختار العيش في باريل إن

كان لديه خيار آخر».

قال ويلان: «أنا لست عديم الفائدة».

قالت إيناج: «راسك أفضل منك في المتفجرات ــــــــــ»

«لقد ذهبت إلى محكمة الجليد. مع أبي. ذهبنا إلى تناول العشاء في السفارة. أستطيع المساعدة في رسم الخرائط».

قال كاز وهو ينقر على رأس الغراب في عكازه: «هل ترون هذا؟ هناك أعماق خفية. وأنا لا أريد ترك ميزتنا الوحيدة أمام فان إيك في كتردام ونحن نتجه شمالًا. سيأتي ويلان معنا. إنه ماهر بما يكفي في التعامل مع المتفجرات ويمتلك يدًا ممتازة في الرسم بفضل كل أولئك الأساتذة المهرة».

احتقن وجه ويلان أكثر وأكثر، وهز جاسبر رأسه وقال: «وهل تعزف على البيانو أيضًا؟».

أجاب ويلان: «بل الناي».

«ممتاز».

قال كاز: «وبما أن ويلان رأى محكمة الجليد بنفسه، فإنه يستطيع المساعدة على إرغامك على تحري الصدق معنا يا هيلفار».

ظهر العبوس والغضب على وجه الفيرداني وبدا شيء من الاضطراب على ويلان.

قالت نينا: «لا تقلق. تلك النظرات الغاضبة ليست قاتلة».

لاحظ جاسبر طريقة ارتعاد كتفي ماتياس كلما تحدثت نينا. لم يعرف جاسبر تاريخهما معًا، ولكن ربما يقتل أحدهما الآخر قبل أن يصلوا إلى فيردا.

فرك جاسبر عينيه. عانى الإرهاق وقلة النوم بعد جلبة اقتحام السجن وعندئذ أصبحت الأفكار تدور وتتقافز في عقله مع احتمال الفوز بثلاثين مليون كروج. وحتى بعد حصول بير هاسكيل على العشرين بالمائة، سوف يترك هذا أربعة ملايين كروج لكل واحد منهم. ماذا يمكن أن يفعل بهذه الكومة من المال؟ لم يتخيل

جاسبر شيئًا سوى والده وهو يقول: «ضع نفسك أمام المزيد من المشكلات». بحق القديسين إنه يفتقده كثيرًا.

نقر كاز بعصاه على الأرضية الخشبية المصقولة.

«أخرج أوراقك وأقلامك يا ويلان. ليبدأ هيلفار في العمل».

مد ويلان يده نحو حقيبة عند قدمه وسحب لفافة من الأوراق الثقيلة ثم علبة معدنية تحمل قلمًا يبدو غاليًا وعلبة حبر.

قال جاسبر: «شيء لطيف. أنت تملك قلمًا لكل المناسبات».

قال كاز للفيرداني: «هيا ألقِ ما في جعبتك يا هيلفار. حان وقت دفع الإيجار».

رمق ماتياس كاز بنظرة غاضبة وحدق إليه بقوة. ووجد متعة في مباراة التحدي أمام نظرات كاز التي تشبه سمك القرش.

في النهاية أغلق الفيرداني عينيه وأخذ نفسًا عميقًا وقال: «تقع محكمة الجليد فوق جرف يطل على ميناء ديرهولم. وهي مبنية على شكل دوائر متحدة المركز مثل الحلقات داخل الأشجار». خرجت الكلمات من فمه ببطء كأن كل كلمة تسبب له ألمًا. ثم قال: «أولًا الجدار الخارجي ثم الحلقة الخارجية. وهي مقسمة إلى ثلاثة قطاعات. وهناك خندق الجليد، ثم تقع الجزيرة البيضاء في مركز كل شيء».

بدأ ويلان يضع الرسم التخطيطي. وقال جاسبر وهو ينظر من فوق كتف ويلان: «هذا لا يبدو مثل شجرة؛ إنه يبدو مثل قالب حلوى».

قال ويلان مدافعًا: «حسنًا إنها تشبه قالب الحلوى إلى حد ما. المكان كله مبني فوق هضبة».

أشار كاز لماتياس بالاستمرار.

«لا يمكن تسلق المنحدرات الصخرية، والطريق الشمالي هو الطريق الوحيد للدخول أو الخروج. سوف تضطرون إلى العبور على نقطة تفتيش مزودة بحراسة قبل الوصول إلى الجدار الخارجي».

قال ويلان: «أجل هناك اثنتان من نقاط التفتيش. عندما كنت هناك، وجدت اثنتين».

قال كاز لجاسبر: «أرأيت؟ ها هي المهارات القابلة للتسويق. ويلان يراقبك يا هيلفار».

سألت إيناج: «لماذا اثنتان؟».

نظر ماتياس إلى الألواح الخشبية السوداء في الأرضية وقال: «من الصعب رشوة مجموعتين من الحراس. يعتمد الأمن في محكمة الجليد على أنظمة أمان متعددة. هذا لو وصلتم إلى هذا الحد ــــــــ».

قال كاز مصححًا له: «وصلنا يا هيلفار. لو وصلنا إلى هذا الحد».

لم يبد ماتياس أدنى اهتمام وقال: «لو وصلنا إلى هذا الحد فإن الحلقة الخارجية تنقسم إلى ثلاثة قطاعات: السجن ومنشآت الدروسكل والسفارة وكل واحدة لها بوابتها الخاصة بها في الجدار الخارجي. تعمل بوابة السجن دائمًا وتخضع للمراقبة المسلحة باستمرار. ومن بين البوابتين الأخريين تعمل واحدة فقط في أي وقت».

سأل جاسبر: «ما الذي يحدد البوابة المستخدمة؟».

«يتغير الجدول كل أسبوع، ولا يعرف الحراس أماكنهم إلا قبلها بليلة واحدة».

قال جاسبر: «يبدو هذا جيدًا. لو استطعنا معرفة البوابة التي ستتوقف عن العمل، فلن يوجد حراس أو مراقبة عليها ــــــــ».

«دائمًا ما يوجد أربعة حراس حتى عند البوابات المتوقفة عن العمل».

«أنا متأكد من أننا نستطيع التعامل مع أربعة حراس».

هز ماتياس رأسه قائلًا: «تزن البوابات آلاف الأرطال ولا تعمل إلا من خلال مباني الحراسة فقط. وحتى لو استطعتم رفع إحداها

فـإن فتـح بوابـة في غـير المواعيـد المقـررة لهـا يـؤدي إلى تفعيـل البروتوكـول الأسـود. سـتصبح محكمـة الجليـد كلهـا في وضـع الإغـلاق وسـوف تكشـفون موضعكـم».

سرى شـعور بالانزعـاج في الغرفـة. وتململ جاسـبر في مكانـه. لـو دلـت التعبـيرات عـلى وجـوه الآخريـن عـلى شيء لدلـت عـلى أنهـم جميعًـا يفكـرون في الـشيء نفسـه: مـا الـذي نـورط أنفسـنا فيـه؟ ولكـن كاز هـو الوحيـد الـذي لم يبـد عليـه الانزعـاج.

قـال وهـو ينقـر عـلى الـورق أمـام ويـلان: «سـجل كل شيء، أتوقـع منـك يـا هيلفـار أن تصـف آليـات نظـام الإنـذار لويـلان لاحقًـا».

قطـب ماتيـاس حاجبيـه وقـال: «لا أعلـم كيفيـة عملـه بالضبـط. إنـه يشـبه مجموعـة مـن الكابـلات والأجـراس».

«أخبره بكل ما تعرفه. أين سيحتفظون ببو يول- بايور؟».

نهـض ماتيـاس ببـطء واقـترب مـن الخرائـط التـي تتشـكل تحـت قلـم ويـلان. وبـدت حركاتـه مـترددة وحـذرة كأن كاز طلـب منـه أن يربـت ثعبانًـا قاتـلًا.

قـال الفـيرداني وهـو يضـع إصبعـه عـلى الـورق «ربمـا يحتفظـون بـه هنـا في،قطـاع السـجون حيـث تقـع الزنزانـات ذات الحراسـة المشـددة في الطابـق الأعـلى. وهـذا هـو المـكان الـذي يضعـون فيـه أعتـى المجرمـين، والمغتالـين والإرهابيـين ــــــــــــــ»

سألت نينا: «من الغريشا تعني؟».

أجاب ماتياس بعبوس «بالضبط».

قـال جاسـبر: «أيهـا الرفـاق سـتجعلون هـذا ممتعًـا بحـق؛ أليـس كذلـك؟ عـادة مـا لا يبـدأ النـاس بكراهيـة بعضهـم إلا بعـد أسـبوع مـن العمـل ولكنكـما بدأتمـا قبـل العمـل».

وجـه الاثنـان نحـو جاسـبر نظـرات سـاخطة فحـدق إليهـما بـدوره، ولكـن انصـب انتبـاه كاز عـلى الخرائـط.

قـال بعـد تفكـير عميـق: «بـو يـول- بايـور ليـس خطـيرًا. عـلى الأقـل

ليس خطيرًا على هذا النحو. وأعتقد أنهم لن يحبسوه مع الرعاع».
قال ماتياس: «أعتقد أنهم سيضعونه في قبر».
«عملًا بمبدأ أنه ليس ميتًا. وأنه سجين قيم بالنسبة إليهم؛ سجين لا يريدونه أن يقع في الأيدي الخاطئة قبل المحاكمة. أين يمكن أن يوجد في رأيك؟».
نظر ماتياس إلى الخريطة وقال: «تحيط مباني الحلقة الخارجية بخندق الجليد، وفي وسط الخندق هناك الجزيرة البيضاء التي توجد فيها الخزانة والقصر الملكي. إنه أكثر الأماكن أمانًا في محكمة الجليد».
قال كاز: «إذًا هذا هو المكان الذي سيوجد فيه بو يول- بايور».
ابتسم ماتياس. ابتسامة زائفة، بل تكشيرة في واقع الأمر. قال جاسبر لنفسه: «لقد تعلم هذه التكشيرة في بوابة الجحيم».
قال ماتياس: «إذًا سيضيع جهدك هباءً؛ فليست هناك طريقة تستطيع من خلالها مجموعة من الأغراب الوصول إلى الجزيرة البيضاء».
«لا تسعد كثيرًا يا هليفار. إن لم نصل إلى هناك فلن تحصل على العفو».
هز ماتياس كتفيه بلا مبالاة وقال: «لا يمكنني تغيير الحقيقة. يخضع خندق الجليد لمراقبة عدة أبراج للحراسة على الجزيرة البيضاء ونقطة مراقبة فوق برج ساعة إيلدر كلوك. إنه مكان لا يمكن الوصول إليه إلا عبر الجسر الزجاجي ولا يمكن عبور ذلك الجسر من دون تصريح».
قالت نينا: «لقد اقترب موعد هرينغكالا».
أجابها ماتياس بضيق: «اصمتي».
قال كاز: «أرجوكِ لا تصمتي».
«هرينغكالا. إنه يوم تنصيب الدروسكل الجدد في الجزيرة البيضاء».

بـدت العصبيـة الشـديدة عـلى ماتيـاس وهـو يقـول: «لا يحـق لـكِ التحـدث عـن تلـك الأمـور. إنهـا مقدسـة».

«بـل إنهـا حقائـق. تقيـم العائلـة الملكيـة حفـلًا كبـيرًا يأتيـه المدعـوون مـن أرجـاء العـالم كافـة، وتحييـه وسـائل الترفيـه مـن كـتردام مبـاشرة».

سأل كاز: «الترفيه؟».

«أجـل، ممثلـون راقصـون مـن فرقـة كوميـدي بـروت وأفضـل المواهـب مـن بيـوت المتعـة من ويسـت سـتيف».

قال جاسبر: «اعتقدت أن الفيردانيين لا يقومون بمثل هذه الأشياء».

التـوت شـفتا إينـاج وقالـت: «ألم تـر مـن قبـل الجنـود الفيردانيـين في إيسـت سـتيف وويسـت سـتيف؟».

قال جاسبر: «أعني في وطنهم».

أجابـت نينـا: «إنــه اليــوم الوحيــد في العــام الــذي يتوقفــون فيــه جميعًـا عـن التـصرف بطريقـة بائسـة ويمتعـون أنفسـهم بالفعـل. عـلاوة عـلى ذلـك الدروسـكل فقـط هـم مـن يعيشـون مثـل الرهبـان».

قـال ماتيـاس بغضـب: «الأوقـات الممتعـة لا تعنـي بالـضرورة شرب الخمـر و... ومتعـة الجسـد».

نظـرت نينـا إلى ماتيـاس بضيـق وقالـت: «لـن تفهـم معنـى الأوقـات الممتعـة حتـى لـو اقتربـت منـك شـخصيًا ووضعـت مصاصـة في فمـك». ثـم نظـرت إلى الخرائـط وأردفـت «سـوف تفتـح حينهـا بوابـة السـفارة. ربمـا لا نضطـر إلى القلـق بشـأن اقتحـام محكمـة الجليـد. ربمـا نسـتطيع الدخـول مـع الفنانـين فحسـب».

قـال كاز: «هـذا ليـس عرضًـا في بوابـة الجحيـم. لـن يمـر الأمـر بهـذه السـهولة».

قـال ماتيـاس: «يتـم التحقـق مـن هويـات الزائريـن قبـل أسـابيع مـن وصولهـم إلى محكمـة الجليـد. وتتـم مراجعـة أوراق أي شـخص يدخـل السـفارة مـرة تلـو أخـرى. فالفيردانيـون ليسـوا أغبيـاء».

رفعت نينا حاجبًا وقالت: «ليس كلهم على الأقل».

قال كاز: «لا تغضبي الدب يا نينا. نحن نريده ودودًا. متى يقام هذا الحفل؟».

أجابت نينا: «إنه موسمي يقام في الاعتدال الربيعي».

قالت إيناج: «أي بعد أسبوعين من اليوم».

مال كاز برأسه جانبًا وشردت عيناه بعيدًا.

همس جاسبر لإيناج: « إنه يضع الخطط».

أومأت إيناج موافقة «بالطبع».

سأل كاز: «وهل ترسل الوردة البيضاء وفدًا إلى هناك؟».

هزت نينا رأسها وقالت: «لم أسمع أي شيء عن هذا».

قالت إيناج: «حتى لو ذهبنا إلى ديرهولم مباشرة سوف نحتاج إلى أكثر من أسبوع للسفر. ليس هناك وقت لتأمين الوثائق أو الغطاء الذي يجعلنا ننجح في اجتياز التفتيش».

قال كاز: «لن ندخل عبر السفارة. اضرب الهدف حيثما لا ينظر».

سأل ويلان: «من الهدف؟».

انفجر جاسبر ضاحكًا وقال: «آه بحق القديسين أنت عجيب. الهدف هو الأحمق الثري المغفل الذي تنوي سرقته».

شد ويلان قامته وقال: «ربما لم أحصل على تعليم عشوائي... مثلك ولكني متأكد من أنني أعرف الكثير من الكلمات التي لا تعرفها».

«وتعرف كذلك الطريقة المناسبة لطي منديل ورقص المينويت. آه وتستطيع العزف على الناي. مهارات قابلة للتسويق يا ابن التاجر. مهارات قابلة للتسويق».

قال ويلان متذمرًا: «لم يعد هناك أحد يرقص المينويت».

مال كاز إلى الوراء وقال: «ما أسهل طريقة لسرقة محفظة من رجل؟».

ردت إيناج: «بوضع سكين على رقبته؟».

قال جاسبر: «أن نصوب مسدسًا إلى ظهره؟».

قالت نينا: «بل ربما علينا دس السم في كوبه؟».
قال ماتياس: «كم أنتم كريهون جميعًا».
دارت عينا كاز في محجريهما وقال: «أسهل طريقة لسرقة محفظته هي إخباره بأنك تنوي سرقة ساعة يده. أن تستحوذ على انتباهه وتوجهه نحو الموضع الذي تريده. سوف يؤدي حفل هرينغكالا هذه المهمة من أجلنا. إن محكمة الجليد توجه كل تركيزها ومواردها على مراقبة الضيوف وحماية العائلة الملكية. لا يمكنهم مراقبة كل مكان في الوقت نفسه. إنها فرصتنا المثالية لإخراج بو يول- بايور». وأشار كاز إلى بوابة السجن في الجدار الخارجي وقال: «هل تذكرين ما أخبرتكم به في بوابة الجحيم يا نينا؟».
«من الصعب تذكر كل الحكم التي تقولها».
«في السجن لا يهتمون بهوية الداخل بل بهوية الخارج قط». واتجهت إصبعه جانبًا نحو القطاع التالي وقال: «أما في السفارة لا يهتمون بالخارج بل يركزون على مَن يحاول الدخول. سوف ندخل عبر السجن ونغادر عبر السفارة. هيلفار؛ هل تعمل ساعة إيلدر كلوك؟».
أومأ ماتياس قائلًا: «إنها تقرع الأجراس كل ربع ساعة. وهي التي تطلق أجراس الإنذار أيضًا».
«هل هي دقيقة؟».
«بالطبع».
قال نينا بحدة: «فخر الصناعة الفيردانية».
تجاهلها كاز وقال: «إذًا سوف نستخدم إيلدر كلوك في تنسيق تحركاتنا».
سأل ويلان: «وهل سندخل متنكرين كحراس؟».
لم يستطع جاسبر إخفاء الازدراء في صوته وهو يقول: «كيف ندخل كحراس ولا يتحدث الفيردانية سوى نينا وماتياس ».
قال ويلان معترضًا: «أنا أتحدث الفيردانية كذلك».

رد جاسبر: «تعليم فيرداني، أليس كذلك؟ أراهن أنك تجيد التحدث بالفيردانية مثلما أجيد التحدث بلغة الأيائل».
تمتم ويلان: «ربما تكون لغة الأيائل لغتك الأم».
قال كاز: «سندخل كما نحن. كمجرمين. فالسجن هو بوابتنا الأمامية».
قال جاسبر: «دعني أستوضح هذا. أنت تريدنا أن ندع الفيردانيين يضعوننا في السجن. ولكن أليس هذا ما نحاول تجنبه دومًا؟».
«هويات المجرمين غامضة. إنها إحدى مزايا أن تنتمي إلى الطبقة المثيرة للمتاعب. إنهم يحصون الرؤوس عند بوابة السجن وينظرون إلى الأسماء والجرائم ولا يفحصون جوازات السفر ولا يتأكدون من أختام السفارة».
قال جاسبر: «لأنه لا أحد يريد الذهاب إلى السجن».
فركت نينا يديها في ذراعيها وقالت: «لا أريد أن أحبس في زنزانة فيردانية».
نقر كاز على أكمامه؛ فظهر قضيبان رفيعان بين أصابعه. وأخذ يتلاعب بهما بين أصابعه ثم اختفيا.
سألت نينا: «هل ستفتح الأقفال؟».
أجاب كاز: «دعوني أهتم بأمر الزنزانات».
قالت إيناج بتأمل: «اضرب الهدف حيثما لا ينظر».
قال كاز: «هذا صحيح. ومحكمة الجليد مثل أي هدف آخر؛ حمامة بيضاء كبيرة جاهزة تنتظر من يصطادها».
سألت إيناج: «وهل سيأتي يول- بايور طواعية؟».
أجاب كاز: «أخبرني فان إيك أن المجلس أعطى يول- بايور كلمة سر عندما حاولوا أول مرة إخراجه من شو هان لكي يعرف بمن يثق: شيش-يوه. سوف تخبره بكلمة السر هذه أننا أرسلنا من كيرتش».
قال ويلان وهو يجرب مقاطع الكلمة: «شيش يوه. وماذا

تعنـــي؟».

نظرت نينا إلى بقعة في الأرضية وقالت: «مفطور القلب».

قـال كاز: «هـذا أمـر يمكـن تحقيقـه. ونحـن مَـن سـيقوم بـه». شـعر جاسـبر بتغـير الحالـة المزاجيـة في الغرفـة مـع ظهـور إمكانيـة تنفيـذ الخطـة. إنـه شيء غامـض، ولكنـه تعلـم اكتشـافه عـلى موائـد القـمار - مـع اللحظـة التـي يـدرك فيهـا اللاعـب حقيقـة أنـه ربمـا يمتلـك مجموعـة أوراق رابحـة. سـيطر الشـعور بالترقـب عـلى جاسـبر؛ وخليـط مـن الشـعور بالخـوف والحـماس؛ مـا جعـل مـن الصعـب عليـه البقـاء سـاكنًا في مكانـه.

ربمـا شـعر ماتيـاس بهـذا أيضًـا لأنـه عقـد ذراعيـه الضخمتـين وقـال: «أنـت لا تملـك أدنى فكـرة عـما سـتواجهه».

«ولكنـك تعـرف يـا هيلفـار مـا سـنواجه، لـذا أريـدك أن تعمـل عـلى خريطـة محكمـة الجليـد طـوال الوقـت حتـى نبحـر. ليسـت هنـاك تفاصيـل تافهـة أو غـير مهمـة. سـوف أراجعـك باسـتمرار».

أخـذت أصابـع إينـاج تمـر فـوق الرسـم الأولي الـذي وضعـه ويـلان، وهـو مجموعـة مـن الدوائـر المدمجـة، وقالـت: «إنهـا تبـدو بالفعـل مثـل حلقـات داخـل شـجرة».

قال كاز: «كلا، بل إنها تبدو كهدف».

كاز

أخبر كاز الآخرين: « انتهينا هنا. سوف أرسل إلى كل واحد منكم بعد أن أجد لنا مركبًا، ولكن استعدوا للإبحار بحلول ليلة الغد».

سألت إيناج: «مبكرًا هكذا؟».

«نحن لا نعرف نوع الطقس الذي سنواجهه وأمامنا رحلة طويلة. هرينغكالا فرصتنا المثالية لإخراج بو يول- بايور. ولن أخاطر بخسارتها».

احتاج كاز إلى وقت للتفكير في الخطة التي تشكلت في رأسه. كان قادرًا على تحديد ركائز خطته - المكان الذي سيدخلون منه والطريقة التي سيغادرون بها. ولكن تلك الخطة تعني عدم قدرتهم على إحضار الكثير معهم. سوف يعملون من دون مواردهم المعتادة. ما يعني المزيد من المتغيرات والكثير من احتمالات أن تسير الأمور على نحو غير مرغوب.

كان الغرض من إبقاء ويلان فان إيك معهم ضمان حصولهم على مكافأتهم على الأقل. ولكن ليس الأمر بهذه السهولة؛ فإنهم لم يغادروا كتردام بعد، ويبدو أن ويلان لا يمتلك الخبرة اللازمة للتعامل مع هذا الموقف. فليس ويلان أصغر سنًّا من كاز بكثير ولكنه بدا كطفل صغير - ناعم البشرة وذو عينين واسعتين مثل جرو لطيف في غرفة تمتلئ بالكلاب الشرسة.

قال كاز لجاسبر وهو يصرفهم: «لتبق ويلان عن المتاعب».

«لماذا أنا؟».

«لن تتمتع بما يكفي من حظ الفترة القادمة لتبقى أمام ناظري، ولا أريد أي مصالحات مفاجئة بين الأب والابن قبل أن نشرع في الإبحار».

قال ويلان: «ليس هناك ما يدعوك إلى القلق بهذا الشأن».

«أنا أقلق حيال كل شيء أيها الطفل المدلل. هذا هو سبب بقائي على قيد الحياة. وتستطيع مراقبة جاسبر كذلك».

قال جاسبر ساخطًا: «مراقبتي أنا؟».

أزاح كاز لوحًا خشبيًّا جانبًا وفتح الخزانة المخفية وراءه وقال: «أجل، أنت». ثم أخرج أربع رزم من عملة الكروج وأعطى واحدة لجاسبر «هذه من أجل الرصاصات وليس الرهانات. ويلان؛ احرص على ألا تجد قدماه طريقهما إلى أحد أوكار القمار وهو في طريقه لشراء الذخيرة، مفهوم؟».

قال جاسبر ساخرًا: «أنا لا أحتاج إلى مربية أطفال».

«يمكنك أن تعتبره مرافقًا، ولكن إذا أردته أن يغسل حفاضاتك ويضعك في الفراش ليلًا فهذا شأنك». تجاهل كاز التعبير الغاضب الذي ارتسم على وجه جاسبر وأعطى ويلان رزمة كروج من أجل شراء المتفجرات، وأعطى نينا رزمة لكي تشتري أي شيء تحتاج إليه من أجل أدوات التنكر، ثم قال: «تجهزوا من أجل الرحلة فقط. فلو سارت الأمور على النحو الذي أفكر فيه سوف نضطر إلى دخول محكمة الجليد خاليي الوفاض».

لمح كاز تغيرًا على وجه إيناج، فهي لا تحب التخلي عن خناجرها مثلما لا يحب هو التخلي عن عصاه.

قال كاز لإيناج: «أريدك أن تحضري ملابس وتجهيزات للطقس البارد. هناك محل في شارع ويجين يبيعها للصيادين - ابدئي من هناك».

سأل هيلفار: «هل تفكر في الدخول إل هناك من الشمال؟».

أومأ كاز وقال: «يكتظ ميناء ديرهولم بموظفي الجمارك، وأراهن أنهم سيقومون بتشديد الإجراءات الأمنية خلال حفلك الكبير».

«إنه ليس حفلًا».

قال جاسبر: «يتخذ مظاهر الحفل».

قال هيلفار متجهمًا: «من المفترض أنه ليس كذلك».
سألت نينا وهي تشير برأسها إلى ماتياس: «ماذا سنفعل به؟».
بـدت الـلا مبـالاة واضحـة عـلى صوتهـا، ولكـن لم ينطـل هـذا الأداء عـلى أحـد سـوى هيلفـار. فلقـد رأوهـا جميعًـا وهـي تـذرف الدمـوع في بوابـة الجحيـم.
« سـيبقى حاليًـا هنـا في نـادي الغـراب. اعـصر ذاكرتـك مـن أجـل التفاصيـل يـا هيلفـار. وسـوف ينضـم إليـك ويـلان وجاسـبر لاحقًـا. سـنبقي عـلى هـذه الصالـة مغلقـة. وإذا سـألكم أي شـخص يلعـب في الصالـة الرئيسـية، أخـبروه بـأن هنـاك لعبـة خاصـة تـدور هنـا وغـير مسـموح بالدخـول».
سـأل جاسـبر: «وهـل يجـب علينـا أن ننـام هنـا؟ هنـاك أشـياء لا بـد مـن متابعتهـا في سـلات».
قـال كاز وهـو يعلـم أن طلبـه مـن جاسـبر قضـاء الليـل في وكـر للمقامـرة دون أن يضـع رهانًـا بـه شيء من القسـوة. «يمكنـك التصرف في هـذا يـا جاسـبر»، ثـم التفـت إلى باقـي المجموعـة: «لا تفتحـوا أفواهكـم. يجـب أن تبقـى مغادرتكـم لكيرتـش سرًا عـن الجميـع. أنتـم تعملـون معـي عـلى مهمـة تتعلـق بأحـد المنـازل الريفيـة خـارج المدينـة. هـذا كل شيء».
سألت نينا: «وهل ستخبرنا بأي تفاصيل عن خطتك الجهنمية؟».
«على المركب. كلما قل ما تعرفونه، قلَّ ما ستتحدثون عنه».
«وهل ستترك هيلفار بلا أصفاد؟».
سأل كاز الفيرداني: «هل يمكنك أن تحسن التصرف يا هيلفار؟».
بدت نظرات ماتياس قاتلة، ولكنه أومأ برأسه موافقًا.
«سنغلق الغرفة ونعين حارسًا عليها».
قالت إيناج وهي تعاين الفيرداني الضخم: «ربما اثنين».
«عيّنـي ديريكـس وروتي، ولكـن لا تخبريهـما بكثـير مـن التفاصيـل. سـوف يبحـران معنـا وسـأخبرهما لاحقًـا. سـنتحدث أنـا وأنـت وويـلان

لاحقًـا. أريـد أن أعـرف كل شيء عـن شركـة أبيـك التجاريـة».
هز ويلان كتفيه «لا أعلم عنها شيئًا. لا يشركني أبي في أعماله».
«هـل تريـد أن تقنعنـي بأنـك لم تتطفـل في أرجـاء مكتبـه مطلقًـا؟ ألم تتلصـص عـلى وثائقـه قـط؟».
أجاب ويلان: «كلا». واندهش كاز حين وجد نفسه يصدقه بالفعل.
قـال جاسـبر مبتهجًـا وهـو يسـير نحـو البـاب: «ألم أخـبرك بذلـك؟ إنـه عديـم الفائـدة».
بـدأ الآخـرون يسـيرون وراء جاسـبر وأغلـق كاز الخزانـة وأدار ريشـة القفـل.
قال هيلفار: «أود أن أتحدث معك يا بريكر. على انفراد».
نظـرت إينـاج إلى كاز نظـرة تحذيـر ولكنـه تجاهلهـا، فهـل تظـن أنـه لا يسـتطيع التعامـل مـع كتلـة عضـلات قويـة مثـل ماتيـاس هيلفـار؟ أزاح كاز اللـوح الخشـبي ليغلقـه وهـز رجلـه. التـي تؤلمـه الآن - بسـبب سـهره لأوقـات متأخـرة ليـال عديـدة وحملهـا لوزنـه لوقـت أطـول.
قال كاز: «اذهبي أيها الشبح. أغلقي الباب وراءك».
وبمجـرد أن أُغلـق البـاب، اندفـع ماتيـاس نحـو كاز. وقـد سـمح كاز بهـذا لأنـه توقعـه.
وضـع ماتيـاس يـده المتسـخة عـلى فـم كاز. وأثـار إحسـاس كاز بجلـد ماتيـاس شـعور بالاشـمئزاز، ولكنـه نجـح في السـيطرة عـلى شـعوره هـذا لأنـه توقـع الهجـوم. وأخـذت يـد ماتيـاس الأخـرى تعبـث في جيـوب معطـف كاز واحـدًا تلـو الآخـر.
قـال ماتيـاس غاضبًـا بالفيردانيـة: «فـير إسـجي؟»؛ ثـم قـال بلغـة كيرتـش: «أيـن هـي؟».
منـح كاز هيلفـار لحظـة أخـرى مـن البحـث المسـعور، ثـم ضربـه بالكـوع ولكمـه لكمـة قويـة مـا أجـبر هيلفـار عـلى أن يخفـف مسـكته. ثـم انسـل كاز جانبًـا ليسـدد ضربـة قويـة مـن خلـف سـاق هيلفـار اليمنـى بعصـاه. سـقط الفـيرداني الضخـم عـلى الأرض. وعندمـا حـاول

النهوض، ركله كاز بشدة.

«ابق أرضًا أيها البغيض البائس».

حاول هيلفار النهوض مرة أخرى. وأسرع في نهوضه؛ حيث أكسبه السجن القوة، ولكن لكمه كاز بقوة في فكه، ثم سدد ضربتين سريعتين في نقاط الضغط في كتفيه الضخمتين برأس عصاه. صاح الفيرداني حين خارت قواه وارتخت ذراعاه بجانبه وأصبحتا بلا فائدة.

قلب كاز العصا في يده وضغط رأس الغراب المنحوت على رقبة هيلفار وقال: «تحرك مرة أخرى، وسوف أضرب فكك بقوة لدرجة تضطر معها إلى تناول وجباتك طيلة حياتك عن طريق الشرب فقط».

سكنت حركة الفيرداني، ولكن بدت عيناه الزرقاوان كأنهما تقدحان الشرر.

سأل هيلفار غاضبًا: «أين وثيقة العفو؟ لقد رأيتك وأنت تضعها في جيبك».

جثم كاز بجانبه، وأخرج وثيقة مطوية من أحد الجيوب التي بدت خاوية منذ لحظة وقال: «أتقصد هذه؟».

حاول هيلفار تحريك ذراعيه المشلولتين، ثم زمجر بصوت خافت كالحيوانات عندما جعل كاز العفو يختفي في الهواء. ثم ظهرت وثيقة العفو مرة أخرى بين أصابع كاز. وقلب كاز الوثيقة فظهر النص المكتوب ثم مرر يده عليها؛ فرأى هيلفار الصفحة تبدو خالية.

تمتم هيلفار: «ديمجين». لم يتحدث كاز الفيردانية، ولكنه عرف هذه الكلمة: شيطان.

تعلم كاز حركات خفة اليد من المحتالين ولاعبي الأوراق الغشاشين في إيست ستيف وقضى ساعات يتدرب عليها أمام مرآة قذرة اشتراها من راتب أول أسبوع له.

ضرب كاز فك هيلفار بعصاه برفق وقال: «مقابل كل حيلة رأيتها، أعرف ألف حيلة أخرى. هل تعتقد أن عامًا في بوابة الجحيم منحك الصلابة الكافية وعلمك القتال؟ إن بوابة الجحيم كالجنة مقارنة بما رأيته في طفولتي. أنت تتحرك مثل ثور هائج لا أكثر- وربما تتمكن من العيش ليومين في الشوارع التي نشأت فيها. سوف أغفر لك هذه المرة. ولكن لا تختبر صبري مرة أخرى. أومئ برأسك حتى أعرف أنك تفهم».

زم هيلفار شفتيه وأومأ برأسه.

«حسنًا. أعتقد أننا سنقيد هذه الأقدام الليلة».

نهض كاز والتقط قبعته الجديدة من المكتب حيث تركها، وركل الفيرداني مرة أخيرة في كليته كإجراء احتياطي. أحيانًا لا يعرف ضخام الجثة متى يجب عليهم البقاء هادئين.

إيناج

في اليـوم التـالي، لاحظـت إينـاج أن كاز قـد بـدأ في تحريـك عنـاصر خطتـه ليضعهـا في موضعهـا الصحيـح. حـضرت تشـاوراته مـع كل عضـو في الفريـق، ولكنهـا عرفـت أن مـا تـراه لا يعـدو جـزءًا صغـيرًا مـما يعتمـل في رأسـه. فهـذه هـي اللعبـة التـي يمارسـها كاز دومًـا.

فحتـى لـو سـاورته الشـكوك حيـال مـا يفعلونـه، فـإن تلـك الشـكوك لا تبـدو عليـه، ودت إينـاج لـو تشـاركه شـعوره بالثقـة. فلقـد أُنشـئت محكمـة الجليـد كي تصمـد أمـام هجـمات الجيـوش، والقتلـة، والغريشـا، والجواسـيس. وعندمـا أخـبرت كاز بذلـك، أجابهـا ببسـاطة: «ولكنهـا لم تشـيد لمنعنـا نحـن مـن الدخـول».

أثـارت ثقتـه أعصابهـا؛ فقالـت: «مـا الـذي يجعلـك تعتقـد أن في مقدورنـا القيـام بذلـك؟ ففـي انتظارنـا فـرق أخـرى مدربـة مـن جنـود وجواسـيس وأشـخاص لديهـم سـنوات مـن الخـبرة».

«تلـك ليسـت مهمـة للجنـود والجواسـيس المدربـين. إنهـا مهمـة العصابـات واللصـوص. يعـرف فـان إيـك هـذا جيـدًا، وهـذا هـو سـبب اسـتعانته بنـا».

«لن تجني شيئًا من المال إن لقيت حتفك يا كاز».

«سوف أكتسب مميزات غالية الثمن في الحياة الآخرة».

«هناك فارق بين الثقة والغرور».

عندئـذ أدار ظهـره لهـا وخلـع قفـازه بعصبيـة، وقـال: «عندمـا أريـد موعظـة بهـذا الشـأن، أعلـم مـن سـأذهب إليـه. إينـاج لـو أردتِ الانسـحاب مـن تلـك المهمـة، أخبرينـي فحسـب».

شـدت إينـاج قامتهـا وقالـت بـكل فخـر: «ليـس ماتيـاس العضـو الوحيـد الـذي لا يمكـن الاسـتغناء عنـه في الفريـق يـا كاز. أنـت تحتـاج

إليَّ».

«أحتـاج إلى مهاراتـك يـا إينـاج. وهـذا ليـس الـشيء نفسـه. ربمـا تكونـين أفضـل عنكبـوت زاحـف في منطقـة باريـل، ولكنـك لسـت الوحيـدة والفريـدة مـن نوعـك. أرجـو أن تتذكـري هـذا إن أردت الاحتفـاظ بنصيبـك مـن الغنيمـة».

لم تنبـس إينـاج ببنـت شـفة ولم تـرد أن تظهـر مـدى الغضـب الـذي جعلهـا تشـعر بـه؛ بـل غـادرت مكتبـه ولم تقـل لـه شـيئًا.

وبينـما اتجهـت نحـو الميناء، أخـذت تتسـاءل عـما يبقيهـا عـلى هـذا الطريـق.

بإمكانهـا أن تغـادر كيرتـش في أي وقـت تريـده. يمكنهـا أن تتسـلل إلى أي سـفينة متجهـة إلى نـوفي زيـم. وفي مقدورهـا العـودة إلى رافـكا والبحـث عـن عائلتهـا، آملـة أن يكونـوا قـد نجـوا في الغـرب مـن الحـرب الأهليـة التـي اندلعـت أو أنهـم قـد لجـأوا إلى شـوهان. لقـد اتبعـت قوافـل السـولي الطـرق القديمـة نفسـها طـوال سـنوات بينـما امتلكـت إينـاج المهـارات اللازمـة لسرقـة مـا تحتـاج إليـه مـن أجـل البقـاء حتـى عـثرت عـلى كاز ورفاقـه.

سـوف يعنـي هـذا الهـروب مـن ديونهـا لعصابـة الدريجـز. ربمـا يلقـي بـير هاسـكيل اللـوم عـلى كاز ويجـبره عـلى دفـع ثمـن عقـد عملهـا، وربمـا سـيتركه هـذا ضعيفًـا مـن دون شـبحه الـذي يجمـع لـه الأسرار. ولكـن ألم يكـن هـو مـن أخبرهـا بأنـه مـن السـهل اسـتبدالها؟ لـو نجحـوا في هـذه العمليـة وعـادوا إلى كيرتـش وبحوزتهـم بـو يـول- بايـور فـإن نسـبتها مـن الغنيمـة سـتبلغ أكـثر مـما يكفـي لتدفـع ثمـن الخـروج مـن عقدهـا مـع الدريجـز. ولـن تصبـح مدينـة لـكاز بـشيء، ولـن يوجـد سـبب لبقائهـا.

ازدحمـت الشـوارع بينـما شـقت إينـاج طريقهـا مـن إيسـت سـتيف نحـو ويسـت سـتيف رغـم أنـه لم يتبـق عـلى الـشروق سـوى سـاعة واحـدة. هنـاك مقولـة للسـولي تقـول: القلـب سـهم يحتـاج إلى هـدف

ليصيبه. كم أحب والدها ترديد هذه العبارة على مسمعها عندما تدربت على ألاعيب الحبل أو الأرجوحة. قال لها: «تحلي بالحزم يا إيناج. لا بد من أن تعرفي المكان الذي تريدين الذهاب إليه قبل الوصول إلى وجهتك». فضحكت والدتها على هذا معلقة « إنك تنزع الرومانسية عن كل شيء». ولكنه لم يفعل ذلك في واقع الأمر، فلقد هام والدها حبًّا بأمها. ما زالت إيناج تذكر كيف اعتاد ترك باقات صغيرة من زهور الجيرانيوم البرية لتعثر عليها أمها في كل مكان يمكن أن تصل يداها إليه، في الخزائن، في آنية الطبخ، وحتى أكمام ملابسها.

سألها أبوها ذات مرة: «هل أخبرك بسر الحب الحقيقي؟ لقد حدثني أحد أصدقائي أن النساء يحببن الزهور. دخل صديقي هذا في العديد من العلاقات العابثة ولكنه لم يجد زوجة مناسبة له قط. هل تعلمين السبب وراء ذلك؟ لأن النساء ربما يحببن الزهور، ولكن هناك امرأة واحدة فقط تحب رائحة شجر الجاردينيا في أواخر الصيف لأنها تذكرها بشرفة جدتها. امرأة واحدة فقط تحب وضع زهور التفاح في كأس زرقاء. امرأة واحدة فقط تحب زهور الجيرانيوم البرية».

صاحت إيناج وهي تبكي: «هذه ماما».

«أجل، ليست ماما كباقي النساء، فإنها تحب زهور الجيرانيوم البرية لأنه ليست هناك زهور أخرى لها اللون نفسه، و تعتقد أنها حين تكسر ساق الزهرة وتضعها خلف أذنها تصبح رائحة العالم كله كرائحة الصيف. صغيرتي ربما يقدم لك العديد من الفتيان باقات الزهور. ولكنك سوف تلتقين يومًا ما بذلك الفتى الذي يكتشف زهورك المفضلة، وأغنيتك المفضلة، وحلواك المفضلة. وحتى لو كان فقيرًا لدرجة تمنعه من إحضار أي منها إليك، لن يهم هذا لأنه سيقضي الوقت اللازم للتعرف عليك على نحو لم يفعله أحد آخر. وهذا هو الفتى الوحيد الذي يستحق قلبك».

بدا أن هذا الحديث قد دار بينهما منذ مائة عام مضت. لكن والدها مخطئ. فلم تحمل لها الأقدار فتيانًا يجلبون لها الزهور؛ بل ألقت في طريقها رجالًا يحملون رزمًا من الكروج وتمتلئ محافظهم بالعملات المعدنية. ترى هل ستقابل والدها مرة أخرى؟ هل ستستمع إلى صوت والدتها العذب وهي تغني، وصوت عمها وهو يروي قصصًا سخيفة؟ لست واثقة من أنني أمتلك قلبًا يستطيع تقديم المزيد من الحب يا بابا.

المشكلة هي أن إيناج لم تعد متأكدة مما تسعى وراءه. بدت الأمور أسهل وهي صغيرة - فكانت تكفيها ابتسامة من والديها، ومهاراتها التي تصقلها في السير على الحبل، ورائحة كعك البرتقال الملفوف في ورق أبيض التي تفوح في أرجاء المنزل. ثم تحولت رغبتها إلى التحرر من هيلين ومن الميناجري، وأرادت بعد ذلك أن تصبح أكثر قوة في كل صباح جديد يشرق عليها، أما الآن فهي لم تعد تعرف حقًّا ما تريد.

قالت محدثة نفسها: «سوف أقبل هذه المرة فقط اعتذاره لي. ولن أصعد على متن المركب مطلقًا إلا إذا أبدى أسفه. حتى لو لم يعتذر كاز بشكل مباشر، يمكنه التظاهر بالندم على ما قال. إنه مدين لي بإظهار أفضل نسخة من نفسه كإنسان على الأقل».

لولا تأخر الوقت لجوَّلت إيناج في أرجاء ويست ستيف أو تنقلت فوق الأسقف - فهذه كتردام التي تحبها: خالية وهادئة في مكان مرتفع فوق الحشود، سلسلة جبلية من القمم الجمالونية والمداخن غير المتساوية التي يضيئها نور القمر. ولكن الليلة لم يتسع أمامها الوقت. لقد أرسلها كاز لتبحث في المحلات عن قطعتين من البارافين في الدقيقة الأخيرة. لم يخبرها حتى فيم سيستخدمهما أو سبب أهميتهما. وماذا عن نظارات الجليد؟ لقد اضطرها البحث عنها إلى زيارة ثلاثة محلات مختلفة. إنها مرهقة بشدة ولا تثق ثقة كاملة بقدرتها على تسلق الجملونات؛ على الأقل ليس بعد ليلتين بلا نوم

ويـوم في جمـع مسـتلزمات الرحلـة إلى محكمـة الجليـد.

تعتقد إيناج أنها تتحدى نفسها أيضًا.

لم تـسِر إينـاج في ويسـت سـتيف بمفردهـا مطلقًـا. ولكنهـا مـع حمايـة الدريجـز لهـا، أصبحـت قـادرة عـلى المـرور عـلى منـزل المانجـيري وإلقـاء نظـرة عـلى القضبـان الذهبيـة القابعـة عنـد النوافـذ. أمـا الليلـة، شـعرت بالدمـاء تجـري في عروقهـا بمجـرد ظهـور الواجهـة الذهبيـة للمنـزل في طريقهـا. صمـم المانجـري ليبـدو عـلى شـكل قفـص كبـير يضـم عـدة طوابـق. كان الطابقـان الأولان مفتوحـين باسـتثناء مجموعـة ذهبيـة مـن القضبـان المتباعـدة، عـرف أيضًـا باسـم منـزل العجائـب. فـإذا أردت فتـاة نحيلـة مـن شـو هـان أو عملاقـة مـن فـيردان أو حمـراء الشـعر من جزيـرة ووندرينـج أو زيمينيـة ذات بـشرة سـمراء فـلا بـد أن تجـد طلبـك في ميناجـري. تعـرف كل فتـاة باسـم حيوانهـا - النمـر، الفـرس، الثعلـب، الغـراب، القاقـم، الخشـف، الثعبـان. وترتـدي عرافـات السـولي قنـاع ابـن آوى عندمـا يمارسـن مهنتهـن وينظـرن في مصـير شـخص مـا. ولكـن مـا نوعيـة الرجـل الـذي يرغـب في النـوم مـع ابـن آوى؟ لذلـك عُرفـت فتـاة السـولي- احتفـظ منـزل ميناجـري دائمًـا بفتـاة سـولي - باسـم الوشـق. لم يـأت الزبائـن مـن أجـل الفتيـات أنفسـهن بـل مـن أجـل البـشرة البنيـة للسـوليات والشـعر النـاري للكاليشـيات والأعـين الذهبيـة للشـاويات. وتظـل الحيوانـات كـما هـي رغـم أن الفتيـات يذهـبن ويأتـين.

لمحـت إينـاج ريـش طـاووس في صالـة الاسـتقبال، فانقبـض قلبهـا. ولكنـه مجـرد ديكـور مـن باقـة زهـور غنـاء، ولكنهـا شـعرت بالذعـر الـذي تزايـد حتـى انقطعـت أنفاسـها. ازدحـم الوافـدون عـلى جميـع الجوانـب؛ رجـال بأقنعـة ونسـاء يضعـن الخـمار - أو ربمـا رجـال يضعـن الخـمار ونسـاء بأقنعـة. فمـن المسـتحيل أن تعـرف الفـرق بينهـما. فهنـاك أقنعـة تحمـل قـرون العفاريـت، والأعـين الجاحظـة للمجـذوب، والوجـه الحزيـن لملكـة الجعـران المصنـوع مـن الحديـد والذهـب. يحـب الفنانـون رسـم مشـاهد مـن ويسـت سـتيف للفتيـان والفتيـات

الذيـن يعملـون في بيـوت الدعـارة، ويرتـدي الباحثـون عـن المتعـة مثـل شـخصيات فرقـة كوميـدي بـروت. ولكـن ليـس هنـاك جـمال أو فرحـة أو سـعادة حقيقيـة؛ بـل صفقـات لأنـاس يبحثـون عـن مهـرب أو سـلوى مبهجـة أو حلـم بالانحطـاط يسـتطيعون الاسـتيقاظ منـه وقتـما يشـاءون.

أجبرت إيناج نفسها على النظر إلى ميناجري خلال عبورها.

قالـت لنفسـها: «إنـه مجـرد مـكان. منـزل آخـر فحسـب». كيف سـيراه كاز؟ أيـن المداخـل والمخـارج؟ مـا النوافـذ التـي تخلـو مـن القضبـان الحديديـة؟ مـا طريقـة عمـل الأقفـال؟ مـا عـدد الحـراس المعينـين، وأيهـم يعمـل بيقظـة وانتبـاه؟ إنـه مجـرد منـزل مـليء بالأقفـال التـي يجـب فتحهـا والخزائـن التـي يجـب كسرهـا والسـذج الذيـن يجـب خداعهـم. وعندئـذ أصبحـت إيـناج هـي المفترسـة وليـس هيلـين بريـش الطـاووس أو أي رجـل يمـشي في هـذه الشـوارع.

حالمـا ابتعـد الميناجـري عـن ناظريهـا، بـدأ الانقبـاض في صدرهـا والغصـة في حلقهـا يختفيـان تدريجيًّـا. لقـد فعلتهـا. لقـد مشـت في ويسـت سـتيف بمفردهـا أمـام منـزل العجائـب مبـاشرة. أيًّـا كان مـا ينتظرهـا في فـيردا، سـوف تتمكـن مـن مواجهتـه.

أمسكت يد بساعدها وجذبتها بقوة أخلت بتوازنها.

اسـتعادت إينـاج توازنهـا مـرة أخـرى بسرعـة. ودارت حـول عقبيهـا وحاولـت دفـع نفسـها بعيـدًا، ولكـن هـذه القبضـة قويـة للغايـة.

«مرحبًا أيها الوشق الصغير».

أخـذت إينـاج نفسًـا وحـررت ذراعهـا بالقـوة. الخالـة هيلـين. هـذا هو الاسـم الـذي تعلمـت الفتيـات أن ينادـين بـه هيلـين فـان هوديـن وإلا تعرضـن لصفعـة منهـا. عرفتهـا البقيـة في منطقـة باريـل باسـم الطـاووس رغـم أن إينـاج دائمًـا مـا اعتقـدت أنهـا تشـبه القطـة المتبرجـة أكـثر مـن الطائـر. رأت شـعرها ذهبيًّـا جميـلًا وكثيفًـا وعينيهـا صغيرتـين كالبنـدق ويبـدو فيهـما شيء مـن المكـر. كـما اكتـسى جسـدها المشـوق المـليء

بالمنحنيات بالحرير الأزرق اللامع، وتزينت تقويرة الصدر بريش متقزح اللون ملامسًا العقد الماسي المميز الذي يتلألأ فوق رقبتها.
دارت إيناج إلى الجهة الأخرى كي تركض ولكن رجلًا ضخمًا سد الطريق أمامها، وهو يرتدي معطفًا مخمليًا أزرق اللون ضيقًا عند كتفيه العريضتين. إنه كوبيت القاتل المفضل لدى هيلين.
«أوه، إلى أين أنت ذاهب أيها الوشق الصغير؟».
تشوشت الرؤية أمام عيني إيناج وقالت لنفسها: «لقد وقعت في الفخ. وقعت في الفخ. وقعت في الفخ مرة أخرى».
أجابت إيناج بصعوبة: «هذا ليس اسمي».
«يا لك من عنيدة!».
أمسكت هيلين بسترة إيناج.
صرخ عقل إيناج: «تحركي»، ولكنها لم تستطع. فقد أصيب جسدها بالشلل وملأ الذعر قلبها.
أخذت هيلين تمرر أحد أظافرها المشذبة على خد إيناج وقالت: «الوشق هو اسمك الوحيد. أنت لا تزالين جميلة بما فيه الكفاية لجلب أموال وفيرة. رغم صعوبة التعرف عليك بعد أن قضيت الكثير من الوقت مع ذلك المجرم الصغير بريكر».
تنفست إيناج بصعوبة وشعرت بغصة في حلقها بسبب شعورها بالمهانة.
«أعرف حقيقتك أيها الوشق. أعرف قيمتك بالسنت. كوبيت، ربما علينا اصطحابها إلى المنزل الآن».
أظلمت الدنيا أمام عيني إيناج وقالت: «لن تجرؤي على هذا. الدريجز ———»
«يمكنني الانتظار أيها الوشق الصغير. سوف ترتدين ملابسي الحريرية مرة أخرى، أعدك بهذا».
تركت إيناج وقالت مبتسمة «استمتعي بليلتك». ثم فتحت مروحتها الزرقاء وسارت مبتعدة وسط الحشود، وكوبيت يسير في

أثرها.

تجمدت إيناج مكانها وهي ترتعش. ثم اندست وسط الحشود متمنية لو أن تختفي. كم أرادت أن تركض ولكنها استمرت في المسير بثبات نحو الميناء. وفي طريقها، أطلقت الأغماد الموجودة في ساعدها وشعرت بمقابض سكاكينها وهي تنزلق إلى راحة يدها، حيث يقبع على جهة اليمين القديس بيتر المعروف بشجاعته، وعلى جهة اليسار النصل النحيل ذي المقبض العظمي المسمى بالقديسة آلينا. أخذت إيناج تتلو أسماء نصالها الأخرى. القديسة ماريا، والقديسة أنستازيا مربوطتان في فخذيها. أما القديس فلاديمير يختبئ في حذائها ذي الرقبة الطويلة، والقديسة ليزابيتا معلقة في حزامها بنصل مصمم على شكل يشبه الزهور. قالت إيناج لنفسها: «احموني، احموني». لقد آمنت إيناج بأن قديسيها يراقبونها ويتفهمون كل ما تقدم على فعله من أجل البقاء حية.

ما الذي اعتراها؟ إنها الشبح. لم يعد هناك ما تخشاه من الخالة هيلين. لقد اشترى بير هاسكيل عقدها. لقد حررها. لم تعد عبدة؛ إنها عضو قيم في عصابة الدريجز؛ لصة الأسرار الأفضل في باريل على الإطلاق.

مرت إيناج مسرعة على الأضواء وصوت الموسيقى المندلع في منطقة الليد فظهرت أخيرًا موانئ كتردام أمام ناظريها وبدأت المناظر والأصوات المنبعثة من باريل تتلاشى بينما تقترب من الماء. لم تكن هناك حشود تصطدم بها، ولا عطور تثير الغثيان ولا أقنعة وحشية. أخذت إيناج نفسًا عميقًا. ومن موقعها المميز استطاعت رؤية قمة أحد أبراج مستحضري الأمواج التي تنبعث منها الأنوار على الدوام. وتقوم مجموعة منتقاة من الغريشا الذين يحافظون على ارتفاع منسوب الأمواج دومًا فوق الجسر البري بإشغال المسلات السميكة المبنية من الأحجار السوداء ليلًا ونهارًا، وإلا أصبحت كيرتش متصلة بشو هان. لم يستطع كاز حتى أن يعرف

هويـات مجلـس مسـتحضري الأمـواج أو مـكان إقامتهـم أو الطريقـة التـي يضمـون بهـا إخلاصهـم إلى كيرتـش. إنهـم يراقبـون الموانـئ أيضـا، وبإشـارة مـن مديـر المرفـأ أو أحـد عـمال الأرصفـة، يغـيرون الأمـواج ويمنعـون أي شـخص مـن الخـروج إلى البحـر. ولكـن في هـذه الليلـة لـن تصـدر أي إشـارات. لقـد دفعـت الرشـاوى المناسـبة إلى المسـؤولين المناسـبين ويجـب أن تسـتعد سـفينتهم للإبحـار.

بـدأت إينـاج في الركـض نحـو أرصفـة التحميـل في الميـنـاء الخامـس. لقـد تأخـرت للغايـة ولا طاقـة لهـا بعبـوس كاز واسـتهجانه عنـد وصولهـا إلى مرفـأ السـفن.

شـعرت إينـاج بالسـعادة لمـا يعـم أرصفـة المـواني مـن سـلام وهـدوء، ولكنهـا بـدت سـاكنة للغايـة مقارنـة بالضوضـاء والفـوضى في باريـل. وجـدت أكوامًـا مـن الصناديـق وحاويـات الشـحن مكدسـة عـلى جانبيهـا - ثلاثـة وأحيانًـا أربعـة فـوق بعضهـا. والتـي تجعـل هـذا الجـزء مـن الأرصفـة مثـل المتاهـة. شـعرت إينـاج بعـرق بـارد يتصبـب أسـفل ظهرهـا. فمواجهتهـا للخالـة هيلـين أصابتهـا بالتوتـر ولم يكـن الإحسـاس بثقـل السـكاكين في يدهـا كافيًـا لتهدئـة أعصابهـا المضطربـة. عرفـت أن عليهـا تعـود حمـل مسـدس ولكـن ثقـل المسدسـات يخـل بتوازنهـا، وربمـا يعلـق المسـدس في لحظـة حرجـة. الوشـق الصغـير. إن سـكاكينها جديـرة بالثقـة، وتجعلهـا تشـعر بأنهـا ولـدت بأنيـاب ومخالـب.

تكـون الضبـاب الخفيـف فـوق سـطح المـاء ورأت إينـاج عـبره كاز والآخريـن ينتظـرون بالقـرب مـن رصيـف الميـنـاء. ارتـدوا جميعًـا ملابـس البحـارة العاديـة - ببناطيلهـم الخشـنة وأحذيتهـم ذات الرقبـة الطويلـة ومعاطفهـم الصوفيـة الثقيلـة والقبعـات، بـل إن كاز تخـلى عـن بدلتـه المفصلـة بعنايـة وارتـدى معطفًـا صوفيًـا ضخـمًا. وبـدا شـعره الداكـن مصففًـا للخلـف والجوانـب محلوقـة كـما يفعـل دومًـا. وبـدا مثـل عامل في الميـنـاء أو مجـرد فتـى يسـتعد للإبحـار في مغامرتـه الأولى. وبـدت هـي كأنهـا تنظـر عـبر عدسـة مـا إلى واقـع آخـر أكـثر بهجـة.

ومـن خلفهـم، رأت إينـاج المركـب الشراعـي الصغـير الـذي اسـتولى كاز عليـه وقـد كتـب عـلى جانبـه فيرولينـد بخـط عريـض. سـوف يرفـع المركـب شـعار الأسـماك الأرجوانيـة في كيرتـش والعلـم الملـون لشركـة هانـرادت بـاي. وسـوف يظهـر لأي شـخص في فـيردا أو في بحـر الحقيقـة أنهـم مجـرد صياديـن مـن كيرتـش يتجهـون شـمالًا بحثًـا عـن الجلـود والفـراء. أسرعـت إينـاج. ولـولا تأخرهـا لربمـا اسـتقلوا مـتن المركـب بالفعـل أو حتـى كانـوا في طريقهـم للخـروج مـن الميـنـاء.

سـوف يسـتعينون بأقـل عـدد ممكـن مـن الطاقـم جميعهـم عـلى أن يكونـوا جميعًـا مـن البحـارة السـابقين الذيـن شـقوا طريقهـم بـين صفـوف عصابـة الدريجـز بسـبب محنـة أو كارثـة أحلـت بهـم. أحصـت إينـاج عـدد المجموعـة المنتظـرة عنـد الرصيـف بسرعـة، وحـين انتهـت مـن العـد وجـدت أن كاز قـد اسـتدعى أربعـة أعضـاء إضافيـين مـن الدريجـز لمسـاعدتهم عـلى الإبحـار بالمركـب الشراعـي، فهـم يجهلـون جميعًـا كيفيـة التعامـل مـع حبـال الأشرعـة والصـواري ولكنهـا لم تـر أي واحـد منهـم. ربمـا صعـدوا عـلى مـتن المركـب بالفعـل؟ وبينـما تأملـت هـذه الفكـرة، اصطـدم حذاؤهـا ذو الرقبـة الطويلـة بجسـد طـري فتعـثرت.

نظـرت إلى الأسـفل. وفي النـور الخافـت لمصابيـح الغـاز في الميـنـاء، رأت ديريكـس، وهـو أحـد الدريجـز الذيـن مـن المفـترض أن تقـوم بالرحلـة معهـم، مسـجى عـلى الأرض وسـكينًا مغروسـة في بطنـه وقـد فـارق الحيـاة.

صاحت إيناج: «كاز».

جـاء هـذا التحذيـر متأخـرًا للغايـة؛ دوى انفجـار كبـير في مركبهـم الشراعـي؛ فسـقطت إينـاج أرضًـا قبـل أن تهطـل الشـظايا الملتهبـة عـلى رصيـف الميـنـاء.

-١١-

جاسبر

لطالما شعر جاسبر بالمتعة عندما يطلق أحدهم الرصاص عليه، وليس هذا لأنه يحب فكرة الموت (فالموت المحتمل هو نتيجة سلبية بالطبع في موقف كهذا) ولكن قلقه للحفاظ على حياته، يجعله لا يفكر في شيء آخر سوى النجاة. يحفز ذلك الصوت - المتمثل في الدوي السريع لإطلاق النار- الجانب المشتت الغضوب في عقله الباحث دومًا عن التركيز الشديد. وهذا على الأقل أفضل من الجلوس على موائد القمار وانتظار الأوراق الرابحة وأفضل من الوقوف بجانب عجلة قمار مايكر لانتظار رقم حظه. اكتشف جاسبر هذا في معركته الأولى على الحدود الزيمينية حين تعرق والده وارتجف وأخذ مسدسه بصعوبة، ولكن جاسبر وجد ضالته.

والآن يرتكز جاسبر بذراعيه فوق صندوق يحتمي وراءه ويصوب المسدسين. يستطيع المسدسان زيمينيا الصنع إطلاق ست رصاصات في تتابع سريع ولا مثيل لهما في كتردام. شعر جاسبر بأنهما يزدادان سخونة في يديه.

لقد نبههم كاز إلى توقع ظهور منافسين كفرق أخرى تسعى للفوز بالجائزة بأي ثمن، ولكنهم ظنوا أنه من المبكر للغاية أن تسوء الأمور بهذا الشكل. لقد تم حصارهم وسقط رجل منهم على الأقل وهناك سفينة تحترق من خلفهم. كما فقدوا وسيلة انتقالهم إلى فيردا، وإن دلت الطلقات التي تنهال عليهم على شيء، فهي تدل على أن الآخرين يفوقونهم عددًا. فكر جاسبر في أن الأمور كانت ستسير على نحو أسوأ لو أنهم وُجدوا على المركب لحظة انفجاره.

انحنى جاسبر لإعادة تعبئة مسدسيه ولم يصدق عينيه حين

رأى ويلان فان إيك مكومًا على الرصيف ويداه الناعمتان فوق رأسه. زفر جاسبر وصوب بضع طلقات عشوائية لحمايته وخرج من البقعة الآمنة وراء الصندوق ليمسك ويلان من ياقة قميصه ويجذبه بقوة إلى مخبئه.

هز جاسبر ويلان وقال: «تمالك نفسك أيها الطفل».

تمتم ويلان وهو يبعد يدي جاسبر: «لست طفلًا».

«حسنًا، أنت رجل دولة محنك. هل تعرف كيفية إطلاق النار؟».

أومأ ويلان ببطء وقال: «أعرف رماية السكيت».

دارت عينا جاسبر. ونزع بندقية من على ظهره ودفعها نحو صدر ويلان قائلًا «رائع. هذا يشبه إطلاق النار على الحمام المصنوع من الفخار، ولكنها تصدر صوتًا مختلفًا عندما تصيب إحداها».

التف جاسبر ورفع مسدسيه عندما لمح وجود أحدهم، ولكنه لم ير سوى كاز.

قال كاز: «اتجه شرقًا إلى الرصيف التالي نحو المرسى رقم اثنين وعشرين».

«ماذا يوجد في المرسى اثنين وعشرين؟».

«فيروليند الحقيقية».

«لكن ـــــــــــــــ»

«المركب الذي انفجر كان مجرد تمويه».

«هل كنت تعلم بأمر ترتيب الانفجار؟».

«كلا، ولكني آخذ احتياطاتي دائمًا. هذاما أفعله يا جاسبر».

«كان عليك إخبارنا حتى ـــــــــــ»

ألقى كاز نظرة على ويلان الذي وقف هناك وهو يحتضن البندقية مثل طفل وقال: «لو أخبرتكم لن يصبح تمويهًا إذًا. تحرك. وتأكد من وصوله إلى المركب قطعة واحدة».

شاهد جاسبر كاز وهو يختفي في الظلال بينما يمسك عصاه بيد ومسدسه باليد الأخرى. حتى وهو يمشي على رجل مصابة، ما زال

قادرًا على التحرك برشاقة.

دفع جاسبر ويلان وقال: «لنذهب».

«نذهب؟».

«ألم تسمع ما قاله كاز؟ يجب أن نذهب إلى المرسى الثاني والعشرين».

أومأ ويلان بغباء. وامتلأت عيناه المتسعتان بالدهشة.

«ابق خلفي وحاول ألا تتعرض للقتل. هل أنت مستعد؟».

هز ويلان رأسه.

«إذًا انس أنني سألتك». ثم وضع يد ويلان على قبضة البندقية وقال: «هيا».

أطلق جاسبر مجموعة أخرى من الطلقات بطريقة جنونية وعشوائية في محاولة للتمويه وإخفاء موقعهم. وفرغ أحد المسدسين؛ فاندفع بعيدًا عن الصندوق وذهب إلى بقعة خالية من الضوء. توقع ألا يتبعه ويلان، ولكنه استطاع سماع وقع خطوات الطفل المدلل وراءه وهو يلهث بقوة، وصفير خافت يخرج من صدره بينما يركضان نحو المجموعة التالية من البراميل.

شهق جاسبر عندما مرت رصاصة بجوار خده مباشرة تاركة حرقًا فيه لشدة قربها منه.

ألقوا بأنفسهم خلف البراميل. ومن نقطة المراقبة الجديدة تلك، تمكن من رؤية نينا محشورة بين كومتين من الصناديق. رفعت نينا ذراعيها عندما أصبح أحد المهاجمين في نطاق رؤيتها ثم أغلقت قبضتها؛ فوقع على الأرض ممسكًا صدره. ورغم ذلك، لا تزال نينا في موضع ضعف في هذه المتاهة. فالمتلاعبون بالقلوب يحتاجون إلى رؤية أهدافهم من أجل الإيقاع بها.

وقف هيلفار بجانبها وظهره للصندوق ويداه مقيدتان. وهذا إجراء احتياطي منطقي، ولكن الفيرداني شخص قيم، فتساءل جاسبر للحظة عن سبب ترك كاز له في مثل هذا الوضع الصعب، ثم رأى

نينا تخرج سكينًا من كمها وتقطع قيود هيلفار وتضع مسدسًا في يديه. قالت بغضب: «دافع عن نفسك»، ثم عادت إلى توجيه تركيزها نحو القتال.

حدث جاسبر لنفسه: «ليست خطوة ذكية. لا تديري ظهرك لفيرداني غاضب». فقد بدا أن هيلفار يفكر بجدية في إطلاق الرصاص عليها. رفع جاسبر مسدسه واستعد لإسقاط هذا الفيرداني الضخم. ثم وقف هيلفار بجوار نينا وصوب مسدسه باتجاه متاهة الصناديق وراءهم كأنهما يحاربان جنبًا إلى جنب. هل ترك كاز ماتياس مقيدًا مع نينا عن قصد؟ لم يستطع جاسبر مطلقًا أن يعرف مقدار ما ينجح كاز في تنفيذه بسبب ذكائه وتخطيطه، ومدى ما يتحقق بسبب الحظ والتوفيق فحسب.

أطلق جاسبر صافرة عالية؛ فنظرت نينا فوق كتفها ووجدت جاسبر الذي رفع اثنين من أصابعه مرتين فأومأت بسرعة. هل عرفت نينا أن المرسى الثاني والعشرين هو مقصدهم الحقيقي؟ وهل عرفت إيناج تلك المعلومة؟ لقد فعلها كاز مرة أخرى. إنه يتلاعب بالمعلومات ويخفيها عن أحدهم أو جميعهم ويتركهم فريسة التخمين. كره جاسبر هذا، ولكنه لم يستطع إنكار حقيقة أنهم لا يزالون يمتلكون طريقة للذهاب إلى فيردا. هذا لو عاشوا حتى يستقلوا المركب الثاني.

أشار جاسبر إلى ويلان واستمر الاثنان في شق طريقهما عبر المراكب والسفن الراسية على الرصيف محافظين على انخفاض رؤوسهما قدر الإمكان.

سمع جاسبر صوتًا يصيح وراءهما: «هناك». لقد اكتشفوا مكانهما.

قال جاسبر: «اللعنة. أسرع».

اندفع الاثنان عبر الرصيف، حيث يقف في المرسى الثاني والعشرين مركب شراعي جيد المظهر مكتوب على جانبه فيروليند. وكان مدى شبهه بالمركب الآخر أمرًا غريبًا. لا توجد هناك مصابيح مضاءة

على متنه، ولكن عندما صعد هو وويلان على منصة الصعود على المركب، ظهر اثنان من البحارة.

قال روتي: «أنتما أول مَن يصل إلى هنا».

«نرجو ألا نكون آخر مَن يصل. هل أنت مسلح؟».

أومأ برأسه وقال: «أخبرنا بريكر أن نظل مختبئين حتى ______».

قال جاسبر وهو يشير إلى الرجال الذين يركضون على الرصيف نحوهم وانتزع بندقيته من ويلان: «حتى يلاحقنا هؤلاء. أحتاج إلى الوصول إلى بقعة عالية. أبقهم بعيدًا وشتت انتباههم لأطول فترة ممكنة».

قال ويلان: «جاسبر ______»

«لا تسمحوا لهم بالوصول إلى هنا. لو حطموا هذا المركب، فنحن هالكون». لم يهتم الرجال الذين يطلقون عليهم الرصاص بمنع الدريجز من الخروج من الميناء. إنهم يريدونهم أمواتًا.

أطلق جاسبر النار نحو الرجلين اللذين يقودان الهجوم على الرصيف، فسقط أحدهما واتجه الثاني يسارًا واحتمى وراء عارضة المقدمة في مركب صيد. وأطلق جاسبر ثلاث طلقات أخرى ثم أسرع بالصعود على الصاري.

سمع جاسبر دوي المزيد من الطلقات النارية بالأسفل. فصعد عشرة أقدام ثم عشرين قدمًا ثم علق حذاءه ذا الرقبة الطويلة في الحبال. واضطر إلى أن يتوقف ليخلعه. لقد أصبح على بعد قدمين من برج المراقبة أعلى الصاري عندما شعر بشيء مؤلم وساخن يخترق لحم فخذه. وانزلقت قدمه وتعلق للحظة في الهواء فوق الرصيف البعيد بلا شيء إلا يديه الزلقتين المتشبثتين بالحبال. أجبر جاسبر ساقيه على العمل وبحث عن مكان يضع فيه مقدمة حذائه ذي الرقبة الطويلة. وأصبحت ساقه اليمنى عديمة القيمة تقريبًا بسبب الطلقة التي أصابتها، واضطر إلى جذب نفسه لأعلى

في القـدم الأخـيرة وذراعـاه ترتجفـان وقلبـه ينبـض بسرعـة. شـعر جاسـبر كأن كل حواسـه تحـترق. وظـل هـذا بالطبـع أفضـل مـن تحقيـق سلسـلة انتصـارات متتاليـة عـلى موائـد القـمار.

لم يتوقـف جاسـبر ليسـتريح. شـبك رجلـه المصابـة في الحبـال وتجاهـل الألم وتحقـق مـن الرؤيـة مـع بندقيتـه وبـدأ يبحـث عـن أي هـدف في نطاقـه.

أخـبر جاسـبر نفسـه وهـو يعيـد تعبئـة بندقيتـه ويبحـث عـن عـدو آخـر في مرمـاه: «أربعـة ملايـين كـروج». تسـبب الضبـاب في عـدم وضـوح الرؤيـة، ولكـن هـذه هـي المهـارة التـي أبقتـه في الدريجـز حتـى بعـد أن ازدادت ديونـه وبـدا واضحًـا حبـه لأوراق اللعـب أكـثر مـن حـب الحـظ لـه. أربعـة ملايـين كـروج سـوف تخلصـه مـن ديونـه وتجعلـه يعيـش في نعيـم لفـترة طويلـة.

لمـح جاسـبر نينـا وماتيـاس وهـما يحـاولان شـق طريقهـما نحـو الرصيـف، ولكـن عليهـما التعامـل مـع مـا لا يقـل عـن عـشرة رجـال في طريقهـما. وبـدا أن كاز يجـري في الاتجـاه المعاكـس ولم تظهـر إينـاج في أي مـكان، ولكـن هـذا لا يعنـي شـيئًا عندمـا يتعلـق الأمـر بالشـبح، فهـي تسـتطيع التعلـق بالأشرعـة فوقـه بقدمـين وربمـا لـن يـدرك ذلـك حتـى.

«جاسبر».

أتـت الصيحـة مـن الأسـفل، واسـتغرق جاسـبر لحظـة ليـدرك أن ويلان نـاداه. حـاول تجاهلـه والتصويـب مـرة أخـرى عـلى أهدافه.

«جاسبر».

حـدث جاسـبر نفسـه: «سـوف أقتـل هـذا الأحمـق الصغـير»، ثـم صـاح: «مـاذا تريـد؟».

«أغلق عينيك».

«لا تستطيع تقبيلي من مكانك بالأسفل يا ويلان».

«أغلقهما فحسب».

أغلق جاسبر عينيه وقال: «من الأفضل أن تكون المفاجأة سارة».
«هل هما مغلقتان الآن؟».
«اللعنة يا ويلان، أجل إنهما ــــــــــــــ»
دوت صيحة حادة وعالية قبل أن يظهر ضوء ساطع أمام جفني جاسبر المغلقين. وعندما تلاشى الضوء، فتح جاسبر عينيه.
بالأسفل رأى رجالًا يتخبطون هنا وهناك وقد أعمتهم القنبلة الضوئية التي أطلقها ويلان. ولكن استطاع جاسبر الرؤية بوضوح. وقال حينها لنفسه: «ليس سيئًا بالنسبة إلى طفل مدلل لأحد التجار»، ثم أطلق الرصاص.

-١٢-

إيناج

قبـل أن تضـع إينـاج قدمًـا عـلى الحبـل المرتفـع أو حتـى تتـدرب عـلى التعلـق بالحبـال، علمهـا والدهـا السـقوط، علمهـا حمايـة رأسـها وتقليـل تأثـير السـقطة عـن طريـق عـدم مقاومـة قـوة اندفـاع جسـدها. ورغـم أن الانفجـار مـن الميـنـاء رفعهـا بعيـدًا في الهـواء، فإنهـا تمكنـت مـن ثـنـي جسـدها وتدحرجـت عـلى الأرض. ضربهـا الانفجـار بقـوة ولكنهـا نهضـت مسرعـة ودفعـت نفسـها وراء أحـد الصناديـق رغـم صـوت الانفجـار الـذي صـم أذنيهـا والتهـاب أنفهـا بسـبب الرائحـة القويـة للبـارود.

ألقـت إينـاج نظـرة خاطفـة عـلى كاز والآخريـن ثـم فعلـت مـا تجيده؛ اختفـت. صعـدت لأعـلى صناديـق الشـحن مثـل حـشرة رشيقة، بينـما بحـث حذاؤهـا ذو النعـل المطاطـي عـن أي مسـكة أو موطـئ قـدم.

بـدت الرؤيـة مـن الأعـلى مثـيرة للقلـق. فالدريجـز أقـل عـددًا وهنـاك رجـال يشـقون طريقهـم نحوهـم مـن اليمـين واليسـار. كان كاز محقًّـا في إبقـاء نقطـة المغـادرة الحقيقيـة سرًا. لقـد فتـح أحدهـم فمـه. حاولـت إينـاج مراقبـة الفريـق ولكـن ربمـا تجسـس عليهـم شـخص آخـر في العصابـة. قالهـا كاز بنفسـه: «كل شيء في كـتردام يتـسرب حتـى في سـلات ونـادي الغـراب».

أطلـق احدهـم الرصـاص مـن صـواري مركـب فيرولينـد الجديـدة. تمنـت إينـاج لـو أن هـذا يعنـي وصـول جاسـبر إلى المركـب الشراعـي، وأدركـت ضرورة توفيرهـا حمايـة للآخريـن لبعـض الوقـت حتـى يتمكنوا مـن الوصـول إلى المركـب أيضًـا.

ركضـت إينـاج بخفـة فـوق الصناديـق بنهايـة الصـف وهـي تبحـث

عـن الأهـداف بالأسـفل. وبـدا الأمـر سـهلًا؛ فلـم يتوقـع أحدهـم أن يأتيه التهديـد مـن الأعـلى. انزلقـت إينـاج إلى الأرض خلـف رجلـين أطلقـا النـار عـلى نينـا وتلـت صـلاة صامتـة قبـل أن تذبـح رقبـة أحدهـما ثـم الآخـر. عندمـا وقـع الرجـل الثـاني، جثمـت بجـواره وطـوت كمـه الأيمـن، فوجـدت وشـمًا ليـد مقطـوع إصبعاهـا الأول والثـاني. إنهـا عصابـة البـلاك تيبـس. هـل هـذا الهجـوم بدافـع الانتقـام مـن المواجهـة التـي حدثـت بـين كاز وجيلـز، أم لسـبب آخـر؟ مـن المفـترض أنهـم يعجـزون عـن جمـع هـذا العـدد الكبـير.

انتقلـت إينـاج إلى الصـف التـالي للصناديـق متبعـة خريطة ترسـمها في عقلهـا لمواضـع المهاجمـين الآخريـن. أولًا أسـقطت فتـاة تحمـل بندقيـة ثقيلـة ثـم قتلـت الرجـل الـذي يقـف إلى جوارهـا مراقبًـا أحـد الجوانـب حامـلًا سـيخًا طويـلًا. وحـين تفقـدت وشـمه وجدتـه عبـارة عـن خمسـة طيـور في تشـكيل يشـبه الوتـد؛ إنهـا عصابـة رازور غولـز. كـم عـدد العصابـات التـي يواجهونهـا الليلـة؟

كانـت الزاويـة التاليـة نقطـة عميـاء بالنسـبة إلى إينـاج. هـل عليهـا تسـلق حاويـات الشـحن لتتفقـد موضعهـا وتخاطـر بمواجهـة مـا يمكـن أن ينتظرهـا عـلى الجانـب الآخـر؟ أخـذت إينـاج نفسًـا عميقًـا ومالـت لأسـفل منزلقـة حـول الزاويـة بسرعـة. يرعاهـا القديسـون الليلـة. رأت رجـلان يطلقـان النـار عـلى الأرصفـة ويوليانهـا ظهريهـما. قتلتهـما بضربتـين سريعتـين مـن سـكاكينها. سـتة أجسـاد بسـت أرواح أزهقـت. سـوف تضطـر إلى تقديـم الكثـير مـن كفـارات الذنـوب، ولكنهـا عـلى الأقـل قـد سـاعدت عـلى ميـل الكفـة لصالـح الدريجـز. والآن يجـب أن تذهـب إلى المركـب الشراعـي.

مسـحت إينـاج سـكاكينها في بنطالهـا الجلـدي وأعادتهـا إلى أغمادهـا، ثـم رجعـت إلى الـوراء وانطلقـت بأقـصى سرعـة نحـو أقـرب صناديـق شـحن. عندمـا أمسـكت أصابعهـا بالحافـة، شـعرت بـألم حـاد تحـت ذراعيهـا. ولكنهـا التفـت في الوقـت المناسـب ورأت الوجـه القبيـح

لأوومـين الـذي ارتسـم عليـه الإصرار والعبـوس. اسـترجعت إينـاج كل المعلومـات التـي جمعتهـا عـن البـلاك تيبـس - أوومـين القاتـل ثقيـل الحركـة الـذي يعمـل لصالـح جيلـز والقـادر عـلى سـحق الجماجـم بيديـه العاريتـين.

جـذب أوومـين إينـاج لأسـفل وأمسـك بمقدمـة صديريتهـا وجعـل السـكين التـي استقرت في جانبهـا تلتـف بحـدة. قاومـت إينـاج كي لا يغمـى عليهـا.

وحـين سـقط غطـاء رأسـها للخلـف، قـال أوومـين: «يـا إلهـي! لقـد أمسـكت بشـبح بريكـر».

قالـت إينـاج وهـي تلهـث: «كان عليـك أن تصـوب سـكينك لأعـلى. لم تصـب قلبـي».

أجابهـا: «لا أريـدك ميتـة. أنـت جائـزة ثمينـة. لا أطيـق الانتظار لسـماع جميـع المعلومـات التـي جمعتهـا مـن أجـل اليـد القـذرة ومعرفـة كل أسراره. كـم أحـب القصـة المثيرة».

ردت إينـاج بأنفـاس متهدجـة: «يمكننـي إخبـارك بنهايـة هـذه القصـة التـي نعيشـها الآن. ولكنهـا لـن تعجبـك».

قـال: «حقًّـا؟»، ثـم ضربهـا بعنـف في الصنـدوق فانـدلـع الألم في جسـدها. لمسـت أصابـع أقدامهـا فقـط الأرض بينـما اندفعـت الدمـاء مـن الجـرح في جانبهـا. ضغـط أوومـين بسـاعده عـلى كتفيهـا وثبـت ذراعيهـا لمضاعفـة ألمهـا.

«هل تعرف سر القتال مع العقرب؟».

ضحـك أوومـين وقـال: «هـذا هـراء أيتهـا الشـبح؟ لا تمـوتي بسرعـة. لابـد أن أجـد مَـن يعالجـك».

وضعـت كاحـلًا وراء الآخـر وسـمعت صـوت طقطقـة أثلجـت صدرها. فإنهـا ترتـدي وسـائد عـلى ركبتيهـا للزحـف والتسـلق، وهنـاك سـبب آخـر لسـعادتها- تلـك النصـال الحديديـة الصغـيرة المخبـأة فيهـما.

قالـت إينـاج لاهثـة «السـر هـو ألا تبعـد عينيـك مطلقًـا عـن ذيـل

العقــرب». ثــم رفعــت ركبتهــا لأعــلى وغــرزت نصالهــا بــين فخــذي أوومــين.

صرخ أوومين وتركها وأمسك فخذه النازفة.

أخـذت إينـاج تترنـح وهـي تمـضي نحـو صـف الصناديـق. وتمكنـت من سـماع الرجـال ينـادون بعضهـم والطلقـات الناريـة قـل اندلاعهـا. تـرى مَـن الـذي يحـرز الفـوز؟ هـل وصـل الآخـرون إلى المركـب الشراعـي؟ أصابهـا الـدوار.

عندمـا لمسـت أصابعهـا الجـرح في جانبهـا، خضلتهـا الدمـاء. فقـد نزفـت الكثـير مـن الدمـاء بالفعـل. وعـلى بعـد خطـوات، سـمعت خطـوات شـخص آت. لم تسـتطع الصعـود ليـس مـع هـذا الجـرح وليـس مـع كميـة الدمـاء التـي فقدتهـا. تذكـرت والدهـا عندمـا وضعهـا عـلى سـلم الحبـل لأول مـرة وقـال لهـا: «تسـلقي يـا إينـاج».

تكدسـت حاويـات الشـحن هنـاك عـلى شـكل هـرم. ولـو اسـتطاعت تسـلق إحداهـا، فيمكنهـا الاختبـاء في المسـتوى الأول. مسـتوى واحـد فقـط. يمكنهـا التسـلق أو انتظـار المـوت.

أجـبرت إينـاج عقلهـا عـلى التفكـير بوضـوح وقفـزت فأمسـكت أطـراف أصابعهـا بقمـة الصنـدوق. تسـلقي يـا إينـاج. وجرجـرت نفسـها عـلى الحافـة نحـو سـطح الحاويـة.

وجـود الوقـود هنـاك أمـر جيـد، ولكنهـا تعـرف أنهـا تركـت وراءهـا أثـرًا مـن الدمـاء. فقالـت لنفسـها: «مسـتوى واحـد آخـر. واحـد آخـر وسـتصبحين آمنـة». وأجـبرت نفسـها عـلى بـذل كل طاقتهـا ومـدت يديهـا نحـو الصنـدوق التـالي.

بـدأ السـطح أسـفلها يهتـز. وسـمعت أصـوات ضحـكات مـن الأسـفل. «تعـالي، تعـالي أيتهـا الشـبح. هنـاك أسرار عليـك كشـفها».

في محاولـة يائسـة مـدت إينـاج يديهـا نحـو حافـة الصنـدوق التـالي مـرة أخـرى وأمسـكت بـه وقاومـت الألم عندمـا سـقط الصنـدوق الموجـود أسـفل قدمهـا. أصبحـت إينـاج معلقـة هنـا ورجلاهـا تتدليـان

في عجـز. لم يطلقـوا الرصـاص عليهـا؛ إنهـم يريدونهـا حيـة.
«انزلي أيتها الشبح».
لا تعـرف إينـاج مـن أيـن أتتهـا القـوة، ولكنهـا اسـتطاعت سـحب نفسـها لأعـلى. ورقـدت عـلى سـطح الصنـدوق وهـي تلهـث.
واحـد آخـر فقـط. ولكنهـا لم تسـتطع. لم تسـتطع دفـع نفسـها أو مـد يديهـا أو حتـى التدحـرج. فـالألم لا يحتمـل. تسـلقي يـا إينـاج.
همسـت إينـاج: «لا أسـتطيع يـا أبي». حتـى في هـذه اللحظـة تكـره أن تخيـب ظنـه.
قالـت لنفسـها: «تحـركي. هـذا مـكان غبـي للمـوت». ورغـم ذلـك سـمعت صوتًـا في رأسـها يقـول بـل إن هنـاك أماكـن أسـوأ منـه. سـوف تمـوت هنـا حـرة وقـد بـدأت بشـائر الفجـر في الظهـور. سـوف تمـوت بعـد معركـة مهمـة، وليـس لأن رجـلًا مـا أرهقهـا بطلباتـه التـي تتجـاوز قدرتهـا عـلى العطـاء. المـوت هنـا بيدهـا أفضـل مـن المـوت بوجـه تلونه مسـاحيق التجميـل وجسـد يلتـف بالحريـر الزائـف.
أمسـكت يـد بكاحلهـا. لقـد تسـلقوا الصناديـق. لمـاذا لم تسـمعهم؟ هـل تدهـورت حالتهـا لهـذا الحـد؟ لقـد أمسـكوا بهـا. وهنـاك شـخص مـا يقلبهـا عـلى ظهرهـا.
سـحبت إينـاج الخنجـر مـن الغمـد الموجـود في رسـغها. في باريـل يعـرف مثـل هـذا النصـل الحـاد باسـم الحديـد الطيـب. وهـذا يعنـي المـوت السريـع أو المـوت الرحيـم. أن تقتـل نفسـها أفضـل مـن الوقـوع في أيـدي عصابـة البـلاك تيبـس أو رازور غولـز والتعـرض للتعذيـب.
قالـت إينـاج لنفسـها: «أرجـو أن يتقبلنـي القديسـون». وضعـت طـرف الخنجـر أسـفل صدرهـا، وبـين أضلعهـا سـهم موجـه نحـو قلبهـا.
ثـم أمسـكت يـد برسـغها بقـوة وأجبرتهـا عـلى إفـلات السـكين.
«ليس بعد يا إيناج».
هذا الصوت الأجش الخشن. فتحت إيناج عينيها فجأة. كاز.
حملهـا كاز بـين ذراعيـه وقفـز مـن أعـلى الصناديـق فهبـط بقـوة

وانثنـت رجلـه المصابـة.

تأوهت عندما وصلا إلى الأرض.

«هل فزنا؟».

«أنا هنا، أليس كذلك؟».

وبينـما كان يركـض حامـلًا إياهـا. اهتـز جسـدها بطريقـة مؤلمـة وارتطـم بصـدره مـع كل خطـوة مترنحـة. إنـه يحتـاج إلى عصـاه.

«لا أريد أن أموت».

«سأبذل قصارى جهدي للقيام بترتيبات أخرى من أجلك».

أغلقت عينيها.

«استمري في التحدث أيتها الشبح. لا تبتعدي عني».

«ولكن هذا ما أجيده».

أمسـك بهـا بقـوة وقـال: «لنصـل إلى المركـب الشراعـي فحسـب. افتحـي عينيـك اللعينتـين يـا إينـاج».

حاولـت إينـاج. أصبحـت الرؤيـة ضبابيـة ولكنهـا اسـتطاعت رؤيـة ندبـة باهتـة عـلى رقبـة كاز، أسـفل فكـه مبـاشرة. تذكـرت أول مـرة رأتـه في ميناجـري. دفـع المـال للخالـة هيلـين مقابـل المعلومـات؛ نصائـح خاصـة بالأسـهم، وأحاديـث الفـراش عـن السياسـة، وأي شيء يثرثـر زبائـن الميناجـري عنـه عندمـا يثملـون أو يشـعرون بالنشـوة بسـبب السـعادة. لم يـزر كاز فتيـات هيلـين مطلقًـا، رغـم أن الكثـير منهـن يسـعدهن اصطحابـه إلى غرفهـن. ورغـم ادعائهـن بأنـه يسـبب لهـن القشـعريرة وأن يديـه ملطختـان بالدمـاء دومًـا تحـت قفازيـه الأسـودين، فـإن إينـاج أحسـت بالرغبـة في أصواتهـن وفي طريقـة تتبعهـن لـه بأعينهـن.

ذات ليلـة مـر عليهـا كاز في صالـة الاسـتقبال فأقدمـت عـلى أمـر أحمـق ومتهـور. همسـت إينـاج: «أسـتطيع مسـاعدتك». ألقـى عليهـا نظـرة سريعـة ثـم مـضى في طريقـه كأنهـا لم تقـل شـيئًا. وفي صبـاح اليـوم التـالي اسـتدعوها إلى صالـة اسـتقبال الخالـة هيلـين. اعتقـدت أنهـا سـتتعرض للـضرب أو الأسـوأ منـه، ولكنهـا وجـدت كاز بريكـر يقـف

هنـاك يسـتند إلى عصـاه التـي تحمـل رأس غـراب وينتظـر أن يغـير حياتهـا.

قالت إيناج: «الآن يمكنني مساعدتك».

«تساعدينني بماذا؟».

لم تسـتطع أن تتذكـر. فهنـاك شيء مـن المفـترض أن تخـبره بـه. ولكـن لم يعـد الأمـر مهـمًّا حينئـذ.

«تحدثي معي أيتها الشبح».

«لقد عدت من أجلي يا كاز».

«أنا أحمي استثماراتي».

استثمارات. «أنا سعيدة أنني أنزف على قميصك».

«سأحاسبك على ثمنه».

تذكرت الآن. إنه مدين لها باعتذار. «قل إنك آسف».

«على ماذا؟».

«قل فحسب».

ولكنهـا لم تسـمع رده. فقـد أظلمـت الدنيـا أمـام ناظريهـا وغابـت عـن الوعـي.

-١٣-
كاز

صاح كاز عندما قفز على متن المركب وإيناج بين ذراعيه: «انطلق هيا أخرجنا من هنا». تم فرد الأشرعة بالفعل، وأصبحوا في طريقهم للخروج من الميناء خلال لحظات، ولكن ليس بتلك بالسرعة التي يتمناها. أدرك أن عليه محاولة الاستعانة بأحد مستحضري الرياح من أجل الرحلة، ولكن الحصول على أحدهم صعب.

عمت الفوضى متن المركب، وصاح البحارة محاولين تحريك مركبهم إلى البحر المفتوح بأسرع ما يمكن.

صاح كاز على الرجل الذي اختاره قبطانًا للسفينة: «سبيكت!» وهو بحار موهوب في تقديم أعمال فنية باستخدام السكين واجه أوقاتًا عصيبة وانتهى به الأمر في الدرجات الدنيا في عصابة الدريجز. ثم أردف كاز قائلًا: «نظم طاقمك قبل أن أبدأ بكسر الرؤوس».

أدى سبيكت التحية لكاز ثم بدا أنه تدارك نفسه. فلم يعد في سلاح البحرية، وليس كاز ضابطًا.

ضرب ألم رهيب ساق كاز؛ بل إنه وجده أسوأ ألم شعر به منذ أن كسرها لأول مرة عندما وقع من سقف أحد المصارف بالقرب من شارع جيلد. ربما كسر عظمه مرة أخرى. ووزن إيناج حمل إضافي ثقيل، ولكن عندما وقف جاسبر في طريقه وعرض عليه المساعدة، دفعه كاز جانبًا.

سأل كاز بحنق: «أين نينا؟».

«تقدم الرعاية للمصابين بالأسفل. لقد اعتنت بي بالفعل». لاحظ كاز الدماء الجافة على فخذ جاسبر. ثم أكمل جاسبر قائلًا: «تعرض ويلان لإصابة بسيطة خلال القتال. دعني أساعدك

«______

قال كاز: «ابتعد عن طريقي»، واندفع نحو السلم الذي يقود إلى الطابق السفلي في المركب.

وجد نينا تهتم بويلان في مقصورة صغيرة ويداها تمران فوق ذراعه وتلحمان قطعتي الجرح معًا. إنه خدش صغير.

قال كاز آمرًا: «تحرك»؛ فقفز ويلان عن الطاولة.

قالت نينا: «لم أنته ______». ثم رأت إيناج؛ فقالت: «بحق القديسين. ماذا حدث؟».

«إنه جرح سكين».

أضيئت المقصورة بمصابيح عديدة، وضمت مخبأ للضمادات النظيفة فوق رف بجانب زجاجة الكافور. وضع كاز إيناج برفق على الطاولة المثبتة في المركب.

قالت نينا مصدومة «لقد نزفت الكثير من الدماء».

«ساعديها».

«كاز؛ أنا متلاعبة بالقلوب والتنفس ولست معالجة حقيقية».

«ستموت قبل أن نعثر على معالج حقيقي. ابدئي العمل».

«تحجب النور عني بوقوفك هنا».

تراجع كاز نحو الممر. ورقدت إيناج فوق الطاولة وجلدها البني اللامع شاحب في الضوء الخافت المتأرجح.

لا يزال كاز حيًّا بفضل إيناج. بل جميعهم أحياء يرزقون بفضلها. لقد نجحوا في القتال وحسم تلك المعركة والخروج من ذلك المأزق لأنها حالت دون حصارهم من قبل المهاجمين. اشتم كاز رائحة الموت، يمكنه الشعور بحضوره على السفينة الآن يحوم حولهم مستعدًا لأخذ شبحه منه. وقف متجهمًا ينظر نحوها وهو ملطخ بدمائها.

قالت نينا دون أن تنظر إليه: «إن لم تعد لك فائدة هنا، فاذهب بعيدًا. أنت تصيبني بالتوتر». تردد كاز للحظة ثم عاد من حيث أتى

بخطوات ثقيلة وتوقف لارتداء قميص نظيف من مقصورة أخرى بسرعة. لم يكن بأي حال ذلك الشخص الذي يضطرب بسبب شجار على الرصيف البحري أو حتى معركة بالرصاص، ولكن الاضطراب اعتراه بالفعل. كما تملكت منه مشاعر التوتر والضيق. إنها نفس المشاعر التي انتابته عندما كان صبيًّا في تلك الأيام الأولى التي تلت وفاة جوردي.

«قل إنك آسف»، تلك الكلمات الأخيرة التي قالتها إيناج له. ما الذي أرادت أن يعتذر عنه؟ هناك الكثير من الاحتمالات: آلاف الجرائم. وآلاف المهام الغبية.

على سطح المركب أخذ كاز نفسًا عميقًا من هواء البحر وأخذ يراقب الميناء وكتردام وهما يتلاشيان من الرؤية في الأفق.

سأله جاسبر: «ماذا حدث؟»، واستند إلى سور المركب حاملًا بندقيته بجانبه وشعره أشعث وحدقتا عينيه متسعتان. بدا سكيرًا أو كشخص نهض عن سريره للتو. دائمًا ما يبدو هكذا بعد أي قتال. أما هيلفار، فقد انحنى فوق السور يتقيأ. ومن الواضح أنه ليس بحارًا. ويجب عليهم تقييد ساقيه في وقت ما مرة أخرى.

قال ويلان من أعلى مقدمة المركب: «لقد وقعنا في كمين». وطوى كمه وأخذ يتحسس بقعة الجرح الحمراء التي اعتنت بها نينا.

صوب جاسبر نظرة نارية نحو ويلان وقال: «تلقيت دروسك على يد أساتذة جامعة وهذا ما وصل إليه أيها الطفل؟ لقد تعرضنا لكمين؟»».

احمر وجه ويلان وقال: «توقف عن وصفي بالطفل. في الواقع أنا وأنت في نفس العمر».

«لن تعجبك الأسماء الأخرى التي فكرت فيها لوصفك. أعلم أننا تعرضنا لكمين. ولكن هذا لا يفسر طريقة معرفتهم بأننا سنوجد هناك. ربما لم يكن بيج بوليجر الجاسوس الوحيد لعصابة البلاك

تيبـس في صفـوف الدريجـز».

قـال كاز: «لا يمتلـك جيلـز العقـل أو المـوارد اللازمـة لمعـاودة الهجـوم بهـذه السرعـة أو القـوة بمفـرده».

«هل أنت متأكد؟ لأنه يبدو هجومًا كبيرًا بالفعل».

مـشى كاز مشـية عرجـاء نحـو المـكان الـذي سـاعده روتي فيـه عـلى إخفـاء أوومـين.

قـال أوومـين وهـو يضحـك عندمـا رآه مكومًـا عـلى الأرض: «لقـد طعنـت شـبحك. طعنتهـا بقـوة». ألقـى كاز نظـرة سريعـة عـلى الدمـاء عـلى فخـذ أوومـين وقـال: «يبـدو أنهـا أصابتـك أيضًـا». ولكنهـا أخطـأت هدفهـا، فلـو أصابتـه لمـا أصبـح بمقـدور أوومين التحـدث مع أي شـخص. ضرب كاز أوومـين ضربـة أفقدتـه الوعـي وطلـب مـن روتيـأن يـأتي بـه بينـما ذهـب للبحـث عـن إينـاج.

والآن يجر هيلفار وجاسبر أوومين نحو السور ويداه مقيدتان.

«أوقفاه».

وبيد واحدة ضخمة، سحب هيلفار أوومين ليقف على قدميه.

ابتسم أوومين وشعره الأبيض الخشن يتدلى أمام جبهته العريضة.

سـأله كاز: «لمـاذا لا تخـبرني عـن سـبب وجـود الكثـير مـن البـلاك تيبـس الليلـة؟».

«نحن مدينون لك».

«مدينـون لي بمشـاجرة مسـلحة بالبنـادق وثلاثـين رجـلًا؟ لا أعتقـد هـذا».

ضحـك أوومـين باسـتهزاء وقـال: «لا يحـب جيلـز أن يتفـوق عليـه أحـد».

«أسـتطيع التغلـب عـلى عقـل جيلـز بإصبـع قدمـي وبيـج بوليجـر كان جاسوسـه الوحيـد داخـل الدريجز».

«ربما ــــــــــــــــــ»

قاطعـه كاز قائـلًا: «أريـدك أن تفكـر مليًّـا الآن يـا أوومـين. ربمـا يظـن

جيلـز أنـك ميـت الآن بالفعـل؛ لذلـك فقواعـد المقايضـة لا تـسري في موقفنـا الراهـن. يمكننـي أن أفعـل مـا أشـاء بـك».

بصق أوومين في وجه كاز.

أخـرج كاز منديـلًا مـن جيـب معطفـه ومسـح وجهـه بعنايـة. وتذكـر أن إينـاج ترقـد بـلا حـراك عـلى الطاولـة وتذكـر وزنهـا الخفيـف عـلى ذراعيـه.

قـال كاز لجاسـبر والفـيرداني: «أمسـكاه». ثـم نقـر عـلى كـم معطفـه فظهـرت سـكين لفتـح المحـار في يـده. فإنـه دائمـا مـا يخبـئ سـكينين عـلى الأقـل في مـكان مـا في ملابسـه. ولكنـه لا يحسـب تلـك سـكينًا حقيقيـة- لأنـه نصـل صغـير ولكنـه حـاد وشريـر.

أحـدث كاز جرحًـا دقيقًـا فـوق عـين أوومـين -مـن الحاجـب إلى عظمـة الخـد- وقبـل أن يـصرخ أوومـين مـن الألم صنـع كاز جرحًـا ثانيًـا في الاتجـاه المعاكـس لتصنـع شـكل X شـبه مثـالي. وعندئـذ أخـذ أوومـين يـصرخ مـن الألم.

مسـح كاز سـكينه وأعادهـا إلى كمـه ودفـع أصابعـه وهـو يرتـدي القفـاز داخـل تجويـف عـين أوومـين. أخـذ أوومـين يـصرخ وينتفـض وكاز ينتـزع مقلـة عينـه التـي جـرت قاعدتهـا وراءهـا خيطًـا مـن الدمـاء. فتدفقـت الدمـاء عـلى وجـه أوومـين.

سـمع كاز بويـلان وهـو يحـاول التقيـؤ قبـل أن يقـذف مقلـة العـين التـي انتزعهـا عـلى سـطح المركـب وحـشر منديلـه المبتـل بالبصـق في محجـر عـين أوومـين. ثـم أمسـك بفـك أوومـين فـترك قفـازه آثـارًا دمويـة عـلى ذقـن القاتـل. وبـدت حركاتـه سلسـة ودقيقـة كأنـه يـوزع الأوراق في نـادي الغـراب أو يفتـح قفـلًا سـهلًا، ولكـن غضبـه كان مشـتعلًا وجنونيًـا وغـير مألـوف. لقـد أطلـق العنـان لـشيء بداخلـه.

قـال كاز بصـوت كالفحيـح ووجهـه عـلى بعـد بوصـات مـن وجـه أوومـين: «اسـتمع إليّ. أمامـك خيـاران. إمـا أن تخـبرني بمـا أريـد معرفتـه ونـتركك في الميـنـاء التـالي وجيوبـك تمتلـئ بعمـلات كافيـة لعلاجـك وشراء

حـق العـودة إلى كيرتـش، أو أن أقتلـع عينـك الأخـرى وسـأكرر نفـس كلامـي هـذا مـع رجـل أعمـى».

قـال أوومـين: «إنهـا مجـرد مهمـة. لقـد حصـل جيلـز عـلى خمسـة آلاف كـروج لحشـد البـلاك تيبـس. ولقـد أتينـا ببعـض الرجـال مـن عصابـة رازور غولـز أيضًـا».

«إذًا، لمـاذا لم تأتـوا بالمزيـد مـن الرجـال؟ لمـاذا لم تضاعفـوا احتـمالات انتصاركـم؟».

«لقـد افترضنـا وجـودك عـلى مـتن المركـب وقـت انفجـاره. وأن علينـا الاهتـمام بالمتبقـين فحسـب بعـد موتـك».

«مَن استأجركم؟».

تردد أوومين وزم شفتيه والمخاط يسيل من أنفه.

قـال كاز بهـدوء: «لا تجعلنـي أسـأل مـرة أخـرى يـا أوومـين. أيًـا كان هـذا الشـخص، فإنـه لا يسـتطيع حمايتـك الآن».

«سوف يقتلني».

«وأنـا سـوف أجعلـك تتمنـى المـوت، لذلـك عليـك أن تعيـد تقييـم خياراتـك».

قال أوومين وهو يبكي: «بيكا رولينز. إنه بيكا رولينز».

ورغـم الصدمـة التـي اعترتـه، فـإن كاز لاحـظ تأثـير الاسـم عـلى كل مـن جاسـبر وويـلان. لم يعـرف هيلفـار مـا يكفـي عـن صاحـب الاسـم لـكي يشـعر بـذات الرهبـة.

قال جاسبر متنهدًا بضيق: «بحق القديسين. نحن هالكون».

سأل كاز أوومين: «هل يقود رولينز الفريق بنفسه؟».

«أي فريق؟».

«إلى فيردا».

«أنـا لا أعـرف أي شيء عـن أي فـرق. كانـت مهمتنـا منعـك مـن الخـروج مـن الميـنـاء فحسـب».

«فهمت».

«أنا في حاجة إلى طبيب. هل يمكنك أن تأخذني إلى طبيب الآن؟».

قال كاز: «بالطبع. من هذا الطريق». وأمسك أوومين من تلابيبه ورفعه عن الأرض وثبت جسده فوق سور المركب.

صرخ أوومين: «لقد أخبرتك بما تريده. لقد فعلت ما طلبته مني».

يتمتع أوومين بالقوة -مثل جاسبر - رغم أن بنيته غير المتناسقة لا تدل على ذلك. ربما نشأ في الحقول.

مال كاز نحو أوومين كي لا يستطيع أحد أن يسمعه عندما قال: «لو أن شبحي هنا لطلبت لك الرحمة، ولكنها بسببك ليست هنا لتطلبها لك».

ومن دون كلمة أخرى، قذف كاز أوومين في البحر.

صاح ويلان وهو يستند إلى السور بوجه شاحب وعيناه المذهولتان تتابعان أوومين وسط الأمواج: «كلا». كانوا لا يزالون يسمعون توسلات أوومين حتى غاب وجهه المشوه عن أنظارهم.

«أنت.. أنت وعدته بأنه لو ساعدك ـــــــــــ»

سأله كاز: «هل تريد اللحاق به؟».

أخذ ويلان نفسًا عميقًا كأنه يبتلع شجاعته وغمغم: «أنت لن ترميني من فوق السفينة. أنت تحتاج إليّ».

قال كاز لنفسه: «لماذا يستمر الناس في قول هذا؟» ثم رد عليه: «ربما. ولكني لا أفكر على نحو منطقي الآن».

وضع جاسبر يده على كتف ويلان وقال: «انس الأمر».

«ليس من الصواب ـــــــــــ»

قال جاسبر: «ويلان. ربما لم يعلمك الأساتذة هذا الدرس: لا تجادل رجلًا تغطيه الدماء ويخبئ سكينًا في كمه».

زم ويلان شفتيه بقوة. ولم يستطع كاز أن يعرف إن كان هذا الطفل خائفًا أم غاضبًا، ولكنه لم يهتم بذلك. وقف هيلفار صامتًا مراقبا كل شيء وتبدو آثار التقيؤ بسبب دوار البحر عالقة في لحيته الشقراء.

التفت كاز إلى جاسبر وقال وهو يتجه إلى الأسفل: «قيد هيلفار بالأصفاد حتى يظل مخلصًا. وأحضر لي ملابس نظيفة وماءً عذبًا».

«منذ متى وأنا خادمك؟».

قال كاز من فوق كتفه: «رجل معه سكين، أتذكر؟».

فرد عليه جاسبر: «رجل معه بندقية».

رد عليه كاز بإشارة إصبعه الأوسط لينهي هذا الجدال واختفى أسفل المركب. فقد كان بحاجة إلى حمام دافئ وزجاجة براندي، وأراد كذلك أن يصبح بمفرده ويتخلص من الرائحة النتنة للدماء لفترة.

بيكا رولينز. دوى الاسم في رأسه. فهو الاسم الذي دائمًا ما يشير إلى الرجل الذي انتزع كل شيء منه. وهو الرجل الذي يقف الآن بينه وبين أكبر غنيمة حاول أي فريق الحصول عليها. هل سيرسل رولينز شخصًا مكانه أم سيقود الفريق بنفسه ليمسك ببو يول-بايور؟

داخل مقصورته المعتمة، همس كاز: «خطوة بخطوة». فلطالما أغرته فكرة قتل بيكا رولينز ولكن ليس هذا كافيًا. ولطالما أراد أن يدس أنف رولينز في التراب. أراد له أن يعاني مثلما عانى هو، ومثلما عانى جوردي. يعتبر انتزاع ثلاثين مليون كروج من بين يدي رولينز الحقيرتين خطوة جيدة ليبدأ بها. ربما كانت إيناج محقة. ربما استحق الاهتمام مثل أناس آخرين.

-١٤-

نينا

في المقصورة شديدة الضيق، حاولت نينا، التي لعبت دور الجراح، أن تعيد جسد إيناج إلى حالته ولكنها غير مدربة على مثل هذا النوع من الأعمال.

في أول عامين في التعليم في عاصمة رافكا، يدرس جميع الغريشا معًا ويتلقون نفس الدروس ويقومون بنفس عمليات التشريح. ولكن تختلف تدريباتهم. فيتعلم المعالجون المهارات الدقيقة لعلاج الجروح، ويصبح المتلاعبون بالتنفس جنودًا - خبراء في إحداث الضرر وليست إزالته. وهذه طريقة مختلفة للتفكير في ما يعتبر في الأساس نفس القوة. ولكن يحتاج الأحياء منك إلى مجهود أكبر من الأموات. فالسكتة القلبية تتطلب قرارًا حاسمًا ووضوحًا. أما تقديم العلاج فهو عملية بطيئة مدروسة ذات إيقاع يتطلب دراسة متأنية لكل اختيار صغير. ربما ساعدت نينا المهام التي أنجزتها من أجل كاز خلال السنة الماضية، كما ساعدها بطريقة ما عملها على تغيير الحالات المزاجية بعناية وتغيير شكل الوجوه خلال عملها في الوردة البيضاء.

لكنها عندما نظرت إلى إيناج، تمنت نينا لو لم تعرض تدريبها الدراسي للاختزال على هذا النحو. فلقد اندلعت الحرب الرافكانية وهي لا تزال طالبة في القصر الصغير. أجبرت حينها هي وزملاؤها في الدراسة على الاختباء. وعندما انتهى القتال وانقشع غبار المعركة، تلهف الملك نيكولاي على تدريب المتبقين من جنود الغريشا القليلين وإرسالهم إلى ساحة القتال؛ لذلك قضت نينا ستة أشهر فقط في دورات متقدمة قبل إرسالها في مهمتها الأولى. ورغم شعورها

بالإثـارة ذلـك الوقـت، فإنهـا ربمـا شـعرت بامتنـان أكـبر لـو كانـت قـد تلقـت أسـبوعًا آخـر في التدريـب والدراسـة.

صحيـح أن إينـاج تتمتـع بالرشـاقة وبنيـة عضليـة مميـزة وعظـام قويـة مثـل لاعبـة أكروبـات. ولكـن السـكين قـد انغرسـت أسـفل ذراعهـا اليـسرى، عـلى مقربـة للغايـة مـن القلـب، فلـو ذهـب النصـل لأعمـق مـن هـذا لاخترقـه بسـهولة.

أدركـت نينـا أنهـا لـو أغلقـت جلـد إينـاج مثلـما فعلـت مـع ويـلان، فسـوف يسـتمر النزيـف الداخـلي؛ لذلـك حاولـت إيقـاف النزيـف مـن الداخـل إلى الخـارج. ورأت نينـا أنهـا أحسـنت عملهـا بمـا فيـه الكفايـة، ولكـن إينـاج فقـدت الكثـير مـن الدمـاء بالفعـل ولم تَـدْرِ نينـا مـا يجـب عليهـا فعلـه. لقـد سـمعت نينـا أن بعـض المعالجـين لديهـم القـدرة عـلى اكتشـاف التطابـق في الدمـاء بـين شـخص وآخـر، ولكـن لـو وقـع خطـأ مـا سـوف يتحـول الأمـر إلى تسـميم المريـض لا علاجـه. وهـذه العمليـة تتجـاوز قدراتهـا كثـيرًا.

انتهـت نينـا مـن إغـلاق الجـرح، ثـم غطـت إينـاج ببطانيـة خفيفة من الصـوف. لا تملـك الآن سـوى مراقبـة نبضهـا وتنفسـها. وبينـما وضعـت ذراعـي إينـاج تحـت البطانيـة، رأت الندبـة فـوق سـاعدها. تحسسـت نينـا بإبهامهـا النتـوءات برفـق. ربمـا هـذا وشـم ريـش الطـاووس الـذي يحملـه أعضـاء الميناجـري بمنـزل العجائـب. وأيًّـا كان مَـن أزالـه؛ فلقـد فعلهـا بشـكل قبيـح.

رفعـت نينـا الكـم الآخـر لإينـاج مدفوعـة بفضولهـا. ووجـدت جلدهـا ناعـمًا وخاليًـا مـن العلامـات. لم تحصـل إينـاج عـلى وشـم الغـراب والـكأس التـي يحملهـا كل عضـو كامـل في الدريجـز. ربمـا تتغـير التحالفـات بطريقـة أو بأخـرى في باريـل ولكـن عصابتـك هـي عائلتـك والحمايـة الوحيـدة لـك. تحمـل نينـا نفسـها اثنـين مـن الوشـوم، واحـدًا عـلى سـاعدها الأيـسر يتبـع منـزل الـوردة البيضـاء. والوشـم الأهـم عـلى سـاعدها الأيمـن لغـراب يحـاول الـشرب مـن كأس فارغـة تقريبًـا، والـذي

يخبر العالم بأنها تنتمي إلى الدريجز وأن العبث معها يعني التعرض لانتقامهم.

لقد عملت إيناج مع الدريجز منذ وقت أطول من نينا، ولكنها لا تحمل وشمًا مثلها. وهذا غريب. فإيناج هي أحد الأعضاء الأكثر قيمة في العصابة ومن الواضح أن كاز يثق بها -بقدر ما يملكه شخص مثل كاز من القدرة على الثقة. شردت نينا في النظرة التي اعتلت وجهه عندما وضع إيناج على الطاولة. فلقد حملها بنفسه -وهو البارد الوقح المستحيل- ولكن وراء كل هذا الغضب، اعتقدت نينا أنها رأت شيئًا آخر أيضًا. أو ربما هي رومانسية فحسب.

أخذت نينا تضحك على نفسها. فلم تتمنَّ أن يقع أي شخص في الحب. إنه ضيف ترحب به ثم لا تستطيع التخلص منه.

أبعدت نينا شعر إيناج الأسود الناعم عن وجهها. وهمست: «أرجو أن تكوني بخير». كرهت نينا الارتعاد والضعف الباديين على صوتها. فلم تبدُ كأحد جنود الغريشا أو عضو قوي في الدريجز، بل بدت كفتاة صغيرة لا تعرف ما تفعله. وهذا ما تشعر به بالضبط. حيث تلقت تدريبها في فترة قصيرة للغاية، قبل أن يرسلوها في مهمتها الأولى بسرعة شديدة. اعترضت زويا وقالت الكثير في ذلك الوقت ولكن نينا توسلت إليها من أجل الذهاب، ولأنهم يحتاجون إليها؛ تراجعت الغريشا الأكبر سنًّا عن قرارها.

زويا نازيلينسكي- مستحضرة الرياح القوية الفاتنة فائقة الجمال غير المعهود، التي استطاعت تبديد ثقة نينا كلية برفعة واحدة من أحد حاجبيها. أعجبت نينا بها بل قدستها حتى العبادة. أما زويا فقد وصفت نينا بالمتهورة الحمقاء التي يسهل تشتيتها. أطلقت زويا عليها هذه الأوصاف وأكثر.

«كنت محقة يا زويا في أوصافك لي. هل أنت راضية الآن؟».

جاء صوت جاسبر الذي وقف عن الباب يقول «أشعر بالدوار».

جفلت نينا ونظرت إلى أعلى فرأته يترنح للأمام والخلف. سأل

جاسـبر: «مَـن تكـون زويـا؟».

رجعـت نينـا في كرسـيها «لا أحـد. إنهـا عضـوة في القيـادة الثلاثيـة للغريشـا».

«رائع. هل هي واحدة من قادة الجيش الثاني ؟».

«مـا تبقـى منـه. هلـك الجـزء الأكـبر مـن جنـود الغريشـا التابعـين لرافـكا خـلال الحـرب. قتـل معظمهـم، وهـرب بعضهـم». فركـت نينـا عينيهـا المرهقتـين؛ ثـم قالـت: «هـل تعـرف أفضـل طريقـة للعثـور عـلى الغريشـا الذيـن لا يريـدون أن يعـثر عليهـم أحـد؟».

حـك جاسـبر مؤخـرة عنقـه ولمسـت يـداه مسدسـاته ثـم عادتـا إلى عنقـه. فدائمًـا مـا يفعـل هـذه الحركـة. ثـم قـال: «لم أفكـر في هـذا كثـيرًا».

«ابحـث عـن المعجـزات واسـتمع إلى قصـص مـا قبـل النـوم». البحـث في قصـص السـاحرات والعفاريـت والأحـداث غـير المـبررة، والتـي لا تعـدو كونهـا مجـرد خرافـات أحيانًـا، إلا أن الكثـير مـن الحقائـق يكمـن في قلـب الأسـاطير المحليـة - أنـاس يولـدون بقـدرات لا تفهمهـا بلادهـم. أصبحـت نينـا بارعـة للغايـة في تعقـب تلـك القصـص.

« إذا أرادوا ألا يعثر عليهم أحد، فيجب أن تتركيهم وشأنهم».

ألقـت نينـا نظـرة غاضبـة عـلى جاسـبر وقالـت: «الدروسـكل لـن يتركوهـم وشـأنهم. إنهـم يصطـادون الغريشـا في كل مـكان».

«وهل كلهم وسيمون مثل ماتياس؟».

«وأسوأ منه».

«علي العثـور عـلى أصفـاد الأرجـل. يكلفنـي كاز دائمًـا بجميـع المهـام الممتعـة».

سألته نينا بملل «هل تريد أن نتبادل الأدوار؟».

بـدا أن الحيويـة التـي تتمتـع بهـا بنيـة جاسـبر النحيلـة تبـددت. وقـف سـاكنًا بـلا حـراك مثلـما تـراه نينـا عـلى الـدوام واتجهـت نظراتـه نحـو إينـاج لأول مـرة منـذ دخـل المقصـورة الصغـيرة. وأدركـت نينـا أنـه

تجنب فعل هذا وأنه لم يرد أن ينظر إليها. تحركت البطانيات قليلًا مع تنفسها السطحي. وعندما تحدث جاسبر بدا التوتر على صوته كأنه أوتار آلة موسيقية مشدودة على مفتاح حاد جدًّا.

قال جاسبر: «لا يمكن أن تموت. ليس بهذه الطريقة».

حدقت نينا إلى جاسبر والحيرة بادية على وجهها وقالت: «ليس بهذه الطريقة؟».

ردد جاسبر مرة أخرى: «لا يمكن أن تموت».

شعرت نينا بموجة من الإحباط تجتاحها. فمزقتها رغبتها في احتضان جاسبر بقوة ورغبتها في الصراخ في وجهه لتخبره بأنها تحاول فعل هذا. فقالت أخيرًا «بحق القديسين يا جاسبر. إنني أبذل كل ما بوسعي».

تحرك جاسبر وبدا كأن جسده عاد إلى الحياة مرة أخرى. قال بشيء من الخجل: «آسف». وربّت كتفها وقال: «أنت تقومين بعمل رائع».

تنهدت نينا «لست مقتنعًا بما يكفي. لماذا لا تعود لأعلى وتقيد هذا الأشقر الضخم؟».

حياها جاسبر وتسلل خارج المقصورة.

رغم أن جاسبر أثار ضيقها، فإن فكرة ندائه للعودة كادت تغريها. وعندما ذهب، لم يتبق شيء سوى صوت زويا في رأسها يذكرها بأن قصارى جهدها ليست كافية.

تبدو بشرة إيناج ناعمة ومغرية للمس. وضعت نينا يديها على كتفي إيناج وحاولت تحسين تدفق الدماء في جسدها ورفع درجة حرارتها ولو بقدر ضئيل جدًّا.

لم تكن نينا صادقة تمامًا مع جاسبر. فلم ترد القيادة الثلاثية للغريشا إنقاذ الغريشا من صائدي الساحرات الفيردانيين فحسب. فقد أرسلوا بعثات في مهام إلى جزيرة ووندرينج ونوفي زيم لحاجة رافكا إلى جنود. وبحثوا عن الغريشا الذين ربما يعيشون سرًّا وحاولوا

إقناعهـم بالعـودة والإقامـة في رافـكا والالتحـاق بالخدمـة العسـكرية.

كانـت نينـا حينهـا صغـيرة للغايـة عـلى القتـال في الحـرب الأهليـة الرافكانيـة، وتاقـت إلى المشـاركة في إعـادة بنـاء الجيـش الثـاني. وقـد تغلبـت موهبـة نينـا في التحـدث بعـدة لغـات -الشـاوية والكاليشـية والسـولية والفيردانيـة وحتـى بعـض الزيمينيـة- عـلى تحفظـات زويـا وفرضـت وجودهـا. فوافقـت زويـا في نهايـة الأمـر عـلى قـدوم نينـا برفقتهـا وبرفقـة فريـق مـن مفتـشي الغريشـا إلى جزيـرة ووندرينـج، ورغـم كل شـكوك زويـا نجحـت نينـا في مهامهـا، حيـث تنكرت كمسـافرة واندسـت وسـط الحانـات ونـزل المسـافرين للتنصـت عـلى الأحاديـث والثرثـرة مـع السـكان المحليـين ثـم العـودة بـكل هـذا إلى المعسـكر.

إذا ذهبـت إلى مـاروخ جلـين فاحـرصي عـلى السـفر بالنهـار. تجـول الأرواح المضطربـة في تلـك الأنحـاء - تهـب العواصـف فجـأة مـن العـدم.

إنهـا سـاحرة فيلـز حقيقيـة؛ حسـنًا. ذهـب ابـن عمـي الثـاني إليهـا وهـو مصـاب بمـرض معـدٍ ويقسـم بأنـه أصبـح أكـثر صحـة مـن ذي قبـل. مـاذا تقصديـن بأنـه يعـاني خلـلًا في عقلـه؟ إنـه أعقـل منـك.

وهكـذا تمكنـوا مـن العثـور عـلى اثنتـين مـن عائـلات الغريشـا تختبئـان في كهـوف إيسـتامير التـي يفـترض بهـا أن تصبـح سـحرية، وأنقـذوا أمًّـا وأبًـا واثنـين مـن الأولاد -مـن مسـتحضري النـار- مـن حشـد غاضـب في فينفـورد. وأغـاروا عـلى سـفينة عبيـد بالقـرب مـن مينـاء ليفلـين. فـور تصنيـف اللاجئـين، وكانـوا يعرضـون عـلى الأشـخاص الذيـن لا يمتلكـون أي قـوى ممـرًا آمنًـا للعـودة إلى وطنهـم. أمـا أصحـاب القـوى الذيـن يتأكـد منهـم أحـد مفتـشي الغريشـا فيعـرض عليهـم حـق اللجـوء إلى رافـكا. والوحيـدة التـي اختـارت البقـاء هـي العجـوز المتلاعبـة بالقلـوب المعروفـة باسـم سـاحرة فيلـز. قالـت وهـي تضحـك: «لـو أرادوا دمـي فدعوهـم يأتـوا مـن أجلـه. سـآخذ بعضًـا مـن دمائهـم في المقابـل».

تحدثـت نينـا اللغـة الكاليشـية كأهلهـا وأحبـت تحـدي انتحـال هويـة جديـدة في كل مدينـة. ولكـن رغـم كل إنجازاتهـا، لم تشـعر زويـا

بالرضا عنها؛ فلقد وبختها قائلة: «إجادة التحدث بعدة لغات ليس كافيًا. يجب أن تتعلمي أن تكوني أقل.. ظهورًا. أنت صاخبة ومتدفقة المشاعر يسهل على الناس تذكرك. أنت تواجهين الكثير من المخاطر».

فرد المفتش الذي سافروا معه: «زويا. تساهلي معها». وهو مضخم حي للقدرات. فلو وجد أحدًا ميتًا، من الممكن أن تساعد عظامه على زيادة قدرات الغريشا على نحو لا يختلف عن سن القرش أو مخالب الدب التي يرتديها الغريشا الآخرون. وإن وجده حيًّا؛ فهو عنصر قيم بالنسبة إلى مهمتهم، فهو مدرب على استخدام موهبة التضخيم لديه في استشعار قدرات الغريشا عبر اللمس.

من عادة زويا التحفظ في حديثها، ولكنها في ذلك الوقت اتسعت عيناها الزرقاوان وهي تقول: «لم يتساهل أساتذتي معي. إذا انتهى بها الأمر بمطاردة وسط الغابة من حشد غاضب من الفلاحين، فهل ستخبرهم بأن يتساهلوا معها؟».

غادرت نينا شاعرة بالحرج بسبب الدموع التي فاضت من عينيها، واعتراها الغضب لجرح زويا كبرياءها. صاحت فيها زويا ألا تجتاز السلسلة الجبلية، ولكن تجاهلتها نينا وهي عازمة على الذهاب إلى أبعد مسافة ممكنة عن زويا؛ مستحضرة الرياح تلك، ومشت صوب أحد معسكرات الدروسكل مباشرةً، فوجدت ستة من الفتيان الشقر يتحدثون جميعًا بالفيردانية في حين يجتمعون فوق منحدر يطل على الشاطئ. لم يشعلوا نارًا لمعسكرهم وارتدوا مثل فلاحي كاليشين، ولكنها عرفت هويتهم على الفور.

أخذوا يحدقون إليها طويلًا، ولم يكن هناك نور سوى ضوء القمر الفضي.

قالت نينا باللغة الكاليشية والبهجة بادية في صوتها: «آه، حمدًا لله. لقد كنت مسافرة مع عائلتي ولكني ضللت طريقي في الغابة. فهل يستطيع أحدكم مساعدتي في العثور على الطريق؟».

قال أحدهم متحدثًا باللغة الفيردانية إلى الآخرين: «أعتقد أنها تائهة».

نهض آخر وهو يحمل مصباحًا في يده، وهو أطول قامة من الآخرين. صرخت فيها كل غرائزها بأن تجري بعيدًا وهو يقترب منها. قالت نينا لنفسها: «إنهم لا يعلمون حقيقتك. أنت مجرد فتاة كاليشية لطيفة تاهت في الغابة. لا تقومي بأي شيء غبي. استدرجيه بعيدًا عن الآخرين ثم اقضي عليه».

رفع الفتى مصباحه فسقط الضوء اللامع على وجهيهما. رأت شعره الطويل الذهبي اللامع وعينيه الزرقاوين الشاحبتين تلمعان مثل الثلج تحت شمس الشتاء. فكرت نينا: «إنه يبدو كلوحة جميلة»؛ قديس تزينه الصفائح الذهبية على حوائط كنيسة كتب له قدره أن يستخدم سيفًا من نار.

سأل الفتى بالفيردانية: «ماذا تفعلين هنا؟».

تصنعت نينا الارتباك وقالت بالكاليشية: «آنا أسفة. لا أفهم ما تقول. أنا تائهة».

اندفع الفتى نحوها. ولم تأخذ نينا وقتًا للتفكير، ولكنها تفاعلت مع الموقف فحسب، فرفعت يديها للهجوم. ولكنه كان أسرع منها، فأفلت المصباح من يده.دون تردد وأمسك رسغيها وكبل يديها معًا لكي يصبح من المستحيل عليها أن تستخدم قوتها.

قال بسعادة: «دروسجي». مشعوذة. وابتسم مثل الذئاب.

كان الهجوم اختبارًا لردة فعلها. فالفتاة التائهة في الغابة سوف تنكمش خوفًا، أما نينا فقد حاولت أن تمد يدها نحو سكين أو مسدس. ولم تحاول أن تستخدم يديها لإيقاف قلب الرجل. إنها متهورة. ومندفعة.

لهذا السبب لم ترد زويا إحضار نينا. فلا يرتكب الغريشا المدرب جيدًا مثل هذه الأخطاء. ربما تكون نينا حمقاء ولكنها ليست خائنة. أخذت نينا ترجوهم باللغة الكاليشية واللغة الرافكانية

ولكنها لم تصرخ طلبًا للمساعدة - لم تفعل عندما قيدوا يديها أو هددوها أو ألقوا بها في مركب تجديف مثل جوال من الأرز. أرادت أن تصرخ فزعًا لتأتي زويا مسرعة لتتوسل إلى شخص ما لينقذها ولكنها لم ترد المخاطرة بحياة الآخرين. نقلها الدروسكل إلى سفينة راسية على الساحل وزجوا بها داخل قفص تحت سطح السفينة يكتظ بأسرى آخرين من الغريشا. وعندئذ بدأ الرعب الحقيقي.

اختلط الليل بالنهار في بطن السفينة الرطب. وتم تقييد أيدي الغريشا السجناء بقوة لمنعهم من استخدام قدراتهم. أكلوا الخبز اليابس الذي يزحف فوقه السوس -تناولوا ما يكفي لإبقائهم على قيد الحياة فحسب- واضطروا إلى الاقتصاد في تناول الماء العذب لأنهم لم يعرفوا قط المرة التالية التي سيأتيهم فيه. ولم يحصل السجناء على مكان يستريحون فيه، وباتت الرائحة النتنة للأجساد وغيرها لا تحتمل.

أحيانًا ما كانت ترسو السفينة ليعود الدروسكل بأسير آخر. وقف الفيردانيون خارج الزنزانات يأكلون ويشربون ويسخرون من ملابس السجناء القذرة ورائحتها الكريهة. ورغم هذا، كان الأسوأ هو خوف السجناء الشديد مما ينتظرهم - المحققين في محكمة الجليد والتعذيب والموت المحتم. حلمت نينا بأنها تحترق حية في محرقة واستيقظت وهي تصرخ. وتداخلت الكوابيس مع الخوف والهذيان بسبب الجوع لدرجة لم تصبح معها نينا قادرة على التفرقة بين الحقيقة والخيال.

ثم في أحد الأيام، ازدحم الدروسكل في بطن السفينة وهم يرتدون ملابس رسمية موحدة مكوية حديثًا باللونين الأسود والفضي ورأس الذئب الأبيض منقوش على أكمامهم. وقفوا في صفوف منتظمة في وضعية الانتباه عندما دخل قائدهم، الذي بدا مثلهم جميعًا: طويل القامة ولكن بلحية مهذبة وشعره الأشقر الطويل رمادي عند الصدغين. مشى باتجاه الحجز قبل أن يقف أمام السجناء.

سأل: «كم عددهم؟».
أجـاب الفتـى ذو الشـعر الذهبـي اللامـع الـذي أسرهـا: «خمسـة عـشر». كانـت تلـك المـرة الأولى التـي تـراه فيهـا داخـل الحجـز.
ازدرد الضابـط الآمـر ريقـه وشـبك يديـه وراء ظهـره وقـال: «أنـا يـارل بروم».
سرى الخـوف في جسـد نينـا وأحسـت بـأن جميـع أفـراد الغريشـا في الزنزانـة سـمعوا صـداه مثـل صرخـة تحذيـر لا يملـك أحدهـم رفاهيـة عـدم الانتبـاه إليهـا.
في أثنـاء فـترة دراسـتها، اسـتحوذ الدروسـكل عـلى تفكـير نينـا. فظهـروا في كوابيسـها كوحـوش تمتلـك ذئابًـا بيضـاء وسـكاكين حـادة وأحصنـة معـدة للقتـال مـع الغريشـا. وكان ذلـك هـو سـبب اجتهـاد نينـا في الدراسـة فقـد أرادت إتقـان الفيردانيـة وزيـادة معرفتهـا بثقافتهـم. تلـك هـي طريقتهـا للاسـتعداد لهـم مـن أجـل معركتهـا القادمـة معهـم. ويـارل بـروم أسـوأهم.
كان يـارل بـروم أسـطورة، وحـش مخيـف قابـع في الظـلام. وُجـد الدروسـكل منـذ مئـات السـنين، ولكنهـم تحـت قيـادة بـروم تضاعفـت أعدادهـم وأصبحـوا أكـثر قـوة. فلقـد غـيَّر بـروم طـرق التدريـب واسـتحدث أسـاليب جديـدة لاسـتئصال الغريشـا في فـيردا واخـتراق حـدود رافـكا، وبـدأ مطـاردة الغريشـا الأشرار في الأراضي الأخـرى واصطيـاد سـفن العبيـد و«تحريـر» الأسرى الغريشـا مـن أجـل هـدف واحـد فقـط، هـو وضعهـم في الأصفـاد وإرسـالهم إلى فـيردا مـن أجـل المحاكمـة والإعـدام. تخيلـت نينـا مواجهـة بـروم يومًـا مـا كمقاتلـة منتقمـة أو جاسوسـة بارعـة. ولم تتصـور قـط أن تواجهـه وهـي أسـيرة وجائعـة حتـى المـوت ويداهـا مكبلتـان بالأصفـاد وترتـدي الأسـمال الباليـة.
ربمـا يعـرف بـروم تأثـير اسـمه. انتظـر لحظـة طويلـة قبـل أن يـصرح بلغـة كاليشـية ممتـازة: «يقـف أمامكـم الجيـل التـالي مـن الدروسـكل؛

الفئة المقدسة المكلفة بحماية سيادة أمة فيردا عن طريق إبادة نوعكم. سوف يجلبونكم إلى فيردا من أجل محاكمتكم ويحصلون بذلك على رتبة ضابط. إنهم الفئة الأقوى والأفضل لدينا».

قالت نينا لنفسها: «متنمرون».

«عندما نصل إلى فيردا، سوف تستجوبون وتحاكمون على جرائمكم».

قال أحد السجناء: «أرجوك. أنا لم أفعل شيئًا. أنا مزارع. أنا لم أوذِ أحدًا».

أجاب بروم: «أنتم أشخاص لا يستحقون الحياة. بلاء على الأرض. تتحدثون عن السلام، ولكن ماذا عن أطفالكم الذين تنقلون إليهم هذه القدرات الشيطانية؟ ماذا عن أطفالهم؟ إنني لا أقدم الرحمة سوى للرجال والنساء العاجزين الذين قتلوا بسبب الأعمال البغيضة للغريشا».

نظر بروم إلى الدروسكل وقال بالفيردانية: «أحسنتم أيها الفتيان. سنبحر إلى ديرهولم على الفور».

بدا أن الدروسكل يملؤهم الفخر. وحالما خرج بروم، أخذوا يربتون أكتاف بعضهم البعض ويضحكون برضا وسعادة.

قال أحدهم بالفيردانية: «رائع. سوف نقدم خمسة عشر غريشا إلى محكمة الجليد».

«إذا لم يثبت هذا جدارتنا ــــــــــــــــ»

«تعرف أنه سيفعل».

«جيد، لقد تعبت من حلاقة ذقني كل صباح».

«سوف أربي لحية تصل إلى بطني».

ثم مد أحدهما يده عبر القضبان وشد نينا من شعرها وقال: «تعجبني هذه، فلا تزال جميلة وغضة. ربما يجب أن نفتح باب الزنزانة وننظفها».

دفع الفتى ذو الشعر الذهبي اللامع يد رفيقه بعيدًا وقال: «ما

خطبـك؟»، وهـذه أول مـرة يتحـدث فيهـا منـذ مغـادرة بـروم. وسرعـان مـا زال شـعور نينـا بالامتنـان عندمـا قـال: «هـل ت\ريـد أن تعتـدي عـلى كلـب؟».

«ما شكل الكلب؟».

انفجـر الآخـرون في الضحـك وهـم يتجهـون إلى الأعلى. وكان ذو الشـعر الذهبـي الـذي شـبهها بالحيـوان آخـر مـن يذهـب، وبينـما كاد يخطـو نحـو الممـر قالـت نينـا بفيردانيـة واضحـة ممتـازة: «أي جرائـم تتحدثـون عنها؟».

توقــف الفتــى، وعندمــا نظــر إليهــا اشــتعلت عينــاه الزرقــاوان بالكراهيــة. ولم تجفــل نينــا.

«كيــف يتــأتى لــك التحــدث بلغتــي؟ هــل خدمــت عــلى الحــدود الرافكانيــة الشــمالية؟».

قالت كاذبة: «أنا كاليشية. وأستطيع التحدث بأي لغة».

«إنها المزيد من أعمال السحر والشعوذة إذًا».

«هــذا إذا كنــت تعنــي بأعــمال الســحر ممارســة القــراءة؟ ذكــر قائـدك بأننـا سـنحاكم عـلى جرائمنـا. أريـدك أن تخـبرني بالجريمـة التـي ارتكبتهـا».

«ستحاكمين بتهمة الجاسوسية وارتكاب جرائم ضد الشعب».

قـال أحـد الصنـاع بفيردانيـة ركيكـة مـن مكانـه عـلى الأرض: «لسـنا مجرمـين». لقـد قـضى هـذا الصانـع أطـول فـترة في هـذا السـجن ولم يسـتطع النهـوض بسـبب ضعفـه الشـديد. فقـال: «نحـن أنـاس عاديـون - مزارعـون ومعلمـون».

قالت نينا لنفسها ضاحكة: «ليس أنا.فأنا جندية».

قــال الدروســكل: «ســوف تحاكمــون. ســوف تعاملــون بعــدل أكــثر مــما يســتحقه نوعكــم».

سألت نينا: «ما عدد الغريشا الذين حكم ببراءتهم؟».

قال الصانع متذمرًا: «لا تستفزيه. لن تستطيعي تغيير رأيه».

ولكنها أمسكت القضبان بيديها المقيدتين وقالت: «ما عددهم؟ ما عدد الذين أرسلتموهم إلى المحرقة؟».

أدار لها ظهره.

«انتظر!».

تجاهلها.

«انتظر! أرجوك! بعض الماء العذب فقط.. فقط. هل تعاملون كلابكم بهذه الطريقة؟».

صمت الفتى ويده على الباب وقال: «لم يكن علي قول ذلك، فالكلاب تعرف على الأقل معنى الوفاء. الإخلاص للقطيع. لقد أهنت الكلاب بوصفكم بها».

قالت نينا لنفسها: «سوف أطعمك لقطيع من كلاب الصيد الجائعة». ولكنها قالت: «ماء. أرجوك».

اختفى الفتى في الممر. وسمعت صوت خطواته وهو يصعد السلم ويغلق الباب بقوة.

قال الصانع ناصحًا: «لا تهدري أنفاسك عليه. لن يظهر لك أي رحمة».

ولكن بعد وقت قليل، عاد الدروسكل بكوب صفيح ودلو من الماء النظيف. وضعه داخل الزنزانة وأغلق الباب دون أن ينطق بكلمة واحدة. ساعدت نينا الصانع على الشرب ثم ملأت كوبًا لنفسها. وارتجفت يداها بقوة فوقع نصف الماء على قميصها. مشى الفيرداني مبتعدًا وشعرت نينا بالسعادة لظنها بأنها أحرجته.

قالت نينا متهكمة: «قد أفعل أي شيء مقابل الاستحمام. يمكنك أن تغسلني».

أجاب الفيرداني غاضبًا وهو يمشي نحو الباب: «لا تتحدثي معي».

لم يعد بعد ذلك، وبقوا بلا ماء عذب طوال الثلاثة أيام التالية. ولكن عندما هبت العاصفة أنقذ الكوب الصفيح حياتها.

سقط رأس نينا، فانتفضت مستيقظة. هل غفوت؟

وقف ماتياس في الممر خارج المقصورة. سد جسده الباب وحرمه طوله الفارع من الشعور بالراحة تحت سطح السفينة. منذ متى يقف ويراقبها؟ بسرعة تفقدت نينا نبض إيناج وتنفسها واستراحت عندما وجدت أن حالتها أصبحت مستقرة.

سألت: «هل كنت نائمة؟».

«لقد غفوت».

مطت نينا جسدها في محاولة للتخلص من شعورها بالإرهاق وقالت: «ولكن دون غطيط، أليس كذلك؟»، لم يجب ماتياس بل ظل ينظر إليها بعينيه الثلجيتين؛ فقالت: «هل سمحوا لك بالحصول على شفرة حلاقة؟».

ارتفعت يداه المقيدتان نحو ذقنه المحلوقة حديثًا وقال: «لقد فعلها جاسبر». ربما اعتنى جاسبر بشعر ماتياس أيضًا، فقد قص الخصلات الشقراء التي نمت من فروة رأسه دون انتظام، فأصبح شعره قصيرًا للغاية مثل زغب ذهبي على الجلد يكشف الكدمات التي أصابته في معركته الأخيرة في بوابة الجحيم.

فكرت نينا أنه ربما يكون سعيدًا بتخلصه من اللحية. فالدروسكل مضطر إلى الاستمرار في حلاقة ذقنه إلى أن ينجز مهمة بنفسه ويحصل على رتبة ضابط. ولو اصطحب ماتياس نينا للمحاكمة في محكمة الجليد لحصل على ذلك الإذن. سيرتدي رأس الذئب الفضي الذي يعد علامة مميزة لضباط الدروسكل. أصابها التفكير في هذا بالغثيان. مبارك على الترقية الجديدة لقاتل ذي رتبة. ساعدتها الفكرة على تذكر هوية مَن تتعامل معه. ثم اعتدلت في جلستها ورفعت ذقنها لأعلى.

سألته بالفيردانية: «كيف حالك يا ماتياس؟».

قال: «لا تحدثيني بتلك اللغة».

«هل تفضل أن أحدثك بلغة كيرتش؟».
«لا أريد أن أسمع لغتي من فمك». وانتقلت عيناه إلى شفتيها؛ فتورد وجهها على نحو أزعجها.
قالت نينا بالفيردانية كأنها تشعر بالسعادة في إغاظته: «ولكنك دائمًا ما تحب طريقة تحدثي بلغتك. ذكرت أنني أجيدها إجادة تامة». هذا صحيح. أحبّ لكنتها - فقد بدت في نطقها للحروف المتحركة كواحدة من الأميرات وذلك بفضل أساتذتها في القصر الصغير.
قال ماتياس: «لا تضغطي علي نينا». تحدث إليها ماتياس بلغة كيرتش بلهجة قبيحة قاسية وبلكنة اللصوص والقتلة الذين التقاهم في السجن. ثم قال: «هذا العفو حلم بعيد المنال. ما زلت أذكر خفوت نبضاتك تحت أصابعي».
اعترى نينا غضب عارم من لهجته وتهديده: «حاول إذًا، ليست يداي مقيدتين الآن يا هيلفار». وثنت أصابعها ليصدر ماتياس شهقة عالية عندما بدأت دقات قلبه تتسارع.
قال ماتياس واللعاب يتساقط من فمه وهو يمسك صدره: «مشعوذة».
هيا أرني أفضل ما لديك يا ماتياس، وربما يصبح لديك مائة اسم آخر تنعتني به الآن فأجابها والعرق ينضح من جبينه: «بل ألف».
أرخت نينا أصابعها وقد شعرت فجأة بالإحراج. ماذا تفعل؟ هل تعاقبه؟ هل تتلاعب به؟ يحق له أن يكرهها.
«اذهب بعيدًا يا ماتياس. هناك مريضة أعتني بها». وركزت على فحص درجة حرارة إيناج.
«هل ستعيش؟».
«وهل يهمك ذلك؟».
«بالطبع يهمني. إنها إنسانة».
سمعت نينا باقي الجملة التي أسرها ماتياس في نفسه. إنها

إنسانة على خلافك. يعتقد الفيردانيون أن الغريشا ليسوا بشرًا. وأنهم لا يساوون الحيوانات حتى؛ فهم أقل من ذلك: يرونهم أبالسة، بلاء أصاب العالم، ورجس من الشيطان.

هزت نينا كتفيها «لا أدري. لقد بذلت قصارى جهدي ولكن مواهبي في مكان آخر».

«لقد سألك كاز عما إذا أرسل منزل الوردة البيضاء وفدًا إلى هرينغكالا».

«وهل تعرف الوردة البيضاء؟».

«ويست ستيف أحد الموضوعات المفضلة للحديث في سجن بوابة الجحيم».

توقفت نينا عن الحديث. ودون أن تنطق كلمة، رفعت كم قميصها، الذي كشف عن وردتين متشابكتين مرسومتين على الجانب الداخلي لساعدها. يمكنها أن توضح له ما كانت تفعله هناك وأن تخبره بأنها لم تكن تجني رزقها من العمل كعاهرة، ولكن ليس من شأنه أن يعرف الأمور التي كانت تفعلها أو لا تفعلها. دعيه يظن ما يشاء.

«هل اخترت العمل هناك؟».

«الاختيار أمر بعيد عن الواقع قليلًا، ولكن نعم».

«لماذا؟ ولماذا تبقين في كيرتش؟».

فركت نينا عينيها وقالت: «لم أستطع تركك في سجن بوابة الجحيم».

«ولكنك أنت من وضعني هناك».

«كانت غلطة ماتياس».

اشتعلت عيناه غضبًا وتخلى عن هدوئه وهو يقول: «غلطة؟ لقد أنقذت حياتك بينما اتهمتني أنت بأنني تاجر رقيق».

«أجل. ولهذا أمضيت معظم العام الماضي أحاول العثور على طريقة لإصلاح الأمور».

«هل نطقت شفتاك يومًا كلمة صادقة؟».

استرخت نينا في كرسيها «لم أكذب عليك مطلقًا. ولن يحدث أبدًا».

«أول ما نطقت به لي كان كذبة. تحدثتِ إلي بالكاليشية حينها حسبما أتذكر.» «وهل تحتم علي قول الحقيقة قبل أن تأسرني وتضعني في قفص؟ هل هذا وقت الصدق المطلق؟».

«يجب ألا ألومك. فأنت لا تستطيعين التحكم في نفسك. طبيعتك التلون». نظر إلى عنقها وقال: «لقد اختفت الكدمات».

«لقد أزلتها. هل هذا يزعجك؟».

لم يقل ماتياس شيئًا ولكنها رأت مسحة خجل على وجهه. ماتياس دائمًا ما يقاتل من أجل مبادئه. ولكنه قد اضطر إلى قتل الكثير من الأمور الجيدة بداخله لكي يصبح دروسكل. إلا أنه لا يزال يحتفظ بذلك الفتى الطيب حيا بداخله، ورأت نينا ذلك الجانب من شخصيته خلال الأيام التي قضوها معًا بعد تحطم السفينة. وكم أرادت أن تصدق أن هذا الفتى لا يزال حيًا في مكان آمن داخله رغم خيانتها له ورغم أي معاناة وويلات شهدها في بوابة الجحيم.

أمعنت نينا النظر إليه في ذلك الوقت ولكنها لم تتأكد. ربما تلك هي حقيقته أو مجرد صورة واهمة حملتها له في خيالها خلال العام الماضي.

قالت نينا وهي تريده أن يبتعد عنها: «يجب عليّ الاعتناء بإيناج».

لم يغادر؛ بل قال: «هل فكرتِ بي من قبل على الإطلاق نينا؟ هل أقلقت منامك؟».

هزت نينا كتفيها بلا مبالاة وقالت: «يستطيع الكوربورالينكي (عضو جماعة الأحياء والموتى) النوم وقتما يحلو له». رغم أنها لم تستطع السيطرة على أحلامها.

«النـوم رفاهيـة في بوابـة الجحيـم. إنـه خطـر. ولكـن عندمـا أنـام، أحلـم بـك».

رفعت نينا رأسها.

قال: «هذا صحيح. كلما أغلقت عيني».

سـألته وهـي تتـوق إلى سـماع الإجابـة ولكنهـا تخشـاها أيضًـا: «ومـاذا رأيـت في تلـك الأحـلام؟».

«أمـور فظيعـة. أذقتنـي فيهـا أسـوأ أنـواع التعذيـب. كنـت تقومـين بإغراقـي ببـطء. وتحرقـين قلبـي في صـدري. وتقتلعـين عينـي».

«كنت وحشًا في أحلامك».

«وحـش عـذراء، وحوريـة جميلـة. كنـت تقبليننـي وتهمسـين القصـص في أذني أحيانًـا. وتغنـين لي وتضميننـي خـلال نومـي أحيانًـا أخـرى. وتطـاردني ضحكتـك حتـى أسـتيقظ».

«ولكنك طالما كرهت ضحكتي».

«بـل أحببـت ضحكتـك يـا نينـا. وأحببـت قلـب المحاربـة الشرسـة بداخلـك. وربمـا أحببتـك أيضًـا».

ربمـا حـدث ذلـك بالفعـل. قبـل أن تخونـه. حفـرت تلـك الكلـمات الوجـع في صدرهـا.

علمـت لينـا أن عليهـا الصمـت ولكنهـا لم تسـتطع منـع نفسـها مـن سـؤاله «ومـاذا كنـت تفعـل بي يـا ماتيـاس؟ مـاذا كنـت تفعـل بي في أحلامـك؟».

مالـت السـفينة برفـق، وتأرجحـت المصابيـح. واشـتعلت عينـاه الزرقـاوان غضبًـا فقـال وهـو يمـشي مبتعـدًا: «فعلـت كل شيء. كل شيء يـا نينـا».

ماتياس

عندما صعد ماتياس إلى سطح المركب، توجه مندفعًا صوب سورها مباشرة. ربما لا يواجه قاطنو الأحياء الفقيرة وصعاليك الموانئ مشكلة مع دوار البحر، فقد اعتادوا القفز من قارب لآخر في القنوات المائية في كتردام. أما ويلان فقد بدا أنه الضعيف الوحيد الذي يواجه صعوبة مع دوار البحر، فكانت حالته سيئة تمامًا مثل حالة ماتياس.

تحسنت حالته في الهواء الطلق؛ حيث يمكنه النظر كما يشاء إلى الأفق. لقد تمكن من تدبير أمره سابقًا في الرحلات البحرية عندما كان دروسكل ولكنه طالما شعر بارتياح أكبر على اليابسة، وفوق سطح الجليد. وكم كان مهينًا له أن يراه هؤلاء الأغراب يتقيأ من فوق السور للمرة الثالثة خلال عدة ساعات.

على الأقل، ليست نينا هناك لتشاهده في هذا الموقف المحرج. استمر في التفكير فيها بينما قبعت في تلك المقصورة لترعى الفتاة برونزية البشرة بكل عطف، واهتمام، وإرهاق أيضًا. أجل لقد بدت متعبة كثيرًا. أخبرته «كانت غلطة». غلطة أن تتهمه بأنه تاجر رقيق ليلقى به في سفينة من كيرتش ويزج به في السجن؟ وتدعي أنها حاولت إصلاح الأمور. ولكن حتى لو كان هذا حقيقة، فماذا يهم؟ النساء من نوع نينا لا يعرفن الشرف. وما فعلته معه أثبت ذلك.

أعد أحدهم القهوة؛ فلقد رأى الطاقم يحتسونها من أكواب نحاسية ذات أغطية من السيراميك. خطر على باله إحضار كوب إلى نينا ولكنه طرد الفكرة من رأسه، فهو ليس مضطرًا إلى الاهتمام بها أو إخبار بريكر أنها في حاجة إلى الراحة. أغلق قبضته بقوة

ونظـر إلى مفاصلـه التـي غطتهـا قشـور الإصابـات والجـروح. إن نينـا هـي مـن زرع بداخلـه كل هـذا الضعـف.

أشـار بريكـر إلى ماتيـاس ليـأتي إلى المـكان الـذي اجتمـع فيـه مـع جاسـبر ويـلان في مقدمـة السـفينة لمراجعـة خرائـط محكمـة الجليـد بعيـدًا عـن أعـين وآذان الطاقـم. بـدا منظـر تلـك الرسـومات كأنـه سـكين مغـروزة في قلبـه. لا بـد مـن أن يثنـي مشـهد تلـك الحوائـط، والبوابـات، والحـراس هـؤلاء الحمقـى عـما هـم بصـدد فعلـه، ولكـن ومـن الواضـح أنـه لا يقـل حماقـة عنهـم.

سـأل بريكـر وهـو يشـير إلى الخرائـط: «لمـاذا لا توجـد أسـماء عـلى أي شيء؟».

قـال ويـلان: «لا أعـرف اللغـة الفيردانيـة، ونحـن بحاجـة إلى تحـري الدقـة بشـأن التفاصيـل. يجـب أن يقـوم هيلفـار بهـذا الـدور». ثـم تراجـع عندمـا رأى التعبـير الظاهـر عـلى وجـه ماتيـاس وقـال «إننـي أؤدي عمـلي فحسـب. توقـف عـن التحديـق إليّ».

قال ماتياس بغضب: «كلا».

قـال كاز: «إليـك هـذا»، وهـو يقـذف إليـه قرصًـا صغـيرًا شـفافًا تلألأ في ضـوء الشـمس. ارتكـز الشـيطان عـلى برميـل واسـتند إلى الصـاري ورجله المصابـة مرفوعـة عـلى لفافـة مـن الحبـال وذلـك العـكاز اللعـين يقبـع فـوق حجـره. تخيـل ماتيـاس أنـه يكـسر العـكاز إلى قطـع صغـيرة ويجـبر بريكـر عـلى أكلهـا قطعـة قطعـة.

«ما هذا؟».

«إنه أحد اختراعات راسك الجديدة».

قال ويلان: «لقد اعتقدت أنه لا يجيد سوى صناعة المتفجرات «.

قال جاسبر: «إنه يفعل كل شيء».

قـال كاز وهـو يعطـي الأقـراص للآخريـن: «ضعوهـا بـين أسـنانكم الخلفيـة. ولكـن لا تعضوهـا بقـوة ـــــــــــــ»

بـدأ ويـلان في البصـق وانتابـه سـعال شـديد بينـما يمسـح فمـه بشـدة.

لتخرج رغوة شفافة فوق شفاهه التي انتفخت مثل مريء ضفدع وهو يحاول أن يتنفس وعيناه تندفعان يمينًا ويسارًا في فزع.

انطلقت ضحكات جاسبر واكتفى كاز بهز رأسه فحسب «لقد أخبرتكم بألا تعضوها بقوة يا ويلان. تنفس من أنفك».

أخذ الفتى نفسًا عميقًا بينما تشتعل جيوبه الأنفية نارًا.

قال جاسبر: «بهدوء. ستفقد وعيك على هذا النحو».

سأله ماتياس وهو لا يزال يحمل القرص الصغير في راحة يده: «ما هذا؟».

قذف كاز القرص في فمه وأخذ يحركه بين أسنانه.

ثم قال وهو ينظر نظرة ذات مغزى نحو ويلان: «إنه بالين. أخطط للاحتفاظ بها، ولكن بعد ذلك الكمين لا أعرف نوعية المتاعب التي ربما نواجهها في البحر المفتوح. فإذا سقطتم في الماء ولم تتمكنوا من الصعود لاستنشاق الهواء عضوا عليها بقوة. سوف تمنحكم عشر دقائق من التنفس. هذا إن لم تصابوا بالفزع». وأعطى كاز ويلان قطعة أخرى من بالين وقال: «احترس مع هذه». ثم نقر على خرائط محكمة الجليد.

«اكتب الأسماء يا هيلفار. كلها».

التقط ماتياس القلم والحبر اللذين وضعهما ويلان وبدا عليه التردد، وشرع في كتابة أسماء المباني والطرق المحيطة. شعر ماتياس بينما يقوم بهذا الأمر بنفسه أنه يهوي أكثر وأكثر في بئر الخيانة. تساءل جزء منه عما إذا كان في مقدوره أن يجد طريقة للانفصال عن المجموعة عندما يصلون إلى هناك ويكشف موقعهم، وبالتالي يفوز مرة أخرى بالحظوة لدى الحكومة. هل من المحتمل أن يتعرف عليه أي شخص في محكمة الجليد؟ ربما يعتقدون أنه ميت، أنه قد غرق مع حطام السفينة التي قتلت أعز أصدقائه والقائد بروم، فهو لا يملك أي دليل على هويته الحقيقية. سيغدو غريبًا لا تربطه أي صلة بمحكمة الجليد، وقبل أن يستمع إليه أي شخص

ـــــــــــ»

قال بريكر وعيناه السوداوان تستهدفان ماتياس: «أنت تخفي شيئًا».

تجاهل ماتياس القشعريرة التي سرت في جسده. بدا هذا الشيطان أحيانًا قادرًا على قراءة أفكاره. قال ماتياس: «أنا أخبرك بكل ما أعرفه».

«ضميرك يعوق ذاكرتك. تذكر شروط الاتفاق يا هيلفار».

قال ماتياس بغضب متزايد: «حسنًا. هل تريد نصيحتي؟ لن تنجح خطتك».

«ولكنك لا تعرف خطتي حتى».

«الدخول عبر السجن والخروج عبر السفارة».

«هذا في البداية وحسب».

«لا يمكن تنفيذ هذا. فالسجن معزول تمامًا عن بقية محكمة الجليد. ولا يتصل بالسفارة. ليست هناك طريقة للوصول إليها من السجن».

«هناك سطح له؛ أليس كذلك؟».

قال ماتياس باديًا عليه السرور «لن تستطيع الوصول إلى السطح. يقضي الدروسكل ثلاثة أشهر في العمل مع السجناء الغريشا والحراس كجزء من تدريبنا. لقد كنت في السجن ولا توجد طريقة للوصول إلى السطح لهذا السبب تحديدًا - إذا نجح شخص في الخروج من زنزانته فإننا لا نريده أن يركض في أرجاء محكمة الجليد. السجن منعزل تمامًا عن القطاعين الآخرين في الحلقة الخارجية. وما دمت دخلت تظل بالداخل».

جذب كاز خريطة السجن من بين كومة الأوراق «دائمًا ما يوجد طريق للخروج. إنه خمسة طوابق، أليس كذلك؟ منطقة الفرز، وخمسة طوابق للزنزانات. إذًا ماذا هنا؟ ماذا هناك في القبو؟»

«لا شيء. المغسلة والمحرقة».

«المحرقة».

«نعـم؛ حيـث يحرقـون ملابـس المدانـين عنـد وصولهـم. إنـه إجـراء احـترازي ضـد الطاعـون ولكـن ــــــــــــــ». حالما غـادرت الكلـمات فـم ماتيـاس، أدرك مـا يفكـر فيـه بريكـر؛ فقـال: «يا إلهـي. هـل تريدنـا أن نصعـد سـتة طوابـق في بـرج المحرقـة؟».

«متى تعمل المحرقة؟».

«في الصبـاح الباكـر إن كنـت أتذكـر بشـكل صحيـح ولكـن وحتـى مـن دون الحـرارة، نحـن ــــــــــــــ» .

قالـت نينـا وهـي تخـرج مـن الطابـق السـفلي للسـفينة: «إنـه لا يريدنـا نحـن أن نتسـلقها ».

اعتدل كاز في جلسته «مَن يعتني بإيناج؟».

«روتي. وسـوف أعـود خـلال دقيقـة. أحتـاج إلى بعـض الهـواء النقـي فحسـب. ولا تتظاهـر بالاهتـمام بإينـاج في حـين أنـك تخطـط لإرسـالها لتسـلق سـتة طوابـق داخـل مدخنـة مـن دون شيء سـوى حبـل، والدعاء مـن أجلهـا».

«تستطيع الشبح التعامل مع هذا».

«الشـبح فتـاة في السادسـة عـشرة مـن عمرهـا ترقـد في الوقـت الحـالي فاقـدة الوعـي عـلى الطاولـة. وربمـا لا تنجـو الليلـة حتـى».

رمقهـا كاز بنظـرة متوحشـة تطايـر شررًا «بـل سـوف تنجـو». فكـر ماتيـاس أن بريكـر سـوف يجـر الفتـاة مـن الجحيـم بنفسـه لـو اضطـر إلى ذلـك.

التقـط جاسـبر بندقيتـه وأخـذ يمسـحها بقطعـة قـماش ناعمـة «لمـاذا نتحـدث عـن تسـلق المداخـن بينـما نواجـه مشـكلة أكـبر؟».

سـأل كاز، بينـما شـعر ماتيـاس بـأن كاز يعلـم الإجابـة بالفعـل «ومـا هـي؟».

«لم تعـد مطـاردة بـو يـول- بايـور مـن شـأننا إن كان بيـك روليـنـز يسـعى وراءه».

فبادره ماتياس ناطقًا المقاطع الصوتية بتهكم «ومَن هو بيكا رولينز؟»، لم يحترم ماتياس أسماء القاطنين في كيرتش. ويعلم بالفعل أن ذلك الرجل قائد واحدة من العصابات ويملأ جيوبه من عائدات عرض الجحيم. ورغم أن هذا سيئ بما فيه الكفاية، فإنه يشعر بأن هناك المزيد الذي لا يعلمه عنه.

ارتجف ويلان وشفط المادة اللزجة فوق شفتيه وقال: «كل ما في الأمر أنه أكبر وأسوأ قائد عمليات على نطاق كتردام بأسرها، فهو يمتلك مالًا لا نمتلكه، ولديه كذلك علاقات لا نحظى بها، وربما يتمتع بميزة الأسبقية».

أومأ جاسبر برأسه موافقًا وقال: «يتحدث ويلان هذه المرة بشكل منطقي. وإذا نجحنا بفضل معجزة ما من إخراج بو يول-بايور قبل أن يفعل رولينز هذا، فسوف نصبح في عداد الموتى حالما يعرف أننا الذين هزمناه».

قال كاز: «بيكا رولينز أحد الرؤساء في باريل. لا أكثر ولا أقل. توقفوا عن جعله شيئًا أسطوريًا».

قال ماتياس لنفسه: «هناك شيء آخر يدور هنا». فقد بريكر وتيرة العنف التي أثارته قبل قليل عندما قتل أوومين. ولكن ظلت كلماته تتسم بالقوة. شعر ماتياس بأن كاز بريكر يكره بيكا رولينز كرهًا شديدًا وأن هذا لا يرجع إلى أنه فجر سفينتهم واستأجر بلطجية لقتلهم فحسب. وأثار هذا في نفس ماتياس شجونًا قديمة وجروحًا سيئة.

مال جاسبر إلى الخلف قائلًا «هل تعتقد أن بير هاسكيل سيدعمك عند عودتك عندما يكتشف أنك خدعت بيكا رولينز؟ هل تعتقد أن الرجل العجوز يريد حربًا؟».

هز كاز رأسه ورأى ماتياس إحباطًا حقيقيًا على وجهه وهو يقول: «لم يأت بيكا رولينز إلى العالم وهو يرتدي القطيفة وفي فمه ملعقة من الذهب. لا يزال تفكيركم محدودًا مثلما يفكر بير هاسكيل

وهـي الطريقـة التـي يريدكـم رجـال مثـل رولينـز أن تفكـروا بهـا. إذا نجحنـا في هـذه المهمـة وقسـمنا الغنيمـة، فسـوف نصبـح أسـاطير باريـل. سـوف نصبـح الفريـق الـذي هـزم بيـكا رولينـز».

قـال ويـلان: «ربمـا يجـب أن ننـسى أمـر الاقـتراب مـن الشـمال. إن كان بيـكا قـد سـبقنا، فلابـد أن نذهـب إلى ديرهـولم مبـاشرة».

قـال كاز: «يعـج الميـنـاء بقـوات الأمـن. بالإضافـة إلى وكلاء الجـمارك ورجـال القانـون المعتاديـن».

«وماذا عن الجنوب؟ عبر رافكا؟».

قالت نينا: «الحدود مغلقة إغلاقًا تامًّا هناك».

قال ماتياس: «ولكنها حدود شاسعة».

أجابـت نينـا: «ليسـت هنـاك طريقـة لنعـرف الأماكـن الأكـثر ضعفًـا عـلى الحـدود. إلا إذا كنـت تعـرف بطريقـة سـحرية أبـراج الحراسـة والقواعـد الأماميـة النشـطة بالتحديـد عـن غيرهـا. عـلاوة عـلى ذلـك؛ لـو دخلنـا مـن رافـكا سـتكون علينـا مواجهـة الرافكانيـين والفيردانيـين».

مـا تقولـه منطقـي ولكنـه أثـار انزعاجـه. في فـيردا لا تتحـدث النسـاء بهـذه الطريقـة، لا يتحدثـن في الأمـور العسـكرية أو الاسـتراتيجية. ولكـن لطالمـا أحبـت نينـا هـذا دومًـا.

قال كاز: «سندخل من الشمال كما هو مخطط».

ضرب جاسـبر رأسـه في بـدن السـفينة ونظـر نحـو السـماء، وقـال: «حسـنًا. لكـن إذا قتلنـا بيـكا رولينـز جميعًـا، فسـوف أجعـل شـبح ويـلان يعلـم شـبحي كيفيـة العـزف عـلى النـاي حتـى أسـتطيع إزعـاج شـبحك حتـى المـوت».

التـوت شـفتا بريكـر «سـوف أسـتعين حينهـا بشـبح ماتيـاس لـكي يـركل مؤخـرة شـبحك».

رد ماتيـاس بجديـة: «لـن يقـترن شـبحي بشـبحك»، ثـم أخـذ يفكـر في مـا إذا كان هـواء البحـر قـد أفسـد عقلـه.

الجزء الثالث
القلب الحزين

-١٦-

إيناج

ما كل هذا الألم. ولم تتحرك الغرفة من حولها؟

فتحت إيناج عينيها ببطء مشوشة الأفكار. تذكرت طعنة السكين التي سددها لها أوومين وتسلقها للصناديق بينما علت أصوات أفراد العصابة صائحين حين تعلقت من أطراف أصابعها: «انزلي أيتها الشبح». ولكن كاز عاد إليها لينقذ استثماره، وربما نجحوا أخيرًا في الوصول إلى المركب فيرولي يند.

حاولت إيناج أن تحرك جسدها ولكن منعتها شدة الألم؛ لذلك اكتفت بإدارة رأسها فقط، لتجد نينا ناعسة على كرسي مثبت في الزاوية بجوار الطاولة بينما تمسك بيد إيناج بارتخاء.

همست إيناج بصوت أجش خفيض: «نينا». وشعرت بأن حلقها جاف للغاية.

انتفضت نينا مستيقظة وقالت فجأة: «أنا مستيقظة»؛ ثم نظرت إلى إيناج بعينين مرهقتين.

اعتدلت نينا في جلستها وقالت: «لقد استعدت وعيك. آه، بحق القديسين لقد استعدت وعيك».

ثم انفجرت نينا في البكاء.

حاولت إيناج النهوض، ولكنها رفعت رأسها بصعوبة.

قالت نينا: «لا تحاولي التحرك، استريحي فحسب».

«هل أنت بخير؟».

أخذت تضحك بينما تنهمر الدموع من عينيها: «أنا بخير. أنتِ من تعرضت للطعن وليس أنا. لا أعرف ماذا دهاني. يبدو أن قتل الناس أسهل بكثير من الاعتناء بهم». رمشت إيناج ثم انفجرت

الاثنتان في الضحك. قالت إيناج: «آآآآآآآآآه. لا تدفعيني إلى الضحك. هذا الألم لا يحتمل».

سألتها نينا متلهفة: «بم تشعرين الآن؟».

«مرارة رهيبة. أنا عطشى».

قدمت نينا لها كوبَ صفيحٍ يمتلئ بالماء البارد وقالت: «إنه ماء نقي. لقد أمطرت بالأمس».

ارتشفت إيناج الماء بتأنٍّ تاركة نينا ترفع رأسها لأعلى: «منذ متى وأنا غائبة عن الوعي؟».

«ثلاثة أيام تقريبًا أو أربعة. كاد جاسبر يدفعنا جميعًا للجنون، أعتقد أنني لم أره يستقر في مكان واحد لأكثر من دقيقتين منذ قدومك إلى هنا». ثم وقفت نينا فجأة وقالت: «لابد أن أخبر كاز بأنك استعدت وعيك. اعتقدنا أنك ــــــــــ»

أمسكت نينا بيد إيناج: «انتظري. هل يمكننا ألا نخبره الآن؟».

جلست نينا مرة أخرى والحيرة بادية على وجهها وقالت: «بالتأكيد لكن ــــــــــ»

«الليلة فقط». ثم صمتت قليلًا وقالت: «هل نحن بالليل؟».

«أجل. بعد منتصف الليل في الواقع».

«هل عرفنا مَن كان يسعى وراءنا في الميناء؟».

«بيكا رولينز. استعان بالبلاك تيبس ورازور غولز لمنعنا من الخروج من الميناء الخامس».

«وكيف عرف مكان مغادرتنا بالضبط؟».

«لسنا متأكدين بعد».

«رأيت أوومين ــــــــــ»

«أوومين ميت. قتله كاز».

«أفعل هذا؟».

«قتل كاز الكثير منهم تلك الليلة. رآه روتي يطارد البلاك تيبس ممن دفعوك إلى الصعود أعلى الصناديق. وصف المشهد قائلًا: «لقد

سفك كاز ما يكفي من الدماء لدهان حظيرة بأكملها»».
أغلقت إيناج عينيها وقالت: «الكثير من الموت». أحاط الموت بهم في باريل. ولكن هذه المرة كان الموت أقرب إليها من حبل الوريد.
«لقد خاف عليكِ».
«لا يخاف كاز على أي شيء».
«كان عليك رؤية وجهه عندما أحضرك إلى هنا حتى تفهمي».
«أنا لست إلا استثمارًا قيمًا للغاية بالنسبة إليه».
فغرت نينا فاها وقالت: «لا تخبريني بأنه من قال لك ذلك».
«فعل بالطبع. بل ولم يذكر كلمة قيم حتى».
«أحمق».
«كيف حال ماتياس؟».
«أحمق هو الآخر. هل في مقدورك تناول الطعام؟».
هزت إيناج رأسها رافضة؛ فلم تكن تشعر بالجوع على الإطلاق.
ألحت عليها نينا: «حاولي. حالتك غير جيدة».
«أريد أن أستريح الآن فحسب».
قالت نينا: «بالطبع. سأطفئ المصابيح الآن».
أمسكت إيناج بيد نينا مرة أخرى، وقالت: «كلا. لا أريد العودة إلى النوم الآن».
«أستطيع أن أقرأ لك إن كان لديَّ شيء للقراءة، فأنا المتلاعبة بالقلوب في القصر الصغير القادرة على قراءة الشعر الملحمي لك لعدة ساعات دون توقف وبلا رحمة، حتى تتمني لو كنت مت بالفعل..»
ضحكت إيناج وغمزت وهي تقول: «ابقي معي فحسب».
قالت نينا: «حسنًا. ربما تريدين التحدث قليلا، أخبريني عن سبب عدم وجود وشم الكأس والغراب على ساعدك مثلهم».
«هل بدأت بالأسئلة السهلة؟».

وضعت نينا ساقًا على الأخرى ودفست ذقنها بين يديها وقالت: «أنا أنتظر».

صمتت إيناج لبرهة ثم قالت: «لقد رأيت الندوب على ساعدي». أومأت نينا. فأردفت إيناج: «عندما أقنع كاز بير هاسكيل بأن يدفع ثمن عقدي مع الميناجري، كان أول شيء أفعله هو التخلص من وشم ريش الطاووس».

«أيًّا كان مَن أزال لك الوشم؛ فقد أزاله بطريقة سيئة للغاية».

«لم يكن من جماعة الأحياء أو الموتى أو طبيبًا حتى»، بل هو أحد الجزارين نصف المتعلمين الذين يمارسون مهنتهم بين البائسين في باريل. عرض عليها جرعة ويسكي ثم شرع في تقطيع جلدها مخلفًا مجموعة من الجروح المشوهة على ساعدها لإزالة الوشم. لم تهتم. لقد تحررت من الألم. كانوا يحبون التحدث عن جلدها في بيت العجائب؛ فلونه يشبه لون القهوة بالحليب. أو يشبه الكراميل اللامعة. بل ويشبه الحريرفي ملمسه. رحبت إيناج بكل جرح من السكين والندوب التي خلفها وراءه. قالت إيناج: «أخبرني كاز بأني لست مضطرة إلى فعل شيء سوى أن أعود بالنفع عليهم».

علمها كاز كيفية السطو على الخزائن، وسرقة المحافظ، والتعامل ببراعة مع السكاكين. وأهداها سكينها الأولى التي أطلقت عليها القديس بيتر - ليست جميلة من الجبرمانيوم البرية، ولكنها أكثر عملية حسب اعتقادها.

قالت له حينها «ربما أستخدمها ضدك».

تنهد كاز وقال: «ليتك تتعطشين للدماء بهذا القدر». ولم تستطع إيناج أن تعرف ما إذا كان يمزح أم لا.

عندئذ استدارت قليلًا فوق الطاولة. شعرت بالألم ولكنه ليس ألمًا شديدًا. ونظرًا إلى مدى العمق الذي وصلت إليه السكين، ربما كان قديسوها هم الذين يوجهون يد نينا لإسعافها.

«أخبرني كاز إنني لو أثبت جدارتي لاستطعت الالتحاق بالدريجز

عندما أستعد. وهذا ما حققته بالفعل. ولكني لم أرسم الوشم».

ارتفع حاجبا نينا وقالت: «لم أعرف أنه أمر اختياري».

«في الحقيقة إنه ليس كذلك. أعرف أن البعض لا يفهمون ذلك ولكن كاز أخبرني أن.. أن الأمر بيدي وأنه لن يصبح الشخص الذي يفرض علي وضع علامة على جسدي مرة أخرى».

ولكنه فعلها بطريقته الخاصة - رغم نواياها الطيبة. إن الشعور بأي شيء تجاه كاز أسوأ أنواع الغباء. وإنها تعلم ذلك جيدًا. ولكنه الشخص الذي أنقذها وآمن بقدراتها. لقد راهن عليها، وهذا يعني شيئًا - حتى لو فعل هذا من أجل نفسه ودوافعه الأنانية. كما أنه من أطلق عليها أيضًا اسم الشبح.

قالت إيناج لكاز: «لا أحب هذا الاسم، إنه يجعلني أشبه بالجثة».

قال مصححًا لها: «بل بالطيف».

«ألم تذكر أنني عنكبوتك الخاص؟ لماذا لا نستمر على هذا اللقب؟».

«لأن هناك الكثير من العناكب في باريل. علاوة على رغبتك في زرع الخوف في أعدائك حتى لا يفكروا في أنهم يستطيعون سحقك بمقدمة حذائهم».

«أعدائي؟».

«بل أعداؤنا».

ساعدها على بناء أسطورتها الخاصة، أسطورتها التي أصبحت درعًا حامية لها: لتتحول تلك الفتاة الصغيرة إلى شيء أكبر وأكثر إثارة للفزع من الصورة التي كانت عليها في الماضي. تنهدت إيناج. ولم ترغب في التفكير في كاز أكثر من ذلك.

قالت لنينا: «تحدثي أنت إلي يا نينا».

«جفونك ترتخي. أنت بحاجة إلى النوم».

«لا أحب القوارب. لدي معها ذكريات سيئة للغاية».

«وأنا أيضًا».
«غنّ لي شيئًا إذًا».
ضحكت نينا وقالت: «هل تتذكرين ما قلته عن تمني الموت؟ لا يجدر بك إذًا أن تطلبي مني أن أغني».
«أرجوك؟».
«لا أعرف إلا الأغاني الشعبية الرافكانية وأغاني الحانات في كيرتش».
«أغاني الحانات. إنها صاخبة غني منها من فضلك».
قالت نينا وهي تضحك: «سأغني من أجلك فقط أيتها الشبح». وازدردت ريقها وبدأت: «القبطان الشاب القوي جريء في البحار. جندي وبحار خالٍ من الأسقام ———»
ضحكت إيناج ممسكة جانبها ثم قالت: «كنت محقة. أنت سيئة للغاية في الغناء».
«أخبرتك بهذا».
«أكملي».
صوت نينا فظيع حقًا، ولكنه يساعد إيناج على البقاء على هذه السفينة في تلك اللحظة. لم ترد التفكير في آخر مرة لها في البحر، ولكن كم بدت مقاومة الذكريات صعبة.
كان وجودها في تلك العربة التي اختطفها منها تجار الرقيق ذلك الصباح محض صدفة أو ربما حظًا عثرًا. كانت حينها لا تزال في الرابعة عشرة من عمرها تقضي فصل الصيف برفقة عائلتها على ساحل غرب رافكا، تستمتع بشاطئ البحر وتشاهد العروض المقدمة في مهرجان ضواحي أوز كيرفو. كان يفترض بها ذلك اليوم مساعدة أبيها على إصلاح الشباك، ولكنها شعرت بالكسل والرغبة في النوم لبضع دقائق أخرى تحت الأغطية القطنية الرقيقة والاستماع إلى تدافع الأمواج وتنهداتها في الخارج.
وحين لمحت ظلًا على باب المنزل المتنقل الذي تنام فيه، لم تدرك حتى أن عليها الفرار والركض بأسرع ما يمكنها. قالت ببساطة:

«خمس دقائق أخرى يا بابا».

لتجد من يجرها من رجليها ويسحبها خارج العربة، ليصطدم رأسها بالأرض بقوة. رأت أربعة رجال ضخام الجثة يرتدون زي البحارة. وعندما حاولت أن تصرخ، كمموا فمها، وقيدوا يديها ورسغيها، ورماها أحدهم فوق كتفه وهم يندفعون نحو القارب الطويل الذي رسا في الخليج.

علمت إيناج فيما بعد أن الساحل مكان معروف لتجار الرقيق وأنهم اكتشفوا مكان منزل السلولي المتنقل من موقع سفينتهم، وجدفوا نحو الشاطئ بعد الفجر عندما أصبح المعسكر خاليًا ليوقعوا بها فريسة.

لا تتذكر إيناج بقية رحلة اختطافها بوضوح؛ فلقد ألقوا بها في عنبر شحن مع مجموعة من الأطفال الآخرين - حيث وجدت بعضهم أكبر منها سنًا وبعضهم أصغر وكان معظمهم من الفتيات والقليل من الصبيان. كانت إيناج السولية الوحيدة بينهم ولكنها وجدت البعض يتحدث الرافكانية وأخبروها بقصص اختطافهم. تعرض صبي منهم للاختطاف من داخل حوض لبناء السفن الخاص بوالده وتعرضت فتاة للاختطاف في أثناء لعبها في برك المد والجزر حين ابتعدت كثيرًا عن رفيقاتها. وهناك فتاة باعها شقيقها الأكبر منها ليسدد ديونه من القمار. تحدث البحارة لغة لا تفهمها ولكن ادعى أحد الأطفال أنهم سيأخذونهم إلى أكبر جزيرة في الجزر الخارجية لكيرتش حيث يباعون في مزاد لملاك خاصين أو لبيوت المتعة في كتردام ونوفي زيم. يأتي الناس من جميع أرجاء العالم من أجل تلك المزايدة. ظنت إيناج أن الاتجار بالرقيق أمر غير قانوني في كيرتش ولكن من الواضح أنه ليس كذلك.

لم تر إيناج المبنى الذي أقيم فيه المزاد قط. وعندما رسوا بالسفينة أخيرًا، اقتادوها إلى السطح وسلموها لإحدى أجمل النساء اللاتي رأتهن في حياتها على الإطلاق، كانت شقراء طويلة القامة

ذات عينين عسليتين وشعر ذهبي.

رفعت المرأة مصباحها لأعلى وأخذت تفحص كل بوصة في إيناج - أسنانها وصدرها وحتى قدميها. جذبت الشعر الملبد على رأس إيناج وقالت: «يجب أن يحلق هذا». ثم تراجعت إلى الوراء وقالت: «إنها فتاة جميلة. هزيلة ومسطحة مثل المقلاة ولكن جلدها ممتاز لا تشوبه شائبة».

ابتعدت المرأة لمقايضة البحارة بينما وقفت إيناج مكانها وهي تضع يديها المقيدتين فوق صدرها ولا يزال قميصها مفتوحًا ولا تزال تنورتها مرفوعة فوق خصرها. تمكنت من رؤية بريق ضوء القمر فوق أمواج الخليج. فقالت لنفسها: «اقفزي يا إيناج. أيًا كان ما ينتظرك في قاع البحر فهو أفضل من أن تأخذك هذه المرأة». ولكنها لم تمتلك الشجاعة الكافية لذلك.

ربما أصبح بإمكان الفتاة التي صارت عليها الآن أن تقفز دون تردد، وربما تأخذ أحد تجار الرقيق لقاع البحر معها. أو ربما تضحك على نفسها؛ فقد تجمدت مكانها عندما التقت بالخالة هيلين مصادفة في ويست ستيف ووقفت أمامها دون حراك حين وبختها. لم تمتلك حينها المزيد من القوة أو الشجاعة، بل هي نفس فتاة السولي الخائفة التي أصابها الشلل وتعرضت للإذلال على متن تلك السفينة.

ظلت نينا مستمرة في غناء شيء عن بحار هجر حبيبته.

قالت إيناج: «علميني الغناء الجماعي».

«يجب أن ترتاحي».

«أرجوك».

علمتها نينا بعض الكلمات. وأخذت الاثنتان تغنيان معًا بطريقة بائسة بلا تناغم وهما تخطئان الكلمات حتى خبت المصابيح.

-١٧-

جاسبر

كان جاسبر على استعداد لأن يلقي بنفسه في الماء لكسر الروتين الممل. ستة أيام أخرى. ستة أيام كاملة في انتظاره على متن هذا المركب -هذا إن حالفهم الحظ وخدمتهم الرياح- لترسو مركبهم من الأساس. إن الساحل الغربي لفيردا عبارة عن منحدرات صخرية وعرة شديدة الخطورة، ولا يمكن الاقتراب من الساحل بأمان إلا في ديرهولم وإيلينج، ولكنهم اضطروا بسبب تشديد الإجراءات الأمنية في كلا الميناءين إلى قطع الطريق كاملًا نحو موانئ صيد الحيتان في الشمال. كم تمنى أن يتعرضوا لهجوم القراصنة، من باب كسر الملل، ولكن مركبهم صغير للغاية على أن يحمل بضائع قيمة تغري أي قرصان. فهم هدف تافه، ومن ثم فقد مروا من دون مضايقات عبر أكثر الطرق التجارية ازدحامًا في بحر الحقيقة رافعين أعلام كيرتش المحايدة. وسرعان ما وصلوا إلى المياه الباردة في الشمال نحو إيزنفي.

تجول جاسبر عبر سطح المركب، وتسلق حبال الأشرعة، وحاول دفع الطاقم إلى لعب الورق معه، وأخذ ينظف مسدساته، فعل أي شيء ممكن لكسر الملل. لقد افتقد اليابسة والطعام الشهي والبيرة الرائعة. افتقد المدينة. لو أراد مساحة واسعة مفتوحة والهدوء لبقي على الحدود وأصبح مزارعًا كما تمنى والده. ولكن ليس هذا ما أراد. وليس هناك الكثير ليفعله على سطح المركب باستثناء دراسة مخططات محكمة الجليد، والاستماع إلى تذمر ماتياس، ومضايقة ويلان الذي ربما يجده مشغولًا دومًا بمحاولة إعادة تصور الآليات المحتملة لبوابات الجدار الخارجي.

أعجب كاز بالرسومات.

قال جاسبر لويلان: «أنت تفكر مثل اللصوص الذين يفتحون الأقفال».

«أنا لا أفعل ذلك».

«أعني أنك تستطيع أن ترى المساحة الخالية على امتداد المحاور الثلاثة».

قال ويلان معترضًا: «أنا لست مجرمًا».

ألقى عليه كاز نظرة شفقة وقال: «كلا، أنت عازف ناي وقعت في صحبة سيئة».

جلس جاسبر بجوار ويلان، وقال: «تعلم تلقي الإطراء فحسب، فكاز لا يقدمه كثيرًا».

«إنه ليس إطراءً. أنا لست مثله. أنا لا أنتمي إلى هنا، هذا ليس مكاني».

«لن أقول شيئًا».

«وهو ليس مكانك أنت كذلك».

«عفوًا أيها الطفل المدلل؟».

«نحن لسنا بحاجة إلى قناص، فخطة كاز لا تقتضي هذا، فما هي مهمتك إذًا - بخلاف التجوال هنا وهناك وإصابة الجميع بالتوتر؟».

هز جاسبر كتفيه قائلًا: «كاز يثق بي».

اعترض ويلان والتقط قلمه، وقال: «هل أنت متأكد من ذلك؟».

شعر جاسبر بالضيق. فلم يكن محل ثقة كاز بالطبع. لقد قضى جاسبر الكثير من الوقت في تخمين أفكار كاز بريكر. ولو فاز بجزء صغير من ثقته، فهل هو جدير بها بالفعل؟

نقر بإصبعي الإبهام على مسدساته، وقال: «عندما يبدأ الرصاص في التطاير ربما تكتشف أن وجودي بالجوار أمر لطيف، فتلك الرسومات الجميلة لن تبقيك حيًّا».

«نحن في حاجة إلى هذه الخرائط. وأود أن أذكرك حال نسيت، أن إحدى قنابلي الضوئية هي ما ساعدت على إخراجنا من ميناء

كـتردام».
زفر جاسبر وقال ساخرًا: «يالها من استراتيجية عبقرية».
«ولكنها نجحت، أليس كذلك؟».
«لقد أصبت رفاقنا بالعمى مع عصابة البلاك تيبس».
«كانت مخاطرة محسوبة».
«بـل كانـت مخاطـرة قائمـة عـلى الاحتـمالات وتمنـي الحـظ الجيـد. صدقنـي أعـرف الفـارق جيـدًا بـين هـذا وذاك».
«حسنًا، لقد سمعت عن هذا».
«ماذا تعني؟».
«أعنـي أن الجميـع يعـرف عـدم قدرتـك عـلى تجنـب أي قتـال أو رهـان بـصرف النظـر عـن الاحتـمالات».
نظـر جاسـبر إلى أعـلى الأشرعـة وقـال: «لـو لم تولـد بـكل تلـك المزايـا التـي حظيـت بهـا في حياتـك لتعلمـت أن تنتهـز أي فرصـة متاحـة أمامـك».
توقـف ويـلان عـن الرسـم ووضـع القلـم جانبًـا وقـال: «أنـا لسـت ــــــــــــ لمـاذا تعتقـد أنـك تعـرف كل شيء عنـي؟».
«أعرف الكثير أيها الطفل المدلل».
«ظريف أنت! بالنسبة إلي فأنا لا أظن أنني أعرف ما يكفي».
«عن ماذا؟».
تمتم ويلان: «عن أي شيء».
أثـار هـذا اهتـمام جاسـبر الـذي سـأل رغـم اعتقـاده بأنـه مـن الأفضل ألا يفعـل هـذا: «مثل مـاذا؟».
أجـاب ويـلان وهـو يشـير إلى مسدسـات جاسـبر: «مثـل هـذه المسدسـات. إنهـا تتمتـع بآليـة إطـلاق استثنائية ولكنـي لا أعـرف كيـف تعمـل، أليـس كذلـك؟ فلـو أمكننـي تفكيكها ــــــــــــــــ».
«لا تفكر في هذا حتى».
هـز ويـلان كتفيـه بـلا مبـالاة وقـال وهـو ينقـر عـلى خريطـة محكمـة

الجليـد: «أو مـاذا عـن خنـدق الجليـد؟ لقـد أشـار ماتيـاس إلى أن الخنـدق ليـس صلبًـا، بـل طبقـة رقيقـة ناعمـة مـن الثلـج فـوق المياه البـاردة، وأنـه مكشـوف تمامًـا ويسـتحيل عبـوره».

«ماذا عنه؟».

«مـن أيـن يـأتي كل هـذا الماء؟ هـل تقـع المحكمـة فـوق أحـد التـلال ومـن ثـم فطبقـة المياه الجوفيـة أو القنـاة المائيـة هـي التـي ترفـع الماء لأعلى؟»

«وهـل هـذا مهـم؟ يوجـد جـسر. ولـن نحتـاج إلى عبـور خنـدق الجليـد».

«ولكن ألا ينتابك الفضول بشأنه؟».

«بحـق القديسـين، كلا بالطبـع. قـدم لي طريقـة للفـوز في لعبـة ثـري مـان برامبـل أو عجلـة مايكـر. هـذا كل مـا أشـعر بالفضـول نحـوه».

عاد ويلان إلى عمله وخيبة الأمل بادية على وجهه.

ولسبب ما شعر جاسبر بشيء من خيبة الأمل أيضًا.

عكـف جاسـبر عـلى تفقـد أحـوال إينـاج كل صبـاح وكل ليلـة. ربمـا أصابتـه فكـرة الكمـين الـذي نصـب لهـم في الأرصفـة البحريـة بالقشـعريرة. ورغـم الجهـود التـي بذلتهـا نينـا، تيقـن جاسـبر أن الشـبح لا تشـتاق لهـذا العـالم.

لكـن ذات صبـاح أتى جاسـبر ليجـد إينـاج تجلـس وهـي ترتـدي سروالًا قصـيرًا وصديريـة مبطنـة وسـترة ذات غطـاء.

انحنـت نينـا محاولـة وضـع قدمـي فتـاة السـولي في الصنـدل الغريـب ذي النعـل المطاطـي.

صاح جاسبر ببهجة: «إيناج! أنت لست ميتة!».

ابتسـمت إينـاج بوهـن وقالـت: «لسـت أكـثر حيـاة مـن أي شـخص آخـر».

«إذا كان مـا قلتـه تـوًّا واحـدة مـن حكـم السـولية المحبطـة، فأنـت

على ما يرام».

قالت نينا متذمرة: «لا تقف هكذا. ساعدني على وضع هذه الأشياء في قدميها».

قالت إيناج: «فقط لو تركتموني ———————»

قالت نينا بحدة: «لا تنحني. ولا تقفزي. لا تقومي بحركات مفاجئة. عديني بأنك ستتعاملين مع الأمور بهدوء وروية، وإلا أبطأت ضربات قلبك ووضعتك في غيبوبة حتى أتأكد من تعافيك تمامًا».

«نينا زينيك، بمجرد أن أعرف أين تضعون سكاكيني سأتحدث معكم».

«تخيلت أن كلماتك الأولى لي: «شكرًا يا نينا أيتها الرائعة على تكريس كل لحظة لك في هذه الرحلة المريعة لإنقاذ حياتي البائسة»».

توقع جاسبر أن تضحك إيناج ولكنه فوجئ بأنها وضعت يدها على وجه نينا ممازحة وقالت: «شكرًا على إبقائي في هذا العالم عندما بدا أن القدر مصمم على جرّي إلى العالم الآخر. أنا مدينة لك بحياتي».

تورد وجه نينا وقالت: «أنا أمازحك يا إيناج». وصمتت قليلًا ثم قالت: «أعتقد أن كل واحدة منا مدينة للأخرى».

«يسعدني حمل هذا الدين».

«حسنًا، حسنًا. عندما نعود إلى كتردام اصطحبيني لتناول الوافل».

عندئذ ضحكت إيناج، وقالت: «حلوى مقابل حياة؟ ليس هذا منصفًا».

«أتوقع الحصول على وافل من النوع الشهي».

قال جاسبر: «أعرف المكان المناسب. كما أنهم يقدمون عصير التفاح هذا بـ ———————»

قالت نينا: «أنت لست مدعوًا. والآن تعالَ ساعدني على إيقافها».

قالت إيناج معترضة وهي تحرك جسدها خارج الطاولة وتقف على قدميها: «أستطيع الوقوف بمفردي».

تأوهت إيناج ومد جاسبر ذراعه إليها فأمسكت بها وشق الاثنان طريقهما خارج المقصورة نحو سطح السفينة ونينا في أثرهما.

قالت إيناج: « أنا بخير».

أجاب جاسبر: «أنت كذلك. لكن ربما أقع أنا في أي لحظة؛ لذا انتبهي».

وحالما وصل الاثنان إلى السطح، ضغطت إيناج على ذراعه لكي يتوقف. وأرجعت رأسها إلى الوراء وأخذت نفسًا عميقًا. كان نهارًا رماديًّا والبحر مثل لوح إردوازي قاتم تتخلله الأمواج المزبدة، واكتست السماء بطبقات كثيفة من السحاب. والرياح القوية تملأ الأشرعة وتدفع المركب فوق الأمواج.

تمتمت إيناج: «كم أنا ممتنة لشعوري بهذا النوع من البرودة».

«هذا النوع من البرودة؟».

«أجل، أعني الشعور بالرياح تداعب شعري ورذاذ البحر يلامس بشرتي. ما زلت على قيد الحياة».

نصحتها نينا محذرة: «تكفي جولتان فقط حول سطح المركب يا إيناج، ثم عودي إلى الفراش». ثم ذهبت لتنضم إلى ويلان في مؤخرة السفينة. ولاحظ جاسبر أنها تحركت نحو أبعد نقطة على السفينة من ماتياس.

سألت إيناج وهي تنظر نحو نينا والفيرداني: «هل هما كذلك طوال الوقت؟».

أومأ جاسبر برأسه وقال: «الأمر أشبه بمشاهدة اثنين من القطط البرية يدوران أحدهما حول الآخر استعدادًا لاشتباك عنيف».

همهمت إيناج: «ولكن هل تعرف ماذا يحدث عندما تهجم القطط البرية بعضها على بعض؟».

«هل تخدش إحداهما الآخرى حتى الموت؟».

دارت عينا إيناج في محجريهما وقالت: «لا عجب أنك لا تجيد اللعب على موائد القمار يا جاسبر».

قادها جاسبر نحو سور المركب حيث يستطيعان المشي دون أن يعترض طريقهما أحد. قال جاسبر: «كم أود أن أراهنك على كأس من الشراب ولكن كاز يراقبنا.»

أومأت إيناج. ولم تنظر نحو المكان الذي يقف فيه كاز بجانب سبيكت عند عجلة قيادة السفينة. لكن جاسبر نظر نحوه ولوح إليه بابتهاج. ولم يتغير تعبير وجه كاز.

سأل جاسبر: «هل سيقتله أن يبتسم مرة كل فترة؟».

«محتمل للغاية».

ألقى كل فرد في طاقم السفينة التحية على إيناج وتمنى لها الشفاء، وشعر جاسبر ببهجتها كلما هتف أحدهم «لقد عادت الشبح»؛ بل إن ماتياس انحنى لتحيتها قائلًا «لقد عرفت أنك سبب خروجنا من الميناء أحياءً».

قالت إيناج: «أعتقد أنني لست الوحيدة صاحبة الفضل، فهناك الكثير من الأسباب».

قال جاسبر آملًا الحصول على بعض الإطراء: «بل أنا السبب».

رد ماتياس متجاهلًا إياه «الأمر سواء. شكرًا لكِ».

ومضى الاثنان في طريقهما ورأى جاسبر ابتسامة رضا ترتسم على شفاه إيناج.

سأل جاسبر: «هل أنتِ متفاجئة؟».

أقرت إيناج: «قليلًا. لقد قضيت الكثير من الوقت مع كاز. وأعتقد ــــــــــــــــــ»

«وتعتقدين أن الشعور بتقدير الآخرين لك أمر رائع».

أطلقت إيناج ضحكة صغيرة ووضعت يدها على جانبها وقالت: «لا يزال الضحك مؤلمًا».

«إنهم سعداء لرؤيتك حية. وأنا سعيد أيضًا يا إيناج».

«أرجـو ذلـك. فأنـا لم أشـعر قـط أن وجـودي بـين الدريجـز أمـر مناسـب».
«حسنًا، لست كذلك بالفعل».
«شكرًا».
«نحـن طاقـم ذو اهتمامـات محـدودة وأنـت لا تقامريـن ولا تسـبين بألفـاظ نابيـة ولا تفرطـين في الـشراب، لكـن هـا هـو سر شـعبيتك بيننـا: أنـت تعرضـين نفسـك للمـوت مـن أجـل إنقـاذ رفاقـك مـن انفجـار مـروع في كمـين نصـب لهـم. وتلـك طريقـة رائعـة لعقـد الصداقـات يـا إينـاج».
«ما دمت لست مضطرة إلى حضور الحفلات».
وعندمـا وصـل الاثنـان إلى مقدمـة السـفينة، اسـتندت إينـاج إلى السـور وتطلعـت إلى الأفـق وقالـت: «هـل أتى لزيـارتي عـلى الإطـلاق؟».
وعرف جاسبر أنها تقصد كاز؛ فقال: «زارك في كل يوم».
اتجهـت عينـا إينـاج الغامقتـان نحـو جاسـبر وهـزت رأسـها آسـفة «أنـت غـير قـادر عـلى قـراءة الآخريـن ولا تسـتطيع خداعهـم كذلـك يـا جاسـبر».
تنهد جاسبر لكرهه إحباط أحدهم ثم قال «كلا، لم يزُركِ».
فأومأت له قبل أن تحول نظرها إلى المحيط مرة أخرى.
قال جاسبر: «أعتقد أنه لا يحب زيارة أحد على فراش المرض».
«ومَن يحب ذلك؟».
«أعنـي، أعتقـد أنـه كان مـن الصعـب عليـه أن يـراكِ وأنـتِ بهـذه الحالـة. ذلـك اليـوم عندمـا أصبـت.. تـصرف كالمجنـون». مـن الصعـب عـلى جاسـبر أن يقـر بهـذا. هـل مـن الممكـن أن يقـوم كاز بمثـل هـذا العمـل الجنـوني لـو أصيـب جاسـبر بسـكين في جانبـه؟
« بالطبـع، فتلـك مهمـة لسـتة أفـراد ومـن الواضـح أنـه يحتـاج إليَّ مـن أجـل تسـلق بـرج المحرقـة. ولـو مـت، لفشـلت الخطـة بأكملهـا».
لم يجادلها جاسـبر. ولم يسـتطع أن يتظاهـر بأنـه يفهـم كاز أو دوافعه.

فقـال: «أخبرينـي. مـا المشـكلة الكبـيرة بـين ويـلان وأبيه؟».

ألقـت إينـاج نظـرة سريعـة عـلى كاز ثـم نظـرت مـن فـوق كتفهـا لتتأكـد أن لا أحـد مـن طاقـم السـفينة يترصدهـما في الجـوار. تحـدث كاز بوضـوح عـن أن المعلومـات التـي تتصـل بالمهمـة ولـو مـن بعيـد يجـب أن تبقـى محصـورة بينهـم هـم الستة فقـط. فقالـت: «لا أعـرف بالضبـط. منـذ ثلاثـة أشـهر ظهـر ويـلان في أحـد الفنـادق الرديئـة بالقـرب مـن منـزل سـلات، مسـتخدما لقبًـا مختلفًـا، ولكـن لأن كاز يراقـب كل شـخص جديـد يظهـر في باريـل طلـب منـي القيـام ببعـض أعـمال التلصـص».

«ثم؟».

هـزت إينـاج كتفيهـا وقالـت: «يحصـل الخـدم في منـزل فـان إيـك عـلى رواتـب عاليـة؛ مـا جعـل رشـوتهم أمـرًا صعبًـا. لم تضـف المعلومـات التـي حصلـت عليهـا الكثـير. ولكـن هنـاك شـائعات بـأن ويـلان ضُبـط وهـو يسـلك سـلوكًا منحرفًـا مـع أحـد أسـاتذته؟».

قال جاسبر وهو تبدو عليه أمارات عدم التصديق: «حقًّا؟».

«إنهـا مجـرد شـائعة. ولا يبـدو لي أن ويـلان تـرك المنـزل ليسـتمر في طريـق الانحـراف».

« لماذا طرده فان إيك الأب إذًا؟».

«أظـن أنـه لم يفعـل. أرسـل فـان إيـك خطابًـا لويـلان كل أسـبوع ولم يفتـح ويـلان الخطابـات حتـى».

«وماذا تقول تلك الخطابات؟».

اسـتندت إينـاج إلى الـوراء بحـذر عـلى السـور وقالـت: «أنـت تفـترض أننـي قرأتهـا».

«ألم تقرئيها؟».

«بالطبـع قرأتهـا». ثـم عبسـت وهـي تعـصر رأسـها «تحمـل جميعهـا نفـس الرسـالة مـرارًا وتكـرارًا: إذا كنـت تقـرأ خطـابي هـذا فأريـدك أن تعلـم كـم أتمنـى عودتـك للمنـزل. أو أرجـو أن تقـرأ هـذه الكلـمات

وتفكـر في كل الأشـياء التـي تركتهـا وراءك».

نظـر جاسـبر إلى ويـلان وهـو يتحـدث مـع نينـا وقـال: «الطفـل المدلـل الغامـض. تـرى مـا الـذي فعلـه فـان إيـك لدرجـة دفعـت ابنـه ويـلان إلى العيـش معنـا في هـذا الفقر».

«لتخـبرني الآن يـا جاسـبر. لمـاذا أتيـت في هـذه المهمـة؟ أنـت تعـرف مـدى خطورتهـا وضعـف احتـمالات عودتنـا. أعلـم كـم تحـب التحـدي، ولكـن هـذا التحـدي مبالـغ فيـه حتـى بالنسبة إليـك».

تطلـع جاسـبر إلى الأمـواج الرماديـة التـي تمتـد للأفـق في مسـيرة لا نهائيـة. لم يحـب المحيطـات عـلى الإطـلاق وكـره الشـعور بـأن هنـاك شـيئًا مجهـولًا تحـت أقدامـه أو أن شـيئًا جائعًـا ذا أسـنان حـادة ينتظـر الفرصـة لجـره إلى القـاع. فهـذا الشـعور لا يفارقـه في كل يـوم وحتـى عـلى اليابسـة.

«أنا مدين يا إيناج».

«أنت مدين دومًا».

«لا. الأمـر سـيئ هـذه المـرة. لقـد اقترضـت المـال مـن الأشـخاص الخطـأ. أتعلمـين أن أبي يمتلـك مزرعـة؟».

«في نوفي زيم».

«نعـم في الغـرب. وكانـت قـد بـدأت في تحقيـق بعـض الأربـاح هـذا العـام».

«آه جاسبر. لم تفعل ذلك».

«كنـت بحاجـة إلى القـرض. أخـبرت أبي أننـي بحاجـة إلى المـال مـن أجـل إنهـاء الدراسـة والحصـول عـلى الشـهادة مـن الجامعـة».

حدقت إيناج إليه وقالت: «وهل يعتقد أباك أنك طالب؟».

«هـذا هـو سـبب قدومـي إلى كـتردام. ذهبـت في أسـبوعي الأول في المدينـة إلى ويسـت سـتيف برفقـة بعـض الطـلاب. ثـم بـدأت المقامـرة ببضعـة كـروج. كانـت مجـرد نـزوة. لم أعـرف حتـى قواعـد عجلـة مايكـر حينهـا. ولكـن عندمـا أدار المـوزع عجلـة القـمار لم أسـمع صوتًـا أجمـل

منها. فزت واستمررت في الفوز. وكانت تلك أفضل ليلة في حياتي».
«وما زلت مستمرًا على هذا منذ ذلك الحين».
أومأ جاسبر وقال: «كان علي البقاء في المكتبة. ولكني فزت. وخسرت. ثم خسرت المزيد. فاحتجت إلى المال، ولذلك بدأت العمل مع بعض العصابات. هاجمني شخصان في أحد الأزقة ذات ليلة. فضربهما كاز وبدأنا التعاون في المهام معًا».
«ربما استأجر كاز هؤلاء الفتية للهجوم عليك لكي تشعر بأنك مدين له».
قال جاسبر: «لن ــــــــــــــ» ثم توقف عن الحديث فجأة وضحك وقال: «بالطبع قد يفعل ذلك». وثنى جاسبر مفاصل أصابعه وركز على الخطوط في راحتيه ثم قال: «كاز.. لا أعرف. إنه لا يشبه أي شخص عرفته في حياتي. إنه يفاجئني دائمًا».
«نعم. إنه أشبه بخلية نحل في خزانة الملابس، لا يمكنك توقع من أين ستأتيك اللدغة».
ضحك جاسبر وقال: «أجل تشبيه دقيق بالفعل».
«وما الذي نفعله هنا إذًا؟».
عاد جاسبر إلى النظر إلى البحر شاعرًا بالسخونة في خديه وقال: «نأمل الفوز بالعسل. ونرجو ألا يلسعنا النحل».
صدمت إيناج وكتفها إلى كتف جاسبر وقالت « نتمتع أنا وأنت على الأقل بالنوع نفسه من الغباء».
«لا أعرف ما عذرك أيتها الشبح. أنا الذي لا أستطيع الابتعاد عن مجموعة القمار وأوراق اللعب اللعينة».
علقت إيناج ذراعها بذراع جاسبر وقالت: «وهذا يجعلك مقامرًا سيئًا يا جاسبر. لكنك صديق رائع».
«لا يمكن لكاز الاستغناء عنك كما تعرفين».
«أعرف. وأنت أيضًا».
«هل نتمشى قليلًا؟».

بـدأت إينـاج المـشي بجانبـه وقالـت: «أريـدك أن تشـتت انتبـاه نينـا حتـى أسـتطيع البحـث عـن سـكاكيني».

«لا مشـكلة. سـأثير هيلفـار فحسـب». ونظـر جاسـبر إلى الـوراء نحـو عجلـة قيـادة السـفينة وهـما يمضيـان نحـو الاتجـاه المعاكـس. لم يتحـرك كاز. فقـد ظـل يراقبهـما بعينـين باردتـين ووجـه جامـد لا يمكنـك أن تستشـف منـه أي شيء عـلى الإطـلاق.

-١٨-

كاز

بعـد يومـين مـن خـروج إينـاج مـن المقصـورة التـي رقـدت فيهـا بعـد تعرضهـا للطعـن، أجـبر كاز نفسـه عـلى الذهـاب إلى إينـاج. التـي وجدهـا جالسـة بمفردهـا عاقـدة سـاقيها وتسـتند بظهرهـا إلى بـدن المركـب بينـما ترتشـف كوبًـا مـن الشـاي.

سار نحوها بمشية عرجاء وقال: «إيناج أريد أن أريك شيئًا».

قالـت إينـاج وهـي تنظـر إليـه: «أنـا بخـير، شـكرًا عـلى سـؤالك عنـي. وكيـف حالـك أنـت؟».

شـعر كاز بالحـرج: «أنـا رائـع». ثـم جلـس إلى جوارهـا بارتبـاك واضعـا عصـاه جانبًا.

سألته «هل تؤلمك رجلك؟».

«إنهـا بخـير. انظـري هنـا». ثـم بسـط أمامهـا رسـم ويـلان لقطـاع السـجن. ظهـر معظـم خرائـط ويـلان لمحكمـة الجليـد مـن الأعـلى ولكـن أظهـر ارتفـاع السـجن قطاعًـا جانبيًـا وقطاعًـا عرضيًـا لطوابـق المبنـى بعضهـا فـوق بعـض.

قالـت إينـاج: «رأيتهـا». وسـارت بإصبعهـا مـن القبـو نحـو السـطح في خـط مسـتقيم وقالـت: «هنـاك سـتة طوابـق نحـو المدخنـة».

«هل يمكنك القيام بهذا؟».

رفعت حاجبيها داكني اللون وقالت: «وهل هناك خيار آخر؟».

«كلا».

«وهـل لـو أخبرتـك أننـي لـن أسـتطيع تسـلق هـذه المسـافة، سـتطلب مـن سـبيكت أن يديـر القـارب ليعيدنـا إلى كـتردام؟».

قـال كاز: «سـأبحث عـن خيـار آخـر. لا أعـرف مـا هـو، ولكنـي لـن أتخـلى عـن هـذه الغنيمـة».

«أنـت تعلـم أننـي أسـتطيع القيـام بهـذا يـا كاز، وتعـرف أننـي لـن أرفـض. لمـاذا تسـأل إذًا؟».

لأني بحثت عن عذر للتحدث معك طوال يومين.

«أريـد التأكـد مـن معرفتـك لمـا سـتواجهين والتأكـد مـن دراسـتك للخرائـط جيـدًا».

«هل سنجري اختبارًا؟».

قـال كاز: «أجـل. لأنـك لـو فشـلتِ، سـوف ينتهـي بنـا الحـال عالقـين دخـل سـجن فـيرداني».

قالـت إينـاج وهـي تأخـذ رشـفة مـن الشـاي: «إمممـم. وسـوف ينتهـي بي الأمـر ميتـة». ثـم أغلقـت عينيهـا وأسـندت ظهرهـا إلى المركـب وقالـت: «أشـعر بالقلـق حيـال طريـق الهـروب إلى الميـنـاء. لا أحـب فكـرة وجـود طريـق واحـد للهـروب».

أسـند كاز أيضًـا ظهـره إلى المركـب كذلـك، وقـال وهـو يمـد رجلـه المصابـة: «وأنـا أيضًـا. لكـن لهـذا السـبب بنـاه الفيرادنيـون بتلـك الطريقـة».

«هل تثق بسبيكت؟».

نظـر إليهـا كاز نظـرة جانبيـة، وقـال: «هـل هنـاك مـا يدعـوني لعـدم الوثـوق بـه؟».

«لا على الإطلاق، لكن لو لم تنتظرنا فيروليند في الميناء...»

«أثق به بما فيه الكفاية».

«هل هو مدين لك؟».

أومـأ كاز. ونظـر حولـه ثـم قـال: «طردتـه البحريـة بسـبب عصيانـه للأوامـر وحرمـوه مـن معاشـه. يعـول أختًـا تعيـش بالقـرب مـن بليندت. وقـد أحـضرت لـه مالـه».

«كم أنت طيب القلب».

ضاقـت عينـا كاز وهـو يقـول: «أنـا لسـت بشـخصية كرتونيـة في قصص الأطفـال يدبـر مقالـب ليـسرق مـن الأغنيـاء بيـد ويعطـي الفقـراء باليـد

الأخرى يا إيناج. هناك مال يجب كسبه ومعلومات يجب الحصول عليها. يحفظ سبيكت طرق البحرية عن ظهر قلب.»

نظرت إليه إيناج نظرة ثاقبة: «أنت لا تقدم شيئًا بلا مقابل مطلقًا. أعرف هذا. ورغم ذلك، لو تعرضت فيروليند للاعتداء فلن نجد طريقًا للخروج من ديرهولم».

«سأجد طريقة للخروج. تعرفين هذا».

قال كاز لنفسه: «أخبريني أنك تعرفين هذا». كان في حاجة إلى سماعها تطمئنه. لم تشبه هذه المهمة أي شيء أقدموا على فعله من قبل. كل شكوكها ومخاوفها مشروعة، وإنها لم تردد سوى المخاوف التي تدور في رأسه. تحدث كاز معها بغضب قبل أن يغادروا كتردام وهددها بأنه سيستبدلها بعنكبوت آخر من أجل هذه المهمة إن تشككت في قدرتها على النجاح. وكان في حاجة إلى التأكد من وثوقها بقدرته على القيام بالمهمة، ووثوقها بقدرته على إدخالهم إلى محكمة الجليد وإخراجهم منها سالمين غانمين، مثلما فعل مع الفرق الأخرى في المهام الأخرى قبلًا. كان في حاجة إلى معرفة كم تثق به.

ولكن كل ما قالته هو: «سمعت أن بيكا رولينز هو الذي سعى وراءنا في الميناء».

شعر كاز بالإحباط «وماذا في ذلك إذًا؟».

«لا تعتقد أنني لم ألاحظ طريقة ملاحقتك له كاز».

«إنه مجرد رئيس عصابة آخر في بايريل عتيد الإجرام».

«ليس الأمر كذلك يا كاز، فإنك عندما تسعى وراء العصابات الأخرى يكون دافعك العمل، لكن الأمر مع بيكا رولينز شخصي».

لم يكن كاز متأكدًا من سبب بوحه بذلك لإيناج، فهو لم يفصح بذلك الأمر لأحد من قبل، فقال بصوت خفيض مثبتًا عينيه على الأشرعة فوقها «بيكا رولينز قتل أخي».

ولم يضطر إلى النظر إلى وجه إيناج ليدرك صدمتها. فقالت: «أكان

لديـك أخ؟».
تمتم كاز: «لديَّ الكثير من الأشياء».
«أنا آسفة».
هل أراد تعاطفها؟ هل هذا سبب إخباره لها؟
تـرددت إينـاج: «كاز ــــــــــــــ». مـاذا سـتفعل الآن؟ هل سـتحاول وضـع يدهـا عـلى ذراعـه لـكي تواسـيه؟ هـل سـتخبره بأنهـا تتفهـم مشـاعره؟
ثـم قالـت أخـيرًا: «سـأصلي مـن أجلـه. لينعـم بالسـلام في العـالم الآخـر إن لم يحـظ بـه في هـذا العـالم».
أدار كاز رأسـه. وجلـس الاثنـان بالقـرب مـن أحدهـما الآخـر وتـكاد كتفاهـما تتلامسـان. وبـدت عيناهـا بنيتـين جـدًا لدرجـة أقـرب إلى السـواد وشـعرها منسـدل هـذه المرة، فدائمًـا مـا تعقـده. وأثـارت فكـرة الاقـتراب مـن شـخص مـا في نفسـه القشـعريرة، ولكنـه فكـر في نفسـه: مـاذا لـو اقتربـت منهـا أكـثر؟
قال كاز: «لا أريد دعواتك».
«ماذا تريد إذًا؟».
خطـرت عـلى بالـه الإجابـات القديمـة: أريـد المـال. وأريـد الانتقـام. وأن يصمـت صـوت جـوردي في رأسي إلى الأبـد. لكـن هتـف بداخلـه صـوت مختلـف؛ صـوت عـال ملـح لا يتوقـف عـن الضجيـج في رأسـه. أريـدك أنـت يـا إينـاج. أنـت.
هـز كاز كتفيـه ونظـر بعيـدًا وقـال: «أن أمـوت وأدفـن في تابـوت ذهبـي».
تنهدت إيناج وقالت: «إذًا سأصلي لكي تحصل على كل ما تريد».
قـال كاز: «مـا زال مـا تقدمينـه مزيـدًا مـن الصلـوات. وأنـت مـا الـذي تريدينـه أيتها الشـبح؟».
«أن أدير ظهري لكتردام وألا أسمع ذلك الاسم مرة أخرى مطلقًا».
لا بـأس. ربمـا يضطـر حينهـا إلى البحـث عـن عنكبـوت جديـد، ولكنـه

على الأقل سيتخلص من هذا الإلهاء الذي تحدثه بقربها منه، من تلك المشاعر المرتبكة التي تخلفها حين تكون إلى جواره.

«سوف يضمن لك نصيبك من الثلاثين مليون كروج تحقيق تلك الأمنية». ثم وقف على قدميه وقال: «وفري صلواتك إذًا للطقس الجيد والحراس الأغبياء».

مشى كاز مشية عرجاء نحو مقدمة السفينة وقد انتابه الشعور بالضيق من نفسه والغضب من إيناج. لماذا بحث عنها؟ لماذا أخبرها عن جوردي؟ شعر بالتوتر وقلة التركيز طوال أيام. لقد اعتاد وجود الشبح بجواره - تطعم الغربان خارج نافذته وتسن سكاكينها بينما يعمل على مكتبه وتطارده بأمثالها السولية. ربما لم يرغب في عودة إيناج. بل أراد عودة نشاطاتها التي اعتادها مرة أخرى.

استند كاز إلى سور المركب. وتمنى لو لم يذكر أي شيء عن أخيه. حتى هذه الكلمات القليلة أثارت الذكريات في نفسه وصرخت طلبًا للانتباه. ما الذي قاله لجيلز في البورصة؟ أنا من نوعية الأوغاد الذين يصنعون مجدهم في منطقة باريل وحدها. كذبة أخرى وجزء آخر من الأسطورة التي نسجها حول نفسه.

بعد أن لقي والدهما حتفه دهسًا أسفل المحراث الذي نثر أحشاءه الداخلية عبر الحقل وترك وراءه أثرًا يشبه البراعم الحمراء الرطبة، باع جوردي المزرعة، التي لم تأتِ بالكثير في المقابل؛ فلقد ابتلعت الديون والحجوزات أغلبها. لكن ما تبقى كان يكفي لوصولهما إلى كتردام بأمان ومنحهما حياة متواضعة ومريحة لبعض الوقت.

كان كاز حينها لا يزال فتى صغيرًا في التاسعة من عمره متعلقًا بوالده ويخشى السفر وترك المنزل الوحيد الذي يعرفه. أمسك بيد أخيه الأكبر بقوة بينما يقطعان أميالًا عبر الريف الجميل الممتد

حتى وصلا إلى إحدى القنوات المائية الكبرى وقفزا إلى قارب كبير ينقل المنتجات إلى كتردام.

سأل كاز جوردي: «ماذا سيحدث عندما نصل إلى هناك؟».

«سأحصل على وظيفة ساع في البورصة ثم كاتب. سوف أصبح حامل أسهم ثم تاجرًا حقيقيًا؛ وحينها سأصنع ثروتي الخاصة».

«وماذا عني؟».

«سوف تذهب إلى المدرسة».

«ولم لا تذهب إلى المدرسة أنت أيضًا؟».

أجاب جوردي ساخرًا: «أنا كبير للغاية على المدرسة. وذكي للغاية كذلك».

سارت الأيام الأولى في المدينة هادئة مثلما وعد جوردي. وسار الاثنان معًا على طول المنحنى الكبير للموانئ الذي يعرف باسم ليد، ثم جنوبًا نحو ويست ستيف لرؤية جميع قصور المقامرة هناك. لم يغامر الاثنان بالتوغل كثيرًا نحو الجنوب الذي حذرهم الناس من خطورة الشوارع فيه. استأجرا غرفًا في فندق صغير منظم لا يبتعد كثيرًا عن البورصة، وجربا كل أنوع الطعام الجديد الذي تقع عليه أعينهما وتناولا الكثير من حلوى السفرجل. أحب كاز العربات التي تقدم عجة البيض؛ حيث تستطيع اختيار ما تحب من إضافات عليها.

توجه جوردي كل صباح إلى البورصة بحثًا عن عمل، طالبًا من كاز البقاء في غرفته. ليست كتردام آمنة للأطفال الذين يسيرون بمفردهم. فإنها مكان يعج باللصوص والنشالين، وهناك أيضًا رجال يختطفون الأطفال الصغار ويبيعونهم في مزاد بأعلى سعر. لذلك ظل كاز في مأمن بالداخل. دفع كرسيًا نحو الحوض وارتقاه ليشاهد نفسه في المرآة بينما يحاول تقليد خدعة إخفاء العملات المعدنية التي قام بها الساحر أمام إحدى صالات المقامرة. كان يقف هناك وكله رغبه في مشاهدته لساعات دون ملل؛ لولا جر جوردي له

بعيـدًا. أحـب كذلـك حيـل الـورق التـي مارسـها السـاحر، لكـن حيلـة إخفـاء عملـة معدنيـة أدهشـته وأبقتـه مسـتيقظًا طـوال الليـل. كيـف فعلهـا السـاحر؟ في لحظـة يـرى العملـة أمـام ناظريـه، وفي اللحظـة التاليـة تختفـي دون أثـر.

ولكن الكارثة قد حلت بلعبة أخرى تمامًا، لعبة كلب ميكانيكية.

في إحـدى الليـلات، عـاد جـوردي إلى المنـزل وهـو جائـع وفي حالـة مـن الضيـق والإحبـاط بعـد أن أهـدر يومًـا آخـر سـدى.» لا ألقـى منهـم إجابـة غـير ليسـت هنـاك وظائـف شـاغرة، ولكـن مـا يعنونـه في الواقـع هـو أنـه ليسـت هنـاك وظيفـة لصبـي مثـلي، فالوظائـف هنـاك محجـوزة للأقربـاء والمعـارف فقـط.»

لم يكـن كاز في حالـة مزاجيـة تسـمح لـه بالتخفيـف عـن أخيـه، فالسـاعات الطويلـة التـي أمضاهـا بمفـرده حبيـس غرفتـه برفقـة العمـلات المعدنيـة والأوراق أصابتـه بالحنـق، وأراد الذهـاب إلى إيسـت سـتيف لمشـاهدة السـاحر.

في السـنوات التـي تلـت، لم تفـارق التسـاؤلات رأس كاز؛ مـاذا لـو لم يغرقـه جـوردي في تلـك الأوهـام، مـاذا لـو لم يورطـه في تلـك الحيـاة، ماذا لـو اكتفـى الاثنـان بالذهـاب إلى المينـاء لمشـاهدة القـوارب، أو اكتفيـا بالتمشـية عـلى الجانـب الآخـر للقنـاة فحسـب. ربمـا رغـب في تصديـق أن ذلـك كان سـيغير الأقـدار، إلا أنـه كلـما تقـدم بـه العمـر أدرك أن الأقـدار لا تتغـير. مـر الاثنـان عـلى قـصر الزمـرد ذي اللـون الأخـضر حيث وقـف إلى جـواره تمامًـا، أمـام جولـد سـترايك مبـاشرة، صبـي يبيـع ألعابًـا عـلى شـكل كلاب ميكانيكيـة صغـيرة تعمـل بواسـطة مفتـاح برونـزي، حيـث تركـض في المـكان وتحـرك آذانهـا الصفيـح بعـد مـلء مفتاحهـا. جلـس كاز القرفصـاء وأدار جميـع المفاتيـح محـاولًا جعـل جميـع الـكلاب تتحـرك في نفـس الوقـت وبـدأ الصبـي الـذي يبيعهـا يتجـاذب أطـراف الحديـث مـع جـوردي. واتضـح أن الصبـي مـن ليـج التـي لا تبعـد كثـيرًا عـن المـكان الـذي يقيـم فيـه كاز وجـوردي، وأنـه يعـرف

رجلًا لديه وظائف خالية للسعاة - ليس في البورصة نفسها ولكن في مكتب بنهاية الشارع. وأخبر جوردي أن عليه القدوم في الصباح التالي ليذهبا معًا للتحدث مع صاحب العمل. فكم تمنى الصبي الحصول على وظيفة ساعٍ هناك هو الآخر.

في طريق العودة إلى المنزل، اشترى جوردي كوبين من الشيكولاتة الساخنة وليس كوبًا واحدًا ليتشاركاه.

قال جوردي وهما يمسكان بالأكواب الساخنة وأقدامهما معلقة فوق الجسر الصغير وأضواء ستيف تتراقص فوق المياه: «بدأ الحظ يبتسم لنا قليلًا يا كاز». نظر كاز إلى صورتهما المنعكسة فوق السطح اللامع للقناة المائية، وفكر: «أشعر بأني محظوظ الآن بالفعل».

يدعى الصبي الذي يبيع الكلاب الميكانيكية فيليب، والرجل الذي يعرفه يسمى جاكوب هيرتزون وهو تاجر صغير يمتلك مقهى بالقرب من البورصة؛ حيث يرتب لصغار المستثمرين تقسيم الأسهم في الرحلات التجارية التي تمر عبر كيرتش.

وفي اليوم التالي، صاح جوردي عندما وصلا إلى المنزل في وقت متأخر تلك الليلة «لا بد من أن ترى هذا المكان يا كاز، فهو يعج بالناس في جميع الأوقات، يتحدثون جميعًا في شؤون البورصة ويتبادلون الأخبار ويشترون ويبيعون الأسهم والعقود الآجلة، إنهم أناس عاديون يا كاز - جزارون وخبازون وعمال في الأرصفة البحرية. يقول السيد هيرتزون إن في مقدور أي شخص تحقيق الثراء فقط إذا توافرت له الفرصة المناسبة وحالفه الحظ وإذا أحاط نفسه بالأصدقاء الجيدين.»

مر الأسبوع التالي كالحلم السعيد على الأخوين، حيث عمل كل من جوردي وفيليب لصالح السيد هيرتزون كسعاة يحملون الرسائل من وإلى الرصيف البحري، وأحيانًا يقدمان الطلبات نيابة عنه في البورصة أو مكاتب المضاربة الأخرى. وخلال فترة العمل أمضى كاز وقته في المقهى، حيث سمح له الباريستا من خلف

المشرب بالجلوس على الطاولة وممارسة حيله السحرية وقدم له كل ما أراده من مشروبات الشيكولاتة الساخنة.

دعاهم السيد هيرتزون إلى منزله لتناول العشاء، وهو منزل ضخم في شارع زيلفر، ذو باب أمامي أزرق وستائر من الدانتيل الأبيض على النوافذ. كان السيد هيرتزون رجلًا ضخم الجثة ذا وجه متورد لطيف وسوالف رمادية كثيفة. داعبت زوجته مارجيت كاز وقرصته في خديه وأطعمته حساءً مصنوعًا من السجق المدخن، كما لعب كاز في المطبخ مع ابنتهما ساسكيا التي تبلغ العاشرة من عمرها ووجدها كاز أجمل فتاة رآها في حياته. مكث هو وجوردي حتى وقت متأخر من الليل يغنيان الأغاني بينما تعزف مارجيت على البيانو وكلبهم الفضي الكبير يهز ذيله، كان هذا أفضل وقت حظي به كاز منذ وفاة أبيهما، بل وسمح السيد هيرتزون لجوردي بوضع مبالغ صغيرة في أسهم الشركة. وأراد جوردي استثمار المزيد، ولكن نصحه السيد هيرتزون دائمًا بتوخي الحذر وهو يقول: «خطوات صغيرة أيها الفتى. خطوات صغيرة».

تحسنت الأمور إلى الأفضل عندما عاد صديق السيد هيرتزون من نوفي زيم. وهو قبطان سفينة تجارية في كيرتش ويبدو أنه قد صادف مزارع لقصب السكر في أحد الموانئ الزيمينية، والذي شكا له وهو في حالة ثمالة من تعرض حقول قصب السكر الخاصة به وبجيرانه للفيضان. كانت أسعار السكر منخفضة للغاية في ذلك الوقت ولكن سوف يتغير هذا الحال حتمًا عندما يكتشف الناس صعوبة الحصول على السكر خلال الأشهر القادمة وسترتفع الأسعار. أعرب صديق السيد هيرتزون عن نيته شراء قدر استطاعته من مخزون السكر قبل وصول الأخبار إلى كتردام.

همس كاز لجوردي: «يبدو لي هذا استغلالًا وغشًا».

رد جوردي غاضبًا: «ليس غشًا بالطبع، بل استفادة من المواقف واغتنام للفرص، فكيف يمكن لشخص عادي في رأيك أن يتغير حاله

إلى الأفضل دون مساعدة خارجية؟»

طلب السيد هيرتزون من جوردي وفيليب وضع طلبات الشراء في ثلاثة مكاتب مختلفة حرصًا منه على عدم لفت الأنظار لعملية الشراء الكبيرة التي قام بها. ووصلت أخبار فساد المحصول بالفعل وجلس الصبيان في المقهى ليراقبا الأسعار وهي ترتفع على اللوحة محاولين إخفاء سعادتهما.

عندما أدرك السيد هيرتزون أن أسعار الأسهم قد وصلت إلى أقصى ارتفاع ممكن لها، أرسل جوردي وفيليب بأوامر البيع والتحصيل. وعندما عاد الاثنان إلى المقهى، أعطاهما السيد هيرتزون نصيبهما من الأرباح من خزانته مباشرة.

قال جوردي لكاز وهما يخرجان إلى ليل كتردام: «ألم أخبرك يا كاز؟ كل ما نحتاج إليه هو الحظ والأصدقاء الجيدين».

وبعد بضعة أيام، أخبرهما السيد هيرتزون عن معلومة أخرى حصل عليها من صديقه القبطان الذي سمع شيئًا مشابهًا عن محصول اليوردا. قال السيد هيرتزون: «هطلت الأمطار بشدة على الجميع هذا العام. لكنها هذه المرة لم تتلف الحقول فقط بل أتلفت المستودعات كذلك بجوار الأرصفة البحرية في إيمز. لن أفوت تلك الفرصة فهناك الكثير من الأموال ينتظرني هناك وسأشارك في تلك الصفقة بثقلي».

قال فيليب: «لا بد من أن نشارك في تلك الصفقة نحن أيضًا إذًا».

ظهر العبوس على وجه السيد هيرتزون «أخشى أن هذه الصفقة غير مناسبة لكما أيتها الفتيان. أقل استثمار مسموح به أعلى بكثير مما تمتلكانه، لكن ربما تظهر صفقات أخرى في المستقبل».

انتاب فيليب غضب عارم، وصاح في وجه السيد هيرتزون مخبرًا إياه بأن هذا ليس عادلًا، وبأن مثله التجار الآخرين الجشعين في البورصة ممن يحتكرون كل الثروات لأنفسهم، بل وسب السيد هيرتزون وأطلق عليه أوصافًا بذيئة جعلت كاز ينكمش في مكانه

خوفًا. وعندما خرج فيليب غاضبًا، نظر جميع الموجودين في المقهى إلى وجه السيد هيرتزون الذي تحول إلى اللون الأحمر وظهر عليه الإحراج.

عاد السيد هيرتزون إلى مكتبه وألقى بنفسه على كرسيه في حزن قائلًا «ليس في يدي شيء حيال سير العمل وطريقة إتمام تلك الصفقات، فالمسؤولون عن إدارتها لا يسمحون إلا لكبار المستثمرين بالمشاركة فيها حتى يتحملوا المجازفة.»

وقف جوردي وكاز صامتين في ارتباك.

سألهما السيد هيرتزون: «هل أنتما أيضًا غاضبان مني؟».

أكدا له أنهما ليسا غاضبين بالطبع. وأن فيليب هو الذي تصرف بطريقة غير مناسبة.

قال السيد هيرتزون: «أنا متفهم تمامًا لسبب غضبه، فمثل هذه الفرص لا يأتي كثيرًا، ولكن ليس هناك ما يمكنني فعله.»

قال جوردي: «أنا أمتلك المال».

ابتسم السيد هيرتزون ابتسامة واسعة «جوردي؛ أنت فتى ماهر وأنا على يقين من أن هناك مستقبلًا باهرًا في انتظارك وستصبح ملك البورصة يومًا ما، لكنك لا تمتلك الأموال التي يطلبها هؤلاء المستثمرون».

ارتفع ذقن جوردي وقال: «بل أملكه، من الأموال التي حصلت عليها من بيع مزرعة أبي».

«ولكن تلك الأموال هي كل ما تملكه أنت وأخوك كاز في الحياة، وأيًا كانت الفرصة التي أمامك من تلك الصفقة لا أجد أن المخاطرة بتلك الأموال فكرة صائبة، كما أن طفلًا بعمرك لا تربطه علاقة ب»

«لست طفلًا. إنها فرصة جيدة وأنا أريد اقتناصها».

يذكر كاز دومًا تلك اللحظة عندما استحوذ الطمع على أخيه؛ الطمع الذي تملكه بسبب اليد الخفية التي وجهته ولعبت في رأسه.

تطلب الأمر وقتًا طويلًا لإقناع السيد هيرتزون. ثم عادوا جميعًا إلى منزل السيد هيرتزون في شارع زيلفر وناقشوا الأمر تفصيلًا طوال الليل، قبل أن ينام كاز ورأسه على جانب الكلب الفضي وشريط ساسكيا الأحمر في يده.

وعندما أيقظه جوردي وجد كاز أن النهار قد طلع بالفعل. طلب السيد هيرتزون من شريكه التجاري القدوم وكتابة عقد لأخذ القرض من جوردي. فعمر جوردي الصغير لن يسمح له بإتمام الصفقة بنفسه، ومن ثم سوف يقرض المال للسيد هيرتزون الذي بدوره سيعقد الصفقة نيابة عنه. قدمت لهما مارجيت ذلك الصباح شايًا بالحليب وفطائر ساخنة بكريمة حامضة ومربى. ثم اتجهوا جميعًا إلى البنك الذي يحتفظ فيه جوردي بأموال بيع المزرعة، ووقع جوردي على تنازله عنها للسيد هيرتزون.

أصر السيد هيرتزون على اصطحابهما إلى الفندق الذي ينزلان فيه واحتضنهما عند الباب. وسلم اتفاقية القرض لجوردي وأوصاه بأن يحتفظ بها في مكان أمين. قال السيد هيرتزون: «والآن يا جوردي. هناك احتمال بألا تسير تلك الصفقة وفق المخطط لها فكل شيء وارد. ولكني أثق بأنك حال حدوث ذلك لن تستخدم هذه الوثيقة لطلب أموالك. لا بد من أن نتحمل المخاطر معًا. وأنا أثق بك».

قال جوردي بابتهاج: «الاتفاق اتفاق سيد هيرتزون».

قال السيد هيرتزون بفخر وهما يتصافحان مثل التجار الحقيقيين: «أجل الاتفاق اتفاق». وأعطى جوردي لفافة كبيرة من عملة الكروج قائلًا «هذا من أجل عشاء جيد للاحتفال. عودا إلى المقهى بعد أسبوع من اليوم وسوف نراقب معًا الأسعار وهي ترتفع لنجني الأرباح».

وفي ذلك الأسبوع لعب الشقيقان ريدرسيل وسبيجكر في صالات اللعب في منطقة ليد. واشترى جوردي معطفًا جديدًا فخمًا لنفسه، وحذاءً برقبة مصنوعًا من الجلد الناعم لكاز. وتناول الاثنان

بسكويت الوافل والبطاطس المقلية واشترى جوردي كل رواية كان يتوق إلى قراءتها من إحدى المكتبات في شارع وينجن. وعندما انقضى الأسبوع، سار الاثنان إلى المقهى يدًا بيد.

خلا المقهى من الناس، ووجدا الباب الأمامي مغلقًا. وعندما وضعا وجهيهما على النوافذ القاتمة لم يجدا شيئًا - خلا المكان من الطاولات والكراسي والأوعية النحاسية الكبيرة واللوحة التي تكتب عليها أرقام صفقات اليوم، خلا المكان من كل شيء.

سأل كاز: «هل ذهبنا إلى مكان خطأ؟».

لكن يعلم كلاهما أنهما لم يخطئا المكان. مشى الاثنان في صمت وتوتر نحو منزل السيد هيرتزون في شارع زيلفر. ولم يجِب أحد على طرقاتهما على الباب الأزرق الفاتح.

قال جوردي: «ربما خرجوا لبعض الوقت». وجلس الاثنان ينتظران على السلالم لعدة ساعات حتى بدأت الشمس تميل إلى الغروب. ولكن لم يأت أو يخرج أحد من المنزل. ولم تشعل شموع في النوافذ كعادتها.

في النهاية استجمع جوردي شجاعته وطرق على باب أحد الجيران. فأجابته الخادمة التي كانت ترتدي قبعة بيضاء: «أجل؟».

«هل تعلمين أين ذهبت العائلة التي تسكن بجواركم؟ عائلة هيرتزون؟».

قطبت الخادمة حاجبيها وقالت: «أعتقد أنهم أتوا من زيرفورت في زيارة إلى هنا لبعض الوقت فحسب».

قال جوردي: «كلا. إنهم يعيشون هنا منذ سنوات. إنهم ———————»

هزت الخادمة رأسها نافية «ذلك المنزل خالٍ منذ سنة تقريبًا بعد أن انتقلت آخر عائلة سكنته. تم تأجير المنزل منذ أسابيع قليلة فحسب».

«لكن ———————»

أغلقت الخادمة الباب في وجهه.

لم يقـل كاز وجـوردي شـيئًا لأحدهــما الآخـر، ولم ينطقـا وهــما في طريقهـما إلى المنـزل أو خـلال صعودهـما الـدرج نحـو غرفتهـما الصغـيرة في الفنـدق. جلـس الاثنـان في الظـلام الحالـك لفـترة طويلـة. ووصلـت إليهـما الأصـوات عـبر القنـاة المائيـة بالأسـفل بينـما يتحـدث النـاس عـن أعمالهـم المسـائية.

قطـع جـوردي ذلـك الصمـت الرهيـب في النهايـة قائـلًا: «ربمـا حـدث لهـم شيء. ربمـا وقـع لهـم حـادث أو أنهـا مجـرد حالـة طارئـة. سـوف يكتـب إلينـا قريبًـا. سـوف يرسـل إلينـا».

في تلـك الليلـة، أخـذ كاز شريـط ساسـكيا الأحمـر مـن أسـفل وسـادته. وصنـع منـه لفافـة أنيقـة في راحـة يـده. ورقـد في سريـره وحـاول الدعـاء، ولكـن كل مـا اسـتطاع التفكـير فيـه هـو عملـة السـاحر: كيـف تكـون موجـودة أمـام عينيـه هنـاك، ثـم تختفـي دون أثـر.

ماتياس

كل ما يحدث فوق طاقة ماتياس. لم يتوقع كم سيدمى قلبه لدى رؤية موطنه للمرة الأولى منذ زمن طويل. صحيح كان لديه أكثر من أسبوع على متن المركب فيروليند ليستعد لتلك اللحظة، إلا أن عقله انشغل بالطريق الذي اختاره، وبنينا، وبالسحر الأسود الذي أخرجه من زنزانة السجن ووضعه على متن قارب يتجه شمالًا أسفل سماء شاسعة لا حدود لها؛ لا تقيده الأصفاد فحسب بل تكبله أعباء الأمور التي يوشك على فعلها كذلك.

وقع بصره على الساحل الشمالي للمرة الأولى في وقت متأخر من بعد الظهيرة، لكن سبيكت قرر انتظار حلول الغسق قبل الرسو على الشاطيء لكي يسدل عليهم الشفق غطاءه، فقرى صيد الأسماك تمتد بطول الشاطئ وقد يكشف أمرهم أحد. فرغم تنكرهم في زي صيادين، فإن الدريجز تظل مجموعة تثير الشبهات مهما تنكرت.

قضوا الليلة على متن المركب، وفي فجر اليوم التالي وجدته نينا يجمع معدات الطقس البارد التي وزعها عليهم جاسبر وإيناج. أعجب ماتياس بمرونة إيناج. فرغم علامات الإجهاد البادية عليها والهالات التي لا تزال تحيط بعينيها، تتحرك برشاقة، وإن كانت تشعر بالألم فإنها تجيد إخفاءه.

رفعت نينا مفتاحًا وقالت: «أرسلني كاز لأزيل الأصفاد عنك».

«وهل ستقيدونني مرة أخرى في الليل؟».

«الأمر بيد كاز. وبيدك أنت أيضًا كما أعتقد. اجلس».

«أعطني المفتاح فحسب».

ازدردت نينا ريقها وقالت: «لقد طلب مني أن أغير شكلك

كذلـك».

«مـاذا؟ لمـاذا؟»؛ فكـرة أن تغـير نينـا مظهـره بسـحرها بالنسـبة إليـه أمـر لا يحتمـل.

«نحـن في فـيردا الآن. إنـه يريـدك أن تبـدو أقـل... أقـل شـبهًا بنفسـك تحسبًا».

«هل تعلمين مدى كبر هذا البلد؟ إن فرصة ــــــــــــــــــ»

«احتـمالات التعـرف عليـك سـتكون عاليـة في محكمـة الجليـد وأنـا لا أسـتطيع تغيـير مظهـرك كلـه مـرة واحـدة».

«لماذا؟».

«أنـا لسـت بارعـة في عمليـة تغيـير الشـكل. إنـه جـزء مـن تدريـب الكوربورالينـكي ولم يسـتهوِني الأمـر».

أصدر ماتياس شخرة اعتراض.

«ماذا هناك؟».

«لم أسمعك تعترفين من قبل بعدم إجادتك لأي شيء».

«حسنًا، هذا أمر نادر الحدوث أصلًا».

فـزع ماتيـاس حـين ارتسـمت عـلى وجهـه ابتسـامة جـراء تعليـق نينـا، أكـثر إنسـان يحمـل لـه ضغينة عـلى وجـه الأرض، ولكـن كان من السـهل عليـه وأد بسـمته في مهدهـا حـين تذكـر أنهـا سـتغير مـن شـكل وجهـه. سـألها: «مـاذا يريـدك بريكـر أن تفعـلي بي؟».

«ليـس الكثـير. سـوف أغـير لـون عينيـك وشـعرك - أو مـا تبقـى منـه. ليسـت تغيـيرات دائمـة».

«لا أريد هذا». لا أريدك بقربي.

«لـن يسـتغرق الأمـر وقتًـا طويـلًا ولـن تجـده مؤلمًـا، لكـن إذا أردت أن تتحـدث عـن المسـألة مـع كاز...»

قـال ماتيـاس وهـو يقـوي نفسـه: «حسـنًا». كان مـن غـير المجـدي أن ينـاقـش بريكـر في قـراره، فهـو قـادر ببسـاطة أن يسـخر مـن ماتيـاس بوعـد العفـو. التقـط ماتيـاس دلـوًا وقلبـه وجلـس عليـه وقـال: «هـل

أسـتطيع الحصـول عـلى المفتـاح الآن؟».

أعطتـه المفتـاح؛ ففـك القيـود عـن معصميـه وأخـذت نينـا تفتـش في صنـدوق لـه مقبـض أحضرتـه معهـا، والـذي احتـوى عـلى العديـد مـن الأدراج الصغـيرة الممتلئـة بالمسـاحيق والأصبـاغ الموضوعـة في برطمانـات صغـيرة. وأخرجـت مـن أحـد الأدراج وعـاءً يحتـوي عـلى شيء أسـود.

«ما هذا؟».

«إنــه كحــل أســود». اقتربــت منــه وأمالــت ذقنــه لأعــلى بطــرف إصبعهـا وقالـت: «أرخِ فـكك. ولا تـصر عـلى أسـنانك بـلا سـبب».

عقد ماتياس ذراعيه.

بـدأت نينـا تضـع بعـض الكحـل فـوق فـروة رأس ماتيـاس وتنهـدت تنهيـدة حزينـة وقالـت بصـوت مسرحـي وهـي تعمـل: «لمـاذا لا يـأكل ماتيـاس الدروسـكل الشـجاع اللحـم؟ إنهـا قصـة حزينـة بالفعـل يـا صغـيرتي. لقـد خلعـت غريشـا مزعجـة كل أسـنانه ولا يمكنـه الآن سـوى تنـاول حلـوى البودينـج ».

قال متذمرًا: «توقفي عن المزاح».

«ماذا؟ أبقِ رأسك مائلًا للوراء».

«ماذا تفعلين؟».

«أحـول حواجبـك ورموشـك إلى اللـون الداكـن. مثلـما تفعـل الفتيـات قبـل الحفـلات». ربمـا ظهـر عليـه التجهـم لأنهـا انفجـرت ضاحكـة وقالـت: «تلـك النظـرة عـلى وجهـك!».

مالـت نينـا إلى الأمـام ولمسـت خصـلات مـن شـعرها البنـي خديـه وهـي تمـزج اللـون مـن الكحـل بحواجبـه. ووضعـت يدهـا عـلى خـده. تمتمـت قائلـة: «أغلـق عينيـك». تحـرك إبهاماهـا فـوق رموشـه وأدرك ماتيـاس أنـه يحبـس أنفاسـه.

قـال ماتيـاس: «لم تعـد رائحـة الـورد تنبعـث منـك»، ثـم أراد أن يـضرب نفسـه عـلى هـذا التعليـق. مـن المفـترض ألا يهتـم برائحتهـا.

«ربما تبدو رائحتي مثل رائحة القارب».

«كلا، إن رائحتها حلوة مثالية مثل... «حلوى التوفي؟».
اتجهـت ببصرهـا بعيـدًا كأنهـا تشـعر بالذنـب وقالـت: «طلـب منـا كاز حـزم كل مـا نحتـاج إليـه مـن أجـل الرحلـة. وتحتـاج الفتـاة إلى أن تـأكل». ومـدت يدهـا في جيبهـا وأخرجـت كيسًـا مـن حلـوى التـوفي. قالـت: «هـل تريـد واحـدة؟».
نعم. «كلا».
هـزت كتفيهـا وقذفـت واحـدة في فمهـا. ودارت عيناهـا إلى الـوراء وتنهـدت بسـعادة وقالـت: «أحـب مذاقهـا».
في وقـت آخـر ربمـا اسـتفزه هـذا الموقـف، إلا أنـه يعـرف أنهـا قـد لا تتوقـف عـن الأكل طـوال اليـوم. فهـذا أحـد الأمـور التـي أحبهـا كثـيرًا في نينـا - قدرتهـا عـلى الاسـتمتاع بـكل شيء سـواء كان حلـوى التـوفي أو المـاء البـارد مـن نهـر أو لحـم الأيائـل المجفـف.
قالـت وهـي تلـوك الحلـوى وتخـرج زجاجـة مـن الصفيـح مـن حقيبتهـا: «العينـان الآن. يجـب أن تبقيهـما مفتوحتـين».
سألها ماتياس بتوتر: «ما هذا؟».
«صبغـة طورتهـا غريشـا تسـمى جينيـا سـافين. إنهـا أكـثر الطـرق أمانًـا لتغيـير لـون العين».
ومـرة أخـرى، مالـت نينـا إلى الأمـام. وتـورد خداهـا بسـبب الـبرد وفتحـت فمهـا قليـلًا. واقتربـت شـفتاها عـلى بعـد بوصـات قليلـة مـن شـفتيه. لـو اعتـدل ماتيـاس في جلسـته لقبلهـا.
قالت: «يجب أن تنظر إليَّ».
أنـا أنظـر إليـك بالفعـل. حـول ماتيـاس بـصره إليهـا وقـال لنفسـه: «هـل تتذكريـن هـذا الشـاطئ يـا نينـا؟»، وأراد أن يسـألها رغـم أنـه يعـرف الإجابـة، يعـرف أنهـا تتذكـره.
«ما اللون الذي تغيرين عيني إليه؟».
«ششـش. هـذا صعـب». وضعـت نينـا القطـرات عـلى أصابعهـا وقربتهـا مـن عينيـه.

«لماذا لا تضعينه داخل عيني فحسب؟».
«لماذا لا تتوقف عن الكلام؟ هل تريد أن أصيبك بالعمى؟».
توقف ماتياس عن التحدث.
وفي النهاية تراجعت نينا وأخذت تتفحص ملامحه وقالت: «لونها الآن بني». ثم غمزت وقالت: «مثل حلوى التوفي».
«ما الذي تنوين فعله بشأن بو يول- بايور؟».
اعتدلت نينا في وقفتها وابتعدت قليلًا وقد تغيرت تعبيرات وجهها «ماذا تعني؟».
شعر ماتياس بالأسف عندما اختفت طريقتها العفوية، ولكنه لا يهتم بذلك الآن. نظر من فوق كتفه ليتأكد من عدم وجود أحد يتنصت عليهما، وقال: «أنت تعرفين ما أقصده بالضبط. أنا لا أصدق لثانية واحدة أنك ستتركين هؤلاء الأشخاص يسلمون بو يول- بايور إلى مجلس تجار كيرتش».
أعادت نينا الزجاجة إلى أحد الأدراج الصغيرة وقالت: «يجب علينا أن نعيد ما فعلناه مرتين على الأقل قبل أن نصل إلى محكمة الجليد حتى يصبح اللون غامقًا للدرجة المطلوبة. اجمع أغراضك. طلب منا كاز الاستعداد للمغادرة خلال ساعة». وأغلقت الحقيبة والتقطت الأصفاد. ثم غادرت.

بحلول وقت توديعهم لطاقم المركب، تحولت السماء من اللون الوردي إلى الذهبي.
صاح سبيكت: «أراكم في ميناء ديرهولم. لا حداد».
أجاب الآخرون: «لا جنازات». أناس غريبة.
أحبطهم صمت بريكر المطبق حيال الطريقة التي سيصلون بها إلى بو يول- بايور وطريقة خروجهم من محكمة الجليد برفقة هدفهم، لكنه أوضح أنهم حالما نجحوا في مهمتهم سيكون المركب فيروليند طريقهم للهروب؛ فإنه يحمل أوراقًا عليها ختم كيرتش

تشير إلى أن كل الرسوم مدفوعة وكل الاستمارات مكتوبة، وتفيد بأن المركب يحمل مندوبين من شركة هانرادت باي لنقل الفراء والبضائع من فيردا إلى زيرفورت وهي مدينة وميناء في جنوب كيرتش.

بدؤوا المسيرة من الشاطئ الصخري وتسلقوا الجرف فوق طبقة سميكة من الجليد الذي حافظ على قوامه رغم قدوم الربيع، وصعب عليهم عملية التسلق. توقفوا لالتقاط أنفاسهم لدى بلوغ قمة الجرف، وكان لا يزال بإمكانهم رؤية فيروليند في الأفق وتملأ أشرعتها نفس الرياح التي تضرب وجوههم.

قالت إيناج: «بحق القديسين. إننا نقوم بهذا بالفعل».

قال جاسبر: «لقد قضيت كل دقيقة في كل يوم بائس أتمنى الخروج من ذلك المركب. لماذا أفتقده فجأة الآن؟».

ضرب ويلان الأرض بحذائه ذي الرقبة الطويلة: «ربما لأن أقدامنا فيما يبدو ستتجمد من البرودة».

قال كاز: «عندما نحصل على مالنا، يمكنك إشعال عملات الكروج لتشعر بالدفء. هيا بنا». وكان قد ترك عكازه على متن فيروليند واستبدل به عصا أقل إثارة للريبة ولفت الانتباه. وكذلك ترك جاسبر آسفًا مسدساته الثمينة ذات المقابض اللؤلؤية، وأخذ زوجًا من المسدسات غير المزينة، وفعلت إيناج المثل مع مجموعتها الاستثنائية من السكاكين والخناجر واحتفظت بالسكاكين التي تستطيع التخلي عنها عندما يدخلون السجن.

نظر جاسبر إلى بوصلته واتجهوا جنوبًا نحو مسار يقودهم إلى طريق التجارة الرئيسي. قال جاسبر: «سوف أدفع لأحدهم مقابل أن يشعل لي عملات الكروج ».

مشى كاز بجانبه وقال: «ولماذا لا تدفع لشخص لكي يدفع لشخص آخر لكي يشعل عملات الكروج لك؟ هذا ما يفعله اللاعبون الكبار».

«هل تعرف ما يفعله الرؤساء الكبار؟ إنهم يدفعون لشخص ما لكي يدفع لشخص آخر لكي...»

خفتت أصواتهما وهما يمشيان في الأمام وكاز والآخرون يسيرون خلفهما. لكن ماتياس قد لاحظ أن كل واحد منهم ألقى نظرة أخيرة على فيروليند قبل أن يختفي وراءهم. كان ذلك القارب جزءًا من كيرتش التي تعد قطعة من الوطن بالنسبة إليهم، وهذا الجزء الأخير المألوف يبتعد كل لحظة.

شعر ماتياس نحوهم بشيء من التعاطف، ورغم ذلك أقر ماتياس لنفسه، بينما كانوا يشقون طريقهم بحلول الصباح، بأنه يستمتع برؤية هؤلاء الصعاليك يرتجفون ويواجهون بعض الصعوبة هذه المرة. ظنوا أنهم يعرفون معنى البرودة، ولكن الشمال الأبيض يمتلك من البرودة ما يجبر الغرباء على إعادة تقييم مفهومهم عن البرد القارس. شاهدهم يتعثرون في خطواتهم ويتخبطون بصورة مضحكة في أحذيتهم ذات الرقاب الطويلة، محاولين العثور على طريقة للمشي فوق تلك القشرة الصلبة من الثلج، وسرعان ما سبقهم ماتياس وسار في المقدمة ليضبط سرعتهم، لكن جاسبر استمر في الاستعانة ببوصلته.

توقف ماتياس وأشار إلى ويلان وقال: «ضع الـ ـــــــــ». لم يعرف ماتياس كيف يقول «نظارات» أو «ثلج» بلغة كيرتش، فليست من الكلمات المتداولة في السجن. فقال: «غطِّ عينيك، وإلا فإنك ستخسرهما إلى الأبد». يصاب الرجال بالعمى في أقصى الشمال هذا، ويفقدون شعورهم بشفاههم وآذانهم وأنوفهم وأيديهم وأقدامهم أيضًا. فالأرض قاحلة وقاسية، هذا ما يراه معظم الناس. لكن ماتياس رآها جميلة. يحمل الثلج روح الرمز ديجل. ويحمل لونًا وشكلًا بل ورائحة إن سعيت للبحث عنها.

مضى ماتياس قدمًا شاعرًا بالثبات، كأن ديجل قادر على سماعه وإنزال السكينة على عقله المضطرب. أعاد له الثلج ذكريات

الطفولة والصيد مع والده، حيث عاشوا بعيدًا في الجنوب بالقرب من هالمهيند و لم يختلف ذلك الجزء من فيردا في الشتاء كثيرًا عن هذا: فكلاهما عالم من اللونين الأبيض والرمادي تتخلله حدائق من الأشجار ذات سيقان سوداء، ومجموعات بارزة من الصخور التي يبدو كأنها ظهرت من العدم إلى جوار حطام السفن على أرضية المحيط الخالية.

بدا اليوم الأول في رحلته معهم كعملية تطهير لنفسه - بحديثه القليل إليهم، وبالسكون الأبيض للشمال الذي رحب بعودة ماتياس دون عتاب. توقع ماتياس الكثير من الشكاوى منهم بسبب البرودة وصعوبة السير، ولكن حتى ويلان نفسه مشى مطأطأ رأسه دون تذمر. فهم ماتياس: «إنهم جميعًا ناجون. إنهم يتكيفون». وعندما بدأت الشمس في الغروب، تناولوا حصصهم من اللحم البقري المجفف والخبز الجاف وارتموا داخل خيامهم دون أن ينطقوا بكلمة واحدة.

ولكن الصباح التالي وضع حدًّا للهدوء والسكينة التي نزلت إلى روح ماتياس وإحساسه بالسلام النفسي. وبعد أن ابتعدوا عن المركب وطاقمه بمسافة كافية، أصبح كاز مستعدًّا للخوض في تفاصيل الخطة.

قال كاز وهم يحملون حقائبهم ومستمرين في سيرهم جنوبًا: «لو فعلنا هذا على نحو صحيح، فسوف ندخل محكمة الجليد ونخرج منها قبل أن يدرك الفيردانيون حتى أن عالمهم الفذ قد اختفى. عندما ندخل إلى السجن سيتم أخذنا إلى منطقة الاحتجاز تحت مبنى الزنزانات في انتظار التهم الموجهة إلينا. ولو اتضح أن ماتياس محق وأن الإجراءات لا تزال كما هي كسابق عهدها، سوف تمر الدوريات عبر زنزانات الاحتجاز ثلاث مرات في اليوم لعد الرؤوس. وحالما نخرج من الزنزانات سيكون لدينا ست ساعات على الأقل للعبور إلى السفارة وتحديد مكان بول- بايور في الجزيرة البيضاء

وأخـذه إلى الميناء قبـل أن يدركـوا أن أي شـخص مفقـود».

سأل ماتياس: «وماذا عن السجناء الآخرين في زنزانات الاحتجاز؟».

«سوف نتولى أمرهم».

ظهـر العبـوس عـلى وجـه ماتيـاس، لكنـه لم يشـعر بالدهشـة بشـكل خـاص. حالمـا يدخلـون زنزانـات الاحتجـاز هـذه سـيصبح كاز وأفـراد عصابتـه جميعًـا في أضعـف حالاتهـم. لـن يتطلـب الأمـر سـوى كلمـة واحـدة مـن ماتيـاس إلى الحـراس ليقـضي عـلى جميـع مخططاتهـم. فهـذا مـا سـيفعله بـروم ومـا سـيختاره أي رجـل شريـف. آمـن جانـب مـن ماتيـاس أن العـودة إلى فـيردا سـتعيده إلى رشـده وتعطيـه القـوة للتخـلي عـن سـعيه الجنـوني، ولكـن عودتـه لم تـرده إلى رشـده فحسـب، بـل جعلتـه يـزداد اشـتياقًا إلى وطنـه وإلى الحيـاة التـي عاشـها في المـاضي بـين إخوانـه الدروسـكل.

أردف كاز شرح مخططـه «وبمجـرد خروجنـا مـن الزنزانـات، سـيأتي ماتيـاس وجاسـبر بحبـل مـن الإسـطبلات بينـما نقـوم أنـا وويـلان بتحريـر نينـا وإينـاج مـن منطقـة احتجـاز النسـاء. سـنلتقي جميعًـا في القبـو. هـذا هـو المـكان الـذي توجـد فيـه المحرقـة وحيـث تبقـى قاعـة الغسـيل خاليـة بعـد إغـلاق السـجن ليـلًا. وبينـما تقـوم إينـاج بالتسـلق سـنبحث أنـا وويـلان في قاعـة الغسـل عـن أي شيء يمكـن اسـتخدامه لصناعـة المتفجـرات. وفي حـال اكتشـافنا أن الفيردانيـين قـد قـرروا إخفـاء بـو يـول- بايـور في السـجن وسـهلوا مـن المهمـة علينـا، سـوف تبحـث نينـا وماتيـاس وجاسـبر في زنزانـات الطابـق العلـوي».

سـأل جاسـبر: «نينـا وماتيـاس؟ بعيـدًا عـن التشـكيك في احترافيـة أي منهـما، لكـن هـل هـذان زوجـان مثاليـان للعمـل معًـا في فريـق؟».

قمـع ماتيـاس غضبـه. فجاسـبر محـق، لكنـه كـره أن يتحـدث أحـد عنـه بهـذه الطريقـة.

«يعـرف ماتيـاس الإجـراءات المتبعـة في السـجن، ونينـا قـادرة عـلى التعامـل مـع الحـراس دون اشـتباك وفـوضى. ومهمتـك هـي منعهـما مـن

قتـل أحدهـما الآخـر».

«هل هذا لأنني الدبلوماسي في هذه المجموعة؟».

قـال كاز: «لا يوجـد دبلوماسـيون في هـذه المجموعـة. الآن اسـتمعوا إليّ. يختلـف باقـي السـجن عـن منطقـة الاحتجـاز، حيـث تمـر الدوريـات في مبنـى الزنزانـات كل سـاعتين، ونحـن لا نريـد التعـرض لخطـر إطـلاق أحدهـم لجـرس الإنـذار، لذلـك علينـا التحـلّي بالـذكاء. سننسـق كل تحركاتنـا وفـق دقـات سـاعة بـرج إيلـدر كلـوك. موعـد خروجنـا مـن الزنزانـات بعـد أن تـدق السـاعة معلنـة حلـول الحاديـة عـشرة، وسـنصل إلى أعـلى المحرقـة والسـطح بحلـول السـاعة الثانيـة عـشرة. لا اسـتثناءات».

سأل ويلان: «وماذا بعد ذلك؟».

«سـوف نعـبر إلى سـطح قطـاع السـفارة ونصـل إلى الجـسر الزجاجـي مـن هنـاك».

قـال ماتيـاس وهـو غـير قـادر عـلى إخفـاء الإعجـاب مـن صوتـه: «سـنصبح بذلـك عـلى الجانـب الآخـر مـن نقـاط التفتيـش. وسـيفترض الحـراس عـلى الجـسر أننـا مررنـا عـبر بوابـة السـفارة وأن أوراقنـا خضعـت للفحـص».

قطـب ويـلان حاجبيـه وقـال: «هـل سـيفترض ذلـك ونحـن بالملابـس الرسـمية للسـجن؟».

قال جاسبر: «هنا تأتي المرحلة الثانية. التمويه».

قـال كاز: «هـذا صحيـح. سـوف نسـتعير أنـا وإينـاج ونينـا وماتيـاس ملابـس مـن أحـد الوفـود - وملابـس إضافيـة صغـيرة مـن أجـل صديقنـا بـو يـول- بايـور عندمـا نعـثر عليـه - ونعـبر الجـسر الزجاجـي. علينـا أن نحـدد مـكان يـول- بايـور وأن نعيـده إلى السـفارة يـا رفـاق. نينـا،إن توافـر لدينـا وقـت فسـتغيرين شـكله لأكـبر درجـة ممكنـة، مـا دامـت أجـراس الإنـذار لم تنطلـق فلـن يلاحـظ أحـد وجـود شـاو إضـافي بـين الضيـوف».

لـو لم ينجـح ماتيـاس في الوصـول إلى العـالم أولًا، أو كان قـد لقـي حتفـه لـدى وصـول أي منهـم إليـه، لـن يسـتطيع كاز تحميـل ماتيـاس المسـؤولية. ورغـم ذلـك، سـيحصل ماتيـاس عـلى العفـو الـذي يريـد. ولكـن مـاذا سـيحدث لـو لم يتمكـن مـن الانفصـال عـن المجموعـة مطلقًـا؟ ربمـا يقـع حينهـا حـادث عـلى مـتن السـفينة ليـول- بايـور خـلال رحلـة العـودة.

قال جاسبر: «سوف ينتهي بي الأمر إذًا عالقًا مع ويلان».

«مـا لم تكـن أصبحـت تمتلـك معرفـة موسـوعية بالجزيـرة البيضـاء فجـأة، أو اكتسـبت قـدرة عـلى فتـح الأقفـال أو تسـلق الجـدران الصعبة، أو اسـتخلاص المعلومـات السريـة مـن مسـؤولين عـالي المسـتوى، نعـم سـتبقى مـع ويـلان. عـلاوة عـلى أننـي أريـد مجموعتـين مـن الأيـدي لصناعـة القنابـل».

نظـر جاسـبر أسـفًا إلى مسدسـاته: «يـا لـه مـن هـدر لمثـل هـذه القـدرات!».

عقـدت نينـا ذراعيهـا وقالـت: «لنفـترض أن كل هـذا نجـح. كيـف سـنخرج مـن هنـاك؟».

قـال كاز: «سـوف نسـير إلى الخـارج ببسـاطة. تذكـروا جـمال هـذه الخطـة. هـل تذكـرون مـا ذكرتـه لكـم عـن توجيـه انتبـاه الهـدف؟ عنـد بوابـة السـفارة، سـتتوجه كل الأعـين إلى الضيـوف القادمـين لمحكمـة الجليـد. ولـن يشـكل المغـادرون أي خطـورة أمنيـة».

سأل ويلان: « ما فائدة القنابل إذًا؟».

«إجـراءات احتياطيـة. هنـاك طريـق يمتـد لسـبعة أميـال بـين محكمـة الجليـد والمينـاء. لـو لاحـظ أحـد غيـاب بـو يـول- بايـور، فسـوف نضطـر إلى تغطيـة هـذه المنطقـة بسرعـة». ورسـم خطًـا عـلى الثلـج بعصـاه. ثـم أكمـل قائـلًا: «يجتـاز الطريـق الرئيـسي ممـرًا ضيقًـا. وحينهـا سـنفجر الجـسر، فـلا يسـتطيع أحـد ملاحقتنـا».

وضـع ماتيـاس رأسـه بـين يديـه وتخيـل الخـراب الـذي توشـك هـذه

المخلوقات الدنيئة على إحداثه في عاصمة بلاده.

قال كاز: «إنه سجين واحد يا هيلفار».

أضاف ويلان: «وجسر واحد»

وأضاف جاسبر: «وأي شيء نضطر إلى تفجيره بينهما».

قال ماتياس غاضبًا: «ليخرس الجميع».

هز جاسبر كتفيه وقال: «فيردانيون».

قالت نينا: «لا يعجبني أي من هذا».

ارتفع حاجبا كاز وقال: «حسنًا، على الأقل وجدت أنت وهيلفار شيئًا تتفقان عليه».

استمرت المجموعة في طريقها متوغلين أكثر نحو الجنوب، ليختفي الشاطئ من خلفهم وتزداد رقع الغابات التي تشق الثلج أمامهم، وظهرت لمحات من الأرض السوداء أسفل أقدامهم وآثار الحيوانات التي تعيش هناك في العالم الحي لقلب ديجل النابض على الدوام. ولم تتوقف أسئلتهم التي انهالت على ماتياس.

«كم عدد أبراج الحراسة في الجزيرة البيضاء مرة أخرى؟».

«هل تعتقد أنهم يحتجزون يول- بايور في القصر؟».

«ماذا لو كانوا يحتجزونه عند ثكنات الحراسة في الجزيرة البيضاء.؟».

دار بين جاسبر وويلان نقاش حول نوعية المتفجرات التي يمكن تجميعها من إمدادات الغسيل في السجن، ومدى قدرتهم على أن يضعوا أيديهم على بعض البارود في قطاع السفارة. وحاولت نينا مساعدة إيناج في تقدير السرعة اللازمة لتسلق برج المحرقة وتثبيت الحبل ومساعدة الآخرين على الصعود لأعلى.

أخذوا في تلقين بعضهم البعض تفاصيل التصميم المعماري للمكان، وإجراءات المحكمة، وعدد حراس البوابات الثلاث للجدار الخارجي.

«أول نقطة تفتيش؟».

«أربعة حراس».

«ثاني نقطة تفتيش؟».

«ثمانية حراس».

«بوابات الحائط الخارجي؟».

«أربعة حراس عندما تكون البوابة متوقفة عن العمل».

وبالنسبة إلى ماتياس تحولوا إلى فرقة مجنونة من الغربان تصيح في أذنه: خائن، خائن، خائن.

سألهم كاز: «ماذا عن البروتوكول الأصفر؟».

أجابت إيناج: «اضطراب في القطاع».

«البروتوكول الأحمر؟».

«اختراق القطاع».

«البروتوكول الأسود؟».

قال جاسبر: «حكم علينا جميعًا بالهلاك؟».

قال ماتياس وهو يشد غطاء الرأس عليه أكثر ويمضي قدمًا: «تعرفون الآن كل شيء تقريبا». لقد جعلوه يقلدالأصوات المختلفة للأجراس هناك. كان أمرًا ضروريًا لكنه شعر بمدى حماقته حين أخذ ينشد: «بينج بونج بينج بينج بونج». لا انتظروا «بينج بينج بونج بينج بينج».

قال جاسبر وهو يسير وراءه: «عندما أصبح غنيًا، سوف أذهب إلى مكان ما لرؤية الثلج مرة أخرى. ماذا عنك ويلان؟».

«لا أعرف ما سأفعل بالضبط».

«أعتقد أن عليك شراء بيانو ذهبي ———»

«ناي».

«وتعزف في الحفلات الموسيقية على أحد مراكب المتعة. يمكنك وضعه في القناة أمام منزل أبيك».

أضافت إيناج: «ويمكن لنينا الغناء».

عقبـت نينـا: «سـنكون ثنائيًـا خارقًـا. سـيضطر أبـوك إلى التحـرك لإيقـاف المهزلـة».

صـوت نينـا مريـع ويكـره معرفـة ذلـك، لكنـه لا يسـتطيع مقاومـة النظـر إليهـا مـن فـوق كتفـه. سـقط غطـاء رأس نينـا إلى الـوراء وهربـت خصـلات مـن طـوق شـعرها.

قـال ماتيـاس لنفسـه بإحبـاط: «لمـاذا أسـتمر في فعـل هـذا؟»، لقـد تكـرر الأمـر عـلى مـتن المركـب أيضًـا. أخـبر نفسـه بـأن يتجاهلهـا، ولكنـه يجـد عينيـه تبحثـان عنهـا بعـد ذلـك.

مـن الحماقـة أن يتظاهـر بأنهـا لا تشـغل بالـه. مـشى هـو ونينـا في هـذه المنطقـة مـن قبـل. ولـو أن حسـاباته صحيحـة، فإنهـم لم يبتعـدوا سـوى قليلـة أميـال فقـط عـن المـكان الـذي أنزلتهـم فيـه فيرولينـد عـلى الشـاطئ. بـدأ الأمـر بعاصفـة عاتيـة، وبطريقـة مـا لم تنتـه هـذه العاصفـة بداخلـه حتـى الآن. دخلـت نينـا حياتـه مـع الريـاح والأمطـار وقلبـت عالمـه رأسًـا عـلى عقـب. واضطربـت أمـوره منـذ ذلـك الحـين.

هبـت العاصفـة مـن العـدم وأخـذت تراقـص بالسـفينة تتقاذفهـا فـوق الأمـواج. وتلاعـب بهـا البحـر حتـى سـئم مـن اللعـب، ثـم جرهـا إلى الأسـفل في القـاع لتختلـط الحبـال بالأشرعـة وبصيحـات الرجـال.

تذكـر ماتيـاس ظلمـة الميـاه والـبرد القـارس وصمـت القـاع. الـشيء التـالي الـذي يتذكـره أنـه كان يبصـق المـاء المالـح ويلهـث طلبًـا للهـواء. وضـع شـخص مـا ذراعـه عـلى صـدره وتحـركا عـبر الميـاه. لم يحتمـل الـبرد ولكنـه رغـم ذلـك صمـد أمامـه.

سـمع صـوت أحدهـم يقـول لـه بلغـة فيردانيـة متقنـة سـليمة مثـل النبـلاء: «اسـتيقظ يـا كتلـة العضـلات البائـس». فـأدار رأسـه وصعـق عندمـا رأى السـاحرة الصغـيرة التـي أمسـكوا بهـا عـلى السـاحل الجنـوبي لجزيـرة وونديرنـج تمسـك بـه وتحـدث نفسـها بالرافكانيـة. إنـه يعـرف أنهـا ليسـت كاليشـية. لقـد تحـررت مـن قيودهـا والأقفـاص بطريقـة مـا.

أصيب كل جزء فيه بالذعر ولو كان أقل صدمة أو خدرًا، لقاومها.
قالت بالفيردانية وهي تلهث: «تحرك. بحق القديسين! ماذا يطعمونك؟ أنت ثقيل مثل عربة القش».
ناضلت بقوة وسبحت من أجل كليهما. لقد أنقذت حياته. ولكن لماذا؟
دار بين ذراعيها وضرب الماء برجليه ليساعد على دفعهما إلى الأمام. وأصابته الدهشة عندما سمعها تتنهد بصوت خفيض وتقول: «شكرًا أيها القديسين. اسبح أيها الأحمق الكبير».
سأل: «أين نحن؟».
أجابت والفزع واضح في صوتها: «لا أعلم».
سبح بعيدًا عنها.
صرخت: «كلا. لا تبتعد عني».
لكنه اندفع مبتعدًا وتحرر من قبضتها. وعندما ترك ذراعيها، أحس بالبرودة تجتاح جسده. ضربه ألم مفاجئ وحاد وتباطأت حركة أطرافه. واستخدمت هي سحرها القذر لتبقيه دافئًا. مد ذراعه نحوها في الظلام.
صاح ماتياس وهو يشعر بالخجل من الخوف الظاهر في صوته: «دروسجي؟»، وهذه الكلمة الفيردانية تعني ساحرة لكنه لا يعرف لها اسمًا آخر.
صاحت نينا: «دروسكل!»، ثم شعر بأصابعها تلمس أصابعه في الماء الأسود. أمسك بها وجذبها نحوه. لم يبد جسدها دافئًا تمامًا، لكن حالما تلامس الاثنان تراجع الألم في أطرافه. شعر بالامتنان والاشمئزاز في الوقت ذاته.
قالت نينا وهي تلهث: «يجب أن نجد أرضًا يابسة. لا أستطيع السباحة وإبقاء قلبينا يخفقان».
قال ماتياس: «أنا سأسبح. أنت.. أنا سأسبح». وجذب ظهرها إلى صدره والتفت ذراعه تحت ذراعها وجسدها مثلما كانت تمسك به

منذ لحظات قليلة كأنها تغرق. سيغرق كلاهما أو ربما يحدث لهما ذلك قريبًا إن لم يتجمدا حتى الموت أولًا.

أخذ ماتياس يضرب الماء برجليه بطريقة منتظمة ويحاول عدم إهدار الكثير من طاقته، لكن عرف كلاهما أن هذا ربما لا يفيد. لم يبتعدا للغاية عندما هبت العاصفة، لكن الظلام حالك. فربما اتجها إلى الساحل أو تعمقا أكثر في البحر.

لم يكن هناك صوت باستثناء صوت تنفسهما وطرطشة الماء وتقلب الأمواج. استمر ماتياس في التحرك -رغم احتمالية تحركهما في دائرة- واستمرت نينا في الحفاظ على تنفسهما. لم يعرف أيهما سوف يستسلم أولًا.

سألها في النهاية: «لماذا أنقذتني؟».

«توقف عن إهدار طاقتك. لا تتحدث».

«لماذا فعلتِ هذا؟».

قالت بغضب: «لأنك إنسان».

أكاذيب. لو وصل الاثنان إلى اليابسة، فسوف تحتاج إلى فيرداني ليساعدها على النجاة، شخص يعرف الأرض رغم أنه من الواضح أنها تعرف اللغة. بالطبع تعرفها. جميعهم مخادعون وجواسيس مدربون على اصطياد أناس مثله، أناس لا يمتلكون مواهب غير طبيعية مثلهم. إنهم مفترسون.

استمر ماتياس في السباحة، لكن أصيبت عضلات رجليه بالإرهاق وشعر بالبرودة تزحف إليه.

«هل استسلمت أيتها الساحرة؟».

أحس ماتياس بأنها ترتجف بسبب الإرهاق واندفعت الدماء إلى أصابع يديه وقدميه مرة أخرى.

«سأعادل سرعتك أيها الدروسكل. لو متنا، سيصبح هذا عبئًا تحمله في الحياة الآخرة».

ارتسمت ابتسامة صغيرة على وجه ماتياس رغمًا عنه. من المؤكد

أنها لا تفتقر إلى الشجاعة. كان ذلك جليًا عندما حبسها.

وهكذا سارت تلك الليلة؛ حيث أخذ الاثنان يسخران أحدهما من الآخر كلما شعر أحدهما بالضعف. لم يسمعا إلا صوت البحر والثلج وطرطشة الماء بين حين وآخر الذي ربما يكون مجرد موجة أو مخلوق جائع قادم نحوهما.

همست الساحرة عندما طلع الفجر بتفاؤل وبهجة: «انظر هناك». وهناك بعيدًا، استطاع أن يرى نتوءًا بارزًا للثلج ورقعة سوداء مباركة لأحد الشواطئ. إنها اليابسة.

لم يهدر الاثنان وقتًا في الراحة أو الاحتفال. أمالت الساحرة رأسها للوراء وأراحته على كتفه وهو يسبح إلى الأمام بوصة وراء أخرى بائسة وكل موجة تسحبهما إلى الوراء، كأن البحر لا يرغب في إخلاء سبيلهما. وفي النهاية لمست أقدامهما القاع وسبح الاثنان وزحفا إلى الشاطئ. انفصل الاثنان وشعر جسد ماتياس بالإنهاك وهو يجر نفسه نحو الصخور السوداء على الأرض الميتة المتجمدة.

استحال عليهما المشي في البداية. تحرك كلاهما بوهن وتعثرا وهما يحاولان إجبار أطرافهما على إطاعتهما بينما يرتجفان من البرد. وفي النهاية، استطاع ماتياس الوقوف على قدميه. ارتكزت نينا على يديها وركبتيها ورأسها منحنٍ وشعرها مبتل ومتشابك في فوضى تغطي وجهها. وأدرك ماتياس أنها سترقد ولن تنهض مرة أخرى.

مشى خطوة ثم أخرى، ثم دار على عقبيه. أيًا كانت أسبابها لقد أنقذت حياته الليلة الماضية ليس مرة واحدة فقط بل مرة تلو أخرى. إنه مدين لها بحياته.

مشى ماتياس بخطوات ثقيلة إليها ومد إليها يده.

وعندما تطلعت إليه، تحولت تعبيرات وجهها إلى خريطة بائسة للبغض والإرهاق. رأى ماتياس في وجهها الخزي الذي يأتي بصحبة الامتنان وعرف في هذه اللحظة الصغيرة أنها مرآته التي تعكس ما يشعر به. فهي الأخرى لم ترد أن تصبح مدينة له بأي شيء.

ولكن كان باستطاعته اتخاذ القرار بدلًا منها، فهو مدين لها كثيرًا. أمسك بها وجذبها لتقف على قدميها ومشى الاثنان وهما يعرجان بعيدًا عن الشاطئ.

اتجه الاثنان نحو ما تمنى ماتياس أن يصبح الغرب. تستطيع الشمس أن تتلاعب بحواسك في هذا الشمال البعيد ولم يمتلكا بوصلة تخبرهما بالاتجاهات. بدأ الظلام يلف المكان، وأصابت ماتياس نوبة فزع عندما رأى الاثنان أول معسكر لصيد الحيتان. كان مكانًا مهجورًا -حيث تنشط تلك الأماكن في الربيع فقط- يضم منزلًا صغيرًا دائريًا مصنوعًا من العظام والطين وجلود الحيوانات. لكن طمأنهما هذا المأوى بأنهما ربما ينجوان تلك الليلة على الأقل.

ليس هناك قفل على الباب. في واقع الأمر سقط الاثنان على الباب من فرط التعب.

تأوهت نينا وقالت وهي تسقط بجوار المدفأة الدائرية: «شكرًا».

لم يقل ماتياس شيئًا. فالعثور على معسكر كهذا مجرد حظ. ولو جرفتهما الأمواج بعيدًا على الساحل أميالًا قليلة فقط، لهلكا.

ترك صيادو الحيتان فحمًا نباتيًا ومادة إحراق جاف في المدفأة. فشرع ماتياس في محاولة إشعال النار. شعر بالغباء والإرهاق والجوع لدرجة استعد معها لأكل جلد حذائه. وعندما سمع صوت حفيف وراءه التفت وكادت تسقط قطعة الخشب التي جرفها الشاطئ من يده والتي يستخدمها في إشعال النار.

صاح ماتياس: «ماذا تفعلين؟».

نظرت نينا من فوق كتفها -العارية تمامًا- وقالت: «وهل هناك شيء يفترض بي فعله؟».

«ارتدي ملابسك مرة أخرى».

دارت عيناها في محجريهما وقالت: «لن أتجمد حتى الموت من أجل حيائك».

غرز ماتياس قطعة الخشب في النار بقوة ولكنها تجاهلته وخلعت

بقيـة ملابسـها - السـترة والبنطـال وحتـى ملابسـها الداخليـة - ثـم لفـت نفسـها عـلى أحـد جلـود الأيائـل المتسـخة المكومـة بجـوار البـاب.

قالـت متذمـرة وهـي تقـوم بنقـل وتجميـع شـبكة مـن بعـض الفـراء والبطاطـين الأخـرى بجـوار النـار: «بحـق القديسـين، مـا هـذه الرائحـة...». وكلـما تحركـت، انحسـرت عبـاءة جلـد الأيائـل عنهـا وكشـفت لمحـة مـن سـمانة مـدورة وجلـد أبيـض والظـل بـين نهدهـا. هـذا مقصـود. عـرف ذلـك. إنهـا تحـاول إثـارة أعصابـه. يجـب عليـه التركيـز عـلى النـار. كاد يمـوت بـردًا، وإذا لم يشـعل النـار فـإن المـوت احتـمال قائـم. عليهـا أن تتوقـف عـن إحـداث تلـك الضوضـاء اللعينـة التـي تشـتت انتباهـه. طقطقـت قطعـة الخشـب بـين يديـه.

أطلقـت نينـا شـخرة ورقـدت عـلى شـبكة الفـراء واسـتندت إلى مرفـق واحـد وقالـت: «بحـق القديسـين دروسـكل، مـا خطبـك؟ لا أريـد سـوى الـدفء. أعـدك بـألا أغتصبـك خـلال نومـك».

قال بتوتر: «أنا لست خائفًا منك».

ارتسـمت عـلى وجههـا ابتسـامة شريـرة وهـي تقـول: « أنـت أحمـق إذًا مثلـما يوحـي مظهـرك».

بقـي ماتيـاس جالسًـا بجـوار النـار. وعـرف أنـه مضطـر إلى الرقـود بجوارهـا. غربـت الشـمس وانخفضـت درجـة الحـرارة أكـثر. وواجـه صعوبـة في منـع أسـنانه مـن الاصطـكاك ببعضهـا واحتـاج كل واحـد منهـما إلى دفء جسـد الآخـر لـكي تمـر الليلـة بسـلام. يجـب ألا يصيبـه هـذا بالقلـق، لكنـه لا يريـد أن يسـتلقي بجوارهـا. قـال لنفسـه: «لأنهـا قاتلـة. هـذا هـو السـبب. لأنهـا قاتلـة وسـاحرة ومشـعوذة».

أجـبر ماتيـاس نفسـه عـلى النهـوض ومـشى نحـو البطاطـين. لكـن نينـا أوقفتـه بإشـارة مـن يدهـا.

«لا تفكر حتى في الاقتراب مني بتلك الملابس. أنت مبتل تمامًا».

«يمكنك الحفاظ على تدفق الدماء».

قالـت بغضـب: «أنـا متعبـة. وحالمـا أنـام، فـكل مـا سـيتبقى لنـا هـو

هـذه النـار التـي ستشـعرنا بالـدفء. أسـتطيع أن أراك ترتجـف مـن مـكاني هنـا. هـل جميـع الفيردانيـين مبالغـين في الاحتشـام مثلـك؟».

لا. ربمـا. لم يعـرف بالفعـل. الدروسـكل طبقـة مقدسـة. مقـدر لهـم أن يعيشـوا بعفـة إلى أن يتزوجـوا- زوجـات فيردانيـة صالحـات لا يركضـن هنـا وهنـاك، ولا يصحـن في وجـوه النـاس، ولا يخلعـن ملابسـهن كاملـة.

«وهل جميع الغريشا لا يعرفون الحشمة مثلك؟».

«يتلقـى الفتيـان والفتيـات تدريباتهـم جنبًـا إلى جنـب في الجيـش الأول والجيـش الثـاني. ليـس هنـاك مجـال للخجـل».

«ليس من الطبيعي أن تقاتل النساء».

«ليـس مـن الطبيعـي أن يصبـح غبـاء شـخص مـا مثـل طولـه، ورغـم ذلـك هـا أنـت ذا. هـل سـبحت كل هـذه الأميـال لـكي تمـوت في هـذا الكـوخ أيهـا الأحمـق؟».

«إنه منزل صغير، وأنت لا تعرفين أننا سبحنا أميالًا».

زفـرت نينـا بغضـب وتكـورت عـلى جانبهـا واقتربـت قـدر الإمـكان مـن النـار وقالـت: «أنـا متعبـة ولا أسـتطيع الجـدال». ثـم أغلقـت عينيهـا وقالـت: «لا أسـتطيع تصديـق أن وجهـك سـيكون آخـر شيء أراه قبـل أن أمـوت».

شـعر ماتيـاس بأنهـا تتحـداه. وقـف هنـاك وهـو يشـعر بالحماقـة وبأنـه يكرههـا لأنهـا جعلتـه يشـعر بهـذا. وأدار ظهـره لهـا وأخـذ يخلـع ملابسـه المبتلـة بسرعـة وينشرهـا بجـوار النـار. نظـر مـرة واحـدة عليهـا ليتأكـد مـن أنهـا لا تنظـر إليـه ثـم مـشى نحـو البطاطـين وانـدس تحتهـا وراء نينـا وهـو يحـاول الحفـاظ عـلى مسـافة بـين جسـديهما.

قالت نينا بسخرية: «اقترب أكثر أيها الدروسكل».

ألقـى بذراعـه فوقهـا وجذبهـا مـن ظهرهـا إلى صـدره. أطلقـت نينـا زفـرة تأفـف وتحركـت بضيـق.

تمتـم ماتيـاس: «لا تتحـركي». اقـترب ماتيـاس مـن بعـض الفتيـات -في الحقيقـة ليـس الكثـير منهـن- لكـن ليسـت هنـاك فتـاة مثلهـا، فهـي

مستديرة على نحو مثير.

قالت نينا وهي ترتجف: «أنت بارد ومتعرق. إن الأمر يشبه الرقود بجوار جبار قوي البنية».

«أنت طلبتِ أن أقترب».

قالت نينا: «أفسح قليلًا». وعندما فعل ذلك تقلبت لتصبح في مواجهته.

سأل وهو يتراجع في ذعر: «ماذا تفعلين؟».

«استرخ أيها الدروسكل. هذا ليس المكان المناسب لأقيم معك علاقة فيه».

ضاقت عيناه الزرقاوان وقال: «أكره الطريقة التي تتحدثين بها». خشي أنه قد يكون جرح مشاعرها، بل وأنه تخيل أن ملامحها تعكس شعورها بالأذى من كلماته، ولكنه أدرك كم كان متوهمًا عندما ردت قائلة:

«وهل تعتقد أنني أهتم بما تحبه أو تكرهه؟».

وضعت يديها فوق صدره وركزت على قلبه. يجب ألا يدعها تفعل هذا، يجب ألا يظهر ضعفه لها؛ لكنه لم يتمكن من مقاومتها عندما أخذت الدماء تسري في عروقه والدفء يسري في جسده، لم يستطع مقاومة ما شعر به من ارتياح وهدوء.

ترك أنفاسه تسترخي ببطء وعلى مضض تحت راحة يديها. واستدارت نينا وجذبت ذراعه حولها وقالت: «على الرحب أيها الأحمق الكبير».

لقد كذب. إنه يحب الطريقة التي تتحدث بها.

ولا يزال محبًا للطريقة التي تتحدث بها حتى الآن. في مقدوره أن يسمعها وهي تثرثر مع إيناج في مكان ما وراءه وتحاول تعليمها كلمات فيردانية: «لا هرينخ-كاااالا. يجب أن تنتظري عند المقطع الأخير قليلًا».

حاولت إيناج: «هرينغاله».

قالت نينا وهي تمثل بالإشارات: «هذا أفضل لكن -لغة كيرتش هنا أشبه بالغزال. إنها تقفز من كلمة إلى أخرى، أما الفيردانية مثل النورس كلها انقضاضات وحركات غاطسة». حولت يديها إلى أشكال طيور تركب الموجات الهوائية. وفي تلك اللحظة نظرت نينا إلى أعلى ورأته يحدق إليها.

ارتبك ماتياس وازدرد ريقه وقال: «لا تأكلي الثلج. سوف يصيبك بالجفاف ويخفض درجة حرارة جسمك». واندفع إلى الأمام وهو يتوق إلى الوصول إلى قمة التل التالي ليترك مسافة بينهما. لكنه عندما وصل إلى الأعلى، توقف فجأة وتجمد مكانه.

التفت ورفع ذراعيه وهو يقول: «توقفوا! أنتم لا تريدون أن ______»

ولكن طلبه جاء متأخرًا للغاية. كانوا خلفه مباشرة. وضعت نينا يديها فوق فمها. رسمت إيناج في الهواء شيئًا يشبه علامة التحذير. وهز جاسبر رأسه وتقيأ ويلان. وتجمد كاز مكانه وارتسمت على وجهه تعبيرات غير مفهومة.

وجدوا المحرقة على منحدر شاهق. وأيًا كان المسؤول عن هذا، فقد حاول إشعال النار داخل نتوء صخري ولكنه لم يكن كافيًا لمنع النار من الانطفاء بسبب الرياح. رأوا ثلاثة أوتاد مغروزة في الأرض الثلجية تحمل ثلاثة أجساد متفحمة مقيدة بها وجلدها المتفحم المنصهر لا يزال يحترق ببطء.

قال ويلان: «يا إلهي! ما هذا؟».

قالت نينا: «هذا ما يفعله الفيردانيون بالغريشا». تجمد وجهها، وحدقت عيناها الخضراوان إليه.

قال ماتياس والغضب يشتعل بداخله: «هذا ما يفعله المجرمون. المحارق غير قانونية منذ ______»

دارت نينا حوله ودفعته في صدره بقوة وقالت بغضب عارم صنع

هالة نار حولها: «إياك. أخبرني عن المرة الأخيرة التي حوكم فيها أحدهم عن إشعال النار في الغريشا. هل تطلقون عليها جريمة قتل حتى عندما تنهون حياة الكلاب؟».

«نينا ــــــــــــــــ»

«هل تطلقون اسمًا مختلفًا على القتل عندما ترتدون زيًا رسميًا؟».

ثم سمعوا صوتًا - كان أنينًا قادمًا من المحرقة.

قال جاسبر: «بحق القديسين. أحدهم لا يزال حيًا».

صدر الصوت مرة أخرى خافتًا وواضحًا من الهيكل الأسود للجسد المتفحم في أقصى اليمين. من المستحيل أن يعرفوا ما إذا عُرف هذا الشكل لجسد رجل أم امرأة، فالشعر محترق تمامًا والملابس منصهرة وملتصقة به. وهناك قشور سوداء تتساقط من الجلد بعيدًا وتظهر اللحم.

انطلقت من نينا صرخة مزقت حلقها. ورفعت نينا يديها لكنها ارتجفت بشدة ما منعها من استخدام قوتها في إنهاء معاناة هذا المخلوق. التفتت إلى الآخرين والدموع تملأ عينيها وقالت: «أنا... أرجوكم ليقُم أحدكم...»

تحرك جاسبر أولًا. انطلقت رصاصتان فهمد الجسد. وأعاد جاسبر مسدساته إلى قرابها.

قال كاز بغضب: «اللعنة يا جاسبر. لقد أعلنت عن وجودنا لمسافة أميال».

« سيعتقدون أننا مجموعة صيد».

«كان عليك ترك هذا الأمر لإيناج».

قالت إيناج بهدوء: «لم أرغب في القيام بهذا. شكرًا يا جاسبر».

لوى كاز فمه، لكنه لم يقل شيئًا آخر.

قالت نينا بصوت مخنوق: «شكرًا». اندفعت إلى الأمام فوق الأرض المتجمدة وهي تتبع الطريق فوق الثلج. بكت وتعثرت فوق

الأرض. تبعها ماتياس. لم يكن هناك الكثير من المعالم ومن السهل أن تضل طريقها.

«نينا، يجب ألا تبتعدي عن المجموعة ــــــــــــــــــــــ»

قالت نينا بغضب: «هذا ما ستعود إليه يا هيلفار. هذا هو البلد الذي تتوق إلى خدمته. هل تشعر بالفخر لذلك؟».

«أنا لم أرسل أي غريشا مطلقًا إلى المحرقة. يخضع الغريشا لمحاكمة عادلة ــــــــــــــــ»

التفتت إليه ورفعت نظاراتها والدموع متجمدة فوق خديها.

«إذًا، لماذا لم تجدوا من قبل غريشا واحدًا بريئًا في نهاية المحاكمات التي تدعون أنها عادلة؟».

«أنا ــــــــــــــــ»

«لأن جريمتنا هي الوجود. جريمتنا هي هويتنا».

صمت ماتياس، وعندما تحدث، علق بين شعوره بالخزي لما هو على وشك على قوله وبين ضرورة نطقه بالكلمات التي تربى عليها، الكلمات التي لا يزال يراها صادقة: «نينا، هل فكرت من قبل أنك ربما... لم يكن وجودكم أمرًا مقدرًا؟».

اشتعلت عينا نينا الخضراوان غضبًا. وخطت خطوة نحوه، واستطاع أن يشعر بالغضب ينبعث منها. قالت: «ربما أنتم من لا يجب أن يكون لكم وجود يا هيلفار. أنتم الضعفاء والمدللون مع حياتكم القصيرة وتحيزاتكم البائسة. أنتم من تقدسون شجرة الأرواح والجليد التي لا تهتم بإظهار نفسها لكم، لكنكم ترون قوة غريشا حقيقية ولا تطيقون صبرًا لقمعها».

«لا تسخري مما لا تستطيعين فهمه».

«هل أزعجتك سخريتي؟» ربما رحب شعبي بضحكاتك بدلًا من هذه الوحشية». ظهر على وجهها إحساس بالرضا والتفوق. قالت: «إن رافكا تبنى من جديد. وكذلك الجيش الثاني، وعندما ينتهون من بنائهما أتمنى أن يقدموكم للمحاكمات العادلة التي تستحقونها.

أتمنـى أن يضعـوا الدروسـكل في الأصفـاد ويجعلونهـم يمثلـون لتتـلى عليهـم جرائمهـم حتـى يحاسـبكم العـالم عـلى شروركـم».

«إذا تقتِ لرؤية نهضة رافكا، لماذا لا تذهبين إلى هناك؟».

«أريـد لـك الحصـول عـلى العفـو يـا هيلفـار. أريـدك أن تكـون هنـاك، عندمـا يتحـرك الجيـش الثـاني شـمالًا ويجتـاح كل شـبر في هـذه الأرض القـذرة. أتمنـى أن يحرقـوا حقولكـم ويجعلـوا هـذه الأرض بـورًا. أتمنـى أن يرسـلوا أصدقاءكـم وعائلاتكـم إلى المحرقـة».

«أقدمـوا عـلى ذلـك بالفعـل يـا زينيـك. أحرقـوا أمـي وأبي وأختـي الصغـيرة. إنهـم الجنـود المتلاعبـون بالنـار، الغريشـا الأعـزاء المضطهـدون أحرقـوا قريتنـا عـن بكـرة أبيهـا. ليـس هنـاك مـا أخـسره».

ضحكـت نينـا ضحكـة مريـرة وقالـت: «ربمـا كانـت إقامتـك في بوابـة الجحيـم أقـصر مـما ينبغـي يـا ماتيـاس. فدائمًـا هنـاك مـا تخـسره».

نينا

ما زلت قادرة على شم رائحتهم. ربتت نينا شعرها وملابسها وهي تترنح عبر الثلج محاولة ألا تتقيأ. لم تستطع نينا منع نفسها من تذكر هذه الأجساد ذات اللحم الأحمر الغاضب الذي أطل من الملابس المتفحمة التي امتزجت مع اللحم المشتعل. شعرت بأنها مغطاة برمادهم ورائحة لحمهم. ولم تعد قادرة على أخذ نفسها بشكل كامل.

سهل عليها وجودها بجانب ماتياس نسيان هويته ونسيان أفكاره الحقيقية تجاهها. غيرت شكله هذا الصباح مرة أخرى وتحملت عبوسه وتذمره. كلا، لقد استمتعت بذلك في واقع الأمر. وشعرت بالامتنان لوجود عذر يجعلها بقربه وشعرت بسعادة سخيفة من ردود أفعاله على تعليقاتها الساخرة. بحق القديسين، لماذا أهتم به؟ ولم تساوي ابتسامة واحدة من ماتياس هيلفار خمسين ابتسامة من شخص آخر؟ شعرت بأن دقات قلبه تتسارع عندما همت برفع رأسه للوراء بطرف إصبعها لتعمل على عينيه. راودتها فكرة تقبيله، بل أرادت أن تقبله وهي على يقين من أنه يفكر في الشيء ذاته. أو ربما فكر في خنقها مرة أخرى.

لم تنس ما قاله على متن فيروليند عندما سألها عما تنوي فعله بشأن بو يول- بايور، وعما إذا كانت تخطط لتسليم العالم المطلوب إلى كيرتش. ماذا لو أقدمت على إفساد مهمة كاز، فهل سيصبح ثمن ذلك حرمان ماتياس من حصوله على العفو المنتظر؟ لا يمكنها القيام بهذا. وبصرف النظر عن هوية ماتياس، فإنها مدينة له بحريته.

أمضت نينا مسافرة مع ماتياس بعد تحطم السفينة ثلاثة أسابيع

كاملة. لم يمتلكا حينها بوصلة ولم يعرفا إلى أين يمضيان. لم يعرفا حتى المكان الذي انجرفا إليه على الساحل الشمالي. قضيا الأيام الطويلة يشقان طريقهما بصعوبة عبر الثلج والليالي قارسة البرودة في أي مأوى بدائي يستطيعان إقامته أو في الأكواخ المهجورة في معسكرات صيد الحيتان حين يحالفهما الحظ للعثور على أحدها صدفة. تناول الاثنان الأعشاب البحرية الجافة أو أي أعشاب أو درنات ألقت بها الأقدار في طريقهما. أما عثورهما على مخزون مخبأ من لحم الأيائل المجفف في قاع حقيبة سفر ملقاة في أحد المعسكرات، فكان بمثابة معجزة. أكلاه في صمت وسعادة وسكرا من حلاوة مذاقه.

بعد ليلتهما الأولى، ناما وهما يرتديان جميع ملابسهما الجافة واضعين الأغطية كافة التي تمكنا من العثور عليها لكن على جانبين مختلفين من النار. وحين لم يتوافر الخشب أو أي مادة للتدفئة، تكوم الاثنان مقابل أحدهما الآخر دون تلامس في البداية، ثم يستيقظان في الصباح ليجدا أنفاسهما قد اختلطت من شدة القرب داخل شرنقة من النوم المرهق العميق وكونا بجسديهما معًا شكل هلال.

شكا ماتياس كل صباح من أن إيقاظها أمر مستحيل.

«أنت تنامين كالجثة الهامدة».

«يحتاج الميت إلى خمس دقائق نوم إضافية»، ثم تدفن رأسها في الفراء.

فيمشي متذمرًا وهو يضرب الأرض بقوة ويحزم أشياءهما القليلة محدثًا أعلى جلبة ممكنة قائلًا لنفسه: «كسولة سخيفة أنانية...» إلى أن تنهض في النهاية وتشرع في الاستعداد لليوم.

سألته نينا في أحد أيامهما الطويلة بينما يسيران عبر الجليد، متمنية أن يجيبها بتحضر: «ما أول شيء ستفعله عندما تصل إلى وطنك؟».

قال: «النوم. الاستحمام. الصلاة لأصدقائي المفقودين».

«آه تقصد المجرمين والقتلة الآخرين. كيف أصبحت دروسكل على أي حال؟».

قال ببرود: «ذبح أصدقاؤك عائلتي في غارة للغريشا، فأخذني بروم وقدم لي شيئًا أحارب من أجله».

لم ترغب نينا في تصديق هذا، لكنها عرفت أنه أمر محتمل الحدوث. قد تنشب المعارك، وتُهدر على أثرها حيوات بريئة خلال تبادل إطلاق النار. كما أزعجها كذلك أن تفكر في الوحش بروم كشخصية حنون.

لم يبد الجدال أو الاعتذار مناسبًا؛ لذلك قالت نينا أول شيء خطر ببالها.

«لقد خلقت من أجل حمايتك. لن يمنعني عن الوفاء بوعدي إلا الموت».

نظر ماتياس إليها مصدومًا، وقال: «هذا قسم الدروسكل لفيردا. كيف تعرفين تلك الكلمات؟».

«حاولت تعلم أكبر قدر ممكن من الفيردانية».

«لماذا؟».

لوحت نينا بذراعها وقالت: «كي لا أخاف منكم».

«لا تبدين خائفة بالفعل».

سألته: «هل أنت خائف مني؟».

أجابها بصوت تبدو عليه الدهشة: «كلا». لقد ادعى في السابق أنه لا يخشاها. لكنها صدقته هذه المرة. وحاولت تذكير نفسها بأن هذا ليس جيدًا.

استمر الاثنان في المسير لفترة، ثم سألها: «وما أول شيء ستفعلينه أنت لدى عودتك؟».

«الأكل».

«تأكلين ماذا؟».

«كل ما يقع تحت يدي. الكباب المحشو بفطائر البطاطس، كعك

المشمش الأسود، فطائر البليني بنكهة الليمون. لا أطيق صبرًا لأرى وجه زويا عندما أدخل القصر الصغير».

«زويا نازيلينسكي؟».

توقفت نينا فجأة، وقالت: «هل تعرفها؟».

«جميعنا يعرفها. إنها ساحرة قوية».

عندئذ أدركت نينا شيئًا: بالنسبة إلى الدروسكل زويا تشبه يارل-بروم إلى حد ما: قاسية، وحشية؛ إنها الكائن الذي ينتظر في الظلام والموت بين يديه. زويا هي الوحش الذي يخيف هذا الفتى. أصابتها الفكرة بالانزعاج.

«كيف تمكنت من الخروج من القفص؟».

رمشت عينا نينا وهي تقول: «ماذا؟».

«أعني على السفينة. كنت مقيدة ومحبوسة».

«إنها كأس الماء. انكسر مقبض الكأس وسننت الحافة لتصبح حادة بما يكفي لاستخدامها في قطع قيودنا. حالما تحررت أيدينا...»، توقفت نينا عن الحديث فجأة.

انعقد حاجبا ماتياس وقال: «لقد خططتم للهجوم علينا».

«خططنا للقيام بهذه الخطوة تلك الليلة».

«لكن أتت العاصفة».

«نعم».

أحدث أحد المتلاعبين بالرياح هو وأحد الصناع فجوة في سطح السفينة وسبحوا نحو الحرية التي تاقوا إليها. لكن هل نجا أي منهم من المياه المتجمدة؟ هل استطاعوا الوصول إلى اليابسة؟ ارتجفت نينا. لو لم يكتشفوا سر الكوب لغرقت داخل القفص.

سألته نينا وهي تزيد وتيرتها: «ماذا يأكل الدروسكل بخلاف أطفال الغريشا».

«نحن لا نأكل الأطفال!».

«دهن الدلفين؟ حوافر الأيائل؟».

رأت فمه يلتوي وتساءلت في نفسها عما إذا شعر بالغثيان مما قالت أم يحاول منع نفسه من الضحك على كلامها.

«نحن نأكل الكثير من السمك. الرنجة. سمك القد المملح. وبالطبع الأيائل، لكن لا نأكل الحوافر».

«وماذا عن الكعك؟».

«ماذا عنه؟».

«أنا أحب الكعك كثيرًا، وكنت أفكر لو أن هناك أي شيء مشترك بيننا.»

هز ماتياس كتفيه بلا مبالاة.

قالت: «آه هيا أيها الدروسكل». فلم تكن تعرف اسمه حينها ولا هو أيضًا، ولم تكن متأكدة من أن عليهما التعارف من الأساس. في النهاية لو تمكنا من النجاة ربما يصلان إلى مدينة أو قرية ما، وما سيحدث حينها في علم الغيب، لكن، وعلى أي حال كلما قل ما يعرفه عنها كان أفضل. قالت: «أنا لا أطلب منك إفشاء أسرار الحكومة الفيردانية، أريدك أن تخبرني فقط لم لا تحب الكعك».

«أنا أحب الكعك، لكن ليس مسموحًا لنا بتناول الحلويات».

«غير مسموح لأي شخص؟ أم الدروسكل فقط؟».

«الدروسكل فقط، يعتبر تناول الكعك انغماسًا في المتعة. مثل الكحول أو ــــــــــــــــ»

«وماذا عن الفتيات؟».

تورد خداه وتقدم في سيره إلى الأمام. من السهل للغاية أن تجعله يشعر بالخجل.

«إن لم يُسمح لك بتناول السكر أو الكحول فربما تحب البومدراكون إذًا».

لم يلتقط الطعم في البداية. مشى إلى جوارها فحسب لكنه في النهاية لم يتحمل الصمت كثيرًا وقال: «ما هو البومدراكون؟».

قالت نينا باشتياق: «إنها كرات التنين. أولًا تنقع الزبيب في

البرانـدي وتطفـئ الأنـوار ثـم تضعـه عـلى النـار».

«لماذا أطفئ الأنوار؟».

«ليصبح من الصعب عليك الإمساك به».

«وماذا يحدث عند الإمساك به؟».

«تأكله».

«ألا يحرق لسانك؟».

«بالتأكيد لكن ــــــــــ»

« لماذا تريدين أن يحترقــــــــــــــ»

«لأنـه أمـر ممتـع أيهـا الأحمـق. ألا تعـرف «المتعـة»؟ هنـاك كلمـة ترادفهـا في الفيردانيـة؛ لذلـك يجـب أن تكـون عـلى علـم بهـا.

«حسنًا، وما الذي تفعلينه من أجل المتعة؟».

ظـل هـذا حالهـما طـوال الطريـق: ينتقـدان ويناكفـان أحدهـما الآخـر تمامًـا مثـل ليلتهـما الأولى في المـاء، يبقيـان أحدهـما الآخـر عـلى قيـد الحيـاة، ويرفضـان الاعـتراف بأنهـما يـزدادان ضعفًـا مـع مـرور الوقـت، وبأنهـما إذا لم يجـدا مدينـة حقيقيـة في وقـت قريـب، فلـن يصمـدا طويـلًا. مـرت عليهـما أيـام جعلهـما الجـوع وتوهـج الثلـج الشـمالي في حالـة مـن التخبـط فسـارا تائهـين في دوائـر أو وجـدا أنهـما قـد عـادا أدراجهـما إلى نفـس المـكان، تعـثرا كثـيراً في في خطواتهـما لكنهـما لم يتحدثـا عـن الأمـر، لم يقـولا كلمـة إننـا تائهـين كأن كلًا منهـما يعـرف أنهـا إقـرار بالهزيمـة.

سـألته ذات ليلـة بينـما يرقـدان أسـفل منحـدر والـبرودة تخـترق الجلـود التـي وضعاهـا عـلى الأرض: «لمـاذا لا يسـمح الفيردانيـون للفتيـات بالقتـال؟».

«إنهن لا يرغبن في القتال».

«وكيف عرفت ذلك؟ هل سألت إحداهن ذات مرة؟».

«يجب احترام الفيردانيات وحمايتهن».

«ربما تكون تلك سياسة حكيمة».

لم يندهش من نبرة تهكمها فهو يعرفها الآن جيدًا، اكتفى بسؤالها «أهي كذلك حقًّا؟».

«أجل، فكر في مدى الإحراج الذي ستشعر به عندما تهزمك فتاة فيردانية».

أطلق شخرة معترضًا.

قالت بسعادة: «لكم أود أن أرى هزيمتك على يد فتاة».

«لم تخلق في هذه الحياة بعد».

«حسنًا أعتقد أني لن أراها. ولكني سأستمتع باللحظة التي أركل مؤخرتك فيها بنفسي».

ضحك ماتياس هذه المرة ضحكة حقيقية استطاعت نينا أن تشعر بها رغم سيره خلفها.

«بحق القديسين أيها الفيرداني، لم أكن أعرف أنك تستطيع الضحك.».

«أنا أستمتع بغرورك أيتها الساحرة».

عندئذ ضحكت نينا، وقالت: «ربما هذا أسوأ إطراء حصلت عليه».

«هل شككت في نفسك من قبل؟».

قالت وهي تستعد للنوم: «طوال الوقت. ولكني لا أظهر ذلك للآخرين فحسب».

في الصباح التالي، شق الاثنان طريقهما عبر الحقل الثلجي الذي تتخلله الصدوع الأرضية ذات النتوءات الحادة، وسارا فوق الرقع الصلبة بين الصدوع الميتة وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث عن عادات النوم لدى نينا.

«كيف تطلقين على نفسك جندية؟ فأنا لو تركتك سوف تنامين حتى الظهيرة».

«وما علاقة هذا بأي شيء؟».

«الجندية هي الانضباط. وهي النظام. ألا يعني ذلك أي شيء

بالنسبة إليكِ؟ يا إلهي، لا أطيق صبراً حتى أنام على فراش مرة أخرى".

قالت: «صحيح. أشعر بمدى كرهك للنوم إلى جواري. أشعر بانتصاب خجلك كل صباح».

ظهر الخجل الشديد على وجه ماتياس: «لماذا تقولين مثل هذه الأشياء البذيئة؟».

«لأنني أحب رؤية حمرة وجهك».

«هذا مقرف. لست مضطرة إلى خلط كل شيء بالبذاءة».

«لو تخليت عن توترك واسترخيت فحسب ــــــــــــــــــ»

«لا أريد الاسترخاء».

«لماذا؟ ما الذي تخشى حدوثه لهذه الدرجة؟ هل تخشى الوقوع في حبي؟».

صمت ماتياس ولم يقل شيئًا.

ورغم إرهاقها، هرولت نينا أمامه وقالت: «هكذا الأمر إذًا، أليس كذلك؟ أنت لا تريد أن تقع في حب غريشا. أنت تخشى الضحك على نكاتي والإجابة عن أسئلتي، فربما يدفعك ذلك إلى الشعور بي كإنسانة، وهو الأمر الذي لا يمكنك تصوره أليس كذلك؟»

«أنا معجب بكِ بالفعل».

«ماذا قلت؟».

قال بغضب: «أنا معجب بكِ بالفعل».

ابتسمت نينا وقد غمرتها السعادة، «وهل تكره هذا كثيراً؟».

صاح: «أجل».

«لماذا؟».

«أنتِ فظيعة. صاخبة وبذيئة و.. خائنة. حذرنا بروم من أن الغريشا ربما يكونون فاتنين».

«آه، فهمت. أنا الغريشا المغوية الشريرة بالنسبة إليك. لقد أغويتك بحيل الغريشا».

ثم وكزته في صدره.
«توقفي».
«كلا. إنني أغويك».
«توقفي».
أخذت تتقافز وتتراقص حوله فوق الثلج وتوكزه في صدره وبطنه وجانبه. «يا إلهي! أنت صلب جدًّا. هذا عمل شاق». وبدأ ماتياس يضحك، فقالت: «ها قد بدأت الغواية ووقع الفيرداني في حبي أنت عاجز عن مقاومتي. أنت ــــــــــــــــ»
فجأة، تحول صوت نينا إلى صرخة مدوية عندما انهار الثلج تحت قدميها، وبدأت يداها تتحركان هنا وهناك بغير هدى محاولة الإمساك بأي شيء، وأصابعها تحتك بالثلج والصخر.
أمسك الدروسكل بذراعها فصرخت.
تعلقت نينا بيده ولا شيء أسفل قدميها، وأصابع الدروسكل التي تمسكها هي الشيء الوحيد الذي يحول بينها وبين السقوط في تلك الهوة المظلمة. نظرت نينا في عيني الدروسكل وشعرت للحظة بأنه سيفلتها ويتركها تسقط.
قالت والدموع تنهمر على عينيها: «أرجوك».
سحبها فوق الحافة وزحف الاثنان ببطء نحو أرض أكثر صلابة. ورقد الاثنان على ظهريهما وهما يلهثان.
قالت نينا بصعوبة: «لقد خشيت...خشيت أن تتخلى عني».
ساد صمت طويل، ثم قال: «فكرت في هذا. لثانية واحدة».
أطلقت نينا ضحكة صغيرة وقالت في النهاية: «لا بأس. لو أنني مكانك لفكرت في هذا أيضًا».
وقف على قدميه ومد إليها يده وقال: «أنا ماتياس».
قالت وهي تأخذ يده: «وأنا نينا. سررت بالتعرف إليك».

مـر أكـثر مـن عـام عـلى تحطـم السـفينة، لكـن بـدا كأن كل شيء قـد حـدث بالأمـس كـما لـو لم يمـر وقـت عليهـما عـلى الإطـلاق. وكـم أراد جـزء مـن نينـا العـودة إلى تلـك اللحظـة قبـل أن يسـوء كل شيء بينهـما، أرادت العـودة إلى تلـك الأيـام الطويلـة فـوق الثلـج عندمـا نجحـا في أن يصبحـا نينـا وماتيـاس وليـس الغريشـا وصائـد السـاحرات. لكنهـا كلـما فكـرت في الأمـر، ازدادت يقينًـا بأنهـا كانـت متوهمـة، وبـأن تلـك الأسـابيع الثلاثـة لم تكـن سـوى كذبـة صنعتهـا هـي وماتيـاس مـن أجـل النجـاة. والحقيقـة الوحيـدة بينهـما هـي المحرقـة التـي أدمـت قلبهـا.

قـال ماتيـاس مهـرولًا وراءهـا: «نينـا. نينـا لا تبتعـدي عـن باقـي المجموعــة».

«اتركني وشأني».

عندمـا أمسـكها مـن ذراعهـا، أدارت قبضتهـا وأغلقتهـا لتقطـع الهـواء عـن حلقـه وتعـوق تنفسـه. قـد يعجـز عنهـا أي رجـل عـادي، ولكـن ماتيـاس دروسـكل جنـدي مـدرب، فتمكـن مـن الإمسـاك بذراعهـا الأخـرى وثبتهـا إلى جسـدها وضمهـا إليـه بقـوة كي لا تسـتطيع اسـتخدام سـحر يديهـا وقـال لهـا برفـق: «توقفـي».

أخذت نينا تقاومه وتحدق إليه بغضب «اتركني».

«لا أستطيع. ليس وأنتِ تمثلين تهديدًا».

«سأظل تهديدًا لك يا ماتياس دائمًا وأبدًا».

ارتسـمت عـلى زاويـة شـفتيه ابتسـامة كئيبـة. وأطـل الحـزن مـن عينيـه وهـو يقـول: أعـرف ذلـك».

أفلتها ببطء؛ فتراجعت إلى الوراء.

سـألته: «مـاذا سـأرى عندمـا أصـل إلى محكمـة الجليـد؟ مـاذا ينتظـرني هنـاك؟».

«أنتِ خائفة».

قالـت وهـي ترفـع رأسـها في تحـدٍّ: «نعـم». لم تكـن هنـاك فائـدة مـن إنـكار الأمـر.

«نينا ــــــــــــــــــــــــ»

«أخبرني. يجب أن أعرف. هل هناك غرف للتعذيب؟ أم محرقة يرتفع لهيبها من أعلى السطح؟».

«لم تعد المحارق مستخدمة في محكمة الجليد».

« ماذا هناك إذًا؟ هل يغرقونهم أم يقطعونهم أحياء؟ أم يعدمونهم رميًا بالرصاص؟ هل يطل القصر الملكي على تلك المشانق البشعة؟».

«لقد اكتفيت من آرائك الغريبة يا نينا. يجب أن توقفي هذا».

قال جاسبر الذي وقف ينظر نحوهم مع الآخرين: «إنه محق يا نينا. لا يمكنك الاستمرار بهذه الطريقة». منذ متى وهم يقفون هناك؟ وهل رأوها وهي تهاجم ماتياس وتحاول منع التنفس عنه؟

ردت نينا بعنف: «لا تتدخل في ذلك».

«لو استمررتما في القتال، سوف تتسببان في مقتلنا جميعًا، وبصراحة ما زالت هناك مباريات قمار أود أن أخسرها».

قالت إيناج: «ابحثا عن طريقة مسالمة للتعامل بعضكما مع بعض. على الأقل لفترة».

قال ماتياس بغضب: «هذا ليس من شأنك».

تقدم كاز إلى الأمام وقد ارتسمت على وجهه علامات الشر «بل إنه شأننا. واحترس لنبرتك في الحديث».

لوح ماتياس بيديه وقال: «لقد خدعتكم جميعًا. هذا ما تفعله دائمًا. جعلتكم تعتقدون أنكم أصدقاؤها ثم ــــــــــــ»

عقدت إيناج ذراعيها: «ثم ماذا؟».

«دعكِ من هذا الأمر يا إيناج».

قال ماتياس: «كلا يا نينا. أخبريهم بالحقيقة. لقد ادعيتِ أنكِ صديقتي ذات مرة. هل تذكرين؟». التفت إلى الآخرين وقال: «سافرنا معًا لثلاثة أسابيع كاملة. وأنقذت حياتها. بل أنقذنا حياة بعضنا البعض. وعندما وصلنا إلى إيلينج، كان باستطاعتي أن أكشف هويتها للجنود الذين رأيناهم هناك في أي وقت. لكني لم أفعل».

بـدأ ماتيـاس في التحـرك وصوتـه يعلـو كأن الذكريـات تثـير مشـاعره. «اقترضـت مـالًا مـن أجلهـا. ورتبـت أمـور السـكن، كنـت عـلى اسـتعداد لخيانـة كل شيء أؤمـن بـه مـن أجـل سـلامتها. وعندمـا أخذتهـا إلى الأرصفـة البحريـة حتـى نستكشـف إمكانيـة سـفرها إلى موطنهـا، كان هنـاك تاجـر مـن كريتـش يسـتعد للإبحـار». توقـف ماتيـاس واسـتعاد تلـك اللحظـة إلى جوارهـا عـلى الرصيـف، كانـت قـادرة عـلى رؤيـة هـذا في عينيـه، ثـم وجـه حديثـه لهـم مردفًـا «سـلها عـما فعلتـه حينهـا؛ هـذا الحليـف النبيـل؛ هـذه الفتـاة التـي تصـدر أحكامهـا عـليَّ وعـلى جنـسي».

لم ينطق أحد بكلمة بل ترقبوا منتظرين.

قـال ماتيـاس: «أخبريهـم يـا نينـا. يجـب أن يعرفـوا كيـف تعاملـين أصدقـاءك».

ازدردت نينـا ريقهـا ثـم أجـبرت نفسـها عـلى مواجهـة نظراتهـم وقالـت: «لقـد أخـبرت تجـار كيرتـش بـأن ماتيـاس تاجـر رقيـق وأنـه يحتجـزني كسـجينة لـه. ارتميـت عنـد أقدامهـم طلبًـا للرحمـة ورجوتهـم أن يسـاعدوني. واسـتخدمت ختـمًا مـن سـفينة رقيـق قمنـا بغـارة عليهـا سـابقًا بالقـرب مـن جزيـرة ووندرينـج، كدليـل عـلى صـدق حديثـي حتـى يلقـوا القبـض عليـه».

لم تسـتطع الاسـتمرار في النظـر إليهـم. ولكـن كاز كان يعـرف كل شيء بالطبـع، فقـد اضطـرت إلى إخبـاره بالتهـم التـي وجهتهـا لماتيـاس وحاولـت إنكارهـا فيـما بعـد عندمـا استجدته طلبًـا للمسـاعدة. إلا أنـه لم يبحـث الأمـر مطلقًـا ولم يسـأل عـن أسـبابها لفعـل ذلـك، ولم يوبخهـا قـط. ربمـا كانـت صراحتهـا مـع كاز بمـا فعلـت مـع ماتيـاس نوعًـا مـن الراحـة لهـا، فإنهـا قطعًـا لـن تجـد عقابًـا أو حتـى لومًـا عـلى فعلتهـا مـن شـخص يدعـى اليـد القـذرة.

ولكـن الحقيقـة قـد انكشـفت الآن للجميـع. علـم الكيرتـش أن العبيـد ينتقلـون مـن وإلى موانـئ كـتردام سرًّا، وأن معظـم عقـود العمالـة هـي

في الواقـع تجـارة عبيـد تحـت مسـميات أخـرى. احتقـر الكيرتـش تلـك التجـارة وأعلنـوا حربهـم عليهـا، هـذا وكانـوا يقدمـون عـلى محاكمـة جميـع تجـار الرقيـق لقمعهـا. لقـد عرفـت نينـا بالضبـط مـا سـيواجهة ماتيـاس عندمـا تصمـه بتلـك التهمـة تحديـدًا.

قـال ماتيـاس: «لم أفهـم مـا يحـدث حينهـا. فأنـا لا أتحـدث لغـة الكيرتـش، ولكـن نينـا تتحـدث بهـا بالطبـع. أمسـكوا بي ووضعـوا الأصفاد في يـدي، قبـل أن يلقـوا بي في مركـب شراعـي ويحبسـوني في الظـلام طـوال أسـابيع بينـما نعـبر البحـر. والمرة التاليـة التـي رأيـت فيهـا البحـر كانـت عندمـا اقتـادوني خـارج السـفينة في كـتردام».

قالـت نينـا بصـوت مبحـوح بسـبب الآلام والدمـوع: «لم يكـن أمامـي خيـار آخـر. أنـت لا تعلـم ـــــــــــــــــ»

قـال ماتيـاس والغضـب بـادٍ في صوتـه، لكنهـا اسـتطاعت أن تسـمع شـيئًا آخـر غـير الغضـب: ربمـا نوعًـا مـن التوسـل: «أخبرينـي بـشيء واحـد. لـو عـاد بنـا الزمـن وأصبـح باسـتطاعتك أن تتراجعـي عـما فعلتِـه بي، فهـل سـتتراجعين؟».

وقفـت نينـا في مواجهتهـم. كانـت لديهـا أسـبابها القويـة حينهـا، ولكـن هـل تهمهـم تلـك الأسـباب؟ هـل تعنـي لهـم أي شيء؟ ومَـن هـم ليحكمـوا عليهـا؟ اعتدلـت نينـا في وقفتهـا ورفعـت رأسـها. إنهـا عضـو في الدريجـز وأحـد العاملـين في الـوردة البيضـاء وأحيانًـا هـي الفتـاة الحمقـاء الطائشـة، ولكنهـا، بـصرف النظـر عـن أي شيء، غريشـا وجنديـة مقاتلـة. قالـت بصـوت واضـح وصـدى صوتهـا يـتردد أعـلى مسـاحة الجليـد الـلا متناهيـة: «كلا. سـأقدم عـلى فعـل نفـس الـشيء مـرة أخـرى».

وحينهـا اهتـزت الأرض أسـفل أقدامهـم فجـأة بصـوت كالقعقعـة. وكادت تسـقط نينـا ورأت كاز يتمسـك بعـكازه بشـدة. تبادلـوا نظـرات تملؤهـا الحـيرة.

سأل ويلان: «هل هناك صدوع أرضية في هذا الشمال البعيد؟».

قطب ماتياس حاجبيه وقال: «لا أعلم، لكن ــــــــــــــــ»
تحركت كتلة أرضية من تحت أقدام ماتياس لأعلى وأوقعته أرضًا. وارتفعت كتلة أخرى على يمين نينا ما جعلها تسقط أرضًا كذلك. انطلقت أجزاء من الأرض والثلج لأعلى من حولهم جميعًا كأن الحياة دبت في اليابسة والجليد من حولهم. وضربت رياح قوية وجوههم وتحرك الثلج في اضطراب حركات دائرية عنيفة.

صاح جاسبر: «ما هذا بحق الجحيم؟».

صاحت إيناج: «إنه زلزال من نوع ما».

قالت نينا وهي تشير إلى بقعة غامقة يبدو أنها تطير في السماء ولا تتأثر بالرياح الهوجاء: «كلا. نحن نتعرض لهجوم».

زحفت نينا على يديها وركبتيها لتبحث عن شيء تحتمي وراءه. وأخذت تفكر في أنها ربما فقدت عقلها. هناك شخص في الهواء يحلق عاليًا في السماء فوقها. لقد شاهدت شخصًا يطير بالفعل. يستطيع المتلاعبون بالرياح السيطرة على التيارات الهوائية. رأتهم يلهون ويقذفون أحدهم الآخر في الهواء في القصر الصغير، لكن مستوى البراعة والقوة اللتين يتطلبهما الحفاظ على طيران موجه مثل الذي تراه الآن لا يصدق - على الأقل كان كذلك قبل الآن. إنها قوة يوردا باريم. لم تصدق كاز مطلقًا حينما حدثها عنه. ربما شكت في أنه يكذب عليها لكي يشجعها على القيام بهذه المهمة. لكن ما لم تكن قد تعرضت لضربة على رأسها وتهلوس، فهذا حقيقي بالفعل، إنهم يطيرون في السماء.

دار المتلاعب بالرياح في الهواء وأثار عاصفة هوجاء جعلت الثلج يطير ويلسع خديها. تمكنت من الرؤية بصعوبة، وسقطت إلى الخلف عندما ارتفعت كتلة صخرية وجليدية من الأرض، جمعهما المتلاعب معًا ودفعهما إلى الاقتراب بعضهما من بعض ليجعلهما هدفًا واحدًا يضرب به.

صاح جاسبر من مكان ما في العاصفة: «ليشتت أحدهم انتباهه».

سمعت صوت طقطقة عالية.

صاح ويلان: «انخفضوا». ألقت نينا بجسدها على الثلج. وسمعت صوت انفجار فوق رأسها أضاء السماء على يمين المتلاعب بالرياح. توقفت الرياح من حولهم عندما اندفع المتلاعب بعيدًا وأجبر على التركيز على تصحيح وضعه. ربما تطلب الأمر ثانية واحدة لكنها كانت كافية لأن يصوب جاسبر بندقيته ويطلق الرصاص عليه.

دوى صوت الرصاصة ووقع المتلاعب على الأرض. وارتفعت كتلة أرضية أخرى، ليجدوا أنفسهم محتجزين بينها مثل الحيوانات في الحظيرة استعدادًا للذبح. صوب جاسبر مسدسه بين الكتل الأرضية نحو الأشجار البعيدة وأدركت نينا أن هناك غريشا آخر: كان فتى بشعر غامق. وقبل أن يتمكن جاسبر من إطلاق رصاصته، دفع الغريشا قبضته لأعلى فارتفعت كتلة عمودية من الأرض ووقع جاسبر. تدحرج جاسبر خلال سقوطه وأطلق الرصاص.

صرخ الفتى قبل أن يسقط على ركبة واحدة لكنه ظل رافعًا ذراعيه ليستمر اهتزاز الأرض تحتهم أقدامهم. أطلق جاسبر رصاصة أخرى وأخطأ الهدف. رفعت نينا يديها وحاولت التركيز على قلب الغريشا لكنه كان بعيدًا عن نطاق تأثيرها.

رأت نينا إيناج وهي تشير لكاز إشارة ذات مغزى. ومن دون كلمة واحدة ارتكز كاز على أقرب كتلة أمامه وشبك يديه عند ركبته. انبعجت الأرض وتمايلت لكنه ثبت نفسه عندما انطلقت إيناج من فوق أصابعه لتقفز في الهواء على شكل قوس رائع. اختفت إيناج وراء الكتلة الأرضية من دون صوت. وبعد لحظة هدأت الأرض.

قال جاسبر: «عليك الوثوق دائمًا بالشبح».

وقفوا والدهشة بادية على وجوههم والصمت يغلف المكان بعد الفوضى التي حدثت قبل قليل.

قال جاسبر وهو يلهث ويقف على قدميه: «ويلان. أخرجنا من

هنـا».
أومـأ ويـلان برأسـه وأخـرج مـن حقيبتـه كتلـة بلـون الملاط ووضعهـا برفـق أمـام أقـرب صخـرة وقـال: «لينخفـض الجميـع».
جثـم الجميـع عـلى الأرض في أبعـد نقطـة ممكنـة. فـضرب ويـلان المتفجـرات بقـوة وارتمـى بعيـدًا نحـو ماتيـاس وجاسـبر بينـما يغطـون جميعًـا آذانهـم.
لم يحدث شيء.
قال جاسبر: «هل تمازحني؟».
بـووم. انفجـرت الكتلـة الأرضيـة. وهطلـت فـوق رؤوسـهم الثلـوج وقطـع مـن الصخـور والأتربـة.
غطـت الأتربـة ويـلان وبـدت عـلى وجهـه السـعادة الجنونيـة وشيء مـن الذهـول. ضحكـت نينـا قائلـة: «حـاول أن تبـدو كأنـك تعـرف مـا تفعلـه».
ابتعدوا عن الكتل الأرضية التي تحيط بهم بخطوات مضطربة.
أشـار كاز لجاسـبر وقـال: «هيـا بنـا لنتأكـد مـن عـدم وجـود المزيـد مـن المفاجـآت بانتظارنـا». فانطلـق الاثنـان في اتجاهـين متعاكسـين.
وجـدت نينـا والآخـرون إينـاج تقـف بجـوار الجسـد المرتجـف للغريشـا. رأتـه يرتـدي ملابـس باللـون الزيتـوني الباهـت وعينـاه مثـل الزجـاج. سـالت الدمـاء مـن أثـر الطلقـة التـي أصابتـه في أعـلى الفخـذ والسـكين المغـروزة في الجانـب الأيمـن مـن صـدره. ربمـا قذفتـه إينـاج خـلال هروبهـا مـن السـور الـذي أحـاط بهـم.
جثت نينا إلى جواره.
تمتـم الغريشـا: «أريـد المزيـد. أريـد المزيـد». وأمسـك بيـد نينـا، وعندئـذ تعرفـت عليـه.
«نستور؟».
ارتجف عندما سمع اسمه لكن بدا أنه لا يعرفها.
«نسـتور، أنـا نينـا». لقـد درسـت نينـا معـه في القـصر الصغـير. وتـم

إرسال الاثنان معًا إلى كيرامزين خلال الحرب. وفي حفل تتويج الملك نيكولاي، سرق الاثنان زجاجة شمبانيا وشربا حتى الثمالة بجوار البحيرة. يعمل نستور كصانع؛ أي أنه أحد الديورست الذين يعملون مع المعادن والزجاج والأقمشة. وهذا ليس منطقيًا بالمرة. فالصناع يصنعون الأقمشة والأسلحة، وليس في قدرته أداء ما شهدته للتو.

قال متوسلًا بوجه يحمل الألم: «أرجوك. أريد المزيد».

«هل تعني الباريم؟»

قال وهو يبكي: «أجل. أجل. أرجوك».

«يمكنني علاج جرحك يا نستور لو بقيت ساكنًا». كان جرحه في حالة سيئة، لكنها لو استطاعت أن توقف النزيف...

قال بغضب محاولًا الابتعاد عنها: «لا أريد مساعدتك».

حاولت تهدئته والتقليل من ضربات قلبه لكنها خشيت أن يوقف هذا قلبه. فترجته «أرجوك يا نستور. أرجوك، ابق ساكنًا».

أخذ يصرخ ويقاومها.

قالت: «أمسكه».

تحرك ماتياس لمساعدتها لكن نستور رفع ذراعيه لأعلى.

ارتفعت الأرض وتغضنت كورقة مجعدة ودفعت نينا والآخرين إلى الوراء.

«نستور، أرجوك! دعنا نساعدك».

وقف نستور وهو يترنح بسبب ساقه المصابة وأخرج السكين المغروزة من صدره وصرخ: «أين هم؟ أين ذهبوا؟».

«مَن؟»

قال بصوت كالنحيب: «الشاوين. أين ذهبوا؟ عودوا إلى هنا». أخذ خطوة غير متزنة ثم خطوة أخرى. «عودوا». ثم سقط على وجهه في الثلج بلا حراك.

اندفعت نينا إلى جانبه وقلبته، فوجدت الثلج في عينيه وفمه. وضعت يديها فوق صدره وحاولت إعادة قلبه إلى العمل ثانية

لكن بلا جدوى. لو لم تدمره هذه التركيبة فلربما نجا. لكن جسده الضعيف وجلده المشدود على عظامه ولونه الشاحب للغاية جعله يبدو شفافًا.

حدثت نينا نفسها بحزن: «هذا ليس صحيحًا». إن ممارسة التلاعب بالمواد تجعل الغريشا أكثر صحة وقوة، وهذا أحد الأشياء التي أحبتها كثيرًا في قوتها. لكن للجسد حدودًا. بدا كأن التركيبة جعلت قوة نستور تتجاوز قدرته الجسدية. لقد أنهكته بشدة.

عاد كاز وجاسبر وهما يلهثان.

سأل ماتياس: «هل وجدتما شيئًا؟».

أومأ جاسبر وقال: «هناك مجموعة من الأشخاص يتجهون جنوبًا».

قالت نينا: «لقد نادى على الشاويين قبل موته».

قال كاز: «نحن نعرف أن الشاويين سيرسلون فريقًا لاستعادة بو يول- بايور».

نظر جاسبر إلى جسد نستور الساكن، وقال: «لكننا لم نعرف أنهم سيرسلون غريشا. كيف نتأكد من أنهم ليسوا مرتزقة؟».

رفع كاز عملة نقش عليها حصان في أحد الجوانب وفي الآخر مفتاحان متقاطعان وقال: «لقد وجدت هذه في جيب المتلاعب بالرياح»، وقذفها إلى جاسبر وقال: «إنها عملة وين يي الشاوية. إنها عملة المرور. هذه مهمة حكومية».

سألت إيناج: «وكيف عثروا علينا؟».

قال كاز: «ربما جذبتهم طلقات جاسبر».

رد جاسبر وهو يشير إلى ماتياس ونينا: «أو ربما سمعوا هذين الاثنين وهما يصيحان في وجه أحدهما الآخر. ربما يتبعوننا منذ أميال».

حاولت نينا أن تفهم ما تسمعه. لا يستخدم الشاويون الغريشا كجنود، وهم ليسوا كالفيردانيين. إنهم لا يرون قوة الغريشا كشيء

مقيت أو غير طبيعي. بل هم معجبون بها. لكنهم لا يزالون يرون الغريشا أقل إنسانية. تقبض الحكومة الشاوية على الغريشا وتجري عليهم التجارب طوال سنوات من أجل تحديد مصدر قوتهم. إنهم لا يستخدمون الغريشا كمرتزقة مطلقًا. أو على الأقل هذا ما كانت عليه الأمور في السابق. ربما غيَّر باريم قواعد اللعبة.

قالت نينا: «لا أفهم، إن كانت يوردا باريم بحوزتهم، فلماذا يسعون وراء بو يول- بايور؟».

فرد كاز: «من المحتمل أنهم يملكون بعضًا منها، ولكنهم لا يستطيعون تكرار عملية إنتاجها. هذا ما بدا أن مجلس التجار يفكر فيه. أو ربما يريدون التأكد من أن يول- بايور لن يمنح سر تركيبته لأي شخص آخر».

سألت إيناج: «وهل تعتقد أنهم سيستخدمون غريشا في اقتحام محكمة الجليد بعد تناولهم لتلك التركيبة؟».

أجابها «إن امتلكوا المزيد من هؤلاء الغريتشا، فهذا ما سأفعله لو كنت مكانهم».

هز ماتياس رأسه وقال: «لو امتلكوا متلاعبًا بالقلوب، سوف نصبح جميعًا في عداد الموتى».

أجابت إيناج: «كاد يحدث هذا بالفعل».

وضع جاسبر بندقيته على كتفه وقال: «لقد دفع ويلان ثمن وجوده معنا».

فقفز ويلان من مكانه عندما سمع اسمه، وقال: «حقًّا؟».

«حسنًا دفعت العربون».

قال كاز: «هيا تحركوا».

قالت نينا: «يجب أن ندفنهما».

«إن الأرض شديدة الصلابة ولا نملك متسعًا من الوقت. كما أن الفريق الشاوي في طريقه نحو ديرهولم. وإننا لا نعرف عدد الغريشا الآخرين الذين يتحكمون فيهم، ومن المحتمل أن يكون فريق بيكا

قد تمكن من الدخول إلى هناك بالفعل».

قالت نينا بصوت يختنق بالبكاء «لا يمكننا تركهم فحسب للذئاب».

«هل تريدين أن تقيمي لهم محرقة؟».

«اذهب للجحيم بريكر».

رد عليها قائلًا: «قومي بعملك يا زينيك. لم أحضرك إلى فيردا لكي أقوم بطقوس جنائزية».

رفعت يديها وقالت: «وماذا لو كسرت جمجمتك مثل بيضة؟».

«أنت لا ترغبين في رؤية ما بداخل رأسي عزيزتي نينا».

أخذت نينا خطوة إلى الأمام، لكن ماتياس وقف أمامها.

قال ماتياس: «توقفي. سأقوم بهذا. سأساعدك على حفر قبر لهما». حدقت نينا إليه. أخذ معولًا من معداته وناولها إياه ثم أخذ آخر من حقيبة جاسبر. قال ماتياس للآخرين: «اتجهوا جنوبًا من هذا الاتجاه. أعرف المنطقة جيدًا وسأحرص على اللحاق بكم بحلول الليل. سوف نتحرك أنا ونينا أسرع بمفردنا».

نظر إليه كاز نظرة ثاقبة وقال: «تذكر ذلك العفو فحسب يا هيلفار».

سأل ويلان وهم ينزلون المنحدر: «هل أنتم متأكدون من أن تركهما بمفردهما فكرة جيدة؟».

أجابت إيناج: «كلا».

«لكنا سنفعل ذلك على أي حال».

قال كاز: «لنثق بهما الآن أو لاحقًا».

سأل جاسبر: «هل هناك ما يقلق بشأن السر الذي كشفه ماتياس عن ولاء نينا؟».

استطاعت نينا سماع رد كاز فقط: «أنا متأكد من أن السير الذاتية لمعظمنا تخلو من «الولاء» و الصدق» نحن أيضًا». ورغم أنها أرادت صفع كاز بقوة فإنها لم تستطع منع نفسها من الشعور

نحـوه بـشيء مـن الامتنـان أيضًـا.

مـشى ماتيـاس بضـع خطـوات بعيـدًا عـن جسـد نسـتور. وضرب المعـول في الأرض الثلجيـة ثـم أخرجـه وضربـه مـرة أخـرى.

سألته نينا: «هل سنحفر هنا؟».

«هل تريدين مكانًا آخر؟».

«أنـا... أنـا لا أعـرف». ونظـرت إلى الحقـول التـي تغطيهـا الثلـوج البيضـاء التـي تـبرز فوقهـا بعـض أشـجار البتـولا المتفرقـة هنـا وهنـاك. ثـم قالـت: «تبـدو جميعًـا متشـابهة بالنسـبة إليَّ».

«هل تعرفين آلهتنا؟».

قالت: «أعرف بعضها».

«لكنك تعرفين ديجل».

«الينبوع».

أومـأ ماتيـاس وقـال: «يعتقـد الفيردانيـون أن أنحـاء العـالم كافـة متصلـة عـبر الميـاه - أي أن البحـار والثلـج والأنهـار والجـداول والمطـر والعواصـف تربـط العـالم بعضـه ببعـض. وأنهـا جميعًـا تغـذي ديجـل الـذي يغذيهـا بـدوره. وعندمـا نمـوت، نطلـق عـلى المـوت فيلـوت أوبجـر التجـذر. فنصبـح جـذورًا في شـجرة الرمـاد، ونـشرب مـن ديجـل أيًـا كان المـكان الـذي نرقـد فيـه».

«وهل هذا سبب حرقكم للغريشا بدلًا من دفنهم؟».

صمت ماتياس قليلًا ثم أومأ برأسه.

«لكنـك ستسـاعدني عـلى وضـع نسـتور والمتلاعـب في الريـاح ليرقـدا هنـا في سـلام؟».

أومأ مرة أخرى.

أمسـكت المعـول الآخـر وحاولـت مجاراتـه. ولكنهـا وجـدت الأرض صلبـة وقاسـية، وكلـما ضربـت الأرض بالمعـول، شـعرت باهتـزاز قـوي في ذراعيهـا.

قالـت ولا تـزال الأفـكار تضطـرب في رأسـها: «ليـس مـن المنطقـي أن

يتمكن نستور من فعل هذا. لا يستطيع أي غريشا استخدام القوة بهذه الطريقة. كل هذا خطأ».

صمت ماتياس للحظة ثم قال: «هل فهمتِ الأمر الآن واتضحت لكِ الصورة على نحو أفضل؟ هل تدركين كيف تبدو مواجهة قوة بهذه الغرابة؟ كيف تمكن مواجهة عدو يمتلك قدرة غير طبيعية كتلك؟».

أحكمت نينا قبضتها على المعول. كان نستور تحت رحمة باريم كلية؛ إنه تشويه تام لكل شيء تحبه في قوتها. هل هذا ما يراه ماتياس والفيردانيون الآخرون في الغريشا؟ هل هم بالنسبة إليهم مجرد قوة غريبة تتجاوز قدرة العقل على التفسير؟ هل هم مجرد قوة مدمرة للعالم الطبيعي؟

أجابت نينا: «ربما». وهذا أقصى ما استطاعت قوله.

تحدث متجنبًا النظر إليها «لقد أخبرتني بأنه لم يكن أمامك خيار آخر بشأن ما حدث في ميناء إيلينج». رفع ماتياس المعول وهبط به في إيقاع منتظم. ثم قال: «هل السبب أنني دروسكل؟ هل خططتِ لما فعلته بي طوال الوقت؟».

تذكرت نينا آخر يوم حقيقي لهما معًا والبهجة التي شعرا بها عندما وصلا إلى قمة أحد التلال ليجدا أخيرًا المدينة تمتد في الأسفل بعد أيام طويلة من السير والجوع والتعب. أصابتها الصدمة عندما سمعت ماتياس يقول: «أكاد أشعر بالأسف يا نينا لأننا سنفترق».

«تكاد؟».

«وأنا أشعر بجوع شديد يمنعني من أي شعور بالأسف».

قالت وهما ينزلان التل «أخيرًا خضعت لتأثيري. ولكن كيف سنحصل على الطعام من دون مال؟ ربما أضطر إلى بيع شعرك الجميل لمحل الشعر المستعار من أجل النقود».

قال ماتياس وهو يضحك: «لا تحملي هم شيء». أصبحت ضحكات ماتياس تصدر بسهولة أكبر خلال سفرهما معًا كأنه أتقن لغة

جديدة، وقال: «لو أن هذه المدينة التي وصلنا إليها هي إيلينج، سأتمكن من العثور على سكن لنا».

توقفت عندئذ وتذكرت حقيقة موقفهما بوضوح مريع. لقد توغلت في أرض العدو دون حلفاء باستثناء دروسكل رماها في قفص منذ أسابيع قليلة. لكن قبل أن تستطيع التحدث، قال ماتياس: «أنا مدين لك بحياتي يا نينا زينيك. سوف أساعدك على الوصول إلى وطنك بسلام».

تعجبت من سهولة وثوقها به. ووثوقه بها أيضًا.

عندئذ أرجحت المعول وشعرت بتأثير الحفر يتردد في ذراعيها وكتفيها وقالت: «كان هناك غريشا في إيلينج».

توقف في منتصف ضربته للأرض وقال: «ماذا؟».

«حين وصلنا إلى إيلينج كان هناك جواسيس يقومون بأعمال استطلاع في الميناء. رأوني أدخل الميدان الرئيسي برفقتك وتعرفوا عليّ، كانوا يعرفونني من أيام ذهابي إلى القصر الصغير. وتعرف أحدهم عليك أيضًا يا ماتياس. عرفك من إحدى المناوشات التي حدثت بالقرب من الحدود».

ظل ماتياس ساكنًا.

قالت نينا: «دبروا لي كمينًا عندما ذهبت للتحدث مع مدير النزل. أقنعتهم بأنني متخفية أيضًا. أرادوا أن يأخذوك كسجين ولكني أخبرتهم بأنك لست وحدك وأنه من الخطر الشديد أن يحاولوا الإمساك بك على الفور. ووعدتهم بإحضارك لهم في اليوم التالي».

«لماذا لم تخبريني؟».

رمت نينا المعول أرضًا وقالت: «أخبرك بأن هناك جواسيس من الغريشا في إيلينج؟ ربما عقدت السلام معي، ولكن لا تتوقع مني أن أصدق أنك لن تفضح أمرهم».

نظر ماتياس بعيدًا وارتعشت عضلة في فكه وعرفت أنها تقول

الحقيقـة.

قال: «ذلك الصباح على الرصيف البحري ــــــــــــــــــ»

«كان علينـا الابتعـاد عـن إيلينـج بـأسرع مـا يمكـن، لقـد ظننـت أننـي لـو استطعت العثـور عـلى سـفينة لنختبـئ فيهـا... لكـن سـبقني الغريشـا وكانـوا أسرع منـي وربمـا راقبـوا النـزل ورأونـا ونحـن نغـادره. عندمـا ظهـروا عـلى الرصيـف البحـري عرفـت أنهـم قـد أتـوا مـن أجلـك يـا ماتيـاس. لـو أمسـكوا بـك فلربمـا أخـذوك إلى رافـكا واسـتجوبوك وربما أعدمـوك. رأيـت حينهـا تاجـرًا مـن كيرتـش. وأنـت تعـرف قوانينهـم بشـأن تجـارة الرقيـق».

قال بمرارة: «أعرف بالطبع».

«اتهمتـك بتلـك التهمـة. ورجوتهـم أن ينقـذوني منـك. عرفـت أنهـم سـيلقون بـك في الحجـز ويحضروننـا بسـلام إلى كيرتـش. لم أعـرف يـا ماتيـاس - لم أعـرف أنهـم سـيلقون بـك في سـجن بوابـة الجحيـم».

نظـر إليهـا مسـتنكرًا: «لمـاذا لم تتحـدثي؟ لمـاذا لم تخبريهـم بالحقيقـة عندمـا وصلنـا إلى كـتردام؟».

«حاولـت. أقسـم لـك. حاولـت إنـكار التهـم عنـك، لكنهـم لم يسـمحوا لي بالمثـول أمـام القـاضي. ولم يسـمحوا لي برؤيتـك. لم أسـتطع تفسـير الختـم الـذي حصلـت عليـه مـن تجـار الرقيـق أو سـبب اتهامـي لـك، ليـس مـن دون أن أكشـف لهـم عمليـات الاسـتخبارات الرافكانيـة. وكنت بذلـك سـأفضح أمـر الغريشـا الذيـن لا يزالـون في الميـدان. سأتسـبب في الحكـم عليهـم بالمـوت».

«لذلك تركتني أتعفن في بوابة الجحيم».

«كان باسـتطاعتي الذهـاب إلى رافـكا إن أردت الذهـاب. ولكنـي بقيت في كـتردام. تخليـت عـن راتبـي مـن أجـل الرشـاوى وتقديـم الالتماسـات للمحكمة ــــــــــــــــــ»

«لقد فعلتِ كل شيء باستثناء قول الحقيقة».

أرادت نينـا أن تعـرب لـه عـن أسـفها وأن تبـدو لطيفـة معـه بـأن

تخبره كيف فكرت فيه كل يوم وكل ليلة. لكن صورة المحرقة كانت لا تزال ماثلة في عقلها. قالت: «حاولت حماية شعبي؛ الشعب الذي قضيت حياتك في محاولة القضاء عليه».

ضحك ماتياس ضحكة حزينة وقلب المعول في يديه وقال: «واندين أولستروم إيند كيندسوروم».

هذا الجزء الأول من مثل فيرداني يعني أن الماء يسمع ويفهم. هذا يبدو لطيفًا لكن ماتياس عرف أن نينا تعرف بقيته.

أكملت نينا: «إيزن ني بيجستروم». الماء يسمع ويفهم. والثلج لا يسامح.

«وماذا ستفعلين الآن يا نينا؟ هل ستخونين الأشخاص الذين تطلقين عليهم أصدقاءك مرة أخرى من أجل الغريشا؟».

«ماذا؟».

«لا تخبريني بأنكِ تنوين ترك بو يول- بايور حيًّا».

لقد عرفها وفهمها جيدًا. أصبحت نينا الآن أكثر تيقنًا، مع كل ما عرفته عن يوردا باريم، أن الطريقة الوحيدة لحماية الغريشا هي إنهاء حياة ذلك العالم. تذكرت نستور وهو يتوسل بينما يلفظ أنفاسه الأخيرة أن يعود أسياده الشاويون. قالت نينا: «لا أتحمل فكرة تحول شعبي إلى عبيد يا ماتياس. وهناك دين في عنقي يجب علي سداده لك. العفو هو كفارتي، ولن أكون الشخص الذي يحرمك من حريتك مرة أخرى».

«أنا لا أريد العفو».

حدقت إليه وقالت: «لكن ــــــــــــــ»

«ربما يصبح شعبك عبيدًا. أو ربما يتحولون إلى قوة لا تقهر. لو عاش يول- بايور وانكشف سر يوردا باريم سيصبح أي شيء محتملًا».

نظر الاثنان أحدهما إلى الآخر للحظة طويلة. مالت الشمس إلى الغروب وسقط الضوء في أعمدة ذهبية فوق الثلج. وتمكنت من رؤية رموش ماتياس الشقراء تطل عبر الكحل الأسود الذي

تستخدمه في صباغتها. عليها أن تغير شكله مرة أخرى.

في الأيام التي تلت تحطم السفينة، عقدت هي وماتياس هدنة مضطربة. فما نشأ بينهما شيء أقوى من العاطفة - فهما أنهما جنديان، وأنهما في حياة أخرى ربما يكونان حليفين وليس عدوين. شعرت نينا بذلك الآن كما لم تشعر به من قبل.

قالت نينا: «هذا يعني خيانة جماعة كاز، وبذلك لن يحصلوا على المال من مجلس التجار».

«صحيح».

«سوف يقتل كاز كلًّا منا».

«هذا إذا عرف الحقيقة».

«هل جربت الكذب على كاز بريكر؟».

هز ماتياس كتفيه وقال: « علينا إذًا أن نموت كما حيينا».

نظرت نينا إلى جسد نستور الهزيل وقالت: «أن نموت من أجل قضية نبيلة».

«نحن نفكر في الشيء نفسه يا نينا. لا بد ألا يغادر بو يول-بايور محكمة الجليد حيًّا».

قالت نينا بلغة كيرتش، وهي لغة التجارة واللغة التي لا ينتمي إليها أي منهما: «الاتفاق اتفاق رغم كل شيء».

ردد كلامها قائلًا: «الاتفاق اتفاق رغم كل شيء».

أرجح ماتياس المعول وصنع قوسًا وهو يضرب الأرض كنوع من الإعلان عن بداية جديدة. ورفعت نينا المعول وفعلت المثل. ومن دون كلمة واحدة، عاد الاثنان إلى العمل على القبر في تناغم وعزم.

إن كاز محق في شيء واحد على الأقل. ففي النهاية وجدت نينا وماتياس شيئًا يتفقان عليه.

الجزء الرابع
خدعة السقوط

-٢١-

إيناج

شعرت إيناج كما لو أنها قد أصبحت هي وكاز جنديين توأمين، فسارا وتظاهرا بأنهما بخير، وأخفيا جروحهما وكدماتهما عن بقية أفراد الطاقم.

استغرق الأمر يومين آخرين من السفر للوصول إلى المنحدرات التي تطل على جيرهولم، ولكن أصبح المسير أسهل عندما تحركوا جنوبًا ونحو الساحل. فقد أصبح الطقس دافئًا، وذاب الجليد، وبدأت إيناج ترى علامات مقدم الربيع. لقد اعتقدت أن جيرهولم ستبدو مثل كتردام - بها خيام سوداء ورمادية وبنية اللون، وشوارع متداخلة مغطاة بالضباب ودخان الفحم، وسفن من كل نوع في الميناء، وتعج بصخب التجارة ونشاطها. كان ميناء جيرهولم مزدحمًا بالسفن بالفعل، لكن شوارعها المرتبة تقود إلى البحر بطريقة منظمة، والمنازل مطلية بالألوان -الأحمر والأزرق والأصفر والوردي- وبدت كما لو كانت تتحدى الأرض الشاحبة القاحلة وفصول الشتاء الطويلة في الشمال. فحتى المستودعات الموجودة على رصيف الميناء مزينة بألوان مبهجة. لقد بدا المنظر على الصورة التي تخيلت بها المدن في طفولتها، كل شيء ملوّن بألوان الحلوى وفي مكانه المناسب بالضبط.

هل انتظرت السفينة فيروليند بالفعل في المرفأ، مثبتة في مرساها وهي ترفع علم كيرتش الخاص بها واللونين البرتقالي والأخضر المميزين لشركة خليج هانرادت؟ لو سارت الخطة بالطريقة التي يأملها كاز، فسوف يتنزهون في اليوم التالي على رصيف ميناء جيرهولم برفقة بو يول- بايور، ويستقلون سفينتهم، وينطلقون في عرض البحر قبل أن ينتبه أي شخص في فيردا. ولكن إيناج فضّلت

عـدم التفكـير فيـما سـتبدو عليـه ليلـة الغـد إذا فشـلت الخطـة.

نظـرت إينـاج إلى حيـث تسـتقر محكمـة الجليـد كأنهـا حـارس أبيـض عظيـم عـلى منحـدر ضخـم يطـل عـلى الميـنـاء. لقـد وصـف ماتيـاس المنحـدرات بأنـه لا يمكـن تسـلقها، وعـلى إينـاج أن تعـترف بأنهـا ستشـكل تحديًـا حتـى بالنسـبة إلى الريـث. لقـد بـدت مرتفعـة بشـكل يسـتحيل معـه تسـلقها، ومـن بعيـد بـدا سـطحها الأبيـض الجـيري نقيًـا ولامعًـا كالجليـد.

قال جاسبر: «هذا هو المدفع».

حـدق كاز إلى البنـادق الكبـيرة الموجهـة نحـو الخليـج، وقـال: «لقـد اقتحمـت بنـوكًا ومسـتودعات وقصـورًا ومتاحـف وخزائـن ومكتبـة للكتـب النـادرة، وذات مـرة اقتحمـت غرفـة نـوم دبلومـاسي مـن كاليـش؛ كانـت زوجتـه شـغوفة بالزمـرد، لكننـي لم أحـظ بتجربـة أن يُطلـق عـليّ مدفـع قـط».

اقترح جاسبر قائلًا: «على الأقل هناك شيء من التجديد».

زمـت إينـاج شـفتيها للداخـل، ثـم قالـت: «آمـل ألا يصـل الأمـر لهـذا الحد».

قـال جاسـبر بثقـة: «هـذه المدافـع موجـودة لصـد غـزو الأسـاطيل. أتمنـى أن يصيـب الحـظ السـعيد مركبًـا شراعيًـا صغـيرًا يقطـع الأمـواج متجهًـا نحـو الـثروة والمجـد».

قالـت نينـا: «سـأقتبس مـن كلامـك هـذا عندمـا تهبـط إحـدى قذائـف المدفـع في حِجري».

تسـللوا بسـهولة في زحـام المسـافرين والتجـار حيـث يلتقـي طريـق المنحـدر بالطريـق الشـمالي الـذي يـؤدي إلى جيرهـولم العليـا. كانـت المدينـة العليـا امتـدادًا للمدينـة السـفلى، وهـي مجموعـة مترامية الأطـراف مـن المتاجـر والأسـواق والنُّـزُل التـي تلبـي احتياجـات الحـراس والموظفـين الذيـن يعملـون في محكمـة الجليـد وكذلـك الـزوار. لحسـن الحـظ، كانـت الحشـود مكتظـة ومتنوعـة لدرجـة تُمكِّـن أي مجموعـة

مـن الأجانـب أن تتنقَّـل دون أن يلاحظهـا أحـد، ووجـدت إينـاج نفسـها تشـعر بالارتيـاح بعـض الـشيء. لقـد قلقـت مـن أن تصبـح هـي وجاسـبر لافتَـين للنظـر بشـكل خطـير في المجموعـات الكبـيرة مـن الشُّـقْر في عاصمـة فـيردان. وربمـا اعتمـد طاقـم شـو هـان عـلى الحشـود المكتظـة مـن أجـل التخفّـي أيضًـا.

انتـشرت مظاهـر احتفـالات هرينغـكالا في كل مـكان. وابتكـرت المتاجـر طرقًـا متقنـة لعـرض كعـك الفلفـل المخبـوز عـلى شـكل ذئـاب، وتـدلى بعضـه مـن أشـجار ضخمـة ملتويـة كالزخـارف، وتم تزيـين الجسر الممتـد عـلى مضيـق النهـر بأشرطـة مـن فضـة فـيردان. وظهـر طريـق يـؤدي إلى محكمـة الجليـد وطريـق للخـروج منهـا. فهـل سـيعبرون هـذا الجـسر كـزوار غـدًا؟

سـأل ويـلان وهـو يتوقـف أمـام عربـة بائـع متجـول محملـة بالأكاليل المصنوعـة مـن نفـس الفـروع الملتويـة والأشرطـة الفضيـة: «ما هـذا؟».

أجاب ماتياس: «إنها أشجار الدردار، وهي مقدسة عند جيل».

قالـت نينـا، متجاهلـة المظهـر التحذيـري الـذي تبـدو عليهـا فـيردان: «مـن المفـترض أن توجـد واحـدة في وسـط الجزيـرة البيضـاء، إنـه المـكان الـذي يجتمـع فيـه الدروسـكل مـن أجـل مراسـم الاسـتماع».

نقـر كاز بعصـا المـشي الخاصـة بـه عـلى الأرض، وقـال: «لمـاذا هـذه أول مـرة أسـمع فيهـا بذلـك؟».

قـال ماتيـاس: «إن الـدردار يسـتمد اسـتمراره مـن روح جيـل، إنـه المـكان الـذي قـد نسـمع فيـه صوتـه عـلى نحـو أفضـل».

لمعـت عينـا كاز وقـال: «ليـس هـذا مـا سـألتُ عنـه. لمـاذا لم ننتبـه لهـذا في خططنـا؟».

رد ماتيـاس: «لأنـه أقـدس مـكان في جميـع أنحـاء فـيردا، وليـس ضروريًـا لمهمتنـا».

قـال كاز: «أنـا الـذي أقـرر مـا هـو ضروري. هـل هنـاك شيء آخـر قـررتَ إغفالـه بحكمتـك العظيمـة؟».

قـال ماتيـاس وهـو يسـتدير: «إن محكمـة الجليـد مبنـى ضخـم للغايـة، لا يمكننـي وصـف كل صـدع وركـن فيـه».

فـرد كاز: «إذًا؛ لنأمـل ألا يكـون هنـاك شيء مترصـدًا لنـا في تلـك الأركان».

لم يكـن في جيرهـولم العليـا مركـز حقيقـي، لكـن الجـزء الأكـبر مـن حاناتهـا ونُزُلهـا وأكشـاك سـوقها كان يتمركـز حـول قاعـدة التـل المـؤدي إلى محكمـة الجليـد. وعـلى مـا يبـدو، فقـد قادهـم كاز دون وجهـة محـددة عـبر الشـوارع حتـى وجـد حانـة متداعيـة تسـمى الجيسـتينج.

سـأل جاسـبر متذمـرًا وهـو يحـدق إلى الغرفـة الرئيسـية الرطبـة: «هـل سـننزل هنـا؟». فالمـكان كلـه تفـوح منـه رائحـة الثـوم والسـمك.

نظر كاز نظرة فاحصة إلى الأعلى وقال: «إن بها شُرفة».

تساءلت إيناج بصوت عالٍ: «ما معنى كلمة جيستينج؟».

قـال ماتيـاس: «إنهـا تعنـي «الجنـة»». ولكنـه نفسـه بـدا متشـككًا مـن ذلـك.

سـاعدت نينـا في توفـير طاولـة لهـم عـلى شرفـة سـطح الحانـة. كانـت معظـم الطـاولات فارغـة، فـلا يـزال الطقـس بـاردًا جـدًّا عـلى جـذب العديـد مـن الزبائـن. أو ربمـا خافـوا مـن الطعـام الـذي يتـم تقديمـه - سـمك الرنجـة في الزيـت النـتن، والخبـز الأسـود المتعفـن، وبعـض أنـواع الزبـد التـي بـدت مكسـوة بالطحالـب بشـكل واضـح.

نظـر جاسـبر إلى طبقـه وتـأوه هـو يقـول: «كاز، إن أردت لي أن أمـوت، فأنـا أفضـل الرصـاص عـلى السـم».

وأغلقـت نينـا أنفهـا وهـي تقـول: «عندمـا لا أرغـب في تنـاول الطعـام، فأنـت تعلـم أن هنـاك مشـكلة».

قال كاز: «نحن هنا من أجل الرؤية، وليس الطعام».

اتخـذوا زاويـة رؤيـة واضحـة، وإن كانـت بعيـدة، للبوابـة الخارجيـة لمحكمـة الجليـد وغرفـة الحراسـة الأولى. لقـد تـم بنـاء الحانـة عـلى هيئـة قـوس أبيـض يشـكله ذئبـان حجريـان ضخـمان يجلسـان عـلى

رجليهما الخلفيتين، وتمتد على الطريق المؤدي إلى أعلى التل إلى المحكمة. شاهدت إيناج والآخرون حركة السير دخولًا وخروجًا من خلال البوابات بينما يتفحصون غداءهم منتظرين إشارة لعربات السجن. واستعادت إيناج شهيتها أخيرًا، وتناولت أكبر قدر ممكن لشحن طاقتها، لكن الطبقة العليا من الحساء الذي طلبته لم تساعدها كثيرًا على ذلك.

لم توجد قهوة ليحتسوها، ومن ثم فقد طلبوا شايًا وكؤوسًا صغيرة من مشروب البرانفين الصافي الذي ألهبهم شربه، لكنه ساعدهم على استمرار شعورهم بالدفء مع هبوب الرياح محركة الأشرطة الفضية المربوطة في أغصان الدردار التي تملأ الشارع بالأسفل.

قالت نينا: «سوف نلفت النظر قريبًا، فهذا المكان ليس من النوعية التي يحب الناس البقاء فيها لمدة طويلة».

فقال ويلان: «ربما ليس لديهم مَن يقتادونه إلى السجن».

فأجاب كاز: «هناك دائمًا من يتم اقتياده إلى السجن»، ثم أومأ برأسه باتجاه الطريق، وقال: «انظروا».

هناك شاحنة صندوقية تتدحرج لتتوقف عند غرفة الحراسة. كان سقفها وجوانبها المرتفعة مغطاة بقماش أسود، وتجرها أربعة خيول قوية. والباب الخلفي للعربة مصنوع من الحديد الثقيل، ومُثبت بقوة ومغلق بإحكام.

وضع كاز يده في جيب معطفه، وقال: «خذ» وهو يسلم جاسبر كتابًا رقيقًا بغلاف مقوى.

تساءل جاسبر: «هل سنقرأ لبعضنا البعض؟».

قال كاز: «فقط افتحه على آخر صفحة».

فتح جاسبر الكتاب ونظر إلى الصفحة الأخيرة في حيرة متسائلًا: «ماذا إذًا؟».

أمره كاز: «ارفعه حتى لا نضطر إلى النظر إلى وجهك القبيح».

بدأ جاسبر في القول: «وجهي له شخصية. إلى جانب - أوه!».

قال كاز: «ممتاز للقراءة، أليس كذلك؟».

تهكم جاسبر: «مَن كان يعلم أن لديَّ ميلًا للأدب؟».

ثـم مـرر الكتـاب إلى ويـلان، الـذي أخـذه بـتردد وهـو يقـول: «مـا المكتـوب؟».

قال جاسبر: «فقط انظر».

عبـس وجـه ويـلان ورفـع الكتـاب ثـم ابتسـم ابتسـامة عريضـة، وسـأل: «مـن أيـن حصلـت عـلى هـذا الكتـاب؟».

حان دور ماتياس وأطلق شخيرًا مفاجئًا.

قـال كاز: «إنـه يسـمى كتابًـا بـلا ظهـر»، بينـما أخـذت إينـاج الكتـاب مـن نينـا ورفعتـه. وجـدت الصفحـات مليئـة بالمواعـظ العاديـة، لكـن الغـلاف الخلفـي المزخـرف أخفـى عدسـتين شـكلتا منظـارًا طويـلًا. وفيـما مـضى، كان كاز يأمرهـا بـأن تراقـب النسـاء الـلائي يسـتخدمن مناظـير عاكسـة مماثلـة في نـادي الغـراب؛ فيمكنهـن قـراءة الـورق الـذي يمسـكه اللاعـب مـن جميـع أنحـاء الغرفـة، ثـم يـشرن إلى شركائهـن الموجوديـن عـلى الطاولـة.

قالـت إينـاج وهـي تنظـر مـن خـلال الكتـاب: «حركـة ذكيـة»، ففـي نظـر النـادل والزبائـن الآخريـن الموجوديـن بالشرفـة، بـدا الأمـر كـما لـو يتبادلـون كتابًـا فيـما بينهـم، ويناقشـون بعـض الفقـرات المثـيرة للاهتـمام. بينـما أتيحـت لإينـاج رؤيـة مقربـة لبوابـة الحراسـة والعربـة المتوقفـة أمامهـا.

كانـت البوابـة الموجـودة بـين الذئبـين الرابضـين مصنوعـة مـن الحديـد المطـاوع، وعليهـا رمـز الـدردار المقـدس ويتاخمهـا سـياج شـائك مرتفـع يحيـط بـأرض محكمـة الجليـد.

لاحظـت إينـاج قائلـة: «هنـاك أربعـة حـراس»، وهـو مـا أيـده ماتيـاس بالضبـط. وتمركـز حارسـان عـلى كل جانـب من جوانـب البوابـة، وتحدث أحدهـما مـع سـائق عربـة السـجن، الـذي سـلمه حزمـة مـن الوثائق.

قـال ماتيـاس: «إنهـم خـط الدفـاع الأول، سـيتحققون مـن الأوراق

ويتأكدون من الهويات، ويضعون علامات على أي شخص يعتقدون أنه يتطلب رقابة عن كثب. وفي مثل هذا الوقت من الغد، سيكون الخط الذي يمر عبر البوابات ممتلئًا بضيوف هرينغكالا، وسيتم دعمه على طول الطريق إلى المضيق».

قال كاز: «بحلول ذلك الوقت سنكون في الداخل».

فسأل جاسبر: «كم مرة تنقل العربات سجناء في اليوم؟».

قال ماتياس: «حسب الظروف، ولكن عادة في الصباح. وفي بعض الأحيان في فترة ما بعد الظهر، لكن لا أعتقد أنهم سيريدون وصول سجناء في نفس وقت وصول الضيوف».

قال كاز: «إذًا علينا أن نستقل العربة الأولى».

رفعت إيناج الكتاب الذي بلا غلاف خلفي مرة أخرى، فرأت سائق العربة وهو يرتدي زيًا رسميًا رماديًا مشابهًا للزي الذي يرتديه الحراس الموجودون على البوابة، ولكن لم يوجد به أي وشاح أو زخرفة. نزل السائق من مقعده وانطلق لفتح الباب الحديدي.

قالت إيناج عندما فُتح الباب: «بحق القديسين»؛ فقد رأت عشرة سجناء يجلسون على مقاعد تمتد بطول العربة، ومعاصمهم وأقدامهم مقيدة، وتغطي رؤوسهم أكياس سوداء.

أعادت الكتاب إلى ماتياس، ومع تناقله فيما بينهم، شعرت إيناج بأن مخاوف المجموعة تتزايد. وبدا كاز هو الوحيد الذي لا يشعر بالانزعاج.

قال جاسبر: «مغطو الرأس ومقيّدون ومكبلون بالسلاسل؟ هل أنت متأكد من أننا لا نستطيع أن ندخل كفناني ترفيه؟ لقد سمعت أن ويلان يعزف على الناي بشكل رائع».

قال كاز: «سندخل كما نحن، كمجرمين».

أمعنت نينا النظر من خلال عدسات الكتاب وقالت: «إنهم يقومون بإحصاءٍ لعدد الأشخاص».

أومأ ماتياس برأسه وقال: «إذا لم يتغير الإجراء، فسيقومون بإحصاء

سريع لعدد الأشخاص عند نقطة التفتيش الأولى، ثم إحصاءٍ ثانٍ عند نقطة التفتيش التالية، حيث سيبحثون في الداخل وفي الهيكل السفلي عن أي بضائع مهربة».

سلمت نينا الكتاب إلى إيناج وهي تقول: «سيلاحظ السائق وجود ستة سجناء زائدين عندما يفتح الباب».

قال كاز بجفاء: «لو أنني فكرت في ذلك فقط، يمكنني أن أقول إنك لم تنشلي محفظةً قط».

قالت نينا: «وأستطيع أن أقول إنك لم تفكر بما فيه الكفاية في قصة شعرك».

عبس كاز ومرر يده على جانب رأسه وهو يقول: «ليست هناك مشكلة في قصة شعري التي لا يمكن إصلاحها بأربعة ملايين كروج».

أمال جاسبر رأسه إلى أحد الجوانب، وامتلأت عيناه الرماديتان بالحماسة وقال: «سوف نستخدم بانكيبسكويت، أليس كذلك؟».

قال كاز: «بلى، بالضبط».

قال ماتياس، وهو ينطق المقطعين الصوتيين معًا: «أنا لا أعرف تلك الكلمة: بانكيبسكويت».

رمقت نينا كاز بنظرة حادة. «ولا أنا كذلك. نحن لسنا محنكين مثلك، يا صاحب اليد القذرة».

فقال كاز بكل بساطة: «ولن تصبحي كذلك أبدًا. أتتذكرين صديقنا مارك؟». جفل ويلان. واستطرد كاز: «لنفترض أن الهدف هو سائح يسير في الباريل. لقد سمع أنه مكان يسهل التعرض للسرقة فيه، لذلك فإنه يستمر في تحسس محفظته والتأكد من وجودها وتهنئة نفسه على مدى يقظته وحذره، وعلى أنه ليس أحمق. بالطبع في كل مرة يتحسس فيها جيبه الخلفي أو الجزء الأمامي من معطفه، ماذا يفعل في الحقيقة؟ إنه يخبر كل لص يحوم حوله عن مكان احتفاظه بمحفظته بالضبط».

قالت نينا متذمرة: «بحق القديسين. أعتقد أني أفعل ذلك حقًّا».
فقالت إيناج: «الجميع يفعل ذلك».
رفع جاسبر حاجبه وقال: «ليس الجميع».
ردت نينا: «هذا فقط لأنك لا تملك أي شيء في محفظتك».
«يا لك من وضيعة».
«بل واقعية».
قال جاسبر بتلويحة متجاهلة: «لا يهتم بالحقائق إلا ذوو الخيال الفقير».
وتابع كاز قائلًا: «إذًا، اللص السيئ، هو ذلك اللص غير المتمرس الذي يخطف الأشياء ويحاول الهرب بها. إنها طريقة سهلة ليتم القبض عليه من قبل شرطة ستادووتش، لكن اللص الجيد -مثلي- يأخذ المحفظة ويضع شيئًا آخر مكانها».مكتبة سُر مَن قرأ
«علبة بسكويت مثلًا؟».
«بانك بسكويت هو مجرد اسم. فيمكن أن يكون هذا الشيء حجرًا أو قطعة صابون أو حتى لفافة قديمة إن كان حجمها مناسبًا. فبإمكان اللص الجيد أن يعرف وزن المحفظة تمامًا من خلال الطريقة التي تُشكل بها تدلِّي معطف الرجل؛ فهو يقوم بالتبديل، ويستمر الهدف المسكين في تحسس جيبه، وهو سعيد للغاية. ولن يدرك ذلك إلا عندما يحاول دفع ثمن عجة بيض أو وضع رهان على إحدى الطاولات، وعندئذ يدرك أنه مغفل. وبحلول ذلك الوقت، يصبح اللص في مكان آمن يعد ماله».
استدار ويلان في مقعده وقال بحزن: «إن خداع الأبرياء ليس شيئًا يدعو للفخر».
أومأ كاز برأسه باتجاه عربة السجن، وهي تتحرك عندئذ على الطريق المؤدي إلى محكمة الجليد ونقطة التفتيش الثانية، وقال: «إنه كذلك إذا فعلته بشكل جيد. سوف نصبح كالبسكويت في

العربـة».

قالـت نينـا: «مهـلًا، فالبـاب يُقفـل مـن الخـارج. فكيـف سـندخل ونغلقـه ثانيـة؟».

قـال كاز: «هـذه تصبـح مشـكلة فقـط إذا كنـتِ لا تعرفـين لصًـا جيـدًا. اتركـوا أمـر الأقفـال لي».

مـدد جاسـبر سـاقيه الطويلتـين وقـال: «إذًا، علينـا أن نحـرر ونفـك قيـود ستة سـجناء، ونأخـذ أماكنهـم، وبطريقـة مـا نُحكـم إغـلاق العربة مـرة أخـرى دون أن ينتبـه الحـراس أو السـجناء الآخـرون؟».

«هذا صحيح».

«هل هناك أشياء أخرى مستحيلة تريدنا أن نفعلها؟».

بـدت ابتسـامة بسـيطة عـلى شـفتيْ كاز وهـو يقـول: «سـأعد لـك قائمـة بذلـك».

بعيـدًا عـن فنـون اللصوصيـة الجيـدة، ودت إينـاج لـو تمكنـت مـن نـوم ليلـة جيـدة في فـراش وثـير، ولكـن ليسـت هنـاك إقامـة مريحـة في نـزل، لا سـيما إن كانـوا يخططـون ليجـدوا طريقهـم إلى عربـة سـجن والدخـول إلى محكمـة الجليـد قبـل بـدء هرينغـكالا. فهنـاك الكثـير مـما يجـب فعلـه.

تـم إرسـال نينـا للتحـدث مـع السـكان المحليـين ومحاولـة اكتشـاف أفضـل مـكان لنصـب كمينهـم للعربـة. بعـد تقززهـم مـن رنجـة حانـة جيسـتينج، طلبـوا مـن كاز أن يطعمهـم شـيئًا صالحًـا لـلأكل، وانتظـروا نينـا في مخبـز مزدحـم، وهـم يرتشـفون القهـوة السـاخنة الممزوجـة بالشـيكولاتة، وبقايـا الكعـك الـذي أكلـوه منتـشرة عـلى مائدتهـم في أكـوام صغـيرة مـن فتـات الزبـد. ولاحظـت إينـاج أن ماتيـاس لم يمـس كوبـه الـذي بـدأ يـبرد ببـطء، وهـو يحـدق خـارج النافـذة.

فقالـت بهـدوء: «لا بـد أن هـذا صعـب عليـك، أن تكـون هنـا دون أن تكـون في منزلـك».

فنظـر إلى كوبـه وقـال: «ليسـت لديـك فكـرة عـن مـدى صعوبـة ذلـك».

«أظنني لديَّ فكرة. فأنا لم أرَ منزلي منذ وقت طويل».

استدار كاز وبـدأ التحـدث مـع جاسـبر. ويبـدو أنـه يفعـل ذلـك كلـما ذكـرت إينـاج أمـر العـودة إلى رافـكا. بالطبـع، إنهـا ليسـت متأكـدة مـن أنهـا سـتجد والديهـا هنـاك. فالسـولي قـوم رحالـة. و«المنـزل» بالنسـبة إليهـم هـو العائلـة فقـط.

سألت إيناج: «هل أنت قلق من وجود نينا هناك بالخارج؟».

«كلا».

«إنها جيدة للغاية في ذلك، كما تعلم. إنها ممثلة بالفطرة».

فقال متجهمًا: «أعرف ذلك، يمكنها أن تكون أي شيء لأي شخص».

«إنها تكون في أفضل حالاتها عندما تتصرف على طبيعتها».

«ومَن الذي تتقمص شخصيته الآن؟».

«أظن أنك تعرف أفضل من أي واحد منا».

فعقد ذراعيه الضخمتين، وقال على مضض: «إنها شجاعة».

«وظريفة».

«بل خرقاء. يجب ألا يكون كل شيء مزاحًا».

فقالت إيناج: «إنها جريئة».

«بل مزعجة».

«إذًا، فلماذا تستمر عيناك في البحث عنها وسط الحشود؟».

فاحتـج ماتيـاس قائـلًا: «إنهـما لا تفعـلان ذلـك». واضطـرت إينـاج إلى الضحـك مـن ضراوة عبوسـه. فسـحب إصبعـه مـن كومـة مـن الفتـات وقـال: «نينـا هـي كل مـا تقولينـه. وهـذا أكـثر مـن الـلازم».

غمغمـت إينـاج، وهـي تأخـذ رشـفة مـن قدحهـا: «إممممـم، ربمـا لا تكـون أنـت كفـؤًا تمامًـا».

وقبـل أن يتمكـن مـن الـرد، جلجـل الجـرس الموجـود عـلى بـاب

المخبز، ودخلت نينا بخدود وردية، وشعر بني معقود بشكل رائع، وقالت: «يجب أن يبدأ أحدهم في إطعامي سويت رول على الفور».

وعلى الرغم من تذمر ماتياس، لم تتخيل إيناج الراحة التي علت وجهه.

استغرقت نينا أقل من ساعة لتكتشف أن معظم عربات السجن تمر بحانة معروفة باسم واردنز وايستيشن على الطريق إلى محكمة الجليد. وكان على إيناج والآخرين قطع مسافة ميلين تقريبًا خارج جيرهولم العليا لتحديد موقع الحانة. وهي حانة مزدحمة للغاية مكتظة بالمزارعين والعمال المحليين الذين ينتظرون مَن يستأجرهم. لذا انطلقوا في الطريق، وحين وجدوا مكانًا به تغطية كافية ومجموعة من الأشجار كبيرة بما يكفي لتناسب غرضهم، شعرت إيناج بأنها على وشك الانهيار. وحمدت قديسيها على طاقة جاسبر التي تبدو غير محدودة. لقد تطوع بمرح للمواصلة وحراسة المكان. وعندما تتحرك عربة السجن، سيعطي إشارة إلى بقية أفراد الطاقم بشعلة ضوئية، ثم يعود سريعًا للانضمام إليهم.

استغرقت نينا بضع دقائق في خياطة ساعد جاسبر، وإخفاء وشم الدريجز ووضع رقعة من الجلد عليه. وسوف تتولى أمر وشومها هي وكاز في تلك الليلة. ربما لا يتعرف أي شخص في السجن على علامات عصابة كتردام أو بيوت الدعارة، لكن ليس هناك داعٍ لترك أي شيء للصدفة.

قال جاسبر وهو يغيب في الشفق، وساقاه الطويلتان تقطعان المسافة بسهولة: «لا يوجد حداد».

فردوا قائلين: «لا توجد جنازات». ولكن إيناج أرسلت معه بعض الأدعية الحقيقية أيضًا. لقد علمت أن جاسبر مسلح تسليحًا جيدًا ويمكنه الاعتناء بنفسه، لكن يتضح من جسده النحيل وجلده الزيمني أنه بحاجة ماسة إلى الراحة.

عسكروا في واد جاف تحده مجموعة متشابكة من الشجيرات، وتبادلوا الحراسة والنوم على الأرض الصخرية الصلبة. وعلى الرغم من شعورها بالإجهاد، لم تعتقد إيناج أنها ستتمكن من النوم، ولكنها لم تدرِ بنفسها إلا عندما سطعت الشمس عالية فوقهم بوهج ساطع في سماء ملبدة بالغيوم. ولا بد أن الوقت قد تجاوز الظهيرة. فاستقرت نينا على جانبها وبيدها قطعة من كعكة من كعكات ذئب الفلفل التي اشترتها في جيرهولم العليا. ورأت إيناج أن شخصًا ما قد أشعل نارًا منخفضة، والبقايا اللزجة لقطعة من البارافين المذاب بادية في رمادها.

سألت وهي تتفقد الوادي الفارغ: «أين البقية؟».

«في الطريق. لقد أمر كاز أن ندعكِ تنامين».

فركت إيناج عينيها. وافترضت أن ذلك بسبب إصاباتها. وربما لم تُخْفِ إجهادها جيدًا على الإطلاق. وفجأة صدر صوت طقطقة مفاجئ على الطريق جعلها تقف على قدميها وتسحب سكاكينها في ثوانٍ.

فقالت نينا «اهدئي، إنه ويلان».

ويبدو أن جاسبر قد أعطى الإشارة بالفعل. فأخذت إيناج الكعكة من نينا وسارعت إلى حيث كاز وماتياس يشاهدان ويلان يصدر ضجيجًا بشيء ما عند جذع شجرة تنوب أحمر ضخمة. وصدر صوت سلسلة أخرى من الفرقعات، وانبثقت نفثات صغيرة من الدخان الأبيض من جذع الشجرة حيث تلتقي بالأرض. وللحظة بدا الأمر كما لو أن شيئًا لن يحدث، ولكن حررت الجذور نفسها من التربة، وهي متجعدة وذابلة.

سألت إيناج: «ماذا كان ذلك؟».

فقالت نينا: «تركيز الملح».

أمالت إيناج رأسها إلى الجانب وقالت: «هل ماتياس... يصلي؟».

«بل يردد بعض الأدعية. فالفيرديون يفعلون ذلك عندما يقطعون

شجرة».

«في كل مرة؟».

«تعتمد الأدعية على الطريقة التي تنوي بها استخدام الخشب. فهناك دعوات للمنازل وأخرى للجسور». ثم توقفت وقالت: «وأخرى لإشعال النيران».

استغرق الأمر منهم أقل من دقيقة ليسحبوا الشجرة لأسفل حتى يغلق جذعها الطريق. ومع بقاء الجذور سليمة، بدا الأمر كما لو أنها قد سقطت بسبب المرض.

قال كاز: «بمجرد أن تتوقف العربة، ستمنحنا الشجرة نحو خمس عشرة دقيقة فقط وليس أكثر. فتحركوا بسرعة. ستكون رؤوس السجناء مغطاة، لكن بإمكانهم سماع الأصوات، فلا تنطقوا بكلمة واحدة. فلا يمكننا المخاطرة بإثارة الشك. فعلى حد علمهم، هذه محطة توقف اعتيادية، ويجب أن نبقي الأمر على هذا النحو».

وبينما تنتظر إيناج في الوادي مع الآخرين، فكرت في كل الأشياء التي قد تسير بشكل خطأ. فربما لا يرتدي السجناء أغطية للرأس. وقد يوجد فرد من الحراس في الجزء الخلفي من العربة. وماذا لو نجح طاقمهم؟ حسنًا، سيصبحون أسرى وفي طريقهم إلى محكمة الجليد. ولم تعد تلك النتيجة مبشرة بشكل خاص أيضًا.

وعندما بدأت تتساءل عما لو أخطأ جاسبر وأطلق الإشارة الضوئية قبل الأوان، لاحت فجأة عربة سجن في الأفق. تجاوزتهم العربة، ثم توقفت أمام الشجرة. وسمعت إيناج السائق يسب رفيقه.

نزل كل منهما من مقعده وشقا طريقهما نحو الشجرة. ولدقيقة بدت طويلة، وقفا هناك يحدقان إليها. خلع الحارس الأضخم قبعته وحك بطنه.

تمتم كاز قائلًا: «إلى أي درجة يمكن أن يكونوا كسالى؟».

وأخيرًا بدا أنهما قد تقبلا فكرة أن الشجرة لن تتحرك من تلقاء

نفسها. فعادا إلى العربة ليجلبا لفافة ثقيلة من الحبال وفكا أحد الخيول لمساعدتهما في سحب الشجرة من الطريق.

قال كاز: «استعدوا». وانزلق من أعلى الوادي حتى الجزء الخلفي من العربة. وترك عصا المشي الخاصة به خلفه في الخندق، وأيًا كان الألم الذي يشعر به، فإنه يكتمه جيدًا. أخرج فتاحة الأقفال من بطانة معطفه وهز القفل بلطف، أو حتى بمحبة تقريبًا. وفي غضون ثوانٍ، انفتح القفل، ودفع المزلاج إلى الجانب. ثم نظر إلى حيث ربط الرجلان الحبال حول الشجرة ثم فتح الباب.

بدت إيناج متوترة وهي تنتظر الإشارة. ولكن الإشارة لم تأت. ووقف كاز هناك محدقًا إلى العربة.

همس ويلان قائلًا: «ماذا يحدث؟».

فردت: «ربما لم تتم تغطية رؤوسهم؟». ولم تتمكن من الرؤية من الجانب، فقالت: «سأذهب». فليس بإمكانهم التجمع حول الجزء الخلفي من العربة جميعًا في آن واحد.

خرجت إيناج من الوادي ووقفت خلف كاز الذي ظل واقفًا وساكنًا تمامًا. ولمست كتفه للحظة، فجفل. لقد جفل كاز بريكر. ما الذي يحدث؟ لم تستطع سؤاله والمخاطرة بإشعار السجناء المستمعين بأي شيء. فحدقت إلى العربة.

وجدت جميع السجناء مكبلين بالأصفاد ورؤوسهم مغطاة بأكياس سوداء. لكن عددهم أكبر بكثير ممن كانوا في العربة التي رأوها عند نقطة التفتيش. وبدلًا من إجلاسهم وتقييدهم بالسلاسل إلى المقاعد التي على الجانبين، وقفوا مضغوطين على بعضهم، وأقدامهم وأياديهم مكبلة بالأصفاد، وارتدوا جميعًا أطواقًا حديدية معلقة في خطافات في سقف العربة. وبمجرد أن يبدأ أحدهم في الاسترخاء أو الاتكاء بشدة، تنقطع أنفاسه أو أنفاسها. لم يعد المشهد جميلًا، فعلى الرغم من أنهم مكتظون بعضهم بقرب بعض بإحكام، فإنه لا يبدو أن أي شخص يمكن أن يسقط ويختنق.

وكـزت إينـاج كاز وكـزة صغـيرة أخـرى. لقـد أصبـح وجهـه شـاحبًا، كأنـه تمثـال مـن الشـمع، لكنـه لم يظـل واقفًـا مكانـه هـذه المرة عـلى الأقـل. فقـد دفـع نفسـه إلى العربـة وهـو يصـدر حـركات متشـنجة وغريبـة، وبـدأ فتـح أطـواق السـجناء.

وأشـارت إينـاج إلى ماتيـاس الـذي خـرج بـدوره مـن الـوادي للانضـمام إليهما.

سـأل أحـد السـجناء بلغـة رافـاكان بصـوت خائـف: «مـا الـذي يحـدث؟».

فدمـدم ماتيـاس بقسـوة بلغـة فـيردان قائـلًا «تيـج!». فسرى صـوت دمدمـة بـين جميـع السـجناء الذيـن في العربـة، كـما لـو أنهـم انتبهـوا جميعًـا. ودون قصـد، قامـت إينـاج بتقويـم عمودهـا الفقـري أيضًـا. وبهـذه الكلمـة، تغـير سـلوك ماتيـاس تمامًـا، كـما لـو أنـه قـد ارتـدى زيّ دروسـكل بالكامـل وأصـدر أمـرًا واحـدًا حـادًا. تأملتـه إينـاج بتوتـر. لقـد بـدأت تشـعر بالارتيـاح لوجـود ماتيـاس. وهـي عـادة يسـهل الوقـوع فيهـا، لكنهـا عـادة سـاذجة.

حـرر كاز سـت مجموعـات مـن أصفـاد اليـد والقـدم. وقـام إينـاج وماتيـاس بإنـزال السـجناء السـتة الأقـرب إلى البـاب الواحـد تلـو الآخـر. ولم يوجـد هنـاك وقـت للنظـر في الطـول أو البنيـة الجسـمانية أو حتـى إذا مـا كانـوا قـد حـرروا رجـالًا أم نسـاء. قادوهـم إلى حافـة الـوادي، وكل هـذا وهـم يراقبـون التقـدم الـذي يحـرزه الحـراس عـلى الطريـق. وتجـرأ أحـد الأسرى عـلى السـؤال قائـلًا: «مـا الـذي يحـدث؟»، لكـن أسـكتته كلمـة «تيـج!» أخـرى سريعـة مـن ماتيـاس.

وبمجـرد اختفائهـم عـن الأنظـار، أخفضـت نينـا معـدل نبضاتهـم، مـا أدى إلى فقدانهـم الوعـي. وعندهـا فقـط أزال ويـلان أغطيـة رؤوس السـجناء: أربعـة رجـال، أحدهـم طاعـن في السـن، وامـرأة في منتصـف العمـر، وصبـي مـن شـو هـان. ليـس الأمـر مثاليًـا بالتأكيـد، لكـن الأمـل معقـود عـلى ألا يُدقـق الحـراس كثـيرًا. فعـلى أي حـال، مـا

مـدى المتاعـب التـي يمكـن أن تسـببها مجموعـة مـن المدانـين المقيديـن والمكبلـين بالأصفـاد؟

حقنـت نينـا السـجناء بمحلـول منـوم لإطالـة فـترة راحتهـم، وسـاعد ويـلان في دحرجتهـم إلى الـوادي خلـف الأشـجار.

همـس ويـلان لإينـاج وهـما يسـارعان عائديـن إلى العربـة حاملـين أغطيـة رؤوس السـجناء في أيديهـما: «هـل سـنتركهم هنـاك؟».

صُوبـت عينـا إينـاج عـلى تحريـك الحـراس للشـجرة، ولم تنظـر إليـه عندمـا قالـت: «سـيفيقون قريبًـا وسـيركضون هاربـين، حتـى إنهـم قـد يذهبـون إلى السـاحل والاسـتمتاع بالحريـة. فنحـن نسـديهم معروفًـا».

«لا يبدو ذلك معروفًا، بل يبدو أننا تركناهم في ورطة».

فأمرتـه قائلـةً: «اصمـت». فليـس هـذا هـو الوقـت أو المـكان المناسـبين للمجـادلات الأخلاقيـة. وإن لم يعـرف ويـلان الفـرق بـين أن يكـون الشـخص مقيـدًا بالسلاسـل أو متحـررًا منهـا، فإنـه عـلى وشـك اكتشـاف ذلـك.

وضعـت إينـاج يدهـا عـلى فمهـا بشـكل مقبّـب وأطلقـت صوتًـا منخفضًـا ورقيقًـا كصـوت الطائـر. ولم يتبـق لديهـم سـوى أربـع أو ربمـا خمـس دقائـق قبـل أن يخـلي الحـراس الطريـق. ولحسـن الحـظ، أصـدر الحـراس ضجيجًـا شـديدًا تشـجيعًا للحصـان وتحفيـزًا لبعضهـم.

كبّـل ماتيـاس ويـلان في مكانـه أولًا، ثـم مـن بعـده نينـا. ورأتـه إينـاج متخشـبًا عندمـا رفعـت نينـا شـعرها ليضـع الطـوق حـول عنقهـا، كاشـفةً عـن البيـاض الناصـع لعنقهـا. وبينـما ثبّـت الطـوق حـول حلقهـا، التقـت أعينهـما بنظـرة مـن الممكـن أن تُذيـب أميالًا مـن جليـد القطـب الشـمالي. ابتعـد ماتيـاس بعجالـة. وكادت إينـاج تضحـك؛ فهـذا هـو كل مـا يتطلبـه الأمـر ليخلـع عنـه قنـاع الدروسـكل ويعـود صبيًـا مـرة أخـرى.

كان جاسـبر هـو التـالي، وأخـذ يلهـث مـن ركضـه عائـدًا إلى تقاطـع الطـرق. غمـز لهـا وهـي تضـع الكيـس عـلى رأسـه. ثـم سـمعوا الحـراس

ينـادون جيئـة وذهابًـا.

أقفلـت إينـاج طـوق ماتيـاس ووقفـت عـلى أطـراف أصابعهـا لتضـع غطـاء الـرأس عـلى رأسـه، ولكـن عندمـا تحركـت لسـحب غطـاء رأس نينـا لأسـفل، رمشـت الغريشـا بعينيهـا بسرعـة، وهـي تتحـرك برأسـها باتجـاه بـاب العربـة. كانـت لا تـزال تريـد أن تعـرف كيـف سيغلق كاز البـاب عليهـم.

فقالت إيناج: «راقبي».

وأشـار كاز إلى إينـاج، فقفـزت. ثـم أغلقـت بـاب العربـة، وأغلقـت القفـل، وأعـادت المـزلاج إلى مكانـه. وبعدهـا بثانيـة انفتـح الجانـب الآخر مـن البـاب. وببسـاطة أزال كاز المفصـلات. إنهـا خدعـة اسـتخدموها مـرات عديـدة، ويسـتخدمونها عندمـا يصبـح القفـل معقـدًا للغايـة بحيـث لا يمكـن فتحـه بسرعـة أو إذا مـا أرادوا جعـل السرقـة تبـدو كأنهـا سرقـة قـام بهـا أشـخاص مـن داخـل المـكان. إنهـا طريقـة مثاليـة لتزييـف الانتحـار (قتـل الأشـخاص وجعـل الأمـر يبـدو كأنـه انتحـار)؛ حيـث أخبرهـا كاز بذلـك ذات مـرة، وبعدهـا لم تعـد متأكـدة أبـدًا مـن صدقـه.

ألقـت إينـاج نظـرة أخـيرة عـلى الطريـق. لقـد انتهـى الرجـال مـن سـحب الشـجرة عـن الطريـق. ونفـض الشـخص الضخـم الغبـار عـن يديـه وضرب ظهـر الحصـان. واقـترب الآخـر بالفعـل مـن مقدمـة العربـة. أمسـكت إينـاج بحافـة البـاب وأرجحـت نفسـها، وضغطـت إلى الداخـل. وعـلى الفـور، بـدأ كاز باسـتبدال المفصـلات. ووضعـت إينـاج غطـاء الـرأس عـلى وجـه نينـا الـذي بـدت عليـه الدهشـة، ثـم أخـذت مكانهـا بجانـب جاسـبر.

ولكـن حتـى في الضـوء الخافـت، اسـتطاعت أن تـرى أن كاز تحـرك ببـطء شـديد، وأن أصابعـه التـي ترتـدي القفـاز أقـل براعـة مـن أي مـرة رأتهـا فيهـا مـن قبـل. مـا خطبـه؟ ولمـاذا تجمـد عنـد بـاب العربـة؟ لا بـد أن شـيئًا مـا جعلـه يـتردد، ولكـن مـا عسـاه هـذا الـشيء؟

سـمعت صـوت رنـين معـدن يرتطـم بأرضيـة العربـة عندمـا أسـقط كاز أحـد البراغـي. فنظـرت إلى أرضيـة العربـة وركلتـه إليـه مـرة أخـرى، محاوِلـة تجاهـل خفقـان قلبهـا.

وجثـم كاز ليسـتبدل المفصلـة الثانيـة وهـو يتنفـس بصعوبـة. لقـد علمـت أنـه يعمـل في إضـاءة خافتـة عـن طريـق اللمـس فقـط، مرتديًـا تلـك القفـازات الجلديـة اللعينـة التـي دائمًـا مـا يـصر عـلى ارتدائهـا، لكـن إينـاج لم تعتقـد أن هـذا هـو السـبب في أنـه بـدا مضطربًـا للغايـة. وفجـأة سـمعت وقـع أقـدام عـلى الجانـب الأيمـن مـن العربـة، ونـادى أحـد الحـراس عـلى الآخـر. قالـت في نفسـها: هيـا يـا كاز. فإنهـا لم تأخـذ الوقـت الـكافي لإزالـة آثـار أقدامهـم. مـاذا لـو لاحـظ الحـارس؟ مـاذا لـو سـحب البـاب، وسـقط مـن مفصلاتـه كاشـفًا عـن كاز بريكـر، وهـو غـير مُغطـى الـرأس وغـير مكبـل؟

سـمعت صـوت رنـين آخـر يرتطـم بأرضيـة العربـة مـرة أخـرى. وأصـدر كاز اللعنـات بصـوت خافـت. وفجـأة، اهتـز البـاب عندمـا هـزَّ الحـارس القفـل هـزة. ثبّـت كاز يـده عـلى المفصلـة. واتسـعت فتحـة الضـوء تحـت البـاب. وشـهقت إينـاج بصدمـة.

المفصلات مثبتة.

دوت صرخـة أخـرى في فـيردان، وسـمعت المزيـد مـن وقـع الأقـدام، ثـم صـوت اللجـام والعربـة تتحـرك إلى الأمـام، وتصـدر صوتًـا عـلى الطريـق. فتنفسـت إينـاج الصعـداء بعـد أن جـف حلقهـا تمامًـا.

أخـذ كاز مكانـه بجانبهـا. ووضـع غطـاء رأسٍ عـلى رأسـها، ومـلأت الرائحـة الكريهـة أنفهـا. ومـن المفـترض أن يضـع غطـاء الـرأس الخـاص بـه بعـد ذلـك، ثـم يكبـل نفسـه. وهـذا أمـر سـهل جـدًّا، وخدعـة سـاحر بسـيطة يعرفهـا كاز تمامًـا. فضغـط ذراعـه عـلى طـول ذراعهـا مـن الكتـف إلى المرفـق وهـو يقفـل الطـوق حـول رقبتـه. وتحركـت الأجسـاد باتجـاه ظهـره وجانـب إينـاج، وتكومـت عليهـا.

إنهـم بأمـان حتـى الآن. ولكـن عـلى الرغـم مـن صخـب عجـلات

العربـة، تسـتطيع إينـاج أن تجـزم بـأن تنفـس كاز قـد ازداد سـوءًا - عبـارة عـن أنفـاس عاليـة وسريعـة كأنفـاس حيـوان وقـع في فـخ. إنـه صـوت لم تتخيـل أن تسـمعه منـه أبـدًا.

وقـد حـدث ذلـك لأنهـا كانـت تسـتمع عـن كثـب لدرجـة أنهـا عرفـت اللحظـة التـي فقـد فيهـا كاز بريكـر، الملقـب باليـد القـذرة ولقيـط الباريـل والفتـى الأخطـر في كـتردام، وعيـه بالتحديـد.

٢٢

كاز

في الأسبوع التالي نفد المال الذي تركه السيد هيرتزون مع كاز وجوردي. حاول جوردي إرجاع معطفه الجديد، لكن المتجر لم يأخذه، ومن الواضح أن حذاء كاز قد تم ارتداؤه.

عندما أخذوا اتفاقية القرض التي وقعها السيد هيرتزون إلى البنك، وجدوا أنها -على الرغم من جميع الأختام التي خُتمت بها والتي تبدو رسمية- ورقة عديمة القيمة. فلم يعرف أحد السيد هيرتزون أو شريكه في العمل.

طُردا من المنزل الذي أقاما فيه بعدها بيومين، واضطرا إلى إيجاد جسر للنوم تحته، لكن سرعان ما أزعجتهما الشرطة ليرحلا. بعد ذلك ظلا يجولان بلا هدف حتى الصباح. وأصر جوردي على أن يعودا إلى المقهى. فجلسا لفترة طويلة في الحديقة التي في الجهة المقابلة من الشارع. وعندما حل الليل، وبدأت الشرطة جولاتها، اتجه كاز وجوردي جنوبًا، في شوارع باريل السفلى حيث لا تكلف الشرطة نفسها عناء القيام بدوريات.

فناما تحت مجموعة من السلالم في زقاق خلف حانة، محشورين بين موقد مهمل وأكياس من فضلات المطبخ. ولم يزعجهما أحد في تلك الليلة، ولكن في الليلة التالية اكتشفتهما عصابة من الصبية الذين أخبروهما بأنهما في منطقة عصابة رازورجول. لقد ضربوا جوردي ضربًا مبرحًا وألقوا كاز في القناة، ولكن ليس قبل أن يأخذوا حذاءه.

أخرج جوردي كاز من الماء وأعطاه معطفه الجاف.

قال كاز: «أنا جائع».

فأجابه جوردي: «أنا لست جائعًا»، ولسبب ما ضحك كاز من

إجابتـه، وبـدآ يضحـكان. ولـف جـوردي ذراعيـه حـول كاز وقـال: «المدينـة تفـوز حتـى الآن. لكنـك سـترى مَـن سـيفوز في النهايـة».

وفي صباح اليوم التالي، استيقظ جوردي وهو مصاب بالحمى.

في السـنوات التاليـة، سـيطلق النـاس عـلى تفـشي طاعـون الفايربوكـس الـذي ضرب كـتردام اسـم طاعـون كوينـز ليـدي، عـلى اسـم السـفينة التـي يُعتقـد أنهـا جلبـت العـدوى إلى المدينـة. لقـد ضرب الطاعـون أحيـاء باريـل الفقـيرة المزدحمـة بشـدة. فتراكمـت الجثـث في الشـوارع، وتنقلـت قـوارب المـرضى عـبر القنـوات، مسـتخدمة مجـارف طويلـة وخطافـات لسـحب الجثـث عـلى متنهـا ونقلهـا إلى ريـبرز بـارج لحرقهـا.

وضربـت الحمـى كاز بعـد يومـين مـن إصابـة جـوردي. ولم يمتلـكا مـالًا لـشراء دواء أو تلقـي رعايـة طبيـة، فتكومـا معًـا في كومـة مـن الصناديـق الخشـبية المحطمـة التـي أطلقـا عليهـا اسـم العش.

ولم يـأت أحـد ليضايقهـما ليرحـلا؛ فقـد تأثـرت العصابـات كلهـا جـدًّا بسـبب المـرض.

وعندمـا اشـتدت الحمـى إلى أقـصى درجاتهـا، حلـم كاز أنـه عـاد إلى المزرعـة، وعندمـا طـرق البـاب، رأى أنـه هـو وجـوردي هنـاك بالفعـل، جالسَـين إلى طاولـة المطبـخ. لقـد رأى في حلمـه أن نسـختين منـه هـو وشـقيقه تطـلان عليـه، لكنهـما لم يسـمحا لـه بالدخـول، لذلـك جـوَّل في المـرج، وهـو يخـشى الاسـتلقاء عـلى العشـب الطويـل.

عندمـا اسـتيقظ، لم يسـتطع شـم رائحـة التـبن أو البرسـيم أو التفـاح، اسـتطاع فقـط شـمّ رائحـة دخـان الفحـم ورائحـة الخضراوات المتعفنـة الإسـفنجية الكريهـة الصـادرة مـن القمامـة. اسـتلقى جـوردي بجانبـه، محدقًـا إلى السـماء. وأراد كاز أن يقـول لـه: «لا تتركنـي»، ولكنـه كان منهـكًا جـدًّا؛ لذلـك وضـع رأسـه عـلى صـدر جـوردي. وبـدا الأمـر خطيرًا، فقـد بـرد صـدره وتصلـب.

لقـد اعتقـد أنـه يحلـم عندمـا دحرجـه جامعـو الجثـث عـلى قـارب المـرضى. فشـعر بأنـه يسـقط، ثـم وقـع وسـط مجموعـة متشـابكة مـن

الجثث. وحاول الصراخ، لكنه وهن للغاية. لقد كانوا في كل مكان، أرجل وأذرع وبطون متصلبة وأطراف متعفنة ووجوه ذات شفاهٍ زرقاء مغطاة بقُرح الفايربوكس. فقد وعيه واستعاده، وهو غير متأكد مما هو حقيقي أو حلم بينما يتحرك القارب إلى البحر. وعندما ألقوا به في المياه الضحلة لريبرز بارج، اكتسب القوة للصراخ.

صرخ بأعلى صوتٍ يمكنه الصراخ به: «أنا حيّ». لكن لم ينتبه إليه أحد، وعاد القارب بالفعل إلى المرفأ.

حاول كاز أن يسحب جوردي من الماء. لقد كان جسده مغطى بالقروح الصغيرة وردية اللون التي منحت الفايربوكس اسمه، وبشرته بيضاء وبها كدمات. فكر كاز في الكلب الصغير الذي يعمل بطاقة تدوير الزنبرك، وفي شرب الشيكولاتة الساخنة على الجسر. واعتقد أن الجنة ستبدو مثل مطبخ المنزل الذي في زيلفرسترات، وأن رائحتها ستكون مثل طهو حساء هاتسبوت في فرن آل هيرتزون. ولا يزال لديه شريط ساسكيا الأحمر. ربما يعيده إليها. سوف يصنعون الحلوى من عجينة السفرجل. وستعزف مارجيت على البيانو، وقد ينام بجوار الموقد. ثم أغمض عينيه وانتظر الموت.

توقع كاز أن يستيقظ ويجد نفسه في العالم الآخر، دافئًا وآمنًا، ويشعر بالشبع، وجوردي بجانبه. ولكنه بدلًا من ذلك، استيقظ ليجد نفسه محاطًا بالجثث. فاستلقى في المياه الضحلة لريبرز بارج، وملابسه مبللة بالكامل، وجلده متجعد من البلل، وجثة جوردي بجانبه، وبالكاد يمكن التعرف عليها: بيضاء اللون ومنتفخة بفعل العفن، وتطفو على السطح مثل بعض أنواع أسماك أعماق البحار المخيفة.

وضحت رؤية كاز وانحسر الطفح الجلدي عنه. وانتظمت درجة حرارته. لقد نسي جوعه، لكنه كان عطشًا جدًّا لدرجة أنه اعتقد أنه سيصاب بالجنون.

لقد انتظر في كومة الجثث طيلة ذلك اليوم وتلك الليلة، ينظر إلى المرفأ آملًا أن يعود القارب. فلا بد أنهم سيأتون لإشعال النيران التي ستحرق الجثث، لكن متى؟ هل يأتي جامعو الجثثِ لالتقاطها كل يوم؟ أم كل يومين؟ أصيب بالوهن وعانى الجفاف. وعلم أنه لن يصمد طويلًا. بدا الساحل بعيدًا جدًّا، وعلم أنه أضعف من أن يسبح طوال تلك المسافة. لقد نجا من الحمى، لكنه ربما يموت هنا على ريبرز بارج. فهل اهتم بالأمر؟ لم يكن هناك شيء ينتظره في المدينة سوى المزيد من الجوع والأزقة المظلمة ورطوبة قنوات المياه. حتى عندما فكر في ذلك، عرف أنه ليس حقيقيًا. لقد انتظر الثأر لجوردي وربما لنفسه أيضًا. لكن عليه أن يذهب لمقابلته.

عندما حل الليل وتغير اتجاه المد، أجبر كاز نفسه على وضع يديه على جثة جوردي. كان أضعف من أن يسبح بنفسه، ولكن بإمكانه أن يطفو بالاستعانة بجثة جوردي. فتمسَّك بجثة أخيه بقوة وركل باتجاه أضواء كتردام. لقد انجرفا معًا، واستخدم هو جثة جوردي المنتفخة كطوافة. ظل كاز يركل، محاولًا عدم التفكير في أخيه أو في الشعور بتوتر وانتفاخ جسد جوردي بين يديه؛ لقد حاول ألا يفكر في أي شيء سوى إيقاع رجليه المتحركتين عبر البحر. لقد سمع أن هناك أسماك قرش في هذه المياه، لكنه تأكد من أنها لن تلمسه. فلقد أصبح هو الآخر وحشًا أيضًا.

واصل الركل، وعندما بزغ الفجر نظر إلى الأعلى ليجد نفسه في الطرف الشرقي من مرفأ ذا ليد الذي كان شبه مهجور؛ حيث تسبب الطاعون في توقف الشحن من وإلى كيرتش.

واجه صعوبة بالغة في المائة ياردة الأخيرة؛ حيث انعكس اتجاه المد مرة أخرى، وأصبح ضده. لكن عندئذ أصبح لكاز أمل، في الحقيقة أمل وغضب، كلهيب مزدوج مشتعل بداخله. تم إرشاده إلى الرصيف وصعود السلم. وعندما وصل إلى الأعلى، سقط على ظهره على الألواح الخشبية، ثم أجبر نفسه على الاستدارة. علقت

جثة جوردي في التيار، وارتطمت بالبوابة الضخمة بالأسفل. كانت عيناه لا تزالان مفتوحتين، وظن كاز للحظة أن شقيقه يحدق إليه. لكن جوردي لم يتكلم، ولم يرمش، ولم تتغير نظراته بينما سحب المد جثته بعيدًا عن البوابة الضخمة وبدأ حملها إلى البحر.

خطر على بال كاز أنه يجب عليه أن يغلق عينيه، لكنه علم أنه إذا هبط على السلم وعاد إلى البحر مرة أخرى، فلن يجد طريقه للخروج مرة أخرى أبدًا. ببساطة سيترك نفسه للغرق، ولم يعد ذلك ممكنًا. فلابد أن يعيش. لابد أن يثأر أحدهم لما حدث له ولأخيه.

في عربة السجن، استيقظ كاز على وخزة حادة في فخذه. شعر بالبرد الشديد وبأن الظلام يحوطه، وهناك أجسام تحيط به وتضغط على ظهره وجانبيه. لقد غاص بين الجثث.

قال شخص ما هامسًا: «كاز».

فارتجف.

وشعر بوخزة أخرى في فخذه.

صدر صوت إيناج وهو ينطق: «كاز»؛ فأخذ نفسًا عميقًا من أنفه، وشعر بها تبتعد عنه. وبطريقة ما، في الحدود الضيقة للعربة، تمكنت من منحه مساحة. فخفق قلبه بشدة.

فقال بصوت أجش: «واصلي التحدث».

«ماذا؟».

«استمري في التحدث فحسب».

«نحن نمر عبر بوابة السجن. لقد اجتزنا أول نقطتيْ تفتيش».

أعادته تلك المعلومة إلى وعيه تمامًا. لقد اجتازوا نقطتيْ تفتيش، وهذا يعني أنه قد تم حصر عددهم. فتح شخص ما الباب -ليس مرة بل مرتين- وربما حتى وضع يده عليه، ولكنه لم يستيقظ. كان من الممكن أن يتعرض للسرقة أو القتل. لقد تخيل موته بآلاف الطرق، لكنه لم ينم خلالها قط.

أجبر نفسه على التنفس بعمق، رغم رائحة الأجسام المحيطة به. لقد ظل مرتديًا قفازاته، وهو أمر ربما يلاحظه الحراس بسهولة، وتنازل محبطًا بسبب نقطة ضعفه، ولكن لو لم يفعل ذلك، فإنه على يقين تمامًا من أنه سيصاب بالجنون التام.

سمع السجناء الآخرين يهمسون لبعضهم بلغات مختلفة من خلفه. وعلى الرغم من المخاوف التي أيقظها الظلام فيه، فقد امتن لوجوده. ولم يسعه إلا أن يأمل أن بقية أفراد طاقمه، المغطين الرأس والمُثقلين بقلقهم، لو لم يلاحظوا أي شيء غريب في سلوكه. لقد تثاقل وتباطأ في رد فعله عندما نصبوا كمينًا للعربة، لكن هذا كل شيء، ويمكنه اختلاق بعض الأعذار لتفسير ذلك.

لقد كره رؤية إيناج له على هذه الحالة، التي لم يره أي شخص عليها من قبل، ولكن في أعقاب هذا التفكير، طرأ على عقله تفكير آخر: من الأفضل أنها هي مَن رأته. ففي قرارة نفسه علم أنها لن تتحدث عما رأته مع أي شخص أبدًا، وأنها لن تستخدم هذا الأمر ضده أبدًا، فهي تعتمد على سمعته. ولا تريده أن يبدو ضعيفًا. ولكن هناك ما هو أكثر من ذلك، أليس كذلك؟ إن إيناج لن تخونه أبدًا، وهو على يقين من ذلك. ولكن شعر كاز بالقلق. فعلى الرغم من أنه استأمنها على حياته مرات لا تحصى، فإن ائتمانها على هذا العار أكثر إثارة للخوف.

توقفت العربة، وفُتح المزلاج والأبواب.

سمع كاز حديثًا بلغة فيردان، ثم أصوات كشط وأصواتًا مكتومة. تم فتح طوقه، واقتيد من العربة إلى أسفل منحدر مع السجناء الآخرين. وسمع ما بدا كأنه صرير فتح بوابة، وتم دفعهم إلى الأمام، وهم يتدافعون في أغلالهم.

نظر بعينين نصف مغمضتين بينما تم نزع غطاء رأسه فجأة. وقفوا في فناء فسيح، وتم إنزال البوابة الضخمة الموضوعة في الجدار الدائري بالفعل، واصطدمت بالحجارة محدثة أصواتًا

مرعبة من القعقعة والصرير. عندما نظر كاز إلى الأعلى، رأى حراسًا متمركزين على طول سطح الفناء، والبنادق مصوبة نحو الأسفل باتجاه السجناء. تحرك الحراس بالأسفل على طول صفوف السجناء المقيدين، محاولين مطابقتهم مع الأوراق التي بحوزة السائق بالاسم أو الوصف.

لقد وصف ماتياس تصميم محكمة الجليد بالتفصيل، لكنه لم يتحدث كثيرًا عن الشكل الذي بدت عليه فعلًا. فقد توقع كاز شيئًا قديمًا ورطبًا - من حجارة رمادية قاتمة. على النقيض، لقد وجد نفسه محاطًا برخام ناصع البياض يكاد يشع لونًا أزرق. لقد شعر كما لو أنه يجول في نسخة تشبه الحلم من الأراضي القاسية التي سافروا إليها في الشمال. ومن المستحيل معرفة ما قد يصبح زجاجًا أو ثلجًا أو حجرًا.

تمتمت نينا بلغة كيرتش قائلة: «أراهن أن هذه من إبداع الصانعين (الفابريكيتور)، ولو لم تكن كذلك، فأنا لا أفقه شيئًا في الخشب».

فأمرها أحد الحراس بالصمت قائلًا «تيج!»، وضربها ببندقيته في بطنها، فانحنت للأمام من شدة الألم. وأدار ماتياس رأسه إلى الجهة الأخرى، لكن كاز رأى الانزعاج الذي بدا عليه.

أشار حراس فيردان على أوراقهم، محاولين مطابقة أرقام وهويات السجناء مع مجموعة الأفراد التي أمامهم. وهذه هي اللحظة الحقيقية الأولى التي قد ينكشف أمرهم فيها، وهي لحظة ليس لكاز أي تحكم فيها. فاختيار وانتقاء السجناء الذين كانوا سيحلون مكانهم كان سيستغرق وقتًا طويلاً، وهذا أمر خطير. إنها مخاطرة محسوبة، لكن لم يكن بإمكان كاز في هذا الوقت سوى أن ينتظر ويأمل أن يتولى الكسل والبيروقراطية التعامل مع الأمر.

وبينما يتنقل الحراس في الصف، ساعدت إيناج نينا على النهوض.

سألت إيناج: «هل أنتِ بخير؟»، وشعر كاز بأنه منجذب إلى

صوتها بشدة كما لو لم يسمعه من قبل.

رفعت نينا نفسها ببطء ووقفت منتصبة، وهمست قائلة: «أنا بخير، لكن لا أعتقد أنه علينا القلق بشأن فريق بيكا رولينز بعد الآن».

تتبّع كاز نظرة نينا إلى أعلى الجدار الدائري، أعلى الفناء؛ حيث تمت خوزقة خمسة رجال على رماح مثل اللحم الموضوع على أسياخ من أجل الشيّ، وأظهرهم محنيّة، وأطرافهم متدلية. اضطر كاز إلى إمعان النظر، لكنه تعرف على إيرول آيرتس، أفضل فاتح أقفال وخزائن بفريق بيكا رولينز. بدت الكدمات والندبات الناتجة عن الضرب الذي تعرض له قبل وفاته أرجوانية داكنة في ضوء الصباح، وتمكن كاز من تمييز علامة سوداء على ذراعه - وهي وشم آرتس الخاص بفريق دايم لايون.

تفحص الوجوه الأخرى، فوجد بعضها منتفخًا ومشوهًا جراء الموت ولا يمكن التعرف على أصحابها. هل يمكن أن يكون أحدهم من فريق بيكا رولينز؟ وعلم كاز أنه يجب أن يمتن لإقصاء فريق آخر، لكن رولينز ليس أحمق، وفكرة أن طاقمه لم يتخطوا بوابات محكمة الجليد في حد ذاتها فكرة مقلقة. وعلاوة على ذلك، فلو أن رولينز قد لقي حتفه على رأس رمح فيردان... كلا، رفض كاز هذا الاحتمال. فبيكا رولينز مهم بالنسبة إليه.

تجادل الحراس مع سائق العربة في ذلك الوقت، وأشار أحدهم إلى إيناج.

همس كاز لنينا: «ماذا يحدث؟».

«إنهم يقولون إن الأوراق غير مرتبة، وإن لديهم فتاة سولية وليس فتى من شو هان».

فسألت إيناج: «وماذا يقول السائق؟».

«إنه يستمر في إخبارهم بأنها ليست مشكلته».

فغمغم كاز مشجعًا: «هذا هو السبيل الوحيد للنجاة».

راقبهـم كاز وهـم يتنقلـون جيئـة وذهابًـا. فهـذة هـي روعـة كل أنظمـة الطـوارئ ومسـتويات الأمـان. فالحـراس يعتقـدون دائمًـا أنـه يمكنهـم الاعتـماد عـلى شـخص آخـر لضبـط خطـأ أو إصـلاح مشـكلة. والكسـل غـير موثـوق بـه كالجشـع، لكنـه لا يـزال يشـكل ميـزة جيـدة. فهـم في النهايـة يتحدثـون عـن سـجناء - مقيديـن بالسلاسـل ومُحاطـين مـن كل الجوانـب وعـلى وشـك أن يُلقـوْا في زنازيـن، وليـس منهـم أي خطـر.

أخـيرًا، تنهـد أحـد حـراس السـجن وأشـار إلى زملائـه قائـلًا: « دا يفيسـكيمين » .

ترجمـت نينـا كلامـه قائلـة: « إنـه يقـول استمروا»، ثـم تابعـت عندمـا تحـدث ثانيـة: «اصطحبهـم إلى القطـاع الشرقـي ودع المناوبـة التاليـة تفرزهـم».

عندئذ سمح كاز لنفسه بإصدار أقصر تنهيدة تنم عن الارتياح.

وكـما توقـع، فقـد قسَّـم الحـراس المجموعـة إلى رجـال ونسـاء، ثـم اقتـادوا كلا الصفـين، مصدريـن صـوت رنـين السلاسـل وهـم يمشـون، عبر ممـر دائـري تقريبًـا عـلى شـكل فـم ذئـب مفتـوح.

دخلـوا غرفـة تجلـس فيهـا امـرأة عجـوز مقيـدة اليديـن ويحيـط بهـا الحـراس، وعيناهـا خاليتـان مـن أي تعبـير. ومـع اقـتراب كل سـجين، كانـت المـرأة تمسـك بمعصمـه أو معصمهـا.

إنهـا مضخـم للقـوة البشريـة. فقـد علـم كاز أن نينـا عملـت معهـم عندمـا جابـت ذا واندرينـج آيـل بحثًـا عن الغريشـا للانضـمام إلى الجيش الثـاني. فبإمـكان هـؤلاء استشـعار قـوة الغريشـا عـن طريـق اللمـس، وقـد رآهـم يُسـتخدمون في ألعـاب الـورق ذات الرهانـات الكبـيرة للتأكـد مـن عـدم وجـود أي غريشـا ضمـن اللاعبـين. فالشـخص الـذي يمكنـه التلاعـب بنبـض لاعـب آخـر أو حتـى رفـع درجـة حـرارة الغرفـة لديـه أفضليـة غـير عادلـة، لكـن الفـيردان يسـتخدمونهم لغـرض مختلـف - للتأكـد مـن عـدم اخـتراق أي غريشـا لجدرانهـم دون التعـرف عليـه.

راقب كاز نينا وهي تقترب، فرآها ترتجف وهي تمد ذراعها. وقبضت المرأة بأصابعها على معصم نينا. واهتزت جفونها لفترة وجيزة. ثم تركت يد نينا وأشارت لها بالمرور.

هل كشفت حقيقتها ولم تهتم بالأمر؟ أم أن البارافين الذي استخدموه لتغطية ساعدي نينا أحدث التأثير المطلوب؟

وبينما يتم اقتيادهم من خلال ممر على اليسار، لمح كاز إيناج وهي تختفي في الممر المقابل مع السجينات الأخريات. فشعر بوخزة حادة في صدره، وبهزة مزعجة، فأدرك أن الذعر يعتريه. لقد أيقظته من إغمائه في العربة. وأعاده صوتها من التيه؛ فهو كالحبل الذي أمسك به واستخدمه لجر نفسه إلى بعض الانتباه مرة أخرى.

تم اقتياد السجناء الذكور لصعود درج مظلم يؤدي إلى ممر معدني، وعلى يسارهم الجزء الأكبر الأبيض الناعم من الجدار الدائري، وإلى يمينهم الممر الذي يطل على قفص زجاجي شاسع، يبلغ طوله ربع ميل تقريبًا وهو مرتفع بما يكفي ليستوعب سفينة تجارية بشكل مريح. كان يضاء بمشكاة حديدية ضخمة تتدلى من السقف مثل شرنقة متوهجة. نظر كاز إلى الأسفل، وشاهد صفوفًا من العربات المدججة بالسلاح وعليها أبراج مدافع مقببة عجلاتها كبيرة ومتصلة بإطار سميك. وفي كل عربة، توجد سبطانة ضخمة -في حجم بين البندقية والمدفع- بارزة في المساحة التي عادة ما يتم ربط مجموعة من الخيول فيها.

فهمس قائلًا: «ما هذه الأشياء؟».

فقال ماتياس بصوت خافت: «تورفيجين. لا تحتاج إلى خيول لسحبها. ولا يزالون يطورون تصميمها منذ أن غادرت».

«لا تحتاج إلى خيول؟».

غمغم جاسبر قائلًا: «إنها دبابات. لقد رأيت نماذج أولية لها عندما عملت مع صانع أسلحة في نوفي زيم. هل هناك أسلحة متعددة في البرج، وتلك السبطانة الضخمة في المقدمة؟ إنها قوة

نارية شديدة».

ورأوا أيضًا مدفعية ثقيلة تعتمد على الجاذبية في القفص، ورفوفًا مليئة بالبنادق والذخيرة والقنابل السوداء الصغيرة التي يطلق عليها الرافاكانيون اسم جريناتي. وعلى الجدران خلف الزجاج، تم ترتيب الأسلحة القديمة في عرض متقن - الفؤوس والرماح والأقواس الطويلة. وفوق ذلك كله، علقت لافتة باللونين الفضي والأبيض مكتوب عليها: ستريماكت فيردان.

عندما نظر كاز إلى ماتياس، تمتم الرجل الضخم قائلًا: «تحيا فيردان».

نظر كاز من خلال الزجاج السميك، فرأى قوة الدفاعات، وأدرك أن نينا محقة في زعمها بأن هذا الزجاج ما هو إلا قطعة أخرى من عمل الصانعين (الفابريكاتور)- مضاد للرصاص ولا يمكن اختراقه. وعند القدوم إلى السجن أو الخروج منه، يرى السجناء الأسلحة والعتاد والآلات العسكرية- وكل ذلك تذكير وحشي بقوة دولة فيردان.

فكر كاز في نفسه: تابعوا وتباهوا، فلا يهم حجم السلاح إذا لم تعرف إلى أين تصوبه.

وعلى الجانب الآخر من القفص، رأى ممرًّا ثانيًا، حيث تسير السجينات.

فكر ثانية: ستظل إيناج بخير. عليه أن يظل متيقظًا؛ فإنهم في منطقة العدو الآن، والمكان خطير جدًّا، وهذه ورطة لا يخرج المرء منها إذا لم يحافظ على تركيزه ويقظته. تُرى هل نجح فريق بيكا في الوصول إلى هذا الحد قبل أن يتم اكتشاف أمرهم؟ وأين وجد بيكا رولينز نفسه؟ هل بقي آمنًا وسالمًا في كيرتش، أم أنه سجين للفيردان أيضًا؟

لا شيء من ذلك يهم. في الوقت الحالي، يجب على كاز أن يركز على الخطة وأن يجد يول- بايور. نظر إلى الآخرين؛ فبدا ويلان كأنه

على وشك أن يبلل نفسه. وبدا هيلفار متجهمًا كالعادة. وابتسم جاسبر ابتسامة عريضة وهمس قائلًا: «حسنًا، لقد تمكنا من حبس أنفسنا في أكثر السجون تأمينًا في العالم. نحن إما عباقرة أو أغبى حمقى عاشوا على الأرض على الإطلاق».

«سنعرف عما قريب».

تم اقتيادهم إلى غرفة بيضاء أخرى مجهزة بأحواض من القصدير والخراطيم.

ثرثر الحارس بشيء بلغة فيردان، ورأى كاز ماتياس وبعض السجناء الآخرين وهم يبدؤون في خلع ملابسهم. فابتلع العصارة الصفراوية التي أفرزها حلقه، ومنع نفسه من التقيؤ.

إنه يستطيع أن يفعل ذلك، بل يجب عليه أن يفعل ذلك. لقد فكر في جوردي. ماذا سيقول جوردي إذا فقد شقيقه الأصغر فرصته في تحقيق العدالة لأنه لم يستطع التغلب على بعض الاضطرابات الغبية بداخله؟ لكن ذلك أعاد لذهنه ذكرى جسد جوردي البارد، والطريقة التي طفت بها جثته في المياه المالحة، وتكدس الجثث حوله في القارب. وبدأت رؤيته تتشوش.

وبخ نفسه بقسوة: تمالك نفسك يا بريكر. لكن ذلك لم يساعده. سيغمى عليه مرة أخرى، وكل هذا سينتهي. لقد عرضت إيناج ذات مرة أن تعلمه كيف يستسلم للانهيار. فقال لها وهو يضحك: «السر يكمن في عدم الانهيار». فقالت له: «كلا يا كاز، السر يكمن في النهوض من جديد». ولكن المزيد من تفاهات السولي، وحتى ذكرى صوتها ساعدته بطريقة ما. فهو أفضل من هذا بكثير. بل عليه أن يصبح كذلك؛ ليس من أجل جوردي فقط، وإنما من أجل طاقمه كله. إنه هو مَن أحضر هؤلاء الأشخاص إلى هنا. ومَن أحضر إيناج إلى هنا. ومن واجبه إخراجهم مرة أخرى.

ردد بداخله: السر يكمن في النهوض من جديد. لقد أبقى صوتها في رأسه مرددًا تلك الكلمات مرارًا وتكرارًا، وهو يخلع حذاءه

وملابسـه وأخـيرًا قفازاتـه.

ورأى أن جاسبر يحدق إلى يديه؛ فغمغم قائلًا: «ماذا تتوقع؟».

فقـال جاسـبر وهـو يحـول بـصره إلى قدميـه العاريتـين النحيلتـين: «مخالـب عـلى الأقـل. أو ربمـا إبهامًـا شـوكية».

عـاد الحـارس بعـد رمـي ملابسـهم في صنـدوق قمامـة مـن المؤكـد أنـه سيؤخذ إلى محرقـة القمامـة. وقـام بإمالـة رأس كاز للخلـف بعنـف وأجبره عـلى فتـح فمـه، وتحسسـه بأصابعـه السـمينة. وتزايـدت النقاط المشوشـة في رؤيـة كاز بينـما كافـح ليظـل عـلى وعيـه. ومـرت أصابـع الحـارس عـلى البقعـة التـي بـين أسـنانه حيـث وضـع البلـين (عظـم فـك الحـوت)، ثـم قـرص ووخـز خديـه مـن الداخـل.

صـاح الحـارس قائـلًا: «أوندتجـارن». وصـاح مـرة أخـرى وهـو يسـحب قطعتـين معدنيتـين رفيعتـين مـن فـم كاز: «فيلينجوريـت». فوقعـت فتاحـة الأقفـال عـلى الأرضيـة الحجريـة مصـدرةً صـوت رنـين معدنيًـا. وصرخ الحـارس في وجهـه بـشيء بلغـة فـيردان وضربـه بقـوة عـلى وجهـه. سـقط كاز عـلى ركبتيـه، لكنـه أجـبر نفسـه عـلى الوقـوف مـرة أخـرى. ورأى مظهـر ويـلان المذعـور، ولكـن هـذا كل مـا يمكنـه فعلـه للبقـاء واقفًـا عـلى قدميـه بينـما يدفعـه الحـارس في طابـور للاسـتحمام بالمـاء البـارد كالثلـج.

عندمـا خـرج وهـو مبتـل ويرتجـف، أعطـاه حـارس آخـر سراويـل وسـترة عديمـة اللـون خاصـة بالسـجن مـن الكومـة التـي بجـواره. فأخذهـا كاز ثـم توجـه إلى منطقـة الاحتجـاز مـع بقيـة السـجناء. وفي تلـك اللحظـة، كان ليتنـازل عـن نصـف حصتـه مـن الثلاثـين مليـون كـروج مقابـل أن يمسـك بعصـا المـشي الخاصـة بـه.

بـدت زنازيـن الاحتجـاز أشـبه مـا يكـون بالسـجن الـذي توقعـه؛ لا أحجـار بيضـاء أو معروضـات زجاجيـة، بـل مجـرد صخـور رماديـة رطبـة وقضبـان حديديـة.

تـم وضعهـم في زنزانـة مكتظـة بالسـجناء. وجلـس هيلفـار مسـتندًا

إلى الحائط، يتفحص الرجال الذين يذرعون المكان جيئةً وذهابًا، وعيناه شبه مغلقتين. بينما استند كاز إلى القضبان الحديدية وهو يشاهد الحراس يغادرون الزنزانة. وتمكن من استشعار حركات الأجساد من ورائه. ووجد مساحة كافية، لكنها ما زالت متقاربة جدًا. قال كاز لنفسه: فقط تماسك لمدة أطول قليلًا. وشعر بأن يديه عاريتان للغاية.

انتظر كاز وهو على علم بما هو قادم. فلقد اكتشف شخصيات الأشخاص الآخرين بمجرد دخولهم الزنزانة، وعلم أنه الشخص الذي جاء إليه هو الكاليش قوي البنية ذو الوحمة. شعر هذا الكاليش بالانفعال والتوتر، كما لاحظ بوضوح عرج كاز.

قال بلغة فيردان: «مرحبًا أيها الأعرج». وحاول مرة أخرى بلغة كيرتش، ولكن بلكنة ثقيلة: «مرحبًا أيها الأعرج». ولم يضطر إلى إرهاق نفسه بنطق الكلمة بالعديد من اللغات؛ حيث عرف كاز معناها.

في اللحظة التالية، شعر كاز بحركة الهواء عندما مدَّ الكاليش يده إليه. فخطا لليسار، وترنح الكاليش للأمام بفعل اندفاعه الشديد. فساعده كاز، وأمسك بذراع الرجل ومرره من خلال المسافة الموجودة بين القضبان، حتى الكتف. وأطلق الكاليش شخيرًا عاليًا بينما اصطدم وجهه بالقضبان الحديدية.

ثبت كاز ساعد الرجل على المعدن. وألقى بثقله على جسد خصمه، وشعر بطقطقة مُرضية عندما انخلع ذراع الكاليش من كتفه. وعندما فتح الرجل فمه ليصرخ، غطى كاز فمه بإحدى يديه وأغلق أنفه باليد الأخرى. إن شعوره باللحم بين أصابعه أصابه بالرغبة في التقيؤ.

قال: «ششششش»، وهو يستخدم سيطرته على أنف الرجل لتوجيهه إلى الخلف نحو المقعد المقابل للحائط. وتفرق السجناء الآخرون لإخلاء طريق.

جلس الرجل بقوة وعيناه تدمعان، وهو منقطع النفس. وأبقى كاز قبضته على أنفه وفمه، فارتجف الكاليش تحت قبضته.

سأله كاز: «هل تريدني أن أعيده؟».

فتأوه الكاليش.

«هل تريد ذلك؟».

فتأوه بصوت أعلى والسجناء ينظرون في دهشة.

«اصرخ، وسأحرص على ألا يعمل بشكل صحيح مرة أخرى، هل تفهمني؟».

فترك فم الرجل ودفع ذراعه مرة أخرى في مكانها. فتدحرج الكاليش على جنبه، وتكوّر على المقعد، وبدأ في البكاء.

مسح كاز يديه على سرواله وعاد إلى مكانه بالقرب من القضبان. وشعر بالآخرين يراقبونه، لكنه عندئذ علم أنه سيظل في سلام.

أتى هيلفار بجانبه وسأل: «هل هذا ضروري؟».

«كلا». لكنه كان ضروريًا بالفعل - للتأكد من تركهم بمفردهم لإنجاز ما يجب القيام به، وليتذكروا أنه ليس عاجزًا.

-٢٣-

جاسبر

أراد جاسبر أن يذرع المكان جيئة وذهابًا، لكنه راقب هذا المكان على المقعد، ونوى البقاء فيه. لقد شعر كأن هناك رجفات صغيرة من القلق والإثارة تهتز تحت جلده، ولم يساعده تطبيل وايلان الجالس بجواره على ركبتيه بشكل مضطرب على الهدوء. لم يعتقد أنه يستطيع تحمل المزيد من الانتظار. في البداية القارب، ثم كل هذا المشي لمسافات طويلة، والآن فإنه عالق في زنزانة حتى يأتي الحراس ليقوموا بالعدّ المسائي.

وحده والده هو مَن فهم طاقته التي لا تخمد. لقد حاول إقناع جاسبر باستخدامها في المزرعة، لكن العمل رتيب للغاية. وكان من المفترض أن تصبح الجامعة الشيء الذي يوجهه، لكنه بدلًا من ذلك اتخذ مسارًا مختلفًا تمامًا. لقد شعر بالخزي مما قد يقوله والده لو علم أن ابنه قد مات في سجن بفيردان. لكن من ناحية أخرى، كيف له أن يعرف؟ إن التفكير في ذلك محبط للغاية.

كم مرّ من الوقت؟ ماذا لو لم يتمكنوا حتى من سماع دقات ساعة برج الإلدركلوك هنا؟ من المفترض أن يقوم الحراس بالعدّ عند قرع الأجراس ست مرات. ثم سيكون أمام جاسبر والآخرين وقت حتى منتصف الليل لإنجاز المهمة. هكذا تمنوا. فلم يقضِ ماتياس سوى ثلاثة أشهر في السجن، وربما تكون البروتوكولات قد تغيرت. أو ربما أخطأ في شيء ما. ثم واتته فكرة تقول: أو ربما يريدنا الفيرداني أن نكون خلف القضبان قبل أن يشي بنا.

لكن ماتياس جلس صامتًا في الجانب الآخر من الزنزانة بالقرب من كاز. لم يستطع جاسبر تفويت شجار كاز الصغير مع الكاليش. إن كاز عادة ما يظهر ثباتًا في أثناء العمل، لكنه الآن في حالة توتر،

وجاسبر لا يعرف سبب ذلك. أراد جزء منه أن يسأل عن السبب، على الرغم من علمه أن هذا هو الجزء الأحمق من شخصيته: المزارع المتفائل الذي اختار أسوأ شخص ممكن للاهتمام به، والذي بحث عن علامات في أشياء يعرف في أعماقه أنها لا تعني شيئًا - عندما اختاره كاز للمهمة، عندما جارى كاز إحدى نكاته. بإمكانه أن يركل نفسه. لقد رأى كاز بريكر سيئ السمعة أخيرًا من دون ملابس، وقلق جدًّا من أن ينتهي به الأمر على رأس رمح لجذب الاهتمام الملائم.

ولكن لو شعر جاسبر بالقلق، فإن ويلان يبدو كأنه مرعوب بالفعل.

همس ويلان قائلًا: «ماذا يفترض بنا أن نفعل الآن؟ ما فائدة الأقفال من دون فتاحتها؟».

«اهدأ».

«وما فائدتك؟ فأنت مجرد قناص من دون أسلحته. ليست لك فائدة تمامًا في هذه المهمة».

«إنها ليست مهمة. إنها عمل».

«ماتياس يسميها مهمة».

«إنه رجل عسكري، بينما أنت لست كذلك. وأنا في السجن بالفعل، لذا لا تجعلني أرتكب جريمة قتل».

«أنت لن تقتلني، وأنا لن أتظاهر بأن كل شيء على ما يرام. فنحن عالقون هنا».

«إنك بالتأكيد أكثر ملاءمة للحبس في قفص ذهبي وليس في قفص حقيقي».

«لقد غادرت منزل والدي».

«أجل، لقد تخليتَ عن حياة الترف حتى تتمكن من عيش حياة الفقر معنا نحن أولاد العاهرات في باريل. وهذا لا يجعلك مثيرًا للاهتمام يا ويلان، هذا يجعلك مجرد غبي».

«أنت لا تعرف أي شيء عن هذا الأمر».

فقال جاسبر وهو يلتفت إليه: «أخبرني إذًا. فلدينا متسع من الوقت. ما الذي يجعل صبيًا جيدًا صغيرًا يغادر المنزل ليصاحب المجرمين؟».

«أنت تتصرف كأنك ولدت في باريل مثل كاز، لكنك حتى لست من كيرتش. لقد اخترتَ هذه الحياة أيضًا».

«أنا أحب المدن».

«أليست لديهم مدن في نوفي زيم؟».

«ليس مثل كتردام. هل سبق لك أن كنت في أي مكان عدا منزلك وباريل ووجبات العشاء الفاخرة التي تنظمها السفارة؟».

فأشاح ويلان بوجهه وقال: «أجل».

«أين؟ في الضواحي من أجل موسم الخوخ؟».

«السباقات في كاريفا. وحقول نفط شو هان. ومزارع الجوردا قرب شريفتبورت. وويدل. وإلينج».

«حقًّا؟».

«اعتاد أبي أخذي معه إلى كل مكان».

«حتى؟».

«حتى ماذا؟».

«حتى.. لقدأخذني أبي معه إلى كل مكان.. حتى أصبت بدوار بحر رهيب، حتى تقيأت في حفل زفاف ملكي، حتى حاولتُ مضاجعة ساق السفير».

«لقد أرادت ساقه ذلك».

أطلق جاسبر ضحكة عالية وقال: «أخيرًا، القليل من الشجاعة».

فقال ويلان متذمرًا: «لديَّ الكثير من الشجاعة. انظر إلى أين أودت بي ــــــــــــــ»

قاطعه صوت أحد الحراس وهو يصيح بلغة فيردان عندما بدأت ساعة برج الإلدركلوك في قرع الأجراس ست مرات. على الأقل

الفـيردان دقيقـون في المواعيـد.

تحـدث الحـارس مـرة أخـرى بلغـة شـو هـان ثـم بلغـة كيرتـش وقـال: «قفـوا عـلى أقدامكـم».

سـأل الحـارس عـن «شـيمكوبر». فنظـروا إليـه ببلاهـة. فحـاول بلغـة كيرتـش: «دلـو البـول». وأشـار بإيمـاءات وكأنـه يقـول: «أيـن لأفرغـه؟».

فصدرت هزات حائرة للكتف ونظرات مشوشة.

أوضـح عبـوس الحـارس الكئيـب أنـه لا يكـترث لذلـك. فدفـع دلـوًا مـن المـاء العـذب إلى الزنزانـة وأغلـق البـاب بقـوة.

تقـدم جاسـبر وأخـذ رشـفة كبـيرة مـن الكـوب المربـوط بمقبضـه وتناثـر معظـم المـاء عـلى قميصـه. وعندمـا أعطـى الكـوب إلى ويـلان، حـرص عـلى أن يبللـه أيضًـا.

فاحتج ويلان قائلًا: «ماذا تفعل؟».

«اصبر يا ويلان. وحاول أن تحذو حذوي».

رفع جاسبر سرواله وتحسس الجلد الرقيق على كاحله.

«أخبرني ما الذي يحدث...".

«اصمـت. إننـي بحاجـة إلى التركيـز». وكان محقًـا؛ فإنـه لم يـرد أن تنفتـح الحبيبـات الموضوعـة تحـت جلـده وهـي لا تـزال بداخلـه.

تحسـس الغـرز الرفيعـة التـي خيطتهـا نينـا في كاحلـه، وشـعر بـألم شـديد عندمـا فتحهـا وأخـرج الحبيبـات التـي بحجـم حبـة الزبيـب وملطخـة بدمـه. في الوقـت نفسـه ربمـا تسـتخدم نينـا قواهـا لشـق جلدهـا الآن. وتسـاءل جاسـبر عـما إذا كان ألم ذلـك أقـل مـن ألم الغـرز.

قال لويلان: «ارفع قميصك بفمك».

«ماذا؟».

«توقف عن غبائك. فأنت ألطف عندما تتحلى بالذكاء».

توردت وجنتا ويلان، وعبس وسحب طوقه لأعلى.

ومـد جاسـبر يـده إلى أسـفل المقعـد حيـث أخفـى دلـو الفضـلات وسـحبه للخـارج.

قال جاسبر بصوت عالٍ بلغة كيرتش: «هناك عاصفة قادمة». ورأى ماتياس وكاز ينزعان طوقيهما، فأدار وجهه بعيدًا، وسحب قميصه ووضعه فوق فمه، وألقى الحبيبات في الدلو.

صدر صوت كصوت سحابة من الضباب تتفتح من الماء. وفي ثوانٍ معدودة غطَّت السحابة الزنازين، وحولت لون الهواء إلى اللون الأخضر الفاتح.

نظرت عينا ويلان بذعر لطوقه المرتفع، وتظاهر جاسبر بالإغماء، لكنه هدأ عندما رأى الرجال وهم يتساقطون على الأرض من حوله.

انتظر جاسبر العدّ حتى الستين، ثم أسقط طوقه وأخذ نفسًا تجريبيًا، فوجد رائحة الهواء لا تزال مثيرة للغثيان وستجعلهم يشعرون بالدوار لبعض الوقت، لكن أسوأ ما في الأمر قد تبدد. وعندما يأتي الحراس ليقوموا بالعد التالي، سيكون لدى السجناء صداع شديد ولكن لن يستحق الانتباه، على أمل أن يكونوا قد هربوا قبل ذلك الوقت بكثير.

«هل هذا هو الغاز الأخضر؟».

«بالتأكيد تكون ألطف عندما تكون ذكيًا. أجل، الحبيبات عبارة عن غلاف مكون من الإنزيم مملوء بمسحوق الكلورو الأخضر. إنه غير ضار ما لم يلامس أي كمية من الأمونيا. وهو ما فعلته للتو».

«تقصد البول الذي في الدلو.. ولكن ما الهدف من ذلك؟ ما زلنا عالقين هنا».

قال كاز وهو يلوح إلى القضبان: «جاسبر. الوقت يمر».

لفّ جاسبر كتفيه وهو يقترب من القضبان. عادة ما يستغرق هذا النوع من العمل الكثير من الوقت، خاصة لأنه لم يتلق تدريبًا حقيقيًا. فوضع يديه على جانبي قضيب واحد، وركز على تحديد أنقى جزيئات الخام.

سأل ماتياس: «ماذا يفعل؟».

فقال كاز: «يؤدي طقوسًا زمينية قديمة».

«حقًّا؟».

«كلا».

وبدأ ضباب قاتم يتشكل بين يديْ جاسبر.

شهق ويلان وهو يقول: «هل هذا خام الحديد؟».

أومأ جاسبر برأسه عندما شعر بأن العرق يتصبب على جبينه.

«هل يمكنك إذابة القضبان؟».

قال جاسبر بغضب: «لا تتحامق. هل ترى مدى سمكها؟». وفي الواقع، بدا القضيب الذي عمل عليه على حاله، لكنه أخرج ما يكفي من الحديد منه لدرجة أن السحابة التي بين يديه تحولت إلى اللون الأسود تقريبًا. ثنى جاسبر أطراف أصابعه، ودوّر الجزيئات، لتتحول إلى دوامة ضيقة أصبحت أضيق وأكثر كثافة.

أنزل جاسبر يديه، وسقطت إبرة رفيعة على الأرض مع صوت ارتطام معدني يشبه صوت الموسيقى.

التقطها ويلان، وأمسكها حتى يلمع الضوء على سطحها الباهت.

قال ماتياس بتجهم: «أنت صانع (فابريكاتور) بارع».

«بالكاد».

فقال ويلان: «إما أنك كذلك أو لست كذلك».

«أنا كذلك». ووكز ويلان بإصبعه وهو يقول: «وسوف تبقي فمك مغلقًا حيال ذلك عندما نعود إلى كتردام».

«ولكن لماذا تكذب بشأن ــــــــــــ»

قال جاسبر: «أحب السير في الشوارع بحرية. وأحب ألا أقلق من أن يتم خطفي من قبل نخاس أو يتم قتلي على يد بعض قتلة الشوارع مثل صديقنا هيلفار هنا. إلى جانب ذلك، فلديَّ مهارات أخرى تجلب لي متعة وربحًا أكثر من هذه؛ الكثير من المهارات الأخرى».

سعل ويلان. وفي الحقيقة وجد أن مسامرته في الواقع أكثر مرحًا من مضايقته، لكنها بلا أي جدوى.

«هل تعرف نينا أنك غريشا؟».

«كلا، ولـن تعـرف ذلـك. فلسـت بحاجـة إلى تلقـي محـاضرات حـول الانضـمام إلى الجيـش الثـاني ودعـم قضيـة رافـكان المجيـدة».

قاطعه كاز قائلًا: «افعلها مرة أخرى، وأسرع».

فكرر جاسبر جهوده في قضيب آخر.

سـأل ويـلان: «إن كانـت هـذه هـي الخطـة، فـما الهـدف مـن محاولـة تهريـب فاتحـة الأقفـال تلك؟».

عقـد كاز سـاعديه وهـو يقـول: «هـل سـمعت يومًـا عـن الرجـل المحتـضر الـذي أخـبره طبيبـه بأنـه قـد شُـفي بمعجـزة؟ لقـد رقـص في الشـارع وداسـه حصـان حتـى المـوت. عليـك أن تجعـل الهـدف يشـعر كأنـه انتـصر. هـل تفحـص الحـراس ماتيـاس وتسـاءلوا عـما لـو كان يبـدو مألوفًـا؟ هـل كانـوا يبحثـون عـن المتاعـب عندمـا ذهـب جاسـبر إلى مـكان الاسـتحمام والبارافـين ينـزل عـن ذراعيـه؟ كلا، لقـد انشـغلوا للغايـة في تهنئـة بعضهـم البعـض عـلى الإمسـاك بي اعتقـادًا منهـم بأنهـم قـد تمكنـوا مـن إيقـاف التهديـد».

عندمـا انتهـى جاسـبر، أخـذ كاز فتاحتـي الأقفـال الرفيعتـين اللتـين بـين أصابعـه. وبـدت رؤيتـه وهـو يعمـل مـن دون قفـازات أمـرًا غريبًـا، لكن في غضـون لحظـات، انفتـح القفـل، وأصبحـوا أحـرارًا. وبمجـرد خروجهـم، اسـتخدم كاز فتاحاتـه لإغـلاق البـاب خلفهـم.

وهمـس قائـلًا: «أنـت تعـرف مهامـك يـا ويـلان، وأنـا سـأخرج نينـا وإينـاج. جاسـبر، أنـت وماتيـاس ـــــــــــــ»

«أعرف، سنجمع أكبر قدر ممكن من الحبال».

«تواجد في القبو عند منتصف قرع الأجراس».

وعندئذ تفرقوا؛ فقد بدأ العمل.

وفقًـا لخطـط ويـلان، فـإن الإسـطبلات مجـاورة لفنـاء بوابـة الحراسـة، لـذا عليهـم الرجـوع عـبر منطقـة الاحتجـاز. ومـن الناحيـة النظريـة، مـن المفـترض ألا ينشـط هـذا الجـزء مـن السـجن إلا عندمـا يتـم تجهيـز

السجناء الداخلين إلى السجن أو الخارجين منه، لكن لا يزال يتعين عليهم توخي الحذر. فلن يتطلب الأمر سوى حارس أحمق واحد لإفساد خططهم. أما الجزء الأكثر رعبًا فهو اجتياز الممر عبر القفص الزجاجي، وهي مسافة طويلة ومضاءة بإضاءة ساطعة تجعلهم مكشوفين تمامًا. لم يكن هناك شيء يستطيعون فعله سوى الدعاء والركض. ثم توجهوا إلى أسفل الدرج وإلى يسار الغرفة التي فحصتهم فيها المضخمة الغريشا المسنة المسكينة. قمع جاسبر رجفة كادت تباغته. وعلى الرغم من أن البارافين الذي على ذراعيه عمل دائمًا في أوكار القمار، فإن قلبه لا يزال يدق كلما واجهها؛ فهي هشة وضعيفة. وهذا ما حدث للغريشا التي وجدها في المكان الخطأ في الوقت الخطأ - حيث تعرضت للعبودية مدى الحياة أو حتى أسوأ من ذلك.

عندما فتح جاسبر باب الإسطبلات، شعر ببعض الاسترخاء بداخله. فقد أحيت لديه رائحة التبن، وحركة الحيوانات في حجيراتها، وصهيل الخيول ذكريات نوفي زيم. أما في كتردام، فقد جعلت القنوات معظم الحافلات والعربات غير ضرورية؛ فأصبحت الخيول تدل على الترف وتدليلًا لإظهار أن لديك المساحة للاحتفاظ بها والثروة للاعتناء بها. ولم يدرك مدى افتقاده لمجرد الوجود بجوار الحيوانات.

لكن لم يوجد هناك وقت للحنين إلى الماضي أو للتوقف والتربيت على حيواناته الأثيرة. فسار متجاوزًا حجيرات الخيول ودخل غرفة معدات الخيول. ورفع ماتياس لفافة ضخمة من الحبال فوق كل كتف؛ واندهش عندما تمكن جاسبر من حملِ لفافتين أيضًا.

فأوضح جاسبر قائلًا: «لقد نشأت في مزرعة».

«لا يبدو عليك ذلك».

فقال جاسبر وهما يسرعان الخطى عائدين عبر الإسطبلات: «بالتأكيد، فأنا نحيف. لكنني أظل أكثر جفافًا عند هطول المطر».

«كيف؟».
«يتساقط القليل من المطر عليَّ».
فسأله ماتياس: «هل جميع رفقاء كاز غريبين كهذا الطاقم؟».
«أوه، يجب أن تقابل بقية الحثالة. إنهم يجعلوننا نبدو كسكان فيردان».
مرا عبر مكان الاستحمام، وبدلًا من الاستمرار إلى منطقة الاحتجاز، نزلا عبر سلالم ضيقة وعبرا الردهة الطويلة المظلمة المؤدية إلى القبو حتى وصلا تحت السجن الرئيسي، أي أن خمسة طوابق من الزنازين والسجناء والحراس مكدسون فوقهم.
توقع جاسبر أن يتمكن بقية أفراد الطاقم من جمع اللوازم الأخرى في غرفة الغسيل الكبيرة بالفعل. لكن كل ما رآه كان أحواضًا عملاقة من القصدير، وطاولات طويلة قابلة للطي، وملابس تُركت لتجف خلال الليل على رفوف أطول منه.
وجدا ويلان وإيناج في غرفة النفايات، وهي غرفة أصغر من غرفة الغسيل وتفوح منها رائحة القمامة. فبها صندوقا قمامة كبيران ممتلئان بالملابس التي سيتم التخلص منها بالقرب من أحد الجدران في انتظار حرق محتوياتهما. شعر جاسبر بالحرارة المنبعثة من محرقة القمامة بمجرد دخولهما.
قال ويلان: «لدينا مشكلة».
سأله جاسبر وهو يلقي لفائف الحبل على الأرض: «ما مدى سوئها؟».
أشارت إيناج إلى زوج من الأبواب المعدنية الكبيرة الموضوعة فيما يشبه مدخنة عملاقة تبرز من الحائط وتمتد إلى السقف، وقالت: «أعتقد أنهم شغلوا محرقة القمامة هذا المساء».
فقال جاسبر لماتياس: «لقد قلت إنهم يشغلونها في الصباح».
«إنهم يفعلون ذلك دائمًا».
عندما أمسك جاسبر بمقابض الأبواب المكسوة بالجلد وسحبها

لفتحها، تعرض لهبّة من الهواء الحارق. لقد حملت الهباب ورائحة الفحم النفاذة، ورائحة كيميائية تصدر من شيء ربما أضافوه لزيادة اشتعال النيران. ولم يجدوا الأمر بشعًا تمامًا؛ فهذا هو المكان الذي يتم فيه التخلص من جميع نفايات السجون - مخلفات المطبخ ودلاء من الفضلات البشرية والملابس التي تم أخذها من السجناء، ولكن أيًا كان ما أضافه الفيردانيون إلى الوقود فهو يحترق بدرجة كافية لإحراق أي قذارة. انحنى جاسبر في المحرقة، فبدأ يتصبب عرقًا على الفور. وفي الأسفل، رأى جمر المحرقة متراكمًا لكنه ما زال ينبض بتوهج أحمر شديد.

فقال جاسبر: «ويلان، أعطني قميصًا من أحد صناديق القمامة».

فمزق أحد الأكمام وألقاه في الفتحة، فسقط من دون صوت، واشتعلت النيران في الهواء، وبدأ الاحتراق حتى اختفى قبل أن تتاح له الفرصة للوصول إلى الجمر.

فأغلق الأبواب وألقى بقية القميص في سلة القمامة. وقال: «حسنًا، فشل الحل التجريبي. لا يمكننا حمل متفجرات هناك. وسأل إيناج: «أما يزال بإمكانك الصعود؟».

«ربما. لا أعرف على وجه اليقين».

«ما رأي كاز؟ أين كاز؟ وأين نينا؟».

قالت إيناج: «كاز لا يعرف شيئًا عن المحرقة بعد، لقد ذهب هو ونينا لتفتيش الزنازين العليا».

فتحولت نظرة ماتياس المتجهمة إلى ظلام بينما بدت السماء غزيرة الأمطار كأنها جاهزة للانشطار، وقال: «من المفترض أن نذهب أنا وجاسبر مع نينا».

«لم يستطع كاز الانتظار».

قال ماتياس بغضب: «نحن الآن في الموعد المحدد. ما الذي ينوي فعله؟».

وتساءل جاسبر عن الشيء نفسه: «ربما يترنح صعودًا وهبوطًا

على كل تلك السلالم متجنبًا دوريات الحراسة؟».

فقالت إيناج: «لقد حاولت أن أوضح ذلك له. ولكنه دائمًا ما يفاجئني، أتذكرون؟».

«كخلية نحل. آمل حقًّا ألا نتعرض للسع».

ناداها ويلان من عند أحد الصناديق المتحركة: «إيناج، هذه ملابسنا».

وتمكن من الوصول لداخل الصندوق، ومرة تلو أخرى، أخرج حذاء إيناج الجلدي الصغير.

فابتهج وجهها بابتسامة رائعة؛ ففي النهاية وجدوا قليلًا من الحظ. فليست مع كاز عصا المشي الخاصة به. وليست مع جاسبر أسلحته. وليست مع إيناج سكاكينها. لكنها على الأقل حصلت على ذلك الحذاء السحري.

«ما قولك يا ريث؟ هل يمكنك التسلق؟».

«نعم أستطيع التسلق».

أخذ جاسبر الحذاء من ويلان وقال: «لو لم أتيقن من أن هذا الحذاء مليئ بالأمراض، لقبلته ثم قبلتك».

-٢٤-

نينا

تبعت نينا كاز إلى أعلى الدرج، وسارا فوق حجارة الدرج شديدة الانحدار بمساعدة ضوء مصباح الغاز الوامض. وراقبت نينا كاز عن كثب. فقد سار بسرعة جيدة، لكن مشيته بدت متصلبة. لماذا أصر على أن يصبح هو الشخص الذي يقوم بهذا التسلق؟ لا يمكن أن تصبح مسألة وقت، لذلك ربما هذا ما ينوي فعله. ربما قصد الاحتفاظ ببعض المعلومات التي أعطاه إياها ماتياس. أو أنه عزم على إبقائهم جميعًا في حالة تخمين وترقب.

توقفا عند كل بسطة درج، وهما ينصتان إلى دوريات الحراسة. فعرفا أن السجن مليء بالأصوات، ومن الصعب تمييز كل صوت منها، فهناك أصوات تصدر من الأسفل من بئر السلم، وأصوات الأبواب المعدنية تفتح وتغلق. فكرت نينا في فوضى بوابة الجحيم العنيفة، والرشاوى التي تتداولها الأيادي، والدماء التي تلطخ الرمال، إنه عالم بعيد تمامًا عن هذا المكان العقيم. وبالتأكيد يمكن الاعتماد على الفيردانيين من أجل الحفاظ على النظام.

وفي طريقهما إلى درج الدور الرابع، سمعا فجأة أصواتًا وخطوات أحذية في بئر السلم. وبسرعة تراجعت نينا وكاز إلى بسطة الطابق الثالث وتسللا عبر الباب المؤدي إلى الزنازين. بدأ السجين الموجود في الزنزانة الأقرب لهم بالصياح. فرفعت نينا يدها بسرعة وأحكمت قبضتها على منطقة التنفس لديه. فحدّق إليها، وعيناه منتفختان، ومخالبها مغروسة في رقبته. لقد أخفضت نبضه، ما أدى إلى فقدانه للوعي بينما خففت الضغط عن حنجرته، ما سمح له بالتنفس. فقد أراداه أن يصمت، لا أن يموت.

تزايدت الأصوات مع صعود الحراس على الدرج، وتردد صداها الفيرداني بشكلٍ عالٍ عبر الجدران. فحبست نينا أنفاسها وهي تراقب الباب ويداها جاهزتان. ولم يحمل كاز أي سلاح، لكنه اتخذ وضعية القتال، منتظرًا ليرى ما إذا كان الباب سيُفتح، لكن الحراس واصلوا طريقهم متجاوزين البسطة، متجهين نزولاً إلى الطابق التالي.

وعندما تلاشت الأصوات، أشار كاز لنينا، وتسللا خارجين من الباب، وأغلقاه خلفهما بهدوءٍ قدر الإمكان، واستمرا في صعودهما.

دقت ساعة البرج سبع مرات عند وصولهما إلى الطابق العلوي. لقد مرت ساعة منذ أن أفقدا السجناء الموجودين في منطقة الاحتجاز وعيهم. وهكذا أصبح لديهما خمس وأربعون دقيقة للبحث في الزنازين شديدة الحراسة، والالتقاء مرة أخرى عند البسطة، والنزول إلى القبو. فأشار لها كاز بأن تسلك الممر الأيسر بينما سلك هو الممر الأيمن.

أصدر الباب صوتًا مرتفعًا عندما فتحته لتنفذ إلى الداخل. ووجدت فوانيس الإنارة متباعدة، والظلال بينها تبدو عميقة بما يكفي لتقع فيها. فقالت لنفسها إنها يجب أن تشعر بالامتنان من أجل هذه التغطية، لكنها لم تستطع إنكار خوفها من ذلك. كما وجدت الزنزانات مختلفة أيضًا، فبها أبواب من الفولاذ الصلب بدلاً من القضبان الحديدية. وهناك فتحة رؤية على مستوى العين في كل منها. حسنًا، مستوى العين بالنسبة إلى فيرداني. فعلى الرغم من طول نينا الفارع، تعين عليها الوقوف على أطراف أصابعها لإلقاء نظرة خاطفة في كل زنزانة.

نام معظم السجناء أو استراحوا متكورين في الأركان أو مستلقين على ظهورهم مع وضع أذرعهم على أعينهم لحجب ضوء المصباح الخافت الذي يتدفق عبر الفتحة. وجلس آخرون مستندين إلى الجدران يحدقون بفتور إلى اللا شيء. ومن حين لآخر تجد شخصًا يسير ذهابًا وإيابًا وعليها أن تبتعد بسرعة. ولم يكن أي منهم من

شو هان.

ناداها أحدهم بلغة فيردان: «آجور؟»؛ فتجاهلته ومضت في طريقها، وتسارعت ضربات قلبها.

ماذا لو كان بو يول- بايور موجودًا فعلًا في هذه الزنازين؟ علمت أن ذلك غير مرجح، ورغم ذلك.. لو وُجد لقتلته في زنزانته، وجعلته ينام نومًا عميقًا غير مؤلم، ولأوقفت قلبه ببساطة، ولأخبرت كاز بأنها لم تجده. وماذا لو أن كاز هو من وجد بو يول- بايور؟ قد تضطر إلى الانتظار حتى يخرجوا من محكمة الجليد لتجد حلًا، لكن عندئذ يمكنها الاعتماد على ماتياس لمساعدتها. يا لها من صفقة غريبة قاسية توصلا إليها!

ولكن بينما شقت طريقها ذهابًا وإيابًا عبر الممرات، حداها أمل ضئيل في أن يكون العالِم قد تلاشى تمامًا. ففكرت بداخلها قائلة: تبقى صف واحد آخر من الزنازين ثم أعود إلى القبو خالية الوفاض. إلا أنه عندما دخلت الممر الأخير، وجدته أقصر من الممرات الأخرى. وحيث من المفترض أن يصبح هناك المزيد من الزنازين، لم تجد إلا بابًا فولاذيًا، وضوءًا ساطعًا يخرج من تحته.

انتابتها رجفة قلق عندما اقتربت، لكنها فتحت الباب. واضطرت إلى أن تنظر بعينين نصف مغمضتين في هذا الضوء الشديد. فهو ضوء شديد -ساطع كضوء النهار ولكن من دون أيٍّ من دفئه- ولم تتمكن من تحديد مصدره. سمعت صوت الباب يغلق خلفها. فالتفتت وأمسكته من حافته في اللحظة الأخيرة. راودها شعور بأن هذا الباب سيحتاج إلى مفتاح لفتحه من الداخل. فبحثت عن أي شيء قد تستخدمه لإبقائه مفتوحًا، واستقرت على تمزيق قطعة سفلية من سروال السجن الخاص بها وحشرها في القفل.

وشعرت بأنه يوجد خطبٌ ما في هذا المكان. فالجدران والأرضية والسقف بيضاء بشدة لدرجة أن النظر إليها يعمي العين. ويتكون نصف أحد الجدران من ألواح من الزجاج الأملس متقن الصنع؛

مـن صُنـع فابريكاتـور. ويشـبه القفـص الزجاجـي المحيـط بذلـك العـرض الحقـير للأسـلحة. وليـس باسـتطاعة أي حـرفي فـيرداني أن يجعـل الأسـطح نقيـة لتلـك الدرجـة. لا بـد أنـه قـد استُخدمت قـوة غريشـا لصنـع هـذا الزجـاج. وتيقنـت مـن ذلـك؛ حيـث إن هنـاك أفـراد غريشـا أوغـادًا لم يخدمـوا أي دولـة وقـد يفكـرون في توظيـف أنفسـهم لـدى الحكومـة الفيردانيـة، لكـن هـل يأخـذون عمولـة مقابـل هـذا؟ يبـدو أن العمـل بالسـخرة هـو التخمـين الأكـثر احتـمالاً.

خطـت نينـا خطـوة ثـم أخـرى. ونظـرت خلفهـا مـرة أخـرى. ولـو دخـل أحـد الحـراس الممـر خلفهـا، فلـن يصبـح لديهـا مـكان تختبـئ فيـه. فقالـت لنفسـها: لـذا تحـركي يـا نينـا.

نظـرت مـن النافـذة الأولى فوجـدت الزنزانـة بيضـاء مثلهـا مثـل الـرواق ومضـاءة بنفـس الضـوء السـاطع الدائـم. ووجـدت الغرفـة فارغـة وخاليـة مـن الأثـاث، فـلا مقعـد ولا حـوض ولا دلـو. والاسـتثناء الوحيـد في كل هـذا البيـاض هـو بالوعـة في منتصـف الأرضيـة، محاطـة ببقـع حمـراء.

واصلـت التحـرك إلى الزنزانـة التاليـة، فوجدتهـا مماثلـة لسـابقتها وفارغـة بنفـس القـدر، وكذلـك الزنزانـة التاليـة والتـي تليهـا. لكـن لفـت انتباههـا شيء مـا: عملـة معدنيـة ملقـاة بجـوار البالوعـة، كلا، ليسـت عملـة معدنيـة، بـل زر فـضي صغـير مزخـرف بجنـاح، وهـو رمـز غريشـا سـكوالر. شـعرت بسريـان قشـعريرة بذراعيهـا. هـل صُنعـت هـذه الزنازيـن بواسـطة عبيـد مـن الغريشـا لسـجناء مـن الغريشـا؟ وهـل صُنـع الزجـاج والجـدران والأرضيـة لتقـاوم تلاعبـات أي فابريكاتـور؟ لقد خلـت الغـرف مـن المعـدن. ولم توجـد هنـاك سـباكة ولا مواسـير لتحمـل الميـاه والتـي قـد يسـتغلها أي تايدميكـر. واعتقـدت نينـا أن الزجـاج الـذي تنظـر إليـه معكـوس عـلى الجانـب الآخـر، بحيـث لا يتمكـن أي هارتريـندر في الزنزانـة مـن تحديـد موقـع أي هـدف. وعندئـذ تأكـدت أن هـذه الزنازيـن مصممـة لاحتجـاز الغريشـا أو بالأحـرى مصممـة

لاحتجازهـا.

استدارت نينـا عـلى عقبهـا. فلـم تجـد بـو يـول- بايـور، ومـن ثـم فقـد أرادت الخـروج مـن هـذا المـكان عـلى الفـور. فانتزعـت قطعـة القـماش مـن القفـل وخرجـت مـن البـاب دون أن تتوقـف لتتأكـد مـن أنـه قـد أغلـق خلفهـا. ولكنهـا وجـدت ممـر الزنازيـن الحديديـة أكـثر ظلمـة بعـد الضـوء السـاطع الـذي رأتـه سـابقًا، وتعـثرت وهـي تندفـع عائـدة بسرعـة في الطريـق الـذي أتـت منـه. وعرفـت أنهـا تتعامـل مـن دون حـذر، لكنهـا لم تسـتطع إخـراج صـورة تلـك الغـرف البيضـاء مـن رأسـها: البالوعـة، والبقـع التـي حولهـا. هـل تعـرض غريشـا للتعذيـب هنـاك؟ هـل أُجـبروا عـلى الاعـتراف بجرائمهـم ضـد النـاس؟

لقـد درسـت الفيردانيـين، درسـت قادتهـم ولغتهـم؛ حتـى إنهـا حلمـت بدخـول محكمـة الجليـد كجاسوسـة كـما فعلـت بالضبـط، لـضرب قلـب هـذه الأمـة التـي تضمـر لهـا الكراهيـة الشـديدة. ولكـن الآن بعـد أن أصبحـت هنـا، فـكل مـا تريـده هـو أن تغـادر. لقـد اعتـادت كـتردام، وعـلى المغامـرات التـي تسـعد بمشـاركتها مـع الحثالـة، وعـلى حياتهـا السـهلة في ذا وايـت روز. ولكـن حتـى هنـاك، هـل شـعرت يومًـا بالأمان؟ في مدينـة لا تسـتطيع السـير في شـوارعها دون خـوف؟ فقالـت لنفسـها: أريـد العـودة إلى الديـار. لقـد أصابهـا الشـوق بشـدة، بـل أصابهـا ألم جسـدي بسـبب الشـوق. فقالـت لنفسـها مـرة أخـرى: أريـد أن أعـود إلى رافـكا.

بـدأت سـاعة بـرج الإلدركلـوك في القـرع الهـادئ ثـلاث مـرات. لقـد تأخـرت نينـا. ورغـم ذلـك، اضطـرت إلى إبطـاء خطواتهـا قبـل أن تفتـح البـاب المـؤدي إلى الـدرج. لم تجـد أحـدًا، ولا حتـى كاز. أخفضـت رأسـها في الممـر المقابـل لـترى مـا إذا كان قادمًـا. ولم تجـد شـيئًا، بـل مجـرد أبـواب حديديـة، وظـلال قاتمـة، ولا أثـر لـكاز.

انتظـرت نينـا غـير متأكـدة ممـا يجـب فعلـه. لقـد كان مـن المفـترض أن يتلاقيـا عنـد بسـطة الـدرج مـع تبقـي خمـس عـشرة دقيقـة قبـل

انقضاء الساعة. ماذا لو وقع كاز في مشكلة؟ ترددت، ثم دخلت الممر الذي تولى كاز مسؤولية البحث فيه. وأسرعت خطواتها مرورًا بالزنازين والممرات العديدة، لكنها لم تجد كاز في أي مكان.

كفى، هكذا فكرت نينا عندما وصلت إلى نهاية الممر الثاني. فإما أن كاز قد تركها وهو بالفعل في الطابق السفلي مع الآخرين، أو أنه تم الإمساك به واقتياده إلى مكان ما. وفي كلتا الحالتين، يجب عليها النزول إلى محرقة القمامة. فبمجرد العثور على الآخرين يمكنهم تقرير ما يجب فعله.

عادت مسرعة عبر الأروقة وفتحت الباب المؤدي إلى البسطة. فوجدت حارسين يقفان يتجاذبان أطراف الحديث على رأس الدرج. وقفا يحدقان إليها للحظة وأفواههما فاغرة من الدهشة.

صاح أحدهما بلغة فيردان قائلًا: «ستين!»، آمرًا إياها بالتوقف وهما يتخبطان بحثًا عن أسلحتهما. فمدت نينا كلتا يديها، وشكلت أصابعها قبضتين، وشاهدت الحارسين يتداعيان سقوطًا للخلف. سقط أحدهما على البسطة، لكن الآخر سقط على الدرج، وأطلقت بندقيته النار، مخرجة رصاصات اصطدمت بالجدران الحجرية، وتردد صدى صوتها أسفل بئر السلم. لقد كاد كاز يتسبب في مقتلها. وهي سوف تقتل كاز.

اندفعت نينا بسرعة مجتازة جسدي الحارسين، ونزلت مجموعة من السلالم ثم مجموعة ثانية. وفي بسطة الطابق الثالث، انفتح باب وخرج أحد الحراس منه إلى بئر السلم. فمدت نينا يديها في الهواء، وانكسرت رقبة الحارس بطقطقة مسموعة. وهبطت مجموعة السلالم التالية قبل أن تسمع صوت ارتطام جسده بالأرض.

حدث ذلك عندما بدأت أجراس ساعة برج الإلدركلوك في القرع. وهو ليس قرعًا منظمًا، ولكنه قرع صاخب وحاد ومرتفع ومدوٍّ، إنه بالأحرى صوت إنذار.

-٢٥-

إيناج

نظرت إيناج إلى الأعلى في الظلام، فرأت بقعة رمادية صغيرة من سماء المساء تسبح فوقها. وهناك ستة طوابق يجب تسلقها في الظلام ويدها زلقة من العرق ونيران المحرقة مشتعلة أسفلها، مع حبل يزيد الثقل عليها ومن دون شبكة لالتقاطها إذا ما سقطت. قالت لنفسها: تسلقي يا إيناج.

تعد الأيدي العارية هي الأفضل للتسلق، لكن جدران المحرقة ساخنة للغاية ولا تسمح بذلك؛ لذا ساعدها ويلان وجاسبر في إخراج قفازات كاز من حاويات الغسيل. لقد ترددت لوهلة. وبالفعل كان كاز سيخبرها بأن ترتدي القفازات، وأن تفعل كل ما يتطلبه الأمر لإنجاز المهمة. ورغم ذلك، شعرت بذنب غريب عندما أدخلت يديها في القفازات، كما لو أنها قد تسللت إلى غرفته دون إذنه، وقرأت رسائله واستلقت على سريره. وجدت أن القفازات غير مبطنة، وبها فتحات رفيعة مخفية في أماكن أطراف الأصابع. وأدركت أن ذلك من أجل خدع خفة اليد، حتى يتمكن من ملامسة العملات المعدنية أو أوراق اللعب أو إتقان فتح الأقفال. أي ليلمس تلك الأشياء دون أن يلاحظ الآخرون.

لم يُتح الوقت للتأقلم على إحساس القفازات كبيرة الحجم. وعلاوة على ذلك، فقد تسلقت لمرات عديدة ويداها مغطيتان عندما كان شتاء كتردام يخدر أصابعها. قامت بثني أصابع قدميها في حذائها الجلدي الصغير، مستمتعة بإحساسه المألوف على قدميها، وتقافزت على نعل حذائها المطاطي الصغير، بلا خوف وبحماس. ولم تمثل الحرارة لها سوى مجرد إزعاج. أليس هناك حبل ثقيل طوله سبعون قدمًا ملفوف حول جسدها؟ ولكنها من الريش. وقد

عانت ما هو أسوأ من ذلك. فبدأت تتسلق المدخنة بثقة تامة. وعندما لامست أصابعها الحجارة، خرجت أنفاسها على شكل هسهسة. وعلى الرغم من وجود القفازات، شعرت بالحرارة الشديدة للحجارة. ولولا القفازات، لبدأت بشرتها في التقرح على الفور. ولكن لم يكن هناك ما يمكن فعله سوى التماسك. تسلقت، وهي تمد يدًا ثم قدمًا، ثم يدًا مرة أخرى، بحثًا عن الشق الصغير التالي، أو الفتحة التالية في الجدران المليئة بسخام الدخان.

تصبب ظهرها عرقًا. وعلى الرغم من أنهم غمسوا الحبل وملابسها في الماء، فعلى ما يبدو فإن ذلك لم يفد كثيرًا. فشعرت بأن جسدها كله يتوهج ويفور بالدم كما لو أنها تُطهى ببطء.

نبضت قدماها بالحرارة، وشعرت بأنهما ثقيلتان كما لو كانتا تخصان شخصًا آخر. وحاولت أن تركز على نفسها. لقد وثقت بجسدها، وتعرف قوتها وما يمكنها فعله بالضبط. فوضعت يدًا أخرى بالأعلى، مُجبرة أطرافها على التضافر، وباحثة عن الاتزان، ولكنها لم تجد إلا تزامنًا غريبًا جعل عضلاتها ترتعش مع كل تقدم للأعلى. ثم وصلت إلى الفتحة التالية وتشبثت بها. قالت لنفسها: تسلقي يا إيناج.

ولكن انزلقت قدمها؛ ففقدت أصابع قدميها التلامس مع الجدار، وترنح بطنها عندما شعرت بسحب وزنها والحبل. فأمسكت بالحجر، وتشبثت بالشقوق، وقفازات كاز تلتصق بأصابعها الرطبة. ومرة أخرى، سعت أصابع قدميها للتشبث بشيء، لكنها انزلقت من فوق الحجارة، ثم بدأت قدمها الأخرى في الانزلاق أيضًا. فاستنشقت هبّة من الهواء الحار. لا بد أن هناك خطبًا ما. فخاطرت بإلقاء نظرة إلى الأسفل؛ فرأت بعيدًا بالأسفل التوهج الأحمر للجمر، لكن ما رأته على قدميها هو الذي جعل قلبها يخفق بشدة نتيجة الذعر. فلم تجد إلا فوضى لزجة؛ حيث ذاب نعل حذائها الرائع الذي تحبه.

فقالت لنفسها: لا بأس. فقط غيري مكان قبضتك. ضعي ثقل

وزنك على كتفيك. سيبرد المطاط كلما ارتفعتِ إلى الأعلى. سوف يساعدك على التشبث، لكنها شعرت كأن قدميها تحترقان. ورؤيتها لما يحدث زادت الأمر سوءًا، حيث بدا الأمر كما لو أن المطاط يذوب في لحمها.

رمشت إيناج لإزالة العرق من فوق عينيها وسحبت نفسها بضع بوصات أخرى للأعلى. ومن مكان ما بالأعلى، سمعت قرع ساعة برج الإلدركلوك. فهل تشير إلى نصف ساعة؟ أم ساعة إلا ربعًا؟ يجب عليها أن تتحرك بشكل أسرع. يجب أن توجد على السطح بحلول هذا الوقت، وتربط الحبل.

دفعت نفسها إلى الأعلى وانزلقت قدمها من فوق الحجر. فسقطت، وجسدها كله يتخبط على الحائط وهي تسارع للإمساك بشيء. ولكن لم يوجد هناك مَن ينقذها. فلم يوجد كاز ليأتي لإنقاذها، ولا شبكة تنتظر لامتصاص قوة سقوطها، والنار فقط هي الشيء الوحيد الجاهز لاستقبالها.

أرجعت إيناج رأسها إلى الخلف بحثًا عن تلك البقعة من السماء. ولكنها لا تزال تبدو بعيدة بشكل مستحيل. كم تبعُد؟ عشرين قدمًا؟ أم ثلاثين؟ بل ربما تبعد أميالًا طويلة. حتمًا ستموت هنا، ببطء وبشكل مروِّع على الجمر. سوف يموتون جميعًا - كاز ونينا وجاسبر وماتياس وويلان - وكل ذلك خطؤها.

كلا، لن يسير الأمر على هذا النحو.

رفعت نفسها قدمًا آخر -فكاز هو من أحضرنا إلى هنا- ثم قدمًا آخر. وأجبرت نفسها على العثور على الفتحة التالية. إن السبب هو كاز وجشعه. فلم تشعر بالذنب. ولم تأسف. ولكنها غضبت بشدة. غضبت من كاز لمحاولته القيام بهذه المهمة المجنونة، وغضبت من نفسها لموافقتها على ذلك.

ولماذا وافقت؟ هل لتسديد ديونها؟ أم لأنه على الرغم من كل المنطق والنوايا الحسنة، سمحت لنفسها بأن تشعر بشيء تجاه

عندما دخلت إيناج صالون تانتي هيلين في تلك الليلة منذ زمن بعيد، كان كاز بريكر ينتظر، مرتديًا ملابس لونها رمادي غامق، ومتكئًا على عصا رأس الغراب الخاصة به. ووجدت الصالون مفروشًا بأثاث ذهبي وأزرق مخضر، وأحد الجدران مزين بالكامل بريش الطاووس. كرهت إيناج كل شبر من الميناجيري -وهو الصالون الذي أجبرت فيه هي والفتيات الأخريات على التحدث بتودُّد وإغراء للزبائن المحتملين، وغرفة نومها التي صُنعت لتبدو كأنها نسخة هزلية من كارفان سولي، مزينة بالحرير الأرجواني وتفوح منها رائحة البخور- لكنها وجدت صالون تانتي هيلين هو الأسوأ. فهو مكان للضرب، ومتنفس لأسوأ نوبات غضب هيلين.

حاولت إيناج الفرار عندما وصلت إلى كتردام لأول مرة. لقد واجهت اعتراضين من الميناجيري، وظلت ترتدي الحرير، وقد أصابتها أضواء وفوضى ويست ستاف بالدوار، وهي تركض من دون وِجهة، قبل أن يمسكها الكوبيت من مؤخرة عنقها ويعيدها. أخذتها هيلين إلى الصالون وضربتها ضربًا مبرحًا لدرجة أنها لم تقدر على العمل لمدة أسبوع. وطوال الشهر التالي لمحاولة الهروب، قيدتها هيلين بسلاسل ذهبية، ولم تسمح لها حتى بالنزول إلى الصالون. وعندما فتحت هيلين الأغلال في النهاية، قالت لها: «أنتِ مدينة لي بشهر من الدخل المفقود. اهربي مرة أخرى، وسألقي بك في بوابة الجحيم لانتهاكك العقد».

وفي تلك الليلة، دخلت الصالون بخوف، وعندما رأت كاز بريكر هناك، تضاعف خوفها. فلا بد أن اليد القذرة قد أبلغ عنها. ولا بد أنه أخبر تانتي هيلين بأنها تحدثت من دون إذن، وأنها كانت تحاول افتعال المشكلات.

لكن هيلين استندت إلى الخلف على كرسيها الحريري، وقالت:

«حسنًا، يا أنثى الوشق الصغيرة، يبدو أنكِ قد أصبحتِ مشكلة شخص آخر الآن. يبدو أن بير هاسكيل لديه ميل للفتيات السوليات. لقد اشترى عقدك مقابل مبلغ ضخم للغاية».

ازدردت إيناج ريقها وهي تسأل: «هل سأنتقل إلى منزل آخر؟».

لوحت هيلين بيدها وهي تقول: «يمتلك هاسكيل منزلًا للمتعة -إذا أمكنك تسميته ذلك- في مكان ما في الباريل السفلي، لكنكِ ستكونين مضيعة لأمواله هناك، وعندئذ ستعرفين بالتأكيد كم كانت تانتي هيلين لطيفة معك. ولكن كلا، فهاسكيل يريدك لنفسه».

من بير هاسكيل هذا؟ فقال صوت بداخلها: هل يهم ذلك؟ إنه رجل يشتري النساء. وهذا كل ما تحتاجين إلى معرفته.

ومن الواضح أن أسى إيناج بدا ظاهرًا عليها لأن تانتي هيلين ضحكت قليلًا وهي تقول: «لا تقلقي. إنه طاعن في السن، كبير في السن بشكل مثير للاشمئزاز، لكنه يبدو غير مؤذٍ. بالطبع، لا أحد يعلم. ربما سيشاركك مع فتى المهمات الخاص به، السيد بريكر».

حول كاز عينيه الباردتين إلى تانتي هيلين وهو يسأل: «هل انتهينا؟». وكانت هذه هي المرة الأولى التي تسمعه فيها إيناج وهو يتكلم، وقد أفزعها صوته الأجش القاسي.

أخذت هيلين نفسًا، وضبطت عنق فستانها الأزرق المتلألئ وقالت: «لقد انتهينا بالطبع أيها الصعلوك الحقير». وقامت بتسخين قطعة من الشمع الأزرق الطاووسي وختمت بختمها على المستند الذي أمامها. ثم نهضت وتفحصت صورتها في المرآة المعلقة فوق رف المدفأة. ورأت إيناج هيلين وهي تعدِّل القلادة الماسية على رقبتها، والمجوهرات تتلألأ بشكل براق. وبسبب ضجيج الأفكار المرتبكة في رأسها، اعتقدت إيناج أن هذه المجوهرات تبدو كالنجوم المسروقة.

قالت تانتي هيلين: «وداعًا يا أنثى الوشق الصغيرة. أشك في أنكِ ستستمرين أكثر من شهر في ذلك الجزء من الباريل». ونظرت إلى كاز وقالت: «لا تندهش إذا هربت. إنها أسرع مما تبدو عليه، لكن

ربما يستمتع بير هاسكيل بذلك أيضًا. والآن غادرا».

ثم خرجت من الغرفة في موجة من الحرير والعطر الجميل، تاركة إيناج مصدومة في أعقابها.

وببطء، عبر كاز الغرفة وأغلق الباب. وتوترت إيناج خوفًا مما سيحدث بعد ذلك، وأصابعها تتلوى في ملابسها الحريرية.

قال كاز: «بير هاسكيل يدير الدريجز. هل سمعتِ بنا؟».

«إنهم عصابتك».

«أجل، وهاسكيل رئيسي. وإن شئت القول رئيسك أيضًا».

فاستجمعت شجاعتها وقالت: «وإذا لم أُرِدْ ذلك؟».

«سأسحب العرض وأعود إلى المنزل وأنا أبدو كالأحمق. وأنتِ ستظلين هنا مع تلك المتوحشة هيلين».

فطارت يدا إيناج لتشير إلى فمها، وهمست مذعورة: «إنها تتنصت».

«دعيها تتنصت. يحتوي الباريل على جميع أنواع الوحوش، وبعضها جميل جدًا بالطبع. أنا أدفع لهيلين مقابل الحصول على معلومات. في الواقع، إنني أدفع لها الكثير للحصول على معلومات. لكنني أعرف ماهيتها بالضبط. لقد طلبتُ من بير هاسكيل دفع قيمة عقدك. هل تعرفين لماذا؟».

«هل لأنك تحب الفتيات السوليات؟».

«أنا لا أعرف الكثير من الفتيات السوليات لأقول ذلك». وسار نحو المكتب وأخذ الوثيقة، ووضعها في معطفه وهو يقول: «في تلك الليلة، عندما تحدثتِ معي ـــــــــــ»

«أنا لم أقصد أي إهانة، أنا ـــــــــــ»

«لقد أردتِ أن تقدمي لي معلومات. هل من أجل الحصول على مساعدة؟ أم لإرسال خطاب لوالديك؟ أم من أجل الحصول على مبلغ إضافي؟».

شعرت إيناج بالحرج؛ فهذا ما أرادته بالضبط. لقد سمعت

شـائعات عـن تجـارة الحريـر وفكـرت في الدخـول في نـوع مـن أنـواع المقايضـة. وكان ذلـك غبـاء ووقاحـة منهـا.

«هل إيناج جافا هو اسمكِ الحقيقي؟».

صـدر صـوت غريـب مـن حنجـرة إينـاج، جـزء منـه شـهقة وجـزء آخـر ضحكـة، صـوت ضعيـف ومحـرج، لكـن مـرت شـهور منـذ أن سـمعت اسـمها واسـم عائلتهـا. وفي النهايـة اسـتطاعت إخـراج صوتهـا وقالـت: «أجـل».

«هل هذا ما تفضلين أن تتم دعوتك به؟».

فقالـت: «بالطبـع»، ثـم أضافـت: «هـل كاز بريكـر هـو اسـمك الحقيقـي؟».

«حقيقـيٌ بمـا فيـه الكفايـة. عندمـا اقتربـتِ منـي الليلـة السـابقة لم أعـرف أنـك بالقـرب منـي حتـى تحدثـتِ».

عبسـت إينـاج. لقـد أرادت أن تبـدو هادئـةً، فتصرفـت عـلى هـذا النحـو بالفعـل. ولكـن مـا أهميـة ذلـك؟

قـال كاز مشـيرًا إلى ملابسـها: «هنـاك أجـراس عـلى كاحليـكِ، لكننـي لم أسـمعك. وهنـاك حريـر بنفسـجي ومواضـع مرسـومة عـلى كتفيـكِ، لكننـي لم أرك. وأنـا أرى كل شيء». فهـزت كتفيهـا متجاهلـة كلامـه، ووجـه رأسـه إلى أحـد الجوانـب وهـو يسـأل: «هـل تدربـتِ كراقصـة؟».

تـرددت لبرهـة قصـيرة قبـل أن تقـول: «بهلوانـة. فعائلتـي كلهـا بهلوانـات».

«هل تمشين على الحبال العالية؟».

«والأراجيح. ورمي الكرات. والشقلبة».

«هل كنتِ تعملين بوجود شبكة أمان تحتك؟».

«فقط عندما كنت صغيرة جدًا».

«جيد. لا توجد أي شباك في كتردام. هل سبق أن خضتِ شجارًا؟».

فهزت رأسها نافية.

«هل قتلتِ أحدًا من قبل؟».

اتسعت عيناها دهشة وهي تقول: «كلا».
«هل فكرتِ في الأمر من قبل؟».
فترددت لبرهة ثم شبّكت ذراعيها وهي تقول: «في كل ليلة».
«هذه هي البداية».
«أنا لا أريد قتل الناس، في الحقيقة ليس تمامًا».
«هذه سياسة حكيمة إلى أن يرغب الناس في قتلك. وهذا يحدث كثيرًا في مسار عملنا».
«مسار عملنا؟».
«أريدكِ أن تنضمي إلى الدريجز».
«لأفعل ماذا؟».
«لتجمعي المعلومات. أحتاج إلى عنكبوت يتسلق جدران منازل كتردام ومنشآتها التجارية، ليتنصت على النوافذ وشرفات المنازل. أحتاج إلى شخص يمكنه أن يتوارى عن الأنظار، يمكنه أن يصبح شبحًا. هل تعتقدين أنه يمكنكِ فعل ذلك؟».
ففكرت في نفسها: أنا شبح بالفعل. لقد توفيت في عنبر سفينة عبيد.
ثم قالت: «أعتقد ذلك».
«هذه المدينة مليئة بالرجال والنساء الأغنياء. سوف تتعلمين عاداتهم، ورحلاتهم وأسفارهم، والأشياء القذرة التي يفعلونها في الليل، والجرائم التي يحاولون إخفاءها خلال النهار، ومقاسات أحذيتهم، ومجموعاتهم الآمنة، وأكثر لعبة أحبوها وهم أطفال. وسأستخدم هذه المعلومات لأسلب أموالهم».
«وماذا يحدث عندما تأخذ أموالهم وتصبح رجلًا ثريًا؟».
تحرك فم كاز قليلًا بسبب دهشته من سؤالها وقال: «حينئذ يمكنك سرقة أسراري أيضًا».
«ألهذا اشتريتني؟».
اختفى المزاح من محياه وهو يقول: «بير هاسكيل لم يشترِك.

لقد دفع قيمة عقدك. وهذا يعني أنكِ مدينة له بالمال. بل الكثير من المال، لكنه عقد حقيقي. خذي»، ثم أخرج وثيقة هيلين من معطفه وهو يستطرد: «أريد منكِ أن تري شيئًا».

«أنا لا أستطيع قراءة لغة كيرتش».

«لا يهم. هل ترين هذه الأرقام؟ هذا هو السعر الذي تدعي هيلين أنكِ اقترضتِه منها للانتقال من رافكا. وهذا هو المال الذي جنيتِه من عملها. وهذا هو المبلغ الذي ما زلتِ مدينة لها به».

«لكن.. لكن هذا غير ممكن. إنه الآن أكثر مما كان عليه عندما وصلت إلى هنا».

«هذا صحيح. لقد حاسبتكِ على تكلفة السكن والطعام والعناية الشخصية».

قالت إيناج، وغضبها يزداد رغمًا عنها: «لقد اشترتني؛ فأنا حتى لم أقرأ ما وقعت عليه».

«إن الرق غير قانوني في كيرتش، لكن عقود العمل ليست كذلك. أعلم أن هذا العقد مزيف وأي قاضٍ حكيم سيعلم ذلك أيضًا. ولكن للأسف، تسيطر هيلين على العديد من القضاة هنا. إن بير هاسكيل يعرض عليكِ قرضًا، لا أكثر ولا أقل. سيكون عقدك في رافكان. وسوف تدفعين فائدة، لكنها لن تُثقلك بما يفوق طاقتك. وما دمتِ تدفعين له نسبة مئوية معينة كل شهر، ستصبح لك الحرية في الحركة والتنقل كما يحلو لكِ».

هزت إيناج رأسها رفضًا. فلا شيء من هذا يبدو ممكنًا.

«إيناج، دعيني أكن واضحًا جدًّا معك. إذا تنصلتِ من عقدك، فسوف يرسل هاسكيل أشخاصًا وراءك، أشخاصًا يجعلون تانتي هيلين تبدو كجدة خرقاء مثيرة للشفقة. ولن أمنعه. فأنا أضع حياتي على المحك من أجل هذا الترتيب الصغير. إنه ليس منصبًا أستمتع به».

قالت إيناج بهدوء: «إن كان كلامك هذا صحيحًا، إذًا فأنا حرة في

قـول لا».

فقـال: «بالطبـع، لكـن مـن الواضـح أنـكِ خطـيرة، وأنـا أفضـل ألا تصبحـي خطـيرة عـليَّ أبـدًا».

خطـيرة. أرادت أن تتمسـك بوصفها بهـذه الكلمـة. وتأكـدت تمامًـا من أن هـذا الصبـي مجنـون أو واهـم بشـكل ميئـوس منـه، لكنهـا أحبـت وقْـع هـذه الكلمـة، ومـا لم تكـن مخطئـة، فإنـه عـرض عليهـا أن يتركهـا تخـرج مـن هـذا المنـزل الليلـة.

وبـدا صوتهـا أصغـر مـما أرادت وهـي تسـأل: «هـذه ليسـت.. ليسـت خدعـة، أليـس كذلـك؟».

فتحـرك ظـل شيء مظلـم عـلى وجـه كاز وهـو يقـول: «إن كانـت خدعـة، لوعدتـكِ بالأمـان. ولعرضـتُ عليـكِ السـعادة. لا أعـرف مـا إذا شـعرت بهـذا في الباريـل، لكنـكِ لـن تجـدي أيًّـا منهـما معـي».

ولسـبب مـا، أراحتهـا هـذه الكلـمات؛ فالحقائـق الفظيعـة أفضـل مـن الأكاذيـب اللطيفة.

قالـت: «حسـنًا. كيف نبدأ؟».

«لنبـدأ بالخـروج مـن هنـا وإيجـاد بعـض الملابـس المناسـبة لـكِ». ثـم أضـاف وهـما يخرجـان مـن الصالـون: «أوه، لا تقـتربي منـي خلسـة مـرة أخـرى يـا إينـاج».

الحقيقـة هـي أنهـا حاولـت الاقـتراب مـن كاز خلسـة مـرات عديـدة منـذ ذلـك الحـين. ولم تنجـح في ذلـك مطلقًـا. وأشـبه الأمـر كـما لـو أنـه بمجـرد أن انتبـه لهـا كاز مـرة، فقـد فهـم كيـف يسـتمر في الانتبـاه لهـا.

لقـد وثقـت بـكاز بريكـر في تلـك الليلـة، وأصبحـت الفتـاة الخطـرة التـي شـعر بأنهـا كامنـة بداخلهـا، لكنهـا ارتكبـت خطـأ الاسـتمرار في الوثـوق بـه، والإيمـان بالأسـطورة التـي بناهـا عـن نفسـه. لقـد أوصلتهـا تلـك الأسـطورة إلى هـذا الظـلام شـديد الحـر، متأرجحـة بـين الحيـاة

والموت مثل الورقة الأخيرة التي تتشبث بغصن الخريف. ففي النهاية، كاز بريكر مجرد أحمق، وقد تركته يقودها إلى هذا المصير.

لم تستطع حتى لومه. فلقد تركت نفسها له لأنها لم تعرف إلى أين تريد أن تذهب. فالقلب سهم مصوب للعقل. وهناك فرصة للفوز بأربعة ملايين كروج ونيل الحرية والعودة إلى الديار. لقد قالت إنها تريد هذه الأشياء، لكن في قلبها، لم تستطع تحمل فكرة العودة إلى والديها. فهل يمكن أن تخبر والديها بالحقيقة؟ هل سيتفهمان كل ما فعلته للبقاء على قيد الحياة، ليس فقط في الميناجيري، ولكن في كل يوم منذ ذلك الحين؟ هل يمكن أن تضع رأسها في حضن أمها وتصفح عنها أمها؟ ماذا سيعتقد عنها والداها عندما يريانها؟

قالت لنفسها: تسلقي يا إيناج. ولكن إلى أين تذهب؟ ما الحياة التي تنتظرها بعد كل ما عانته؟ فظهرها يؤلمها، ويداها تنزفان. وعضلات ساقيها صُدمت برعشة غير مرئية، وشعرت بأن جلدها على وشك أن يتقشر عن جسدها. وكل نفس من الهواء الأسود يحرق رئتيها. فلا تستطيع التنفس بعمق. ولا تستطيع حتى التركيز على تلك البقعة الرمادية من السماء. ظل العرق يتصبب على جبينها ويحرق عينيها. وإذا استسلمت، فإنها بذلك تستسلم بالنيابة عنهم جميعًا، بالنيابة عن جاسبر وويلان، وعن نينا وحبيبها الفيرداني كاز. ولم تستطع فعل ذلك.

تردد صوت تانتي هيلين في رأسها: لم يعد الأمر عائدًا إليكِ يا أنثى الوشق الصغيرة، منذ متى وأنتِ تتمسكين بأي شيء؟

التفت حرارة المحرقة حول إيناج كأنها كائن حي، أو تنين صحراء في عرينه مختبئ من الجليد، وينتظرها. إنها تعرف حدود جسدها، وتعرف أنه ليس لديها المزيد لتقدمه. لقد قامت برهان سيئ. وهذا كل ما في الأمر. لقد تشبثت ورقة الخريف بفرعها، لكنها ميتة بالفعل. والسؤال الوحيد هو: متى ستسقط؟

أفلتـي يـدكِ يـا إينـاج. لقـد علمهـا والدهـا أن تتسـلق، وأن تثـق بالحبـل والأرجوحـة، وفي النهايـة، أن تثـق بمهاراتهـا الخاصـة، وأن تؤمـن بأنهـا إذا قفـزت، سـتصل إلى الجانـب الآخـر. فهـل سـتجده بانتظارهـا؟ فكـرت في سـكاكينها المخبـأة بعيـدًا عـلى مـتن سـفينة الفيرولينـد - ربمـا يمكنهـا الذهـاب إلى فتـاة أخـرى تحلـم بـأن تكـون خطـرة. وهمسـت بأسـمائها: بيـتر وماريـا وأناستاسـيا وفلاديمـير وليزابيتـا وسـانكتا أليـنـا، التـي توفيـت قبـل أن تبلـغ الثامنـة عـشرة مـن عمرهـا. أفلتـي يـدكِ يـا إينـاج. هـل يجـب أن تقفـز الآن أم تنتظـر حتـى تنفـد طاقـة جسـدها؟

شـعرت إينـاج ببلـل عـلى خديهـا. هـل هـذا بسـبب البـكاء؟ الآن؟ بعـد كل مـا فعلتـه ومـا فُعـل بهـا؟

ثـم سـمعت صوتًـا رقيقًـا ولطيفًـا يشـبه الإيقـاع حقيقـي. لقـد شـعرت بـه عـلى خديهـا ووجههـا. سـمعت صـوت هسهسـة وهـو يـضرب الجمـر الـذي في الأسـفل ليطفئـه. إنـه مطـر بـارد ومريـح. أمالـت إينـاج رأسـها للخلـف. وفي مـكان مـا، سـمعت قـرع أجـراس سـاعة الـبرج ثـلاث مـرات، لكنهـا لم تهتـم. فلـم تسـمع سـوى موسـيقى المطـر وهـي تغسـل العـرق والسـخام ودخـان فحـم كـتردام وطـلاء الوجـه الخـاص بالميناجـيري، وهـي تزيـل أليـاف الحبـل والمطـاط مـن عـلى قدميهـا المتألمتـين. وبـدا الأمـر كأنـه هبـة مـن السـماء، رغـم أنهـا تعلـم أن كاز سيسـميه الطقـس فحسـب.

عليهـا أن تتحـرك الآن، بسرعـة، قبـل أن تصبـح الحجـارة زلقـة ويتحول المطـر إلى عـدو لهـا. فأجـبرت عضلاتهـا عـلى الانثنـاء، وأصابعهـا عـلى الالتـواء، وسـحبت نفسـها للأعـلى قدمًـا، ثـم أخـرى، وأخـرى وأخـرى، وهـي تتمتـم بعبـارات الشـكر لقديسـيها. فهـا هـو الإيقـاع الـذي أفلـت منهـا مـن قبـل، وجدتـه مدفونًـا في إيقـاع الهمـس بأسـمائهم.

ولكـن حتـى في أثنـاء التمتمـة بصلواتهـا، عرفـت أن المطـر ليـس كافيًا. لقـد أرادت عاصفـة، رعـدًا وريحًـا وطوفانًـا. أرادتهـا أن تجتـاح بيـوت المتعـة بكـتردام وترفـع الأسـقف وتخلـع الأبـواب مـن مفصلاتهـا. أرادتهـا

أن ترفع أمواج البحار، وتمسك بكل سفينة رقيق، وتحطم صواريها، وتحطم هيكلها على شواطئ لا ترحم. وفكرت في نفسها: أريد أن أسمي ذلك عاصفة. وأربعة ملايين كروج قد تصبح كافية للقيام بذلك. كافية لبناء سفينتها الخاصة، شيء صغير وشرس ومليء بالقوة النارية. شيء مثلها. سوف تطارد النخاسين والذين يشترون منهم، وسوف يتعلمون الخوف منها، ويعرفونها باسمها. فالقلب سهم يتطلب هدفًا لينطلق نحوه بشكل صحيح. لقد تشبثت بالجدار، لكن هذا هو هدفها الذي حددته بعد طول انتظار، وهو ما حملها إلى الأعلى.

إنها ليست أنثى وشق أو عنكبوتًا أو حتى من الريث. إنها إيناج جافا، وينتظرها مستقبلها في الأعلى.

-٢٦-

كاز

انطلق كاز مسرعًا عبر الزنازين العلوية، مستغرقًا ثواني وجيزة لإلقاء نظرة سريعة على كل فتحة. وتيقن أنه لن يجد بو يول- بايور هنا، وليس لديه الكثير من الوقت.

شعر جزء منه بالارتباك. فلم يحمل معه عصا المشي، وقدماه حافيتان. وقد ارتدى ملابس غريبة ويداه شاحبتان وبلا قفازات. لم يشعر بأنه على طبيعته على الإطلاق. كلا، ليس هذا صحيحًا تمامًا. لقد شعر بأنه كاز الذي كان عليه في الأسابيع التي تلت وفاة أخيه جوردي، كحيوان بري، يكافح من أجل البقاء.

لمح كاز سجينًا من شو هان يقبع في الجزء الخلفي من إحدى الزنازين.

همس كاز: «سيش-أوبيه». حدق الرجل إليه من دون أي تعبير. «يول- بايور؟» شخص عديم الأهمية. بدأ الرجل بالصياح عليه بلغة شو هان، وهرع كاز مبتعدًا، متجاوزًا بقية الزنازين، ثم تسلل إلى بسطة الدرج وانطلق إلى الطابق التالي بأسرع ما يمكن. لقد علم أنه متهور وأناني، لكن أليس هذا هو السبب وراء تسميته باليد القذرة؟ فليس هناك عمل فيه مخاطرة كبيرة، ولا عمل به مخاطرة منخفضة، وكل ما يريد اليد القذرة رؤيته هو أنه قد تم إنجاز أي عمل.

لم يتأكد مما كان يحفزه. فمن الممكن ألا يوجد بيكا رولينز هنا. ومن الممكن أن يكون قد مات، لكن كاز لم يصدق ذلك. فقال لنفسه: أود أن أعرف. أود أن أعرف بطريقة ما. ثم همس قائلًا: «موتك يخصني».

كانت السباحة من ذا ريبرز بارج بمثابة ولادة جديدة لكاز. فروح الطفل التي عاش بها، قد ماتت بسبب حمى فايربوكس؛ حيث أحرقت هذه الحمى كل شيء لطيف بداخله.

ولم يصبح البقاء على قيد الحياة بالصعوبة نفسها التي كان يعتقدها عندما تخلى عن الأخلاق الحميدة. فالقاعدة الأولى هي العثور على شخص أصغر وأضعف منه وأخذ ما لديه. وعلى الرغم من أنه يبحث عن شخص صغير وضعيف، فلم تكن المهمة سهلة. تحرك من المرفأ، متجهًا إلى الأزقة، متجهًا نحو الحي الذي عاش فيه آل هيرتزون. وعندما رأى محلًا للحلوى، انتظر في الخارج، ثم أوقف تلميذًا صغيرًا بدينًا متخلفًا عن أصدقائه. طرحه كاز أرضًا، وأفرغ جيوبه، وأخذ كيس عرق السوس الخاص به.

وقال: «أعطني سراويلك».

فقال الطفل باكيًا: «إنها كبيرة جدًا عليك».

عضه كاز، فتخلى الصبي عن سراويله. فلفّها كاز على شكل كرة وألقى بها في القناة، ثم ركض بأقصى سرعة تتحملها ساقاه الضعيفتان. لم يرد السراويل حرفيًا. ولكن أراد فقط أن ينتظر الصبي قبل أن يذهب طالبًا المساعدة. فقد علم أن ذلك التلميذ سيجلس في ذلك الزقاق لفترة طويلة، عاري الظهر ونصف عارٍ في الشارع وفي الوقت نفسه يحتاج إلى العودة إلى المنزل وسرد ما حدث.

توقف كاز عن الركض عندما وصل إلى أحلك زقاق يمكن أن يجده في الباريل. وحشر كل عرق السوس في فمه دفعة واحدة، وازدرده في بلعات مؤلمة، ثم تقيأه على الفور. ثم أخذ بعض المال واشترى لفافة خبز أبيض ساخنة. ولأنه ظهر حافي القدمين ومتسخًا، أعطاه الخباز لفافة ثانية ليبقى بعيدًا.

وعندما شعر بأنه أصبح أقوى بعض الشيء، وأقل ارتعاشًا بعض الشيء، سار إلى إيست ستاف ليجد أكثر وكر قمار قتامة، وكر من دون لافتة ومنادٍ وحيدٍ فقط أمامه.

فقال عند الباب: «أريد عملًا».
«ليس لدينا عمل أيها الأخرق».
«أنا بارع في الحساب».
فضحك الرجل وقال: «هل يمكنك تنظيف المبولة؟».
«أجل».
«حسنًا، للأسف لدينا بالفعل صبي ينظف المبولة».

فانتظر كاز طوال الليل حتى رأى صبيًا في نفس سنه يغادر المبنى. وتبعه لمسافة بنايتين، ثم ضربه على رأسه بحجر. فجلس على ساقي الصبي وخلع حذاءه، ثم جرح باطن قدميه بقطعة من زجاجة مكسورة. سوف يتعافى الصبي، لكنه لن يتمكن من العمل في أي وقت قريب. وشعر كاز بالاشمئزاز للمسه اللحم العاري لكاحليه. وظل يرى الجثث البيضاء التي كانت على متن ذا ريبرز بارج، واستعاد ذكرى شعوره بالانتفاخ الطري لجلد أخيه جوردي تحت يديه.

وفي مساء اليوم التالي، عاد إلى الوكر.

قال: «أريد عملًا». وبالفعل حصل على عمل.

ومنذ ذلك الوقت، بدأ يعمل ويدخر ويوفر الأموال. لقد تعقب اللصوص المحترفين في الباريل وتعلم كيف يسرق جيوب الناس وكيف ينشل حقائب السيدات. وقضى فترته الأولى في السجن، ثم الثانية. وسرعان ما اكتسب سمعة باستعداده لتولي أي عمل يريد أحد إنجازه، وسرعان ما التصق به اسم اليد القذرة. إنه مقاتل غير ماهر، لكن صلب وعنيد.

ذات مرة قال له أحد المقامرين في ذا سيلفر جارتر: «ليست لديك براعة، ولا أسلوبًا جيدًا».

فأجاب كاز: «بالتأكيد لديَّ، فأنا أمارس فن «سحب القميص فوق الرأس ثم اللكم حتى ينزف دمًا»».

ظل اسمه كاز، كما هو دائمًا، لكنه استعار اسم بريكر من قطعة

مـن آلـة رآهـا عـلى أرصفـة الميـناء. وتخـلى عـن اسـم عائلتـه، ريتفيلـد، وتخلـص منـه. إنـه اسـم ريفـي، وآخـر رابـط يربطـه بجـوردي وبوالـده، لكنـه لم يـرد أن يكتشـف جاكـوب هيرتـزون أمـره.

لقـد اكتشـف أن المحتـال هيرتـزون تقـصى عنـه وأن اسـم جـوردي شـائع. فليـس المقهـى والمنـزل في زيلفرسـترات سـوى سـتار يسـتخدم لنهـب الحمقـى في البـلاد. فيليـب بكلابـه الميكانيكيـة هـو صانـع الحبـال التـي اسـتخدمها لجـذب جـوردي، بينـما كل مـن مارجيـت وساسـكيا والموظفـين في المكتـب التجـاري شركاء في عمليـة الاحتيـال، حتـى إن أحـد مسـؤولي البنـك وجـب عليـه أن يشـارك في ذلـك، وأعطـى معلومـات لهيرتـزون عـن عملائهـم وأبلغـه بالمنضمـين حديثًـا للحسـابات المفتوحـة في البـلاد. ربمـا قـام هيرتـزون بالاحتيـال عـلى العديـد مـن الأشـخاص في وقـت واحـد، فـثروة جـوردي الضئيلـة ليسـت كافيـة لتبريـر مثـل هـذا التخطيـط.

لكـن أهـم اكتشـاف توصـلا إليـه هـو موهبـة كاز في ورق اللعـب. ربمـا جعلتـه وجـوردي ثريـين. فبمجـرد أن يتعلـم أي لعبـة، يسـتغرق منـه الأمـر مجـرد سـاعات فقـط لإتقانهـا، وبعـد ذلـك لا تمكـن هزيمتـه ببسـاطة. فباسـتطاعته تذكـر كل توزيـع ورق وكل رهـان تـم عملـه. وباسـتطاعته متابعـة مسـار اللعـب لمـا يصـل إلى خمـس حـزم مـن الـورق. وإذا وجـد شـيئًا لا يتذكـره، عوضـه عـن طريـق الغـش. فلـم يفقـد قـط حبـه لخفـة اليـد، وتـدرج مـن النقـود المعدنيـة إلى أوراق اللعـب والأكـواب والمحافـظ والسـاعات. ولا يختلـف السـاحر الجيـد كثـيرًا عـن اللـص الجيـد. وسرعـان مـا مُنـع مـن اللعـب في كل قاعـات القـمار في إيسـت سـتاف.

سـأل عـن جاكـوب هيرتـزون في كل مـكان يذهـب إليـه، في كل حانـة ونـزل وبيـت دعـارة، لكـن لم يعطـه أحـد جوابًـا، حتـى لـو بـدا الاسـم شـائعًا بالنسـبة إليهـم.

ثـم في أحـد الأيـام، عـبر كاز جـسرًا فـوق إيسـت سـتاف ورأى رجـلًا

بخدود متوردة وسوالف كثيفة يدخل متجرًا لبيع الشراب. لم يكن يرتدي ملابس سوداء وقورًا، بل ارتدى سراويل مقلمة مبهرجة وصدرية بيزلي كستنائية. كما ارتدى معطفًا مخمليًا أخضر داكنًا.

اندفع كاز عبر الحشد، وعقله يطنّ، ودقات قلبه تتسارع، غير متأكد مما ينوي فعله، ولكن عند باب المتجر، أوقفه رجل قوي عملاق يرتدي قبعة مستديرة بيد واحدة ضخمة.

«المتجر مغلق».

«أرى أنه مفتوح». وبدا صوت كاز مريبًا بالنسبة إليه؛ عالي النبرة وغير مألوف.

«عليك أن تنتظر».

«أريد أن أقابل جاكوب هيرتزون».

«مَن؟».

شعر كاز بأنه على وشك الانفجار من الغضب. فأشار من خلال النافذة. وقال: "اللعين جاكوب هيرتزون. أريد التحدث معه».

نظر الرجل الضخم إلى كاز كما لو كان مختلًا. وقال: «تعقّل يا فتى. هذا ليس هيرتزون. إنه بيكا رولينز. إذا كنت ترغب في أن تذهب إلى أي مكان في الباريل، فمن الأفضل أن تعرف اسمه».

وعندئذ عرف كاز اسم بيكا رولينز لأول مرة. فالجميع يعرفون اسمه، لكنه لم ير الرجل من قبل قط.

في تلك اللحظة، استدار رولينز نحو النافذة. انتظر كاز أن يعرفه، بابتسامة متكلفة أو ضحكة سخرية أو بعض لمحات التعرف عليه، لكن عيني رولينز مرتا عليه دون أي اهتمام. هدف آخر. مغفل آخر. لماذا عساه أن يتذكر؟

لقد تم التودد إلى كاز من قبل العديد من العصابات الذين أحبوا طريقته في التعامل مع قبضتيه ومع أوراق اللعب. ودائمًا ما قال لا. لقد جاء إلى الباريل ليجد هيرتزون وينتقم منه، وليس لينضم إلى عائلة مؤقتة، لكن معرفته بأن هدفه الحقيقي هو بيكا

رولينـز غـيَّرت كل شيء. في تلـك الليلـة، اسـتلقى عـلى أرضيـة المـكان الـذي اختبـأ فيـه وظـل مسـتيقظًا يفكـر في مـا يريـده، ومـا سـيجعل الأمـور في مصلحـة جـوردي في النهايـة. لقـد سـلب بيـكا رولينـز كل شيء مـن كاز. ولـو أراد كاز أن يفعـل الـشيء نفسـه مـع رولينـز، فإنه سـيحتاج إلى أن يصبـح نـدًّا لـه ثـم أفضـل منـه، ولا يمكنـه فعـل ذلـك بمفـرده. فإنـه بحاجـة إلى عصابـة، وليـس أي عصابـة فحسـب، بـل عصابـة تحتـاج إليـه. وهكـذا في اليـوم التـالي ذهـب إلى ذا سـلات وسـأل بـير هاسـكيل عـما إذا كان بإمكانـه اسـتخدام جنـدي في عصابتـه. وعندئـذ عـرف أنـه سـيبدأ كجنـدي صغـير، لكـن الدريجـز سـيصبحون جيشـه.

هـل أتـت بـه كل هـذه الخطـوات إلى هنـا الليلـة؟ وإلى هـذه الممـرات المظلمـة؟ ليـس هـذا هـو الثـأر الـذي لطالمـا حلـم بـه.

امتـدت صفـوف الزنازيـن أكـثر فأكـثر، وبـدت لا نهائيـة، وغـير معقولـة. مـن المسـتحيل العثـور عـلى رولينـز في الوقـت المناسـب، لكـن الأمـر بـدا مسـتحيلًا في البدايـة، إلى أن رأى تلـك الصـورة الكبـيرة، وذلـك الوجـه المتـورد عـبر الفتحـة الموجـودة في بـاب حديـدي. لقـد اعتقـد أن الأمـر مسـتحيل إلى أن وجـد نفسـه يقـف أمـام زنزانـة بيـكا رولينـز.

وجـده مسـتلقيًا عـلى جانبـه. لابـد أن أحدهـم أوسـعه ضربًـا مبرحًـا. وعندئـذ وقـف كاز يراقـب ارتفـاع صـدره صعـودًا وهبوطًـا.

كـم مـرة رأى كاز بيـكا منـذ تلـك المـرة الأولى في متجـر بيـع الـشراب؟ لم توجـد أي لمحـة عـلى تعرفـه عليـه. ولم يعـد كاز صبيًـا؛ ومـن ثـم فلـم يكـن هنـاك سـبب يدعـو بيـكا إلى التعـرف عـلى الطفـل الـذي سرق منـه مزايـاه، لكـن ذلـك جعلـه يستشـيط غضبًـا في كل مـرة يتقابـلان فيهـا. ولكـن هـذا ليـس صحيحًـا. فوجـه بيـكا -أو بالأحـرى وجـه هيرتـزون- منحـوت في عقـل كاز، بـل إنـه محفـور في عقلـه.

تراجـع كاز إلى الخلـف، وهـو يشـعر بالثقـل الرقيـق لفتاحـة الأقفـال الخاصـة بـه كحـشرة في راحـة يـده. أليـس هـذا مـا أراده؟ أن يـرى بيـكا

ذليلًا ومهانًا وبائسًا ويائسًا، وأفضل أفراد طاقمه ميتًا على الحراب. ربما يبدو هذا كافيًا بالنسبة إليه. ربما كان كل ما يحتاج إليه الآن هو أن يعرف شخصية بيكا الحقيقية، وما يفعله بالضبط. يمكنه إجراء محاكمة صغيرة خاصة به، وإصدار الحكم، وتنفيذه أيضًا.

بدأت ساعة برج الإلدركلوك في القرع لتشير إلى ثلاثة أرباع ساعة. ولا بد من أن يذهب؛ فليس لديه متسع من الوقت للوصول إلى القبو، ولا بد أن نينا والآخرين في انتظاره الآن.

لكنه يحتاج إلى الانتقام من بيكا، فلقد حارب من أجل ذلك. ربما لم تسر الأمور بالطريقة التي خطط لها، ولكن ربما لا يشكل ذلك فرقًا. وإذا تم إعدام بيكا رولينز على يد سياف فيرداني مجهول، فلن يمثل له هذا أي أهمية. وسيحصل بالفعل على أربعة ملايين كروج، لكنه لن ينتقم لأخيه جوردي أبدًا.

استسلم قفل الباب بسهولة لفتّاحة كاز.

فتح بيكا عينيه وابتسم. فلم ينم على الإطلاق.

قال رولينز: «مرحبًا بريكر. أجئت لتشمت؟».

فأجاب كاز: «ليس بالضبط».

وترك الباب يغلق خلفه.

الجزء الخامس
الجليد لا يصفح

-٢٧-

جاسبر

قرع أجراس الثامنة

أيـن كاز بحـق الجحيـم؟ وثـب جاسـبر من قـدم إلى أخـرى أمـام المحرقة، والقـرع الخافـت لأجـراس الإنـذار يمـلأ أذنيـه، ويشـوش أفـكاره. أهـذا بسـبب البروتوكـول الأصفـر؟ أم بسـبب البروتوكـول الأحمـر؟ لم يسـتطع أن يتذكـر الفـرق بينهـما. فخطتهـم بالكامـل قائمـة عـلى عـدم سـماع أي صـوت إنـذار.

وصلـت إينـاج بالحبـل إلى السـطح وأسـقطته لهـم ليتسـلقوه. وأرسـل جاسـبر بقيـة الحبـال إلى الأعـلى مـع ويـلان وماتيـاس، بالإضافـة إلى مقصـين وضعهـما في الغسـيل، وخطـاف بـدائي صنعـه مـن الشرائـح المعدنيـة للـوح غسـيل. ثـم مسـح قطـرات المطـر المتناثـرة والبلـل مـن أرضيـة غرفـة النفايـات، وتأكـد مـن عـدم وجـود قصاصـات مـن الحبـل أو علامـات أخـرى تـدل عـلى وجودهـم في الغرفـة. ولم يتبـق شيء لفعلـه سـوى الانتظـار، والذعـر عندمـا بـدأ قـرع جـرس الإنـذار.

سـمع أشـخاصًا يصيـح بعضهـم لبعـض، وسـمع وابـلًا مـن خطـوات الأحذيـة عـلى السـقف الـذي فوقـه. ففـي أي لحظـة، قـد يجـازف بعـض الحـراس بالنـزول تلقائيًـا إلى القبـو، وإذا وجـدوا جاسـبر بجـوار المحرقـة، فسـوف يصبـح الطريـق إلى السـطح واضحًـا. لم يلعـن نفسـه فحسـب، بـل لعـن البقيـة أيضًـا.

قـال لنفسـه: هيـا يـا كاز. أنـا أنتظـرك. في الحقيقـة انتظـروه جميعًـا. ثـم دخلـت نينـا الغرفـة قبـل دقائـق، وهـي تلهـث لالتقـاط أنفاسـها. صرخت به: «هيا! ماذا تنتظر؟».

فـرد جاسـبر: «أنتظـركِ»، ولكـن عندمـا سـألها عـن مـكان كاز، تجعـد

وجـه نينـا حزنًـا.

«لقد تمنيت أن أجده معكم».

ثـم تسـلقت الحبـل بسرعـة، وهـي تتنفـس بصعوبـة جـراء الجهـد الـذي بذلتـه، تاركـة جاسـبر واقفًـا في الأسـفل، متسـمرًا في مكانـه بسـبب الحـيرة. هـل أسر الحـراس كاز؟ هـل هـو في مـكان مـا في السـجن يصـارع للنجـاة بحياتـه؟

إنـه كاز بريكـر. فحتـى لـو حبسـوه، يمكنـه أن يهـرب مـن أي زنزانـة أو أي زوج مـن الأصفـاد. وفكـر جاسـبر في أن يـترك الحبـل مـن أجلـه، ويدعـو أن يكـون المطـر وتبريـد المحرقـة كافيـين لمنـع الجـزء السـفلي من الحبـل مـن الاحـتراق. ولكـن لـو ظـل واقفًـا هنـا كشـخص سـمين قصـير، سيكشـف عـن طريـق هروبهـم، وسـيهلكون لا محالـة. ولم يجـد أمامـه مـا يفعلـه سـوى التسـلق.

في اللحظـة التـي هـم فيهـا جاسـبر بانتـزاع الحبـل اندفـع كاز مـن البـاب. وكان قميصـه مغطـى بالدمـاء، وشـعره الداكـن في فـوضى عارمـة.

قال من دون مقدمات: «أسرع».

تجمعـت آلاف الأسـئلة في ذهـن جاسـبر، لكنـه لم يتوقـف لطرحهـا. تأرجـح بالحبـل فـوق الجمـر وبـدأ التسـلق. وظـل المطـر يتسـاقط في هديـر خفيـف مـن الأعـلى، وشـعر جاسـبر باهتـزاز الحبـل عندمـا أمسـك بـه كاز مـن تحتـه. وعندمـا نظـر إلى الأسـفل، رأى كاز يسـتعد لإغـلاق أبـواب المحرقـة خلفهـما.

بـدل جاسـبر بـين وضعيـة يديـه وهـو يتسـلق الحبـل، وسـحب نفسـه مـن عقـدة إلى أخـرى، وبـدأت ذراعـاه تؤلمانـه، والحبـل يـكاد يقطـع راحتيـه، وأخـذ يثبـت قدميـه عـلى جـدار المحرقـة عندمـا يحتـاج إلى ذلـك، ثـم يبتعـد بسـبب حـرارة الحجـارة. كيـف اسـتطاعت إينـاج أن تقـوم بهـذا التسـلق دون أن تتمسـك بـأي شيء؟

في الأعـلى، ظلـت أجـراس إنـذار سـاعة الإلدركلـوك تقـرع مثـل دُرج خزانـة ممتلـئ بـالأواني والمقـالي التـي تصـدر هديـرًا غاضبًـا. مـا الـذي

سار بشكل خطأ؟ ولماذا تفرّق كاز ونينا؟ وكيف تمكنا من الخروج من هذا؟

هز جاسبر رأسه، محاولًا أن يبعد المطر عن عينيه، والعضلات تنتفخ في ظهره وهو يرتفع إلى أعلى.

قال وهو يلهث عندما أمسك ماتياس ويلان بكتفيه وسحباه إلى أعلى بطول الأقدام القليلة المتبقية: «شكرًا للقديسين»، ثم سقط على حافة المدخنة وتدحرج إلى السطح، وهو مبلل بالكامل وارتجف كقطة شبه غارقة. ثم قال: «كاز يتسلق الحبل».

أمسك ماتياس ويلان الحبل ليسحباه إلى الأعلى. وفي الحقيقة لم يكن جاسبر متأكدًا من مقدار المساعدة التي يقدمها ويلان، لكنه على يقين من أنه يبذل قصارى جهده. فسحبا كاز من الفتحة، فانقلب على ظهره، وهو يتنفس كأنه يبتلع الهواء. قال وهو يلهث: «أين إيناج؟ وأين نينا؟».

قال ماتياس: «موجودتان على سطح السفارة بالفعل».

قال كاز: «اتركوا هذا الحبل وخذوا بقية الحبال. ولنتحرك بسرعة».

ألقى ماتياس ويلان الحبل الذي في المحرقة في كومة متسخة وجلبا لفتين نظيفتين. فأخذ جاسبر لفة منهما وأجبر نفسه على الوقوف. وتبع كاز حتى حافة السطح حيث وضعت إيناج حبلًا يمتد من سطح السجن إلى سطح قطاع السفارة الذي هو أسفل منه. لقد ابتكر شخص ما حبلًا سلكيًا لمن ليست لديهم موهبة الريث الخاصة في التغلب على الجاذبية.

قال جاسبر بامتنان، وهو ينزلق على الحبل ويتبعه الآخرون: «شكرًا أيها القديسين وجيل وعمتك إيفا»،

كان سطح السفارة مقوسًا، ربما لتجنب تراكم الثلج بعيدًا عنه، لكن المشي عليه أشبه إلى حد ما بالمشي على ظهر متقوس لحوت ضخم. وبالطبع فإنه ممتلئ بالثغرات أكثر من سطح السجن،

كما أنه ممتلئ بمنافذ دخول متعددة، كفتحات التهوية والمداخن والقباب الزجاجية الصغيرة المصممة للسماح بدخول الضوء. اختبأت نينا وإيناج عند قاعدة أكبر قبة، وهي نافذة سقف مزركشة تطل على قاعة مدخل السفارة المستديرة. لم توفر لهما الكثير من الحماية من الأمطار المتناقصة، ولكن لو حوّل أي من حراس الجدار الدائري انتباهه من طريق الاقتراب من المكان إلى سطح المحكمة، لاختفى الطاقم عن الأنظار.

وضعت نينا قدمَي إيناج في حجرها.

وقالت وهي تراهم يقتربون: «لا يمكنني نزع كل المطاط من كعبيها».

فقال كاز: «ساعدها».

قال جاسبر: «أنا؟ بالطبع أنت لا تقصد ــــــــــــــ»

«افعلها».

جثا جاسبر على ركبتيه لإلقاء نظرة أفضل على قدم إيناج المتقرحة، وأدرك تمامًا تتبع كاز لحركاته. لقد كان رد فعل كاز في آخر مرة أصيبت فيها إيناج مزعجًا بعض الشيء، على الرغم من أن هذه الإصابة ليست جسيمة كجرح طعنة - وهذه المرة ليس معه أفراد من عصابة البلاك تيبس ليلقي اللوم عليهم. ركز جاسبر على جزيئات المطاط، محاولًا سحبها من لحم إيناج بالطريقة نفسها التي استخرج بها المعدن الخام من قضبان السجن.

وعرفت إيناج سره، لكن نينا حملقت فيه بذهول وهي تقول: «أأنت صانع (فابريكاتور)؟».

«هل ستصدقينني إذا قلت كلا؟».

«لماذا لم تخبرني؟».

فقال بوهن: «أنت لم تسأليني قط».

«جاسبر ــــــــــــــ»

«انسي الأمر فحسب يا نينا». فضغطت شفتيها معًا، لكنه علم

أن هـذه لـن تصبـح آخـر مـرة يسـمع فيهـا هـذا الموضـوع. فأعـاد تركيـزه عـلى قدمـيْ إينـاج. وقـال: «يـا للقديسـين».

تجهم وجه إيناج وسألت: «هل الوضع سيئ لهذه الدرجة؟».

«كلا، لكنكِ لديك أقدام قبيحة حقًا».

«أقدام قبيحة أوصلتك إلى هذا السطح».

سـألت نينـا: «لكـن هـل نحـن عالقـون هنـا؟». وتوقفـت أجـراس ساعة الإلدركلـوك عـن القـرع، وفي الصمـت الـذي تـلا توقفهـا، أغمضت نينـا عينيهـا في ارتيـاح وهـي تقـول: «أخـيرًا».

سـأل ويـلان: «مـاذا حـدث في السـجن؟»، وعـادت حشرجـة الذعـر إلى صوتـه وهـو يسـأل: «مـا الـذي تسـبب في قـرع أجـراس الإنـذار؟».

فقالت نينا: «لقد صادفت حارسين».

رفع جاسبر نظره عن عمله، وسأل: «ألم تقضي عليهم؟».

«لقـد فعلـت. لكـن أحدهـم أطلـق بضـع طلقـات. فجـاء حـارس آخـر راكضًـا. وعندئـذ بـدأت أجـراس الإنـذار في القـرع».

«اللعنة. إذًا هذا ما أطلق أصوات الإنذار؟».

قالـت نينـا: «ربمـا. أيـن كنـت يـا كاز؟ لم أكـن لأوجـد في بـئر السـلم لـو لم أضيـع الوقـت في البحـث عنـك. لمـاذا لم تقابلنـي عـلى بسـطة الـدرج؟».

حـدق كاز مـن خـلال زجـاج القبـة وقـال: «قـررت أن أبحـث في زنازيـن الطابـق الخامـس أيضًـا».

فحدقوا إليه جميعًا، وبدأ غضب جاسبر يظهر.

فقـال: «مـا هـذا بحـق الجحيـم؟ تنطلـق قبـل أن نعـود أنـا وماتيـاس، ثـم تقـرر توسـيع نطـاق البحـث وتـرك نينـا تعتقـد أنـك في ورطـة؟».

«هناك شيء احتجتُ إلى الاعتناء به».

«هذا ليس سببًا كافيًا».

قال كاز: «لديَّ حدس، وتبعتُه».

عبرت تعابير نينا عن الذهول وسألت: «حدس؟».

فقال كاز بغضب: «لقد ارتكبت خطأ. فهل يقنعكم هذا؟».
قالت إيناج بهدوء: «كلا، أنت مدين لنا بتفسير الأمر».
وبعد برهة، قال كاز: «ذهبت للبحث عن بيكا رولينز». فصدرت نظرة بين كاز وإيناج لم يفهمها جاسبر؛ ولا بد أن هناك شيئًا بينهما لا يعرفه.
سألت نينا: «بحق القديسين، لماذا؟».
«أردت أن أعرف مَن مِن الدريجز الذي سرب معلومات له».
انتظرَ جاسبر وسأل: «ثم؟».
«لم أتمكن من إيجاده».
فسأله ماتياس: «وماذا عن الدم الذي على قميصك؟».
«تشاجرت مع حارس».
لم يصدق جاسبر ذلك.
ومرَّر كاز يده على عينيه وقال: «لقد أخفقت. لقد اتخذتُ قرارًا خاطئًا، وأنا أستحق اللوم على ذلك، لكن هذا لا يغير موقفنا».
سألت نينا ماتياس: «ما هو موقفنا؟ ماذا سيفعلون الآن؟».
رد ماتياس: «الإنذار كان بروتوكولًا أصفر، ويدل على وقوع اضطراب في القطاع».
فرك جاسبر أسفل عينيه وقال: «لا أتذكر ما يعنيه ذلك».
قال ماتياس: «تخميني هو أنهم يعتقدون أن شخصًا ما يحاول الهروب من السجن. ومن ثم فقد تم عزل هذا القطاع عن بقية محكمة الجليد، وبالتالي سيجرون بحثًا، وربما يحاولون معرفة مَن المفقود من الزنازين».
فقال ويلان: «سيجدون الأشخاص الذين أفقدناهم الوعي في مناطق احتجاز النساء والرجال. يجب أن نخرج من هنا. انسوا أمر بو يول- بايور».
لوّح ماتياس بيده في الهواء معترضًا، وقال: «لقد فات الأوان على ذلك. إذا اعتقد الحراس أن هناك هروبًا من السجن، فستكون نقاط

التفتيش في حالة استنفار قصوى. ولن يسمحوا لأي شخص بالمرور».

فقال جاسر: «لا يزال بإمكاننا المحاولة. سنعالج قدميْ إيناج ________».

ثنت إيناج قدميها، ثم وقفت، تختبر باطن قدميها العاريتين على الحصى، وقالت: «إنهما تبدوان بخير. ومع ذلك، فقد اختفت المادة الطبية».

قالت نينا بغمزة: «سأعطيك عنوانًا يمكنك إرسال شكواك بالبريد عليه».

قال جاسر، وهو يفرك وجهه الرطب: «حسنًا، الريث قادرة على الحركة». توقف المطر وتحول إلى ضباب خفيف. فقال جاسر: «لقد وجدنا مكانًا مريحًا وملائمًا لضرب بعض رواد الحفلات بهذا المكان والتنكر في ملابسهم والخروج بدلًا منهم دون أن ينكشف أمرنا».

فقال ماتياس بتشكك: «هل تعتقد أننا سنجتاز بوابة السفارة ونقطتيْ تفتيش؟».

فقال جاسر: «إنهم لا يعرفون أن أحدًا قد هرب من قطاع السجن. لقد رأوا نينا وكاز؛ لذا فإنهم يعرفون أن هناك أشخاصًا قد خرجوا من زنازينهم، لكن الحراس عند نقاط التفتيش سيبحثون عن مجموعة من المجرمين يرتدون ملابس السجن، وليس أشخاصًا يرتدون ملابس أنيقة وتفوح منهم رائحة طيبة. علينا أن نفعل ذلك قبل أن يدركوا حقيقة أن هناك ستة أشخاص طليقين في المحيط الخارجي».

قالت نينا: «مستحيل، لقد جئت إلى هنا لأجد بو يول- بايور، ولن أغادر من دونه».

قال ويلان: «ما الفائدة من ذلك؟ فحتى لو تمكنتِ من الوصول إلى الجزيرة البيضاء ووجدتِ يول- بايور، فلن يوجد لدينا مخرج. إن جاسر محق: يجب أن نذهب الآن بينما لا تزال لدينا فرصة».

طوت نينا ذراعيها، وقالت: «لو اضطررت إلى العبور إلى الجزيرة

البيضاء وحدي، فسأفعل».
قال ماتياس: «قد لا يصبح هذا خيارًا، انظروا».
فتجمعوا حول قاعدة القبة الزجاجية. ورأوا بالقاعة المستديرة تحتهم حشد من الناس يشربون ويضحكون ويحيون بعضهم، لا بد أنه نوع من الحفلات الصاخبة قبل الاحتفالات في الجزيرة البيضاء.
وبينما يشاهدون، دخلت مجموعة من الحراس الجدد إلى القاعة، في محاولة لترتيب الحشد في صفوف.
قال ماتياس: «إنهم يضيفون نقطة تفتيش أخرى. سيقومون بمراجعة هوية كل شخص مرة أخرى قبل أن يسمحوا بدخول المزيد من الأشخاص إلى الجسر الزجاجي».
سأل جاسبر: «أهذا بسبب البروتوكول الأصفر؟».
رد ماتياس: «على الأرجح. إجراء احترازي».
وأصبح الأمر أشبه برؤية آخر جزء من حظهم وهو يتبخر من زجاجة.
قال جاسبر: «إذًا هذا يحسم الأمر. نقلص خسائرنا ونحاول الخروج الآن».
قالت إيناج بهدوء: «أعرف طريقة». فالتفتوا جميعًا نحوها. وتجمع الضوء الأصفر الخارج من القبة في عينيها الداكنتين. فقالت: «يمكننا عبور نقطة التفتيش هذه، ومنها إلى الجزيرة البيضاء». وأشارت إلى الأسفل إلى حيث دخلت مجموعتان من الأشخاص إلى القاعة المستديرة من فناء بوابة الحراسة ونفضوا الضباب عن ملابسهم؛ حيث تم التعرف بسهولة على الفتيات اللاتي من ذا هاوس أوف ذا بلو آيريس من خلال لون فساتينهن والزهور الموضوعة في شعورهن وعلى خطوط عنقهن. ولا يمكن لأحد أن يخطئ في التعرف على رجال الأنفيل، بالوشوم الكبيرة التي يبرزونها بفخر، والأذرع المكشوفة على الرغم من الطقس البارد. فاستطردت إيناج: «لقد بدأت وفود ويست ستاف في الوصول. يمكننا الدخول».

قال كاز: «إيناج ــــــــــــــــ»

أكملت حديثها: «يمكن أن ندخل أنا ونينا». وبدا ظهرها مستقيمًا، ونبرتها ثابتة، بل لقد بدت كأنها شخص يواجه فرقة الإعدام ويصب اللعنات على عصابة العينين. فقالت: «سندخل مع الميناجيري».

-٢٨-

إيناج

قرع أجراس الثامنة والنصف

راقب كاز إيناج باهتمام شديد، وعيناه اللتان بلون القهوة الداكنة تلمعان في الضوء المنبعث من القبة.

قالت: «أنت تعرف تلك الملابس. عباءات ثقيلة وقلنسوات. وهذا هو كل ما سيراه الفيردانيون: ظبي زميني. أو فرس كاليشيّ». وازدردت ريقها وأخرجت الكلمات التالية بصعوبة: «أو وشق سوليّ». فلن يروا أشخاصًا، ولا حتى فتيات، فقط أشياء جميلة يجب التقرب منها». فالزيون يهمس لنفسه: لطالما أردت أن أعثر على فتاة زيمينية، أو فتاة كاليشية ذات شعر أحمر، أو فتاة سوليّة ببشرة بلون الكراميل الداكن.

قال كاز: «إنها مخاطرة».

فردت عليه: «وما العمل الذي لا يحتوي على مخاطرة؟».

سألت نينا: «كاز، كيف ستمران أنت وماتياس؟ ربما نحتاج إليك من أجل فتح الأقفال، وإذا ساءت الأمور في الجزيرة، فلا أريد أن نُحجز هنا. وأشك في قدرتكم على التنكر كأعضاء في الميناجيري».

قال كاز: «لن يصبح ذلك مشكلة. هيلفار يخفي شيئًا ما عنا».

سألت إيناج: «هل أنت كذلك؟».

مرر ماتياس يده على شعره المقصوص، وقال: «ليس ــــــــــــــ»، وزمجر في وجه كاز قائلًا: «كيف تعرف هذه الأشياء أيها الشيطان؟».

«بالمنطق. إن محكمة الجليد بأكملها عبارة عن تحفة من إجراءات الأمان الاحتياطية والأنظمة المضاعفة. وهذا الجسر

الزجاجي بديع، ولكن في حالات الطوارئ، يجب أن توجد طريقة أخرى لإيصال التعزيزات إلى الجزيرة البيضاء وإخراج العائلة المالكة منها».

قال ماتياس بغضب: «أجل. هناك طريق آخر للجزيرة البيضاء. لكنه في حالة فوضى». ونظر إلى نينا وهو يضيف: «وبالتأكيد لا يمكن المرور به وأنت ترتدي فستانًا».

قاطعه جاسبر قائلًا: «انتظروا. مَن يكترث إن استطعتم جميعًا الوصول إلى الجزيرة البيضاء؟ لنفترض أن نينا عرفت مكان يول-بايور من مسؤول فيرداني رفيع المستوى، وأعدموه إلى هنا. سنصبح عالقين. وبحلول ذلك الوقت، سيكمل حراس السجن بحثهم وسيعرفون أن هناك ستة سجناء قد خرجوا من القطاع بطريقة أو بأخرى. وستتلاشى أي فرصة لدينا في اجتياز بوابات السفارة ونقاط التفتيش».

أطل كاز من القبة إلى الفناء المفتوح الخاص بالسفارة وبوابة حراسة الجدار الدائري خلفها.

وسأل: «ويلان، ما مدى صعوبة تعطيل إحدى هذه البوابات؟».

فسأل ويلان: «لفتحها؟».

«كلا، لإبقائها مغلقة».

وهزَّ ويلان كتفيه وقال: «أتعني تعطيلها؟ لا أعتقد أن هذا صعب للغاية. لم أتمكن من رؤية آلية عملها عندما دخلنا من بوابة السجن، ولكن من التصميم، أعتقد أنها عادية جدًّا».

سأل كاز: «هل تعمل ببكرات وتروس وبعض البراغي الكبيرة جدًّا؟».

رد ويلان: «حسنًا، أجل، ورافعة كبيرة. تلتف الأسلاك حولها كبكرة كبيرة، ويديرها الحراس بمقبض أو عجلة».

فقال كاز: «أعرف كيف تعمل الرافعة. هل يمكنك تفكيك واحدة؟».

قال ويلان: «أعتقد ذلك، لكن نظام الإنذار الذي تتصل به الأسلاك معقد. أشك في أنني أستطيع القيام بذلك دون إثارة إنذار البروتوكول الأسود».

قال كاز: «جيد. إذًا هذا ما سنفعله».

رفع جاسبر يده وقال: «أنا آسف، أليس البروتوكول الأسود هو الشيء الذي نريد تجنبه مهما كلف الأمر؟».

قالت نينا: «إنني أتذكر شيئًا عن هلاك محتوم».

فقال كاز: «ليس إذا استخدمناه ضدهم. فالليلة يتركز معظم أمن المحكمة في الجزيرة البيضاء وهنا في السفارة. وعندما يصدر إنذار البروتوكول الأسود، سيتم إغلاق الجسر الزجاجي، وهو ما سيؤدي إلى محاصرة كل هؤلاء الحراس على الجزيرة مع الضيوف».

سألت نينا: «ولكن ماذا عن طريق ماتياس الذي يستخدم للخروج من الجزيرة؟».

فاعترف ماتياس قائلًا: «لا يمكنهم تحريك قوة رئيسية بهذه الطريقة. على الأقل ليس بسرعة».

حدق كاز إلى الجزيرة البيضاء، ورأسه مائل وعيناه غير مركزتين بعض الشيء.

غمغمت إيناج: «وجه ماكر».

فأومأ جاسبر برأسه موافقًا: «بالتأكيد».

لقد كادت تفقد تلك النظرة.

قال كاز: «توجد ثلاث بوابات في الجدار الدائري. بوابة السجن مغلقة بالفعل بإحكام بسبب البروتوكول الأصفر. وبوابة السفارة ضيقة ومكتظة بالضيوف، وبالتالي لن يجلب الفيردانيون قوات من هناك. وهكذا تتبقى البوابة التي في قطاع دروسكل؛ جاسبر تولَّ أنت وويلان أمرها. استخدماها لإثارة إنذار البروتوكول الأسود، ثم حطماها. حطماها تمامًا بحيث لا يتمكن أي حراس محتشدين من الخروج لتتبعنا».

قال جاسبر: «بالطبع أنا أؤيد بشدة حبس الفيردانيين في حصنهم»، لكن كيف سنخرج؟ بمجرد تنفيذ البروتوكول الأسود، ستُحاصرون في تلك الجزيرة، وسنُحاصر نحن في المحيط الخارجي. وليست معنا أسلحة ولا مواد تجريبية».

بدت ابتسامة كاز حادة كشفرة الحلاقة، وهو يقول: «حمدًا لله أننا لصوص بارعون. سنقوم ببعض التسوق، وسيكون كل التسوق على حساب فيردا. إيناج، لنبدأ بشيء لامع».

بجانب القبة الزجاجية الكبيرة، أوضح كاز تفاصيل ما دار في ذهنه. ولو كانت الخطة القديمة جريئة، فقد تم بناؤها على الأقل على التخفي. أما الخطة الجديدة فكانت متهورة، وربما جنونية؛ حيث إنهم لن يكتفوا بالإعلان عن وجودهم للفيردانيين، بل سيقرعون الأجراس لإعلان ذلك. ومرة أخرى، سيتفرق الطاقم، ومرة أخرى، سيضبطون تحركاتهم على قرع أجراس ساعة الإلدركلوك، ولكن الآن سيكون هناك مجال أقل للخطأ.

استكشفت إيناج قلبها متوقعة أن تجد فيه شيئًا من الحذر والخوف. لكن كل ما شعرت به هو الجاهزية. فليس هذا عملًا تؤديه لتسديد ديونها لبير هاسكيل. وليس مهمة يتعين إنجازها لكاز أو الدريجز. لقد أرادت ذلك؛ المال والحلم بأن يساعدها ذلك على الشعور بالأمان.

وبينما يواصل كاز الشرح، وجاسبر يستخدم مقصات المغسلة لتقطيع قطع من الحبل، ساعد ويلان إيناج ونينا في التحضير ليمرا كأعضاء في الميناجيري؛ حيث سيحتاجان إلى وشوم. وبدؤوا بنينا. وباستخدام إحدى فتاحات الأقفال الخاصة بكاز والبريت النحاسي الذي استخرجه جاسبر من السطح، رسم ويلان أفضل تقليد له لريشة الميناجيري على ذراع نينا، متبعًا وصف إيناج ومجريًا التصحيحات حسب الحاجة. ثم وضعت نينا الحبر في لحمها.

ولم يحتج المعالجون إلى إبرة وشم. فبذلت نينا قصاري جهدها لتلطيف الندوب على ساعد إيناج. لم يبد العمل مثاليًا تمامًا، لكن لم يمتلكوا متسعًا من الوقت ولم تعمل نينا كخياطة. فرسم ويلان ريشة طاووس أخرى على جلد إيناج.

توقفت نينا لوهلة، وسألت: «هل أنتِ متأكدة؟».

أخذت إيناج نفسًا عميقًا، وقالت لنينا ولنفسها: «إنه نقش حرب. إنه علامتي التي يجب أن آخذها».

ووعدتها نينا قائلة: «إنه مؤقت أيضًا. سأزيله بمجرد وصولنا إلى المرفأ».

المرفأ. فكرت إيناج في الفيروليند بأعلامها المبهجة، وحاولت أن تثبت تلك الصورة في رأسها وهي تشاهد ريشة الطاووس تتغلغل في جلدها.

سينكشف زيف هذا الوشم إذا وُجد هناك أي شكل من أشكال الفحص الدقيق، لكن الأمل معقود على ألا ينكشفا.

وفي النهاية، وقفوا. توقعت إيناج وصول الميناجيري متأخرين -فلطالما أحبت تانتي هيلين لفت الانتباه إلى دخولهم- لكنهما ما زالا بحاجة إلى أن يوجدا في الموقع ويستعدا للتحرك عندما يحين الوقت.

ومع ذلك، فقد ترددوا. كان ذلك بسبب معرفتهم بأنهم قد لا يرون بعضهم البعض مرة أخرى، وأن بعضهم -وربما جميعهم- قد لا ينجون هذه الليلة ويُشنقون في الهواء. مقامر ومُدان وابن متمرد وجريشا ضائعة وفتاة سولية أصبحت قاتلة وفتى من الباريل أصبح شيئًا أسوأ.

نظرت إيناج إلى طاقمها الغريب، بأقدامهم العارية وهم يرتجفون في زي السجن الملطخ بالهباب، وقد ظهرت ملامحهم بالنور الذهبي للقبة، الذي أضعفه الضباب المنتشر في الهواء.

ما الذي جمعهم معًا؟ هل الجشع؟ أم اليأس؟ هل السبب هو

مجـرد معرفـة أنـه إذا اختفـى أحدهـم أو جميعهـم الليلـة، فلـن يـأتي أحـد للبحـث عنهـم؟ ربمـا لا يـزال والـد ووالـدة إينـاج يذرفـان الدمـوع عـلى الابنـة التـي فقداهـا، ولكـن لـو ماتـت إينـاج الليلـة، فلـن يوجـد هنـاك مَـن يحـزن عـلى الفتـاة التـي أصبحـت عليهـا الآن. فليسـت لديهـا عائلـة، ولا آبـاء ولا أشـقاء، بـل مجـرد أشـخاص يقاتلـون بجانبهـا. وربمـا يكـون هـذا شـيئًا يجـب أن تمـتن لوجـوده أيضًـا.

كان جاسبر أول من تحدث. وقال بابتسامة عريضة: «لا معزين».

فأجابـوا بصـوت واحـد: «لا جنـازات». وحتـى ماتيـاس تمتـم بالكلـمات بهدوء.

«لـو نجـا أي منكـم، فليحـرص عـلى وضعـي في تابـوت مفتـوح»، نطـق جاسـبر هـذه الجملـة وهـو يرفـع لفافتـين رفيعتـين مـن الحبـل عـلى كتفـه ويشـير إلى ويـلان ليتبعـه عـبر السـطح. وقـال: «يسـتحق العـالم بضـع لحظـات أخـرى مـع هـذا الوجـه».

لم تفاجَـأ إينـاج كثـيرًا برؤيـة شـدة النظـرة التـي تبادلهـا ماتيـاس ونينـا. لقـد تغـير شيء مـا بينهـما بعـد التقاتـل مـع الشـو، لكـن إينـاج لم تكـن متأكـدة مـن هـذا الـشيء.

تنحنـح ماتيـاس وأعطـى نينـا انحنـاءة صغـيرة محرجـة، وسـألها: «هـل لي بكلمة؟».

ردت نينـا الانحنـاءة بحيويـة أكـثر بكثـير وتركتـه يقودهـا بعيـدًا عنهـم. وشـعرت إينـاج بالسـعادة؛ حيـث أرادت لحظـة مـع كاز.

فقالـت وهـي تسـحب قفازاتـه الجلديـة مـن كُـم سـترة السـجن الخاصـة بهـا: «لـديَّ شيء لـك».

فحدق إليها وقال: «كيف ــــــــــــــ»

«لقـد جلبتُهـا مـن الملابـس التـي سـيتم التخلـص منهـا. قبـل أن أقـوم بالتسلق».

فأردف: «ستة طوابق في الظلام».

فأومـأت برأسـها. ولم تنتظـر الشـكر مـن أجـل التسـلق ولا القفـازات

ولا أي شيء آخـر.

ارتـدى القفـازات ببـطء، وشـاهدت يديـه الشـاحبتين الضعيفتـين وهـما تختفيـان تحـت الجلـد. إنهـما يـدان مخادعتـان - بأصابـع طويلـة ولطيفـة صنعـت لفتـح الأقفـال، وإخفـاء العمـلات المعدنيـة، وإخفـاء الأشـياء.

قالت: «عندما نعود إلى كتردام، سآخذ نصيبي وأترك الدريجز».

فأشـاح بنظـره بعيـدًا، وقـال: «يجـب أن تفعـلي ذلـك. أنـتِ دائمًـا أفضـل مـن أن تمكثـي في الباريـل».

حان الوقت للذهاب، فقالت: «بحق القديسين، أسرع يا كاز».

أمسـك كاز معصمهـا، وقـال: «إينـاج». ثـم حـرك إبهامـه الموجـود في القفـاز فـوق نبضهـا، وتتبـع الجـزء العلـوي مـن وشـم الريشـة، وقـال: «إذا لم ننجـح في الخـروج مـن هنـا أحيـاء، أريـدك أن تعـرفي..".

انتظـرت، ثـم شـعرت بالأمـل يرفـرف بجناحيـه بداخلهـا، مسـتعدًا للطـيران عنـد سـماع الكلـمات المناسـبة مـن كاز. وأرادت أن يتحـول هـذا الأمـل إلى ثبـات. ولكـن هـذه الكلـمات لـن تصـدر ثانيـة أبـدًا. فالقلـب سـهم منطلـق.

رفعـت يدهـا ولمسـت خـده. وظنـت أنـه قـد يجفل مـرة أخـرى، أو أن يُبعـد يدهـا. فخـلال مـا يقـرب مـن عامـين مـن القتـال جنبًـا إلى جنـب مـع كاز، والتخطيـط الليـلي المتأخـر، وعمليـات السرقـة المسـتحيلة، والمهـمات السريـة، ووجبـات البطاطـس المقليـة والبطاطـس المهروسـة بالخـضراوات السريعـة التـي أكلوهـا وهـم يتنقلـون مـن مـكان إلى آخـر، هـذه هـي المـرة الأولى التـي يلمـس فيهـا جلدهـا جلـده، دون حائـل مـن قفـازات أو معطـف أو كُـم قميـص. تركـت يدهـا تغطـي خـده. ووجـدت بشرتـه بـاردة ومبللـة مـن المطـر. لقـد وقـف ثابتًـا دون حـراك، لكنهـا رأت رجفـة تجتاحـه كأنـه يخـوض حربًـا مـع نفسـه.

«إذا لم ننـج هـذه الليلـة، سـأموت بـلا خـوف يـا كاز. هـل يمكنـك قـول هـذه الكلـمات نفسـها؟».

وجدت عيناه سوداوين تقريبًا؛ حيث اتسعت حدقة عينه. استطاعت أن ترى أن الأمر استغرق كل جزء أخير من إرادته الرهيبة حتى يظل ساكنًا تحت لمستها. ومع ذلك، لم يبتعد. علمت أن ذلك هو أفضل ما يمكنه أن يقدمه. ولكنه ليس كافيًا.

أنزلت يدها. وأخذ نفسًا عميقًا.

لقد قال كاز إنه لا يريد صلواتها وهي لن تتلوها، لكنها وعلى الرغم من ذلك تتمنى أن يبقى سالمًا. إن لديها هدفًا الآن، وقلبها له اتجاه، وعلى الرغم من أنه من المؤلم معرفة أن هذا الطريق يقودها بعيدًا عنه، فإنها تستطيع أن تتحمل هذا.

انضمت إيناج إلى نينا على حافة القبة في انتظار وصول الميناجيري. كانت القبة واسعة وغير عميقة، وكلها مزخرفة بالفضة والزجاج. رأت إيناج أن هناك فسيفساء على أرضية القاعة المستديرة الواسعة بالأسفل. وظهر في لمحات قصيرة بين رواد الحفل ذئبان يطاردان بعضهما البعض، يتحركان باستمرار في دوائر بمحكمة الجليد.

تم توجيه الضيوف الذين يدخلون عبر الممر الكبير إلى غرف خارج القاعة المستديرة في مجموعات صغيرة لتفتيشهم بحثًا عن أسلحة. رأت إيناج حراسًا يخرجون بأكوام صغيرة من دبابيس الزينة والريش وحتى الأوشحة التي افترضت إيناج أنها تحتوي على معدن أو سلك.

قالت نينا: «ليس عليكِ فعل ذلك، كما تعلمين. ليس عليكِ ارتداء تلك الملابس الحريرية مرة أخرى».

قالت إيناج: «لقد فعلت ما هو أسوأ».

«أعرف. لقد صعدتِ ستة طوابق من الجحيم من أجلنا».

«ليس هذا ما قصدته».

ترددت نينا لوهلة، وقالت: «أعرف ذلك أيضًا». وترددت ثانية، ثم قالت: «هل الغنيمة مهمة جدًّا بالنسبة إليكِ؟». فوجئت إيناج

بسماع ما بدا كأنه شعور بالذنب في صوت نينا.

بدأت أجراس ساعة الإلدركلوك في القرع تسع مرات. ونظرت إيناج إلى أسفل على الذئبين اللذين يطاردان بعضهما البعض حول أرضية القاعة المستديرة. واعترفت: «لست متأكدة لماذا بدأت كل هذا. لكنني أعرف لماذا يجب أن أنهيه. أعرف لماذا أتى بي القدر إلى هنا، ولماذا وضعني في طريق هذه الغنيمة».

لقد تحدثت بغموض، لكنها لم تعد مستعدة بعد للتحدث عن الحلم الذي اشتعل في قلبها - طاقم خاص بها، وسفينة تحت إمرتها، وصحبة قوية. بدا الأمر كأنه شيء من المفترض أن يظل سريًا، بذرة جديدة قد تنمو لتصبح شيئًا غير عادي إذا لم يتم إجبارها على الإزهار قبل الأوان. لم تعرف حتى كيف تبحر. ومع ذلك، أراد جزء منها إخبار نينا بكل شيء. وإذا لم تقرر نينا العودة إلى رافكا، فإن وجود هارت تريندر مثلها سيصبح إضافة ممتازة إلى طاقمها.

قالت نينا: «إنهم هنا».

دخلت فتيات الميناجيري عبر أبواب القاعة المستديرة في تشكيل يشبه الإسفين، وفساتينهن تتلألأ في ضوء الشموع، وقلنسوات عباءاتهن تظلل وجوههن. وتم تصميم كل قلنسوة لتمثل حيوانًا معينًا، كظبي زيميني بأذنين ناعمتين وبقع بيضاء رقيقة، وفرس كاليشيّ بحلية رأس كستنائية، وأفعى من شو هان بحراشف حمراء مطرزة، وثعلب رافكانيّ، ونمر مرقط من المستعمرات الجنوبية، وغراب أسود، وقاقم (من فصيلة ابن عرس)، وبالطبع الوشق السوليّ. وبدت الفتاة الشقراء الطويلة التي لعبت دور الذئب الفيردانيّ ذي الفراء الفضيّ غائبة بشكل ملحوظ.

فلقد قابلتهن حارسات يرتدين زيًا رسميًا.

قالت نينا: «أنا لا أراها».

«انتظري فقط. سيدخل الطاووس أخيرًا».

وكما هو متوقع، ها هي ذي: هيلين فان هودين، متلألئة في

ساتان حريري أزرق مخضر، وطوق متقن من ريش الطاووس يحيط برأسها الذهبي.

قالت نينا: «ماكرة».

قالت إيناج: «الماكرة لا تنجح في الباريل».

ثم أطلقت صافرة عالية، فرد جاسبر بصافرة من مكان بعيد. ففكرت قائلة لنفسها: حان الوقت. فانطلقت بقوة، وعندئذ تدحرجت الصخرة إلى أسفل التل. مَن يعلم ما الضرر الذي يمكن أن تحدثه، وما الذي يمكن أن يُبنى على الأنقاض؟

حدقت نينا من خلال الزجاج. «كيف لا تنهار من ثقل تلك الماسات؟ لا يمكن أن تكون حقيقية أبدًا».

قالت إيناج: «أوه، إنها حقيقية. لقد تم شراء هذه المجوهرات بعرق ودماء وحزن فتيات مثلها».

قسَّم الحراس أعضاء الميناجيري إلى ثلاث مجموعات، بينما تم اصطحاب هيلين بشكل منفصل. فلا يُتوقع أبدًا أن ترفع الطاووس ملابسها وتنانيرها أمام بناتها.

قالت إيناج: «هؤلاء»، وهي تشير إلى المجموعة التي تضم الوشق السوليّ والفرس الكاليشيّ. ثم اتجهوا إلى الأبواب التي على يسار القاعة المستديرة.

وبينما تتبعت نينا المجموعة بعينيها، تحركت إيناج على السطح متبعة مسارهم.

نادت قائلة: «أي باب؟».

فقالت نينا: «الثالث على اليمين». فتحركت إيناج نحو أقرب فتحة تهوية ورفعت الشبكة الحديدية. ربما تكون ضيقة للغاية على نينا، لكنهما تمكنتا من ذلك. فانزلقت في فتحة التهوية، جاثمة وهي تتحرك على طول القناة الضيقة بين الغرف. ومن خلفها، سمعت نخرًا ثم صوتًا مرتفعًا عندما ارتطمت نينا بقاع القناة ككيس غسيل. جفلت إيناج. وتمنت أن تغطي ضوضاء الحشد

الـذي بالأسـفل عليهـما، أو حتـى أن توجـد في محكمـة الجليـد فـئران كبـيرة للغايـة.

زحفتـا عـلى طـول القنـاة، وهـما تحدقـان إلى فتحـات التهويـة في أثنـاء زحفهـما. وأخـيرًا، نظرتـا إلى غرفـة اجتماعـات صغـيرة نوعًـا مـا تـم تخصيصهـا لغـرض تفتيـش الحـراس للضيـوف.

نزعـت الحيوانـات العجيبـة عباءاتهـا ووضعتهـا عـلى طاولـة بيضاويـة طويلـة. وقامـت إحـدى الحارسـات الشـقراوات بتفتيـش الفتيـات، وتحسسـت طبقـات وحـواشي ملابسـهن، بـل ودسـت أصابعهـا في شـعورهن، بينـما وقفـت الحارسـة الأخـرى تراقـب ويدهـا مسـتندة إلى بندقيتهـا. وبـدا أنهـا لا تتعامـل بسـهولة مـع البندقيـة. فقـد عرفـت إينـاج أن الفيردانيـين لم يسـمحوا للنسـاء بالخدمـة في الجيـش بكفـاءة قتاليـة. وربمـا تـم تجنيـد الحارسـات مـن وحـدة أخـرى.

انتظـرت إينـاج ونينـا حتـى انتهـى الحـراس مـن تفتيـش الفتيـات وعباءاتهـن وحقائبهـن الصغـيرة المطـرزة بالخـرز.

قالـت إحـدى الحارسـات في أثنـاء خروجهـما مـن الغرفـة للسـماح لفتيـات الميناجـيري بارتـداء ملابسـهن وتضبيـط أنفسـهن مـرة أخـرى: «فـين تايـدر».

ترجمت نينا كلام الحارسة بهمس: «خمس دقائق».

قال إيناج: «اذهبي».

«أريدكِ أن تتحركي».

«لماذا؟».

«لأننـي بحاجـة إلى مجـال رؤيـة واضـح، وكل مـا يمكننـي رؤيتـه الآن هـو ظهـرك».

تحركـت إينـاج إلى الأمـام حتـى تحصـل نينـا عـلى رؤيـة أفضـل مـن خـلال الفتحـة، وبعدهـا بدقيقـة، سـمعت أربعـة ارتطامـات ضعيفـة عندمـا سـقطت فتيـات الميناجـيري عـلى السـجادة الزرقـاء الداكنـة.

وسرعـان مـا انتزعـت الشـبكة وسـقطت عـلى السـطح اللامـع للطاولة.

وسقطت نينا خلفها، فهبطت متكومة.

اعتذرت وهي تقف: «آسفة».

كادت إيناج تضحك وهي تقول: «أنتِ رشيقة للغاية في المعركة، لكن ليس عندما تهبطين».

«فاتني ذلك اليوم في المدرسة».

فقامتا بتجريد الفتاتين السوليّة والكاليشيّة من ملابسهما حتى ملابسهما الداخلية، ثم ربطتا معاصم وكواحل الفتيات بأحبال من الستائر وكمموهن بقطع ممزقة من ملابس السجن الخاصة بهما.

قالت إيناج: «الوقت يمر».

همست نينا للفتاة الكاليشية: «آسفة». وعرفت إيناج أن نينا تستخدم الصبغات لتغيير لون شعرها، ولكن لم يكن هناك متسع من الوقت. فأخذت نينا اللون الأحمر الفاتح الخاص بالفتاة مباشرة من خصلات شعرها إلى شعرها، تاركة الكاليشية المسكينة بشعر من الأمواج البيضاء التي بدت صدئة بشكل غامض في بعض الأماكن، وتاركة نفسها بشعر لم يكن أحمر للغاية كشعر الكاليشية. وبالطبع عينا نينا خضراوان وليستا زرقاوين، لكن هذا النوع من التشكيل لا يمكن استعجاله، لذا وجب عليهما القيام بذلك. فأخذت مسحوقًا أبيض من حقيبة الفتاة المطرزة بالخرز وبذلت قصارى جهدها لجعل بشرتها شاحبة.

وفي أثناء عمل نينا، سحبت إيناج الفتيات الأخريات إلى خزانة طويلة من الخشب الفضي على الحائط البعيد، ورتبت أطرافهن بحيث تفسح مكانًا للكاليشية. وشعرت بشعور سيئ عندما تأكدت من أن كمامة الفتاة السولية مربوطة بشكل جيد. فلا بد أن تانتي هيلين اشترتها لتحل محل إيناج؛ فلها نفس البشرة البرونزية، ونفس الحزمة السميكة من الشعر الداكن. إلا أن جسدها مختلف، فبه نعومة وانحناء بدلًا من النحافة وبروز العظم. ربما جاءت إلى تانتي هيلين بمحض إرادتها. ربما اختارت هذه الحياة. وتمنت إيناج

أن يكـون هـذا الافـتراض صحيحًـا.

همست إيناج للفتاة الفاقدة للوعي: «ليحمكِ القديسون».

جاء صوت طرق على الباب وتحدث صوت بلغة فيردان.

همســت نينــا: «إنهــم يحتاجــون إلى الغرفــة مــن أجــل الفتيــات التاليــات».

فقامــت إينــاج ونينــا بدفــع الفتــاة الكاليشــية في الخزانــة وتمكنتــا مــن إغـلاق الأبـواب وإقفالهـا، ثـم ارتدتـا ملابسـهما. وشـعرت إينـاج بالسـعادة لأنـه لم يعـد لديهـا وقـت للتفكـير في الألفـة غـير المرغـوب فيهـا للحريـر عـلى بشرتهـا، والرنـين المـروع للأجـراس في خلخالهـا. فارتدتـا العبـاءات وألقتـا نظـرة سريعـة في المـرآة.

لم تجـدا أيًـا مـن الفسـتانين يناسـبهما بشـكل ملائـم. ففسـتان إينـاج الحريـري الأرجـواني فضفـاض جـدًا، أمـا بالنسـبة إلى نينـا...

«مـاذا يُفـترض أن يكـون هـذا؟»، قالـت ذلـك وهـي تنظـر إلى نفسـها. فبالـكاد يغطـي الفسـتان ذو خـط الرقبـة المنخفـض للغايـة ثدييهـا الكبيريـن، ويلتصـق بردفيهـا بشـدة. لقـد تـم صنعـه ليبـدو كحراشـف زرقـاء مخـضرة، تتحـول إلى مروحـة شـيفونية متلألئـة.

قالت إيناج: «ربما حورية بحر؟ أو موجة؟».

«اعتقدت أنني حصان».

«حسنًا، لن يُلبسوكِ فستانًا من الحوافر».

ومـررت نينـا يديهـا عـلى الفسـتان السـخيف وهـي تقـول: «أنـا عـلى وشـك أن أحظـى بشـعبية كبـيرة».

«أتساءل ما الذي سيقوله ماتياس عن هذا الفستان».

«لن يستحسنه».

«إنـه لا يستحســن أي شيء يتعلـق بـكِ. لكـن عندمـا تضحكـين، فإنـه ينتعـش كالتوليـب في الميـاه العذبـة».

شخرت نينا بتهكم: «ماتياس التوليب».

«التوليب الأصفر الكبير الكئيب».

سألت نينا وهما تسحبان القلانس على وجهيهما: «هل أنتِ مستعدة؟».

قالت إيناج: «أجل، سنحتاج إلى وسيلة إلهاء. سوف يلاحظن أن أربع فتيات دخلن وأن اثنتين فقط خرجتا».

«اتركي ذلك لي. وانتبهي لحاشية فستانك».

بمجرد أن فتحتا باب الردهة، لوحت الحارستان لهما بالمرور بنفاد صبر. ونقرت نينا بأصابعها بقوة تحت عباءتها. فأصدرت إحدى الحارستين صوت ثغاء عندما بدأ الدم ينهمر من أنفها على مقدمة زيّها بكمية كبيرة للغاية. تراجعت الحارسة الأخرى، لكن في اللحظة التالية، أمسكت بطنها. لوت نينا معصمها بحركة غاضبة، مرسلة موجات من الغثيان عبر جهاز المرأة.

كررت نينا بهدوء: «انتبهي لحاشية فستانك».

وبالكاد كان لدى إيناج الوقت لتجمع طرف عباءتها قبل أن تنحني الحارسة وتتقيأ عشاءها على الأرضية المكسوة بالبلاط. صرخ الضيوف الذين في الردهة ودفعوا بعضهم البعض محاولين الابتعاد عن القذارة. فخرجت نينا وإيناج وهما تصدران صرخات تتناسب مع الشعور بالاشمئزاز.

همست إيناج: «ربما يفي نزيف الأنف بالغرض».

«من الأفضل أن تستفيضي».

«لو لم أعرفك جيدًا، لاعتقدت أنكِ أحببتِ جعل الفيرادنيين يعانون».

أبقت كل واحدة منهما رأسها منخفضًا ودخلتا في زحام الناس الذين يملأون القاعة المستديرة، متجاهلتين الظبي الزيميني التي حاولت توجيههما إلى الجانب الآخر من الغرفة. فمن الضروري ألا تقتربا كثيراً من أيٍّ من فتيات الميناجيري الحقيقيات. وتمنت إيناج أن لو كان من الصعب تتبع العباءات وسط الحشد.

قالت إيناج: «هذا»، ووجهت نينا إلى صف بعيد عن أعضاء

الميناجـيري الآخريـن. يبـدو أنـه يتحـرك بشـكل أسرع بعـض الـشيء. ولكـن عندمـا وصـلا إلى مقدمـة الصـف، تسـاءلت إينـاج عـما لـو أنهـا أسـاءت الاختيـار. وبـدا هـذا الحـارس أكـثر صرامـة وجديـة مـن الآخرين. فمـد يـده لأخـذ أوراق نينـا وفحصهـا بعينـين زرقاويـن باردتـين.

قال بلغة كيرتش: «هذا التوصيف يشير إلى أن لديك نمشًا».

فقالـت نينـا بهـدوء: «لـديَّ بالفعـل. إنـه غـير واضـح الآن. أتريـد أن تـراه؟».

فقـال الفـيرداني بـبرود شـديد: «كلا، ولكنـك أطـول مـما هـو موصـوف هنا».

فقالـت نينـا: «بسـبب الأحذيـة الطويلـة. أحـب أن أتمكـن مـن النظـر في عينـيْ الرجـل. لديـك عينـان جميلـة جـدًّا».

فنظـر إلى الورقـة، ثـم أمسـك ثوبهـا. «أنـتِ أثقـل مـما هـو مذكـور في هـذه الورقـة، أراهـن عـلى ذلـك».

فهـزت كتفيهـا بدهـاء، وانزلقـت حراشـف خـط عنق فسـتانها لأسـفل. وقالـت وهـي تضغـط شـفتيها معًـا بـلا خجـل: «أحـب أن آكل عندمـا أصبـح في مـزاج جيـد، وأنـا في مـزاج جيـد دائمًـا».

كافحـت إينـاج لكتـم ضحكتهـا. ولـو لجـأت نينـا إلى رفرفـة رموشـها، فإنهـا تعلـم أن مقاومتهـا سـتنهار وتنفجـر في الضحـك. لكـن يبـدو أن الفـيردانيّ يصدقهـا. ربمـا كان لــ نينـا تأثـير مذهـل عـلى جميع الشـماليين الأقويـاء.

قـال بنـبرة فظـة: «تحـركي». ثـم أضـاف: «قـد.. قـد أكـون في الحفلـة لاحقًـا».

مـررت نينـا إصبعهـا عـلى ذراعـه وهـي تقـول: «سـأحتفظ لـك برقصـة».

فابتسـم ابتسـامة عريضـة كالأحمـق، ثـم تنحنـح، وعـاد تعبـيره الصـارم إلى مكانـه. فكـرت إينـاج قائلـة لنفسـها: يـا للقديسـين، لا بـد مـن أنـه مـن المرهـق أن تكـون متبلـد الحـس طـوال الوقـت. وألقـى نظـرة خاطفـة عـلى أوراق إينـاج، ومـن الواضـح أن عقلـه لا يـزال يفكـر

في احتمالية فك طبقات فستان نينا الشيفون الأزرق المخضر. ثم لوّح لها بالمرور، ولكن عندما تقدمت إيناج إلى الأمام، تعثرت.

فقال الحارس: «انتظري».

توقفت. ونظرت نينا إلى الخلف بقلق.

«ما مشكلة حذائك؟».

فقالت إيناج: «إنه فقط كبير بعض الشيء. لقد تمدد أكثر من المتوقع».

قال الحارس: «أريني ذراعيكِ».

«لماذا؟».

قال الحارس بصرامة: «افعلي ذلك فحسب».

أخرجت إيناج ذراعيها من العباءة ورفعتها، مظهرة وشم ريشة الطاووس المتكتل.

جاء حارس برتبة نقيب، وقال: «ما هذا؟».

«إنها سولية، بالتأكيد، ولديها وشم الميناجيري، لكنه لا يبدو صحيحًا تمامًا».

هزت إيناج كتفيها، وقالت: «لقد أصبت بحرق سيئ عندما كنت طفلة».

أشار النقيب إلى مجموعة من رواد الحفلة الذين بدا عليهم الانزعاج وتجمعوا بالقرب من المدخل وأحاط بهم الحراس. فقال: «أي شخص مثير للشك يذهب إلى هناك. ضعها معهم، وسوف نعيدها إلى نقطة التفتيش لمراجعة أوراقها».

قالت إيناج: «سأفوت الحفلة».

تجاهلها الحارس، وأمسك بذراعها وجذبها إلى الخلف نحو المدخل بينما الآخرون في الصف يحدقون إليها ويتهامسون. وبدأ قلبها يخفق بقوة.

بدا وجه نينا مذعورًا وشاحبًا حتى من تحت مسحوق زينتها، لكن لم يوجد هناك شيء يمكن أن تقوله إيناج لطمأنتها. فأومأت لها بأقصر إيماءة. وفكرت بصمت كأنها تقول: اذهبي، الأمر كله متروك لكِ الآن.

ماتياس

قرع أجراس التاسعة

«مـاذا لـو قلـتُ لا يـا بريكـر؟»؛ كان هـذا مجـرد موقـف وماتيـاس عـرف ذلـك. فوقـت الاحتجـاج قـد ولّى. لقـد هرولـوا بالفعـل إلى أسـفل منحـدر سـطح السـفارة غـير الحـاد متجهـين نحـو قطـاع الدروسـكل، وويـلان يلهـث مـن التعـب، وجاسـر يهـرول بخطـوات كبـيرة دون تعـب، وبريكـر يسـايرهم في السرعـة عـلى الرغـم مـن مشـيته العرجـاء وافتقـاده عصـا المـشي. لكـن ماتيـاس لم يعجبـه قـدرة هـذا اللـص الوضيـع عـلى أن يقـرأه بشـكل جيـد. «مـاذا لـو لم أعطـك هـذا الجـزء الأخـير مـن نفـسي ومـن شرفي؟».

«سـوف تفعـل يـا هيلفـار. نينـا في طريقهـا إلى الجزيـرة البيضـاء الآن. هـل حقًّـا سـتتركها عالقـة هنـاك؟».

«أنت تضع الكثير من الافتراضات بدرجة كبيرة».

«تبدو مناسبة بالنسبة إلي».

«هـذه هـي المحاكـم القانونيـة، أليـس كذلـك؟»؛ هكـذا سـأل جاسـر وهـم يهرولـون عـلى السـطح، ملقيًـا نظـرات عـلى الأفنيـة الأنيقـة بالأسـفل، وكل منهـا مبنـي حـول نافـورة ميـاه ومـلىء بحفيـف الصفصـاف الجليـدي. «أعتقـد أنـه إذا تـم الحكـم عليـك بالإعـدام، فهـذا ليـس مكانًـا سـيئًا لذلـك».

قال ويلان: «مياه في كل مكان. هل النوافير ترمز إلى جيل؟».

قال كاز: «ترمز إلى الينبوع؛ حيث تُغسل كل الذنوب».

قال ويلان: «أو حيث يغرقونك ويجبرونك على الاعتراف».

شـخر جاسـر متهكـمًا، وقـال: «ويـلان، لقـد اتخـذَت أفـكارك منحـى

سوداويًا للغاية. أخشى أن يكون للدريجز تأثير سيئ».

استخدموا قطعة حبل مزدوجة وخطاف الإمساك للعبور إلى سطح قطاع الدروسكل. وكان لا بد من ربط ويلان في حمالة، لكن جاسبر وكاز تحركا بسهولة على الحبل، بيد تلو الأخرى، وبسرعة مخيفة. ثم اقترب ماتياس بمزيد من الحذر، ومع أنه لم يظهر ذلك، فإنه لم يعجبه الصوت الذي أصدره الحبل وانحناؤه بسبب ثقله.

سحبه الآخرون إلى حجر سطح قطاع الدروسكل، وبينما وقف ماتياس، أصيب بموجة من الدوار. فأكثر من أي مكان في محكمة الجليد، وأكثر من أي مكان في العالم، شعر ماتياس في هذا المكان كأنه في منزله. لكنه منزل منقلب رأسًا على عقب، ورأى حياته من زاوية خاطئة. نظر إلى الظلام، ورأى النوافذ السقفية الهرمية الضخمة التي تميز السطح. فانتابه إحساس مربك بأنه إذا نظر من خلال الزجاج سيرى نفسه وهو يقوم بالتمرينات في غرف التدريب، أو جالسًا إلى الطاولة الطويلة في قاعة الطعام.

من بعيد، سمع الذئاب تعوي في بيتهم بالقرب من بوابة الحراسة، متسائلين أين ذهب مربيهم طوال الليل. هل سيتعرفون عليه إذا اقترب منهم بيد ممدودة؟ لم يتأكد من أنه سيتعرف على نفسه. على الجليد الشمالي، بدت خياراته واضحة. ولكن أفكاره الآن مشوشة بهؤلاء المجرمين واللصوص، بشجاعة إيناج وجرأة جاسبر، وبنينا، بل بنينا دائمًا. لم يستطع إنكار الارتياح الذي شعر به عندما خرجت من فتحة المحرقة، شعثاء وتلهث، مذعورة ولكنها حية. وعندما أخرجها هو وويلان من المدخنة، وجب عليه أن يجبر نفسه على تركها.

كلا، لن ينظر من خلال تلك النوافذ السقفية، فإنه لن يستطيع تحمل المزيد من الضعف، خاصة في هذه الليلة. لقد حان الوقت للمضي قدمًا.

وصلوا إلى حافة السطح المطل على الخندق المائي الجليدي.

لقد بدا صلبًا من موقعهم، وسطحه لامعًا كمرآة، ومضاءً بأبراج الحراسة الموجودة على الجزيرة البيضاء. لكن مياه الخندق تغيرت باستمرار، مخفية بطبقة رقيقة من الجليد فقط.

تأكد كاز من وجود لفافة أخرى من الحبال إلى حافة السطح واستعد للنزول إلى الشاطئ.

قال لجاسبر وويلان: «أنتما تعرفان ما يجب فعله. الأحد عشر جرسًا وليس قبل ذلك».

سأله جاسبر: «متى حدث وتحركت قبل الأوان؟».

استعد كاز للنزول على الحبل واختفى على الجانب. وتبعه ماتياس، ويداه تتشبثان بالحبل، وقدماه العاريتان تستندان إلى الجدار. وعندما نظر إلى الأعلى، رأى ويلان وجاسبر ينظران إليه. لكن في المرة التالية التي نظر فيها، اختفيا.

كان الشاطئ المحيط بالخندق المائي الجليدي أكثر بقليل من مجرد طبقة رفيعة وزلقة من الحجارة البيضاء. فجلس كاز هناك، مستندًا إلى الجدار ومركزًا على الخندق.

«كيف سنعبر؟ أنا لا أرى أي شيء».

«لأنك لست مستحقًا لذلك».

«أنا أيضًا لست قصير النظر. لا يوجد شيء هناك».

وبدأ ماتياس يمشي على امتداد الجدار، ويمرر يده على الحجر عند مستوى الخصر. وقال: «في هرينغكالا أنهى الدروسكل بدايتنا. فننتقل من طامحين إلى دروسكل مبتدئين في طقس الرماد المقدس».

«حيث تتحدث الشجرة معكم».

قاوم ماتياس الرغبة في دفعه في الماء، وقال: «حيث نتمنى أن نسمع صوت جيل. لكن هذه هي الخطوة الأخيرة. أولًا: علينا عبور الخندق المائي الجليدي دون أن يرونا. إذا تم الحكم علينا بأننا مستحقان، فإن جيل سيرشدنا إلى الطريق».

في الحقيقة، لقد نقل الدروسكل كبار السن سر العبور إلى الطامحين

الذيـن يرغبـون في رؤيتهـم يدخلـون النظـام؛ وهـذه طريقـة للتخلـص مـن الضعفـاء أو أولئـك الذيـن لم ينسـجموا بنجـاح مـع المجموعـة. إذا كوّنـت صداقـات، إذا أثبـتّ نفسـك، فسـيأخذك أحـد الإخـوة جانبًـا ويخـبرك بأنـه في ليلـة البـدء، يجـب أن تذهـب إلى شـاطئ الخنـدق المـائي الجليـدي وتمـرر يـدك عـلى امتـداد جـدار قطـاع الدروسـكل. وفي وسـطه، سـتجد نقشًـا لذئـب يحـدد موقـع جـسر زجاجـي آخـر - ليـس كبـيرًا ومقوسًـا كالجـسر الـذي يمتـد عـبر الخنـدق المـائي مـن جنـاح السـفارة، ولكنـه مسـطح ومسـتقيم وعرضـه بضعـة أقـدام فقـط. إنـه يمـر مـن تحـت الطبقـة المتجمـدة عـلى السـطح، ولـن تـراه إذا لم تعـرف كيـف تبحـث عنـه. فالقائـد بـروم نفسـه هـو مـن أخـبر ماتيـاس بكيفيـة العثـور عـلى الجـسر الـسري، وكذلـك الحيلـة لعبـوره دون أن يـراه أحـد.

لقـد اسـتلزم الأمـر مـن ماتيـاس تمريـر يـده عـلى امتـداد الجـدار مرتـين قبـل أن تجـد أصابعـه الخطـوط المنحوتـة للذئـب. أوقـف يـده هنـاك لبرهـة، مستشـعرًا التقاليـد التـي ربطتـه بنظـام الدروسـكل، وهـي تقاليـد قديمـة قـدم محكمـة الجليـد نفسـها.

قال: «هنا».

تحـرك كاز وهـو يجـر قدمـه ونظـر عـبر الخنـدق المـائي بعينـين نصـف مغمضتـين. وانحنـى للأمـام فجذبـه ماتيـاس.

وأشـار إلى أبـراج الحراسـة أعـلى الجـدار المحيـط بالجزيـرة البيضـاء. وقـال: «سـتكون مرئيًـا. اسـتخدم هـذا».

وحـكّ يـده عـلى الجـدار فأصبحـت راحـة يـده بيضـاء. في ليلـة بدايتـه، فـرك ماتيـاس ملابسـه وشـعره بنفـس المسـحوق الطباشـيري، وذلـك لعـدم لفـت نظـر الحـراس في أبراجهـم، وعـبر الطريـق الصغـير إلى الجزيـرة لمقابلـة إخوتـه.

لقـد فعـل الـشيء نفسـه الآن هـو وكاز، لكـن ماتيـاس لاحـظ أن كاز دسّ قفازاتـه بعنايـة أولًا. لا بـد أن إينـاج قـد أعادتهـا إليـه.

خطـا ماتيـاس إلى الجـسر الـسري، ثـم سـمع كاز يهسـهس عندمـا

غطت المياه الجليدية للخندق قدميه.

«هل هي باردة يا بريكر؟».

«ليت لدينا الوقت للسباحة. تحرك».

وعلى الرغم من تهكمه على كاز، فإنه بمجرد أن وصلا إلى منتصف الطريق إلى الجزيرة، تخدرت قدما ماتياس بشكل شبه كامل، وأصبح على علم تام بأبراج الحراسة المرتفعة الموجودة فوق الخندق المائي. لا بد أن هناك دروسكل قد مر من هذا الطريق في وقت سابق الليلة. لم يسمع ماتياس قط عن أي طامح تم رصده أو إطلاق النار عليه على الجسر، لكن كل شيء أصبح ممكنًا.

قال كاز من خلفه: «كل هذا لتصبح صائد سحرة؟ الدريجز بحاجة إلى بداية أفضل».

«هذا جزء واحد فقط من هرينغكالا».

«أجل، أعرف ذلك، ثم تخبرك شجرة بالمصافحة السرية».

«أشعر بالأسى عليك يا بريكر. لا يوجد شيء مقدس في حياتك».

ساد صمت طويل، ثم قال كاز: «أنت مخطئ».

لاح الجدار الخارجي للجزيرة البيضاء في الأفق أمامهما، وبدا مغطى بنمط متموج من القشور. استغرق الأمر بعض الوقت لتحديد مكان تلال القشور التي تخفي البوابة. قبل فترة قصيرة فقط، كان الدروسكل ليتجمعوا في هذا المكان من الجدار للترحيب بإخوانهم الجدد على الشاطئ، لكنه أصبح فارغًا الآن، والحاجز الحديدي مسلسل. عمل كاز بسرعة على فتح القفل، وسرعان ما أصبحوا في ممر صغير يقودهم إلى الحدائق التي تحمي ظهر ثكنات الحرس الملكي.

«هل أنت دائمًا بارع في التعامل مع الأقفال؟».

«كلا».

«كيف تعلمت؟».

«بالطريقة التي تتعلم بها أي شيء: على أجزاء».

«وماذا عن الخدع السحرية؟».
شخر كاز بتهكم وقال: «إذًا، أنت لم تعد تعتقد أنني شيطان؟».
«أعرف أنك شيطان، لكن خدعك بشرية».
«يرى بعض الناس خدعة سحرية ويقولون «مستحيل!» ويصفقون بأيديهم ويسلمون أموالهم وينسونها بعد عشر دقائق. يسأل أشخاص آخرون كيف فعلتها. ويذهبون إلى منازلهم، ويخلدون إلى الفراش، ويتقلبون عليها ويتساءلون كيف تم فعل ذلك. ويستغرق منهم الأمر نوم ليلة هانئة حتى ينسوا الأمر برمته. ثم هناك أولئك الذين يظلون مستيقظين، يراجعون الخدعة في عقولهم مرارًا وتكرارًا، ويبحثون عن هذا الاقتحام الإدراكي، والصدع في الوهم الذي يفسر كيف تم خداع أعينهم؛ إنهم النوع الذي لن يرتاح حتى يتقن ذلك القدر القليل من الغموض من أجل أنفسهم. وأنا من هذا النوع».
«أنت تحب الخداع».
«أنا أحب الألغاز. أما الخداع فهو لغتي الأم».
عندئذ قال ماتياس مشيرًا إلى أسيجة الأشجار التي أمامهما: «ها هي الحدائق، يمكننا تتبعها حتى نصل إلى قاعة الرقص».
وعندما كانا على وشك الخروج من الممر، اقترب حارسان منهما - كلاهما يرتدي الزي الرسمي الأسود والفضي للدروسكل، وكلاهما يحمل بنادق.
صاح أحدهما في دهشة قائلًا: «بيرجينجير!». أيها السجناء. «ستين!».
قال ماتياس دون تفكير: «ديسينيت، جيل كومينديـن!» انسحبا، فجيل يريد ذلك. كانت تلك كلمات قائد مسؤول من الدروسكل، وقد قالها بكل القوة التي تعلم أن يستجمعها في أي وقت مضى.
تبادل الجنديان نظرة متحيرة. وبدت لحظة التردد تلك كافية. أمسك ماتياس ببندقية الجندي الأول وضرب بها رأسه بقوة. فسقط

الدروسكل.

اصطدم كاز بالجندي الآخر بقوة ودفعه بعيدًا. لكن الدروسكل ظل ممسكًا ببندقيته، لكن كاز التف من خلفه وجذب ساعده على حلقه، وضغط حتى أغمض الجندي عينيه، وسقط رأسه إلى الأمام حيث فقد وعيه.

رفع كاز جسد الجندي عنه ونهض واقفًا.

صعقت حقيقة الوضع ماتياس فجأة. فلم يأخذ كاز البندقية. ولدى ماتياس بندقية في يديه، ولكن كاز بريكر أعزل. وقفا فوق جثتيْ دروسكل فاقديْ الوعي، وهما رجلان من المفترض أنهما أخوا ماتياس. فكر ماتياس قائلًا لنفسه: يمكنني أن أطلق النار عليه. يمكنني أن أدمر نينا والبقية بفعل واحد. ومرة أخرى، أحسّ ماتياس بإحساس غريب بأن حياته تظهر منقلبة رأسًا على عقب. فها هو يرتدي ملابس السجن، وهو دخيل في المكان الذي كان في يومٍ من الأيام منزلًا له. فكر بداخله: مَن أنا الآن؟

نظر إلى كاز بريكر، الصبي الذي كانت قضيته الوحيدة هي نفسه. ومع ذلك، كان مكافحًا وجنديًا فريدًا من نوعه. لقد أوفى باتفاقه مع ماتياس. في مرحلة ما، ربما يقرر أن ماتياس قد أدى دوره - بمجرد أن ساعدهم في وضع الخطط، وبمجرد تجاوزهم زنازين الاحتجاز، وبمجرد أن كشف عن الجسر السري. وأيًا كان ما سيؤول إليه الأمر، فإن ماتياس لن يطلق النار على شخص أعزل. فلم تنحط أخلاقه إلى هذا الحد بعد.

أخفض ماتياس سلاحه.

وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيْ كاز، وقال: «لست واثقًا بما ستفعله لو وصل الأمر إلى هذا الحد».

فأقر ماتياس: «ولا أنا». ورفع كاز حاجبًا، وصدمت الحقيقة ماتياس بقوة كالصفعة، وقال: «إنه اختبار منك. لقد اخترت عدم حمل البندقية».

«لقـد احتجـت إلى التأكـد مـن أنـك معنـا فعـلًا. كلنـا بحاجـة إلى ذلـك».

«كيف عرفت أنني لن أطلق النار؟».

«لأنك يا ماتياس تفوح منك رائحة الأخلاق واللياقة».

«أنت مجنون».

«هـل تعـرف سر القـمار يـا هيلفـار؟»؛ طـرح كاز هـذا السـؤال وهـو ينـزل قدمـه السـليمة عـلى عقـب بندقيـة الجنـدي السـاقط عـلى الأرض، فانقلبـت البندقيـة. ثـم أمسـكها كاز في يديـه وصوبهـا نحـو ماتيـاس في غمضـة عـين. وعندئـذ أيقـن ماتيـاس أنـه ليـس مـن الممكـن أن يتعـرض كاز لأي خطـر عـلى الإطـلاق. «غـش. الآن هيـا ننظـف المـكان ونرتـدِ ذلـك الـزي الرسـمي. فلدينـا حفلـة لنذهـب إليهـا».

«في يوم من الأيام سوف تنفد خدعك أيها الشيطان».

«يجدر بك أن تتمنى ألا يحدث ذلك اليوم».

فكـر ماتيـاس وهـو ينحنـي للقيـام بمهمـة التنظيـف: سـنرى مـا سـتجلبه هـذه الليلـة. فالخـداع ليـس لغتـي الأم، لكـن مـع ذلـك قـد أتعلـم التحـدث بـه يومًـا مـا.

-٣٠-

جاسبر

قرع أجراس التاسعة والربع

عـرف جاسـبر أنـه يجـب أن يغضـب مـن كاز - بسـبب السـعي خلـف بيـكا رولينـز وإفسـاد خطتهـم الأولى، وبسـبب دفعهـم إلى خطـر أكـبر مـن خـلال هـذه الخطـة الجديـدة. ولكـن بينـما تسـلل هـو وويـلان عـلى سـطح الدروسـكل باتجـاه بوابـة الحراسـة، كان سـعيدًا للغايـة بسـبب غضبـه. خفـق قلبـه بشـدة، وسرى الأدرينالـين في جسـده في تموجـات ممتعـة. وأشـبه الأمـر إلى حـد مـا حفلـة ذهـب إليهـا ذات مـرة في ويسـت سـتاف. فقـد قـام شـخص مـا بمـلء إحـدى نافـورات المدينـة بالشـمبانيا، وتطلـب الأمـر مـن جاسـبر نحـو ثانيتـين ليقفـز مـن دون حـذاء وبحلـق مفتـوح. وعندئـذ تمثلـت المغامـرة في مـا يمـلأ أنفـه وفمـه، جاعلـة إيـاه يشـعر بالابتهـاج والانتصـار. لقـد أحـب ذلـك الشـعور، ولكنـه كـره نفسـه لأنـه أحبـه. فقـد كان مـن المفـترض بـه أن يفكـر في العمـل وكسـب المـال والتخلـص مـن ديونـه والحـرص عـلى ألا يعـاني والـده بسـبب تصرفاتـه الحمقـاء. ولكـن عندمـا تمـر هـذه الأفـكار بعقـل جاسـبر، فـإن كل شيء فيـه يجفـل خوفًـا. وأصبحـت محاولـة عـدم المـوت هـي أفضـل تشـتيت ممكـن عـن هـذه الأفـكار.

ومـع ذلـك، فـإن جاسـبر كان أكـثر حـذرًا بشـأن الأصـوات التـي يصدرونهـا بعـد أن أصبحـوا بعيـدًا عـن الزحـام وفـوضى السـفارة. هـذه الليلـة تخـص الدروسـكل. فهرينغـكالا عيدهـم، وقـد تـم وضعهـم جميعًـا بأمـان في الجزيـرة البيضـاء. وربمـا يعـد هـذا المبنـى هـو المـكان الأكـثر أمانًـا بالنسـبة إليـه وويـلان في تلـك اللحظـة. لكـن بـدا الصمـت ثقيـلًا وينـذر بالـشر. فلـم يوجـد صفصـاف أو نوافـير كـما هـي الحـال في السـفارة. ومثـل السـجن، لم يكـن هـذا الجـزء مـن محكمـة الجليـد

مخصصًا لأعين العامة. فوجد جاسبر نفسه يحرك البالين المخبأ بين أسنانه بلسانه بعصبية، وأجبر نفسه على التوقف عن فعل ذلك قبل أن يحفز تأثيره. وهو على يقين بأن ويلان لن يدعه ينسى خطأً فادحًا كهذا أبدًا.

وجدوا نافذة سقفية على شكل هرم تطل على ما بدا أنه غرفة تدريب، وأرضية تلك الغرفة مزركشة برأس ذئب الدروسكل، والرفوف مليئة بالأسلحة. وعبر الهرم الزجاجي التالي، لمح جاسبر قاعة طعام كبيرة. ورأى هناك موقد تدفئة ضخمًا يشغل مساحة بأحد الجدران، وتم نحت رأس ذئب على الحجر فوقه. والجدار المقابل له مزين بلافتة ضخمة من دون نمط واضح، بخليط من شرائط رفيعة من القماش - معظمها أحمر وأزرق، ولكن بعضها أرجواني أيضًا. وقد تطلب الأمر من جاسبر لحظة لفهم ما رآه.

فقال وهو يشعر ببعض الغثيان: «يا للقديسين، ألوان غريشا».

حدق ويلان بعينين نصف مغمضتين، وسأل: «أتقصد اللافتة؟».

«الأحمر يرمز لجماعة الأحياء والموتى (كوربورالكي). والأزرق يرمز لجماعة المستدعين (إيثرالكي). والأرجواني يرمز لجماعة المبتدعين (ماتريالكي). هذه قطع من ثوب الكيفتا الذي يرتديه الغريشا في المعركة. إنها غنائم».

«يوجد الكثير منها».

وجد منها المئات؛ بل الآلاف. وفكر جاسبر بداخله: سأرتدي اللون الأرجواني لو انضممت إلى الجيش الثاني. لقد وصل إلى حالة الابتهاج المنعش الذي شعر به قبل لحظات. لقد رغب، بل حرص على المخاطرة بأن يتم القبض عليه وإعدامه باعتباره لصًّا وقاتلًا مأجورًا. فلماذا كان من الأسوأ أن يفكر في أن يتم الإمساك به كغريشا؟

«لنواصل التحرك».

وكما هي الحال مع السجن والسفارة، تم بناء بوابة الحراسة في

قطاع الدروسكل حول فناء بحيث تمكن مراقبة أي شخص يدخل وإطلاق النار عليه من الأعلى. ولكن مع تعطل البوابة، كانت أماكن إطلاق النار في أسوار الفناء مهجورة كبقية المبنى. وهنا، توجد ألواح من الحجارة السوداء الناعمة مرصعة برأس الذئب الفضي، وأسطحها مضاءة بلهب أزرق عجيب. وهذا هو الجزء الوحيد من محكمة الجليد الذي رآه وليس بلون أبيض أو رماديّ. وحتى البوابة عبارة عن معدن أسود يبدو ثقيلًا إلى حد يستحيل حمله.

رأوا حارسًا بالأسفل، يستند إلى قوس بوابة الحراسة، ولديه بندقية معلقة على كتفه.

سأل ويلان: «حارس واحد فقط؟».

«لقد قال ماتياس إنه يوجد أربعة حراس للبوابات المعطلة».

قال ويلان: «ربما يعمل البروتوكول الأصفر لصالحنا. فربما تم إرسالهم إلى قطاع السجن أو ــــــــــ»

قال جاسبر: «أو ربما هناك اثنا عشر فيردانيًا ضخمًا يتدفئون في الداخل».

وبينما راقب هو وويلان، فتح الحارس علبة من يوردا وأقحم كومة من الأزهار البرتقالية المجففة في فمه. لقد بدا عليه الملل والغضب، وربما الإحباط لأنه متمركز بعيدًا عن متعة احتفالات هرينغكالا.

فكر جاسبر بداخله: أنا لا ألومك، لكن حياتك على وشك أن تصبح أكثر إثارة.

على الأقل ارتدى الحارس زيًا عاديًا وليس زي الدروسكل الأسود، كما رأى جاسبر، الذي لا يزال غير قادر على إخراج صورة تلك اللافتة من ذهنه. إن والدته زيمينية، لكن والده لديه الدم الكاليشي الذي منح لجاسبر عينيه الرماديتين، ولم يخرج قط خرافات جزيرة ووندرينج من ذهنه. عندما بدأ جاسبر إظهار قوته، حزن والده

للغاية. لقد حثّ جاسبر على إبقائها مخفية. وقال له: «أنا خائف عليك. فقد يصبح العالم قاسيًا مع أمثالك». لكن جاسبر تساءل دائمًا عما إذا كان والده نفسه يخاف منه أيضًا.

فكر جاسبر بداخله: ماذا لو ذهبت إلى رافكا بدلًا من كيرتش؟ ماذا لو انضممت إلى الجيش الثاني؟ هل يسمحون للصناع (الفابريكاتورز) بالقتال، أم أنهم يظلون عالقين في المصانع؟ إن رافكا أكثر استقرارًا الآن، ويعاد بناؤها. ولم يعد هناك تجنيد إجباري للغريشا. فبإمكانه الذهاب وزيارتها وربما تعلم استخدام قوته بشكل أفضل، وترك أوكار القمار في كتردام وراءه. فإذا نجحوا في تسليم بو يول- بايور إلى مجلس التجار، فقد يصبح أي شيء ممكنًا.

هز جسده بقوة ليستفيق من أفكاره. ففيم فكر؟ لقد احتاج إلى جرعة من الخطر الوشيك حتى يعود إلى رشده.

نهض واقفًا وقال: «أنا ذاهب».

«ما الخطة؟».

«سوف ترى».

«دعني أساعدك».

«يمكنك المساعدة من خلال الصمت والبقاء بعيدًا عن الطريق. خذ». قال جاسبر ذلك وهو يعلق الحبل على جانب السطح، تاركًا إياه ينزل خلف صف من الألواح الحجرية التي ترصف الممشى. ثم قال: «انتظر حتى أشل حركة الحراس، ثم انزل».

«جاسبر ــــــــ»

انطلق جاسبر عبر السطح، وظل منخفضًا وبعيدًا عن الحافة المطلة على الفناء. وتمركز على الجدار خلف الحارس.

وبهدوء قدر استطاعته، أمَّن جزءًا آخر من الحبل إلى السطح وبدأ الهبوط ببطء على الجدار. وكان الحارس تحته مباشرة تقريبًا. وجاسبر ليس من الريث، ولكن إذا أمكنه فقط أن يسقط بهدوء ويتسلل خلف الحارس، فيمكنه إبقاء الأمور هادئة.

شد جسده واستعد للسقوط. وخرج حارس آخر من بوابة الحراسة، وهو يصفق بيديه في البرد ويتحدث بصوت عالٍ، ثم ظهر حارس ثالث. وتجمد جاسبر مكانه. لقد تدلى فوق ثلاثة حراس مسلحين، وهو في منتصف الطريق إلى أسفل الجدار، مكشوفًا تمامًا. وهذا تمامًا هو سبب قيام كاز بالتخطيط. انهمر العرق على جبينه. فلا يمكنه تولي أمر ثلاثة حراس دفعة واحدة. وماذا لو كان هناك المزيد من الحراس في بوابة الحراسة، مستعدين لإطلاق جرس الإنذار؟

قال أحد الحراس: «انتظرا، هل سمعتما شيئًا؟».

قال جاسبر بداخله: لا تنظروا إلى الأعلى. أوه، يا للقديسين، لا تنظروا إلى الأعلى.

وتحرك الحراس في دائرة بطيئة، وارتفعت البنادق. ورفع أحدهم رأسه للخلف، وقام بتفحص السطح. وبدأ يستدير.

واخترق صوت غريب جميل الهواء.

«سكيردين فيردا، كيندي هيرتزيينج، ليندتين أيسن إن دي واندين».

وهذه كلمات فيردانية لم يفهمها جاسبر اقتحمت الفناء في صوت غنائي بديع ومثالي بدا كأنه يعلق بأماكن إطلاق النار في الأسوار الحجرية السوداء.

ويلان.

استدار الحراس وصوبوا بنادقهم على الممر المؤدي إلى الفناء، باحثين عن مصدر الصوت.

نادى أحدهم قائلًا: «أولاندر؟».

وقال آخر: «نيلسون؟».

وارتفعت بنادقهم، لكن بدت أصواتهم مرتبكة وفضولية أكثر من كونها عدوانية.

قال جاسبر لنفسه: ما الذي يفعله بحق الجحيم؟

ثم ظهرت صورة ظلية في قوس الممشى، تتأرجح إلى اليسار وإلى

اليمين.

غنى ويلان «سكيردين فيردا، كيندي هيرتزيينج»، مؤديًا تقليدًا لشخص فيرداني ثمل ولكنه موهوب جدًا بإقناع مدهش.

وانفجر الحراس في الضحك وبدأوا الغناء مع الأغنية: «ليندتين أيسن..».

وثب جاسبر للأسفل، وتولى أمر أقرب فيرداني وكسر عنقه وأمسك ببندقيته. وعندما استدار الحارس التالي، ضربه جاسبر بعقب البندقية في وجهه محدثًا صوت انسحاق سيئ. ورفع الحارس الثالث سلاحه، لكن ويلان أمسك بذراعيه من الخلف بطريقة صعبة. فسقطت البندقية من بين يدي الحارس، مصدرة صوت سقوط على الحجارة. وقبل أن يتمكن الحارس من الصراخ، اندفع جاسبر إلى الأمام وضربه بعقب بندقيته في بطنه، ثم قضى عليه بضربتين في الفك.

مد جاسبر يده إلى الأسفل وألقى بإحدى البنادق إلى ويلان. ووقفا فوق جثث الحراس، وهما يلهثان من التعب، ويرفعان الأسلحة، في انتظار تدفق المزيد من الجنود الفيردانيين من بوابة الحراسة. لكن لم يأت أحد. فربما تم استدعاء الحارس الرابع بسبب البروتوكول الأصفر.

«هل هذه هي الطريقة التي تصمت بها وتبقى بعيدًا عن طريقي؟»؛ همس جاسبر بهذه الكلمات وهما يسحبان أجساد الحراس بعيدًا عن الأنظار ويضعانها خلف أحد الألواح الحجرية.

فرد ويلان بحدة قائلًا: «هل هذه هي الطريقة التي تشكرني بها؟».

«ماذا كانت تلك الأغنية؟».

قال ويلان بعجرفة: «النشيد الوطني. هل تذكر الفصل الدراسي الفيرداني؟».

هز جاسبر رأسه وهو يقول: «أنا منبهر بك وبمعلميك».

فقاما بتجريد حارسين من زيّهما، وتركا ملابس السجن الخاصة بهما في حزمة مرتبة، ثم ربطا أيدي وأقدام الحراس الذين لا يزال لديهم نبض وكمموهم بقطع ممزقة من ملابس السجن. وكان زي ويلان كبيرًا جدًّا، وأكمام وسراويل جاسبر قصيرة بشكل يبعث على السخرية، ولكن على الأقل وجدا الأحذية ملائمة لمقاسهما.

أشار ويلان إلى الحراس، وسأل: «هل من الآمن تركهم، كما تعلم ــــــــــــ»

«على قيد الحياة؟ أنا لست من هواة قتل الرجال فاقدي الوعي».

«يمكننا إفاقتهم».

«هذا وحشيّ جدًّا يا مرشلينج. هل قتلت أحدًا من قبل؟».

اعترف ويلان: «لم أر جثة قط حتى قبل مجيئي إلى الباريل».

قال جاسبر متفاجئًا بعض الشيء: «إنه ليس شيئًا يدعو للإحراج». لكنه قصد ذلك فعلًا. فويلان بحاجة إلى تعلم كيفية الاعتناء بنفسه، ولكن من الجيد أن يفعل ذلك دون أن يتعامل مع الموت. فقال له: «تأكد من شد الكمامات جيدًا».

لقد اتخذا احتياطات إضافية لتأمين الحراس المقيدين بقاعدة لوح حجري. ومن المحتمل أن يتم اكتشاف الثغرات السيئة قبل أن يتحرروا.

قال جاسبر: «لنذهب»، وعبرا الفناء إلى بوابة الحراسة. ووجدا أبوابًا على يمين ويسار القوس.

اتخذا الجانب الأيمن، وصعدا الدرج بحذر. وعلى الرغم من أن جاسبر لم يعتقد أن يوجد هناك أحد متربص بهما، فإنه قد يصبح هناك بعض الحراس المكلفين بحماية آلية البوابة بأي ثمن. لكن الغرفة التي فوق القوس فارغة، ومضاءة فقط بفانوس موضوع على طاولة منخفضة حيث يوجد كتاب مفتوح بجانب كومة صغيرة من الجوز الكامل والقشور المكسورة. امتلأت الجدران برفوف من

البنـادق الباهظـة الثمـن، وافـترض جاسـبر أن الصناديـق الموجـودة عـلى الرفـوف مليئـة بالذخـيرة. ولم يجـدا أي غبـار في أي مـكان. يـا للفيردانيـين المنظمـين.

كان معظـم مسـاحة الغرفـة مشـغولًا برافعـة طويلـة، ومقابـض في كل طـرف، وحلقـات سـميكة مـن السلاسـل ملفوفـة حولهـا. وبالقـرب مـن كل مقبـض، امتـدت السلاسـل في أسـلاك مشـدودة عـبر فتحـات في الحجـارة.

أمال ويلان رأسه إلى الجانب، وقال: «هه».

«أنا لا أحب هذا الصوت. ما الخطب؟».

«توقعـت حبـلًا أو أسـلاكًا، وليـس سلاسـل فولاذيـة. لـو أردنـا التأكـد مـن أن الفيردانيـين لـن يتمكنـوا مـن فتـح البوابـة، فسـنضطر إلى قطـع المعـدن».

«ولكـن كيـف سـنتمكن مـن تحفيـز تنفيـذ البروتوكـول الأسـود بعـد ذلـك؟».

«هذه هي المشكلة».

وعندئذ بدأت ساعة الإلدركلوك في قرع العشرة أجراس.

قـال جاسـبر: «سـأقوم بإضعـاف الحلقـات. ابحـث عـن مـبرد أو أي شيء لـه شـفرة».

أخرج ويلان المقص المصنوع من المغسلة.

قال جاسبر: «هذا مناسب». ولا بد أن يكون كذلك.

وقـال لنفسـه وهـو يركـز عـلى السلسـلة: لدينـا متسـع مـن الوقـت. لا يـزال بإمكاننـا إنجـاز هـذا. وتمنـى جاسـبر ألا يكـون الآخـرون قـد واجهـوا أي مفاجـآت.

ربمـا أخطـأ ماتيـاس بشـأن الجزيـرة البيضـاء. وربمـا ينكسـر المقـص في يـديْ ويـلان. وربمـا تفشـل إينـاج أو نينـا أو كاز.

ثم قال لنفسه: أو أنا. ربما أفشل أنا.

عمليـة بهـا سـتة أشـخاص، ولكـن احتـمالات فشـل هـذه الخطـة المجنونـة بـالآلاف.

-٣١-

نينا

قرع أجراس التاسعة والنصف

تجرأت نينا على إلقاء نظرة أخرى قلقة وراءها، وشاهدت الحراس وهم يأخذون إيناج. قالت لنفسها: إنها ذكية للغاية. تستطيع إيناج أن تعتني بنفسها.

أضفى هذا التفكير على نينا بعض الارتياح، لكنها اضطرت إلى الاستمرار في السير. فمن الواضح أنها وإيناج معًا، وأرادت أن تذهب قبل أن يشتبه الحارس الذي أوقف إيناج بها هي أيضًا. وعلاوة على ذلك، فليس هناك ما يمكنها فعله لإيناج الآن، ليس دون أن تكشف عن نفسها وتفسد كل شيء. فتوارت بين حشود المحتفلين وخلعت عباءة شعر الخيل اللافتة للنظر، وتركتها تتجرجر خلفها، ثم تركتها تسقط وتُداس من قبل الحشود. سيظل زيها لافتًا للنظر، ولكن على الأقل لم تضطر عندئذ للقلق بشأن حلية رأس حمراء كبيرة تكشف عن مكانها.

ارتفع الجسر الزجاجي أمامها مشكلًا قوسًا لامعًا، متلألئًا في ضوء لهب الفوانيس الأزرق على أبراجه المستدقة. ضحك كل من حولها وتمسكوا بعضهم ببعض، بينما ارتفعوا فوق الخندق المائي الجليدي، وسطحه يلمع أسفلهم، وبدا أشبه ما يكون بمرآة. ونتج عن ذلك تأثير مقلق ومصيب بالدوار؛ وبدا حذاؤها الضيق المطرز كأنه يطفو في الهواء. وبدا الأشخاص الذين بجانبها كأنهم لا يسيرون على أي شيء على الإطلاق.

مرة أخرى راودها ذلك الإدراك المزعج أن هذا المكان لا بد أنه قد تم بناؤه عن طريق حرفة فابريكاتور في الماضي البعيد. لقد

زعم الفيردانيون أن بناء محكمة الجليد من صُنع إلهٍ أو من صنع سينج إغموند، أحد القديسين الذين زعموا أن لديه دم فيرداني. لكن في رافكا، بدأ الناس إعادة التفكير في معجزات القديسين. هل هي معجزات حقيقية أم هي من صنع غريشا موهوب فقط؟ هل هذا الجسر هبة من جيل؟ أم نتاج قديم للسخرة؟ أم هل تم بناء محكمة الجليد في وقت ما قبل أن يصبح الفيردانيون ينظرون إلى الغريشا على أنهم وحوش؟

في أعلى نقطة من القوس، حصلت على أول رؤية حقيقية لها للجزيرة البيضاء والحلقة الداخلية. ومن بُعد، رأت أن الجزيرة محمية بجدار آخر. ولكن من هذه النقطة المرتفعة، رأت أن الجدار قد صُنع على شكل لوياثان، وهو تنين جليدي عملاق يحيط بالجزيرة ويبتلع ذيله. سرت بجسدها قشعريرة. فهناك ذئاب وتنانين، تُرى ما التالي؟ في قصص رافكان، انتظرت الوحوش أن يتم إيقاظها عن طريق نداء الأبطال. ففكرت: حسنًا، نحن لسنا أبطالًا بالتأكيد. لنأمل أن يبقى هذا الوحش نائمًا.

أصابها النزول على الجسر بمزيد من الدوار، ولكنها شعرت بالارتياح عندما التقت قدماها بالرخام الأبيض الصلب مرة أخرى. اصطف سياج من أشجار الكرز الأبيض وأشجار الدلب الفضية حول الممشى الرخامي، وبدا من الواضح ان الأمن على هذا الجانب من الجسر أكثر استرخاءً. فالحراس الذين يقفون في وضعية الانتباه يرتدون زيًّا أبيض معدًّا بعناية ومزينًا بفراء فضي وشرائط فضية أقل إثارة للرهبة. لكن نينا تذكرت ما قاله ماتياس: كلما تعمقت في الحلقات، أصبح الأمن أكثر إحكامًا - وبالفعل لقد أصبح أقل ظهورًا للعيان. نظرت إلى المحتفلين وهم يتحركون معها صعودًا على الدرج الزلق وعبر الشق الذي بين ذيل التنين وفمه. تُرى، كم عدد الضيوف والنبلاء والفنانين الحقيقيين؟ وكم عدد الجنود الفيردانيين أو الدروسكل المتنكرين؟

مـروا عـبر سـاحة حجريـة مفتوحـة وعـبر أبـواب القـصر إلى مدخـل مقبـب بارتفـاع عـدة طوابـق. كان القـصر مشـيدًا مـن الحجـر النقـيّ الأبيـض نفسـه غـير المزخـرف كجـدران محكمـة الجليـد، وبـدا المـكان كـما لـو أنـه مجـوف مـن كتلـة جليديـة. ولم تسـتطع نينـا معرفـة مـا إذا كانـت الـبرودة التـي تـسري في أوصالهـا بسـبب التوتـر أو التخيـل أو مـا إذا كان المـكان بـاردًا حقًّـا، لكـن جلدهـا تجعـد بقشـعريرة، ووجـب عليهـا أن تكافـح لـكي لا تصطـك أسـنانها بسـبب الـبرد.

دخلـت قاعـة رقـص دائريـة واسـعة جـدًّا مليئـة بأنـاسٍ يرقصـون ويشربـون تحـت مجموعـة متلألئـة مـن الذئـاب المنحوتـة مـن الجليـد. لا بـد أن هنـاك مـا لا يقـل عـن ثلاثـين منحوتـة ضخمـة لوحـوش تجـري وتقفـز، وأجنابهـا تلمـع ببراعـة في الضـوء الفـضي، وأفكاكهـا مفتوحـة، وأفواههـا التـي تـذوب ببـطء تقطـر أحيانًـا عـلى الحشـد بالأسـفل. والموسـيقى التـي تعزفهـا فرقـة موسـيقية غـير مرئيـة بالـكاد يمكـن سـماعها بسـبب ثرثـرات المحادثـات.

بـدأت سـاعة الإلدركلـوك في قـرع العـشرة أجـراس. لقـد اسـتغرق منهـا عبـور ذلـك الجـسر الزجاجـي الغبـي وقتًـا طويـلًا. احتاجـت إلى رؤيـة أفضـل للقاعـة. وبينـما اتجهـت نحـو بـئر سـلم حجـري أبيـض منحـوت، لمحـت شـخصين مألوفـين في ظـلال قبـة قريبـة. إنهـما كاز وماتيـاس. لقـد فعلاهـا، وارتديـا ملابـس دروسـكل. قمعـت نينـا رجفـة كادت تـسري في جسـدها. فقـد أثـارت رؤيـة ماتيـاس بهـذه الألـوان نوعًـا مختلفًـا مـن الـبرد في عظامهـا. بمـاذا فكـر عندمـا ارتداهـا؟ تركـت عينيهـا تلتقيـان بعينيـه للحظـة، لكـن يصعـب قـراءة نظراتـه وتفسـيرها، إلا أن رؤيـة كاز بجانبـه منحتهـا بعـض الارتيـاح. فليسـت بمفردهـا، ولا يزالـون يسـيرون حسـب الخطـة الموضوعـة.

لم تخاطـر كثـيرًا واكتفـت بإيمـاءة تعـرّف، وواصلـت صعـود الـدرج إلى الشرفـة في الطابـق الثـاني حيـث يمكنهـا إلقـاء نظـرة أفضـل عـلى تدفـق الحشـود. إنهـا خدعـة تعلمتهـا في المدرسـة مـن زويـا نازيالينسـكي.

فهناك أنماط في الطريقة التي يتحرك بها الناس، والطريقة التي يتجمعون بها حول ذوي النفوذ. لقد بدوا كأنهم ينجرفون، ويتحركون عشوائيًا، لكنهم في الحقيقة انجذبوا نحو الأشخاص ذوي المكانة. وكما هو متوقع، هناك تركيز كبير يحيط بملكة فيردان ومرافقاتها. فكرت نينا وهي تشاهد فساتينهن البيضاء: أمر غريب. في رافكا، اللون الأبيض لون الخدم، لكن ليس هذا التاج شيئًا يمكن تجاهله - فبه نتوءات ملتوية من الماس تبدو كأنها أغصان متوهجة بصقيع جديد.

تمت حماية أفراد العائلة الملكية بشكل جيد بحيث لا يمكنها الاستفادة منهم، لكنها رأت دوامة أخرى من النشاط حول مجموعة ترتدي الزي العسكري في مكان ليس ببعيد. ولو وُجد أي شخص يعرف مكان يول- بايور على الجزيرة، فإنه قطعًا شخص ذو رتبة عالية في جيش فيردا.

«مشهد جميل، أليس كذلك؟».

كادت نينا تقفز عندما تسلل رجل ووقف بجانبها. شخص ما يراقبها. ولم تلاحظ اقترابه منها.

ابتسم لها ووضع يده على أسفل ظهرها، وقال: «كما تعلمين، توجد غرف هنا مخصصة للقليل من المرح. وأنتِ تبدين أكثر إثارة من مجرد قليل من المرح». وتسللت يده إلى الأسفل.

خفضت نينا معدل ضربات قلبه، وسقط كالحجر، وارتطم رأسه بالدرابزين. سوف يستفيق في غضون نحو عشر دقائق مصابًا بصداع شديد وربما ارتجاج بسيط في المخ.

سأل زوجان يمران بجوارها: «أهو بخير؟».

فقالت نينا بمرح: «لقد أفرط في الشراب».

نزلت مسرعة على الدرج ودخلت وسط الحشود، وهي تتحرك بثبات نحو المكان الذي تحيط فيه مجموعة من الجنود يرتدون الزي العسكري الفضي والأبيض برجل سمين بشارب منمق. وإذا

كانت مجموعة الميداليات التي تثقل صدره دلالة على شيء، فهي دلالة على أنه جنرال أو رتبة قريبة من ذلك. هل يجب أن تستهدفه مباشرة؟ لقد احتاجت إلى شخص ذي رتبة عالية بما يكفي تجعله على دراية بالمعلومات السرية - شخص ثمل بما يكفي لاتخاذ قرارات غير مدروسة، ولكن ليس ثملًا لدرجة تجعله لا يستطيع اصطحابها إلى حيث تريد الذهاب. ومن خلال المظهر المتورد لخدّي الجنرال والطريقة التي تأرجح بها على قدميه، بدا كما لو أنه قد يصبح بعيدًا جدًا عن فعل أي شيء سوى الانكباب على وجهه في نبات مزروع في حاوية.

شعرت نينا بالوقت وهو يمر. لقد حان الوقت للقيام بمحاولتها. فأمسكت بكأس من الشمبانيا ثم تحركت بحذر حول الدائرة. وعندما ابتعد أحد الجنود عن المجموعة، تراجعت خطوة إلى الوراء، ووقفت في طريقه مباشرة. فاصطدم بها. لقد مشى بخفة على قدميه لذلك لم يكن اصطدامًا قويًا، لكنها أطلقت صرخة حادة وترنحت للأمام، وسكبت الشمبانيا التي كانت في يدها. وعلى الفور، امتدت عدة أذرع قوية لمنع سقوطها.

قال الجنرال: «أيها الأحمق، لقد كدت تُسقطها على الأرض».

فكرت نينا في نفسها: ومن المحاولة الأولى، لا تشغل بالك. فأنا جاسوسة ممتازة.

توهج خدا الجندي المسكين باللون الأحمر، وهو يقول: «أعتذر يا آنسة».

قالت بلغة كيرتش، وهي تتظاهر بالارتباك وتلتزم بالتحدث بلغة الميناجيري: : «أنا آسفة، أنا لا أتحدث لغة فيردان».

فحاول التحدث بلغة كيرتش وقال: «أعتذر بشدة». ثم قام بمحاولة شجاعة للتحدث بلغة كاليش وقال: «آسف جدًا».

قالت نينا بأنفاس متقطعة: «أوه، كلا، فهذا خطئي كليًا».

قال الجنرال: «ألغرين، توقف عن تشويه لغتها وأحضر لها كأسًا

أخرى من الشمبانيا». فانحنى الجندي وأسرع لتنفيذ ما أمر به. وسألها الجنرال بلغة كيرتش ممتازة: «هل أنتِ بخير؟ هل تريدين أن أجد لكِ مقعدًا؟».

قالت نينا بابتسامة، وهي تستند إلى ذراع الجنرال: «لقد أفزعني فحسب».

«أعتقد أنه قد يكون من الأفضل أن تريحي قدميك».

اتخذ حاجبا نينا شكل القوس، وفكرت: لقد راهنت فحسب. لكن أولًا أحتاج إلى أن أعرف ما تعرفه.

«وأفوت الحفلة؟».

«تبدين شاحبة. ستساعدك بعض الراحة في إحدى الغرف العلوية».

ففكرت: يا للقديسين، إنه لا يضيع أي وقت، أليس كذلك؟ وقبل أن تصر نينا على أنها في خير حال ولكنها قد ترغب في الوقوف في الشرفة، قال صوت دافئ: «حقًّا يا جنرال إكلوند، أفضل طريقة لكسب مودة أي امرأة هي عدم إخبارها بأنها تبدو مريضة».

عبس الجنرال، وانتصب شاربه، ولكن بعد ذلك بدا كأنه تنبّه بسرعة.

وضحك بتوتر وهو يقول: «صحيح تمامًا، صحيح تمامًا».

فاستدارت نينا، وبدا أن الأرض تتزلزل من تحت قدميها. وفكرت وقلبها يرتجف في ذعر: كلا، هذا مستحيل. لقد غرق. من المفترض أن يكون في قاع المحيط.

لكن لو مات يارل بروم، فقد أصبح جثة حية للغاية.

جاسبر

قرع أجراس العاشرة والنصف.

اكتست ملابس جاسبر بقطع وشظايا صغيرة من الفولاذ، وتبلل زيه المسروق من العرق، وآلمته ذراعاه، والصداع الذي سكن في صدغه الأيسر بدا كأنه يقيم إقامة دائمة به. ركز لما يقرب من نصف ساعة على حلقة واحدة في السلسلة التي تمتد من الطرف الأيسر للرافعة إلى إحدى الفتحات الموجودة في الجدار الحجري، مستخدمًا قدرته على إضعاف المعدن، بينما حاول ويلان إضعافها بمقص المغسلة. في البداية اتخذا حذرهما، وقلقا من أن يقطعا الحلقة ويعطلا البوابة قبل أن يحين وقت رفعها، لكن الفولاذ أقوى مما توقعا، والتقدم المحرز بطيء بشكل محبط. وعندما قرع جرس ساعة الإلدركلوك الثلاثة أرباع، سيطر الذعر على جاسبر.

قال بصوت مزمجر محبط: «دعنا نرفع البوابة فحسب. سنحفز تطبيق البروتوكول الأسود ثم نطلق النار على الرافعة حتى تنهار».

أرجع ويلان شعره المجعد الذي على جبهته ونظر إليه نظرة سريعة. وتمكن جاسبر من رؤية الدم على يديه حيث تكونت البثور ثم انفقأت وهو يحاول إضعاف الحلقة. وسأل: «هل تحب البنادق كثيرًا فعلًا؟».

هز جاسبر كتفيه، وقال: «أنا لا أحب قتل الناس».

«إذًا، فما الذي يعجبك فيها؟».

عاود جاسبر تركيزه على الحلقة، وقال: «لا أدري، ربما الصوت. وربما الطريقة التي يضيق بها العالم عليك وعلى الهدف الذي تصوب نحوه فقط. لقد عملت مع صانع أسلحة في نوفي زيم علم أنني صانع (فابريكاتور). لقد ابتكرنا بعض الأشياء المجنونة».

«لقتل الناس».
«أنت تصنع قنابل يا مرشلينج. فلا تُطلق الأحكام عليّ».
«اسمي ويلان. وأنت محق. ليس لديَّ أي حق في انتقادك».
«لا تبدأ في فعل ذلك».
«فعل ماذا؟».
قال جاسبر: «موافقتي الرأي في كل شيء، فهذا سبيل أكيد للهلاك».
«لا أحب فكرة قتل الناس كذلك. أنا حتى لا أحب الكيمياء».
«ماذا تحب؟».
«الموسيقى. الأرقام. المعادلات، فهي ليست كالكلمات. إنها.. إنها لا تختلط».
«لو أنك فقط تستطيع التحدث مع الفتيات بالمعادلات».
ساد صمت طويل، وبعدها تركزت الأعين على الشق الذي صنعاه في الحلقة، وقال ويلان: «الفتيات فقط؟».
كبح جاسبر ابتسامة، وقال: «كلا. ليس الفتيات فقط». من العار حقًّا أن يموتوا جميعًا الليلة. ثم بدأت ساعة الإلدركلوك في قرع أجراس الحادية عشرة، والتقت عيناه بعينيْ ويلان. لقد نفد الوقت.
انتفض جاسبر واقفًا، محاولًا نفض بعض قطع المعدن عن وجهه وقميصه. هل ستصمد السلسلة لفترة طويلة بما فيه الكفاية؟ طويلة جدًّا؟ عليهما فقط معرفة ذلك. قال جاسبر: «اتخذ موقعك».
فاتخذ ويلان موقعه عند المقبض الأيمن للرافعة، وأمسك جاسبر بالمقبض الموجود على اليسار.
وسأله: «هل أنت مستعد لسماع صوت الهلاك المحتوم؟».
«إنك لم تسمع والدي وهو غاضب من قبل».
قال جاسبر: «حس الدعابة هذا يقترب تدريجيًّا من حس الدعابة الملائم للباريل. إذا نجونا، فسأعلمك كيف تكيل السباب واللعنات. هيا ندع محكمة الجليد تعرف أن الدريجز قد جاؤوا لزيارتها».

وبدأ العد التنازلي من ثلاثة وهما يشرعان في لف بكرة الرافعة، مطابقين سرعة بعضهما البعض بعناية، وأعينهما على الحلقة التي أضعفاها. توقع جاسبر بعض الضجيج المدوي، ولكن باستثناء بعض الصرير والقعقعة، ظلت الآلة صامتة.

بدأت بوابة الجدار الدائري في الارتفاع لخمس بوصات، ثم عشر بوصات.

فكر جاسبر: ربما لن يحدث شيء، ربما كذب ماتياس، أو أن كل هذه الأشياء المتعلقة بالبروتوكول الأسود وهمية لمنع الناس حتى من محاولة فتح البوابات.

وعندئذ قرعت أجراس ساعة الإلدركلوك، بصوت عالٍ ومروع، مرتفعٍ ومدو، وأصداء تتردد بقوة، يصدر أحدها تلو الآخر، مدوية على الجزيرة البيضاء والخندق الجليدي والجدار. لقد بدأت أجراس البروتوكول الأسود تدق بالفعل. ولا سبيل للتراجع الآن. تركا مقابض الرافعة في نفس اللحظة، تاركين البوابة تغلق بقوة، ومع ذلك فإن الحلقة لم تنقطع.

قال جاسبر كأنه يحاول إقناع المعدن العنيد بأن يلين: «هيا»، ربما استطاع فابريكاتور أن يقوم بهذا العمل أسهل وأسرع من ذلك. ربما تمكن فابريكاتور محترف من تحويل السلسلة إلى مجموعة من سكاكين تقطيع اللحم ويتبقى لديه وقت لتناول فنجان من القهوة. لكن جاسبر لم يكن أيًا من هذين الشيئين، وقد استنفد براعته. أمسك السلسلة المتدلية مستخدمًا كل ثقله في محاولة للضغط على الحلقة. وفعل ويلان الشيء نفسه، وتعلقا لوهلة، يسحبان السلسلة كسنجابين مجنونين لم يتقنا التسلق. سوف يقتحم الحراس الفناء في أي لحظة الآن، وسيتعين عليهما التوقف عن هذا الجنون للدفاع عن نفسيهما. وستظل البوابة تعمل. لقد فشلا.

قال جاسبر بيأس: «ربما يجب عليك أن تحاول الغناء لها».

وعندها، برعشة اعتراض أخيرة، انقطعت الحلقة.

سـقط جاسـبر وويـلان عـلى الأرض وانزلقـت السلسـلة مـن يديهـما، واختفـى أحـد طرفيهـا عـبر الفتحـة، وجعـل الطـرف الآخـر مقابـض الرافعـة تـدور.

«لقـد فعلناهـا!»؛ هكـذا صرخ جاسـبر بهـذه الكلـمات مـع ضجيـج الأجـراس، وهـو عالـق في شـعور مـا بـين الحـماس والرعـب. ثـم قـال: «سـأحمي ظهـرك. تعامـل مـع الرافعـة!».

فالتقـط جاسـبر بندقيتـه، ووقـف مسـتعدًا عنـد شـق في الجـدار الحجـري المطـل عـلى الفنـاء، واسـتعد لمواجهـة كل الجحيـم الـذي سـينفجر فيهـما.

إيناج

قرع أجراس العاشرة والنصف

سأل رجل يرتدي مخملًا بلون النبيذ: «فقط إلى متى سنظل منتظرين؟». تجاهله الحراس، لكن الضيوف الآخرين المتجمعين عند المدخل مع إيناج تذمروا بسبب إحباطهم. وتابع قائلًا: «لقد جئت إلى هنا بتكلفة باهظة، ولم أفعل ذلك لكي أقضي كل وقتي وأنا أحوم حول الباب الأمامي».

قال الحارس الأقرب إليهم بصوت رتيب مضجر: «إن الرجال الذين عند حاجز التفتيش يتعاملون مع ضيوف آخرين. بمجرد أن ينتهوا من عملهم، ستتم إعادتكم عبر الجدار الدائري واحتجازكم عند نقطة التفتيش حتى يتم التحقق من هوياتكم».

قال الرجل الذي يرتدي المخمل: «احتجازنا. كالمجرمين!».

سمعت إيناج مثل هذه الحوارات المتكررة لوقت أطول من ساعة. وألقت نظرة خاطفة على الفناء الذي يؤدي إلى بوابة الجدار الدائري للسفارة. ولو كان عليها أن تعمل على إنجاح هذه الخطة، فعليها أن تتحلى بالذكاء والهدوء. باستثناء أن هذه ليست هي الخطة بالضبط، وهي بالتأكيد لم تشعر بالهدوء. لقد تبخر كل اليقين والتفاؤل الذي شعرت به منذ وقت قصير. فانتظرت بينما تمر الدقائق، وعيناها تتفحصان الحشد. ولكن عندما قرعت ساعة الإلدركلوك أجراس الثلاثة أرباع، عرفت أنه لا يمكنها الانتظار أكثر من ذلك. عليها أن تتصرف الآن.

قالت إيناج بصوتٍ عالٍ: «لقد ضقت ذرعًا. خذونا إلى نقطة التفتيش أو دعونا نذهب».

«الحراس الذين يحرسون نقطة التفتيش ــــــــــــ»

توجهت إيناج إلى مقدمة المجموعة وقالت: «لقد سئمنا جميعًا من هذا الكلام. خذونا إلى البوابة وأنهوا ذلك الأمر».

أمرها الحارس بالصمت وقال لها: «أنتم ضيوف هنا».

وخزته إيناج في صدره بإصبعها، وقالت: «إذًا، عاملنا كالضيوف»، واستدعت أفضل تقليد لها لنينا. «أطالب بأن يتم اصطحابي إلى البوابة على الفور، أيها المغفل الأشقر الضخم».

أمسك الحارس بذراعها، وهو يقول: «هل أنت مصرة على الذهاب إلى البوابة؟ لنذهب. ولن تعودي من هناك».

«أنا فقط ــــــــــ»

ثم تردد صدى صوت آخر عبر القاعة المستديرة. «توقف! يا هذا، لقد قلت توقف!».

شمّت إيناج عطرها، رائحة زهور الزنبق، فاخرة وكريمية، ورائحة ذهبية كثيفة. لقد أرادت أن تتقيأ. إنها هيلين فان هودين، مالكة وصاحبة الميناجيري، ذا هاوس أوف إكزوتيكس؛ حيث يصبح العالم ملكك مقابل ثمن، لقد شقت طريقها بين الحشد.

ألم تقل إن تانتي هيلين تحب لفت الانتباه بدخولها؟

توقف الحارس مذهولًا عندما وقفت هيلين أمامه. وقال: «سيدتي، ستعود فتاتكِ إليكِ في نهاية الليلة. أوراقها ــــــــــ»

قالت هيلين، وعيناها ممتلئتان بالقسوة: «إنها ليست فتاتي». فوقفت إيناج ثابتة تمامًا، لكنها لم تستطع الاختفاء من دون مكان تذهب إليه. واستطردت هيلين: «هذه هي الريث، اليد اليمنى لكاز بريكر وأحد أشهر المجرمين في كتردام».

فاستدار الناس من حولهم لينظروا.

قالت هيلين بغضب: «كيف تجرؤين على المجيء إلى هنا تحت رعاية منزلي؟ البيت الذي كساكِ وأطعمك؟ وأين أدجالا؟».

فتحت إيناج فمها لتنطق، لكن الفزع تملكها، مضيقًا حلقها وخانقًا للكلمات قبل أن تتمكن من الخروج من حلقها. شعرت

بـأن لسـانها متخـدر وعديـم الفائـدة. ومـرة أخـرى، نظـرت في عينـي المـرأة التـي ضربتهـا وهددتهـا، واشـترتها مـرة، ثـم باعتهـا مـرارًا وتكـرارًا.

أمسكت هيلين بكتفيْ إيناج وهزتها، وسألتها: «أين فتاتي؟».

نظـرت إينـاج إلى الأسـفل عـلى أصابـع هيلـين وهـي تغـوص في لحمهـا. وللحظـة عـاد إليهـا كل الرعـب الـذي عاشـته، إنهـا شـبح حقًـا، شـبح يهـرب مـن جسـد لم يسـبّب لهـا إلا الألم. كلا. إنـه الجسـد الـذي منحهـا القـوة. الجسـد الـذي حملهـا فـوق أسـطح منـازل كـتردام، والـذي خدمهـا في القتـال، والـذي أوصلهـا إلى أعـلى سـتة طوابـق في ظـلام مدخنـة مليئـة بالهباب.

أمسـكت إينـاج معصـم هيلـين ولفتـه بقـوة إلى اليمـين، فصرخـت هيلـين، وركبتاهـا تلتويـان بينـما اندفـع الحـراس إلى الأمـام.

زمجـرت إينـاج، وهـي بالـكاد تتعـرف عـلى صوتهـا، قائلـة: «لقـد ألقيـتُ بفتاتـك في الخنـدق الجليـدي». وقبضـت يدهـا الأخـرى عـلى حلـق هيلـين وأخـذت تضغـط عليـه، وهـي تضيـف: «وهـي أفضـل حـالًا هنـاك مـن حالهـا وهـي معـكِ».

ثـم شـدتها أذرع قويـة، وسـحبتها مـن فـوق المـرأة المسـنة، وسـحبوها إلى الخلـف.

لهثـت إينـاج، وتسـارعت دقـات قلبهـا. وفكـرت: بإمـكاني قتلهـا. لقـد شـعرت بنبضهـا تحـت يـدي. وجـب أن أقتلهـا.

نهضـت هيلـين عـلى قدميهـا وهـي تـئن وتسـعل بينـما تحـرك المتفرجـون لمسـاعدتها. وصاحـت قائلـة: «مـا دمـت وجـدت هـذه هنـا، إذًا فـإن بريكـر هنـا أيضًـا!».

في تلـك اللحظـة، وكـما لـو اتفقـا عـلى ذلـك، بـدأت أجـراس البروتوكول الأسـود تقـرع بصـوت عـالٍ ومُلِـح. وسرت لحظـة جمـود مـن الذهـول. ثـم بـدت القاعـة المسـتديرة بأكملهـا في حالـة حركـة مسـتمرة؛ حيـث هـرع الحـراس إلى مواقعهـم ويـدأ القـادة في إصـدار الأوامـر.

قـال أحـد الحـراس، الـذي بـدا مـن الواضـح أنـه القائـد، شـيئًا بلغـة

فيردان. وهي الكلمة الوحيدة التي تعرفت عليها إيناج هي السجن. فأمسكها من عباءتها وصاح بلغة كيرتش قائلًا: «مَن أعضاء فريقك؟ وما هدفكم؟».

قالت إيناج: «لن أتكلم».

فصفعها الحارس وقال: «سوف تغنين إذا أردنا ذلك».

انطلقت من هيلين ضحكة خافتة ممتلئة بالسعادة، وهي تقول: «سأراكِ مشنوقة. وبريكر أيضًا».

قال أحدهم: «الجسر مغلق. لن يصل أحد إلى الجزيرة أو يغادرها الليلة!». وعندئذ لجأ الضيوف الغاضبون إلى أي شخص قد يستمع إليهم، مطالبين بتوضيحات.

جر الحراس إيناج عبر الفناء، متجاوزين المتفرجين المندهشين، وإلى خارج بوابة الجدار الدائري بينما استمر قرع الأجراس. ولم يعيروا اهتمامًا للطف أو الدبلوماسية الآن.

نادت هيلين من الفناء قائلةً: «أخبرتكِ أنكِ سترتدين ملابسي الحريرية مرة أخرى، أيتها الوشق الصغير». وانخفضت البوابة بالفعل؛ حيث قام الحراس بإغلاقها وفقًا للبروتوكول الأسود. وأضافت هيلين: «سوف تُشنقين بها الآن».

وأغلقت البوابة بقوة، لكن كادت إيناج تقسم إنها ما زالت تسمع ضحكة هيلين.

نينا

قرع أجراس العاشرة والنصف.

دعـت نينـا متمنيـة ألا يظهـر ذعرهـا. هـل تعـرَّف عليهـا بـروم؟ لقـد بـدا كـما عهدتـه تمامًـا: بشـعر ذهبـي طويـل بـه بعـض الشـعر الرمـادي عنـد الصدغـين، وفـك هزيـل يتسـم بلحيـة مهندمـة، وزي الدروسـكل - باللونـين الأسـود والفـضي، والكـم الأيمـن المطـرز بـرأس الذئـب الفـضي. لقـد مـر أكثر مـن عـام منـذ أن رأتـه، لكنهـا لم تنـس قـط هـذا الوجـه أو زرقـة عينيـه القويـة.

آخـر مـرة كانـت فيهـا برفقـة يـارل بـروم تعامـل بعجرفـة مـع ماتيـاس وإخوانـه مـن الدروسـكل في مخـزن بإحـدى السـفن. وشردت بتفكيرهـا: ماتيـاس. هـل رأى بـروم، معلمـه القديـم، حيًّـا ويتحـدث إلى نينـا؟ هـل يراقبهـم الآن؟ قاومـت الرغبـة في البحـث وسـط الحشـد عـن أي أثـر لـه ولـكاز.

ومـع ذلـك، فـإن مخـزن السـفينة كان مظلـمًا، وهـي فـرد مـن مجموعـة مـن السـجناء - المتسـخين والخائفـين. أمـا الآن فهـي نظيفـة ومتعطـرة. وشـعرها بلـون مختلـف؛ وتغطـي بشرتهـا مسـاحيق الزينـة. لقـد أصبحـت ممتنـة فجـأة لزيهـا السـخيف. فـ بـروم رجـل رغـم كل شيء. وعـلى أمـل أن تكـون إينـاج محقـة، فإنـه سـيرى كاليشـية حمـراء الشـعر وترتـدي فسـتانًا بفتحـة عنـق واسـعة للغايـة فحسـب.

انحنـت بشـدة احترامًـا لـه ونظـرت إليـه مـن خـلال رموشـها: «مـن دواعـي سروري».

هامـت نظرتـه في تفحـص قوامهـا. «قـد يصبـح الأمـر كذلـك. أنـت مـن ذا هـاوس أوف إكزوتيكـس، أليـس كذلـك؟ كيـب يـو نـوم؟».

فأجابـت بلغـة كاليـش: «نـوم فيانـا». تُـرى، هـل كان يختبرهـا؟ وأضافـت: «ولكـن يمكنـك منـاداتي بـأي شيء تريـده».

«لقـد ظننـت أن الفتيـات الكاليـش اللـواتي مـع الميناجـيري يرتديـن عبـاءة الفـرس الحمـراء».

فحركـت شـفتيها في عبـوس، وقالـت: «لقـد داسـت الزيمينيـة عليهـا ومزقـت حاشـية العبـاءة. أعتقـد أنهـا فعلـت ذلـك عـن عمـد».

«فتاة ملعونة. هل نبحث عنها ونعاقبها؟».

أجـبرت نينـا نفسـها عـلى القهقهـة، وهـي تسـأل: «كيـف سـتشرع في ذلـك؟».

«يقولـون إن العقوبـة يجـب أن تناسـب الجريمـة، لكننـي أعتقـد أنهـا يجـب أن تناسـب المجـرم. لـو أنـكِ سـجينتي، لجعلـتُ مهمتـي أن أتعلـم مـا يعجبـك ومـا لا يعجبـك - وبالطبـع لتعرفـت عـلى مخاوفـك».

فقالت بغمزة: «أنا لا أخاف».

«حقًّـا؟ يـا لـه مـن أمـر مثـير للاهتـمام. يقـدّر الفيردانيـون الشـجاعة بشـكل كبـير. كيـف تجديـن بلدنـا؟».

قالـت نينـا بحـماس: «إنـه مـكان سـاحر». وفكـرت: إن كنـت فقـط تحـب الجليـد، بـل المزيـد مـن الجليـد. لقـد شـجّعت نفسـها. فـإذا عرف مَـن تكـون، لاكتشـفت ذلـك الآن أيضًـا. وإذا لم يعرفهـا، حسـنًا، فـما زالـت بحاجـة إلى معرفـة مـكان بـو يـول- بايـور - ويـا لهـا مـن متعـة أن تخـدع الأسـطورة يـارل بـروم للحصـول منـه عـلى المعلومـات. اقتربـت منـه، وقالـت: «هـل تعـرف المـكان الـذي أرغـب حقًّـا في زيارتـه؟».

ففلد لهجتها التآمرية، وقال: «أود أن أعرف كل أسرارك».

«رافكا».

تجعدت شفة الدروسكل بازدراء. «رافكا؟ أرض الكفر والوحشية».

«بالضبط، لكن لأرى غريشا؟ هل يمكنك تخيل الإثارة؟».

«أؤكد لكِ أنها ليست إثارة على الإطلاق».

سـألته وهـي تتظاهـر بأنهـا تعـاني في نُطـق الفيردانيـة: «أنـت فقـط

تقـول ذلـك لأنـك ترتـدي علامـة الذئـب. هـذا يعنـي أنـك.. دروسـكل، أليـس كذلـك؟».

«أنا قائدهم».

وسـعت نينـا عينيهـا مبديـة دهشـتها وهـي تقـول: «إذًا، لا بـد أنـك قـد هزمـت العديـد مـن الغريشـا في المعركـة».

«لا يوجـد شرف كبـير في قتـال مثـل هـذه المخلوقـات. أُفضـل أن أواجه ألـف رجـل شريـف بالسـيوف عـن مواجهـة أحـد هـؤلاء المشـعوذين المخادعـين ذوي القـوى غـير الطبيعيـة».

فكـرت: عندمـا تأتـون ببنادقكـم متعـددة الطلقـات ودباباتكـم، وعندمـا تهاجمـون الأطفـال والقـرى التـي لا حـول لهـا ولا قـوة بعنـف، ألا يجـب علينـا أن نسـتخدم الأسـلحة التـي نمتلكهـا؟ ولكـن عضـت نينـا بقـوة عـلى لسـانها لتمنـع نفسـها مـن الـكلام.

سأل بروم: «هناك غريشا في كيرتش، أليس كذلك؟».

«هــذا مــا ســمعته، لكننــي لم أر واحــدًا منهــم في الميناجـيري أو في الباريـل. عـلى الأقـل ليـس عـلى حـد علمـي». هـل يمكـن أن تخاطـر بذكـر الجـردا باريـم؟ كيـف يمكـن لفتـاة مثلهـا أن تمتلـك مثـل هـذه المعرفـة؟ مالـت نحـوه، وحركـت شـفتيها بابتسـامة خبيثـة بعـض الشيء، آملـةً أن تبـدو كأنهـا متحمسـة للإثـارة وليـس للمعلومـات، وقالـت: «أعلـم أنهـم مخيفـون، لكـن.. لكنهـم يجعلوننـي أرتجـف. لقـد سـمعت أن قوتهـم ليـس لهـا حـدود».

تردد الدروسكل وهو يقول: «حسنا..".

واسـتطاعت نينـا أن تـرى أنـه ناقـش شـيئًا مـا مـع نفسـه. فمـن الأفضـل ترتيـب انسـحاب اسـتراتيجي. فهـزت كتفيهـا، وهـي تقـول: «لكـن، ربمـا هـذا ليـس مجـال خبرتـك». ونظـرت مـن ورائـه ولفتـت أنظـار شـاب نبيـل يرتـدي ملابـس رماديـة باهتـة مـن الحريـر.

سألها بروم: «هل تريدين رؤية غريشا الليلة؟».

عـادت نظراتهـا بسرعـة إلى بـروم. وقالـت لنفسـها: كل مـا أريـده

هـو مـرآة. هـل لـدى بـروم سـجناء غريشـا مختبئـون في مـكان مـا؟ مـا أرادتـه هـو أن تسـمع كل شيء يتعلـق ببـو يـول- بايـور والجـردا باريـم، ولكـن ربمـا تكـون هـذه مجـرد بدايـة. وإذا تمكنـت مـن الانفـراد بـبروم...

ضربته في صدره، وقالت: «أنت تثيرني».

«هل ستلاحظ سيدتك إذا تسللت معي خلسة؟».

«هذا هو سبب وجودنا هنا، أليس كذلك؟ لكي نتسلل خلسة؟».

فمد لها ذراعه، وقال: «إذًا، هلا ذهبنا؟».

ابتسـمت ولفّـت يدهـا عـلى سـاعده، فربّتهـا برفـق، وهـو يقـول: «فتـاة مطيعـة».

أرادت نينـا أن تتقيـأ. وفكـرت بتجهـم: ربمـا أجعلـك عاجـزًا جنسـيًا، وهـو يقودهـا للخـروج مـن قاعـة الرقـص وعـبر غابـة متدرجـة مـن المنحوتـات الجليديـة - بذئـب مـع نـسر مـزدوج يـصرخ في فكيـه، وثعبـان يلتـف حـول دب.

غمغمت قائلة: «كيف.. بدائي».

ضحـك بـروم وربّـت يدهـا مـرة أخـرى، وقـال: «نحـن حضـارة محاربـين».

فكـرت وهـما يسـيران: هـل سـيكون الأمـر فظيعًـا للغايـة لـو قتلتُـه الآن؟ هـل أجعـل الأمـر يبـدو كأنـه نوبـة قلبيـة؟ وأتركـه هنـا في الـبرد؟ لكـن بإمكانهـا أن تتحمـل يـارل بـروم وهـو يحـدق بشـهوانية إلى الجـزء الأمامـي مـن فسـتانها لفـترة أطـول إن كان ذلـك يعنـي إخفـاء يـوردا باريـم عـن العـالم.

وعـلاوة عـلى ذلـك، فلـو كان بـو يـول- بايـور موجـودًا عـلى هـذه الجزيـرة المنبـوذة، فـإن بـروم هـو الشـخص الوحيـد الـذي يمكـن أن يوصلهـا إليـه. سـمح لهـما الحـراس عـلى أبـواب قاعـة الرقـص بالمـرور بمجـرد رفعـة حاجـب وابتسـامة متكلفـة.

وأمامهـما مبـاشرة، رأت نينـا شـجرة ضخمـة فضيـة اللـون في وسـط

فناء دائري، وأغصانها تمتد فوق حجارة تتخذ شكل مظلة لامعة. وعندئذ أدركت نينا أن هذه هي شجرة الدردار المقدسة. لا بد أنهما في منتصف الجزيرة. فالفناء محاط من الجانبين بصفوف من الأعمدة المقوسة. وإذا اتسمت رسومات ماتياس وويلان بالدقة، فإن المبنى الذي يقع خلف الفناء مباشرة هو الخزانة.

بدلًا من اقتيادها عبر الفناء، استدار بروم يسارًا إلى طريق يجاور صف الأعمدة. وبينما يستدير، لمحت نينا مجموعة من الأشخاص يرتدون معاطف سوداء ذات قلنسوة يتجهون نحو الشجرة.

سألت نينا رغم أنها تظن أنها تعرفهم: «مَن هؤلاء؟».

«دروسكل».

«ألا يجب أن تكون معهم؟».

«هذا طقس احتفالي للترحيب بالإخوة الصغار من قبل الإخوة كبار السن، وليس للقادة والضباط».

«هل مررت بهذا الأمر؟».

«يمر أي دروسكيل في التاريخ في النظام من خلال الطقس نفسه منذ أن دهن جيل أول واحد منا بالزيت».

وأجبرت نينا نفسها على عدم تحريك عينيها إلى الأعلى للتعبير عن ضجرها. وفكرت: بالتأكيد، لقد اختار ينبوع عملاق متدفق شخصًا ما لمطاردة الأبرياء وقتلهم. يبدو ذلك محتملًا.

تابع بروم حديثه: «هذا ما يحتفل به الهرينغكالا. وفي كل عام إذا كان هناك مبتدئون ذوو جدراة، فإن الدروسكل يجتمعون عند شجرة الدردار المقدسة؛ حيث يمكنهم سماع صوت الإله مرة أخرى».

فكرت: جيل يقول إنك متعصب ومهووس بقوتك. تعال العام القادم.

تمتم بروم قائلًا: «ينسى الناس أن هذه ليلة مقدسة. فيأتون إلى القصر ليشربوا الخمور ويرقصوا ويزنوا».

حاولت نينا جاهدة عدم التعليق على كلامه. فنظرًا إلى اهتمام

بـروم بانخفـاض فتحـة عنـق فسـتانها، كانـت تشـك في بـراءة أفـكاره.
فسألته بغرض إثارته: «هل هذه الأشياء سيئة للغاية؟».
ابتسـم بـروم وضغـط عـلى ذراعهـا، وهـو يقـول: «ليـس عنـد فعلهـا باعتـدال».
«الاعتدال ليس من اختصاصي».
فقـال: «أسـتطيع أن أرى ذلـك. أنـا أحـب المـرأة التـي تسـتمتع بوقتهـا».
فكـرت وهـي تمـرر أصابعهـا عـلى ذراعـه: وأنـا سأسـتمتع بخنقـك ببـطء. وعندمـا نظـرت إلى بـروم، أدركـت أنهـا لا تلومـه فقـط عـلى الأشـياء التـي فعلهـا بشـعبها؛ بـل عـلى الأشـياء التـي فعلهـا لماتيـاس أيضًـا. لقـد أخـذ صبيًـا شـجاعًا وبائسًـا وغـرس فيـه الكراهيـة. لقـد أسـكت ضمـير ماتيـاس بإجحـاف ووعـد بنـداء إلهـي ربمـا لا يكـون سـوى ريـح تتحـرك عـبر أغصـان شـجرة قديمـة.
وصـلا إلى الجانـب الآخـر مـن صـف الأعمـدة. في البدايـة، اعتقـدت أن بـروم قـد قادهـا عمـدًا حـول الفنـاء. فربمـا لم يـرد إدخـال عاهـرة إلى مـكان مقـدس. يـا لـه مـن منافـق.
سألته: «إلى أين نحن ذاهبون؟».
«إلى الخزانة».
«هل تريد إبهاري بالمجوهرات؟».
«لا أعتقـد أن فتيـات مثلـك بحاجـة إلى أن يتـم إبهارهـن. أليـس هـذا هـو الهـدف؟».
ضحكـت نينـا: «حسـنًا، كل فتـاة تحـب أن تحظـى بقليـل مـن الاهتـمام».
«إذًا هـذا مـا حصلـتِ عليـه. وكذلـك الإثـارة التـي كنـتِ تبحثـين عنهـا أيضًـا».
هـل مـن الممكـن أن يكـون يـول- بايـور في الخزانـة؟ لقـد قـال كاز إنـه سـيكون في أكـثر الأماكـن أمانًـا في محكمـة الجليـد. قـد يعنـي هـذا

القصر، لكنه قد يعني بكل بساطة الخزانة. فلماذا ليس هنا؟ الخزانة بناية دائرية أخرى مبنية من الحجارة البيضاء المتوهجة، لكن الخزانة لا تحتوي على نوافذ أو زخارف غريبة أو حراشف تنين. إنها تبدو كالقبر. وبدلًا من الحراس العاديين، وقف اثنان من الدروسكل لحراسة الباب الثقيل.

فجأة، باغتها الثقل الكامل لما كانت تفعله. إنها بمفردها مع أحد أكثر الرجال فتكًا في فيردا، رجل سيعذبها ويقتلها بكل سرور إذا عرف حقيقتها. فالخطة هي الوصول إلى شخص يعطيها معلومات عن مكان بو يول- بايور، وليس التحدث بحميمية مع الدروسكل الأعلى رتبة في الجزيرة البيضاء. فحصت عيناها الأشجار والطرق المحيطة بها، ومتاهة سياج الأشجار بجوار الجانب الشرقي للخزانة، آملةً أن ترى بعض الظلال تتحرك، لتعرف أن هناك أحدًا معها وأنها لم تكن وحدها تمامًا. لقد أقسم كاز أن بإمكانه إخراجها من هذه الجزيرة، لكن خطة كاز الأولى قد فشلت - وربما تفشل هذه الخطة أيضًا.

لم يرمش الجنديان عندما مرت نينا وبروم بهما، بل قدما تحية عسكرية صارمة فحسب. وأخرج بروم سلسلة من عنقه يتدلى منها قرص دائري غريب. فأدخل القرص في فجوة غير مرئية تقريبًا في الباب وأدارها. وراقبت نينا القفل بحذر، ربما يفوق هذا حتى مهارة كاز بريكر.

كان المدخل المقبب باردًا وخاليًا من أي شيء، ومضاءً بنفس الضوء الساطع الموجود في زنزانات الغريشا في جناح السجن. فلا يوجد مصباح غاز، ولا شموع، ولا أي شيء يمكن للأسكواليرز أو الإنفيرني التلاعب به.

حدقت بعينين نصف مغمضتين، وسألت: «أين نحن؟».

«نحن في الخزانة القديمة. لقد تم نقل الخزنة منذ سنوات، وتم تحويل هذا المكان إلى مختبر».

مختبر. شكلت الكلمة عقدة باردة تحت ضلوع نينا. فسألت: «لماذا؟».

«يا لكِ من مخلوق صغير فضولي!».

فكرت: أنا في نفس طولك تقريبًا.

«الخزانة آمنة وموقعها جيد بالفعل على الجزيرة البيضاء، لذلك فهذا اختيار منطقي لمثل هذا المرفق».

بدت الكلمات غير مؤذية، لكن عقدة الخوف تلك قويَت، وأصبحت كأنها قبضة باردة تضغط على صدرها حينئذ. تبِعت بروم إلى أسفل القاعة المقببة، مرورًا بأبواب بيضاء ملساء، ولكل منها نافذة زجاجية صغيرة.

قال بروم وهو يقف أمام باب يبدو مطابقًا للأبواب الأخرى: «ها نحن أولاء».

نظرت نينا من خلال الزجاج، ووجدت أن الزنزانة مشابهة لتلك الموجودة في الطابق العلوي من السجن، لكن لوحة المراقبة موجودة على الجانب الآخر - بمرآة كبيرة تشغل نصف الجدار المقابل. وفي الداخل، رأت صبيًا صغيرًا يرتدي كيفتا زرقاء رثة ويسير ذهابًا وإيابًا بلا كلل، يهذر لنفسه ويخدش ذراعيه. وعيناه غائرتان وشعره خفيف. لقد بدا كأنه نيستور قبل وفاته. ففكرت: الغريشا لا يمرضون. لكن هذا نوع مختلف من المرض.

«إنه لا يبدو شديد الخطورة».

تحرك بروم ووقف خلفها. ولامست أنفاسه أذنها عندما قال: «أوه، صدقيني، إنه كذلك».

شعرت نينا بالاشمئزاز، لكنها أمالت نفسها إليه قليلًا. «لماذا هو هنا؟».

«من أجل المستقبل».

استدارت نينا ووضعت يديها على صدره.

«هل هناك المزيد؟».

زفـر نفسًـا بنفـاد صـبرٍ وقادهـا إلى البـاب المجـاور. فـرأت فتـاة مسـتلقية عـلى جنبهـا وشـعرها المتشـابك يغطـي وجهها. كانـت ترتـدي قميصًـا متسـخًا، ولديهـا كدمـات في جميـع أنحـاء ذراعيهـا. طـرق بـروم بحـدة عـلى النافـذة الصغـيرة، فـروّع نينـا.

وقـال سـاخرًا: «تبـدو عـلى قيـد الحيـاة»، لكـن الفتـاة لم تتحـرك. فتحـرك إصبـع بـروم فـوق زر نحـاسي مثبـت بجـوار النافـذة، وقـال: «إذا أردت عرضًـا مسـليًا، يمكننـي الضغـط عـلى هـذا الـزر».

«ماذا يفعل؟».

«أشياء جميلة. وإعجازية حقًّا».

اعتقـدت نينـا أنهـا تعـرف؛ سـيملأ هـذا الـزر فـم الفتـاة بيـوردا باريـم عنـوة. فقـط مـن أجـل إمتـاع نينـا؛ فسـحبت بـروم بعيـدًا، وقالـت: «لا عليك».

«اعتقدتُ أنكِ تريدين رؤية الغريشا وهي تستخدم قوتها».

«أوه، أريـد ذلـك، لكنهـا لا تبـدو مسـلية كثـيرًا. هـل هنـاك المزيـد منهـم؟».

«قرابة الثلاثين».

جفلـت نينـا. فالجيـش الثـاني عـلى وشـك الانهيـار في حـرب رافـكا الأهليـة. إنهـا لم تسـتطع تحمـل فكـرة وجـود ثلاثـين غريشـا هنـا. سـألت: «وهـل هـم جميعًـا في تلـك الحالـة؟».

هـز كتفيـه وقادهـا عـبر أحـد الممـرات وقـال: «بعضهـم في حالـة أفضـل. وبعضهـم في حالـة أسـوأ. إذا وجـدت لـكِ واحـدًا مفعـمًا بالحيويـة، فبـماذا سـتكافئينني؟».

فقالت بإغراء: «سيكون من الأسهل أن أريك».

لقـد اكتفـت نينـا مـن رؤيـة غريشـا جائعـين وخائفـين. وأرادت الوصـول إلى يـول- بايـور. لا بـد أن بـروم يعـرف مكانـه. وكانـت الخزانـة شـبه مهجـورة. ولم يريـا أي حـارس بالداخـل. ولـو تمكنـت مـن أخـذ بـروم إلى ممـر خـالٍ بعيـدًا بمـا يكفـي عـن المدخـل بحيـث لا يسـتطيع

الحراس سماعهما.. فهل يمكنها تعذيب دروسكل قوي عنيد؟ هل تستطيع أن تجعله يتكلم؟ اعتقدت أنها قد تتمكن من فعل ذلك. سوف تغلق أنفه وتضغط على حنجرته. قد تضعفه بضع دقائق من الكفاح لالتقاط أنفاسه.

اقترحت نينا: «ربما نستطيع أن نجد ركنًا هادئًا؟».

حاول بروم ضبط هيئته، وانتفخ صدره. «من هنا يا ديري»، وقال جملته مستخدمًا الكلمة الكاليشية التي تعني عزيزتي.

فقادها إلى قاعة مهجورة، وفتح الباب بمفتاحه الدائري.

قال بانحناءة: «هذه ستفي بالغرض. فبها بعض الخصوصية وقليل من السحر».

غمزت نينا وابتعدت عنه. وتوقعت أن تجد مكتبًا أو غرفة استراحة للحراس. لكن لم يوجد هناك مكتب ولا سرير. فالغرفة خالية تمامًا - باستثناء البالوعة الموجودة في منتصف الأرضية.

استدارت في الوقت المناسب لترى باب الزنزانة وهو يُغلق.

فصرخت ويداها تمران على سطح الباب: «كلا!»، ولكنها لم تجد لها مقبضًا.

ظهر وجه بروم في النافذة وعليه تعبير متعجرف، وعيناه باردتان، وقال: «ربما قد بالغتِ في السحر، لكن هناك الكثير من الخصوصية يا نينا».

تراجعت للخلف من هول الصدمة.

قال لها: «هذا هو اسمكِ، أليس كذلك؟ هل اعتقدت حقًّا أنني لن أتعرف عليكِ؟ إنني أتذكر وجهك الصغير العنيد من سفينة الرقيق، ولدينا ملفات عن كل واحد من غريشا رافكا النشطين. فعملي هو التعرف عليهم جميعًا، حتى أولئك الذين آمل أن يبتلعهم البحر».

رفعت نينا يديها.

فقال: «هيا، فجري عينيْ في تجاويفهما. اسحقي قلبي في صدري.

لـن ينفتـح هـذا البـاب، وفي الوقـت الـذي تسـتغرقينه في التلاعـب بنبـضي، سـأضغط عـلى هـذا الـزر». ولم تسـتطع رؤيـة الـزر النحـاسي، لكنهـا تخيلـت إصبعـه وهـو يتحـرك فوقـه. «هـل تعرفـين مـاذا يفعـل؟ لقـد رأيـتِ تأثـيرات يـوردا باريـم. هـل توديـن أن تشـعري بهـا أنـتِ أيضًـا؟ إنهـا فعالـة كمسـحوق، ولكنهـا فعالـة بشـكل أكـبر كغـاز».

تجمدت نينا.

قـال: «فتـاة ذكيـة». وتسـببت ابتسـامته في توترهـا. قالـت لنفسـها: لـن أتوسـل. لكنهـا عرفـت أنهـا سـتفعل. فبمجـرد أن يدخـل العقـار في جسـدها، لـن تتمكـن مـن إيقافـه. فأخـذت نفسًـا مـن الهـواء النقـي. ولكنهـا لفتـة غـير مجديـة، بـل إنهـا طفوليـة، لكنهـا صممـت عـلى الاحتفـاظ بالهـواء لأطـول فـترة ممكنـة.

ثـم توقـف بـروم، وقـال: «كلا. هـذا الانتقـام لا يخصنـي أنـا. هنـاك شـخص آخـر يدينـك بأكـثر مـن ذلـك بكثـير». واختفـى مـن عـلى النافـذة وبعـد لحظـة، وفجـأة ظهـر وجـه ماتيـاس في النافـذة. ونظـر إليهـا بعينـين صارمتـين.

همسـت نينـا قائلـةً: «كيـف؟»، وهـي غـير متأكـدة حتـى مـما إذا كان بإمكانهـما سـماعها مـن خـلال البـاب.

قـال ماتيـاس بصـوت يملـؤه الاشـمئزاز: «هـل اعتقـدتِ حقًـا أننـي سـأخون بلـدي؟ أو سـأتخلى عـن القضيـة التـي كرسـت حيـاتي مـن أجلهـا؟ لقـد جئـت لتحذيـر بـروم بـأسرع مـا أمكننـي».

«لكنك قلت ــــــــــ»

«الوطن قبل الذات يا زينيك. إنه شيء لن تفهميه قط».

ضغطت نينا بيدها على فمها.

قـال ماتيـاس: «قـد لا أكـون دروسـكل مـرة أخـرى. قـد أعيـش دائمًـا بتهمـة «النخاسـة» وهـي تطـوق عنقـي، لكننـي سـأجد طريقـة أخـرى لخدمـة فـيردا. وسـتبهجني رؤيتـكِ وأنـتِ تأخذيـن جرعـات يـوردا باريم. سـتبهجني رؤيتـكِ وأنـت تقتلـين جماعتـك وتتوسـلين مـن أجـل الجرعـة

التاليـة. سـتبهجني رؤيتـكِ وأنـتِ تخونـين الأشـخاص الذيـن تحبينهـم كـما طلبـتِ منـي أن أخـون الأشـخاص الذيـن أحبهـم».

«ماتياس ـــــــ»

فـضرب بقبضتـه عـلى النافـذة، وقـال: «لا تنطقـي باسـمي». ثـم ابتسـم ابتسـامة بـاردة وقاسـية كالبحـر الشـمالي، وأضـاف: "مرحبًـا بـكِ في محكمـة الجليـد يـا نينـا زينيـك. الآن تمـت تسـوية ديوننـا».

ومن مكان ما في الخارج، بدأت أجراس البروتوكول الأسود تدق.

ماتياس

قرع أجراس الحادية عشرة

قال بروم: «إنها جميلة للغاية. لقد كنت قويًا عندما لم تخضع لإغرائها».

فكر ماتياس: لقد أُغريتُ بها رغم ذلك، وليس بسبب جمالها فقط.

قال ماتياس: «جرس الإنذار ____________»

«إنهم رفاقها بلا شك».

«لكن ________»

قال بروم: «ماتياس، سيهتم رجالي بالأمر. فمحكمة الجليد آمنة تمامًا». ثم نظر مرة أخرى إلى زنزانة نينا، وقال: «يمكننا الضغط على الزر الآن».

«ألن تشكل تهديدًا؟».

«لقد مزجنا يوردا بارم بمهدئ يجعلهم أكثر طاعة. وما زلنا نحسب النسب الصحيحة، لكننا سنصل إليها. وبالإضافة إلى ذلك، فبداية من الجرعة الثانية يسيطر الإدمان عليهم».

«ألا يدمنون من الجرعة الأولى؟».

«يتوقف ذلك على الغريشا».

«كم مرة فعلت ذلك؟».

ضحك بروم، وقال: «لم أحص عددها، ولكن صدقني ستصبح في أمسّ الحاجة إلى المزيد من يوردا باريم، ولن تجرؤ على عمل شيء فينا. إنه تحول استثنائي. أعتقد أنك ستستمتع به».

شعر ماتياس بالصدمة، وهو يسأل: «هل أبقيتَ العالِم على قيد

الحياة إذًا؟».

«لقد بذل قصاري جهده لتكرار عملية صنع العقار، لكنه أمر معقد. بعض الدفعات تصبح فعالة؛ والبعض الآخر لا يختلف عن التراب. وما دام في خدمتنا، فإنه سيعيش». ووضع بروم يده على كتف ماتياس، ونظراته القاسية تلين، وقال: «لا أستطيع أن أصدق أنك هنا حقًا، على قيد الحياة، واقفًا أمامي. لقد اعتقدت أنك قد مت».

«لقد اعتقدتُ الشيء نفسه عنك أيضًا».

«عندما رأيتك في قاعة الرقص تلك، بالكاد تعرفت عليك، حتى في هذا الزي. لقد تغيرتَ كثيرًا ــــــــــــ»

«اضطررت أن أدع المشعوذة تغير شكلي».

قال بروم باشمئزاز واضح: «لقد سمحت لها بأن ــــــــــــ»

وإلى حد ما، فإن رؤية هذا الانفعال لدى شخص آخر جعلت ماتياس يخجل من الطريقة التي استجاب بها مع نينا.

قال: «كان لا بد من القيام بذلك. أردتها أن تصدق أنني وفي لقضيتها».

عبس بروم وقال: «لقد انتهى كل ذلك الآن يا ماتياس. فأنت بأمان أخيرًا وبين أفراد جماعتك. ولكن هناك شيئًا يزعجك».

نظر ماتياس إلى الزنزانة المجاورة لزنزانة نينا، ثم كرر النظرات مرارًا وتكرارًا، وهو يتجه نحو نهاية القاعة ويتبعه بروم. اهتاج بعض الغريشا المسجونين وذرعوا المكان ذهابًا وإيابًا. وضغط آخرون بوجوههم على الزجاج. واكتفى آخرون بمجرد الاستلقاء على الأرض. وعندئذ سأل ماتياس: «لا يمكن أن تكون على معرفة بالباريم لأكثر من شهر. منذ متى وهذه المنشأة موجودة؟».

«لقد أوصيت ببنائها منذ ما يقرب من خمسة عشر عامًا بمباركة الملك ومستشاريه».

توقف ماتياس فجأة، وسأل: «خمسة عشر عامًا؟ لماذا؟».

«كنا بحاجة إلى مكان نضع فيه الغريشا بعد محاكمتهم».
«ثم ماذا؟ عندما تثبت إدانة الغريشا، يُحكم عليهم بالإعدام».
هـز بـروم كتفيـه، وقـال: «يظـل حكـمًا بالإعـدام، لكنـه مجـرد حكـم أطـول قليـلًا في الوقـت. لقـد اكتشـفنا منـذ فـترة طويلـة أن الغريشـا يمكـن أن يصبحـوا بمثابـة مـورد مفيـد لنـا».
فكـر ماتيـاس: مـورد. ثـم قـال: «لقـد أخبرتنـي بأنـه سـيتم القضـاء عليهـم، وأنهـم آفـة عـلى العـالم الطبيعـي».
«وهـم كذلـك بالفعـل - عندمـا يحاولـون التنكـر عـلى هيئـة رجـال. إنهـم غـير مؤهلـين للتفكـير الصحيـح والأخـلاق البشريـة. مقـدَرٌ لهـم أن يتـم التحكـم فيهـم».
سأل ماتياس بتشكُّك: «ألهذا السبب كنت تريد باريم؟».
«لقد جربنا طرقنا الخاصة لسنوات دون نجاح يُذكر».
«لكنـك رأيـت مـا يمكـن أن تفعلـه يـوردا باريـم، ومـا يمكـن أن يفعلـه الغريشـا عندما تصبـح في حوزتهـم ــــــــــــــ»
«البندقيـة ليسـت فعالـة، وكذلـك النصـل. أمـا يـوردا باريـم فتضمـن الانصيـاع لنـا. إنهـا تجعـل الغريشـا مـا هـو مقـدر لهـم أن يصبحـوا عليـه دائمـًا».
سأله ماتياس وصوته مليء بالاحتقار له: «جيش ثانٍ؟».
«أي جيـش مكـون مـن جنـود. أمـا هـذه المخلوقـات، فقـد خُلقـت لتكـون أسـلحة. لقـد ولـدوا لخدمـة جنـود جيـل». وضغـط بـروم عـلى كتفـه، وهـو يقـول: «آه يـا ماتيـاس، لكـم اشـتقت إليـك. إيمانـك نقـي جـدًا دائمـًا. أنـا سـعيد لأنـك تمانـع اتخـاذ هـذا الإجـراء، ولكـن هـذه فرصتنـا لتوجيـه ضربـة قاضيـة. هـل تعلـم لمـاذا يصعـب قتـل الغريشـا؟ لأنهـم ليسـوا مـن هـذا العـالم. لكنهـم بارعـون في قتـل بعضهـم البعـض. إنهـم يطلقـون عـلى ذلـك «الـشيء يسـتدعي شـبيهه». انتظـر حتـى تـرى كل مـا حققنـاه، والأسـلحة التـي سـاعدنا الفابريكاتـورز الذيـن هـم جـزء منهـم في تطويرهـا».

نظـر ماتيـاس نحـو نهايـة القاعـة، وقـال: «نينـا زينيـك أمضـت عامًـا في كيرتـش تحـاول المسـاومة مـن أجـل حريتـي. ولا أعتقـد أن هـذه تصرفـات وحـش».

«ألا تظـل الأفعـى سـاكنة قبـل أن تهجـم عليـك؟ أو يظـل الكلـب الـبري يلعـق يـدك قبـل أن يعـض رقبتـك؟ قـد تصبـح الغريشـا قـادرة عـلى فعـل أشـياء لطيفـة، لكـن هـذا لا يغـير طبيعتهـا الأساسـية».

فكـر ماتيـاس مليًّـا في ذلـك. وفكـر في نينـا وهـي تقـف مذعـورة في تلـك الزنزانـة بينـما البـاب يغلـق. لقـد تـاق لرؤيتها سـجينة، ومعاقَبـةً كـما عوقـب. ورغـم ذلـك، وبعـد كل مـا مـرا بـه، لم يتفاجـأ بـالألم الـذي شـعر بـه عنـد رؤيـة ذلـك يتحقـق.

سأل ماتياس بروم: «ما صفات عالِم «الشو»؟».

«عنيد. لا يزال حزينًا على والده».

لم يكـن ماتيـاس يعـرف شـيئًا عـن والـد يـول- بايـور، ولكـن هنـاك سـؤالًا أكـثر أهميـة يجـب طرحـه: «هـل هـو آمـن؟».

«إن الخزانة هي آمن مكان على الجزيرة».

«هل تبقيه هنا مع الغريشا؟».

أومأ بروم قائلًا: «لقد تم تحويل الخزنة الرئيسية إلى مختبر له».

«وهل أنت متأكد من أن ذلك آمن؟».

قـال بـروم وهـو يربـت القـرص المتـدلي مـن رقبتـه: «لـديَّ المفتـاح الرئيـسي، وهـو عليـه حراسـة ليـلًا ونهـارًا. نخبـة قليلـة فقـط هـم مَـن يعرفـون أنـه هنـا. لقـد تأخـر الوقـت، وأريـد أن أتأكـد مـن أنـه تـم التعامـل مـع البروتوكـول الأسـود، ولكـن إذا أردت، فسـوف أصطحبـك لـتراه غـدًا». ثـم لـف ذراعـه حـول عنـق ماتيـاس وهـو يقـول: «وغـدًا سـنحتفل بعودتـك وإعادتـك إلى الخدمـة».

«ما زلتُ متهمًا بتجارة الرقيق».

«سـنجعل الفتـاة توقـع عـلى إقـرار تتراجـع فيـه عـن أقوالهـا بشـأن اتهامـات العبوديـة بسـهولة. صدقنـي، بمجـرد أن تأخـذ الجرعـة الأولى

من يوردا باريم، ستفعل أي شيء تطلبه منها وأكثر. هناك جلسة استماع، لكنني أقسم إنك سترتدي ألوان الدروسكل مرة أخرى يا ماتياس».

ألوان الدروسكل. لقد ارتداها ماتياس بكل فخر. والمشاعر التي شعر بها تجاه نينا سببت له عارًا كبيرًا. ولا يزال يشعر بهذه المشاعر المتضاربة، وربما يظل يشعر بها دائمًا. لقد أمضى سنوات عديدة مليئة بالكراهية لتلك المشاعر لكي تختفي بين عشية وضحاها. لكن العار يتكرر الآن، وكل ما شعر به هو الندم؛ على الوقت الذي أهدره، والألم الذي تسبب فيه، وبالطبع، على ما أصبح على وشك القيام به.

التفت إلى بروم، هذا الرجل الذي أصبح أبًا ومعلمًا له. فعندما فقد عائلته، كان بروم هو مَن جنده في الدروسكل. كان ماتياس ساذجًا صغيرًا ومتهورًا تمامًا. لكنه كرس ما تبقى من قلبه المفطور للقضية. ولكنها قضية زائفة. مجرد كذبة. متى رآها؟ هل عندما ساعد نينا في دفن صديقها؟ أم عندما قاتل بجانبها؟ أم أن هذا حدث قبل وقت طويل من ذلك - عندما نامت بين ذراعيه في تلك الليلة الأولى على الجليد؟ أم عندما أنقذته من تحطُّم السفينة؟

لقد ظلمته نينا، لكنها فعلت ذلك لحماية جماعتها. لقد آذته، لكنها حاولت بكل ما في وسعها لتصحيح الأمور. لقد بيّنت له بألف طريقة أنها شريفة وقوية وكريمة وأفعالها إنسانية للغاية، وربما أكثر إنسانية من أي شخص عرفه على الإطلاق. وإن كانت كذلك بالفعل، فإن الغريشا ليسوا أشرارًا بطبيعتهم. إنهم مثل أي شخص آخر – لديهم القدرة على فعل الخير العظيم، وكذلك الضرر الجسيم. إن تجاهل ذلك سيجعل ماتياس هو الوحش.

قال ماتياس: «لقد علمتني الكثير. لقد علمتني أن أقدر الشرف والقوة. لقد منحتني أدوات الانتقام عندما كنت في أمسّ الحاجة إليها».

«وباستخدام هذه الأدوات، سنبني مستقبلًا رائعًا يا ماتياس. لقد حان وقت فيردا أخيرًا».

وأعاد ماتياس عناق معلمه.

وقال بلطف: «لا أعرف ما إذا كنتَ مخطئًا بشأن الغريشا، لكنني أعرف أنك مخطئ بشأنها».

وفجأة أمسك ماتياس بروم بإحكام، أمسكه بمسكة قد تعلمها في غرف التدريب الموجودة في معقل الدروسكل، وهي الغرف التي لن يراها مرة أخرى أبدًا. وبعدما كافح بروم لفترة وجيزة، هدأ جسده.

عندما ابتعد ماتياس عنه، فقد بروم وعيه، لكن ماتياس لم يعتقد أن يتخيل الغضب الذي ظل على ملامح معلمه. لقد حفظ ملامح الغضب تلك. ومن الصواب أن يتذكر تلك النظرة. إنه خائن حقيقي في نهاية المطاف، وعليه أن يتحمل عبء ذلك.

عندما دخلا قاعة الرقص الكبيرة، وقف ماتياس وكاز في ركن مظلم بالقرب من الدرج لمراقبة الوضع. لقد شاهدا نينا وهي تدخل مرتديةً ذلك الفستان الفاحش ذا الحراشف المتلألئة - ثم لمح ماتياس بروم. وتبع صدمة رؤية معلمه على قيد الحياة إدراكه المروع بأن بروم يتبع نينا.

قال لكاز: «بروم يعرفها. علينا مساعدتها».

«كن ذكيًا يا هيلفار. يمكنك أن تنقذها وأن تحضر لنا يول- بايور أيضًا».

أومأ ماتياس برأسه ودخل وسط الحشد. وسمع كاز يتمتم من خلفه: «اللباقة كالعطر الرخيص».

ثم أوقف بروم عند الدرج ليتحدث معه: «سيدي

»

«ليس الآن».

اضطر ماتياس للوقوف أمامه مباشرة، وقال: «سيدي».

فتوقـف بـروم. وقـد اعـترى وجهـه غضـب بسـبب إيقافـه، ثـم التبـاس، ثـم ذهـول وعـدم تصديـق. فهمـس قائـلًا: «ماتيـاس؟».

قـال ماتيـاس عـلى عجـل: «مـن فضلـك يـا سـيدي، أمهلنـي دقيقـة فقـط لأشرح لـك. هنـاك غريشـا هنـا الليلـة وهـي عازمـة عـلى اغتيـال أحـد سـجنائك. لـو تحملتنـي، لشرحـت لـك المؤامـرة وكيـف يمكـن إيقافهـا».

فأشـار بـروم إلى دروسـكل آخـر ليراقـب نينـا، وقـاد ماتيـاس نحـو قبـة أسـفل الـدرج. وقـال لـه: «تكلـم». فأخـبره ماتيـاس بالحقيقـة - بـل بجـزء صغـير منهـا: كهروبـه مـن تحطُّـم السـفينة، واقترابـه مـن الغـرق، واتهـام نينـا الباطـل لـه بالنخاسـة، وسَـجنِه في هيـل جيـت، ثـم الوعـد بالعفـو. لقـد ألقـى باللـوم عـلى نينـا في كل شيء، ولم يقـل شـيئًا عـن كاز أو الآخريـن. وعندمـا سـأله بـروم عـما إذا كانـت نينـا بمفردهـا في مهمتهـا، قـال ببسـاطة إنـه لا يعـرف.

«إنهـا تعتقـد أننـي أنتظـر لمرافقتهـا لعبـور الجسـر السـري. لقـد تركتهـا بمجـرد أن اسـتطعت ذلـك، وجئـت لأبحـث عنـك».

شـعر جـزء منـه بالاشـمئزاز مـن مـدى سـهولة خـروج الأكاذيـب مـن شـفتيه، لكنـه لـن يـترك نينـا تحـت رحمـة بـروم.

وكان ينظـر إلى بـروم، وفمـه مفتـوح قليـلًا. مـن أكـثر الأشـياء التـي احترمهـا في معلمـه هـي قسـاوته واسـتعداده للقيـام بأشـياء صعبـة مـن أجـل القضيـة. لكـن بـروم اسـتمتع بمـا فعلـه بهـؤلاء الغريشـا، بمـا فعلـه بـكل سـعادة بنينـا وجاسـبر. ربمـا لم تكـن الأشـياء الصعبـة عسـيرة عـلى بـروم كـما كانـت عـلى ماتيـاس. وليسـت هـذه الأشـياء واجبًـا مقدسًـا، يُـؤدَّى عـلى مضـض مـن أجـل فـيردا. بـل إنهـا محـض متعـة.

أخـذ ماتيـاس المفتـاح الرئيـسي مـن حـول رقبـة بـروم وسـحبه إلى زنزانـة فارغـة، وأسـنده إلى الحائـط في وضعيـة الجلـوس. ولكنـه كـره أن يتركـه هنـاك، ذقنـه سـاقط عـلى صـدره، ورجـلاه ممددتـان أمامـه، بـلا كرامـة. لقـد كـره فكـرة العـار الـذي سـيلاحقه، فإنـه محـارب تمـت

خيانته من قبل شخص منحه ثقته ومحبته. وماتياس يعرف هذا الألم جيدًا.

وضع ماتياس جبهته، لفترة وجيزة، على جبهة بروم. وعلم أن معلمه لا يستطيع سماعه، لكنه نطق بهذه الكلمات على أي حال: «الحياة التي تعيشها، والكراهية التي تضمرها - إنها سم. ولم أعد أستطيع شربه».

ثم أغلق باب الزنزانة وأسرع عبر الممر باتجاه نينا، وباتجاه شيء آخر.

٣٦

جاسبر

قرع أجراس الحادية عشرة.

اتخذ جاسبر وضعية القناص وانتظر بجوار الفتحة الموجودة في الجدار، وهي مكان مثالي لصبي مثله. تساءل: ماذا فعلنا للتو؟ لكنه شعر بالحيوية، وبندقيته على كتفه، وأصبح العالم منطقيًا مرة أخرى.

إذًا أين الحراس؟ توقع جاسبر أن يندفعوا إلى الفناء بمجرد أن تسبب هو وويلان في إطلاق إنذار البروتوكول الأسود.

قال ويلان من خلفه: «لقد تمكنت منه!».

كره جاسبر ترك الأرض المرتفعة قبل أن يعرفا ما سيواجهانه، لكنهما لم يمتلكا متسعًا من الوقت، ووجب عليهما الوصول إلى السطح. فقال: «حسنًا، لنذهب».

وأسرعا في نزول الدرج. وعندما أصبحا على وشك الخروج عبر ممر بوابة الحراسة، جاء ستة حراس يركضون إلى الفناء. فتوقف جاسبر فجأة ومد ذراعه.

قال لويلان: «تراجع».

لكن ويلان أشار إلى الفناء، وقال: «انظر».

لم يتجه الحراس نحو بوابة الحراسة؛ فقد انصب كل اهتمامهم على رجل يرتدي ملابس بلون زيتوني فاتح يقف بجانب أحد الألواح الحجرية. هذا الزي...

ثم رأوا امرأة بقوام متيبس من الضباب المتلألئ تسير عبر الجدار بجانب الرجل الغريب. وقد ارتدت المرأة الملابس نفسها ذات اللون الزيتوني الفاتح.

قال ويلان: «إنهم التايدميكرز من الغريشا المتلاعبين بالمياه».
«إنهم من الشو».
فتـح الحـراس النـار، واختفـى التايدميكـرز، ثـم ظهـرا مـرة أخـرى خلـف الجنـود ورفعـا سـلاحيهما.
صرخ الحـراس وألقـوا أسـلحتهم. وتشـكل ضبـاب أحمـر حولهـم. وأصبـح الضبـاب أكـثر كثافـة وأخـذ الحـراس يصرخـون، ويبـدو أن لحمهـم ينكمـش عـن عظامهـم.
قـال جاسـبر والعصـارة الصفـراء تتصاعـد في حلقـه: «إنهـا دماؤهـم، يـا للقديسـين، إن التايدميكـرز يجففـون دماءهـم». لقـد عـصروا أجسـامهم حتـى يجفـوا.
شـكل الـدم تجمعـات طافيـة في هيئـة أشـكال غامضـة لرجـال، وظـلال ملسـاء تحـوم في الهـواء، واللـون الأحمـر الرطـب للعقيـق، ثـم تناثـر عـلى الأرض في الوقـت نفسـه الـذي سـقط فيـه الحـراس، جلـد مترهـل يتـدلى مـن أجسـادهم الجافـة مشـكلًا ثنايـا بشـعة.
همس جاسبر: «اصعد الدرج ثانية، يجب أن نخرج من هنا».
ولكـن الأوان قـد فـات. اختفـت التايدميكـر الأنثـى. وفي اللحظـة التاليـة، أصبحـت عـلى الـدرج. ووازنـت ثقلهـا عـلى الدرابزيـن بيديهـا وضربـت بحذائهـا صـدر ويـلان، راكلـة إيـاه إلى الـوراء مصطدمًـا بجاسـبر. فسـقطا عـلى حجـارة الفنـاء السـوداء.
طـارت البندقيـة مـن يـديْ جاسـبر ووقعـت مصـدرة صـوت ارتطـام بـالأرض. وحـاول الوقـوف، فقامـت التايدميكـر بضربـه عـلى مؤخـرة رأسـه، فارتمـى عـلى الأرض بجانـب ويـلان بينـما وقـف التايدميكـرز فوقهـما. رفعـا أيديهـما، ورأى جاسـبر أخفـت ضبـاب أحمـر يظهـر فوقـه. لقـد أصبـح عـلى وشـك أن يُجفـف. وشـعر بـأن قوتـه بـدأت تنهـار. ونظـر إلى اليسـار، لكنـه وجـد البندقيـة بعيـدة جـدًا.
قـال ويـلان وهـو يلهـث لالتقـاط أنفاسـه: «جاسـبر. معـدن. اصنـع منـه شـيئًا نهجـم بـه». ثـم بـدأ بالـصراخ.

وفي ومضة، فهم جاسبر مقصده. فهذه معركة لن يستطيع الفوز فيها ببندقية. ولم يعد هناك وقت للتفكير، ولا للتشكك.

تجاهل جاسبر الألم الذي يمزق جلده وركز كل انتباهه على قطع المعدن الملتصقة بملابسه، البرادة والجزيئات الدقيقة من الحلقة المقطوعة من سلسلة البوابة. لم يكن فابريكاتور جيدًا، لكنهم لم يتوقعوا أن يكون فابريكاتور أصلًا. فدفع يديه للأمام، وتطايرت قطع المعدن من ملابسه، وشكل منها سحابة لامعة معلقة في الهواء للحظة ثم أُطلقت باتجاه التايدميكرز.

صرخت التايدميكر الأنثى عندما دخل المعدن في لحمها، وحاولت أن تتحول إلى ضباب. وفعل التايدميكر الآخر الشيء نفسه، محاولًا استخدام خصائص التسييل، ولكن بعد ذلك تصلّب مرة أخرى، وأصبح وجهه رماديًا ومرقطًا بقطع من المعدن. لم يَرِقّ قلب جاسبر. فجعل المعدن يدخل في أعضائهما، باحثًا عن الأعماق. وشعر بأنهما يحاولان التلاعب بجزيئات المعدن. ولو كان ما شكله رصاصة أو نصلًا، فلربما نجحا، لكن قطع وبرادة الفولاذ كانت كثيرة جدًا وصغيرة جدًا. فأمسكت المرأة بطنها وسقطت على ركبتيها. وصرخ الرجل وهو يسعل بقعًا سوداء متخثرة من المعدن والدم.

قالت المرأة وهي تبكي: «ساعداني». وأصبحت أطرافها ضبابية، وجسدها يهتز بينما تكافح لتتلاشى إلى ضباب.

فأنزل جاسبر يديه، وابتعد هو وويلان عن جسدي التايدميكرز اللذين يتلويان.

هل كانا يموتان؟ هل قتل للتو اثنين من جماعته؟ لقد أراد جاسبر فقط النجاة بحياته. ففكر مرة أخرى في اللافتة التي كانت على الجدار، وكل تلك الأشرطة ذات اللون الأحمر والأزرق والأرجواني.

جذبه ويلان من ذراعه. وبدا وجهه شفافًا بعض الشيء، فقد بدت أوردته قريبة جدًا من سطح وجهه. قال ويلان: «جاسبر، يجب أن نذهب».

أومأ جاسبر ببطء.

«الآن».

أجبر جاسبر قدميه على التحرك، وتبع ويلان، وتسلقا الحبل إلى السقف. لقد شعر بالغثيان والدوار. لقد اعتمد الآخرون عليه. وكان عليه أن يواصل التحرك. لكنه شعر كما لو أنه ترك جزءًا من نفسه في الفناء بالأسفل، شيئًا لم يكن يعرف أنه مهم، وهو شيء غير ملموس كالضباب.

نينا

قرع أجراس الحادية عشرة والربع.

عندما فتح ماتياس باب زنزانة نينا، ترددت للحظة. لم تستطع منع نفسها. فطيلة حياتها لن تنسى أبدًا وجه ماتياس في تلك النافذة، أو مدى القسوة التي بدا عليها، أو الريبة التي نمت في قلبها. لقد شعرت بذلك مرة أخرى عندما نظرت إليه وهو يقف عند الباب، ولكن عندما مد يده إليها، عرفت أن الخوف قد انتهى.

ركضت نحوه، فضمها بقوة بين ذراعيه.

ودفن وجهه في شعرها. وشعرت بأن شفتيه تتحركان عند أذنها عندما قال: «لا أريد أن أراكِ هكذا مرة أخرى».

«هل تقصد الفستان أم الزنزانة؟».

اهتز من الضحك، وقال: «بالتأكيد الزنزانة». ثم قام بضم وجهها بين يديه، وهو يتمتم: «يير مولي بي أوونيت. إنيل مورد يس نيج أففا تروهيم فيريتن».

ازدردت نينا ريقها بصعوبة. لقد تذكرت تلك الكلمات وما تعنيه حقًّا: لقد خُلقتُ لحمايتك. ولن يمنعني من الوفاء بهذا القسم إلا الموت فقط. وهذا هو قسم الدروسكل لفيردا. والآن أصبح هذا وعد ماتياس لها.

علمت أنها يجب أن تقول شيئًا عميقًا، شيئًا جميلًا ردًّا على ذلك، ولكن بدلًا من ذلك، قالت الحقيقة: «إذا نجحنا في الخروج من هنا أحياء، فسوف أُقَبِّلك حتى تفقد الوعي».

شقت ابتسامة عريضة وجهه الجميل. ولم تستطع الانتظار لترى اللون الأزرق الحقيقي لعينيه مرة أخرى.

قال لها: «يول- بايور في الخزنة، لنذهب».
وبينما أسرعت نينا نحو نهاية الرواق وراء ماتياس، صعق قرع أجراس البروتوكول الأسود أذنيها. وإذا اكتشف بروم أمرها، فلا بد أن الدروسكل الآخرين قد اكتشفوا ذلك أيضًا. وأيقنت أنه لن يصبح أمامهما الكثير من الوقت قبل أن يأتوا للبحث عن قائدهم.
قالت وهما يندفعان نحو نهاية الممر: «من فضلك قل لي إن كاز لم يختفِ ثانية».
«لقد تركته في قاعة الرقص. سنلتقي به عند شجرة الدردار».
«آخر مرة رأيت الشجرة فيها، كانت محاطة بالدروسكل».
«ربما يتولى البروتوكول الأسود هذا الأمر».
«إذا نجونا من الدروسكل، فلن ننجو من كاز إذا قتلنا يول-بايور――――»
رفع ماتياس يده لها لكي يتوقفا قبل أن يستديرا في المنعطف التالي. فاقتربا ببطء. وعندما استدارا في المنعطف، قامت نينا بعمل سريع للحارس الموجود عند باب الخزنة. وأمسك ماتياس بندقيته، ثم وضع مفتاح بروم في القفل، ووجدا المدخل الدائري للخزنة مفتوحًا.
رفعت نينا يديها استعدادًا للهجوم. انتظرا وقلباهما ينبضان، بينما ينفتح الباب.
كانت الغرفة بيضاء كجميع الغرف الأخرى، ولكن بالكاد فارغة. كانت طاولاتها الطويلة مليئة بدوارق مخبرية موضوعة على شعلات زرقاء منخفضة، وأجهزة تدفئة وتبريد، وقوارير زجاجية مليئة بمساحيق بدرجات متفاوتة من اللون البرتقالي. وتم تخصيص أحد الجدران للوح إردواز ضخم مغطى بمعادلات مكتوبة بالطباشير. والجدار الآخر كله عبارة عن صناديق زجاجية بأبواب معدنية صغيرة. احتوت تلك الصناديق على نباتات يوردا مزهرة، وخمنت نينا أن الصناديق لا بد أنها مُسخنة. وهناك سرير صغير أمام الجدار

الآخر، وأغطيته الرقيقة مجعدة، وتناثرت الأوراق ودفاتر الملاحظات حوله. جلس صبي شو جالسًا القرفصاء عليه. حدق إليهما، وشعره الداكن نازل على جبهته، ودفتر ملاحظات في حجره. ولا يمكن أن يكون عمره أكبر من خمسة عشر عامًا.

قالت نينا بلغة شو: «لسنا هنا لنؤذيك. أين بو يول- بايور؟».

أرجع الصبي شعره من فوق عينيه الذهبيتين، وقال: «لقد مات».

عبست نينا. هل كانت معلومات فان إيك خاطئة؟ فقالت: «إذًا، ما كل هذا؟».

«هل أتيتما لقتلي؟».

لم تتأكد نينا تمامًا من إجابة هذا السؤال، فتجرأت وقالت: «سيش-أوبيه؟».

تجعد وجه الصبي بارتياح، وقال: «أنتما من كيرتش».

أومأت نينا برأسها، وقالت: «لقد جئنا لإنقاذ بو يول- بايور».

سحب الصبي ركبتيه إلى صدره ولف ذراعيه حولهما، وقال: «إنكما لن تستطيعا إنقاذه. توفي والدي عندما حاول الفيردانيون منع الكيرتش من إخراجنا من أحمرات جين». وتردد في كلامه، ثم أضاف: «لقد قُتل في تبادل لإطلاق النار».

والدي. ترجمت نينا لماتياس وهي تحاول استيعاب ما يعنيه ذلك.

سأل ماتياس: «ميت؟»، ومالت كتفاه العريضتان إلى الأمام قليلًا. وعرفت نينا ما فكر فيه - فبعد كل ما عانوه، وكل ما فعلوه، وفي النهاية يكتشفون أن يول- بايور ميت طوال هذا الوقت.

لكن الفيردانيين أبقوا ابنه حيًّا لسبب ما. فقالت: «إنهم يحاولون جعلك تعيد صناعة تركيبته».

«لقد ساعدته في المختبر، لكنني لا أتذكر كل شيء». وعضّ على شفته، وهو يضيف: «وقد كنت أماطل».

أيًّا كان الباريم الذي استخدمه الفيردانيون على الغريشا، فلا بد أنه قد أتى من المخزون الأصلي الذي جلبه بو يول- بايور إلى الكيرتش.

سألته نينا: «هل يمكنك فعل ذلك؟ هل يمكنك إعادة صناعة التركيبة؟».

تردد الصبي وهو يقول: «أعتقد ذلك».

تبادلت نينا وماتياس النظرات.

ازدردت نينا ريقها بصعوبة. لقد كادت تُقتل من قبل، وكادت تُقتل الليلة، لكن هذا مختلف. فلم يوجه هذا الصبي مسدسًا نحوها أو حاول إيذاءها. إن قتله -بجانب أنه سيكون جريمة قتل- سيعني أيضًا خيانة إيناج وكاز وجاسبر وويلان. وهم الأشخاص الذين خاطروا بحياتهم حتى هذه اللحظة للحصول على غنيمة لم يسبق لهم أن رأوها، لكنها فكرت بعد ذلك في سقوط نيستور جثة هامدة في الثلج، وفي الزنازين الممتلئة بالغريشا الضائعين في بؤسهم، وكل ذلك بسبب هذا العقار.

رفعت ذراعيها، وقالت: «أنا آسفة. إذا نجحتَ فلن تكون هناك نهاية للمعاناة التي ستطلق عنانها».

بدت نظرات الصبي ثابتة، وذقنه بارز بعناد، كما لو أنه علم أن هذه اللحظة ستأتي لا محالة. وبدا الشيء الذي يجب فعله واضحًا. اقتلي هذا الصبي بسرعة ومن دون ألم. دمري المختبر وكل ما بداخله. اقضي على سر يوردا باريم. إذا أردتِ قتل كرمة، فأنتِ لا تستمرين في تقليمها. إنكِ تقتلعينها من الأرض من جذورها. ومع ذلك كانت يداها ترتعشان. أليست هذه هي الطريقة التي يفكر بها الدروسكل؟ دمر التهديد، امحه، مهما كان الشخص الذي أمامك بريئًا.

قال ماتياس برقة: «نينا، إنه مجرد طفل. إنه واحد منا».

واحد منا. صبي لم يكن أصغر منها بكثير، تورط في حرب لم

يخترهـا لنفسـه. ومتشـبث بالحيـاة.

سألته: «ما اسمك؟».

«كواي».

فقالـت: «كـواي يول-بـو». هـل نـوت إصـدار حكـم؟ أم الاعتـذار؟ أم طلـب العفـو؟ لم تسـتطع أن تحـدد بالضبـط. وعندمـا اسـتطاعت التعبير عـما بداخلها، كان كل مـا قالتـه هـو: «مـا السرعـة التـي يمكنـك بهـا تدمـير هـذا المختـبر؟».

فأجـاب: «بسرعـة». ورفـع يـده في الهـواء، فانبثقـت ألسـنة اللهـب مـن تحـت أحـد الـدوارق عـلى شـكل قـوس أزرق.

حدقت نينا، وهي تقول: «أنت غريشا. أنت إنفيرني».

فأومـأ كـواي برأسـه، وقـال: «يـوردا باريـم هـي خطـأ جسـيم. لقـد أراد والـدي أن يحـاول إيجـاد طريقـة لمسـاعدتي عـلى إخفـاء قـدراتي. إنـه فابريكاتـور. غريشـا، مثـلي».

أصيـب عقـل نينـا بالتشـوش - بـو يـول- بايـور غريشـا يختبـئ عـلى مـرأى مـن الجميـع خلـف حـدود شـو هـان. ولم يعـد هنـاك وقـت للاسـتغراق في التفكـير.

قالت: «يجب أن ندمر أكبر قدر ممكن من عملك».

فـرد كـواي، الـذي جمـع بالفعـل أوراقًـا وعينـات مـن يـوردا: «هنـاك مـواد قابلـة للاحـتراق. يمكننـي عمـل انفجـار».

فقالـت نينـا: «في الخزنـة فقـط. يوجـد غريشـا هنـا». وحـراس. ومعلـم ماتيـاس. لقـد تمنـت نينـا أن تـدع بـروم يمـوت، ولكـن عـلى الرغـم مـن أن ماتيـاس قـد خـان قائـده، فإنهـا شـكت في أنـه كان يرغـب في رؤيـة الرجـل الـذي أصبـح الأب الثـاني لـه ينفجـر إلى أشـلاء. وتـألم قلبهـا عندمـا فكـرت في الغريشـا الذيـن سـتتركهم خلفهـا، لكـن لم تكـن هنـاك طريقـة لإيصالهـم إلى المرفـأ.

قالت لماتياس وكواي: «اتركا الباقي. يجب أن نتحرك».

فوضـع كـواي مجموعـة مـن القواريـر المملـوءة بالسـائل فـوق اللهـب،

وقال: «أنا جاهز».
تفقدوا الممر وهُرعوا نحو مدخل الخزانة. وفي كل منعطف، توقعت أن ترى دروسكل أو حراسًا يعترضون طريقهم، لكنهم اندفعوا عبر الأروقة دون عقبات. ثم توقفوا عند الباب الرئيسي.
قالت نينا: «هناك متاهة من سياج الأشجار على يسارنا».
أومأ ماتياس برأسه، وقال: «سنستخدمها للتغطية علينا ثم نركض إلى شجرة الدردار».
وبمجرد أن فتحوا الباب، أصبح ضجيج الأجراس لا يطاق. واستطاعت نينا رؤية ساعة الإلدركلوك على أعلى قمة مستدقة فضية للقصر، وأضاءت واجهتها كالقمر. وتنقلت الأضواء الساطعة المنبثقة من أبراج الحراسة عبر الجزيرة البيضاء، وسمعت نينا صياح الجنود وهم يقتربون من القصر.
تشبثت نينا بجانب المبنى، متبعة ماتياس، وهم يحاولون التواري عن الأنظار.
قال كواي بنظرة عصبية إلى الوراء على المختبر: «أسرعا».
قال ماتياس: «من هذا الطريق. المتاهة ـــــــــــــ»
صاح أحدهم قائلًا: «توقفوا!».
لقد فات الأوان. ركض الحراس نحوهم من ناحية المتاهة. ولم يعد هناك شيء ليفعلوه سوى الركض. هربوا عبر مدخل صف الأعمدة ثم إلى الفناء الدائري. كان هناك دروسكل في كل مكان- من أمامهم ومن خلفهم. وسيتم إطلاق النار عليهم في أي لحظة.
وحدث ذلك عندما وقع الانفجار. فشعرت نينا به قبل أن تسمعه: موجة من الحرارة رفعتها وألقتها في الهواء، وتبعها دوي يصم الآذان. وسقطت بقوة على حجارة الرصف البيضاء.
أصبح كل شيء مليئًا بالدخان والفوضى. وصارعت نينا للجثو على ركبتيها، وأذناها ترنان. وتحول أحد جوانب الخزانة إلى أنقاض، ودخان وغبار يتصاعدان إلى سماء الليل.

هرول ماتياس نحوها ومعه كواي. ووقفت على قدميها.

نادى حارسان منفصلان عن مجموعة أخرى تركض في اتجاه الخزانة: «ستين! ماذا تفعلون هنا؟».

قالت نينا تاركة كل إرهاقها ورعبها الحقيقيين يملآن صوتها: «لقد استمتعنا بالحفل فقط! ثم... ثم..."». كان من السهل للغاية أن تترك دموعها تتدفق.

فرفع أحد الحراس بندقيته، وقال: «أروني أوراقكم».

«لا توجد أوراق يا لارس».

ورفع صائد المشعوذين رأسه لأعلى بينما تقدم ماتياس إلى الأمام. «هل أعرفك؟».

«كنت تعرفني في السابق، على الرغم من أنني أبدو مختلفًا بعض الشيء. هيي ماردن، لارس؟».

فسأل: «هيلفار؟ لقد.. لقد قالوا إنك قد مت».

«لقد كنت كذلك».

ثم حوّل لارس نظره من ماتياس إلى نينا، وقال: «هذه هي الهارتريندر التي أحضرها بروم إلى الخزانة». ثم تنبّه لوجود كواي، واستوعب الأمر. وقال لماتياس بغضب: «خائن».

رفعت نينا يدها لخفض نبض لارس، ولكن عندما فعلت ذلك، لمحت حركة في الظلال التي على يمينها. فصرخت عندما ضربها شيء ما. وعندما نظرت إلى الأسفل، رأت حلقات من الأسلاك تغلق عليها، وقيدت تلك الحلقات ذراعيها بإحكام بجسدها. ولم تستطع رفع يديها. وبالتالي لم تستطع استخدام قوتها. وزمجر ماتياس وصرخ كواي عندما تطايرت الأسلاك من الظلام، تطقطق حول جذعيهما، وتقيد أذرعهما.

قال لارس ساخرًا: «هذا ما نفعله يا مُصفّية الدماء. نحن نصطاد الأقذار أمثالك. نحن نعرف كل حيلك». وركل ساقيْ ماتياس من خلفه. فجثا ماتياس على ركبتيه والتقط نفسًا. واستطرد لارس:

«لقد أخبرونا بأنك مت. لقد حزنا عليك وأحرقنا أغصان الدردار من أجلك. لكني أرى الآن أنهم كانوا يحموننا من شيء أسوأ. ماتياس هيلفار، خائن، يساعد أعداءنا، ويتواطأ مع غير الطبيعيين»، وبصق في وجه ماتياس، وهو يسأل: «كيف أمكنك أن تخون بلدك وإلهك؟».

«جيل هو إله الحياة لا الموت».

«هل هناك آخرون هنا من أجل يول- بايور غيرك أنت وهذه المخلوقة؟».

كذبت نينا وقالت: «لا».

قال لارس: «أنا لم أسألك أنتِ أيتها المشعوذة. لا يهم. سنحصل على المعلومات منك بطريقتنا». والتفت إلى كواي، وأضاف: «وأنت. ألا تعتقد أنه لن تكون هناك تبعات».

وأصدر إشارة في الهواء، فظهر صف من الرجال والفتيان من ظلال الأعمدة: إنهم دروسكل يضعون قلنسوات على شعرهم الذهبي الطويل الذي يلمع على ياقاتهم، ويرتدون اللونين الأسود والفضي، كمخلوقات ولدت من الصدوع الجليدية المظلمة التي قسمت الجليد الشمالي. انتشروا وأحاطوا بنينا وماتياس وكواي.

فكرت نينا في زنازين السجن البيضاء، والبالوعات الموجودة في الأرضيات. هل دُمّر كل الباريم مع مختبر كواي؟ كم من الوقت سيستغرقه لعمل دفعة أخرى، وما الذي سيخضعونها له قبل ذلك؟ ألقت نظرة يائسة أخيرة في الظلام وهي تدعو لظهور بعض العلامات على وجود كاز. هل تمكن منه أحد هو الآخر؟ هل تخلى عنهم هناك؟ كان من المفترض أن تصبح محاربة. لقد احتاجت إلى أن تُعدّ نفسها لما سيحدث لاحقًا.

تقدم أحد الدروسكل ومعه ما بدا كأنه سوط ذو يد طويلة متصل بالأسلاك التي تقيدهم، وأعطاه للارس.

سأل لارس: «هل تعرف هذا يا هيلفار؟ لا بد أنك تعرفه. لقد

ساعدتَ في تصميمه. أسلاك قابلة للسحب للتحكم في العديد من السجناء. والأشواك بالطبع».

ونقر لارس بإصبعه على أحد الأسلاك، فشهقت نينا بينما كانت الأشواك الصغيرة الواخزة تدخل في ذراعيها وجذعها. وضحك الدروسكل.

«دعها وشأنها»، قال ماتياس ذلك بلغة فيردان، وكلماته تفيض بالغضب. ورأت للحظة ومضة ذعر في ملامح زملائه السابقين. لقد كان أضخم منهم جميعًا، وكان أحد قادتهم، وأحد أفضل أفراد هؤلاء السفاحين. ثم نقر لارس سلكًا آخر نقرة قوية، فأُطلقت الأشواك، وأطلق ماتياس هبة تنفس متألمة، وتضاعفت الأشواك عند الخصر.

وبدت ضحكات الاستهزاء التي أعقبت ذلك خبيثة وقاسية.

ضرب لارس السوط بشدة، وانكمشت الأسلاك، ما أجبر نينا وماتياس وكواي على الترنح خلفه في عرض محرج.

سأل لارس في أثناء مرورهم بشجرة الدردار المقدسة: «هل ما زلت تصلي لإلهنا يا هلفار؟ هل تعتقد أن جيل يسمع بكاء الرجال الذين يسلمون أنفسهم لدنس الغريشا؟ هل تعتقد ـــــــــــــــــــ»

وفجأة دوت صرخة حيوانية حادة. واستغرق الأمر من نينا والآخرين وقتًا طويلًا ليدركوا أنها صدرت من لارس. لقد فتح فمه وتدفقت الدماء على ذقنه وعلى الأزرار الفضية اللامعة لزيِّه. وتركت يده السوط، واندفع الدروسكل الذين بجانبه ليأخذوه.

صدر صوت يقول: بوب بوب بوب، وهو صوت حاد من أسفل الشجرة المقدسة. تعرفت نينا على هذا الصوت - لقد سمعته على الطريق الشمالي قبل أن يقطعوا الطريق على عربة السجن، عندما أسقطوا الشجرة؛ حيث صدر صوت صرير وتأوُّه من شجرة الدردار، وبدأت جذورها القديمة تنحني.

صرخ أحد الدروسكل قائلًا: «نيج!». ووقفوا فاغري الأفواه،

ينظـرون إلى الشـجرة المحطمـة. وصرخ صـوت آخـر قائـلًا: «نيـج!».
وبـدأت شـجرة المـران في الميـل والانحنـاء. لقـد كـبرت جـدًا عـلى أن تُقطـع بواسـطة تركيـز الملـح وحـده، ولكـن مـع ميلانهـا، ظهـر صـوت خافـت مـن الحفـرة السـوداء الكبـيرة التـي تحتهـا.
فهـذا هـو المـكان الـذي يـأتي الدروسـكل إليـه لسـماع صـوت إلههـم. وهـا هـو الآن يتحـدث.
قـال الدروسـكل الـذي يمسـك بالسـوط: «هـذه سـوف تلسـع بعـض الـشيء». وبـدا صوتـه فظًـا ومألوفًـا. وارتـدى قفـازًا في يديـه. «ولكـن إذا تمكنـا مـن النجـاة، فسـوف تشـكرانني لاحقًـا». وانزلقـت قلنسـوته، فـإذا بهـم يـرون كاز بريكـر ينظـر إليهـم. فرفـع الدروسـكل المذهولـون بنادقهـم.
نـادى كاز قائـلًا: «لا تفرقعـا البالـين قبـل أن تصـلا إلى القـاع». ثـم أمسـك كـواي وألقـى بهـما في الحفـرة السـوداء التـي تحـت جـذور الشـجرة.
صرخـت نينـا بينـما ينسـحب جسـدها إلى الأمـام بواسـطة الأسـلاك. فخدشـت بيدهـا عـلى الحجـارة محاولـةً التشـبث بـشيء. وكان آخـر شيء لمحتـه هـو سـقوط ماتيـاس في الحفـرة بجوارهـا. وسـمعت إطـلاق نـار - ثـم سـقطت في الظـلام، في الـبرد، في حلـق جيـل، في الـلا شيء عـلى الإطـلاق.

كاز

قرع أجراس الحادية عشرة وثلاثة أرباع

فكر كاز في محاولة التنصت على ماتياس وبروم في قاعة الرقص، لكنه لم يرد أن تغيب نينا عن ناظريه؛ حيث إن هناك الكثير من الدروسكل حولها. لقد راهن على مشاعر ماتياس تجاه نينا، لكنه أحب هذه الاحتمالات دائمًا. فالخطر الحقيقي يكمن فيما إذا كان شخص نزيه مثل ماتياس يستطيع أن يكذب بشكل مقنع على معلمه أم لا. ومن الواضح أن الفيردانيين لديهم مهارات خفية.

فتعقب كاز نينا وبروم إلى الخزانة، ثم اختبأ خلف تمثال جليدي وركز على المهمة السيئة المتمثلة في تقيؤ أكياس قنابل ويلان الجذرية التي ابتلعها قبل أن ينصبوا كمينًا لعربة السجن. كان لا بد له أن يخرجها، إلى جانب كيس من الكلوروبيليتس ومجموعة إضافية من فتاحات الأقفال التي كان قد دفعها إلى أسفل مريئه ليستخدمها في حالات الطوارئ - من وقت لآخر لكي لا يهضمها. ولم يجد الأمر لطيفًا. لقد تعلم هذه الحيلة من ساحرٍ من إيست ستاف كان ينفث النار واستمر بفعل ذلك لسنوات قبل أن يسمم نفسه عن طريق الخطأ عن طريق ابتلاع الكيروسين.

وبمجرد أن انتهى كاز، فحص محيط الخزانة والسقف والمدخل، ولكن في نهاية المطاف لم يعد هناك ما يفعله سوى البقاء مختبئًا وفي حالة تأهب والقلق بشأن أي شيء قد يسير عل نحو خاطئ. فتذكر إيناج وهي تقف على سطح السفارة، متوهجة ببعض الحماسة الجديدة التي لم يفهمها، ولكن مع ذلك تمكن من إدراك سبب هذه الحماسة؛ إنه هدفهم الذي يسعون إليه. لقد غمرها

بالنور. سآخذ حصتي وسأترك الدريجز. عندما تحدثت عن مغادرة كتردام من قبل، لم يصدقها تمامًا، ولكن هذه المرة مختلفة تمامًا.

لقد اختبأ في ظلال صف الأعمدة الغربي عندما بدأت أجراس البروتوكول الأسود في القرع، وهي تدوي على الجزيرة كأنها تهز الهواء. وظهرت الأضواء من أبراج الحراسة في فيض مشرق. فترك الدروسكل الموجودون حول شجرة الدردار طقوسهم وبدؤوا إعطاء الأوامر، ونزلت مجموعات من الحراس من الأبراج لتنتشر على الجزيرة. لقد انتظر، وهو يعد الدقائق، ولكن لم يكن هناك أثر لنينا أو ماتياس. ففكر كاز: إنهم في ورطة، أو أنك مخطئ تمامًا بشأن ماتياس، وأنت على وشك أن تدفع ثمن كل نكات الشجرة التي تتحدث التي كنت تحكيها.

كان لا بد من أن يدخل الخزانة، لكنه احتاج إلى نوع من الغطاء بينما يفتح ذلك القفل الغامض، وكان الدروسكل موجودين في كل مكان. ثم رأى نينا وماتياس وشخصًا افترض أنه لا بد أنه بو يول-بايور يركضون من الخزانة. وكان على وشك أن يناديهم عندما وقع الانفجار، وذهب كل شيء إلى الجحيم.

وبينما يتساقط الحطام من حوله، فكر قائلًا: لقد فجروا المختبر، بالتأكيد لم أطلب منهم أن يفجروا المختبر.

وباقي القصة استنتاج بحت، وليس لديه الكثير من الوقت لتفسير كل شيء. فكل ما قاله كاز لماتياس هو أن يقابله عند شجرة الدردار عندما يبدأ جرس البروتوكول الأسود في القرع. واعتقد أنه سيكون لديه الوقت ليطلب منهما استخدام البالين قبل أن يسقطا في الظلام. والآن عليه فقط أن يتمنى ألا يصابا بالذعر وأن يحالفهما الحظ في مكان ما بالأسفل.

بدا السقوط طويلًا للغاية. وتمنى كاز أن يكون الفتى الذي من شو الذي أمسك به هو بو يول- بايور صغيرًا وليس سجينًا تعيسًا قررت نينا وماتياس تحريره. فقام بإقحام القرص في فم الصبي

في أثناء ركضهما، وفرقعه بأصابعه. ونقر كاز على السوط، مطلقًا جميع الأسلاك، وسمع الآخرين يصرخون بينما تُسحب الشرائط. على الأقل لن يقفزوا في المياه وهم مقيدون. انتظر كاز قدر استطاعته قبل أن يعض البالين الخاص به. وعندما اصطدم بالماء الجليدي، خشيَ أن يتوقف قلبه.

لم يتأكد مما توقعه، لكن قوة النهر بدت مرعبة؛ حيث تدفقت مياهه بسرعة وبقوة كانهيار جليدي. وصم الضجيج الآذان حتى تحت الماء، ولكن مع الخوف جاء نوع من التبرير الطائش. لقد كان على صواب.

إنه صوت الإله. كانت هناك دائمًا حقيقة في الأسطورة. لقد قضى كاز وقتًا كبيرًا في بناء أسطورته الخاصة. لقد تساءل من أين أتت المياه التي تغذي الخندق المائي والنوافير الخاصة بمحكمة الجليد، ولماذا كان وادي النهر عميقًا وواسعًا جدًّا. وبمجرد أن وصفت نينا الطقوس المبدئية لدى الدروسكل، عرف أن: معقل الفيردانيين لم يتم بناؤه حول شجرة كبيرة ولكن حول نبع. إن جيل هو الينبوع الذي يغذي البحار والأمطار وجذور شجر الدردار المقدس.

كان للماء صوت. وهذا شيء يعرفه كل جرذ في قناة، وأي شخص نام تحت جسر أو نجا من عاصفة شتوية في قارب مقلوب، فيمكن للمياه أن تتحدث بصوت عاشق أو أخ مفقود منذ زمن طويل. هذا هو السر، وبمجرد أن عرفه كاز، بدا الأمر كما لو أن شخصًا ما قد وضع مخططًا مثاليًا فوق محكمة الجليد. ولو كان كاز على حق، فإن جيل سيقذف بهم في الممر. هذا إذا افترضنا أنهم لن يغرقوا أولًا.

وهذا احتمال واقعي للغاية، فالبالين يمنح المرء هواءً كافيًا لمدة عشر دقائق فقط، وربما اثنتي عشرة دقيقة إذا استطاعا الحفاظ على هدوئهما، وهو ما شك في أنهما سينجحان فيه. خفق قلبه بقوة، وشعرت رئتاه بالضيق بالفعل. وتخدر جسده وتألم بسبب

درجـة حـرارة المـاء، وازداد الظـلام حلكـة. لم يعـد هنـاك شيء سـوى صـوت هديـر المـاء وشـعور مقـزز بالسـقوط.

لم يتأكـد مـن سرعـة المياه، لكنـه علـم جيـدًا أن الأرقـام متقاربـة. فالأرقـام دائمًـا حليفـة لـه، الاحتـمالات والهوامـش وفـن الرهـان، لكـن الآن يجـب عليـه أن يعتمـد عـلى شيء آخـر. مـا الإلـه الـذي تعبـده؟ لقد سـألته إينـاج ذلـك السـؤال ذات مـرة. ففكـر: أي إلـه يمنحنـي الحـظ الجيـد. فالأشـخاص المحظوظـون لم ينتـه بهـم الأمـر في سـباق تحـت خنـدق مـائي جليـدي في أرض الأعـداء.

مـا الـذي سـينتظرهم عندمـا يخرجـون في الـوادي؟ مَـن سـيكون في انتظارهـم؟ لقـد تمكـن جاسـبر وويـلان مـن إثـارة تطبيـق البروتوكـول الأسـود. لكـن هـل تمكنـا مـن القيـام ببقيـة الأمـور؟ هـل سـيرى إينـاج عـلى الجانـب الآخـر؟

النجـاة. النجـاة. النجـاة. كانـت تلـك هـي الطريقـة التـي عـاش بهـا حياتـه، لحظـة بلحظـة، ونفسًـا بنفـس، منـذ ذلـك الصبـاح الرهيـب عندمـا اسـتيقظ ليجـد أن جـوردي مـا زال ميتًـا وأنـه مـا زال عـلى قيـد الحيـاة.

لقـد غـاص كاز في الظـلام. وصـار أكـثر بـرودة مـما كان عليـه في أي وقـت مـضى. فكـر في يـد إينـاج وهـي عـلى خـده. وعقلـه مشـوش بالأحاسـيس، واضطـراب الارتبـاك. لقـد كان رعبًـا واشـمئزازًا -مـع كل هـذا الصخـب- ورغبـة، بـل رغبـة مسـتمرة في أن تلمسـه مـرة أخـرى.

عندمـا كان في الرابعـة عـشرة مـن عمـره، جمـع كاز فريقًـا لسرقـة البنـك الـذي سـاعد هيرتـزون عـلى نهبـه هـو وجـوردي. هـرب فريقـه ومعهـم خمسـون ألـف كـروج، لكـن انكـسرت سـاقه وهـو ينـزل مـن السـطح. ولم يتـم تثبيـت العظـم بشـكل صحيـح، وأصبـح يعـرج مـن وقتهـا؛ لـذا بحـث عـن فابريكاتـور وصنـع لـه عصـا المـشي الخاصـة بـه. وأصبـح ذلـك بمثابـة إعـلان. لم يكـن هنـاك جـزء منـه لم ينكـسر، ولم يشـف بشـكل خطـأ، ولم يكـن هنـاك جـزء منـه أقـوى مـن كـسره.

أصبحت عصا المشي جزءًا من الأسطورة التي بناها عن نفسه. لم يعرف أحد مَن هو. ولم يعرف أحد من أين أتى. لقد أصبح كاز بريكر، الرجل الأعرج والواثق بنفسه، لقيط الباريل.

وكانت القفازات هي إذعانه الوحيد للضعف. فمنذ تلك الليلة التي قضاها بين الجثث والسباحة من ذا ريبرز بارج، لم يتمكن من تحمل شعور وضع الجلد على الجلد. كان ذلك الأمر بمثابة تعذيب له، ومثيرًا للاشمئزاز. لقد كان ذلك هو الجزء الوحيد من ماضيه الذي لم يستطع تحويله إلى شيء خطير.

بدأ البالين يتركز في شكل خرزات صغيرة حول شفتيه، وكانت المياه تسيل منهما. تُرى إلى أين أخذهما النهر؟ كم المسافة المتبقية لهما للخروج؟ إنه لا يزال ممسكًا بياقة بو يول- بايور بإحدى يديه. والفتى الذي من شو أصغر من كاز؛ فتمنى أن يكون لديه ما يكفي من الهواء.

أثارت ومضات مشرقة من الذاكرة ذهن كاز: ككوب من الشيكولاتة الساخنة في يديه المرتديتين للقفازات، وجوردي يحذره ليتركه يبرد قبل أن يأخذ رشفة. وتجفيف الحبر الموجود في الورقة بينما وقع سند الملكية ذا كرو كلوب. والمرة الأولى التي رأى فيها إيناج في الميناجيري، وهي ترتدي الحرير الأرجواني، وعيناها مكحلتان. والسكين المصنوعة من العظام التي أعطاها إياها. والنحيب الذي جاء من خلف باب غرفتها في ذا سلات في الليلة التي قَتلت فيها شخصًا لأول مرة. وذلك النحيب الذي تجاهله. كما تذكرها كاز وهي جالسة على حافة نافذة الغرفة العلوية الخاصة به في وقت ما خلال تلك السنة الأولى بعد أن جلبها إلى الدريجز. وإطعامها الغربان التي تجمعت على السطح.

قال لها: «لا يجدر بكِ تكوين صداقات مع الغربان».

فسألته: «ولِمَ لا؟».

رفع ناظريه من على مكتبه ليرد عليها، ولكن اختفى كل ما

سيقوله من على لسانه.

بدت الشمس كأنها تشرق لأول مرة، وأدارت إيناج وجهها إليها. وأغمضت عينيها، وانتشرت رموشها الزيتية السوداء على خديها. ورفعت رياح المرفأ شعرها الداكن، وللحظة عاد كاز صبيًا مرة أخرى، وتأكد من وجود سحرٍ في هذا العالم.

كررت سؤالها وعيناها ما زالتا مغمضتين: «ولِمَ لا؟».

فقال أول شيء خطر بباله: «ليس لديها أي أخلاق».

فضحكت، وقالت: «ولا أنت يا كاز». ولو كان بإمكانه أن يحتفظ بصوت ضحكتها ويثمل عليه كل ليلة، لفعل. ولكن أرعبته تلك الفكرة.

أخذ كاز نفسًا أخيرًا مع ذوبان البالين وتدفق المياه. وحدق بعينين نصف مغمضتين باتجاه تدفق المياه، على أمل أن يرى شيئًا من ضوء النهار. فضربه النهر بجدار القناة. وزاد الضغط على صدره. وقال لنفسه: أنا أقوى من هذا. وإرادتي أقوى من هذا، لكن بدا كأنه يسمع صوت جوردي وهو يضحك. لا يا أخي الصغير. لا أحد أقوى من هذا. لقد هربت من الموت مرات عديدة. قد يفعل الجشع ما تريده، لكن الموت لا يخدم أحدًا.

كاد كاز يغرق في تلك الليلة في المرفأ، وهو يركل بقوة في الظلام، وتحمله جثة جوردي عاليًا. ليس هناك أحد ولا شيء يحمله الآن. حاول أن يفكر في أخيه والانتقام من بيكا رولينز وهو مقيد على كرسي في المنزل في زيلفرسترات، والطلبات التجارية تُحشر في حلقه حيث أجبره كاز على تذكر اسم جوردي، لكن كل ما كان يستطيع التفكير فيه هو إيناج. يجب أن تعيش. يجب أن تخرج من محكمة الجليد. وإذا لم تكن قد خرجت، فعليه أن يعيش لإنقاذها.

أصبح الألم في رئتيه لا يُحتمل. وأصبح بحاجة إلى أن يخبرها.. بماذا؟ إنها فاتنة وشجاعة وأفضل من أي شيء يستحقه. وهو مخادع ومحتال وسيئ، لكنه لم ينكسر لدرجة أنه لم يستطع أن يستجمع

شتات نفسه في صورة رجل من أجلها. وإنه دون قصد بدأ يعتمد عليها ويبحث عنها ويحتاج إليها قريبة منه. كان بحاجة إلى شكرها على قبعته الجديدة.

ضغط الماء على صدره مجبرًا إياه على أن يفتح شفتيه. فأقسم لنفسه: لن أفعل. ولكن في النهاية، فتح كاز فمه واندفع الماء لداخله.

الجزء السادس
لصوص شرفاء

-٣٩-

إيناج

كاد قلب إيناج يقفز من بين ضلوعها. ففي التأرجحات الهوائية هناك لحظة تترك فيه أرجوحة وتمد يدك نحو الأخرى، وتدرك أنك ارتكبت خطأ، وتشعر بأنك لم تعد خفيف الوزن وعندئذ تبدأ الوقوع فحسب.

سحبها الحراس عبر بوابة السجن؛ فوجدت العديد من الحراس والبنادق المصوبة نحوها أكثر من المرة الأولى التي عبرت فيها هذا الفناء عندما خرجت من عربة السجن مع بقية الفريق. عبروا بوابة فم الذئب وصعدوا السلالم وجروها في الممر عبر الرواق الضخم الذي يحيطه السياج الزجاجي. وترجمت لها نينا اللافتة التي تقول: القوة الفيردانية. ابتسمت إيناج ابتسامة متكلفة في المرة الأولى التي عبرت فيها وهي تحدق إلى الدبابات والأسلحة وعينها الأخرى مركزة على كاز والآخرين في الممر المعاكس. وتساءلت عن نوعية الرجال الذين يتباهون بقوتهم أمام أسرى عاجزين مقيدين بالأصفاد.

تحرك الحراس بسرعة شديدة. وللمرة الثانية في هذه الليلة أوقعت إيناج نفسها.

قال الجندي بغضب بلغة كيرتش وهو يجرها إلى الأمام: «تحركي».

«أنت تتحرك بسرعة شديدة».

هز ذراعها بقوة وقال: «توقفي عن المماطلة».

وسألها الآخر: «ألا تريدين مقابلة محققينا؟ سوف يجبرونك على التحدث».

«لكنكِ لن تعودي جميلة بعد أن ينتهوا منكِ».

وارتفعت ضحكاتهم وشعرت إيناج بالغثيان والاشمئزاز. واستنتجت

أنهـم يتحدثـون بلغـة كيرتـش للتأكـد مـن فهـم مـا يقولونه.

وتخيلـت أنهـا ربمـا تسـتطيع التغلـب عليهـم رغـم بنادقهـم وحتـى مـن دون سـكاكينها. لم تكـن يداهـا مقيدتـين وكانـوا لا يزالـون يعتقـدون أنهـم يمسـكون بعاهـرة سـيئة السـمعة. لقـد أطلقـت هيلـين عليهـا لقـب مجرمـة، ولكـن بالنسـبة إليهـم فإنهـا لصـة صغـيرة ترتـدي قطعًـا مـن الحريـر القرمـزي.

وبينـما تفكـر في القيـام بخطوتهـا، سـمعت خطـوات أخـرى قادمـة باتجاههـم. فـرأت ظـل رجلـين آخريـن يرتديـان الـزي الرسـمي ويتجهـان نحوهـم. فهـل تسـتطيع التغلـب عـلى أربعـة حـراس وحدهـا؟ لم تتأكـد مـن ذلـك، لكنهـا عرفـت أنهـم لـو تركـوا هـذا الـرواق وراءهـم، لانتهـى أمرهـا.

وألقـت نظـرة أخـرى عـلى اللافتـة المعلقـة في السـياج الزجاجـي. وإمـا أن تتحـرك الآن أو ينتهـي أمرهـا للأبـد.

لـوت رجلهـا حـول عقـب الحـارس الـذي يمـشي عـلى يسـارها؛ فـمال إلى الأمـام ورفعـت يدهـا لأعـلى فكـسرت أنفـه.

رفع الحارس الآخر بندقيته، وقال: «سوف تدفعين ثمن هذا».

«لن تطلق الرصاص عليَّ. فأنتم بحاجة إلى المعلومات».

فقـال سـاخرًا وهـو يصـوب بندقيتـه نحـو الأسـفل: «أسـتطيع إصابتـك في رجلـك».

ولكـن فجـأة وقـع عـلى الأرض ومقـص قديـم يـبرز مـن ظهـره. ولـوح لهـا الجنـدي الـذي يقـف وراءه بابتهـاج.

تنهدت بارتياح وقالت: «جاسبر. أخيرًا».

قال ويلان: «وأنا أيضًا هنا كما تعرفين».

تـأوه الحـارس ذو الأنـف المكسـور الـذي وقـع عـلى الأرض وحـاول أن يرفـع بندقيتـه؛ فركلتـه إينـاج بقـوة عـلى رأسـه فلـم يتحـرك مـرة أخـرى.

سـأل جاسـبر: «هـل اسـتطعت أن تضعـي يديـك عـلى الماسـة كبـيرة

بما فيه الكفاية؟».

أومأت إيناج وأخرجت قلادة مجوهرات ضخمة من كمها.

قالت: «أسرع. إن لم تلاحظ هيلين أنها فقدتها فسوف تنتبه لذلك قريبًا».

لكن مع تفعيل البروتوكول الأسود لم يعد بإمكانها فعل الكثير بهذا الشأن.

خطف جاسبر القلادة من يد إيناج فاغرًا فاه من الدهشة وقال: «قال كاز إننا نحتاج إلى الماسة. ولم يطلب منك أن تسرقي الماسات هيلين فان هودين!».

«ابدأ العمل فحسب».

لقد حدد كاز لإيناج هدفين: سرقة الماسة كبيرة بما فيه الكفاية ليستخدمها جاسبر، ودخول هذا الرواق بعد أن يقرع جرس ساعة الإلدركلوك الحادية عشرة. وهناك الكثير من الألماسات الأخرى التي بإمكانها سرقتها لتنفيذ أهدافهم ولإثارة اضطرابات أخرى لجذب انتباه الحراس. لكن هيلين هي الشخص الذي تريد إيناج خداعه. فرغم جميع الأسرار التي جمعتها والوثائق التي سرقتها وأعمال العنف التي ارتكبتها، فإن هيلين فان هودين هي الشخص الذي يجب أن تتفوق عليه.

وقد سهلت هيلين عليها الأمور. ففي أثناء الشجار في القاعة، حرصت إيناج على أن ينصب تركيز هيلين على تعرضها للاختناق لكي لا تقلق بشأن تعرضها للسرقة. وعلى أي حال، فقد اتجه كل اهتمام هيلين إلى الشماتة. وندمت إيناج على شيء واحد فقط: أنها لن توجد هناك لترى وجه الخالة هيلين عندما تكتشف فقدان قلادتها الثمينة.

أضاء جاسبر أحد المصابيح وذهب للعمل بجانب ويلان. وعندئذ فقط أدركت إيناج أن كلًّا منهما مغطى بالسخام من رحلتهما في برج المحرقة في السجن. وقد أحضر الاثنان معهما اثنتين من لفائف

الحبـال أيضًـا. وبينـما يعمـلان، أغلقـت إينـاج الأبـواب الموضوعـة في الأقـواس عـلى جانبـي الـرواق. فأمامهـم دقائـق قليلـة قبـل أن تمـر دوريـة أخـرى وتكتشـف أن هنـاك بابًـا يجـب ألا يُغلَـق.

صنـع ويـلان مسـمارًا لولبيًـا معدنيًـا طويـلًا ومـا يشـبه مقبـض ذراع تدويـر ضخـمًا وحـاول تركيبهـما معًـا ليصنـع مـا اعتقـدت إينـاج أنـه سـيكون مثقابًـا قبيـح الشـكل ولكـن فعـال.

وعندئذ سمعوا صوت طرق على أحد الأبواب.

قالت إيناج: «أسرعا».

قـال جاسـر وهـو يركـز عـلى الألماسـات: «في الحقيقـة إن قـول هـذا لا يجعلنـي أعمـل بسرعـة أكـبر. لـو كسرتهـا لفقـدت بنيتهـا الجزيئيـة. فيجـب قطعهـا بحـرص وتجميـع الحـواف معًـا في لقمـة مثقـاب مثاليـة. وأنـا لم أتـدرب عـلى ـــــــــــــــــــــــ»

قاطعه ويلان وهو لا يرفع نظره عن عمله: «غلطة مَن هذه؟».

«مرة أخرى هذا لا يساعد بشيء».

وعندئـذ بـدأ الحـراس يطرقـون عـلى البـاب بقـوة. ورأت إينـاج عـبر السـياج رجـالًا يسرعـون نحـو الممـر الآخـر وهـم يشـيرون ويصيحـون، لكنهـم لا يسـتطيعون إطـلاق الرصـاص عـبر حائطـين مـن الحوائـط الزجاجيـة المضـادة للرصـاص.

إن الزجـاج مصنـوع بيـد الغريشـا. وقـد أدركـت نينـا هـذا عندمـا مـروا عـبر الاسـتعراض -القـوة الفيردانيـة التـي تحميهـا براعـة الغريشـا- والـشيء الوحيـد الأقـوى مـن هـذا الزجـاج هـو الألمـاس.

وبـدأت الأبـواب عـلى الجانبـين تهتـز بشـدة. فقالـت إينـاج: «إنهـم قادمـون!».

فثبـت ويـلان لقمـة الألمـاس في المثقـاب المؤقـت، وصـدر عـن المثقـاب صـوت كشـط عندمـا وضعـوه عـلى الزجـاج وبـدأ جاسـر يديـر المقبـض. وسـار الأمـر كلـه يتقـدم ببـطء مـؤلم.

صاحت إيناج: «هل يعمل أصلًا؟».

«الزجاج سميك!».

واصطدم شيء بالباب الذي على يمينهم بعنف. فقال ويلان كأنه ينتحب: «إنهم يمتلكون آلة دك».

قالت إيناج لتشجيعه: «استمر في العمل». ثم بدأت في خلع حذائها.

وأدار جاسبر الذراع بسرعة أكبر بينما تطن لقمة المثقاب. وبدأ يحركها على شكل منحنٍ ليرسم بدايات دائرة ثم نصف قمر. أسرع.

وبدأ خشب الباب الموجود بنهاية الممر يتكسر إلى شظايا.

صاح جاسبر: «خذ المقبض يا ويلان!».

أخذ ويلان مكانه وأدار المثقاب بأكبر سرعة ممكنة.

وأمسك جاسبر ببنادق الحراس الواقعين على الأرض وصوبها نحو الباب.

صاح جاسبر: «إنهم قادمون!».

وعلى الزجاج، التقى الخطان. ثم اكتمل شكل القمر. وتحرك زجاج الدائرة وانحنى نحو الداخل. ولم يقع على الأرض عندما استعدت إيناج للانطلاق.

قالت: «أفسحوا الطريق!».

ثم جرت بأقدام خفيفة وشرائطها الحريرية مثل الريش. في هذه اللحظة لم تبالِ إيناج بشيء. لقد خدعت هيلين فان هودين. وقد أخذت شيئًا صغيرًا ورمزًا سخيفًا لكنه شيء تقدره هيلين. لم يكن كافيًا -ولن يكون كافيًا على الإطلاق- لكنه مجرد بداية. فهناك صاحبات مواخير وتجار رقيق آخرون يجب خداعهم. وبدت شرائطها الحريرية مثل الريش وبدأت تشعر بالحرية.

ركزت إيناج على الدائرة المصنوعة بالزجاج -قمر خيالي، ولكنه باب إلى المستقبل- وعندئذ قفزت. اتسعت الفجوة بالكاد لجسدها وسمعت إيناج صوت حفيف ناعمًا حيث حواف الزجاج الحاد تقطع الشرائط الحريرية التي تسحبها وراءها. فأحنت إيناج

جسدها ومدت يديها. فسوف تحصل على فرصة واحدة للإمساك بالمصباح الحديدي الذي يتدلى من سقف السياج. إنها قفزة مستحيلة وجنونية، لكنها مرة أخرى ابنة أبيها التي لا تقيدها قوانين الجاذبية. فطارت في الهواء للحظة مرعبة ثم أمسكت يداها بقاعدة المصباح.

ومن خلفها، سمعت إيناج باب الممر ينفتح بقوة وصوت طلقات الرصاص. قالت لنفسها: عطلهم يا جاسبر. اكسب لي بعض الوقت.

وتأرجحت للأمام والخلف لتكتسب قوة دفع. وسمعت صوت رصاصة تمرق بجانبها. هل هي مصادفة؟ هل اجتاز أحدهم ويلان وجاسبر وأطلق عليها النار عبر الفجوة؟

عندما اكتسبت قوة دفع كافية، تركت المصباح. اصطدمت بالحائط بقوة. ولكنها لم تجد طريقة ألطف من ذلك. فتشبثت يداها بالحافة الصخرية التي تعرض عليها الفؤوس القديمة. ومن هناك وجدت الأمر سهلًا: فتنقلت من حافة إلى دعامة إلى حافة سفلية ثم هبطت بصوت منخفض يشبه الرنين عندما وصلت قدماها الحافيتان إلى سطح دبابة عملاقة. وانزلقت عبر القبة المعدنية في وسط الدبابة.

أدارت مقبضًا ثم آخر في محاولة للعثور على أدوات التحكم المناسبة. وفي النهاية أدارت إحدى فوهات المدافع لأعلى. فجذبت الزناد واهتز جسدها كله عندما انهالت الطلقات على السياج الزجاجي كالمطر ودوى صوتها في جميع الاتجاهات. ورأت أن هذا أفضل تحذير يمكنها تقديمه لجاسبر وويلان.

تمنت إيناج لو أنها فقط تمكنت من تشغيل الأسلحة الكبيرة. فتلوت بجسدها لتتمكن من دخول مقصورة قيادة الدبابة. وأدارت المقبض الوحيد الظاهر، فمالت مقدمة السلاح الطويل باتجاه المكان الصحيح. ووجدت الرافعة هناك مثلما أخبرها جاسبر بالضبط. فسحبتها بقوة. وصدر صوت قرقعة صغير مفاجئ. ثم لم يحدث

شيء طوال لحظة طويلة مريعة. قالت لنفسها: ماذا لو كان السلاح غير معبأ؟ لو أن جاسبر محق بشأن هذا السلاح فسوف يصبح الفيردانيون أغبياء إذا تركوا هذه القوة النارية الهائلة هنا فحسب.

صدر صوت من مكان ما في الدبابة. فسمعت شيئًا يدور واعتقدت أنها ربما فعلت شيئًا خطأ. فقد اعتقدت أن المدفع سيدور أسفل تلك الماسورة الطويلة وينفجر في حجرها. لكنها سمعت صوت فحيح وصرير كأن المعدن يحتك بنفسه. فاهتز المدفع الضخم. وشق الهواء صوت انفجار يصم الآذان مع دخان رمادي غامق.

ضرب المدفع الزجاج وحطمه إلى آلاف القطع اللامعة. قالت لنفسها: أجمل من الألماس. وأعجب ذلك إيناج التي تساءلت عما إذا لو كان جاسبر وويلان قد وجدا المكان والوقت المناسبين للاختباء.

وانتظرت حتى يهدأ الغبار، ولكن الصوت لا يزال يصم أذنيها. وتحطم الحائط الزجاجي. ثم هدأ كل شيء. ثم تدلى حبلان من الممر وتبعه ويلان وجاسبر: وبدا جاسبر كأنه حشرة رشيقة، بينما بدا ويلان مثل دودة تحاول شق طريقها خارج الشرنقة ببطء.

صاحت إيناج بالفيردانية: «مرحبًا!». وافتخرت نينا بها.

أدارت إيناج السلاح. وعلى الجانب الآخر للحائط الزجاجي المتبقي، صاح الرجال من الممر. وعندما دارت ماسورة المدفع باتجاههم، هربوا وتفرقوا.

سمعت إيناج صوت خطوات وقعقعة عندما تسلق جاسبر وويلان الدبابة. ثم ظهر رأس جاسبر وهو يتدلى لأسفل من القبة.

قال جاسبر: «هل تسمحين لي بالقيادة؟».

«إن أصررت».

تحركت إيناج جانبًا حتى يستطيع الجلوس خلف أدوات التحكم.

قال جاسبر بسعادة: «آه، مرحبًا عزيزتي». ثم جذب رافعة أخرى

وبدا أن الحياة دبت حولهم في العربة المدرعة التي نفثت دخانًا أسود. وتساءلت إيناج بداخلها: أي نوع من الوحوش هذا؟
صاحت إيناج: «يا لتلك الضوضاء!».
قال جاسبر وهو يضحك: «ذلك المحرك».
ثم تحركت الدبابة - وهم لا يرون أي حصان في الأفق.
دوى صوت إطلاق الرصاص من أعلى. ومن الواضح أن ويلان وجد أدوات التحكم. قال جاسبر لإيناج: «بحق القديسين، ساعديه في التصويب!».
فحشرت إيناج نفسها بجوار ويلان في برج القبة وصوبت المدفع الثاني الصغير للمساعدة على تغطية هروبهم بينما يندفع الحراس نحو السياج.
تراجع جاسبر بالدبابة إلى أبعد مسافة ممكنة، وأطلق المدفع الكبير مرة أخرى، فحطم المدفع السياج الزجاجي وعبر الممر واصطدم بالحائط الخارجي. وتناثر غبار أبيض وشظايا حجرية في كل مكان. ثم أطلق مرة أخرى، فضرب المدفع الثاني بقوة وانتشرت الصدوع في صخور الحائط، وأحدث جاسبر ثغرة في الحائط الخارجي -ثغرة كبيرة- لكن ليست فجوة.
صاح جاسبر: «مستعدون؟».
فأجابت إيناج وويلان في صوت واحد: «مستعدون». وانخفض الاثنان تحت برج السلاح. وأصيبت خدود ويلان ورقبته بخدوش من الزجاج المكسور. ورغم ذلك، ابتسم ويلان. أمسكت إيناج بيديه وضغطت عليهما. لقد أتوا إلى محكمة الجليد وهم يركضون مثل الفئران. والآن أصبح الأمر مسألة حياة أو موت وسيخرجون منها مثل جيش جرار.
سمعت إيناج صوتًا عاليًا لطنين وقعقعة المعدات العاملة. ودوى ضجيج الدبابة وأشبه الصوت الرعد المحبوس داخل طبلة معدنية كأنه يطلب الحرية. ودارت الدبابة على عجلاتها ثم اندفعت إلى

الأمـام، فاتجهـت إلى الأمـام واكتسـبت قـوة دفـع وزادت سرعتهـا أكـثر وأكـثر. وارتجـت الدبابـة، فاضطـروا إلى الخـروج مـن السـياج.

صـاح جاسـبر وهـم يصطدمـون بقـوة شـديدة بحائـط محكمـة الجليـد الأسـطوري الـذي لا يمكـن اختراقـه: «تشـبثوا!»، وارتـد كل مـن إينـاج وويـلان إلى نهايـة المقصـورة.

لقـد عـبروا الحائـط، وأصبحـوا عـلى الطريـق وبـدأ صيـاح الحـراس وصـوت طلقـات البنـادق يخفـت وراءهـم.

سـمعت إينـاج صـوت لهـاث واضـح؛ فعدلـت وضعهـا ونظـرت إلى أعـلى. وضحـك ويـلان.

دفـع ويـلان نفسـه خـارج فتحـة القبـة ونظـر إلى الـوراء عـلى محكمـة الجليـد. وعندمـا انضمـت إليـه إينـاج، رأت فجـوة في الحائـط الخارجـي، فبـدت كأنهـا لطخـة سـوداء في الصخـور البيضـاء والرجـال يجـرون عبرهـا ويطلقـون الرصـاص بـلا جـدوى في أثـر الدبابـة التـي تثـير الغبـار.

أمسـك ويـلان بخاصرتـه وهـو لا يـزال يضحـك ويشـخر ويشـير إلى الأسـفل. ووراءهـم لافتـة معلقـة في عجـلات الدبابـة. ورغـم لطخـات الطـين وحـروق البـارود، تمكنـت إينـاج مـن أن تتبـين الكلـمات المكتوبـة عـلى اللافتـة: القـوة الفيردانيـة.

نينا

خرجوا من الظلام وقد ابتلت ملابسهم وأصابتهم الكدمات وهم يلهثون تحت ضوء القمر اللامع. شعرت نينا بأنها تعرضت للضرب في جسدها كله. وتجمعت بقايا البالين في كتل لزجة حول زوايا فمها. وتمزق فستانها إلى لا شيء تقريبًا، ولولا أنها شعرت بالسعادة البالغة لأنها حية تتنفس فربما أحست بالقلق حيال حقيقة أنها تقف حافية القدمين وعارية بالفعل في أحد أودية الأنهار الشمالية ولا تزال بعيدة ميلًا ونصفًا عن المرفأ والأمان. ومن على بعد، استطاعت سماع قرع أجراس محكمة الجليد وهي تدوي بقوة.

سعل كيواي الماء وجر ماتياس كاز الواهن الفاقد الوعي بعيدًا عن المياه الضحلة.

سألت نينا: «بحق القديسين، هل يتنفس؟».

وضعه ماتياس على ظهره، لكن ليس برفق شديد، وبدأ يضغط على صدره بقوة أكبر من اللازم.

تمتم ماتياس بالتزامن مع الضغطات التي يقوم بها: «يجب.. أن.. أتركك.. تموت».

زحفت نينا فوق الصخور وركعت بجانبهم وقالت: «دعني أساعدك قبل أن تكسر قفصه الصدري. هل هناك نبض؟»، ثم وضعت أصابعها على حلقه وقالت: «هناك نبض لكنه يخفت. افتح قميصه».

وساعد ماتياس على تمزيق زي الدروسكل. فوضعت نينا يدًا على صدر كاز الشاحب وركزت على قلبه وأجبرته على الانقباض، واستخدمت اليد الأخرى في إغلاق أنفه وفتح فمه بينما تحاول دفع الهواء إلى رئتيه. يستطيع الكوربورالكي (المتلاعب بالقلوب) الأكثر

مهارة استخراج الماء بنفسه، لكنها لم تمتلك وقتًا للقلق بشأن قلة تدريبها.

سأل كيواي: «هل سيعيش؟».

قالت بداخلها: لا أدري. وضغطت نينا شفتيها على فم كاز مرة أخرى وهي تحاول مزامنة الأنفاس مع الدقات التي تحتاج إليها من قلبه. وقالت لنفسها: هيا أيها المجرم العفن. لقد اجتزت طريقك عبر معارك أكثر عنفًا.

وشعرت بتغير عندما بدأ قلب كاز ينبض بإيقاع منتظم. ثم سعل وتشنج صدره وتقيأ الماء من فمه.

ثم دفعها كاز بعيدًا عنه وهو يشفط الهواء.

قال وهو يلهث ويمسح فمه بيد المغطاة بالقفاز: «ابتعدي عني». وبدت عيناه زائغتين. وبدا أنه يحدق إليها وهو يقول: «لا تلمسيني».

قال ماتياس: «أنت في حالة صدمة أيها الشيطان. لقد كدت تغرق. وكان لا بد أن تغرق».

سعل كاز مرة أخرى وجسده كله يرتجف. وكرر القول: «كدت أغرق».

أومأت نينا ببطء وقالت: «محكمة الجليد، أتتذكر؟ عملية سرقة مستحيلة؟ موت وشيك؟ ثلاثة ملايين كروج ينتظرونك في كتردام؟».

طرفت عينا كاز وأصبح يرى بوضوح؛ فقال: «أربعة ملايين».

«لقد اعتقدت أن هذا سيعيدك إلى رشدك».

نطف كاز وجهه بيديه وصدره لا يزال يهتز ويتحشرج بسبب السعال الرطب. فقال متعجبًا: «لقد نجحنا. الجيل يصنع المعجزات».

قال ماتياس بوجه عابس: «أنت لا تستحق المعجزات. لقد دنست الرماد المقدس».

وقف كاز على قدميه وهو يترنح قليلًا ويأخذ نفسًا ضعيفًا آخر. ثم قال: «إنه رمز يا هيلفار. إن كان إلهك حساسًا للغاية فربما

يجب عليك أن تبحث لك عن إله آخر. هيا بنا نخرج من هنا».

لوحت نينا بيديها وقالت: «على الرحب أيها البائس الجاحد».

جر كاز نفسه لأعلى الصخور التي تغطي الجانب البعيد من الوادي. ثم قال: «سوف أشكرك عندما نصبح على متن فيروليند. تحركوا. يمكنكم أن تشرحوا لي في الطريق لماذا يبدو عالِمنا الشاوي العبقري كأنه أحد رفاق ويلان في الدراسة».

هزت نينا رأسها وهي تشعر بأنها محتارة بين الضيق والإعجاب. فربما هذا ما يتطلبه الأمر من أجل النجاة في باريل. فلا يمكن للمرء أن يتوقف مطلقًا.

سأل كيواي باللغة الشاوية والشك واضح في صوته: «هل هو صديق؟».

«أحيانًا».

ساعدها ماتياس على الوقوف على قدميها ثم ساروا جميعًا وراء كاز ببطء لأعلى الحوائط الصخرية في الوادي، التي ستقودهم إلى الجانب الآخر من الجسر الذي يقبع بالأعلى، وتقربهم قليلًا من ديرهولم. داهم نينا إرهاق شديد لم تشعر بمثله من قبل لكن لم يجدر بها أن تستريح. لقد حصلوا على الجائزة، وبلغوا مرحلة لم يصل إليها فريق آخر. لقد فجروا مبنى في قلب محكمة الجليد، لكنهم لن يصلوا إلى المرفا مطلقًا من دون إيناج والآخرين.

استمرت نينا في المشي، فالخيار الآخر الوحيد هو الجلوس فوق إحدى الصخرات وانتظار النهاية. وبدأ صوت هادر يأتي من مكان ما من ناحية محكمة الجليد.

قالت نينا برجاء وهم يصعدون فوق حافة الوادي وينظرون إلى الجسر المزين بالشرائط وأغصان الدردار من أجل احتفال هرينغكالا: «أوه، بحق القديسين، أتمنى أن يكون ذلك جاسبر».

قال ماتياس: «أيًّا كان القادم؛ فهو مهم».

«ماذا نفعل يا كاز؟».

قال كاز والصوت يزداد ارتفاعًا: «انتظروا».

سـألت نينـا وهـي تقفـز بعصبيـة مـن قـدم لآخـرى: «مـاذا عـن «اختبئـوا»؟ «تشـجعوا»؟ «لقـد خبـأت عشريـن بندقيـة في هـذه الشـجيرات القريبـة»؟ قـل شـيئًا».

قال كاز: «ماذا عن بضعة ملايين من الكروج؟».

انطلقـت دبابـة فـوق التـل والـتراب والحـصى يتناثـر مـن عجلاتهـا. وظهـر شـخص في بـرج الدبابـة يلـوح لهـم- كلا بـل شـخصان. صـاح ويـلان وإينـاج، وأشـارا بجنـون مـن وراء القبـة.

صرخـت نينـا صرخـة انتصـار بينـما أخـذ ماتيـاس ينظـر في ذهـول. وعندمـا نظـرت نينـا إلى كاز لم تصـدق عينيهـا. فقالـت: «بحق القديسـين يـا كاز، تبـدو سـعيدًا بالفعـل».

قـال سـاخرًا: «لا تتسـاخفي». ولكنهـا لم تخطـئ بالفعـل، فـكاز بريكـر يبتسـم مثـل الأحمـق.

سأل كيواي: «هل أفترض أننا نعرفهم؟».

لكـن خفتـت بهجـة نينـا عندمـا لاح في الأفـق رد فـيردا عـلى مشـكلة الدريجـز، فقـد اعتـلى طابـور مـن الدبابـات التـل وأخـذ يسـير عـلى الطريـق الـذي يضيئـه القمـر والأتربـة تتصاعـد مـن عجلاتـه. ربمـا لم يغلـق جاسـبر بوابـة الدروسـكل. أو ربمـا كانـت لديهـم دبابـات تنتظـر عـلى الأرض. فنظـرًا إلى القـوة الناريـة التـي تقبـع وراء جـدران محكمـة الجليـد، فكـرت نينـا في أنهـم يجـب أن يعـدوا أنفسـهم مـن المحظوظـين. لكـن لم يبـد الأمـر هكـذا بالفعـل.

لم تسـتطع نينـا أن تتبـين مـا يـصرخ بـه ويـلان وإينـاج إلا بعـد أن عـبروا بسرعـة فـوق حوامـل الجـسر: «ابتعـدوا عـن الطريـق!».

قفـزوا عـن الطريـق عندمـا مـرت الدبابـة مـن بينهـم، ثـم توقفـت بصـوت مـدوٍّ.

قالـت نينـا متعجبـة: «لدينـا دبابـة. كاز أيهـا العبقـري الغافـل، لقـد نجحـت الخطـة. لقـد أحـضرت لنـا دبابـة».

«لقد أحضروا لنا دبابة».

قال ماتياس: «لدينا واحدة»، ثم أشار إلى الحشد المعدني والدخان الذي يتجه نحوهم بسرعة وقال: «بل لديهم الكثير».

قال كاز بينما يدير جاسبر المدفع الضخم في الدبابة: «نعم، لكن هل تعرف ما لا يملكونه؟ إنهم لا يملكون جسرًا».

انطلق صرير معدني من داخل الدبابة المدرعة. ثم دوى صوت انفجار عنيف يرج الأرض. وسمعت نينا صفيرًا مرتفعًا عندما شق شيء الهواء عبرهم واصطدم بالجسر، فاشتعلت النيران في أول حاملين للجسر وتناثر الشرر ووقعت الشظايا الخشبية في أسفل الوادي. وانطلق المدفع الكبير مرة أخرى؛ فانهارت الحوامل مع صوت كالصرير.

ولو أراد الفيردانيون عبور الوادي، فيجب أن يطيروا.

قالت نينا: «لدينا دبابة وخندق».

صاح ويلان: «تسلقوا».

فدفعوا أنفسهم نحو جوانب الدبابة وتشبثوا بقوة بأي تجويف أو حافة للنجاة بحياتهم، ثم سارت الدبابة على الطريق نحو المرفأ بأقصى سرعة.

وبينما هم يصيحون بجوار مصابيح الشوارع التي يمرون بها، خرج الناس من منازلهم لرؤية ما يحدث. حاولت نينا أن تتخيل الشكل الذي يبدو عليه هذا الفريق البري من وجهة نظر الفيردانيين. ما الذي سيرونه عندما تطل رؤوسهم خارج النوافذ والأبواب؟ مجموعة من الأطفال يصيحون ويتشبثون بدبابة مرسوم عليها العلم الفيرداني وينطلقون إلى الأمام مثل عربة ذات منصة ابتعدت عن موكبها، وفتاة ترتدي حريرًا بنفسجيًا وفتى ذا شعر مجعد ذهبي أحمر يظهر من وراء الأسلحة وأربعة أشخاص مبتلين يتشبثون بقوة بجوانب الدبابة للنجاة بحياتهم، فتى شاوي يرتدي ملابس السجن واثنين من الدروسكل اللذينن يرتديان ملابس رثة،

ونينا؛ تلك الفتاة شبه العارية التي ترتدي قطعًا ممزقة من تيل الشيفون وتصيح: «لدينا خندق!».

عندما دخلوا المدينة، صاح ماتياس: «ويلان، أخبر جاسبر بأن يلتزم الشوارع الغربية».

فانخفض ويلان واتجهت الدبابة غربًا.

قال ماتياس موضحًا: «إنها منطقة المستودعات؛ وهي خالية بالليل».

فعقعت الدبابة وطقطقت وتأرجحت يمينًا ويسارًا فوق الأرصفة وعادت مرة أخرى لتتجنب بعض المشاة ثم تسرع نحو منطقة المرفأ وهي تعبر الحانات والمحلات ومكاتب الشحن.

مال كيواي برأسه إلى الوراء والبهجة تعلو وجهه، وقال بسعادة: «أستطيع أن أشم رائحة البحر».

واستطاعت نينا شم رائحته أيضًا، ورأوا نور المنارة يشرق من على بعد. ولا يزال أمامهم مبنيان آخران ويصلون إلى رصيف المرفأ والحرية. ثلاثون مليون كروج. سوف تستطيع هي وماتياس بنصيبهما أن يذهبا إلى أي مكان يريدانه ويعيشا أي حياة يختارانها.

صاح ويلان: «كدنا نصل!».

تكوموا في أحد الأركان، وكاد قلب نينا يقفز من بين ضلوعها.

صاحت: «توقف! توقف!».

لم يعد من الضروري أن تصيح نينا؛ فلقد توقفت الدبابة وكادت تقذفها من مكانها. وجدوا رصيف المرفأ يقع أمامهم مباشرة ووراءه الميناء وأعلام آلاف السفن وهي ترفرف في الهواء. كان الوقت متأخرًا، ومن المتوقع أن يكون الرصيف خاليًا. ولكنه بدلًا من ذلك اكتظ بالقوات صفًا وراء الآخر بالزي الرمادي؛ حيث يوجد مائتا جندي على الأقل، وكل ماسورة بندقية مصوبة باتجاههم مباشرةً.

استطاعت نينا سماع أجراس ساعة الإلدركلوك؛ فاعتراها شعور بالقلق، فمحكمة الجليد تطل على الميناء وتجثم فوق المنحدر

مثل نورس غاضب نفش ريشه، وحائطها الحجري الأبيض ينير من الأسفل ويتألق في سماء الليل.

سأل ويلان ماتياس: «ما هذا؟ لم تقل مطلقًا إن ــــــــــــــــــــــــــــ»

«ربما غيَّروا إجراءات انتشار القوات».

«كل شيء آخر ظل بلا تغيير».

قال ماتياس بغضب: «لم أر مطلقًا البروتوكول الأسود في حالة تفعيل. ربما هناك دومًا قوات متمركزة في المرفأ. لا أعرف».

قالت إيناج: «اهدؤوا. توقفوا فحسب».

وقفزت نينا من مكانها عندما تردد صدى صوت من بين الحشد. تحدث الصوت أولًا باللغة الفيردانية ثم الرافكانية ثم لغة كيرتش وفي النهاية الشاوية. قال: «أطلقوا سراح السجين كيواي يول-بو. ضعوا أسلحتكم أرضًا وابتعدوا عن الدبابة».

قال ماتياس: «لا يستطيعون إطلاق الرصاص. سوف يخاطرون بإصابة كيواي».

قالت نينا: «ليسوا مضطرين إلى ذلك. انظر».

فرأوا سجينًا هزيلًا يعبرون به بين صفوف الجنود، وشعره ملتصق بجبهته، ويرتدي كيفتا حمراء ممزقة، ويمسك بكم أقرب حارس إليه وشفتاه تتحركان بطريقة محمومة كأنه يردد بعض التوسلات اليائسة. فعرفت نينا أنه يتوسل من أجل الحصول على باريم.

قال ماتياس بتجهم: «متلاعب بالتنفس».

قال ويلان معترضًا: «لكنه بعيد جدًا».

هزت نينا رأسها وقالت: «هذا ليس مهمًا». هل احتفظوا به هنا مع أي قوات تتمركز في جنوب ديرهولم؟ لِمَ لا؟ إنه سلاح أفضل من أي مسدس أو دبابة.

تمتمت إيناج: «أستطيع رؤية فيروليند». وأشارت وراء الأرصفة

على مسافة غير بعيدة جدًا. وتطلب الأمر من نينا لحظة قبل أن تلتقط علم كيرتش وراية شركة هانرادت باي التي ترفرف تحته. لقد أصبحوا قريبين للغاية.

وكان بإمكان جاسبر إصابة المتلاعب بالتنفس. وبإمكانهم شق طريقهم عبر القوات باستخدام الدبابة، لكنهم لن يصلوا إلى السفينة أبدًا. سوف يخاطر الفيردانيون بحياة كيواي قبل أن يتركوه يسقط بين يدي أي شخص آخر.

صاح كاز من داخل الدبابة: «كاز؟ من الجيد فعلًا أن تقول إنك توقعت هذا».

مد كاز بصره متجاوزًا الجنود وقال: «لم أتوقع هذا». وهز رأسه وقال: «هيلفار، لقد قلت إن الحيل ستنفد مني ذات يوم. يبدو أنك محق». وعلى الرغم من أن الكلمات موجهة لماتياس؛ فإن عيني كاز كانتا تنظران إلى إيناج.

قالت إيناج: «لقد حصلت على كفايتي من الأسر. لن أسمح لهم بأسري حية».

قال ويلان: «ولا أنا».

قال جاسبر من داخل الدبابة وهو يشخر: «يجب علينا أن نعطيه أصدقاء أفضل».

قال كاز: «لأن تنتهي حياتي وأنا أقاتل أفضل من أن يضع الفيردانيون رأسي فوق رمح».

أومأ ماتياس، وقال: «إذًا اتفقنا. سوف ننهي هذا هنا».

همست نينا: «كلا». فالتفتوا جميعًا نحوها.

تردد الصوت من بين صفوف الفيردانيين مرة أخرى: «سوف نعد عشر عدات لكي تمتثلوا للأوامر. أكرر: أطلقوا سراح السجين كيواي يول- بو واستسلموا. عشرة..".

تحدثت نينا إلى كيواي بالشاوية بسرعة.

أجاب: «أنتِ لا تفهمين. جرعة واحدة ــــــــــــــــــــــــــــــ

ـــ»

قالـت: «بـل أفهـم». لكـن لم يفهـم الآخـرون شـيئًا إلى أن رأوا كيـواي يخـرج مـن جيبـه كيسًـا جلديًـا صغـيرًا، وحافتـه ملطخـة بمسـحوق يشـبه لونـه الصـدأ.

صـاح ماتيـاس: «كلا». ومـد يـده للإمسـاك بالباريـم، لكـن نينـا كانـت أسرع منـه.

دوى الصوت الفيرداني: «سبعة ــــــــــــــــ»

قالـت إينـاج: «نينـا لا تتحامقـي. لقـد رأيـتِ ــــــــــــــــــــــ

ـــ»

«لا يصاب بعض الناس بالإدمان بعد الجرعة الأولى».

«لا يستحق الأمر المخاطرة».

«ستة..".

فتحـت نينـا الكيـس وقالـت: «لقـد نفـدت الحيـل مـن كاز، ولكـن لم تنفـد منـي».

قـال لهـا ماتيـاس متوسـلًا: «نينـا؛ أرجـوكِ». لقـد رأت نينـا نفـس نظـرة المعانـاة عـلى وجهـه في ذلـك اليـوم في إيلينـج عندمـا اعتقـد أنهـا خانتـه. وهـا هـي تكـرر الأمـر نفسـه الآن، وتتخـلى عنـه مـرة أخـرى.

«خمسـة..".

الجرعـة الأولى هـي الأقـوى أليـس هـذا مـا يقولونـه؟ فـلا يمكـن استنسـاخ النشـوة والقـوة مطلقًـا. سـوف تسـعى وراء الحصـول عليـه بقيـة حياتهـا. أو ربمـا تكـون أقـوى مـن هـذا العقـار.

«أربعة..".

لمسـت وجـه ماتيـاس برفـق وقالـت: «لـو سـارت الأمـور عـلى نحـو خطـأ، ابحـث عـن طريقـة لإنهائهـا يـا هيلفـار. فأنـا أعهـد إليـك بفعـل الـشيء الصحيـح». وابتسـمت وقالـت: «مـرة أخـرى».

«ثلاثة..".

أمالـت نينـا رأسـها إلى الـوراء وقذفـت باريـم في فمهـا لتـزدرده مـرة

واحـدة. وكان طعمـه حلـوًا ومحروقًـا مثـل زهـور يـوردا التـي تعرفهـا، لكـن هنـاك طعـمًا آخـر أيضًـا لم تسـتطع تمييـزه.

توقفت عن التفكير.

ففجـأة، بـدأت دماؤهـا تضـخ في عروقهـا وقلبهـا يخفـق بقـوة. وانقسـم العـالم في نظرهـا إلى لمحـات صغـيرة مـن الضـوء، وأصبـح باسـتطاعتها رؤيـة اللـون الحقيقـي لعينـي ماتيـاس -أزرق فاتـح- تحـت البقـع الرماديـة والبنيـة التـي وضعتهـا هنـاك، وضـوء القمـر يتألـق عـلى كل خصلـة مـن خصـلات شـعره فـوق رأسـه. ورأت العـرق عـلى حاجـب كاز والوخـزات غـير المرئيـة للوشـم المرسـوم فـوق سـاعده.

ثـم نظـرت إلى صفـوف الفيردانيـين، فاسـتطاعت سـماع ضربـات قلوبهـم، واسـتطاعت رؤيـة الخلايـا العصبيـة وهـي تعمـل ومثـيرات الإحسـاس لديهـم وهـي تتشـكل، وأصبـح كل شيء منطقيًـا، فأجسـادهم خريطـة للخلايـا، وآلاف المعـادلات التـي تُحـل في ثانيـة أو حتـى في مـلي ثانيـة، ولم تعـرف نينـا إلا الإجابـات.

همس ماتياس: «نينا؟».

قالت نينا وهي ترى موجات صوتها في الهواء: «تحرك».

شـعرت بالمتلاعـب بالتنفـس بـين حشـد الجنـود وبحركـة حلقـه وهـو يـزدرد جرعتـه. سـيصبح الأول.

ماتياس

«اثنان... واحد..".

رأى ماتياس بؤبؤي عيني نينا وهما يتسعان، وانفرجت شفتاها قليلًا وهي تدفعه وتنزل من الدبابة، وبدا أن الهواء يطقطق من حولها، وجلدها يتوهج كأنه يضيء من الداخل بمعجزة، كأنها أخذت وريدًا من جيل مباشرةً وأصبحت قوة خارقة تسري الآن فيها.

هاجمت المتلاعب بالتنفس مباشرةً، وطرقت بمعصمها فانفجرت عيناه في رأسه، وتكوم على الأرض دون أن يصدر أي صوت. وقالت: «تحرر».

ثم اتجهت نينا صوب الجنود؛ فتحرك ماتياس لحمايتها عندما رأى البنادق ترتفع. ورفعت نينا يديها وقالت: «توقفوا».

فتجمد الجنود مكانهم.

قالت: «أنزلوا أيديكم»؛ فأطاعوها كلهم في لحظة واحدة.

أمرتهم: «ناموا». وحركت نينا يديها على شكل قوس فوقع الجنود أرضًا من دون اعتراض صف وراء الآخر كأنهم سيقان قمح يقطعها منجل خفي.

سكن الهواء بشكل غريب. وهبط ويلان وإيناج ببطء من فوق الدبابة، وتبعهما جاسبر والبقية ووقفوا في صمت وذهول وهم يشعرون بأن جميع اللغات تعجز عن وصف ما شهدوه، ويحدقون إلى الأجساد التي تفترش المكان أمامهم. لقد حدث الأمر بسرعة مذهلة.

لم تكن هناك طريقة للوصول إلى المرفأ باستثناء المشي فوق أجساد الجنود. ومن دون كلمة واحدة بدؤوا يشقون طريقهم

عبر الجنود ولم يقطع الصمت سوى قرع أجراس ساعة الإلدركلوك البعيدة. وضع ماتياس يده على ذراع نينا فتنهدت وتركته يقودها.

بعد أن اجتازوا الرصيف، وجدوا المكان خاليًا. وبينما اتجه الآخرون صوب فيروليند، سار ماتياس ونينا وراءهم. وتمكن ماتياس من رؤية روتي وهو يتشبث بالصاري والخوف بادٍ عليه. وكان سبكت ينتظر لكي يفك مراسي السفينة وبدت على وجهه نظرة لا تقل رعبًا.

«ماتياس!».

التفت ماتياس ووجد مجموعة من الدروسكل يقفون على الرصيف وملابسهم الرسمية مبتلة وهم يرتدون أغطية رؤوسهم. لقد ارتدوا أقنعة رمادية لامعة من الدروع فوق وجوههم وملامحهم غير واضحة من وراء الشبكة. لكن تعرف ماتياس على صوت يارل بروم عندما تحدث.

قال بروم من وراء القناع: «خائن. خائن لبلدك وإلهك. لن تغادر هذا المرفأ حيًا. لن يغادره أي واحد منكم حيًا». ربما أخرجه رجاله من الخزانة بعد الانفجار. هل تبعوا ماتياس ونينا إلى النهر عبر شجرة الدردار؟ هل هناك خيول أو دبابات أخرى متمركزة في أعلى المدينة؟

رفعت نينا يديها وقالت: «من أجل ماتياس فقط سأعطيكم فرصة واحدة لتركنا وشأننا».

قال بروم: «لا يمكنك السيطرة علينا أيتها الساحرة. فأغطية رؤوسنا وأقنعتنا وكل غرزة في الملابس التي نرتديها معززة بصلب الغريشا. فملابسنا مصنوعة حسب مواصفاتنا بواسطة صانع من الغريشا تحت أيدينا ومصممة لهذا الغرض. فلا يمكنك إخضاعنا لإرادتك. ولا يمكنك إيذاؤنا. لقد انتهت اللعبة».

فرفعت نينا يدها. ولكن لم يحدث شيء، وأدرك ماتياس أن بروم يقول الحقيقة.

صاح ماتياس فيهم: «اذهبوا! أرجوكم! أنتم ـــــــــــ
ـــــ»

رفع بروم بندقيته وأطلق الرصاص. فأصابت الطلقة ماتياس في صدره مباشرة. وكان الألم مفاجئًا ومريعًا، ثم اختفى فجأة. رأى ماتياس بأم عينيه الرصاصة تخرج من صدره، وتصطدم بالأرض مع صوت طقطقة: ففتح قميصه، ولكنه لم يجد به أي جرح.

مشت نينا بجانب ماتياس؛ فصرخ: «كلا!».

وأطلق الدروسكل الرصاص عليها. ورآها تجفل عندما أصابت الرصاصات جسدها ورأى بقعًا حمراء من الدم تظهر على صدرها وفخذيها العاريتين، لكنها لم تقع أرضًا. فبمجرد دخول الرصاصات جسدها عالجت نفسها وأخرجت الرصاص ليسقط على الرصيف دون أن يؤذيها شيء.

حدق إليها الدروسكل فاغرين أفواههم من الدهشة. فضحكت نينا وقالت: «لقد اعتدتم كثيرًا الغريشا الأسرى. إننا أليفون للغاية في الأقفاص».

قال بروم وهو يجذب سوطًا طويلًا مثل الذي سحبه لارس من حزامه: «هناك وسائل أخرى، لا تستطيع قوتك التأثير فينا أيتها الساحرة، وقضيتنا عادلة».

قالت نينا وهي ترفع يديها: «لا أستطيع التأثير فيك، لكنني أستطيع الوصول إليهم».

ومن وراء الدروسكل نهض الجنود الفيرادنيون الذين جعلتهم نينا ينامون بوجوه جامدة. فأخذ أحدهم السوط من يد بروم ونزع الآخرون أغطية الرؤوس والأقنعة عن وجوه الدروسكل وجعلوهم عرضة للهجوم.

وثنت نينا أصابعها فأسقط الدروسكل بنادقهم وارتفعت أيديهم إلى رؤوسهم وهم يصرخون من الألم.

قالت نينا: «من أجل بلدي. من أجل شعبي. من أجل كل طفل

وضعتموه في المحرقة. احصد ما زرعت يا يارل بروم».

شاهد ماتياس الدروسكل وهم يرتجفون ويتشنجون والدماء تسيل من آذانهم وعيونهم بينما ينظر إليهم الجنود الفيردانيون بلا مبالاة. وصرخوا جميعًا كأنهم فرقة موسيقية: كلاس الذي تحمل معه كثيرًا في أفالي، وجيرت الذي درب ذئبه على أن يأكل من يده. وعرف ماتياس أنهم وحوش لكنهم أيضًا فتيان مثله - تعلموا الكراهية والخوف.

قال ماتياس وهو لا يزال يضع يده فوق جلده الناعم في صدره في المكان الذي فيه الرصاصة: «نينا، أرجوك».

«أنت تعرف أنهم لن يرحموك يا ماتياس».

«أعرف، أعرف. لكن دعيهم يعيشوا وهم يشعرون بالعار بدلًا من ذلك».

ترددت نينا.

«نينا، لقد علمتِني أن أكون شيئًا أفضل. يمكن تعليمهم هم أيضًا».

حولت نينا بصرها إليه، وعيناها تمتلئان بالشراسة ولونهما أخضر غامق كالغابات والبؤبؤ مثل آبار مظلمة. وبدا أن الهواء حولها يشع بالقوة وكأن شعلة خفية تضيئها.

قال ماتياس: «إنهم يخافون منكِ مثلما كنت أخشاكِ في الماضي، ومثلما كنتِ تخافين مني. إننا جميعًا وحوش بالنسبة إلى شخص ما يا نينا».

وللحظة طويلة، أخذت نينا تتفحص وجهه. وفي النهاية، أنزلت ذراعيها؛ فوقع الدروسكل على الأرض وهم يبكون ويتألمون. ثم حركت يدها بسرعة مرة أخرى فارتجف بروم الذي وضع يديه على رأسه وسالت الدماء بين أصابعه.

سأل ماتياس: «هل سيعيش؟».

قالت نينا وهي تسير نحو القارب: «نعم. كل ما في الأمر أنه

سـيصبح أصلـع تمامًـا».

أخـذ سـبكت يلقـي الأوامـر وانطلقـت فيرولينـد نحـو المرفـأ وهـي تكتسـب السرعـة عندمـا مـلأت الريـاح الأشرعـة. ولم يجـرِ أحـد عـلى الأرصفـة لـكي يوقفهـم، ولم تـأتِ أي سـفينة ولم يطلـق أي مدفـع النـار. ولم يكـن هنـاك أحـد يطلـق الإنـذارات أو إشـارات للمدفعيـة بالأعـلى. ولم يهتـم أحـد بأصـوات الأجـراس التـي تنطلـق مـن سـاعة الإلدركلـوك بينـما تختفـي السـفينة في ظلـمات البحـر الشاسـع ولا تـترك وراءهـا سـوى المعانـاة.

-٤٢-

إيناج

أنعم عليهم الحظ برياح قوية. وقد شعرت إيناج بها تتخلل شعرها ولم تفكر إلا في العاصفة القادمة.

وحالما صعدوا على متن السفينة، اتجه ماتياس إلى كيواي.

«كم لديها من الوقت؟».

عرف كيواي بعضًا من لغة كيرتش؛ لكن اضطرت نينا إلى ترجمة بعض الكلمات. وفعلت هذا وهي مشتتة الذهن وتنظر بعينيها الزائغتين اللامعتين إلى كل شخص وكل شيء.

«سوف تستمر النشوة ساعة وربما ساعتين. يعتمد الأمر على المدة التي يستغرقها جسمها في معالجة جرعة بهذا الحجم».

سأل ماتياس نينا بيأس: «لماذا لا تستطيعين تطهير جسدك منه مثلما فعلت مع الرصاصات؟».

قال كيواي: «لن يجدي هذا. فحتى لو استطاعت التغلب على الرغبة لوقت طويل بما فيه الكفاية للبدء في تطهير جسدها منه، سوف تفقد القدرة على سحب عقار باريم من جسدها قبل أن يختفي كله. سوف تحتاج إلى متلاعب آخر بالتنفس يستخدم باريم لإنجاز الأمر».

سأل ويلان: «وما الذي سيفعله بها؟».

أجاب ماتياس بمرارة: «لقد رأيت بنفسك، فنحن نعرف ما سيحدث».

وعقد كاز ذراعيه، وقال: «كيف يبدأ الأمر؟».

قال كيواي: «يتألم الجسم ويشعر بالبرودة على نحو لا يزيد على مرض خفيف. ثم يحدث نوع من الحساسية المفرطة تتبعها ارتجافات وعطش شديد».

سأل ماتياس: «هل تمتلك المزيد من باريم؟».

«نعم».

«ما يكفي لإعادتها إلى كتردام؟».

قالت نينا معترضة: «لن أتناول المزيد».

قال كيواي: «لديَّ ما يكفي ليجعلك تشعرين بالراحة. لكن لو تناولت جرعة ثانية فلن يصبح هناك أمل على الإطلاق». ثم نظر إلى ماتياس وقال: «هذه فرصتها الوحيدة. من المحتمل أن يتطهر جسدها منه بشكل طبيعي؛ وهو ما سيمنع حدوث الإدمان».

«وإذا حدث؟».

مد كيواي يديه بشيء من اللا مبالاة والاعتذار وقال: «من دون إمداد جاهز من التركيبة، سوف تصاب بالجنون. ومع وجودها، سوف ينهك جسدها نفسه. هل تعرفون معنى كلمة باريم؟ إنه الاسم الذي أطلقه أبي على التركيبة. إنه يعني «من دون رحمة»».

عندما أنهت نينا الترجمة، ساد صمت مطبق لوقت طويل.

قالت نينا: «لا أريد سماع المزيد. لن يغير شيء ما سيحدث».

ثم سارت نحو مقدمة القارب وماتياس يشاهدها.

تمتم ماتياس بصوت خفيض: «الماء يسمع ويفهم».

وبحثت إيناج عن روني وجعلته يحضر المعاطف الصوفية التي تركتها هي ونينا من أجل الطقس البارد عندما رسوا على الشاطئ الشمالي. ووجدت نينا بالقرب من مقدمة السفينة وهي تنظر إلى البحر.

قالت نينا دون أن تستدير: «سأستغرق ساعة، وربما ساعتين».

توقفت إيناج وهي تشعر بالصدمة وقالت: «هل سمعتِني وأنا أقترب؟ لا أحد يسمع الشبح خاصةً مع صوت الرياح والبحر».

«لا تقلقي. لم تكشفك تلك الخطوات الصامتة. أستطيع سماع نبضات قلبك وتنفسك».

«وكيف عرفتِ أنه أنا؟».

«يختلف كل قلب عن الآخر. لم أدرك ذلك من قبل مطلقًا».

انضمت إليها إيناج وأعطتها معطفًا؛ فارتدته الغريشا رغم أن البرد لم يزعجها. وتألقت النجوم فوقهما بين أسراب السحاب فضية اللون. تلهفت إيناج لبزوغ الفجر حتى تنتهي هذه الليلة الطويلة وتنتهي هذه الرحلة أيضًا. وشعرت بالدهشة عندما وجدت نفسها تتوق لرؤية كتردام مرة أخرى. لقد أرادت تناول بيضة مقلية وفنجانًا من القهوة الحلوة. وأرادت سماع المطر يهطل فوق الأسطح وهي تجلس في راحة ويوجد دفء داخل غرفتها الصغيرة في السلات. ولابد أنها ستخوض مغامرات أخرى؛ لكن يجب عليها الانتظار حتى تأخذ حمامًا دافئًا - ربما لمرات عديدة.

دفنت نينا وجهها في ياقة معطفها الصوفي، وقالت: «أتمنى أن تستطيعي رؤية ما أفعله. أستطيع سماع كل جسد على هذه السفينة والدماء تجري في عروقهم. أستطيع سماع التغيرات في تنفس كاز عندما ينظر إليكِ».

«هل.. هل تستطيعين ذلك؟».

«يفتنه ذلك كل مرة؛ كأنه لم يركِ من قبل مطلقًا».

سألت إيناج وهي تتوق إلى تغيير الموضوع: «ماذا عن ماتياس؟».

رفعت نينا حاجبًا بجدية وقالت: «يخشى ماتياس عليَّ؛ لكن ينبض قلبه بانتظام بصرف النظر عما يشعر به. إنه فيرداني منظم جدًّا».

«لقد اعتقدت أنك لن تتركي هؤلاء الرجال أحياءً عندما كنا في المرفأ».

«لست متأكدة أن هذا الأمر الصحيح الذي يجب فعله. سأصبح قصة غريشا أخرى مرعبة يخبرونها لأطفالهم».

«هل سيقولون لهم: أحسنوا التصرف وإلا فستنال منكم نينا زينيك؟».

أخذت نينا تفكر ثم قالت: «حسنًا؛ يعجبني وقع هذه الكلمات».

مالـت إينـاج للـوراء عـلى السـور ونظـرت إلى نينـا وقالـت: «تبديـن مشـعة».

«لن يستمر هذا».

ثـم تلاشـت ابتسـامة إينـاج وقالـت: «لم يحـدث مطلقًـا.. هـل أنـتِ خائفـة؟».

«مرعوبة».

«نحن جميعًا هنا معكِ».

أخذت نينا نفسًا ضعيفًا وأومأت.

لقـد عقـدت إينـاج عـددًا لا يحـصى مـن التحالفـات في كـتردام في مقابـل عـدد قليـل مـن الصداقـات. فأراحـت رأسـها عـلى كتـف نينـا وقالـت: «لـو أننـي عرافـة سـولية لاسـتطعت رؤيـة المسـتقبل وإخبـارك بـأن كل شيء سـيصبح عـلى مـا يـرام».

قالـت نينـا وهـي تضـع خدهـا عـلى رأس إينـاج: «أو أننـي سـأموت معذبـة. أخبرينـي بـشيء جيـد عـلى أي حـال».

قالـت إينـاج: «سـيصبح كل شيء عـلى مـا يـرام. سـوف تنجـين مـن هـذا. ثـم سـتصبحين ثريـة جـدًا. سـوف تغنـين أناشـيد البحـارة وأغـاني السـكارى بالليـل في أحـد أنديـة إيسـت سـتاف وسـوف أرشـو الجميـع لـكي يصفقـوا لـكِ بحـرارة بعـد كل أغنيـة».

ضحكت نينا برقة وقالت: «لنشترِ الميناجري».

كـشرت إينـاج وهـي تفكـر في المسـتقبل وسـفينتها الصغـيرة وقالـت: «لنشـتره ونحرقـه».

أخـذت الاثنتـان تشـاهدان الأمـواج لبرهـة. ثـم سـألت نينـا: « هـل أنـتِ مسـتعدة؟».

شـعرت إينـاج بالـسرور لأنهـا لم تضطـر إلى الإجابـة عـن السـؤال، ورفعـت كمهـا ليظهـر وشـم ريـش الطـاووس والجلـد المبقـع.

وتطلـب الأمـر لمسـة حانيـة لثانيـة واحـدة مـن أطـراف أصابـع نينـا. شـعرت بـألم حـاد لكنـه اختفـى بسرعـة. وعندمـا تـلاشى الشـعور

بالوخز، أصبح الجلد فوق ساعد إيناج مثاليًا - غاية في النعومة والجمال كأنه جزء جديد منها.

لمست إيناج الجلد الناعم. وانتهى الأمر على هذا النحو. وتمنت لو أنه كان من الممكن شفاء جميع الجروح بمثل هذه السهولة.

طبعت نينا قبلة على خد إيناج وقالت: «سأذهب للعثور على ماتياس قبل أن تسوء الأمور».

لكن عندما ابتعدت، رأت إيناج أن هناك سببًا آخر لذهاب نينا. فقد وقف كاز في الظلال بالقرب من الصاري، وقد ارتدى معطفًا ثقيلًا واستند إلى عصاه التي تحمل رأس الغراب، فبدا كأنه عاد إلى سيرته الأولى. وبالطبع تقبع سكاكين إيناج بانتظارها بجوار ممتلكاتها الأخرى في جوف السفينة. إنها تفتقد مخالبها.

غمغم كاز بكلمات قليلة لنينا فعادت للوراء وقد أصابتها الدهشة. ولم تستطع إيناج تبين ما يقولانه لكنها استطاعت معرفة أن الحديث مهم قبل أن تطلق نينا زفرة غاضبة وتختفي في الطابق السفلي تحت سطح السفينة.

سألت إيناج كاز عندما انضم إليها على درابزين السفينة: «ماذا قلت لنينا؟».

«هناك مهمة أحتاج منها إلى أن تقوم بها».

«إنها تمر بمحنة مرعبة ــــــــــــــــ»

«ولا يزال هناك عمل يجب إنجازه».

ها هو كاز العملي. لماذا يسمح للتعاطف بأن يعترض طريقه؟ ربما تسعد نينا بهذا الإلهاء.

جلس الاثنان معًا وأخذا ينظران إلى الأمواج في صمت مطبق.

قال كاز في النهاية: «نحن أحياء».

«يبدو أنك دعوت الإله المناسب».

«أو سافرت مع الأشخاص المناسبين».

هزت إيناج كتفيها وقالت: «مَن منا يختار طريقه؟»؛ ولم يقل كاز

شيئًا؛ فاضطرت إلى الابتسام وقالت: «ألا يوجد رد عنيف منك؟ أو ضحك على حكمي السولية؟».

جرى إبهامه الذي يغطيه القفاز فوق السور وقال: «كلا».

«كيف سنقابل مجلس التجار؟».

«عندما نصبح على بعد أميال قليلة، سنذهب أنا وروتي للميناء في قارب. سوف نعثر على ساعٍ يبلغ رسالة لفان إيك ويحدث التبادل في فيلجلوك».

ارتجفت إيناج بشدة لسماعها ذلك. فتلك الجزيرة مشهورة بتجار الرقيق والمهربين؛ فقالت: «أهذا اختيار المجلس أم اختيارك؟».

«هذا اقتراح فان إيك».

قطبت إيناج جبينها وقالت: «لماذا يعرف تاجر كهذا فيلجلوك؟».

«التجارة تجارة. ربما لا يكون فان إيك تاجرًا نزيهًا كما يبدو عليه».

ساد الصمت لبرهة، وفي النهاية قالت: «سوف أتعلم الإبحار».

تغضن وجه كاز ونظر إليها نظرة تملؤها الدهشة، وقال: «حقًا؟ لماذا؟».

«أريد أن أستخدم مالي في الاستعانة بطاقم وتجهيز سفينة». واضطربت أنفاسها في قلق بسبب نطق تلك الكلمات. فحلمها لا يزال يبدو هشًا. إنها لا تريد أن تهتم بما يفكر فيه كاز ولكنها تهتم. فقالت: «سوف أصطاد تجار الرقيق».

قال كاز بطريقة توحي بتفكير عميق: «يا له من هدف. أنتِ تعرفين أنكِ لا تستطيعين إيقافهم جميعًا».

«إذا لم أحاول؛ فلن أوقف أي واحد منهم».

قال كاز: «أكاد أشفق على تجار الرقيق. إنهم لا يعرفون أي شيء عما سيواجهونه».

شعرت إيناج بالسرور والدفء في وجهها عندما تورد خداها. لكن ألم يعتقد كاز دومًا أنها خطيرة؟

وضعت إيناج مرفقيها على الدرابزين وأراحت ذقنها فوق راحتي يديها. وقالت: «رغم ذلك، سأذهب إلى وطني أولًا».
«إلى رافكا؟».
أومأت إيناج برأسها.
«لكي تعثري على عائلتك».
«نعم». منذ يومين فقط، وقفت عند هذا الحد احترامًا لاتفاقهما غير المكتوب بالمرور على ماضي أحدهما الآخر مرور الكرام. لكنها قالت: «هل يوجد أحد آخر بخلاف أخيك يا كاز؟ أين أمك وأبوك؟».
«أطفال باريل ليس لهم آباء وأمهات. إننا نولد في المرفأ ونخرج زحفًا من القنوات المائية».
هزت إيناج رأسها، وأخذت تشاهد حركات البحر وهو يتنهد كل موجة كأنه نَفَس يخرج منه. وبالكاد تمكنت من رؤية الأفق بين السماء السوداء والبحر الأكثر سوادًا. وفكرت في والديها. لقد ابتعدت عنهما منذ ثلاث سنوات تقريبًا. فكيف تغيرا الآن؟ هل تستطيع أن تصبح ابنتهما مرة أخرى؟ ربما ليس على الفور. لكنها أرادات الجلوس مع والدها على عتبات العربة لتناول الفاكهة من الأشجار. وأرادت رؤية والدتها وهي تنفض الطباشير عن يديها قبل إعداد وجبة المساء. وأرادت الاستمتاع بمنظر الحشائش الجنوبية الطويلة والسماء الشاسعة فوق جبال سيكورزوي. هناك شيء تحتاج إليه ينتظرها هناك. فما الذي يحتاج إليه كاز؟
«إنك على وشك أن تصبح غنيًا يا كاز. فماذا ستفعل عندما لا يوجد هناك المزيد من إراقة الدماء والانتقام؟».
«دائمًا ما يوجد هناك المزيد».
«المزيد من المال والمزيد من العنف والمزيد من الديون التي تجب تسويتها. أليس لديك حلم آخر على الإطلاق؟».
لم يجب كاز بشيء. فما الذي انتزع كل الأمل من قلبه؟ ربما لن

تعرف أبدًا.

استدارت إيناج لتمشي؛ فأمسك كاز يدها على الدرابزين. ولم ينظر إليها، بل قال بصوته الأجش: «ابقي. ابقي في كتردام. ابقي معي».

نظرت إيناج إلى يده المغطاة بالقفاز التي تمسك يدها. فكل شيء فيها يوافق على البقاء لكنها لم ترض بالقليل ليس بعد كل ما مرت به. فقالت: «وما الهدف؟».

أخذ كاز نفسًا عميقًا، وقال: «أريدك أن تبقي. أريدك أن.. أريدك».

«أنت تريدني». وأخذت تفكر في الكلمات. ثم ضغطت على يده برفق وقالت: «وكيف ستحصل عليّ يا كاز؟».

عندئذ نظر كاز إلى عينيها بنظرة ثاقبة وفم مغلق. إنه الوجه الذي يرتديه دائمًا عندما يقاتل.

فكررت إيناج: «كيف ستحصل عليّ كاز؟ وأنت ترتدي كامل ملابسك وقفازاتك وتدير رأسك بعيدًا لكي لا تلتقي شفتانا مطلقًا؟».

ترك كاز يدها وضم كتفيه وخرجت من عينيه نظرات الغضب والخزي وهو يدير وجهه نحو البحر.

وربما استطاعت إيناج إخراج ما يجول بصدرها أخيرًا لأنه أولاها ظهره. فقالت: «إما أن أحصل عليك من دون أي حواجز يا كاز بريكر، وإما لن أحصل عليك أبدًا».

أخذته إيناج ترجوه في صمت: تحدث. أعطني سببًا للبقاء. فرغم كل أنانيته وقسوته لا يزال كاز الفتى الذي أنقذها. وقد أرادت أن تصدق أنه أيضًا يستحق الإنقاذ.

وعندئذ تحركت الأشرعة وأصدرت صريرًا. وابتعدت السحب عن القمر ثم تجمعت حوله مرة أخرى.

فتركت إيناج كاز والرياح تجري عاصفة والفجر لا يزال بعيدًا.

نينا

بـدأت الآلام تـضرب نينـا بعـد الفجـر. فبعـد سـاعة بـدا الأمـر كأن عظامهـا تحـاول الخـروج مـن مكانهـا. فرقـدت نينـا عـلى الطاولة نفسـها التـي كانـت تعالـج عليهـا إينـاج مـن جرحهـا. ظلـت حواسـها حـادة بمـا فيـه الكفايـة لدرجـة أنهـا اسـتطاعت شـم رائحـة الدمـاء الشـبيهة بالنحـاس للفتـاة السولية تحـت المنظـف الـذي اسـتخدمه روني لإزالتـه مـن الخشـب. وكانـت الرائحـة تشـبه رائحـة إينـاج.

جلـس ماتيـاس بجانبهـا، وحـاول الإمسـاك بيدهـا لكن الألم كان شـديدًا جـدًا، وجعلتهـا حركـة يـده عليهـا تشـعر بـأن جلدهـا مسـلوخ. وبـدا كل شيء لا يسـير عـلى خـير عـلى الإطـلاق. وكل مـا تسـتطيع التفكـير فيـه هـو المـذاق الحلـو المحـروق لباريـم. فحلقهـا يؤلمهـا. وبـدا جلدهـا كأنـه عـدوّ لهـا.

وعندما بدأت الارتجاف، رجته لكي يغادر.

قالـت وهـي تحـاول الانقـلاب عـلى جانبهـا: «لا أريـدك أن تـراني هكـذا».

أبعـد ماتيـاس الشـعر المبلـل عـن جبهتهـا، وقـال: «مـا مـدى سـوء الأمـر؟».

«سيئ». لكنها عرفت أن الأمر سيصبح أكثر سوءًا.

واعتقـد كيـواي أن جرعـات صغـيرة مـن اليـوردا العاديـة ربمـا تسـاعد نينـا عـلى النجـاة، فقـال: «هـل تريديـن تجربـة اليـوردا؟».

هـزت رأسـها وقالـت: «أريـد... أريـد - بحـق القديسـين، لمـاذا أشـعر أن الجـو حـار جـدًا هنـا»؛ وحاولـت النهـوض رغـم الألم. ثـم قالـت: «لا تعطـوني جرعـة أخـرى. أيًـا كان مـا أقولـه يـا ماتيـاس، ومهـما توسـلت إليكـم. لا أريـد أن أصبـح مثـل نسـتور أو مثـل هـؤلاء الغريشـا في

الزنزانـات».

«نينـا؛ لقـد قـال كيـواي إن أعـراض الانسـحاب قـد تقتلـك. لـن أتـركك تموتين».

كيـواي. عندمـا كانـوا في الخزانـة قـال ماتيـاس: «إنـه واحـد منـا». لقـد أحبـت نينـا هـذه الكلمـة: منـا. فإنهـا كلمـة تخلـو مـن التقسـيمات والحـدود. كلمـة تبـدو مليئـة بالأمـل.

تقلبـت نينـا وانتفـض جسـدها كلـه، وشـعرت بـأن ملابسـها مثـل الزجـاج المكسـور. قالـت: «مـن الممكـن أن أقتـل كل واحـد مـن الدروسـكل».

«نحـن جميعًـا نحمـل أوزارًا يـا نينـا. أريـدك أن تعيـشي حتى أسـتطيع التكفـير عـن آثامي».

«تستطيع فعل هذا من دوني كما تعلم».

فدفن ماتياس وجهه بين يديه، وقال: «لا أريد ذلك».

قالـت وهـي تمـرر أصابعهـا عـبر شـعر رأسـه مـن أعـلى: «ماتيـاس». وشـعرت بـألم رهيـب، بـل والعـالم كلـه يؤلمهـا. فلمسـه يـؤلم لكنهـا تلمسـه. وربمـا لا تلمسـه مـرة أخـرى مطلقًـا. قالـت: «أنـا آسـفة».

أخـذ ماتيـاس يدهـا وقبلهـا برفـق. وجفلـت نينـا، لكـن عندمـا حـاول الابتعـاد أمسـكت فيـه بقـوة.

قالـت وهـي تلهـث: «ابـق». وانسـابت الدمـوع مـن عينيهـا، وقالـت: «ابـق حتـى النهايـة».

قال: «سأبقى معكِ حتى بعدها. على الدوام».

«أريـد الشـعور بالأمـان مـرة أخـرى. أريـد العـودة إلى الوطـن؛ إلى رافـكا».

«إذًا، سـآخذك إلى هنـاك. سـوف نشـعل النـار في الزبيـب أو أيًـا مـا تفعلونـه أيهـا الوثنيـون مـن أجـل المـرح».

قالت بضعف: «متعصب».

«ساحرة».

«همجي».

همس: «نينا. أيها الطائر الأحمر الصغير. لا تذهبي».

-٤٤-

جاسبر

بينما أسرعت السفينة جنوبًا، بدا كأن الطاقم كله يتصرف بهدوء، فالجميع يتحدث بصوت منخفض ويمشي فوق السطح في سكون. وشعر جاسبر بالقلق على نينا مثل أي شخص -باستثناء ماتياس حسبما يعتقد- لكن من الصعب عليه تحمل هذا الصمت المهيب، فاحتاج إلى إطلاق الرصاص على شيء ما.

بدت فيروليند كسفينة أشباح، فقد التزم ماتياس البقاء مع نينا وطلب مساعدة ويلان في العناية بها. ورغم أن ويلان لم يحب الكيمياء، فإنه عرف عن العلاج بالإبر والمركبات الكيميائية أكثر من أي شخص في الطاقم باستثناء كيواي، ولم يستطع ماتياس فهم نصف ما يقوله كيواي. لم ير جاسبر ويلان منذ هروبهما من ميناء ديرهولم، وكاد يقسم إنه يفتقد قيامه بإزعاج الابن المدلل عندما يوجد بجواره. بدا كيواي ودودًا، لكنه يتحدث لغة كيرتش بصعوبة، ويبدو أنه لا يحب التحدث كثيرًا. أحيانًا يظهر على سطح السفينة بالليل ويقف في صمت بجوار جاسبر يحدق إلى الأمواج، فهذا يريح أعصابه قليلًا. وإيناج الوحيدة التي تريد التحدث مع أي شخص، وهذا يرجع إلى أنها أصبحت تهتم اهتمامًا كبيرًا بجميع الأشياء البحرية، فقضت معظم وقتها مع سبكت وروتي تتعلم أعمال البحرية وكيفية تجهيز وترتيب الأشرعة.

كثيرًا ما قال جاسبر إن هناك احتمالًا كبيرًا بألا يتمكنوا من العودة على الإطلاق، وإن الأمر سينتهي بهم في زنزانات في محكمة الجليد أو على رؤوس الرماح. لكنه أشار أيضًا إلى أنهم لو نجحوا في تحقيق المهمة المستحيلة لإنقاذ يول- بايور والوصول إلى فيروليند، فستصبح رحلة العودة إلى كتردام حفلة صاخبة. سيشربون أي شيء

يدخره سبكت في السفينة ويأكلون آخر حلوى التوفي التي تحتفظ بها نينا، ويسردون قصص نجاحهم في الهروب من الموت المحقق وجميع انتصاراتهم الصغيرة. لكنه لم يتوقع مطلقًا طريقة حصارهم في المرفأ، ومن المؤكد أنه لم يتخيل قط ما ستفعله نينا من أجل إخراجهم من الحصار.

شعر جاسبر بالقلق على نينا، لكن التفكير فيها يجعله يشعر بالذنب. عندما استقلوا السفينة وتحدث كيواي عن باريم بإيضاح، وجد هناك صوتًا خافتًا بداخله يدعوه إلى أن يعرض تناول هذه التركيبة أيضًا. ورغم أنه صانع من دون تدريب، فإنه ربما يستطيع المساعدة على سحب باريم من جسم نينا وتحريره منها. لكن هذا تفكير بطل، وقد توقف جاسبر منذ زمن طويل عن الاعتقاد بأنه يمتلك مواصفات البطل. فالبطل هو الذي تطوع لتناول باريم عندما واجههم الفيردانيون في المرفأ.

عندما لاحت كيرتش أخيرًا في الأفق، شعر جاسبر بمزيج غريب من الارتياح والخوف، فحياتهم على وشك التغير بطرق لا تزال تبدو غير حقيقية.

أنزلوا المرساة، وعندما أرخى الليل سدوله سأل جاسبر كاز عما إذا استطاع أن ينضم إليه وإلى روتي في القارب الذي سيأخذونه إلى المرفأ الخامس. ولم يحتج الاثنان إلى جاسبر ولكن وجب تشتيته.

رأوا فوضى كتردام كما هي؛ سفنًا تنزل حمولتها على أرصفة المرفأ والسياح والجنود خلال العطلات ينزلون من القوارب ويضحكون ويصيح بعضهم على بعض في طريقهم إلى باريل.

قال جاسبر: «تبدو الأمور كما هي منذ أن غادرنا».

رفع كاز حاجب، وقد عاد لارتداء بذلته السوداء والرمادية الملساء وربطة العنق الأنيقة. فقال: «ماذا توقعت؟».

قال جاسبر: «لا أعرف بالضبط».

لكنه أحس بشعور مختلف رغم الوزن المعتاد لمسدساته ذات

المقابض اللؤلؤية على وركيه والبندقية على ظهره. واستمر في التفكير في السيدة المتلاعبة بالأمواج وهي تصرخ في فناء الدروسكل ووجهها ذي النقط السوداء. نظر إلى أسفل نحو يديه. هل يريد أن يصبح صانعًا؟ أو أن يعيش كصانع؟ لم يستطع تحديد هويته؛ لكن هل يريد تطوير هذه القوة أم الاستمرار في إخفائها؟

ترك كاز روتي وجاسبر على الرصيف وذهب لإحضار ساعٍ ليبعث رسالة إلى فان إيك. وأراد جاسبر الذهاب معه لكن أمره كاز بأن يبقى مكانه، فشعر جاسبر بالضيق وانتهز الفرصة ليمد رجليه وهو يدرك أن روتي يراقبه، وشعر بأن كاز أمر روتي بأن يفعل ذلك، فهل اعتقد كاز أنه سينطلق لأقرب صالة قمار؟

تطلع جاسبر إلى السماء. لماذا لا يعترف بالأمر؟ إنه يشعر بالإغراء لفعل هذا. إنه يتحرق شوقًا لمجموعة من أوراق اللعب. ربما يجب أن يغادر كتردام بالفعل. وحالما يحصل على المال ويسدد ديونه، فسوف يصبح بإمكانه الذهاب إلى أي مكان في العالم. حتى رافكا. وتمنى جاسبر أن تتعافى نينا، وعندما تعود إلى طبيعتها سوف يجلس معها ويفكران في هذا الأمر. ولن يقدم التزامات فورية، لكنه يستطيع الزيارة على الأقل؛ ألا يمكنه ذلك؟

بعد نصف ساعة، عاد كاز برسالة تؤكد أن مندوبين من مجلس التجار سوف يقابلونه في فيلجلوك في فجر اليوم التالي.

قال كاز وهو يمد يديه بالورقة ليقرأها جاسبر: «انظر إلى هذه». وكانت التفاصيل تقول: تهانينا. بلدكم يشكركم.

تركت الكلمات شعورًا ممتعًا في صدر جاسبر، لكنه ضحك وقال: «ما دام بلدي يدفع نقدًا. هل يعرف المجلس أن العالِم ميت؟».

قال كاز: «ذكرت كل شيء في الرسالة التي بعثتها لفان إيك. أخبرته بأن بو يول- بايور ميت وأن ابنه حي وأنه كان يعمل على يوردا باريم لصالح الفيردانيين».

«هل ساوم؟».

«ليس في الرسالة. عبر عن «بالغ قلقه»؛ لكنه لم يذكر أي شيء

عن السعر. لقد أنجزنا مهمتنا. وسوف نرى ما إذا كان سيحاول التفاوض معنا لتقليل السعر عندما نصل إلى فيلجلوك».

وبينما جدفوا عائدين إلى فيروليند، سأل جاسبر: «هل سيأتي ويلان معنا لمقابلة فان إيك؟».

قال كاز وأصابعه تنقر على رأس الغراب في عصاه: «كلا. سيوجد ماتياس معنا، ويجب أن يبقى أي شخص للعناية بنينا. وعلاوة على ذلك، فلو احتجنا إلى استخدام ويلان من أجل ليّ ذراع أبيه فمن الأفضل ألا نظهر كل أوراقنا في وقت مبكر جدًا».

بدا كل هذا منطقيًا، وأيًا كان الخلاف بين ويلان وأبيه، فقد شك جاسبر في أن ويلان يريد التحدث عنه أمام الدريجز وماتياس.

قضى ليلة يشوبها الأرق وهو يتقلب في أرجوحته الشبكية، واستيقظ على فجر ضبابي رطب، ووجد الرياح ساكنة وبدا البحر ثابتًا ولامعًا كأنه بركة مياه.

تمتمت إيناج وهي تنظر إلى فيلجلوك: «سماء عنيدة». وكانت محقة في ذلك؛ فلم تكن هناك سحب في الأفق، لكن الهواء معبق بالرطوبة كأن عاصفة ترفض أن تتشكل فحسب.

أخذ جاسبر يتفحص الرصيف الخالي. ومن المفترض أن يأتي ويلان لتوديعهم، لكن لا يمكن ترك نينا وحدها.

سأل جاسبر ماتياس: «كيف حالها؟».

قال الفيرداني: «ضعيفة. إنها غير قادرة على النوم. لكننا جعلناها تتناول بعض المرق، ويبدو أنها استطاعت منع نفسها من التقيؤ».

وعرف جاسبر أنه يتصرف بغباء وأنانية؛ لكن ظل جزء منه يتساءل عما إذا كان ويلان يتجنبه عمدًا خلال رحلة العودة. ربما بعد أن اكتملت المهمة الآن واقترب ويلان من نيل نصيبه من الغنيمة، فإنه ربما يتوقف عن مصادقة المجرمين.

سأل جاسبر بينما يخرجون هو وكاز وماتياس وإيناج وكيوي صفًا من فيروليند مع روتي: «أين القارب الطويل الآخر؟»

قال كاز: «به بعض الإصلاحات والصيانة».

بدت فيلجلوك مسطحة للغاية لدرجة أنها ظهرت بالكاد عندما بدؤوا يجدفون في المياه. وكان عرض الجزيرة أقل من ميل؛ حيث بدت كبقعة قاحلة من الرمال والصخور التي تعلوها أساسات متهدمة لبرج قديم يستخدمه مجلس المياه. وقد أطلق عليها المهربون اسم فيلجلوك؛ أي «الحظ الطيب» بسبب الرسومات التي لا تزال واضحة على قاعدة لما كان من المحتمل أن يصبح برج مسلة: دوائر ذهبية تمثل العملات المعدنية والرموز المفضلة لجيزين؛ رمز الصناعة والتجارة. لقد أتى جاسبر وكاز إلى هذه الجزيرة من قبل لمقابلة مهربين. كانت بعيدة عن موانئ كتردام؛ بل بعيدة عن دورية مراقبة المرفأ وتخلو من المباني أو الخلجان الصغيرة التي يمكن نصب كمائن بها. إنها مكان مثالي يلتقي فيه أي أطراف يتوخون الحذر.

رست سفينة شراعية قبالة الشاطئ الآخر وارتخت أشرعتها بلا فائدة. لقد شاهدها جاسبر وهي تتقدم ببطء من كتردام في وقت مبكر من الفجر كأنها نقطة سوداء صغيرة تحولت تدريجيًّا إلى بقعة ضخمة في الأفق. واستطاع سماع البحارة ينادون بعضهم البعض وهم يجدفون. وعندئذ أنزل الطاقم قاربًا مليئًا بالرجال على الجانب.

عندما رسا قاربهم على الشاطئ قفز جاسبر والآخرون خارجه وشدوه فوق الرمال. تفحص جاسبر مسدساته ورأى إيناج تلمس سريعًا كل سكين من سكاكينها وشفتاها تتحركان. وعدل ماتياس وضع البندقية المربوطة على ظهره وحرك كتفيه الضخمتين. وشاهد كيواي كل هذا في صمت.

قال كاز: «حسنًا. لنصبح أثرياء».

قال روتي الذي رضي بالانتظار مع القارب: «لا حداد».

ردوا عليه: «لا جنازات».

ساروا نحو منتصف الجزيرة: كيواي وراء كاز وجاسبر وإيناج على جانبيه. وعندما ازداد اقترابهم، رأى جاسبر شخصًا يرتدي بدلة تاجر

سـوداء يقـترب منهـم بصحبـة رجـل شـاوي طويـل شـعره غامـق معقـود عنـد مؤخـرة عنقـه تتبعهـما مجموعـة مـن الحـراس الذيـن يرتـدون المعاطـف البنفسـجية ويحملـون العـصي والبنـادق. وهنـاك رجـلان يحمـلان صندوقًـا ثقيـلًا ويترنحـان قليـلًا بسـبب ثقـل وزنـه.

قال كاز: «إذًا، هكذا تبدو ثلاثون مليون كروج».

أطلق جاسبر صفيرًا قصيرًا، وقال: «أرجو ألا يغرق القارب».

سـأل كاز الرجـل الـذي يرتـدي بدلـة سـوداء: «أنـت فقـط يـا فـان إيـك؟ ألا يهتـم بقيـة مجلـس التجـار؟».

إذًا، كان هـذا فـان إيـك؛ أنحـف مـن ويـلان وخـط الشـعر أعـلى لكـن مـن المؤكـد أن جاسـبر اسـتطاع رؤيـة الشـبه بينهـما.

«يعتقـد المجلـس أني الأفضـل للمهمـة؛ حيـث إننـا أجرينـا تعامـلات مـن قبـل».

قـال كاز وهـو يلقـي نظـرة عـلى الياقوتـة الحمـراء المعلقـة في ربطـة عنـق فـان إيـك: «دبـوس جميـل».

«لكنه ليس بجمال الدبوس الآخر».

زم فـان إيـك شـفتيه قليـلًا وقـال للرجـل الشـاوي بجانبـه: «الآخـر مـيراث لي. حسـنًا؟».

قـال الشـاوي: «هـذا كيـواي يـول- بـو. لقـد مـر عـام منـذ أن رأيتـه. إنـه أطـول قليـلًا الآن لكنـه صـورة طبـق الأصـل مـن أبيـه». ثـم قـال شـيئًا لكيـواي باللغـة الشـاوية وانحنـى لـه انحنـاءة قصـيرة.

ألقـى كيـواي نظـرة عـلى كاز ثـم انحنـى بـدوره. واسـتطاع جاسـبر رؤيـة لمعـان العـرق فـوق جبينـه.

ابتسـم فـان إيـك وقـال: «يجـب أن أقـر بأننـي مندهـش يـا سـيد بريكـر. مندهـش، لكننـي مـسرور».

«اعتقدت أننا لن ننجح».

«لنقل إنني اعتقدت أن نجاحكم احتمال ضعيف».

«هل هذا سبب قيامك بالحذر في رهانك؟».

«آه، إذًا لقد تحدثت مع بيكا رولينز؟».

قـال كاز بينـما تذكـر جاسـبر الدمـاء التـي رآهـا عـلى قميصـه في السـجن: «إنـه ثرثـار كبير عندمـا تضعـه في الحالـة العقليـة الصحيحـة. قـال إنـك تعاقـدت معـه ومـع أسـود الدايـم للسـعي وراء يـول- بايـور مـن أجـل مجلـس التجـار أيضًـا».

وتسـاءل جاسـبر بـشيء مـن القلـق عـن الأشـياء الأخـرى التـي ربمـا يكـون رولينـز قـد أخبرهـا لـكاز.

هز فان إيك كتفيه وقال: «كان من الأفضل أن يصبح آمنًا».

«ولمـاذا تهتمـون لـو فجـرت مجموعـة فـئران بعضهـا البعـض سـعيًا وراء جائــزة؟».

«لقـد عرفنـا أن احتـمالات نجـاح كل فريـق ضئيلـة. وبصفتـك مقامـرًا، فأرجـو أن تتفهـم الأمـر».

لكــن لم يفكــر جاســبر مطلقًــا بــأن كاز مقامــر. فالمقامــرون يتركــون شــيئًا للصدفــة.

قال كاز: «ثلاثون مليون كروج سوف تداوي مشاعري المجروحة».

أشـار فـان إيـك للحـراس وراءه فحملـوا الصنـدوق ووضعـوه أرضًـا أمـام كاز. فجثـم كاز بجانبـه وفتـح الغطـاء. وحتـى مـن بعيـد، اسـتطاع جاسـبر رؤيـة أكـوام العمـلات الورقيـة باللـون البنفسـجي الباهـت المزخرفـة بالأسـماك الثـلاث الطائـرة صفًـا وراء الآخـر والموضوعـة داخـل حـزم ورقيـة مغلقـة بالشـمع.

أخذت إيناج نفسًا عميقًا.

قال ماتياس: «حتى أموالكم ذات لون غريب».

وأراد جاسـبر أن يمـرر يديـه فـوق تلـك الأكـوام الرائعـة. لقـد أراد أن يسـتحم فيهـا. وقـال: «أعتقـد أن لعـابي قـد سـال للتـو».

وأخـرج كاز أحـد الأكـوام وأخـذ يتفحصـه بإبهامـه المغلـف بالقفـاز ثـم وضـع يـده أسـفل طبقـة أخـرى للتأكـد مـن أن فـان إيـك لا يحـاول خداعهـم.

قال كاز: «المبلغ كله هنا».

ومـد نظـره باتجـاه كيـواي وأشـار إليـه ليتحـرك إلى الأمـام. فعـبر

الفتـى المسـافة القصـيرة، وأشـار فـان إيـك لـه ليقـف بجانبـه وربـت ظهـره.

ثـم نهـض كاز وقـال: «حسـنًا يـا فـان إيـك. كنـت أود أن أقـول إن هـذا مـن دواعـي سروري لكنـي لا أجيـد الكـذب. سـوف نغـادر».

وقـف فـان إيـك أمـام كيـواي، وقـال: «أخـشى أننـي لـن أسـتطيع السـماح بذلـك يـا سـيد بريكـر».

فاسـتند كاز إلى عصـاه ونظـر إلى فـان إيـك بحـدة، وقـال: «هـل هنـاك مشكلة؟».

«أرى العديـد مـن الأشـخاص أمامـي. ومـن المسـتحيل أن أدعكـم تغـادرون هـذه الجزيـرة».

ثـم أخـرج صافـرة مـن جيبـه وأطلـق نغمـة حـادة. وفي اللحظـة نفسـها، أخـرج خدامـه أسـلحتهم وأتـت ريـاح مـن العـدم - عاصفـة عاتيـة غـير طبيعيـة تـدور حـول الجزيـرة الصغـيرة بينـما بـدأ البحـر يرتفـع.

فرفـع البحـارة بجـوار قـارب السـفينة الشراعيـة أذرعهـم، فاجتمعـت الأمـواج وراءهـم.

قال ماتياس وهو يمد يده نحو بندقيته: «متلاعبون بالأمواج».

ثم انطلق شخصان آخران من رصيف السفينة.

صاح جاسبر: «متلاعبون بالهواء! إنهم يستخدمون باريم!».

ودار المتلاعبـون بالهـواء في السـماء، والريـاح تـضرب الهـواء مـن حولهـم.

قـال كاز وقـد ضاقـت عينـاه السـوداوان: «لقـد احتفظـت بجـزء مـن المخـزون الـذي أرسـله بـو إلى المجلـس».

ثـم رفـع المتلاعبـون بالهـواء أذرعهـم؛ فأطلقـت الريـاح صوتًـا عاليًـا حـادًا.

فمـد جاسـبر يديـه نحـو مسدسـاته. ألم يكـن يريـد شـيئًا يطلـق عليـه الرصـاص؟ فقـال لنفسـه بـشيء مـن الترقـب: أعتقـد أن هـذا المـكان هـو حظـي السـعيد. يبـدو أننـي عـلى وشـك أن أنـال أمنيتـي.

قال كاز وهو يرفع صوته مع أصوات العاصفة المتزايدة: «الاتفاق اتفاق رغم كل شيء يا فان إيك. لو لم يلتزم المجلس بكلمته في هذا الاتفاق؛ فلن يقوم أي واحد من باريل بالتهريب مع أي واحد منكم مرة أخرى. ستصبح وعودكم عديمة القيمة».

«ستصبح هذه مشكلة يا سيد بريكر لو كان المجلس يعرف أي شيء عن هذا الاتفاق».

فهم كاز الأمر بسرعة مريعة، وقال: «إنهم لم يشتركوا في هذا مطلقًا». لماذا صدق أن فان إيك حصل على مباركة مجلس التجار؟ هل لأنه تاجر ثري نزيه؟ أم لأنه يجعل خدامه وجنوده يرتدون ملابس بنفسجية مثل حراس المدينة؟ لقد قابل كاز فان إيك في منزل التاجر، وليس في مبنى حكومي؛ لكنه خُدع بالمظاهر. ها هو هيرتزون ومقهاه يظهران أمامه مرة أخرى؛ لكن الآن أصبح كاز كبيرًا بما فيه الكفاية ليفهم الأمور على نحو أفضل.

«لقد أردت يول- بايور. لقد أردت تركيبة باريم».

أقر فان إيك بالحقيقة بإيماءة من رأسه وقال: «الحياد ترف تستمتع به كيرتش من زمن بعيد. ويعتقد أعضاء المجلس أن ثرواتهم تحميهم وأنهم يستطيعون الجلوس وعد الأموال بينما يتقاتل العالم من حولهم».

«وهل تعرف أفضل منهم؟».

«في الحقيقة أعرف. عقار يوردا باريم ليس سرًا يمكن الاحتفاظ به أو إيقافه أو إخفاؤه داخل مقصورة على الحدود الزيمينية».

«إذًا، فكل حديثك عن خطوط التجارة وانهيار الأسواق ــــــــــــ ــــــــــــ».

«آه، سوف يحدث ما توقعته بالضبط يا سيد بريكر. أنا أعتمد على هذا. فبمجرد أن تلقى المجلس رسالة بو يول- بايور، بدأت أشتري حقول اليوردا في نوفي زيم. وعندما ينطلق عقار باريم في العالم، فسوف يهب كل بلد وكل حكومة طلبًا لإمداد جاهز منه لاستخدامه على الغريشا لديها».

قال ماتياس: «ستعم الفوضى».

قال فان إيك: «نعم. ستعم الفوضى وسأكون سيدها. سيدها الثري جدًّا».

قالت إيناج: «سوف تضمن بهذا استعباد وموت الغريشا في كل مكان».

ارتفع حاجبا فان إيك، وقال: «كم عمرك يا فتاة؟ ستة عشر؟ سبعة عشر؟ تنهض أمم وتسقط أخرى، وتبرز أسواق وتنهار أخرى. وعندما يتغير ميزان القوى، دائمًا ما يعاني شخص ما».

رد عليه جاسبر: «عندما تتغير الأرباح».

قال فان إيك، وقد بدا الارتباك على وجهه: «أليس الاثنان شيئًا واحدًا؟».

همت إيناج بالقول: «عندما يكتشف المجلس ______________________»

قال فان إيك: «لن يسمع المجلس عن هذا مطلقًا. لماذا باعتقادك اخترت حثالة من باريل كأبطال لي؟ آه، لا بد من أن أعترف أنكم واسعو الحيلة وأكثر براعة من أي مرتزقة؛ وأقر لكم بذلك. لكن الأهم من ذلك هو أنه لن يفتقدكم أحد».

ورفع يده فأدار المتلاعبون بالأمواج أذرعهم. وسمع كاز صرخة واستدار ليرى عمودًا من الماء يظهر فوق روتي. فارتطم عمود الماء بالقارب وحطمه إلى أجزاء صغيرة بينما غطس روتي للنجاة بحياته.

«لن يغادر أي واحد منكم هذه الجزيرة حيًّا يا سيد بريكر. سوف تختفون جميعًا، ولن يهتم بكم أحد». ثم رفع فان إيك

يـده مـرة أخـرى واسـتجاب المتلاعبـون بالأمـواج. فاندفعـت موجـة هائلـة نحـو فيرولينـد.

صرخ جاسبر: «كلا!».

صاح كاز: «فان إيك! ابنك على هذه السفينة».

اتجهـت أنظـار فـان إيـك نحـو كاز، ونفـخ في الصافـرة فتجمـد المتلاعبـون بالأمـواج في انتظـار التعليـمات. ثـم أنـزل فـان إيـك يـده بـتردد. فترك المتلاعبـون الأمـواج تسقط دون أذى، واصطدمـت بجانـب فيرولينـد.

قال فان إيك: «ابني؟».

«ويلان فان إيك».

«سـيد بريكـر، أنـت تعـرف بالتأكيـد أنني أرسـلت ابنـي في رحلـة منـذ شـهور».

«أعـرف أنـك كنـت تكتـب لويـلان كل أسـبوع منـذ أن غـادر منزلـك تتوسـل إليـه أن يعـود. هـذه ليسـت أفعـال رجـل لا يبـالي بابنـه ووريثـه الوحيد».

بـدأ فـان إيـك يضحـك، ضحكـة ودود تـكاد تكـون مرحـة؛ لكـن انتهـت بخشـونة ومـرارة.

«دعنـي أحدثـك عـن ابنـي». ولفـظ كلمـة ابنـي كأنهـا سـم عـلى شـفتيه. ثـم قـال: «لقـد شـاء قـدره أن يكـون وريـث إحـدى أكـبر الـثروات في جميـع أرجـاء كيرتـش مـع خطـوط شـحن تصـل إلى جميـع أرجـاء الأرض؛ وهـي إمبراطوريـة بناهـا أبي وجـدي. لكـن ابنـي الفتـى الـذي قُـدر لـه أن يحكـم هـذه الإمبراطوريـة العظيمـة لا يسـتطيع أن يفعـل مـا يفعلـه طفـل في السـابعة مـن عمـره. إنـه يسـتطيع حـل معادلـة، ويسـتطيع الرسـم والعـزف عـلى النـاي بطريقـة رائعـة جـدًّا. ولكـن مـا لا يسـتطيع ابنـي أن يفعلـه يـا سـيد بريكـر هـو القـراءة. ولا يسـتطيع الكتابـة. لقـد اسـتعنت بأفضـل المدرسـين الخصوصيـين مـن جميـع أنحـاء العـالم، وجربـت المتخصصـين والمقويـات والـضرب

والتنويم المغناطيسي، لكنه رفض أن يتعلم. وفي النهاية، اضطررت إلى تقبل أن جيزين لعنتني بطفل متخلف. إن ويلان فتى لن يكبر مطلقًا ليصبح رجلًا. إنه عار على منزلي».

قال جاسبر وقد استطاع كاز رؤية الغضب على وجهه: «هذه الخطابات.. إنك لم ترجُه أن يعود. لقد سخرت منه».

وكان جاسبر محقًا. فمن بين كلماته: لو تمكنت من قراءة هذا، فسوف تعرف أنني أتمنى عودتك إلى المنزل. وكان كل خطاب يمثل صفعة على وجه ويلان أو مزحة قاسية.

قال جاسبر: «إنه ابنك».

«كلا؛ إنه غلطة. غلطة سأصلحها قريبًا. زوجتي الشابة الحبيبة حامل بطفل، وسواء ولدت صبيًا أم فتاة أم مخلوقًا بقرون، سيصبح هذا المولود هو وريثي، وليس هذا الأحمق الضعيف الذي لا يستطيع قراءة كتاب الصلوات؛ ناهيك بسجل الحسابات. ذلك المغفل الذي سيجعل اسم فان إيك أضحوكة».

قل جاسبر بغضب: «أنت المغفل. إنه أكثر ذكاءً منا جميعًا. إنه يستحق أبًا أفضل منك».

قال فان إيك معقبًا: «بل قل كان يستحق». ونفخ في الصافرة مرتين.

فلم يتردد المتلاعبون بالأمواج. وقبل أن يبدي أحد أي اعتراض، ارتفع حائطان ضخمان من المياه وانطلقا نحو فيروليند. سحق الحائطان السفينة في المنتصف بصوت مدو فتناثر الحطام في كل مكان.

صرخ جاسبر غاضبًا ورفع مسدساته.

قال كاز آمرًا: «جاسبر! أخفض سلاحك!».

قال جاسبر بوجه يعتصره الألم: «لقد قتلهما. قتل ويلان ونينا».

وضع ماتياس يده على ذراعه، وقال بهدوء: «جاسبر. اهدأ».

فنظر جاسبر مرة أخرى إلى الأمواج المتلاطمة على الأجزاء

المكسورة من الصاري والأشرعة الممزقة في المكان الذي تحطمت فيه السفينة قبل ثوانٍ، وقال: «أنا لا.. أنا لا أفهم».

قال فان إيك: «أقر بأنني متفاجئ قليلًا يا سيد بريكر. فلم تذرف الدموع؟ ولِمَ تبدي اعتراضًا حقيقيًا على طاقمك المفقود؟ لقد نشأت على القسوة في باريل».

قال كاز: «القسوة والحذر».

«لست حذرًا بما فيه الكفاية. على الأقل لن تعيش لتندم على أخطائك».

«أخبرني يا فان إيك، هل ستكفر عن ذنبك؟ يغضب جيزين من نقض العهود».

انتفخت فتحتا أنف فان إيك، وقال باشمئزاز: «ماذا قدمت أنت للعالم يا سيد بريكر؟ هل صنعت ثروة؟ هل حققت النجاح؟ كلا. أنت تسرق من الرجال والسيدات الشرفاء وتخدم نفسك فقط. يُظهر جيزين عطفه لمن يستحق ولمن يبني المدن وليس للفئران الذين يقوضون الأساسات. إنه يباركني ويبارك تعاملاتي. أنت ستموت وتهلك وأنا سأعيش وأنجح. هذه هي إرادة جيزين».

«هذه هي المشكلة يا فان إيك. سوف تحتاج إلى كيواي يول-بو لفعل هذا».

«وكيف ستأخذه مني؟ أنتم محاصرون، ونحن أكثر منكم نفيرًا وسلاحًا».

«لست مضطرًا إلى أخذه منك، فأنت لم تحصل عليه في الأساس. هذا ليس كيواي يول- بو».

«هذه خدعة عقيم على الأرجح».

«لا أهتم كثيرًا بالخداع، أليس كذلك يا إيناج؟».

«ليس كقاعدة».

التوت شفتا فان إيك، وقال: «ولماذا هذا؟».

قال الفتى الذي لم يكن كيواي يول- بو بلغة كيرتش بطريقة

مثاليـة تخلـو مـن أي لكنـة: «لأنـه يفضـل الغـش».

أصابت الدهشة فان إيك عندما سمع صوته، وجفل جاسبر.

رفع الفتى الشاوي يدًا وقال: «ادفع يا كاز».

تنهـد كاز وقـال: «أكـره عندمـا أخـسر رهانًـا. كـما تـرى يـا فـان إيـك، لقـد تحـداني ويـلان عـلى أن ضمـيرك لـن يؤنبـك بشـأن إنهـاء حياتـه. يمكنـك القـول إننـي رقيـق المشـاعر، لكنـي لم أصـدق أن هنـاك أبًـا بمثـل هـذه القسـوة».

حـدق فـان إيـك إلى كيـواي يـول- بـو، أو الفتـى الـذي صـدق أنـه كذلـك، وشـاهده كاز يقـاوم حقيقـة سـماع صـوت ويـلان الـذي يخـرج مـن فـم كيـواي. وبـدا الشـك واضحًـا عـلى وجـه جاسـبر أيضًـا. ولكنـه سـيحصل عـلى تفسـير بعـد أن يعطيـه كاز مالـه.

قال فان إيك: «هذا مستحيل».

فمـن غـير المحتمـل أن يحـدث هـذا. لطالمـا كانـت نينـا مغيرة للشـكل ومقبولـة المسـتوى في أفضـل الأحـوال، لكـن تحـت تأثـير يـوردا باريـم؛ حسـنًا كـما قـال فـان إيـك ذات مـرة: «يصبـح مـن الممكـن تنفيـذ أشـياء يفـترض بهـا أن تصبـح غـير ممكنـة». فهـا هـي نسـخة شـبه مثاليـة مـن كيـواي يـول- بـو تقـف أمامهـم، لكنـه يمتلـك صـوت ويـلان وتصرفاتـه، ورغـم أن كاز اسـتطاع رؤيـة الخـوف والأذى في عينيـه الذهبيتـين، فقـد رأي شـجاعته المدهشـة أيضًـا.

بعـد المعركـة في مينـاء ديرهـولم، أتى الطفـل المدلـل إلى كاز ليحـذره أنه لا يسـتطيع اسـتخدامه كأداة للتأثـير في أبيـه. كان ويـلان ممتقـع الوجـه ويتحـدث بصعوبـة عـن «بلـواه» المفترضـة. فهـز كاز كتفيـه فحسـب. فبعـض الرجـال شـعراء، وبعضهـم مزارعـون، وبعضهـم تجـار أغنيـاء. ولكـن اسـتطاع ويـلان أن يرسـم المنظـر الأمامـي للمبـاني، وصنـع مثقابًـا اسـتطاع قطـع زجـاج الغريشـا مـن مجـرد أجـزاء مـن البوابـة وقطـع مهملـة مـن المجوهـرات. إذًا، فـما الخطـأ إن لم يسـتطع القـراءة؟

وقـد توقـع كاز أن يـتردد الفتـى أمـام فكـرة تغيـير شـكله لـكي يبـدو

مثل كيواي، فهذا تحول يتجاوز قدرة أي غريشا لا يستخدم باريم. وقد أخبره محذرًا إياه: «ربما يصبح التحول دائمًا».

لم يهتم ويلان لذلك، وقال: «يجب أن أعرف. مرة وإلى الأبد يجب أن أعرف ما يعتقده أبي بشأني حقًّا».

والآن بات يعرف.

نظر فان إيك إلى ويلان وهو يبحث عن شيء يدل على ملامح ابنه وقال: «لا يمكن».

فسار ويلان نحو جانب كاز، وقال: «ربما تستطيع الصلاة لجيزين طلبًا للفهم يا أبي».

كان ويلان أطول قليلًا من كيواي ووجهه أكثر استدارة. لكن رآهما كاز جنبًا إلى جنب والتشابه مذهل للغاية. فإن عمل نينا الذي تم على السفينة قبل أن تتلاشى النشوة الاستثنائية الأولى يخلو من أي أخطاء تقريبًا.

ظهر الغضب على ملامح فان إيك الذي قال لويلان بصوت كالفحيح: «عديم القيمة. أعرف أنك أحمق؛ لكن خائن أيضًا؟».

«أحمق كان من المحتمل أن يوجد على متن هذه السفينة التي تحطمت لقطع صغيرة. وبالنسبة إلى «خائن»، فقد أطلقت عليّ أوصافًا أسوأ في الدقائق القليلة الأخيرة وحدها».

قال كاز لفان إيك: «فكر فحسب: ماذا لو كان كيوي يول بو الحقيقي على متن السفينة التي حولتها إلى حطام للتو؟».

بدا صوت فان إيك هادئًا، لكن حمرة الغضب زحفت على عنقه وهو يقول: «أين كيوي يول- بو؟».

«دعنا نغادر هذه الجزيرة بأموالنا، وسيسعدني أن أخبرك بمكانه».

«ليست لديك طريقة للخروج من هذا يا بريكر، فطاقمك الصغير لا يضاهي الغريشا التابعين لي قوة».

هز كاز كتفيه، وقال: «اقتلنا ولن تعرف مكان كيواي مطلقًا».

ويبدو أن فان إيك فكر في هذا الأمر. فلقد تراجع إلى الوراء

وصاح: «أيها الحراس التفوا حولي! اقتلوا الجميع باستثناء بريكر!».

وعرف كاز اللحظة التي قد يرتكب فيها غلطة، فقد عرفوا جميعًا أن الأمر ربما يصل إلى هذا الحد. يجب أن يثق بفريقه. يجب أن تبقى عيناه ثابتتين على فان إيك. لكن في لحظة التهديد تلك بينما يجب أن يفكر في القتال، لم ينظر إلا إلى إيناج.

ولاحظ فان إيك هذه النظرة، فنفخ في صافرته، وقال: «اتركوا الآخرين! أحضروا المال والفتاة».

ولكن غريزة كاز أخبرته: اثبت مكانك. إن فان إيك يمتلك المال. إنه المفتاح. تستطيع إيناج الدفاع عن نفسها؛ وهي بيدق وليست الجائزة. لكنه استدار وجرى بالفعل للوصول إليها بينما يهاجمها الغريشا.

وصل المتلاعبون بالأمواج إليها أولًا واختفوا في الضباب ثم ظهروا مرة أخرى بجانبها. لكن أحمق مَن يحاول التغلب على إيناج في اشتباك قريب. والمتلاعبون سريعون، حيث كانوا يختفون ويظهرون مرة أخرى ويمسكون بها. لكنه شبح ريث، فشقت سكاكينها طريقها نحو القلب والحلق والطحال، وسالت الدماء على الرمال عندما تكوم المتلاعبون أرضًا جثثًا هامدة.

ثم لمح كاز حركة من زاوية عينه، متلاعب بالهواء يسرع نحو إيناج.

صاح كاز: «جاسبر!».

أطلق جاسبر الرصاص؛ فوقع المتلاعب بالهواء أرضًا.

ولكن المتلاعب الثاني بالهواء كان أكثر ذكاءً، فقد نزل إلى مستوى منخفض وأخذ ينزلق فوق الأنقاض. وأطلق جاسبر وماتياس الرصاص لكنهما اضطرا إلى مواجهة الشمس، ولم يستطع جاسبر حتى التصويب بدقة. فانطلق المتلاعب بالهواء نحو إيناج وصعد بها بسرعة نحو السماء.

شجعها كاز في صمت وهو يخرج مسدسه: اثبتي. لكنها لم تفعل.

فأدارت جسدها وطعنت. وبدت صرخة المتلاعب بعيدة. فقد ترك إيناج فسقطت أرضًا واندفعت نحو الرمال. وجرى كاز نحوها دون تفكير أو خطة.

مرق شيء ضبابي أمام ناظري كاز، وانقض متلاعب ثالث بالهواء وأمسك بإيناج قبل أن تلمس الأرض بثوانٍ وضربها بقوة على رأسها، ورأى كاز جسد إيناج وهو يرتخي.

صرخ ماتياس: «أسقطه».

صاح كاز: «كلا! لو أطلقت النار عليه، لوقعت هي أيضًا!».

راوغ الغريشا لأعلى بعيدًا عن نطاقهم، وهو يمسك إيناج بين ذراعيه.

ولم يوجد شيء يستطيعون فعله باستثناء الوقوف مثل الحمقى ومشاهدتها وهي تبتعد شيئًا فشيئًا في السماء - كقمر بعيد أو نجم متلاشٍ ثم اختفت.

اجتمع حراس فان إيك والغريشا التابعون له ودفعوا التاجر وصندوق المال عبر الهواء إلى السفينة الشراعية التي تنتظرهم. لقد تلاشى الانتقام لجوردي الذي كان كاز يعمل من أجله. ولكنه لم يهتم لذلك.

صاح فان إيك: «أمامك أسبوع واحد لتحضر لي كيواي الحقيقي، وإلا فستصل صرخات الفتاة فيردا. وإذا لم يحفزك هذا، سأذيع خبر أنك تأوي أكثر الرهائن قيمة في العالم. سوف يسعى وراءك أنت والدريجز كل عصابة وحكومة ومهرب وجاسوس. ولن تجد مكانًا لتختبئ به».

قال جاسبر والبندقية فوق كتفه: «كاز، أستطيع إصابته. لا يزال فان إيك في نطاقي».

عندئذ سوف يضيع كل شيء - إيناج والمال وكل شيء.

قال كاز: «كلا. دعهم يذهبوا».

كان البحر هادئًا ولا توجد نسمة هواء، لكن ملأ المتلاعبون

بالهـواء الباقـون لـدى فـان إيـك أشرعـة السـفينة بريـاح قويـة.

فشـاهد كاز السـفينة وهـي تشـق الماء نحـو كـتردام، نحـو الأمـان، نحـو قلعـة أقيمـت عـلى سـمعة فـان إيـك كتاجـر نزيـه لا غبـار عليـه. وشـعر كاز بأنـه ينظـر عـبر النوافـذ الغامقـة للمنـزل في شـارع زيلفـار. فهـا هـو عاجـز مـرة أخـرى. وهـا هـو يصـلي للإلـه الخطأ مـرة أخـرى.

أنزل جاسبر بندقيته ببطء.

قـال ماتيـاس: «سـوف يرسـل فـان إيـك جنـودًا وغريشـا للبحـث عـن كيـواي».

«لـن يجـده ولـن يجـد نينـا». فإنهـما ليسـا في منـزل سـلات أو في أي جـزء مـن باريـل أو في أي مـكان في كـتردام. ففـي الليلـة السـابقة، أمـر كاز سـبكت بـأن يأخـذ كيـواي ونينـا مـن فيرولينـد في القـارب الثـاني -القـارب الـذي أخـبر جاسـبر بأنـه يخضـع للإصـلاح والصيانـة. إنهـم يختبئـون بأمـان في الأقفـاص المهجـورة أسـفل بـرج السـجن في بوابـة الجحيـم، فقـد قـام كاز ببعـض الاسـتقصاء والتحـري عندمـا زار المرفـأ مـن أجـل التواصـل مـع فـان إيـك. وبعـد الكارثـة التـي وقعـت في بوابـة الجحيـم، أُغرقـت الأقفـاص لتطهيرهـا مـن الوحـوش والجثـث، وأخليـت منـذ ذلـك الحـين. وقـد كـره ماتيـاس تـرك نينـا تذهـب إلى أي مـكان مـن دونـه خاصـة في حالتهـا الراهنـة؛ لكـن كاز أقنعـه بـأن بقاءهـا هـي وكيـواي عـلى مـتن فيرولينـد سـيعرضهما للخطـر.

وتعجـب كاز مـن غبائـه، فإنـه أغبـى مـن مغفـل خـرج لتـوه مـن القـارب ويتطلـع إلى كسـب ثـروة في إيسـت سـتاف. وكانـت أكـبر نقطـة ضعـف لديـه بجانبـه. وهـا هـي الآن قـد ذهبـت.

حـدق جاسـبر إلى ويـلان وعينـاه تجـولان في الشـعر الأسـود والعينـين الذهبيتـين، ثـم قـال أخـيرًا: «لمـاذا؟ لمـاذا فعلـت هـذا؟».

هز ويلان كتفيه، وقال: «لقد احتجنا إلى أداة للتأثير».

«هكذا يتحدث كاز».

«لم أستطع ترككم تدخلون موقفًا ضعيفًا، وأنتم تعتقدون أنني ضمانة من نوع ما».

«هل قامت نينا بتغيير شكلك؟».

«في الليلة التي غادرنا فيها ديرهولم».

قال جاسبر: «هذا هو سبب اختفائك خلال الرحلة. فأنت لم تساعد ماتياس في العناية بنينا. لقد اختبأت».

«لم أختبئ».

«أنت.. كم مرة وقفت بجانبي على سطح السفينة في الليل بينما اعتقدت أنك كيواي؟».

«في كل مرة».

«ربما لا تستطيع نينا إعادتك كما تعرف. ليس من دون جرعة أخرى من باريم. ربما تعلق بهذا الشكل».

«ما سبب أهمية ذلك؟».

قال جاسبر بغضب: «لا أعرف! ربما أحب وجهك الغبي». ثم استدار إلى ماتياس وقال: «لقد كنت تعرف. وويلان يعرف. وإيناج تعرف. الجميع يعرف إلا أنا».

قال كاز وقد نفد صبره: «سلني عن السبب يا جاسبر».

تململ جاسبر في وقفته وقال: «لماذا؟».

«لأنك الشخص الذي باعنا إلى بيكا رولينز». وأشار إليه بإصبع الإتهام وقال: «أنت سبب تعرضنا للكمين عندما حاولنا مغادرة كتردام. كدت تعرضنا للقتل».

«لم أخبر بيكا رولينز أي شيء. لم أفعل قط ______________

___»

«أخبرت واحدًا من عصابة أسود الدايم أنك ستغادر كيرتش

وأنـك سـتعود بالكثـير مـن النقـود، أليـس كذلـك؟».

ازدرد جاسـبر ريقـه، وقـال: «اضطـررت إلى ذلـك. هـددوني بشـدة. مزرعـة والـدي ــــــــــــــــ»

«لقـد أخبرتـك بـألا تقـول لأي شـخص إنـك سـتغادر البـلاد. ونبهتـك إلى إغـلاق فمـك».

«لم يكـن أمامـي خيـار آخـر! لقـد حبسـتني في نـادي الغـراب قبـل أن نغـادر. لـو تركتنـي ــــــــــــــــ»

التفـت كاز إليـه وقـال: «أتـركك تفعـل مـاذا؟ تلعـب لعبـة قـمار ثـري مـان برامبـل؟ أم توقـع نفسـك في مشـكلات أكـبر مـع كل رئيـس عصابـة في باريـل غبـي بمـا فيـه الكفايـة لزيـادة ديونـك؟ إنـك مَـن أخـبرت عضـوًا في عصابـة بيـكا بأنـك عـلى وشـك الحصـول عـلى أوراق رابحـة».

«لم أعـرف أنـه سـيذهب إلى بيـكا، أو أن بيـكا يعلـم بأمـر باريـم. لقـد حاولـت أن أكسـب لنفـسي بعـض الوقـت».

«يـا للقديسـين، جاسـبر؛ إنـك لم تتعلـم أي شيء في الدريجـز، أليـس كذلـك؟ لا تـزال نفـس فتـى المزرعـة الأحمـق الـذي خـرج مـن القـارب».

اندفـع جاسـبر نحـوه وشـعر كاز بموجـة عارمـة مـن العنـف والتهـور. فهـا هـي أخـيرًا معركـة يسـتطيع الانتصـار فيهـا. لكـن وقـف ماتيـاس حائـلًا بينهـما ودفـع كلاهـما إلى التراجـع بيـد ضخمـة وقـال: «توقفـا. أوقفـا هـذا».

لم يرغـب كاز في التوقـف، فقـد أراد أن يضربهـم جميعًـا ضربًـا مبرحًـا ثـم يشـق طريقـه بالقتـال عـبر باريـل.

قـال ويـلان: «إن ماتيـاس محـق. يجـب علينـا التفكـير في الخطـوة التاليـة».

قـال كاز حانقًـا: «لا توجـد خطـوة تاليـة». سـيحرص فـان إيـك عـلى عـدم وجـود تلـك الخطـوة. فلـم تعـد باسـتطاعتهم العـودة إلى سـلات

أو الحصول على المساعدة من بير هاسكيل وبقية الدريجز. سوف يراقب فان إيك وينتظر الانقضاض. سوف يحول باريل -موطن كاز ومملكته الصغيرة- إلى منطقة حرب.

قال ويلان: «ارتكب جاسبر غلطة. غلطة غبية؛ لكنه لم يقصد خيانة أي شخص».

وسار كاز مبتعدًا ليحاول تصفية ذهنه. إنه يعرف أن جاسبر لم يدرك ما سيتسبب في حدوثه، لكنه يعرف أيضًا أنه لا يستطيع مطلقًا أن يثق بجاسبر مرة أخرى. وربما لم يطلعه على أمر ويلان؛ لأنه أراد معاقبته قليلًا.

وفي غضون ساعات قليلة، عندما يفشلون في التواصل، سيأتي سبكت في قارب. الآن لا يوجد شيء إلا السماء الضبابية والصخور الميتة في هذا الشيء البائس الذي يسمى جزيرة. وغياب إيناج. لقد أراد كاز أن يضرب شخصًا ما. أو أن يضربه شخص ما.

ثم أخذ يتفحص ما تبقى من فريقه: روتي لا يزال يحوم بجوار أنقاض القارب، بينما جلس جاسبر ووضع مرفقيه على ركبتيه ودفن رأسه بين يديه، وويلان بجانبه يرتدي وجه شخص شبه غريب عنه، ووقف ماتياس يحدق عبر المياه في اتجاه سجن بوابة الجحيم كأنه تمثال لحارس. ولو كان كاز قائدهم، فإن إيناج هي المغناطيس الذي يجمعهم معًا عندما يبدو أنهم سيتفرقون عن بعضهم البعض.

لقد أخفت نينا وشم الغراب والكأس لدى كاز قبل أن يدخلوا محكمة الجليد، ولكنه لم يدعها تقترب من حرف R على عضلته العضدية الثنائية. والآن أخذت أصابعه المغلفة بالقفاز تلمس المكان الذي يغطي تلك العلامة تحت كم معطفه. لقد حرر بداخله كاز ريتفيلد دون أن يقصد. لم يعلم ما إذا كان هذا قد بدأ مع إصابة

إيناج أم تلك الرحلة المريعة في عربة السجن، لكنه سمح بحدوث هذا، وكلفه هذا كثيرًا.

وهذا لا يعني أنه نوى أن يترك نفسه عرضة للهزيمة على يد تاجر لص.

نظر جنوبًا نحو موانئ كتردام. وبدأت بوادر فكرة تتشكل في رأسه كأنها لمحة لإشارة ضئيلة. ليست خطة على الحقيقة لكنها ربما تكون مجرد بداية لخطة. واستطاع رؤية الشكل الذي ستتخذه هذه الخطة، مستحيل وغريب يتطلب مقدارًا كبيرًا من النقود.

تمتم جاسبر: «ماكر مولع بالتخطيط».

ووافق ويلان على هذا قائلًا: «بالطبع».

وعقد ماتياس ذراعيه، وقال: «هل تبحث في حقيبة حيلك أيها الشيطان؟».

ثنى كاز أصابعه داخل قفازاته. كيف نجوت في باريل؟ عندما أخذوا منك كل شيء اكتشفت طريقة لصنع شيء من لا شيء.

ثم قال: «سوف أخترع حيلة جديدة. حيلة لن ينساها فان إيك أبدًا». ثم التفت إلى الآخرين. ولو كان باستطاعته مطاردتهم بمفرده من أجل إيناج، لفعل ذلك، لكنه لا يستطيع إنقاذها وحده. فقال: «سأحتاج إلى فريق مناسب».

وقف ويلان على قدميه وقال: «من أجل الريث».

تبعه جاسبر وهو لا يزال يشيح بناظريه عن عيني كاز وقال بهدوء: «من أجل إيناج».

وأومأ ماتياس إيماءة واحدة حادة.

لقد أرادت إيناج أن يصبح كاز شخصًا آخر أو شخصًا أفضل أو حتى لصًّا أكثر لطفًا. لكن لا مكان لمثل هذا الفتى الرقيق هنا. لقد انتهى الأمر بهذا الفتى جائعًا حتى الموت في أحد الأزقة.

انتهى به الأمر على وشك أن يموت. وهذا الفتى لا يستطيع إعادتها.

فأقسم لنفسه: سوف أحصل على مالي. وسوف أحصل على فتاتي. ليس من الممكن أن تصبح إيناج فتاته على الإطلاق، لكنه سيعثر على طريقة لمنحها الحرية التي وعدها بها منذ زمن طويل.

ها هو اليد القذرة مقبل على إنجاز العمل الشاق.

-٤٦-

بيكا

وضع بيكا رولينز لفافة من اليوردا في فمه وتراجع للوراء في كرسيه لفحص الفريق رث الثياب الذي أحضره دوتي إلى مكتبه. لقد عاش رولينز فوق قصر الزمرد في جناح فخم تغطي كل بوصة فيه القطيفة الذهبية والخضراء. لقد أحب البهرجة والبريق المبهج؛ في ملابسه وأصدقائه ونسائه.

أما الأشخاص الذين يقفون أمامه، فهم صورة تخالف كل شيء أنيق. لقد ارتدوا الملابس التنكرية لفرقة كوميدي بروت لكن لا أحد يدخل مكتبه دون أن يظهر وجهه؛ لذلك خلعوا الأقنعة. وتعرف رولينز على بعضهم. وتمنى أن يوظف المتلاعبة بالتنفس نينا زينيك في وقت ما، لكنها الآن تبدو كأنها لن تعيش حتى آخر الشهر، فما هي إلا عظام بارزة وهالات سوداء ويدين مرتعشتين. ويبدو أنه تجنب استثمارًا سيئًا بها. مالت نينا على فيرداني عملاق برأس محلوق وعينين زرقاوين غاضبتين، وهو ضخم الجثة ربما كان عسكريًا سابقًا، ويتمتع بعضلات قوية من الجيد وجودها بجواره. تُرى، أين عثر كاز بريكر على هؤلاء الأشخاص؟

أما الفتى الذي يقف بجوارهم، فهو شاوي ولكنه بدا صغيرًا للغاية على أن يكون العالِم الذين يسعون جميعًا إلى وضع أيديهم عليه. وعلاوة على ذلك، فلن يحضر بريكر مثل هذه الجائزة إلى قصر الزمرد. ثم تعرف رولينز بالطبع على جاسبر فاهي: القناص الذي زادت ديونه بقدر هائل في معظم صالات القمار في إيست ستاف. فإن ثرثرة جاسبر جعلت رولينز يعرف أن بريكر سيرسل فريقًا إلى فيردا. وأثمر القليل من البحث والكثير من الرشاوى عن معرفة مكان ووقت مغادرتهم - ثم ثبت أنها معلومات مغلوطة.

لقد سبقه بريكر وسبق أسود الدايم بخطوة. فقد استطاع الجرذ الصغير الوصول إلى محكمة الجليد على أي حال.

وهذا شيء جيد أيضًا. فلولا كاز بريكر، لظل رولينز قابعًا في زنزانة في ذلك السجن الفيرداني اللعين ينتظر جولة أخرى من التعذيب، أو ربما يعلق رأسه على رأس رمح في الحائط الخارجي.

عندما فتح بريكر قفل باب الزنزانة لم يعرف رولينز ما إذا كان على وشك أن يُنقذ أم يُقتل. لقد سمع الكثير عن كاز بريكر منذ أن بدأ نجمه يصعد في عصابه الدريجز -تلك المجموعة البائسة التي يطلق عليها بير هاسكيل عصابة- ورآه في أنحاء باريل مرات قليلة. لقد ظهر هذا الفتى من العدم وأثار عددًا كبيرًا من المتاعب منذ ذلك الحين، لكنه لا يزال ملازمًا وليس جنرالًا، كلب صغير يعض في كاحل رولينز.

قال رولينز: «مرحبًا يا بريكر. هل أتيت لتشمت بي؟».

«ليس بالضبط. هل تعرفني؟».

هز رولينز كتفيه، وقال: «بالتأكيد أنت الحقير الصغير الذي يستمر في سرقة زبائني».

وفزع رولينز عندما رأى النظرة التي مرت سريعًا على وجه الفتى. إنها كراهية، بل كراهية شديدة متأججة. قال رولينز لنفسه: ما الذي فعلته لهذا الحقير؟ لكن اختفت النظرة في ثوانٍ وتساءل عما لو كان قد تخيل الأمر برمته.

«ماذا تريد يا بريكر؟».

وقف الفتى هناك وشيء كئيب وجنوني في نظرته. ثم قال: «أريد أن أسديك معروفًا».

ولاحظ رولينز أن كاز حافي القدمين يرتدي ملابس السجن ويداه مجردتان من قفازاته السوداء الأسطورية - تكلف سخيف. فقال: «يبدو أنك لست في موضع يتيح لك إسداء معروف إلى أي شخص أيها الفتى».

«سوف أترك هذا الباب مفتوحًا. وأنت لست غبيًا لدرجة أن تطارد بو يول- بايور من دون فريق يدعمك. انتظر اللحظة المناسبة واخرج».

«لماذا تساعدني؟».

«ليس مقدرًا لك أن تموت هنا».

فقال رولينز عندما أخرجه هذا الفتى من زنزانته وهو يكاد لا يصدق حظه السعيد: «أنا مدين لك يا بريكر».

نظر إليه بريكر بعينيه السوداوين الغائرتين مثل الكهف، وقال: «لا تقلق يا رولينز. سوف تسدد الدين ذات يوم».

ومن الواضح أن الفتى أتى لأخذ الثمن. فقد وقف في منتصف مكتب رولينز الفخم وهو يبدو مثل بقعة حبر، ووجهه متجهم، ويداه فوق عكازه الذي يتخذ مقبضه شكل غراب. ولم يندهش رولينز لرؤيته مطلقًا. فقد انتشرت شائعات مفادها أن عملية التبادل بين بريكر وفان إيك لم تسر على نحو جيد وأن فان إيك يضع عينيه على منزل سلات وبقية أوكار كاز بريكر. لكن لم يراقب فان إيك قصر الزمرد. فليس هناك سبب يدعوه لذلك. ولم يتأكد رولينز حتى من أن التاجر يعرف أنه استطاع العودة من فيردا حيًا.

وعندما انتهى بريكر من توضيح العناصر الأساسية للموقف، هز رولينز كتفيه وقال: «لقد خُدعت يا فتى. إن أردت نصيحتي؛ فأعط كيواي لفان إيك وأنهِ الأمر».

«لست هنا لطلب النصيحة».

«يحب التجار الضرائب التي ندفعها. إنهم يسمحون كل حين وآخر بحدوث عملية سرقة بنكية أو اقتحام منزل لكنهم يتوقعون منا البقاء هنا في باريل وتركهم يهتمون بتجارتهم. وإذا دخلت حربًا مع فان إيك، فسوف يتغير كل هذا».

«فان إيك أصبح مارقًا. لو علم مجلس التجار ——————

«ومَن سيخبرهم؟ فأر من أسوأ حي في باريل؟ لا تخدع نفسك يا بريكر. قلل خسائرك وعش لتقاتل في يوم آخر».

«أنا أقاتل كل يوم. هل تقول لي أن أبتعد فحسب؟».

«انظر؛ إذا أردت أن تطلق الرصاص على نفسك في القدم -أو بالأحرى القدم السليمة- فسوف يسعدني أن أراك وأنت تفعل هذا. لكني لن أتحالف معك. وعلى الأخص ليس ضد أحد التجار. ولن يفعل أحد ذلك. فلا تحاول إثارة حرب صغيرة بين العصابات يا بريكر. سوف تجد حراسة المدينة وجيش كيرتش والأسطول يقفون في وجهك. سوف يحرقون سلات ويجعلونه رمادًا والرجل العجوز بداخله وسوف يستعيدون الميناء الخامس أيضًا».

«أنا لا أتوقع منك أن تقاتل بجانبي يا رولينز».

«إذًا، ماذا تريد؟ أيًا كان ما تريده، سأعطيك إياه. لكن اطلب في حدود المعقول».

«أحتاج إلى توصيل رسالة إلى العاصمة الرافكانية. بسرعة».

هز رولينز كتفيه، وقال: «أمر يسير».

«وأحتاج إلى مال».

«مروع. كم؟».

«مائتي ألف كروج».

كاد رولينز يختنق من الضحك، وهو يقول: «أي شيء آخر يا بريكر؟ خاتم لانتسوف الزمردي؟ تنين يتغوط قوس قزح؟».

«لديك الكثير من المال يا رولينز. وأنا أنقذت حياتك».

«إذًا وجب عليك أن تتفاوض في تلك الزنزانة. أنا لست بنكًا يا بريكر. وحتى لو كنت كذلك، فبالنظر إلى موقفك الحالي قد أقول إنك تمثل مخاطرة ائتمانية سيئة».

«أنا لا أريد قرضًا».

«هل تريدني أن أعطيك مائتي ألف كروج؟ وما الذي سأحصل

عليـه مـن وراء هـذه اللفتـة الكريمـة؟».
قال بريكر بتصميم: «أسهمي في نادي الغراب والميناء الخامس».
اعتدل رولينز في جلسته وقال: «هل ستبيع نصيبك؟».
«نعم. ومقابل مائة ألف أخرى، سأقدم لوحة ديكابل أصلية».
تراجـع رولينـز إلى الـوراء وبـدأ يضغـط أصابعـه في يـده وقـال: «لا يكفـي كـما تعلـم. ليـس مـن أجـل شـن حـرب مـع مجلـس التجـار».
«إنها من أجل هذا الطاقم».
قـال رولينـز وهـو يشـخر: «هـذا الطاقـم؟ لا أسـتطيع أن أصـدق هـذه المجموعـة البائسـة نجحـت في الإغـارة عـلى محكمـة الجليد».
«بل صدق».
«سوف يسحقكم فان إيك».
«حـاول آخـرون ذلـك. وأنـا مسـتمر في العـودة مـن بـين المـوتى بطريقـة أو بأخـرى».
«إننـي أحـترم حماسـك أيهـا الفتـى. وأتفهمـه. فأنـت تريـد مالـك، وتريـد عـودة الشـبح، وتريـد جـزءًا مـن ثـروة فـان إيـك المخبـأة ـــــــــــــ».
قـال بريكـر بصـوت أجـش غاضـب: «كلا. عندمـا أصـل إلى فـان إيـك، لـن آخـذ حقـي فقـط. سـتصبح حياتـه صحـراء قاحلـة. سـوف أشـطب اسـمه مـن السـجلات. لـن يتبقـى منـه شيء».
لم يسـتطع بيـكا رولينـز إحصـاء التهديـدات التـي سـمعها، والرجـال الذيـن قتلهـم أو رآهـم يموتـون، لكـن ظلـت النظـرة في عينـي كاز تبعـث فيـه القشـعريرة. فهنـاك شيء غاضـب لـدى هـذا الفتـى يريـد أن يتحـرر ولم يـرد رولينـز أن يصبـح بالجـوار عندمـا ينطلـق عنـان هـذا الـشيء.
«افتح الخزانة يا دوتي».
فأخـرج رولينـز النقـود لـكاز ثـم جعلـه يوقـع عـلى طلـب نقـل ملكية أسـهمه في نـادي الغـراب ومنجـم الذهـب أو بالأحـرى الميـنـاء الخامـس. وعندمـا مـد يـده ليتصافحـا ويؤكـدا الاتفـاق، أمسـك بريكـر بيـده بقـوة

تـكاد تحطـم مفاصلـه.

وسأل الفتى: «أنت لا تتذكرني، أليس كذلك؟».

«هل يجب عليَّ ذلك؟».

«ليس بعد». ثم ظهر شيء أسود في عيني بريكر.

قـال رولينـز وهـو يرغـب في إنهـاء اللقـاء مـع هـذه المجموعـة الغريبـة: «الاتفـاق اتفـاق رغـم كل شيء».

«الاتفاق اتفاق رغم كل شيء».

وعندما ذهبوا، أخذ رولينـز ينظـر عبر زجاج نافذتـه الضخمـة التي تطـل عـلى صالـة القـمار في قـصر الزمـرد.

«نهاية مربحة غير متوقعة في هذا اليوم يا دوتي».

غمغـم دوتي تعبيرًا عـن موافقتـه وهـو ينظـر إلى سـير العمـل عـلى الطـاولات بالأسـفل - الـنرد وأوراق اللعـب وعجلـة مايكـر والـثروات التـي تكسـب وتخسر وقطعـة لذيـذة مـن كل هـذا تـأتي إلى رولينـز.

سـأل الحـارس الضخـم الجثـة: «مـاذا عـن تلـك القفـازات التـي يرتديهـا؟».

«شيء استعراضي كما أعتقد. مَن يعلم؟ مَن يهتم؟».

وشـاهد رولينـز بريكـر وفريقـه وهـم يمـرون عـبر صالـة القـمار المزدحمـة. فتحـوا الأبـواب نحـو الشـارع، وللحظـة قصـيرة ظهـرت ظلالهـم أمـام ضـوء المصبـاح وهـم يرتـدون الأقنعـة والعبـاءات، كأنهـم مجموعـة مـن الأطفـال تسـير وراء شـخص أعـرج وهـم يرتـدون أزيـاء تنكريـة. عصابـة مـن نـوع مـا. فبريكـر لـص ماكـر وقـوي بمـا فيـه الكفايـة، كـما يعتقـد بيـكا، ومبتكـر أيضًـا. لكـن عـلى خـلاف هـؤلاء الحمقـى في محكمـة الجليـد، سيسـتعد فـان إيـك لبريكـر. سـوف يدخـل الفتـى معركـة حقيقيـة. وهـو لا يملـك أي فرصـة للفـوز.

مـد رولينـز يـده نحـو سـاعته. فـلا بـد أن الوقـت قـد حـان لـكي يقـوم موزعـو الأوراق بتغيـير الورديـات، وهـو يحـب الإشراف عليهم بنفسـه.

قال متعجبًا بعد ثانية: «ابن العاهرة».

«ماذا حدث أيها الرئيس؟».

فرفع رولينز سلسلة الساعة. كانت هناك لفتة تتدلى من حلية السلسلة في المكان الذي يجب أن توجد فيه ساعته المرصعة بالألماس. «هذا اللعين الصغير ــــــــــــــــ». ثم تذكر شيئًا؛ فمد يده نحو محفظته. لقد اختفت. واختفى أيضًا دبوس ربطة العنق والقلادة المصنوعة من عملات كيرتش التي يرتديها لتجلب له الحظ والحليات الذهبية فوق حذائه. وعندئذ تساءل عما إذا كان يجب عليه أن يتأكد من وجود حشوات أسنانه.

سأل دوتي وهو لا يصدق: «هل سرق محفظتك؟».

لا أحد يخدع بيكا رولينز. لا أحد يجرؤ على ذلك. لكن بريكر فعلها، وتساءل رولينز عما إذا كانت هذه هي البداية فحسب.

قال: «دوتي، أعتقد أنه من الأفضل أن ندعو لجان فان إيك».

«هل تعتقد أن بريكر يستطيع أن يتغلب عليه؟».

«إنه احتمال بعيد، لكن إذا لم يأخذ ذلك التاجر حذره، فإنه ربما يضع المشنقة حول رقبته ويدع بريكر يقتله بها». ثم تنهد وقال: «من الأفضل أن نتمنى أن يقتل فان إيك ذلك الفتى».

«لماذا؟».

«لأنني سأضطر إلى قتله».

ثم شد عقدة ربطة العنق التي ضاع دبوسها، ونزل إلى صالة الكازينو. فمن الممكن أن تنتظر مشكلة كاز بريكر ليوم آخر. أما الآن، فهناك مال يجب كسبه.

شكر وتقدير

أنـا مصابـة بحالـة تنكسـية تسـمى نخـر العظـام. وهـي في الأسـاس تُرجـم إلى «مـوت العظـام»، والـذي يبـدو شـيئًا محزنًـا ورومانسـيًّا في الوقـت نفسـه، لكنـه يعنـي في الحقيقـة أن كل خطـوة آخذها تسـبب لي الألم وأحيانًـا أحتـاج إلى عصـا لأتـوكأ عليهـا. وليـس مـن قبيـل المصادفـة أننـي اخـترت بطـلًا يعـاني أعراضًـا شـبيهة بحالتـي، وغالبًـا مـا شـعرت بـأن كاز وأنـا نمـشي في هـذا الطريـق معًـا ونحـن نعـرج. ولم يمكـن مـن الممكـن أن نصـل إلى «النهايـة» لـولا وجـود الكثـير مـن الأشـخاص الرائعـين بجانبـي.

أتقـدم بـكل الحـب والتقديـر لفريقـي مـن المنبوذيـن ومثـيري المشـاكل: ميتـشي وراشـيل وسـارة وروبـين وجـوش وخاصـة مورجـان الـذي أعطـى لهـذا الكتـاب عنوانـه وسـاعدني عـلى إنهائـه. وأتقـدم بالكثـير مـن الشـكر إلى جيمـي الـذي اصطحبنـي مـن سـانتا باربـرا وحطـم عقـدة الكتابـة لـديَّ بروعتـه.

أدعـو اللـه أن يبـارك نـوا ويلـر لمسـاعدتي عـلى حـل هـذه الأحجيـة، وعـلى صبرهـا عندمـا أصـاب بالضيـق وأتوقـف عـن الكتابـة. وأعـرب عـن امتنـاني الشـديد لجـين فيويـل ولـورا جودويـن وجـون ياجـد ومـولي بروليـت وإليزابيـث فيثيـان وريتـش ديـس وأبريـل وورد وعـدد لا يحـصى مـن الأشـخاص في دار نـشر هـنري هولـت ودار نـشر ماكميـلان تشـيلدرن الذيـن سـاعدوني عـلى تحويـل عـالم الغريشـا إلى حقيقـة والذيـن أتاحـوا لي فرصـة الاسـتمرار في استكشـافه مـع القـراء. جوانـا فولـب رئيسـة شركـة نيـو ليـف: أنـتِ «شـجاعة ومخلصـة» يجـب وضـع ذلـك في سـيرتك المهنيـة. وأسـتطيع مواجهـة أي تحـدٍّ عندمـا أعـرف أنـك تسـاندينني. وأتقـدم بالشـكر أيضًـا إلى بويـا شـابازيان وكاثلـين

أورتيز ودانييلا بارثل وجايدا تيمبرلي وجيس دالو. وأتقدم بجزيل الشكر إلى فريق الغريشا في المملكة المتحدة: فيونا كينيدي والفريق الرائع بأوريون - خاصة نينا دوجلاس وكيلة الدعاية والإعلان الرائعة ورفيقة السفر الممتازة والشخصية الساحرة. وأتقدم بالشكر أيضًا إلى القراء وأمناء المكتبات وبائعي الكتب ومجتمعات القراءة على موقع يوتيوب والمدونين الذين يحتفون بالقصص في جميع أنحاء العالم.

تتطلب أي عملية سرقة جيدة متخصصين موهوبين، ولقد حصلت على المساعدة من أفضل المتخصصين:

قدم ستيفن كلاين خبراته القيمة في ما يتعلق بكيفية تعلم المبتدئين السحر، ووجهني إلى أعمال إريك ميد وأوبلو روبينز اللص الظريف. وبذلت أنجيلا ديبيس قصارى جهدها لمساعدتي في العثور على طريقة لإصابة غرفة مليئة بالسجناء بالإغماء لكن حبيبات الكلورو مجرد عمل تلفيقي محض. (لا تجربوا هذا في المنزل). وعرفني ريتشارد ويلر على طريقة قيام المباني الحكومية والمنشآت ذات الإجراءات الأمنية المشددة بمنع دخول الأشخاص غير المرغوب فيهم. واصطحبتني إيميلي شتاين عبر جروح السكاكين وعرفتني على التعبير الجميل «قمة القلب». وحاول ملك اللغة المصطنعة ديفيد بيترسون دفعي نحو الاتجاه الصحيح وتركني أتشبث بكلمة straat (شارع). وأشكر أيضًا هيدويج أرتس صديقتي العزيزة؛ شكرًا على مساعدتي على تشويه اللغة الألمانية بالكثير من التأني والتفكير.

أشكر أيضًا ماري لو وإيمي كوفمان وروبين لافيفرز وجيسيكا برودي وجرتشين ماكنيل على جعلي أضحك باستمرار وتحمل الكثير من الأنين والانتحاب. شكرًا لروبين وايزرمان وهولي بلاك وسارة ريس برينان وكيلي لينك وكاسندرا كلير على نصائحهم بشأن الحبكة وشراب المرجريتا وإجباري على قراءة Teen Wolf. لن أعود كما كنت أبدًا. يمكنكم لوم آنا كاري على نزيف أنف الحارس

الفـيرداني. فأرسـلوا شـكواكم إليهـا.
كـما أتقـدم بالشـكر إلى كريسـتين وسـام وإميـلي ورايـان؛ فأنـا محظوظـة للغايـة بـأن أطلـق عليكـم عائلتـي. وأشـكر عزيـزتي لولـو. شـكرًا عـلى تهدئـة حـالاتي المزاجيـة والاهتـمام بمجموعتـي الصغـيرة مـن المجرمـين.
وقـد سـاعد العديـد مـن الكتـب كـتردام وباريـل وفريقـي مـن الغربان عـلى التبلـور؛ لكـن كانـت العناويـن الأكـثر أهميـة هـي The Blackest Streets: The Life and Death of a Victorian Slum للمؤلفـة سـارة وايـز وThe Coffee Trader للمؤلـف ديفيـد ليـس وAmsterdam: A History of the World's Most Liberal City للمؤلـف راسـل شـورتو وCriminal Slang: The Vernacular of the Underworld Lingo للمؤلـف فينسـنت جيـه. مونتليـوني وThe Big Con: The Story of the Confidence Man للمؤلـف ديفيـد موريـر وStealing Rem-brandts: The Untold Stories Notorious Art Heists للمؤلـف أنتـوني إم. أمـور وتـوم ماشـبيرج.
شيء آخـر إضـافي: كانـت تجـب مراجعـة هـذا الكتـاب عـلى أصـوات فرقـة Black Keys (بـلاك كيـز) وفرقـة Clash (كلاش) وفرقـة Pixies (بيكـسي) لكنـه وُلـد في مدرسـة قديمـة جريئـة مـع تشـغيل ألبـوم In a Time Lapse في حلقـة مسـتمرة ورفرفـة وطـواط حـول الإفريـز. أتقـدم بجزيـل الشـكر إلى المؤلـف الموسـيقي لودوفيكـو إنـاودي، وبالطبـع إلى الوطـواط.

ستة من الغربان

SIX OF CROWS

أنشئت محكمة الجليد لتصبح حصنًا منيعًا يصمد أمام هجمات الجيوش والقتلة والغريشا والجواسيس. عندما قالت إيناج هذا لكاز أجاب ببساطة: "ولكنه لم يبن لمنعنا من الدخول".

كانت ثقته تثير أعصابها لذلك سألته: "ما الذي يجعلك تعتقد أننا نستطيع أن نفعل هذا؟ ستكون هناك فرق أخرى وجنود وجواسيس مدربون وأشخاص يملكون سنوات عديدة من الخبرة".

أجابها: "هذه ليست مهمة للجنود والجواسيس المدربين. إنها مهمة للمجرمين واللصوص".

"ستة من الغربان تحفة فنية تقدم حبكة رائعة وتحولات مفاجئة أثارت إعجابي من البداية إلى النهاية".

- هولي بلاك مؤلف حققت كتبه أفضل المبيعات حسب تصنيف صحيفة نيويورك تايمز

"ستة من الغربان إحدى الروايات النادرة جدًا التي تجعل العين تلتهم الصفحات التهامًا، وتدفع العقل إلى التفكير فيما سيحدث بعد ذلك".

- مايكل دانتي ديمارتينو مؤلف مشارك في تأليف مسلسل الرسوم المتحركة AVATAR: THE LAST AIRBENDER ومسلسل الرسوم المتحركة THE LEGEND OF KORRA




9 789778 201161

